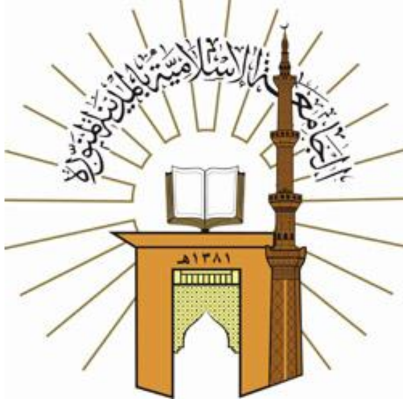
المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
(٠٣٢)
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم العقيدة



آراء المراغي الاعتقادية من خلال تفسيره

جمعا ودراسة

مشروع رسالة علمية مقدم لنيل درجة العالمية العالية "الدكتوراه".

إعداد الطالب

عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله السويد.

إشراف فضيلة الشيخ

الأستاذ الدكتور/ عبد الله بن سليمان الغفيلي.

العام الجامعي ١٤٣٥ – ١٤٣٦

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمــــة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ، أما بعد:

فإن علم التوحيد أشرف العلوم وأفضلها وأرفعها مكانة؛ إذ شرف العلم بشرف المعلوم، ولا أشرف من توحيد الله تعالى ومعرفة ما يجب له من الأسماء والصفات، وإدراك حقوقه تعالى على عباده، والالتزام بذلك علماً وعملاً، فإن بذلك تنال النجاة والفلاح، والسعادة في الدنيا والآخرة.

ومما لا يخفى على الجميع أهمية كتب التفسير لأنها متعلقة بكلام الله عز وجل، ولها الأثر الكبير في تثبيت العقيدة الصحيحة إذا كان المفسر سلك منهج أهل السنة والجماعة في تفسيره، خصوصا ما يتعلق بمسائل العقيدة التي لا مجال للخلاف فيها، أما إذا كان المفسر سلك في تفسيره مسلك أهل التأويل فإنه من الأهمية بمكان توضيح وتصحيح ما وقع منه من مخالفة مما زلت فيه قدمه من مسائل الاعتقاد.

ومن هذه التفاسير التي وقع فيها مخالفة لأهل السنة والجماعة في بعض مسائل الاعتقاد تفسير أحمد مصطفى المراغي، فكان من الواجب على طلاب العلم المتخصصين جمع ودراسة هذه المسائل على وفق منهج أهل السنة والجماعة.

ولما كان من فضل الله علي أن جعلني أحد طلاب الدراسات العليا بقسم العقيدة بكلية الدعوة وأصول الدين في الجامعة الإسلامية في مرحلة العالمية العالية (الدكتوراه)

فمن هذا المنطلق وبعد استخارة الله واستشارة مشايخي الفضلاء الذين أشاروا علي بتسجيله والكتابة فيه، فإني أقدم موضوع رسالتي لمرحلة العالمية العالية (الدكتوراه) بعنوان:

((**آراء المراغي الاعتقادية من خلال تفسيره –جمعا ودراسة–**)) لقسم العقيدة بكلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة الإسلامية.

أسباب اختيار الموضوع:

ومما دفعني لاختيار الموضوع ورغبني فيه ما يلي:

(١) شهرة الكتاب وانتشاره بين الناس مع ما فيه من المخالفات الاعتقادية.

(٢) تعلقه بتفسير كلام الله.

(٣) كثرة المواضيع الاعتقادية التي تطرق إليها في تفسيره.

(٤) تنوع المسائل في جميع أبواب الاعتقاد حيث يكون ذلك حافزاً للباحث للفقه في كثر من المسائل الاعتقادية.

الدراسات السابقة:

بعد البحث في المواقع المتخصصة في ذلك مثل مركز الملك فيصل رحمه الله، والجامعات السعودية، وموقع الجمعية السعودية لعلوم العقيدة، ومحركات البحث؛ لم أجد دراسة متخصصة تتكلم عن المسائل الاعتقادية عند المراغي.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة.

المقدمة و تشتمل على:

(أ) أهمية الموضوع.

(ب) سبب اختيار الموضوع.

(ج) الدراسات السابقة

(د) خطة البحث.

(هـ) منهج البحث.

التمهيد: منهج المراغي في العقيدة وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: ترجمة أحمد مصطفى المراغي.

المبحث الثاني: مصادر المراغي في العقيدة.

وفيه تمهيد ومبحثان:

التمهيد: تعريف الملائكة.

المبحث الأول: معنى الإيمان بالملائكة و ما يتضمنه.

المبحث الثاني: المفاضلة بين الملائكة و عصمتهم.

الفصل الثاني: آراء المراغي الاعتقادية في الإيمان بالكتب.

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

التمهيد: تعريف الكتب.

المبحث الأول: معنى الإيمان بالكتب وما يتضمنه.

المبحث الثاني: نزول القرآن.

المبحث الثالث: إعجاز القرآن.

الفصل الثالث: آراء المراغي الاعتقادية في الإيمان بالرسل.

وفيه تمهيد و ثلاثة مباحث:

التمهيد: تعريف النبي والرسول والفرق بينهما.

المبحث الأول: آراء المراغي الاعتقادية في الإيمان بالأنبياء والرسل عمومًا.

المبحث الثاني: آراء المراغي الاعتقادية في الإيمان بنبينا محمد ﷺ.

المبحث الثالث: آراء المراغي الاعتقادية في ما يتعلق في الأنبياء والرسل.

الفصل الرابع: آراء المراغي الاعتقادية في الإيمان باليوم الآخر.

وفيه تمهيد، وثلاثة مباحث.

التمهيد: تعريف اليوم الآخر.

المبحث الأول: آراء المراغي الاعتقادية في الحياة البرزخية.

المبحث الثاني: آراء المراغي الاعتقادية في أشراط الساعة.

المبحث الثالث: آراء المراغي الاعتقادية في الحياة الآخرة.

الفصل الخامس: آراء المراغي الاعتقادية في القضاء و القدر.

وفيه تمهيد ومبحثان

التمهيد: تعريف القضاء والقدر، والفرق بينهما.

المبحث الأول: معنى الإيمان بالقضاء والقدر وما يتضمنه.

المبحث الثاني: آراء المراغي الاعتقادية في أفعال العباد.

الباب الثالث: آراء المراغي الاعتقادية في الصحابة ومسائل الأسماء والأحكام، وفيه فصلان:

الفصل الأول: آراء المراغي الاعتقادية في الصحابة.

الفصل الثاني: آراء المراغي الاعتقادية في مسائل الأسماء والأحكام.

وفيه تمهيد، ومبحثان:

التمهيد: تعريف مسائل الأسماء والأحكام وبيان أهميتها.

المبحث الأول: آراء المراغي الاعتقادية في الإسلام والإيمان.

المبحث الثاني: آراء المراغي الاعتقادية في الكفر والتكفير.

الخاتمة: وفيها أهم نتائج البحث وتوصياته.

الفهارس:

١- فهرس الآيات القرآنية

٢- فهرس الأحاديث النبوية.

٣- فهرس الآثار.

٤- فهرس الفرق و الطوائف.

٥- فهرس الأعلام.

٦- فهرس المصادر والمراجع.

٧- فهرس الموضوعات.

منهج البحث:

(١) حصر المسائل الاعتقادية بعد القراءة الفاحصة لتفسير المراغي.

(٢) ترتيب تلك المسائل على أبواب العقيدة ومباحثها وفق الخطة المقدمة للقسم.

(٣) ذكر رأي المراغي في المسألة.

(٤) بعد ذكر رأي المراغي في المسألة فلا يخلو من أمرين.

(أ) إن كانت المسألة مما وافق فيها السلف ذكرت ما يدل على ذلك من كلامهم باختصار.

(ب) إن كانت المسألة مما خالف فيها السلف ذكرت ما يدل على ذلك مع مناقشته وبيان الحق في ذلك.

(ج)التعليق العلمي على المسائل التي تحتاج على تعليق.

(٥) عزو الآيات القرآنية إلى سورها مع بيان أرقامها وكتابتها بالرسم العثماني.

(٦) عزو الأحاديث النبوية، فإن كان الحديث في الصحيحين أو في أحدهما فإنني أكتفي بالعزو إليهما أو احدهما، وإن لم يكن فيهما أو في احدهما فإنني أقوم بعزوه إلى مصادره من كتب الحديث المعتمدة مع ذكر كلام أهل العلم في بيان درجته.

(٧) عزو الآثار إلى مصادرها.

(٨) شرح الكلمات الغريبة و المصطلحات العلمية.

(٩)التعريف الموجز بالأماكن والبلدان والفرق والطوائف وكل ما يحتاج إلى تعريف.

(١٠) الترجمة الموجزة للأعلام غير المشهورين.

(١١) الالتزام بعلامات الترقيم وضبط ما يحتاج إلى ضبط.

(١٢) وضع فهارس علمية في آخر الكتاب على النحو المبين في الخطة.

أسأل الله أن يوفقني لكل خير وأن يلهمني الصواب، وأن يجعل هذا العمل مباركاَ وخالصا لوجهه الكريم، إنه ولي ذلك والقادر عليه وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

شكر وتقدير

نحمد الله على نعمه، ونشكره جزيل الشكر، فله الحمدُ والشكرُ على تمام العمل، وأصلِّي وأسلِّم على خاتم الرسل، ثم أُثنِّي بالشكر والدعاء للوالدين على حُسْنِ التربية والتعليم؛ فحفظ الله الوالد وغفر للوالدة.

وأتقدَّمُ بالثناء والشكر إلى كل مشائخي الذين تلقيت عليهم العلوم غفر الله للأموات وبارك في الأحياء.

وأخصُّ بالذكر والتقدير شيخيَ الفاضلَ صاحبَ الفضل الشيخ الدكتور: عبدُ الله بنُ سليمان الغفيلي –حفظه الله– الذي ضحَّى من أجلي، وتابعَ عَمَلِي حتى اكتمل على هذا الوجه؛ فله جزيلُ الشكر والثناء وبارك الله في عمره وعمله وولده.

والشكرُ موصولٌ للجامعة الإسلامية ممثَّلةً بكليَّة الدَّعوة وأصول الدين قسم العقيدة.

وأزُفُّ الشُّكرَ مسبَّقًا لصاحِبَيِ الفضيلةِ مناقِشَيْ هذه الرسالة فأسأل الله لهم السداد والتوفيق، والبركة في ملاحظاتهم.

وفي نهاية المطاف أهدي خالص الوُدِّ وعاطر الثناء لزوجتي التي ضحت من أجلي، ووقفَتْ معي في مشروعي حتى اكتماله، ولا أنسى أبنائي وبناتي، فلهم جزيل الشكر والتقدير.

وأخيرًا نحمد الله ونشكرُه على إتمام العمل، ونصلي ونسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد: منهج المراغي في العقيدة.

وفيه ثلاث مباحث:

المبحث الأول: ترجمة أحمد مصطفى المراغي.

المبحث الثاني: مصادر المراغي في العقيدة.

المبحث الثالث: منهج المراغي في تقرير العقيدة وطرق الاستدلال.

المبحث الأول: ترجمة أحمد مصطفى المراغي*

المراغي رحمه الله ترجم لنفسه في كتابه تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها[١]، فقال في تعريف نفسه:

أولا: اسمه ونسبه:

هو أحمد بن مصطفى بن محمد بن عبد المنعم القاضي.

ثانيا: مولده ونشأته:

ولد ببلدة المراغة من أعمال مديرية جرجا بصعيد مصر سنة ألف وثلاثمائة هجرية، من أسرة عريقة في خدمة العلم والقضاء، توارث القضاء فيها خلف عن سلف، ومن قبل هذا تلقب بأسرة القاضي.

ثالثا: تعلمه وتعليمه:

ولما شبَّ وترعرع دخل مكتب القرية وحفظ الكتاب الكريم وجوده، ثم رحل إلى الأزهر يطلب فيه العلم سنة ١٣١٤هـ، وحفظ كثيراً من المتون المتداولة في تلكم الحقبة، وتلقى العلم على جلة من العلماء والمشايخ، ومنهم:

١- الأستاذ الإمام محمد عبده[٢].

٢- محمد بخيت الحنفي المطيعي[٣].

---

* تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها لأحمد مصطفى المراغي، ط١، ١٣٦٩هـ، الناشر مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، والفتح المبين في طبقات الأصوليين، عبد الله المراغي، ط٢، ١٣٩٤، الناشر محمد أمين، لبنان، (٢٠٢/٣)، والأعلام للزركلي، خير الدين بن محمود الزركلي، دار العلم للملايين، ط١٥، (٢٥٨/١).

(٢) هو: محمد عبده بن حسن خير الله من آل التركماني مفتي الديار المصرية، ومن كبار رجال الإصلاح والتجديد في الإسلام، ولد في شنرا من قرى الغربية بمصر، ونشأ في محلة نصر بالبحيرة وتعلم بالجامع الأحمدي بطنطا ثم الأزهر، وقد تقلب في شتى الشئون والوظائف والبلدان، من مؤلفاته الاسلام والنصرانية ورسالة التوحيد، وغيرها وهي كثيرة متداولة. انظر: الأعلام(٢٥٢/٦).

(٣) محمد بخيت بن حسين المطيعي الحنفي: مفتي الديار المصرية، ومن كبار فقهائها. ولد في بلدة (المطيعة) من أعمال أسيوط. وتعلم في الأزهر، واشتغل بالتدريس فيه. وانتقل إلى القضاء الشرعي سنة ١٢٩٧هـ، عين مفتيا للديار المصرية سنة ١٣٣٣-١٣٣٩هـ (١٩١٤-١٩٢١ م)، ولزم بيته يفتي ويفيد إلى أن توفي بالقاهرة، له كتب، منها: إرشاد الأمة إلى أحكام أهل الذمة، وأحسن الكلام فيما يتعلق بالسنة والبدع من الأحكام وغيرها. توفي سنة ١٣٥٤هـ. انظر: الأعلام(٥٠/٦).

٣ - محمد حسنين العدوي(١).

٤- أحمد الرفاعي الفيومي(٢).

في جماعة آخرين، ثم اتجهت عزيمته إلى دخول دار العلوم، وكان قد شارف النهاية في الدراسة الأزهرية، فانتظم في سلك طلبتها حتى تخرج فيها سنة ١٣٢٦هـ، وتولى التدريس بالمدارس الأميرية، ثم عين ناظراً لمدرسة المعلمين بالفيوم، ثم تولى التدريس بكلية غردون في السودان أستاذاً للشريعة الإسلامية واللغة العربية، ثم رجع إلى مصر أستاذاً للغة العربية والشريعة الإسلامية بمدرسة دار العلوم، واستمر بها طويلا، وقد ندب لإقراء علوم البلاغة في كلية اللغة العربية (شعبة البلاغة والأدب) بالأزهر الشريف، وتخرج على يديه من تفخر بهم المعاهد الدينية من علماء التخصص، وهم زهرة شبابها الناهض والقائمون بأعباء التدريس بها في مختلف الفنون.

رابعًا: آثاره العلمية:

له الكثير من المؤلفات التي رزقت حظًّا من الشهرة، وانتفع بها الجم الغفير من الطلاب في معاهد العلم المختلفة، ومن ذلك:

١- كتاب (علوم البلاغة).

٢- كتاب (هداية الطالب) وهو جزءان، أحدهما في النحو والتصريف، والثاني في علوم البلاغة الثلاثة، وقد وضع المراغي فيه منهج الدراسة للمدارس الثانوية.

٣- كتاب (مرشد الطلاب) في علوم البلاغة وضعه متبعًا فيه الطريق الاستنتاجية، ولم يطبع بعد.

---

(١) محمد حسنين بن محمّد مَخْلُوف العَدَوي المالكي، أول من بدأ في إنشاء مكتبة الأزهر وتنظيمها، فقيه عارف بالتفسير والأدب، مصري. ولد في قرية (بني عدي) من أعمال منفلوط، وتخرج بالأزهر سنة ١٣٠٥هـ ودرَّس فيه، ثم كان من أعضاء مجلس إدارته، فأنشأ مكتبته ونظمها، وعين شيخا للجامع الأحمدي، فمديرا عاما للمعاهد الدينية ووكيلا للأزهر، له كتب منها: المدخل المنير في مقدمة علم التفسير، وبلوغ السول في مدخل أصول الفقه، توفي سنة ١٣٥٥هـ. انظر: الأعلام(٦/٩٦).

(٢)أحمد بن محجوب الفيّومي الرفاعيّ الأزهري: فقيه مالكي من النحاة، ولد بإحدى قرى الفيوم ونشأ بالقاهرة وجاور بالأزهر، ثم كان مدرسا فيه ٥٣ سنة. ومن تلاميذه الشيخ محمد عبده والشيخ محمد بخيت وكثيرون، له حاشية على شرح بحرق اليمني على لامية الأفعال لابن مالك في الصرف، وتوفي سنة١٣٢٥هـ. انظر: الأعلام(١/٢٠٢).

٤- كتاب (تهذيب التوضيح) جزءان أحدهما في النحو، والثاني في التصريف وهو يدرس بالأزهر.

٥- كتاب (بحوث وآراء) في فنون البلاغة.

٦- كتاب (تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها).

٧- كتاب(الديانة والأخلاق).

٨- كتاب (الموجز في الادب العربي).

٩ - كتاب (الموجز في الأصول).

١٠- رسالة (في مصطلح الحديث).

١١ - رسالة (في شرح ثلاثين حديثاً مختارة).

١٢- رسالة في تفسير جزء (إنما السبيل).

١٣- رسالة في (زوجات النبي ﷺ).

١٤ - رسالة في (الحسبة في الإسلام).

١٥ - رسالة في (الرفق بالحيوان في الإسلام).

١٦ - كتاب (المطالعة العربية للمدارس السودانية).

١٧ - رسالة في (إثبات رؤية الهلال في رمضان).

١٨- رسالة في (الخطب والخطباء في الدولتين: الأموية والعباسية).

١٩ - تعليقات على (أسرار البلاغة) لعبد القاهر الجرجاني.

٢٠ - تعليقات على (دلائل الإعجاز) له أيضاً.

١٢ - تفسير (القران الكريم) المسمى (تفسير المراغي) وضعه في ثلاثين جزءاً، لكل جزء من القران جزء من التفسير، نهج فيه نهجاً جديداً في الوضع والترتيب وحسن الشرح والبيان، ونفي الزائف من القصص وما لا سند له عن الأئمة، وقد تقبلته الأمة بالقبول، فجزاه الله عن الدين وأهله خير الجزاء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه اأجمعين[١].

قال في تفسيره: "لقد سعدت بخدمتي للغة العربية نحو نصف قرن درسًا وتدريسًا، وتأليفًا وتصنيفًا، أتتبع أساليبها في آي القرآن الحكيم، وحديث رسول الله ﷺ، والشعر والنثر، حتى

(١) تاريخ علوم البلاغة لأحمد المراغي ص(٢١٩-٢٢٠).

وجدتني كلِفًا، بأن أتوِّج خدمتي لهذه اللغة بتفسير آي الذكر الحكيم مع تسميته «تفسير المراغي».

وقصاراي أن أسير في قافلة الحاملين لمشعل المعرفة الإسلامية، مؤديا بعض ما يجب عليَّ نحو الكتاب الكريم من الكشف عن بعض أسراره ومغازيه"[1].

خامسا: وفاته:

توفي المراغي رحمه الله في مصر سنة ١٣٧١ من الهجرة.

(١) تفسير المراغي(١/١٧).

المبحث الثاني: مصادر المراغي في العقيدة

تبين لي من خلال قراءتي لتفسير المراغي رحمه الله أنَّ المصادر التي ينص على أنها مصدر لتلقي الشريعة هي الكتاب والسنة والإجماع.

قال رحمه الله معلقا على سورة الفاتحة: "بيان هذا أن القرآن الكريم اشتمل على التوحيد، وعلى وعد من أخذ به بحسن المثوبة ووعيد من تجافى عنه وتركه بسيء العقوبة، وعلى العبادة التي تحيي التوحيد في القلوب وتثبته في النفوس، وعلى بيان سبيل السعادة الموصل إلى نعيم الدنيا والآخرة، وعلى القصص الحاوي أخبار المهتدين الذين وقفوا عند الحدود التي سنها الله لعباده، وفيها سعادتهم في دنياهم وآخرتهم، والضالين الذين تعدّوا الحدود، ونبذوا أحكام الشرائع وراءهم ظهريا[١].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٢] فقال: "وتربية الله للناس نوعان، تربية خلقية تكون بتنمية أجسامهم حتى تبلغ الأشد وتنمية قواهم النفسية والعقلية، وتربية دينية تهذيبية تكون بما يوحيه إلى أفراد منهم ليبلّغوا للناس ما به تكمل عقولهم وتصفو نفوسهم، وليس لغيره أن يشرع للناس عبادة ولا أن يحلّ شيئا ويحرم آخر إلا بإذن منه"[٣].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾[٤] فقال: "لاقتران نظرياتها الاعتقادية بأدلتها، وأحكامها العملية بوجوه منافعها، فلا تحتاج إلى دليل آخر يوضحها، فهي كالنور يظهر الأشياء وهو ظاهر بنفسه لا يحتاج إلى ما يظهره[٥].

وأوضح بعد قوله تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا ﴾[٦] "أي ولأتمّ نعمتي عليكم باستيلائكم على البيت الذي جعلته قبلة لكم، وتطهيركم له من عبادة الأصنام، كما أتمها عليكم بإرسال رسول منكم وهو محمد ﷺ، فالقبلة في بلادكم، والرسول من أمتكم،

---

(١) تفسير المراغي (٢٥/١).

(٢) سورة الفاتحة: الآية (٢).

(٣) تفسير المراغي (٣٢/١).

(٤) سورة البقرة: الآية (٩٩).

(٥) تفسير المراغي (١٤٩/١).

(٦) سورة البقرة: الآية (١٥١).

وهو يتلو عليكم آياتنا التي ترشدكم إلى الحق، وتهديكم إلى سبيل الرشاد، وهي تشمل آيات الكتاب الكريم وغيرها من الدلائل والبراهين التي تدل على وحدانية الله وعظيم قدرته، وبديع تصرفه في السموات والأرض"(١).

ثم قال عن السنة: "ذاك أن سنة الرسول العملية وسيرته ﷺ في بيته، ومع أصحابه في السلم والحرب، والسفر والإقامة، في القلة والكثرة، جاءت مفصلة لمجمل القرآن، مبيّنة لمبهمه، كاشفة لما في أحكامه من الأسرار والمنافع.

ولولا هذا الإرشاد العملي لما كان البيان القولي كافيا في انتقال الأمة العربية من طور الشتات والفرقة والعداء، والجهل إلى الائتلاف والاتحاد، والتآخي والعلم، وسياسة الأمم.

فالنبي ﷺ وقف أصحابه على فقه الدين، ونفذ بهم إلى سرّه، فكانوا حكماء علماء عدولا أذكياء، حتى إن أحدهم كان يحكم المملكة العظيمة ويقيم فيها العدل ويحسن السياسة، وهو لم يحفظ من القرآن إلا بعضه، لكنه فقهه وعرف أسرار أحكامه. وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾(٢) أي ويعلمكم مع الكتاب والحكمة ما ليس مصدر علمه النظر والفكر، بل طريق معرفته الوحى كأخبار عالم الغيب وسير الأنبياء وأحوال الأمم التي كانت مجهولة عندكم"(٣)

وذكر بعد قول الحق جل وعلا: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾(٤) فقال: "والإيمان بالكتب السماوية التي جاء بها الأنبياء يستدعي امتثال ما فيها من أوامر ونواه، إذ من أيقن أن هذا الشيء حسن نافع توجهت نفسه لعمله، ومن اعتقد أنه ضار ابتعد عنه ونفرت نفسه منه.

والإيمان بالنبيين يستدعي الاهتداء بهديهم والتخلق بأخلاقهم والتأدب بآدابهم. وقد ران الجهل على قلوب كثير من الناس فظنوا أن صياحهم بالأدعية والصلاة على الرسول ﷺ بمثل ما في كتاب دلائل الخيرات(٥) والمدائح الشعرية، مع الجهل بأخلاقه الشريفة، وسيرته

---

(١) تفسير المراغي(١٨/٢).

(٢) سورة البقرة الآية (١٥١).

(٣) تفسير المراغي (٢٠٣/١-٢٠٥).

(٤) سورة البقرة الآية (١٧٧).

(٥) المؤلف هو: محمد بن سليمان الجزولي المتوفى سنة ٨٧٠هـ، والكتاب عبارة عن أذكار وصلوات واسماء تتعلق بالنبي ﷺ كثير منها لا دليل عليها من الكتاب والسنة، وقد سئلت لجنة الافتاء برياسة الشيخ عبد العزيز بن باز وعضوية كل من

الكاملة، والتأسي به إذا دعوا إلى ذلك أو نهوا عن البدع في دينه، والزيادة في شريعته، فيها غناء لهم أيّما غناء، وقد ضلوا ضلالا بعيدا.

فقد جاء في الصحيحين «أن جماعة من أمته ﷺ يردون الحوض يوم القيامة فيذادون عنه (يطردون دونه) فيقول أمتي فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فيقول: سحقا لمن بدّل بعدي»(١).

ثم قال: "وترك الاهتداء بالكتاب والسنة يضعف من قوتها، حتى سبقتها الأمم كلها في ميادين الكفاح"(٢).

ثم قال أيضا: "وقال بعض العلماء: من عمل بهذه الآية فقد كمل إيمانه، ونال أقصى مراتب إيقانه"(٣).

وذكر المراغي رحمه الله حديث عدي ليدلل على أن التشريع مصدره الكتاب والسنة فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾(٤): "روى عدي بن حاتم قال: «أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال يا عديّ اطرح عنك هذا الوثن، وسمعته يقرأ في سورة براءة: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾(٥) فقلت له: يا رسول الله لم يكونوا يعبدونهم، فقال: أما كانوا يحللون لكم ويحرّمون، فتأخذون بأقوالهم؟ قال نعم، فقال عليه السلام: هو ذاك»(٦).

عبدالله بن قعود وغيره عن كتاب دلائل الخيرات فقالت: ننصحك بتركه؛ لما يشتمل عليه من الأمور المبتدعة والشركية، وفي الوارد في القرآن والسنة غنية عنه. فتاوى اللجنة الدائمة المجموعة الأولى(٢/٣٢١).

(١) صحيح البخاري، الجامع الصحيح لمحمد بن إسماعيل البخاري (ت: ٢٥٦هـ)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ، كتاب الفتن، باب ما جاء في قول الله تعالى: {واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة} وما كان النبي ﷺ يحذر من الفتن (٩/٤٦) الحديث رقم(٧٠٥٠).

(٢) تفسير المراغي(٢/٥٩).

(٣) المصدر السابق(٢/٥٩).

(٤) سورة آل عمران الآية (٦٤).

(٥) سورة التوبة الآية (٣١).

(٦) أخرجه الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة (٥/٢٧٨)، رقم الحديث(٣٠٩٥)، والطبراني في الكبير(١٧/٩٢)، وابن جرير في تفسيره(١٤/٢٠٩-٢١١)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة(٧/٨٦١)، رقم

ثم قال: وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾[1] أي فإن أعرضوا عن هذه الدعوة وأبوا إلا أن يعبدوا غير الله، واتخذوا الشركاء والوسطاء والأرباب الذين يحللون ويحرّمون، فقولوا لهم إنا منقادون لله مخلصون له لا نعبد أحدا سواه، ولا نتوجه إلى غيره نطلب منه النفع أو دفع الضر، ولا نحلّ إلا ما أحله الله، ولا نحرّم إلا ما حرمه الله.

وفي هذا حجة على أن مسائل الدين كالعبادات والتحريم والتحليل لا يؤخذ فيها إلا بقول النبي المعصوم لا بقول إمام مجتهد ولا فقيه قدير، وإلا كان ذلك إشراكا في الربوبية، وخروجا من هداية القرآن التي دل عليها مثل قوله: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾[2]، وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ﴾[3]"[4].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾[5]: "أي أطيعوا الله واعملوا بكتابه، وأطيعوا الرسول لأنه يبين للناس ما نزل إليهم، فقد جرت سنة الله بأن يبلغ عنه شرعه رسل منهم تكفل بعصمتهم وأوجب علينا طاعتهم...

ثم قال: ومما تقدم تعلم أن الآية مبينة لأصول الدين في الحكومة الإسلامية، وهي:

١) الأصل الأول: القرآن الكريم، والعمل به هو طاعة الله تعالى.

٢) الأصل الثاني: سنة رسوله ﷺ، والعمل به طاعة الرسول ﷺ.

٣) الأصل الثالث: إجماع أولي الأمر وهم أهل الحل والعقد...

٤) الأصل الرابع: عرض المسائل المتنازع فيها على القواعد والأحكام العامة المعلومة في الكتاب والسنة، وذلك قوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[6] فهذه الأربعة الأصول هي

الحديث(٣٢٩٣)، وأما الجملة الأخيرة وهي "يا عدي ما تقول..." فأخرجها الطيالسي في مسنده (٣٧١/٢) رقم الحديث(١١٣٥)، وابن خزيمة في التوحيد(٣٨١/١).

(١) سورة آل عمران الآية (٦٤).

(٢) سورة الشورى الآية (٢١).

(٣) سورة النحل الآية (١١٦).

(٤) تفسير المراغي(٥٢١/١).

(٥) سورة النساء الآية (٥٩).

(٦) سورة النساء الآية (٥٩).

مصادر الشريعة، ولا بد من وجود جماعة يقومون بعرض المسائل المتنازع فيها على الكتاب والسنة ممن يختارهم أولو الأمر من علماء هذا الشأن...

وفي هذا دليل على أن من لا يقدم اتباع الكتاب والسنة على أهوائه وحظوظه فإنه لا يكون مؤمنا حقا"(١).

وذكر رحمه الله في خلاصة ما اشتملت عليه سورة الأنعام فقال: "ومن ذلك أن التحليل والتحريم وسائر الشعائر التعبدية من حق الله تعالى، فمن وضع حكما لا يستند إلى شرع الله فقد افترى إثما عظيما"(٢).

وقال بعد قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾(٣): "أي إنكم تتذكرون قليلا لا كثيرا ما يجب أن يعلم للرب سبحانه، وما يحظر أن يشرك معه فيه غيره، وقد يكون المراد قليلا ما تتعظون بما توعظون به، فترجعون عن تقاليدكم وأهوائكم إلى ما أنزل إليكم من ربكم.

وفي هذا إيماء إلى النهي عن طاعة الخلق في أمر الدين غير ما أنزل الله من وحيه، كما فعل أهل الكتاب في طاعة أحبارهم ورهبانهم فيما أحلوا لهم وزادوا على الوحي من العبادات، وما حرموا عليهم من المباحات كما جاء في قوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾(٤) فكل من أطاع أحدا في حكم شرعي لم ينزله الله فقد اتخذه ربا.

واتباع الرسول ﷺ فيما صح عنه من بيان الدين داخل في عموم ما أنزل إلينا على رسوله، لأنه تعالى أمرنا باتباعه وطاعته وأخبرنا أنه مبين لما نزل إليه كما قال: ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ ﴾(٥) وقد صح في الحديث أنه ﷺ قال: «إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر»(٦) رواه مسلم عن رافع بن خديج في مسألة تأبير النخل (تلقيح النخلة بطلع الذكر)"(١).

---

(١) تفسير المراغي(٢/٢٤٣-٢٤٥).

(٢) تفسير المراغي(٣/٢٥٦).

(٣) سورة الأعراف الآية (٣).

(٤) سورة التوبة الآية (٣١).

(٥) سورة النحل الآية (٤٤).

(٦) صحيح مسلم، المسند الصحيح، لمسلم بن الحجاج القشيري (ت: ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار

وقال: "أصول الإيمان لا تقبل إلا بوحي من الله يؤيده البرهان كما قال: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ﴾ [2] كما أن فيه إرشادا إلى عظم شأن الدليل والبرهان في الدين، حتى كأنّ من جاء بالبرهان على الشرك يصدق، وهذا من فرض المحال مبالغة في فضل الاستدلال كما قال: ﴿ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [3]" [4].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [5] فقال: "أي ونزلنا عليك أيها الرسول هذا القرآن تبيانا لكل ما بالناس إليه حاجة من معرفة الحلال والحرام والثواب والعقاب، وهدى من الضلالة، رحمة لمن صدق به، وعمل بما فيه من حدود الله وأمره ونهيه، فأحل حلاله وحرم حرامه، وبشرى لمن أطاع الله وأناب إليه، بجزيل الثواب في الآخرة وعظيم الكرامة...

ثم قال: وتبيان القرآن لأمور الدين إما مباشرة وإما ببيان الرسول، وقد أمرنا سبحانه باتباع هذا البيان في قوله: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ ﴾ [6]، وقوله: ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [7] ولقوله ﷺ: «إني أوتيت القرآن ومثله معه» [8]، وإما ببيان الصحابة والعلماء المجتهدين له، وقد قال النبي ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، عضّوا عليها بالنواجذ» [9]" [1].

إحياء التراث العربي بيروت، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعا، دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا، على سبيل الرأي (١٨٣٥/٤) الحديث رقم(٢٣٦٢).

(١) تفسير المراغي (٢٦٠/٣).

(٢) سورة المؤمنون الآية (١١٧).

(٣) سورة النمل الآية (٦٤).

(٤) تفسير المراغي (٢٩٣/٣).

(٥) سورة النحل الآية (٨٩).

(٦) سورة الحشر الآية (٧).

(٧) سورة النحل الآية (٤٤).

(٨) أخرجه أحمد في المسند(٤١٠/٢٨) الحديث رقم(١٧١٧٤)، وأبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في لزوم السنة (٢٠٠/٤) الحديث رقم(٤٦٠٤)، وصححه الشيخ عبد العزيز بن باز في الفتاوى(٥٨/٢٥)، وصححه اللباني في المشكاة برقم(١٦٣).

(٩) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب في لزوم السنة، (١٣/٥-١٥) الحديث رقم(٤٦٠٧)، والترمذي في سننه، أبواب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع (٤٤/٥) الحديث رقم(٢٦٧٦)، وقال: هذا حديث صحيح،

وقال رحمه الله: "واعلم أن معرفة الله تعالى لا تحصل على الوجه الصحيح إلا بتعميم الوحي"[٢].

وقال: "إن التحليل والتحريم وسائر الشعائر التعبدية من حق الله تعالى، فمن وضع حكما لا يستند إلى شرع الله فقد افترى إثما عظيما"[٣].

يتضح من كلام المراغي رحمه الله السابق أن مصادره في تلقي العقيدة الكتاب والسنة والإجماع، لكنه في بعض المسائل لم يلتزم بذلك فوقع في المخالفة لهذه المصادر، مثل تأويل بعض الصفات مخالفًا لمذهب أهل السنة والجماعة كما سيأتي في موضوعه من الرسالة.

فالكتاب والسنة والإجماع مما اتفقت الأمة على وجوب الأخذ بهما لشمولهما لجميع أحكام الدين، ومن ذلك ما يتعلق بأمور العقيدة.

فالقرآن العظيم أعظم كتاب وأصدق كتاب يجب أن نأخذ منه تعاليم العقيدة والأحكام والأخلاق، حيث قال الله تعالى في وصفه: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[٤].

وقال الله عز وجل فيه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾[٥].

وقال عز من قائل: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾[٦].

وقال فيه سبحانه وتعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[٧].

وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم(٢٧٣٥).

(١) تفسير المراغي(٥/٢٤٦-٢٤٧).

(٢) المصدر السابق(٣/١٤٩).

(٣) المصدر السابق(٣/٢٥٦).

(٤) سورة فصلت الآية (٤٢).

(٥) سورة الإسراء الآية (٩).

(٦) سورة فصلت الآية (٤٤).

(٧) سورة ص الآية (٢٩).

وقال فيه جل وعلا: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١)

وقال فيه سبحانه وتعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٢) والآيات الواردة في هذا المعنى كثيرة.

وأما دلالة وجوب اتباع السنة فمن ذلك قول الله: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (٤).

وقوله جل وعلا: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٥).

ومن السنة قوله ﷺ في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى» (٦).

وكذلك حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ الله، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى الله، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي» (٧).

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٥٥).

(٢) سورة النحل الآية (٨٩).

(٣) سورة الحشر الآية (٧).

(٤) سورة النساء الآية (٥٩).

(٥) سورة النور الآية (٦٣).

(٦) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (٩٢/٩) الحديث رقم(٧٢٨٠).

(٧) أخرجه البخاري، كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى: {وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم} (٦١/٩) الحديث رقم(٧١٣٧)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية (١٤٦٦/٣) الحديث رقم(١٨٣٥).

وأما دلالة الإجماع؛ فقول الله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾[(١)].

فهذه الأدلة وغيرها دالة على أن الدين قائمٌ على اتباع الكتاب والسنة والإجماع، وأن الذين تلقوا عقائدهم من غير هذه المصادر وقعوا في الابتداع في الدين، هذا ما قرره أهل العلم؛ حيث قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله: "فدين المسلمين مبني على اتباع كتاب الله وسنة رسوله وما اتفقت عليه الأمة، فهذه الثلاثة هي أصول معصومة، وما تنازعت فيه الأمة ردوه إلى الله والرسول، وليس لأحد أن ينصب للأمة شخصاً يدعو إلى طريقته، ويوالي عليها ويعادي غير النبي ﷺ وما اجتمعت عليه الأمة، بل هذا من فعل أهل البدع الذين ينصبون لهم شخصاً أو كلاماً يفرقون به بين الأمة، يوالون علي ذلك الكلام أو تلك النسبة ويعادون"[(٢)].

وقال أيضا: "فَصْلٌ: ثمَّ مِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: اتِّبَاعُ آثَارِ رَسُولِ الله ﷺ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَاتِّبَاعُ سَبِيلِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَاتِّبَاعُ وَصِيَّةِ رَسُولِ الله ﷺ حَيْثُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[(٣)]، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ أَصْدَقَ الْكَلَامِ كَلَامُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَيُؤْثِرُونَ كَلَامَ الله عَلَى كَلَامِ غَيْرِهِ مِنْ كَلَامِ أَصْنَافِ النَّاسِ، وَيُقَدِّمُونَ هَدْيَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى هَدْيِ كُلِّ أَحَدٍ، وَبِهَذَا سُمُّوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وَسُمُّوا أَهْلَ الْجَمَاعَةِ؛ لِأَنَّ الْجَمَاعَةَ هِيَ الِاجْتِمَاعُ وَضِدُّهَا الْفُرْقَةُ؛ وَإِنْ كَانَ لَفْظُ الْجَمَاعَةِ قَدْ صَارَ اسْمًا لِنَفْسِ الْقَوْمِ الْمُجْتَمِعِينَ؛ وَالْإِجْمَاعُ: هُوَ الْأَصْلُ الثَّالِثُ الَّذِي يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي الْعِلْمِ وَالدِّينِ، وَهُمْ يَزِنُونَ بِهَذِهِ الْأُصُولِ الثَّلَاثَةِ جَمِيعَ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ أَقْوَالٍ وَأَعْمَالٍ، بَاطِنَةٍ أَوْ ظَاهِرَةٍ مِمَّا لَهُ تَعَلُّقٌ بِالدِّينِ؛ وَالْإِجْمَاعُ الَّذِي يَنْضَبِطُ: هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ؛ إذْ بَعْدَهُمْ كَثُرَ الِاخْتِلَافُ وَانْتَشَرَتْ الْأُمَّةُ"[(٤)].

---

(١) سورة النساء الآية (١١٥).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٢٧٢/١).

(٣) سبق تخريجه ص(٢٠).

(٤) مجموع الفتاوى (١٥٧/٣).

المبحث الثالث: منهج المراغي في تقرير العقيدة وطرق الاستدلال

تبين لي بعد دراسة المسائل الاعتقادية عند المراغي رحمه الله أنه في تقرير مسائل العقيدة وطرق الاستدلال لم يثبت على قدم، فنجده يقرر مذهب السلف في موضوع ويخالفهم في موضوع آخر، والسبب والله أعلم عدم تخصصه في علم العقيدة، ومن أمثلة ذلك:

الموضوع الأول: خبر الآحاد.

من المواضيع التي خالف فيها مذهب السلف موقفه من الاستدلال بخبر الآحاد في مسائل الاعتقاد، فذكر المراغي رحمه الله حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن نبي الله أيوب عليه السلام لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين كانا من أخص إخوانه، به كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين، قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله تعالى فيكشف ما به، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقول، غير أن الله عز وجل يعلم أني كنت أمرّ على الرجلين يتنازعان فيذكران الله تعالى فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله تعالى إلا في حق»(١) فقال: "ولا شك أن هذا الحديث من أخبار الآحاد التي تصادم أسس الدين الصحيحة من أن الأنبياء يجب ألا يكون فيهم من الأمراض ما ينفر الناس منهم، لأن وظيفتهم تبليغ ما أرسلوا به إليهم، وكيف يجتمع الناس بهم ويتحدثون إليهم وهم في تلك الحال وهذا البلاء، ومن ثم فنحن نقف أمام هذه الأخبار موقف الحذر والاحتياط في قبولها أو نقطع بعدم صحتها لمخالفتها لقطعي لا شك فيه"(٢).

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده(٢٩٩/٦) الحديث رقم(٣٦١٧)، وابن حبان في صحيحه(١٥٧/٧) الحديث رقم(٢٨٩٨)، وأبو نعيم في الحلية (٣٧٤/٣-٣٧٥)، والحاكم في المستدرك(٦٣٥/٢) الحديث رقم(٤١١٥) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في التلخيص، وقال الهيثمي في المجمع(٢٠٨/٨): رواه أبو يعلى والبزار، ورجال البزار رجال الصحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم(١٧).

(٢) تفسير المراغي (٢٢٦/٨).

وتكلم عن قصة نبي الله عيسى عليه السلام فقال: "وحديث الرفع والنزول آخر الزمان حديث آحاد يتعلق بأمر اعتقادي، والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالدليل القاطع من قرآن أو حديث متواتر، ولا يوجد هنا واحد منهما"(١).

فالمراغي في مسألة الاستدلال بخبر الآحاد في العقيدة خالف مذهب أهل السنة والجماعة لأنهم يقبلون كل حديث صح سنده سواء كان يتعلق بباب الاعتقاد أو غيره من أبواب الدين.

وتتضح هذه المسألة بتقسيمها إلى مطلبين:

المطلب الأول: تعريف خبر الآحاد.

خبر الآحاد هو ما لم يصل إلى درجة المتواتر ولذلك قيل في تعريفه: هو: "ما لم يجمع شروط المتواتر"(٢).

وقيل: "وَخَبَرُ الْآحَادِ بِنَقْلِ عَدْلٍ تَامِّ الضَّبْطِ، مُتَّصِلِ السَّنَدِ، غَيْرِ مُعَلَّلٍ وَلَا شَاذٍّ: هُوَ الصَّحِيحُ لِذَاتِهِ"(٣).

وقيل في تعريفه: "خبر الآحاد هو كل حديث لم تتوافر فيه شروط المتواتر"(٤).

المطلب الثاني: موقف أهل السنة من خبر الآحاد

أهل السنة والجماعة يوجبون العمل بجميع النصوص الشرعية ولا يفرقون في ذلك بين الآحاد والمتواتر، وردوا على من يزعم أن التحريم لا يكون إلا بنص قطعي الدلالة؛ حيث قال ابن باز رحمه الله: "أما اشتراطه للحكم بالتحريم أن يكون النص قطعي الورود والدلالة، فهو مجرد دعوى لا دليل عليها، بل قول باطل من وجوه:

---

(١) تفسير المراغي(٥١٣/١)، وكذلك نقل عن محمد عبده في مسألة سحر النبي ﷺ فقال: "والحديث على فرض صحته من أحاديث الآحاد التي لا يؤخذ بها في العقائد" تفسير المراغي(٥١٨/١٠)، ونقل عنه في مسألة الطوفان فقال: "وما ورد من الأحاديث على فرض صحة سنده فهو آحاد لا يوجب اليقين، والمطلوب في تقرير مثل هذه الحقائق هو اليقين لا الظن إذا عدّ اعتقادها من عقائد الدين" تفسير المراغي(٣٢٢/٤).

(٢) نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح اهل الأثر للحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق: عبد الله الرحيلي، مطبعة سفير، ط١، ١٤٢٢هـ. ص(٥٥).

(٣) نزهة النظر ص(٦٧).

(٤) مجموع فتاوى ابن باز (٦٠/٢٥).

الوجه الأول: أن ذلك خلاف المعروف من سنة النبي ﷺ وسيرة أصحابه رضي الله عنهم وعمل العلماء بعدهم، فلم يزل ﷺ يبعث الواحد والاثنين وأكثر من ذلك دعاة ومبلغين للإسلام وأحكام الشريعة، ولو كان ذلك لا تقوم به الحجة لم يفعله عليه الصلاة والسلام، ولم يزل أصحابه رضي الله عنهم يعملون بخبر الآحاد ويحتجون به في العقائد والأحكام، ولا نعلم أن أحدا منهم أنكر ذلك وليس كل خبر من أخبار الآحاد يفيد القطع، فعلم بذلك أن هذا الشرط لا أصل له عندهم، والوقائع عنهم في ذلك كثيرة مشهورة؛ منها: عمل الصديق رضي الله عنه بشهادة المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة في ميراث الجدة[(١)]، وعمل عمر رضي الله عنه بشهادتهما في دية الجنين[(٢)]، وعمله بشهادة أبي موسى وأبي سعيد رضي الله عنهما في الاستئذان[(٣)]، وأمره لابنه عبد الله أن يقبل خبر سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه إذا أخبره عن الرسول ﷺ بشيء، ولا يسأل عنه غيره[(٤)]، ومنها: عمل أهل قباء بخبر الذي أخبرهم بنسخ القبلة من الشام إلى الكعبة[(٥)]... إلى غير ذلك من الوقائع الكثيرة.

وقد أجمع الصحابة رضي الله عنهم والعلماء بعدهم على العمل بحديث عمرو بن العاص وأبي هريرة رضي الله عنهما في تحريم الجمع بين المرأة وخالتها وبين المرأة وعمتها[(٦)]، وخصوا بذلك قول الله سبحانه: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾[(٧)] والأدلة في ذلك أكثر من أن تحصى.

---

(١)أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الفرائض، باب في الجدة (١٢١/٣) الحديث رقم(٢٨٩٤)، والترمذي في سننه، أبواب الفرائض، باب ما جاء في ميراث الجدة (٤١٩/٤) الحديث رقم(٢١٠٠)، وضعفه الألباني في الإرواء برقم(١٦٨٠).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الديات، باب جنين المرأة (١١/٩) الحديث رقم(٦٩٠٥-٦٩٠٦).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الآداب، باب الاستئذان (١٦٩٤/٣) الحديث رقم(٢١٥٣).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الوضوء، باب المسح على الخفين (٥١/١) الحديث رقم(٢٠٢).

(٥) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب ما جاء في القبلة، ومن لم ير الإعادة على من سها، فصلى إلى غير القبلة (٨٩/١) الحديث رقم(٤٠٣)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة (٣٧٥/١) الحديث رقم(٥٢٦).

(٦) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب لا تنكح المرأة على عمتها (١٢/٧) الحديث رقم(٥١٠٩)، ومسلم، كتاب النكاح، باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها في النكاح (١٠٢٨/٢) الحديث رقم(١٤٠٨).

(٧) سورة النساء الآية (٢٤).

الوجه الثاني: أنه يترتب على هذا الشرط إلغاء الكثير من الأحكام الشرعية الثابتة بالسنة المطهرة؛ لأن أدلتها ليست قطعية بالمعنى الذي يقصده هذا الكاتب؛ لأن القطعي من السنة عند أكثر المتأخرين هو المتواتر، أما الآحاد ليست قطعية عندهم، وهذا اللازم كاف في إبطال هذا الشرط وعدم اعتباره، فكيف وهو مخالف لجميع الأدلة الشرعية، ولما سار عليه المصطفى عليه الصلاة والسلام وأصحابه رضي الله عنهم وجميع العلماء بعدهم، كما سبق بيان ذلك في الوجه الأول.

الوجه الثالث: ما قد علم من إجماع علماء الإسلام على أنه يجب العمل بالأدلة الثابتة عن رسول الله ﷺ في جميع الأحكام من التحريم والإباحة وغيرهما[١].

ونزيد في توضيح الرد على من يرد الأحاديث الواردة في العقيدة بحجة أنها خبر آحاد وذلك من وجوه:

" ١. القول بأن حديث الآحاد لا يفيد إلا الظن ليس على إطلاقه، بل في أخبار الآحاد ما يفيد اليقين إذا دلت القرائن على صدقه، كما إذا تلقته الأمة بالقبول مثل حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه «**إنما الأعمال بالنيات**»[٢] فإنه خبر آحاد ومع ذلك فإننا نعلم أن النبي ﷺ قاله، وهذا ما حققه شيخ الإسلام ابن تيمية[٣]، والحافظ ابن حجر[٤] وغيرهما.

٢. أن النبي ﷺ يرسل الآحاد بأصول العقيدة؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإرساله حجة ملزمة، كما بعث معاذاً إلى اليمن[٥] واعتبر بعثه حجة ملزمة لأهل اليمن بقبوله.

٣. إذا قلنا بأن العقيدة لا تثبت بأخبار الآحاد أمكن أن يقال: والأحكام العملية لا تثبت بأخبار الآحاد، لأن الأحكام العملية يصحبها عقيدة أن الله تعالى أمر بهذا أو نهى عن هذا،

---

(١) مجموع فتاوى ابن باز(٢٥/٣٠٠).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١/٦) الحديث رقم(١)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية»، وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال (٣/١٥١٥) الحديث رقم(١٩٠٧).

(٣) مجموع الفتاوى(١٨/٤٩).

(٤) فتح الباري(١٣/٢٣٣).

(٥) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب مَا جَاءَ فِي دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺأُمَّتَهُ إلى تَوْحِيدِ الله تَبَارَكَ وَتعالى (٩/١١٤) رقم الحديث(٧٣٧٢) ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (١/٥٠) رقم الحديث(٣١).

وإذا قبل هذا القول تعطل كثير من أحكام الشريعة، وإذا رد هذا القول فليرد القول بأن العقيدة لا تثبت بخبر الآحاد إذ لا فرق كما بينا.

٤. أن الله تعالى أمر بالرجوع إلى قول أهل العلم لمن كان جاهلاً فيما هو من أعظم مسائل العقيدة وهي الرسالة فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ﴾[1] وهذا يشمل سؤال الواحد والمتعدد.

والحاصل أن خبر الآحاد إذا دلت القرائن على صدقه أفاد العلم وثبتت به الأحكام العملية والعلمية، ولا دليل على التفريق بينهما، ومن نسب إلى أحد من الأئمة التفريق بينهما فعلية إثبات ذلك بالسند الصحيح عنه، ثم بيان دليله المستند إليه"[2].

الموضوع الثاني: شرع من قبلنا

قال المراغي رحمه الله: "وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ له، فنحن مأمورون بالدعاء في مقام إبراهيم، كما أمر به من كان في عصره من المؤمنين"[3].

ونقل كلام ابن كثير رحمه الله عن حديث بني اسرائيل فقال: "وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم»[4].

وأخبار أهل الكتاب ثلاثة أقسام:

(١) فمنها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله.

(٢) ومنها ما علمنا كذبه بما دل الدليل على خلافه من الكتاب والسنة أيضا.

(٣) ومنها ما هو مسكوت عنه فهو المأذون في روايته، بقوله عليه السلام « حدّثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج »[5].

وهو لا يصدّق ولا يكذّب لقوله: «فلا تصدّقوهم ولا تكذبوهم»"[6].

---

(١) سورة النحل الآية (٤٣-٤٤).

(٢) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين(١/١٢).

(٣) تفسير المراغي(١/١٧٦).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا}، (٦/٢٠)، رقم الحديث(٤٤٨٥).

(٥) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، (٤/١٧٠)، رقم الحديث(٣٤٦١).

(٦) انظر: تفسير ابن كثير(٢/٣٣٦).

وذكر عند توضيح قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾[١] فقال: "وما روي في الإسرائيليات من هذا التبديل من الألفاظ العبرانية أو العربية فلا ثقة به، وإن خرّج بعضه في الصحيح والسنن موقوفا ومرفوعا كحديث أبي هريرة في الصحيحين وغيرهما: «قيل لبني إسرائيل: {ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة} فدخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا: (حِطَّةٌ) حبة في شعيرة»[٢]، إذ هو مروي من طريق همّام بن منبّه أخي وهب وهما صاحبا الغرائب في الإسرائيليات، وأبو هريرة لم يصرح بسماعه من النبي ﷺ فيحتمل أنه سمعه من كعب الأحبار إذ ثبت أنه روى عنه"[٣].

المراغي رحمه الله في هذا الموضوع ذكر الموقف من الإسرائيليات وقرر مذهب السلف، لكن طعنه في حديث أبي هريرة رضي الله عنه المخرج في الصحيحين يناقض ما قرره عن الأخبار الإسرائيلية، وأوضح الموضوع من طريقين:

الطريق الأول: الموقف من الأخبار الإسرائيلية:

وهي: "الأخبار المنقولة عن بني إسرائيل من اليهود وهو الأكثر، أو من النصارى، وتنقسم هذه الأخبار إلى ثلاثة أنواع:

الأولى: ما أقره الإسلام، وشهد بصدقه فهو حق.

مثاله: ما رواه البخاري وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «**جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ:** ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعًا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[٤]»[٥].

---

(١) سورة الأعراف الآية (١٦٢).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام (١٥٦/٤) الحديث رقم(٣٤٠٣)، ومسلم، كتاب التفسير (٢٣١٢/٤) الحديث رقم(٣٠١٥).

(٣) تفسير المراغي(٤٢٣/٣).

(٤) سورة الزمر الآية (٦٧).

(٥) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {وما قدروا الله حق قدره} (١٢٦/٦)، الحديث رقم(٤٨١١) ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢١٤٧/٤)، الحديث رقم(٢٧٨٦).

الثاني: ما أنكره الإسلام وشهد بكذبه فهو باطل مثاله ما رواه البخاري عن جابر رضي الله عنه قال: «كانت اليهود تقول إذا جامعها من ورائها، جاء الولد أحول؛ فنزلت: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [(١)]»[(٢)].

الثالث: ما لم يقره الإسلام، ولم ينكره، فيجب التوقف فيه، لما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم،** ﴿وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[(٣)]»[(٤)]، ولكن التحدث بهذا النوع جائز، إذا لم يخش محذور؛ لقول النبي ﷺ: «**بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده م النار**»[(٥)] رواه البخاري وغالب ما يروى عنهم من ذلك ليس بذي فائدة في الدين، كتعيين لون كلب أصحاب الكهف ونحوه"[(٦)].

الطريق الثاني: طعنه في حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال المراغي عنه: "هو مروي من طريق همّام بن منبّه أخي وهب وهما صاحبا الغرائب في الإسرائيليات، وأبو هريرة لم يصرح بسماعه من النبي ﷺ فيحتمل أنه سمعه من كعب الأحبار إذ ثبت أنه روى عنه".

أقول: هذا الكلام مردود عليه من عدة أوجه:

الوجه الأول: الكلام على همام بن منبه رحمه الله، قال عنه ابن حجر رحمه الله: "همام بن منبه بن كامل بن شيخ اليماني أبو عقبة الصنعاني... روى عن أبي هريرة ومعاوية وابن عباس وابن

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٢٣).

(٢) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم} (٢٩/٦) الحديث رقم(٤٥٢٨)، ومسلم، كتاب النكاح، باب جواز جماعه امرأته في قبلها، من قدامها، ومن ورائها من غير تعرض للدبر (١٠٥٨/٢) الحديث رقم(١٤٣٥).

(٣) سورة العنكبوت الآية (٤٦).

(٤) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا} (٢٠/٦) الحديث رقم(٤٤٨٥).

(٥) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (١٧٠/٤) الحديث رقم(٣٤٦١)، وخرج مسلم الجزء الأخير منه في كتاب الزهد والرقائق (٢٢٩٨/٤) الحديث رقم(٣٠٠٤)

(٦) تفسير العلامة محمد العثيمين –الفاتحة والبقرة–(٤٦/١-٤٧).

عمر وابن الزبير... قال ابن معين: ثقة، وذكره ابن حبان في الثقات... قلت: وقال ابن سعد وخليفة وابن حبان مات سنة إحدى أو اثنتين وثلاثين —أي ومئة-، وقال العجلي: يماني تابعي ثقة"(١). وقد أخرج له الجماعة مما يدل على توثيقه.

الوجه الثاني: قوله: أبو هريرة لم يصرح بالسماع.

وهذا قول جانب الصواب لأن الحديث مخرج في الصحيحين مرفوعا، وقد تلقت الأمة أحاديث الصحيحين بالقبول، فقد ساقه الامام البخاري بإسناده عَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: {ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ} فَبَدَّلُوا فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ وَقَالُوا حَبَّةٌ فِي شَعَرَةٍ»(٢)، وقال الامام مسلم في صحيحه: عَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ: هَذَا مَا حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَذَكَرَ أَحَادِيثَ مِنْهَا وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: {ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ يُغْفَرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ} فَبَدَّلُوا فَدَخَلُوا الْبَابَ يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ وَقَالُوا حَبَّةٌ فِي شَعَرَةٍ»(٣).

الوجه الثالث: أن هذا الحديث روي مرفوعا وموقوفا عن جمع من الصحابة ومنهم ابن مسعود وابن عباس وأنس رضي الله عنهم، وذكره أئمة المفسرين وشراح الأحاديث من المتقدمين والمتأخرين ولم يطعنوا فيه مما يدل على تلقيهم له بالقبول(٤).

الموضوع الثالث: مذهب السلف أسلم ومذهب الخلف أعلم.

قال المراغي: "وقد علمت أن السلف يجرون المتشابه على ما هو عليه، وأن الخلف يؤولونه، والأول أسلم، والثاني أحكم"(٥).

هذه المقولة تجري على ألسنة كثير من المتكلمين وهي خاطئة ومتناقضة؛ ولهذا بين أهل العلم ما يترتب على هذه المقولة من فساد؛ حيث قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله معلقا على هذه

---

(١) تهذيب التهذيب مختصرا(٥٩/١١).

(٢) سبق تخريجه ص(٢٩).

(٣) سبق تخريجه ص(٢٩).

(٤) انظر: تفسير ابن جرير(١١٢/٢-١١٣)، وتفسير ابن أبي حاتم(١٥٢/١-٢٤١/٦)، وتفسير ابن كثير(١٢٧/١)، وجامع الرسائل لابن تيمية(٣٠/١)، وشرح البخاري لأبن حجر(٦٣/١٣) وغيرهم.

(٥) تفسير المراغي(٢٨٣/٨).

المقولة: "وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ إِذَا صَدَرَتْ مِنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ قَدْ يَعْنِي بِهَا مَعْنًى صَحِيحًا، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُبْتَدِعِينَ الَّذِينَ يُفَضِّلُونَ طَرِيقَةَ الْخَلَفِ مِنْ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَمَنْ حَذَا حَذْوَهُمْ عَلَى طَرِيقَةِ السَّلَفِ: إنَّمَا أَتَوْا مِنْ حَيْثُ ظَنُّوا: أَنَّ طَرِيقَةَ السَّلَفِ هِيَ مُجَرَّدُ الْإِيمَانِ بِأَلْفَاظِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ مِنْ غَيْرِ فِقْهٍ لِذَلِكَ، بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّيِّينَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ ﴾[1]، وَأَنَّ طَرِيقَةَ الْخَلَفِ هِيَ اسْتِخْرَاجُ مَعَانِي النُّصُوصِ الْمَصْرُوفَةِ عَنْ حَقَائِقِهَا بِأَنْوَاعِ الْمَجَازَاتِ وَغَرَائِبِ اللُّغَاتِ، فَهَذَا الظَّنُّ الْفَاسِدُ أَوْجَبَ تِلْكَ الْمَقَالَةَ الَّتِي مَضْمُونُهَا نَبْذُ الْإِسْلَامِ وَرَاءَ الظَّهْرِ، وَقَدْ كَذَبُوا عَلَى طَرِيقَةِ السَّلَفِ، وَضَلُّوا فِي تَصْوِيبِ طَرِيقَةِ الْخَلَفِ؛ فَجَمَعُوا بَيْنَ الْجَهْلِ بِطَرِيقَةِ السَّلَفِ فِي الْكَذِبِ عَلَيْهِمْ، وَبَيْنَ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ بِتَصْوِيبِ طَرِيقَةِ الْخَلَفِ، وَسَبَبُ ذَلِكَ اعْتِقَادُهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ صِفَةٌ دَلَّتْ عَلَيْهَا هَذِهِ النُّصُوصُ بِالشُّبُهَاتِ الْفَاسِدَةِ الَّتِي شَارَكُوا فِيهَا إخْوَانَهُمْ مِنْ الْكَافِرِينَ؛ فَلَمَّا اعْتَقَدُوا انْتِفَاءَ الصِّفَاتِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ لَا بُدَّ لِلنُّصُوصِ مِنْ مَعْنًى بَقُوا مُتَرَدِّدِينَ بَيْنَ الْإِيمَانِ بِاللَّفْظِ وَتَفْوِيضِ الْمَعْنَى، وَهِيَ الَّتِي يُسَمُّونَهَا طَرِيقَةَ السَّلَفِ، وَبَيْنَ صَرْفِ اللَّفْظِ إلَى مَعَانٍ بِنَوْعِ تَكَلُّفٍ، وَهِيَ الَّتِي يُسَمُّونَهَا طَرِيقَةَ الْخَلَفِ، فَصَارَ هَذَا الْبَاطِلُ مُرَكَّبًا مِنْ فَسَادِ الْعَقْلِ وَالْكُفْرِ بِالسَّمْعِ؛ فَإِنَّ النَّفْيَ إنَّمَا اعْتَمَدُوا فِيهِ عَلَى أُمُورٍ عَقْلِيَّةٍ ظَنُّوهَا بَيِّنَاتٍ وَهِيَ شُبُهَاتٌ، وَالسَّمْعُ حَرَّفُوا فِيهِ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، فَلَمَّا ابْتَنَى أَمْرُهُمْ عَلَى هَاتَيْنِ الْمُقَدِّمَتَيْنِ الكفريتين الْكَاذِبَتَيْنِ: كَانَتْ النَّتِيجَةُ اسْتِجْهَالَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ واستبلاههم، وَاعْتِقَادَ أَنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا أُمِّيِّينَ بِمَنْزِلَةِ الصَّالِحِينَ مِنْ الْعَامَّةِ؛ لَمْ يَتَبَحَّرُوا فِي حَقَائِقِ الْعِلْمِ بِاللهِ وَلَمْ يَتَفَطَّنُوا لِدَقَائِقِ الْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ وَأَنَّ الْخَلَفَ الْفُضَلَاءَ حَازُوا قَصَبَ السَّبْقِ فِي هَذَا كُلِّهِ، ثُمَّ هَذَا الْقَوْلُ إذَا تَدَبَّرَهُ الْإِنْسَانُ وَجَدَهُ فِي غَايَةِ الْجَهَالَةِ؛ بَلْ فِي غَايَةِ الضَّلَالَةِ. كَيْفَ يَكُونُ هَؤُلَاءِ الْمُتَأَخِّرُونَ؛ لَا سِيَّمَا وَالْإِشَارَةُ بِالْخَلَفِ إلَى ضَرْبٍ مِنْ الْمُتَكَلِّمِينَ الَّذِينَ كَثُرَ فِي بَابِ الدِّينِ اضْطِرَابُهُمْ وَغَلُظَ عَنْ مَعْرِفَةِ اللهِ حُجَّابُهُمْ...

ثُمَّ هَؤُلَاءِ الْمُتَكَلِّمُونَ الْمُخَالِفُونَ لِلسَّلَفِ إذَا حَقَّقَ عَلَيْهِمْ الْأَمْرَ: لَمْ يُوجَدْ عِنْدَهُمْ مِنْ حَقِيقَةِ الْعِلْمِ بِاللهِ وَخَالِصِ الْمَعْرِفَةِ بِهِ خَبَرٌ، وَلَمْ يَقَعُوا مِنْ ذَلِكَ عَلَى عَيْنٍ وَلَا أَثَرٍ، كَيْفَ يَكُونُ هَؤُلَاءِ الْمَحْجُوبُونَ الْمُفْضَلُونَ الْمَنْقُوصُونَ الْمَسْبُوقُونَ الْحَيَارَى الْمُتَهَوِّكُونَ: أَعْلَمَ بِاللهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَحْكَمَ فِي بَابِ ذَاتِهِ وَآيَاتِهِ مِنْ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ

---

(١) سورة البقرة الآية (٧٨).

بِإِحْسَانٍ، مِنْ وَرَثَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَخُلَفَاءِ الرُّسُلِ، وَأَعْلَامِ الْهُدَى، وَمَصَابِيحِ الدُّجَى، الَّذِينَ بِهِمْ قَامَ الْكِتَابُ وَبِهِ قَامُوا، وَبِهِمْ نَطَقَ الْكِتَابُ وَبِهِ نَطَقُوا، الَّذِينَ وَهَبَهُمْ الله مِنْ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ مَا بَرَزُوا بِهِ عَلَى سَائِرِ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ، فَضْلًا عَنْ سَائِرِ الْأُمَمِ الَّذِينَ لَا كِتَابَ لَهُمْ، وَأَحَاطُوا مِنْ حَقَائِقِ الْمَعَارِفِ وَبَوَاطِنِ الْحَقَائِقِ بِمَا لَوْ جُمِعَتْ حِكْمَةُ غَيْرِهِمْ إلَيْهَا لَاسْتَحْيَا مَنْ يَطْلُبُ الْمُقَابَلَةَ، ثُمَّ كَيْفَ يَكُونُ خَيْرُ قُرُونِ الْأُمَّةِ أَنْقَصَ فِي الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ، -لَا سِيَّمَا الْعِلْمُ بِالله وَأَحْكَامِ أَسْمَائِهِ وَآيَاتِهِ- مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَصَاغِرِ بِالنِّسْبَةِ إلَيْهِمْ؟ أَمْ كَيْفَ يَكُونُ أَفْرَاخُ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَأَتْبَاعُ الْهِنْدِ وَالْيُونَانِ وَوَرَثَةُ الْمَجُوسِ وَالْمُشْرِكِينَ وَضُلَّالِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ وَأَشْكَالُهُمْ وَأَشْبَاهُهُمْ: أَعْلَمَ بِالله مِنْ وَرَثَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَهْلِ الْقُرْآنِ وَالْإِيمَانِ؟ "(١).

وهذا القول المتناقض قد رد من أجله كثيرٌ مما خلفه سلف هذه الأمة من العلم النافع والفهم الثاقب وترتب عليه مآلات خطيرة منها:

"أولا: فيه تناقض، لأنهم قالوا: طريقة السلف أسلم، ولا يعقل أن تكون الطريقة أسلم وغيرها أعلم وأحكم، لأن الأسلم يستلزم أن يكون أعلم وأحكم، فلا سلامة إلا بعلم بأسباب السلامة وحكمة في سلوك هذه الأسباب.

ثانيا: أين العلم والحكمة من التحريف والتعطيل؟

ثالثا: يلزم منه أن يكون هؤلاء الخالفون أعلم بالله من رسوله ﷺ وأصحابه؛ لأن طريقة السلف هي طريقة النبي ﷺ وأصحابه.

رابعا: أنها قد تصل إلى الكفر؛ لأنها تستلزم تجهيل النبي ﷺ وتسفيهه؛ فتجهيله ضد العلم، وتسفيهه ضد الحكمة، وهذا خطر عظيم، فهذه العبارة باطلة حتى وإن أرادوا بها معنى صحيحا؛ لأن هؤلاء بحثوا وتعمقوا وخاضوا في أشياء كان السلف لم يتكلموا فيها؛ فإن خوضهم في هذه الأشياء هو الذي ضرهم وأوصلهم إلى الحيرة والشك، وصدق النبي ﷺ حين قال: «هلك المتنطعون»(٢)، فلو أنهم بقوا على ما كان عليه السلف الصالح ولم يتنطعوا، لما وصلوا إلى هذا الشك والحيرة والتحريف"(٣).

---

(١) مجموع الفتاوى(٥/٩-١٢).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب العلم، باب هلك المتنطعون (٤/٢٠٥٥) الحديث رقم(٢٦٧٠).

(٣) القول المفيد على كتاب التوحيد(٢/٥٣٨).

الموضوع الرابع: التحذير من الخوض في الشريعة بدون دليل.

حذر المراغي رحمه الله في مواضع متفرقة من تفسيره من تقرير المسائل الشرعية والخوض فيها من غير دليل شرعي.

فقال بعد ذكره للكرسي: "ولا كلام فيه بالرأي دون نص عن المعصوم"[(١)].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾[(٢)] فقال: "والكتاب الكريم لم يبين لنا عدد هؤلاء القوم ولا أمتهم، ولا بلدهم، ولو علم أن في ذلك خيرا لنا لتفضل علينا ببيانه في محكم كتابه فنكتفي بما فيه، ولا ندخل في تفاصيل ذكرت في الإسرائيليات، هي إلى الأوهام والخرافات أقرب منها إلى الحقائق التي تصلح للعبرة، وتكون وسيلة إلى الموعظة"[(٣)].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾[(٤)] فقال: "وفي الآية دليل على اجتناب كل موقف يخوض فيه أهله بما يدل على التنقص والاستهزاء بالأدلة الشرعية والأحكام الدينية، كما يقع من أسراء التقليد الذين استبدلوا آراء العلماء بالكتاب والسنة ولم يبق في أيديهم إلا قال إمام مذهبنا كذا، وقال فلان من أتباعه كذا، وإذا استدل أحد بآية قرآنية أو بحديث نبوي سخروا منه وظنوا أنه قد جاء بخطب شنيع، وجعلوا رأي إمامهم مقدما على ما نطق به الكتاب، وأرشدت إليه السنة[(٥)].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾[(٦)] فقال: "وعلينا أن نقف في وصف نعيم الآخرة على ما جاء به القرآن الكريم وصحت به السنة النبوية، ولا نعدو ذلك إلى ما وراءه، فإن النعيم الروحاني والرضوان الإلهي لا

---

(١) تفسير المراغي(٣٨٤/١).

(٢) سورة البقرة الآية (٢٤٣).

(٣) تفسير المراغي(٣٥٩/١).

(٤) سورة النساء الآية (١٤٠).

(٥) تفسير المراغي(٣٣٦/٢).

(٦) سورة المائدة الآية (٨٥).

يمكن أن يعبر عنه الكلام ولا يحيط به الوصف، فنحن في عالم يخالف ذلك العالم في أوصافه وخواصه، مهما أكثرنا من الوصف، فلا نصل إلى شيء مما أعده الله لهم هناك: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[(١)]"[(٢)].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[(٣)] فقال: "القول على الله بغير علم، وهو من أسس المحرمات التي حرمت على ألسنة الرسل جميعا، إذ هو منشأ تحريف الأديان المحرفة، وسبب الابتداع في الدين الحق، وقد انتشر الابتداع بين أهله وتحكمت بينهم الأهواء واتبعوا سنن من قبلهم كما جاء في الحديث: «لتتّبعنّ سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضبّ لتبعتموهم قلنا يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟ »[(٤)] رواه الشيخان.

ورأس البلية في هذا الابتداع القول في الدين بالرأي، فما من أحد يبتدع أو يتبع مبتدعا إلا استدل على بدعته بالرأي، وقد ظهرت مبادئ هذه البدع والأهواء في القرون الأولى قرون العلم بالسنة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما زال أمرها يستفحل حتى وصلت إلى ما نراه الآن.

وما شرع من اجتهاد الرأي في حديث معاذ[(٥)]، وغيره فهو خاص بالقضاء لا بأصول الدين وعباداته، فقد أكمل الله دينه فلم يترك فيه نقصا يكمله غيره بظنه ورأيه بعد وفاة رسوله، وليس

---

(١) سورة السجدة الآية (١٧).

(٢) تفسير المراغي(٧/٣).

(٣) سورة الأعراف الآية (٣٣).

(٤) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (١٦٩/٤)، رقم الحديث(٣٤٥٦)، ومسلم، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى (٢٠٥٤/٤)، رقم الحديث(٢٦٦٩)، ولفظه: «لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه»، قلنا يا رسول الله: اليهود، والنصارى قال: «فمن»، وأما لفظ باعا فباعا فأخرجه أحمد في مسنده(٥٠٨/١٥) رقم الحديث (٩٨١٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الفتنة، باب من كره الخروج في الفتنة وتعوذ منها(٤٧٩/٧)، رقم الحديث(٣٧٣٧٦)، قال شعيب الأرنؤوط: "إسناده حسن من أجل محمد بن عمرو بن وقاص بن علقمة الليثي فقد روى له البخاري مقرونا، ومسلم في المتابعات".

(٥) حديث معاذ رضي الله عنه (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَبْعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ قَالَ « كَيْفَ تَقْضِي إِذَا عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ»، قَالَ أَقْضِي بِكِتَابِ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي كِتَابِ اللَّهِ»، قَالَ فَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي سُنَّةِ

لقاض ولا مفت أن يسند رأيه الاجتهادي إلى الله فيقول هذا حكم الله وهذا دينه، بل يقول هذا مبلغ اجتهادي، فإن كان صوابا فمن توفيق الله وإلهامه، وإن كان خطأ فمنى ومن الشيطان.

والخلاصة: إنه لا ينبغي لأحد أن يحرّم شيئا تحريما دينيا على عباد الله أو يوجب عليهم شيئا إلا بنص صريح عن الله ورسوله، ومن تهجم على ذلك فقد جعل نفسه شريكا لله، ومن تبعه في ذلك فقد جعله ربا له، ومن ثم كان فقهاء الصحابة والتابعين يتحامون القول في الدين بالرأي"(١).

وأوضح بعد قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾(٢) فقال: "أي أتقولون على الله قولا لا تعلمون حقيقته وتنسبون إليه تعالى ما لا يجوز إضافته إليه، ولا سيما بعد مجيء ما ينقضه من الأدلة العقلية والوحي الإلهي.

وفى الآية إيماء إلى أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة، وأن العقائد الدينية لا بد فيها من دليل قاطع، وأن التقليد فيها غير سائغ"(٣).

المراغي رحمه الله حذر من الخوض في الدين بدون علم بالشريعة لأن ذلك قد يوصل إلى الشرك أو البدع أو المحرمات، وزيادة في الإيضاح أذكر كلام الإمام ابن القيم رحمه الله في ذلك فقد أجاد وأفاد؛ فقال بعد قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾(٤): "وَأَمَّا الْقَوْلُ عَلَى الله بِلَا

رَسُولِ اللَّهِ وَلاَ فِي كِتَابِ اللَّهِ»، قَالَ أَجْتَهِدُ رَأْيِي وَلاَ آلُو، فَضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَدْرَهُ وَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللَّهِ» أخرجه أبو داود، كتاب الأقضية، باب اجتهاد الرأي في القضاء (٣٠٣/٣)، الحديث رقم(٣٥٩٢)، وأحمد في المسند(٤١٧/٣٦) الحديث رقم(٤١٧)، والترمذي، أبواب الأحكام، باب ما جاء في القاضي كيف يقضي (٦٠٨/٣) الحديث رقم(١٦٢٨) وقال: التِّرْمِذِيُّ: لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَلَيْسَ إِسْنَادُهُ بِمُتَّصِلٍ، وقال البخاري في التاريخ الكبير(٢٧٧/٢): (لا يصح ولا يعرف الا بهذا مرسل)، والمحدث الألباني رحمه الله أطال في مناقشة الذين حسنوه في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة(٢٧٣/٢).

(١) تفسير المراغي(٢٩٣/٣).

(٢) سورة يونس الآية (٦٨).

(٣) تفسير المراغي(٢٦١/٤).

(٤) سورة الأعراف الآية (٣٣).

عِلْمٍ فَهُوَ أَشَدُّ هَذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ تَحْرِيمًا، وَأَعْظَمُهَا إِثْمًا، وَلِهَذَا ذُكِرَ فِي الْمَرْتَبَةِ الرَّابِعَةِ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي اتَّفَقَتْ عَلَيْهَا الشَّرَائِعُ وَالْأَدْيَانُ، وَلَا تُبَاحُ بِحَالٍ، بَلْ لَا تَكُونُ إِلَّا مُحَرَّمَةً، وَلَيْسَتْ كَالْمَيْتَةِ وَالدَّمِ وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ، الَّذِي يُبَاحُ فِي حَالٍ دُونَ حَالٍ.

فَإِنَّ الْمُحَرَّمَاتِ نَوْعَانِ: مُحَرَّمٌ لِذَاتِهِ لَا يُبَاحُ بِحَالٍ، وَمُحَرَّمٌ تَحْرِيمًا عَارِضًا فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي الْمُحَرَّمِ لِذَاتِهِ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾، ثُمَّ انْتَقَلَ مِنْهُ إِلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ فَقَالَ: ﴿ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾، ثُمَّ انْتَقَلَ مِنْهُ إِلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ، فَقَالَ: ﴿ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾، ثُمَّ انْتَقَلَ مِنْهُ إِلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ، فَقَالَ: ﴿ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فَهَذَا أَعْظَمُ الْمُحَرَّمَاتِ عِنْدَ اللهِ وَأَشَدُّهَا إِثْمًا، فَإِنَّهُ يَتَضَمَّنُ الْكَذِبَ عَلَى اللهِ، وَنِسْبَتَهُ إِلَى مَا لَا يَلِيقُ بِهِ، وَتَغْيِيرَ دِينِهِ وَتَبْدِيلَهُ، وَنَفْيَ مَا أَثْبَتَهُ وَإِثْبَاتَ مَا نَفَاهُ، وَتَحْقِيقَ مَا أَبْطَلَهُ وَإِبْطَالَ مَا حَقَّقَهُ، وَعَدَاوَةَ مَنْ وَالَاهُ وَمُوَالَاةَ مَنْ عَادَاهُ، وَحُبَّ مَا أَبْغَضَهُ وَبُغْضَ مَا أَحَبَّهُ، وَوَصَفَهُ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ.

فَلَيْسَ فِي أَجْنَاسِ الْمُحَرَّمَاتِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ مِنْهُ، وَلَا أَشَدُّ إِثْمًا، وَهُوَ أَصْلُ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ، وَعَلَيْهِ أُسِّسَتِ الْبِدَعُ وَالضَّلَالَاتُ، فَكُلُّ بِدْعَةٍ مُضِلَّةٍ فِي الدِّينِ أَسَاسُهَا الْقَوْلُ عَلَى اللهِ بِلَا عِلْمٍ.

وَلِهَذَا اشْتَدَّ نَكِيرُ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ لَهَا، وَصَاحُوا بِأَهْلِهَا مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ، وَحَذَّرُوا فِتْنَتَهُمْ أَشَدَّ التَّحْذِيرِ، وَبَالَغُوا فِي ذَلِكَ مَا لَمْ يُبَالِغُوا مِثْلَهُ فِي إِنْكَارِ الْفَوَاحِشِ، وَالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ، إِذْ مَضَرَّةُ الْبِدَعِ وَهَدْمُهَا لِلدِّينِ وَمُنَافَاتُهَا لَهُ أَشَدُّ، وَقَدْ أَنْكَرَ تَعَالَى عَلَى مَنْ نَسَبَ إِلَى دِينِهِ تَحْلِيلَ شَيْءٍ أَوْ تَحْرِيمَهُ مِنْ عِنْدِهِ، بِلَا بُرْهَانٍ مِنَ اللهِ، فَقَالَ: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾(١).

فَكَيْفَ بِمَنْ نَسَبَ إِلَى أَوْصَافِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا لَمْ يَصِفْ بِهِ نَفْسَهُ؟ أَوْ نَفَى عَنْهُ مِنْهَا مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ؟.

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «لِيَحْذَرْ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقُولَ: أَحَلَّ اللهُ كَذَا، وَحَرَّمَ اللهُ كَذَا، فَيَقُولُ اللهُ: كَذَبْتَ، لَمْ أُحِلَّ هَذَا، وَلَمْ أُحَرِّمْ هَذَا»(٢).

---

(١) سورة النحل الاية (١١٦).

(٢) ورد من قول الربيع بن خيثمة رحمه الله. انظر: الورع لأبي بكر المروذي ص(٧٤)، وذم الكلام وأهله للهروي(٥/٤٤)، والفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي(١/٣٠٨).

يَعْنِي التَّحْلِيلَ وَالتَّحْرِيمَ بِالرَّأْيِ الْمُجَرَّدِ، بِلَا بُرْهَانٍ مِنَ الله وَرَسُولِهِ.

وَأَصْلُ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ هُوَ الْقَوْلُ عَلَى الله بِلَا عِلْمٍ، فَإِنَّ الْمُشْرِكَ يَزْعُمُ أَنَّ مَنِ اتَّخَذَهُ مَعْبُودًا مِنْ دُونِ الله، يُقَرِّبُهُ إِلَى الله، وَيَشْفَعُ لَهُ عِنْدَهُ، وَيَقْضِي حَاجَتَهُ بِوَاسِطَتِهِ، كَمَا تَكُونُ الْوَسَائِطُ عِنْدَ الْمُلُوكِ، فَكُلُّ مُشْرِكٍ قَائِلٌ عَلَى الله بِلَا عِلْمٍ، دُونَ الْعَكْسِ، إِذِ الْقَوْلُ عَلَى الله بِلَا عِلْمٍ قَدْ يَتَضَمَّنُ التَّعْطِيلَ وَالِابْتِدَاعَ فِي دِينِ الله، فَهُوَ أَعَمُّ مِنَ الشِّرْكِ، وَالشِّرْكُ فَرْدٌ مِنْ أَفْرَادِهِ.

وَلِهَذَا كَانَ الْكَذِبُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ مُوجِبًا لِدُخُولِ النَّارِ، وَاتِّخَاذِ مَنْزِلَةٍ مِنْهَا مُبَوَّءًا، وَهُوَ الْمَنْزِلُ اللَّازِمُ الَّذِي لَا يُفَارِقُهُ صَاحِبُهُ، لِأَنَّهُ مُتَضَمِّنٌ لِلْقَوْلِ عَلَى الله بِلَا عِلْمٍ، كَصَرِيحِ الْكَذِبِ عَلَيْهِ، لِأَنَّ مَا انْضَافَ إِلَى الرَّسُولِ فَهُوَ مُضَافٌ إِلَى الْمُرْسِلِ، وَالْقَوْلُ عَلَى الله بِلَا عِلْمٍ صَرِيحٍ افْتِرَاءُ الْكَذِبِ عَلَيْهِ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾(١)

فَذُنُوبُ أَهْلِ الْبِدَعِ كُلُّهَا دَاخِلَةٌ تَحْتَ هَذَا الْجِنْسِ فَلَا تَتَحَقَّقُ التَّوْبَةُ مِنْهُ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ مِنَ الْبِدَعِ.

وَأَنَّى بِالتَّوْبَةِ مِنْهَا لِمَنْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهَا بِدْعَةٌ، أَوْ يَظُنُّهَا سُنَّةً، فَهُوَ يَدْعُو إِلَيْهَا، وَيَحُضُّ عَلَيْهَا؟ فَلَا تَنْكَشِفُ لِهَذَا ذُنُوبُهُ الَّتِي تَجِبُ عَلَيْهِ التَّوْبَةُ مِنْهَا إِلَّا بِتَضَلُّعِهِ مِنَ السُّنَّةِ، وَكَثْرَةِ اطِّلَاعِهِ عَلَيْهَا، وَدَوَامِ الْبَحْثِ عَنْهَا وَالتَّفْتِيشِ عَلَيْهَا، وَلَا تَرَى صَاحِبَ بِدْعَةٍ كَذَلِكَ أَبَدًا.

فَإِنَّ السُّنَّةَ بِالذَّاتِ تَمْحَقُ الْبِدْعَةَ، وَلَا تَقُومُ لَهَا، وَإِذَا طَلَعَتْ شَمْسُهَا فِي قَلْبِ الْعَبْدِ قَطَعَتْ مِنْ قَلْبِهِ ضَبَابَ كُلِّ بِدْعَةٍ، وَأَزَالَتْ ظُلْمَةَ كُلِّ ضَلَالَةٍ، إِذْ لَا سُلْطَانَ لِلظُّلْمَةِ مَعَ سُلْطَانِ الشَّمْسِ، وَلَا يَرَى الْعَبْدُ الْفَرْقَ بَيْنَ السُّنَّةِ وَالْبِدْعَةِ، وَيُعِينُهُ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ ظُلْمَتِهَا إِلَى نُورِ السُّنَّةِ، إِلَّا الْمُتَابَعَةُ، وَالْهِجْرَةُ بِقَلْبِهِ كُلَّ وَقْتٍ إِلَى الله، بِالِاسْتِعَانَةِ وَالْإِخْلَاصِ، وَصِدْقِ اللَّجْإِ إِلَى الله، وَالْهِجْرَةِ إِلَى رَسُولِهِ، بِالْحِرْصِ عَلَى الْوُصُولِ إِلَى أَقْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ وَهَدْيِهِ وَسُنَّتِهِ «فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى الله وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى الله وَرَسُولِهِ»(٢) وَمَنْ هَاجَرَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَهُوَ حَظُّهُ وَنَصِيبُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالله الْمُسْتَعَانُ"(٣).

---

(١) سورة الأنعام الآية (٢١).

(٢) سبق تخريجه ص(٢٧).

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين(١/٢٧٨-٢٧٩).

وأخيرًا من نظر نظرة تبصر وتفكر علم علمًا يقينيا أن غالب الشرور الحادثة في هذه الأمة مصدرها القول على الله بلا علم فعلينا جميعا أن نذكر قوله جل وعلا: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾(١).

الموضوع الخامس: العقل والنقل.

المراغي رحمه الله تطرق لمسألة النقل والعقل من خلال تفسيره فذكر أن رأي المتأخرين في مسائل الاعتقاد هو: "تأويل ما اشتبه علينا من قواعد الدين، لأنها إنما وضعت على أساس العقل، فإذا ورد في النقل شيء يخالف حكم العقل، حمل النقل على غير الظاهر منه بتأويله حتى يتفق مع حكم العقل(٢)"(٣).

وأما هو فقد قرر مذهب السلف في هذه المسألة فذكر بعد قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾(٤) فقال: "البشارة الإخبار بما يسرّ، وآمنوا: أي بالله وصفاته التي جاء بها النقل وأيدها العقل"(٥).

وذكر في المعنى الإجمالي بعد قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾(٦) فقال: "اليهود والنصارى أمروا بشرح ما في التوراة والإنجيل، وبيان ما فيهما من الدلائل الناطقة بنبوة محمد ﷺ وصدق رسالته، فكيف يليق بهم بعد هذا إيراد تلك المطاعن والشبه وكانوا أجدر الناس بدفعها، وأحقهم بتأييده والذّود عن دينه لما في كتابيهما من البشارة به وتوكيد دعوته، فالعقل قاض بأن يظاهروه، ودينهم حاكم بأن يؤيدوه، ومن العجب العاجب أن يطرحوا حكم العقل والنقل وراءهم ظهريا، وهل مثل هؤلاء يجدي معهم الحجاج والجدل، أو تقنعهم قوة الدليل والحجة"(٧).

---

(١) سورة الإسراء الآية (٣٦).

(٢) انظر: ص(٤٢).

(٣) تفسير المراغي(٧٩/١).

(٤) سورة البقرة الآية (٢٥).

(٥) تفسير المراغي(٦٣/١).

(٦) سورة آل عمران الآية (١٨٧).

(٧) تفسير المراغي(١٢٨/٢).

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾(١): "المراد من البيان ذكر الحكم وفائدته، ثم قرنه بالموعظة الحسنة، وقوله تعقلون: أي تتدبرون الأشياء وتذعنون لما أودع فيها من الحكم والمصالح إذعانا يكون له الأثر في الأعمال.

والمعنى: إن الله جلت قدرته، مضت سنته أن يبين لعباده أحكام دينهم على هذا النحو من البيان الذي تقرن فيه الأحكام بعللها وأسبابها وبيان فوائدها، ليُعِدّهم بذلك لكمال العقل، حتى يتحرَّوا الاستفادة من كل عمل، وليكونوا على بصيرة من دينهم، عالمين بانطباق أحكامه على مصالحهم، فدينهم هو دين العقل، وأحكامه تنطبق على مصالح البشر في كل زمان ومكان"(٢).

وذكر بعد قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾(٣) فقال: "أي إن معرفة الشيء معرفة حقيقية يجب أن تكون عن يقين لا عن ظن وتوهم، وأنتم لا تتبعون فيما تقولون في هذه التسمية إلا الظن والتوهم، وليس هذا من سبيل العلم في شيء، وقد جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث»(٤).

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾(٥).

والخلاصة: إن مثل هذا الاعتقاد إما أن يكون عن دليل عقلي والعقل لا يركن إليه في مثل هذا، وإما عن وحيٍ ولم يصل إليهم شيء منه يخبرهم بما يقولون"(٦).

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٤٢).

(٢) تفسير المراغي(٣٥٨/١).

(٣) سورة النجم الآية (٢٧-٢٨).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع (١٩/٧) الحديث رقم(٥١٤٣)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن، والتجسس، والتنافس، والتناجش ونحوها (١٩٥٨/٤) الحديث رقم(٢٥٦٣).

(٥) سورة الزخرف الآية (١٩).

(٦) تفسير المراغي(٣٣٥/٩).

وذكر في المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(١) فقال: "الاهتداء بهدي الأنبياء ضروري للبشر، إذ أن الله قضى أن يكون الناس أمة واحدة يرتبط بعضهم ببعض، ولا سبيل لعقولهم وحدها أن تصل إلى ما يلزمهم في توفير مصالحهم، ودفع المضار عنهم، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأيدهم بالدلائل القاطعة على صدقهم، وعلى أن ما يأتون به إنما هو من عند الله القادر على إثابتهم وعقوبتهم، العالم بما في ضمائرهم، الذي لا تخفى عليه خافية من أسرارهم"(٢).

وذكر في توضيح قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(٣) فقال: "تحكيم العقل البشري في الخوض في ذات الله وصفاته وفيما دون ذلك من عالم الغيب كالملائكة والعرش والجنة والنار تجاوز لحدوده، فإن أكبر العلماء والفلاسفة عقولا عجزوا إلى اليوم عن معرفة كنه أنفسهم وأنفس ما دونهم من المخلوقات، صغيرها وكبيرها، حتى الحشرات منها كالنحل والنمل، فأنىّ لهم أن يعرفوا كنه ذات الله وصفاته أو معرفة حقيقة ملائكته وغيرهم من جند اللّه؟.

ولما خرج متأخرو الأمة عن هدي سلفهم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان زاغوا فكانوا: ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾(٤) فسقط بعضهم في خيال التشبيه، وبعضهم في خيال التعطيل.

ولو كانوا قد نهجوا نهج السابقين لتجنبوا أسباب الخلاف والتفرق في الدين الذي أوعد الله أهله بالعذاب العظيم وبرأ رسوله منهم.

---

(١) سورة البقرة الآية (٢١٣).

(٢) تفسير المراغي(٢٨٨/١).

(٣) سورة هود الآية (١١٢).

(٤) سورة الروم الآية (٣٢).

والواجب التزام كتاب الله وما فسرته به سنة رسوله ﷺ من العبادات العملية بدون تحكم بالرأي والقياس، والمعاملات على النحو الذي بينه الكتاب والسنة على السنن القويم دون تأويل ولا تخريج لهما على غير ما يفهم من ظاهرهما"(١).

المراغي رحمه الله في تقريره لموضوع التعارض بين النقل والعقل موافق لمذهب السلف وأنه لا يوجد تعارض بين النقل الصحيح والعقل الصريح، وهذا ما قرره سلف هذه الأمة ومن تبع سبيلهم بإحسان ومن ذلك ما قاله الإمام أبو القاسم الأصفهاني رحمه الله: "واعلم: أن فصل ما بيننا وبين المبتدعة هو مسألة العقل فإنهم أسسوا دينهم على المعقول، وجعلوا الاتباع والمأثور تبعاً للمعقول، وأما أهل السنة؛ قالوا: الأصل في الدين الاتباع والمعقول تبع، ولو كان أساس الدين على المعقول لا ستغنى الخلق عن الوحي، وعن الأنبياء، ولبطل معنى الأمر والنهي، ولقال من شاء ما شاء، ولو كان الدين بني على المعقول لجاز للمؤمنين أن لا يقبلوا شيئاً حتى يعقلوا"(٢).

وممن حرر هذه المسألة وبينها وكشف زيف المخالفين فيها ابن تيمية رحمه الله من خلال كتابه درء تعارض العقل والنقل؛ حيث قال: "ما علم بصريح العقل لا يتصور أن يعارضه الشرع البتة بل المنقول الصحيح لا يعارضه معقول صريح قط، وقد تأملت ذلك في عامة ما تنازع الناس فيه فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها، بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع، وهذا تأملته في مسائل الأصول الكبار كمسائل التوحيد والصفات ومسائل القدر والنبوات والمعاد وغير ذلك، ووجدت ما يعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قط بل السمع الذي يقال إنه يخالفه: إما حديث موضوع، أو دلالة ضعيفة، فلا يصلح أن يكون دليلا لو تجرد عن معارضة العقل الصريح فكيف إذا خالفه صريح المعقول؟

ونحن نعلم أن الرسل لا يخبرون بمحالات العقول بل بمحارات العقول، فلا يخبرون بما يعلم العقل انتفاءه بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته"(٣).

---

(١) تفسير المراغي(٤/٣٦٠).

(٢) الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة(١/٣٤٧).

(٣) درء تعارض العقل والنقل(١/٨٣).

الموضوع السادس: موقفه من البدع في الدين:

تعريف البدعة: لغة وشرعا

البدعة لغة: (بدع) الباء والدال والعين أصلان:

أحدهما: ابتداء الشيء وصنعُه لا عَنْ مِثال.

والآخر: الانقطاع والكَلال، كقولهم: أُبْدِعَتِ الراحلةُ، إذا كَلّت وعَطِبت"(١). والمعنى الآخر يرجع للمعنى الأول "يقال أبْدَعت الناقة إذا انْقَطعت عن السَّير بِكَلاَل أو ظَلْع كأنه جعَل انقطاعها عما كانت مستمرة عليه من عادة السَّير إبداعا أي أنْشاء أمْرٍ خارج عما اعْتِيد منها"(٢).

وشرعا: أجمع تعريفين للبدعة أنها:

١- "طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية"(٣).

٢- "الْبِدْعَةَ فِي الدِّينِ هِيَ مَا لَمْ يَشْرَعْهُ الله وَرَسُولُهُ وَهُوَ مَا لَمْ يَأْمُرْ بِهِ أَمْرَ إيجَابٍ وَلَا اسْتِحْبَابٍ"(٤).

حذر المراغي رحمه الله من الابتداع في الدين لأن من أعظم ما يقدح في الاعتقاد الابتداع.

فذكر المراغي بعد قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾(٥) فقال: "روى البخاري من حديث ابن مسعود أنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ عليَّ، قلت: يا رسول الله أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: نعم أحب أن أسمعه من غيري، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ فقال: (حسبك الآن) فإذا عيناه تذرفان»(٦).

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس، مادة بدع (٢٠٣/١).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر(٢٦٧/١).

(٣) الاعتصام للشاطبي(٣٧/١).

(٤) مجموع الفتاوى لابن تيمية(٢٠٧/٤).

(٥) سورة النساء الآية (٤١).

(٦) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا} (٤٥/٦) الحديث رقم(٤٥٨٣)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل استماع القرآن، وطلب القراءة من

فانظر كيف اعتبر بهذه الشهادة الشهيد الأعظم ﷺ فبكى لتذكر هذا اليوم، وهل نعتبر كما اعتبر ونستعد لهول ذلك اليوم باتباع سنته ونجتهد في اجتناب البدع والتقاليد التي لم تكن في عهده، وبذا نكون أمة وسطا لا تفريط عندها في الدين ولا إفراط لا في الشؤون الجسمية ولا في الشؤون الروحية"[(١)].

وذكر عند كلامه على ما ينذره المشركون للآلهة فقال: "والعبرة من هذا أن كل مبتدع في الدين بتحريم طعام أو غيره، وتسييب عجل لسيد البدوي أو سواه، وسنّ ورد أو حزب يضاهي به المشروع من شعائر الدين، ونحو ذلك من العبادات التي لم تؤثر عن الشارع، زاعما أنه جاء بما يتقرب به لله تعالى وينال به رضاه، فقد ضاهى بعمله عمل عمرو بن لحي[(٢)]، لأن الله لا يعبد إلا بما شرعه على لسان رسوله ﷺ، فلا عبادة ولا تحريم إلا بنص، وليس لأحد أن يزيد أو ينقص برأي ولا قياس"[(٣)].

وقال عن أهل الابتداع: "تغشّهم أنفسهم بأنهم ينصرون الحق ويخدمون الشرع، ومن ثم حذّر السلف من مجالسة أهل الأهواء أشد مما حذّروا من مجالسة الكفار، إذ لا يخشى على المؤمن من فتنة الكافر مقدار ما يخشى من فتنة المبتدع"[(٤)].

وذكر في توضيح قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾[(٥)] قال: "إن الله سبحانه في هذه الآية يذكر هذه الأمة بما هي عرضة له بحسب سنن الاجتماع من إضاعة الدين؛ بعد الاهتداء بالتفرق فيه بالمذاهب والآراء والبدع التي تجعلها أحزابا وشيعا تتعصب كل منها لمذهب أو إمام، فيضيع الحق وتنفصم عرا الوحدة وتصبح بعد أخوّة الإيمان أمما متعادية كما حدث لمن قبلهم من الأمم.

حافظه للاستماع والبكاء عند القراءة والتدبر (١/٥٥١) الحديث رقم(٨٠٠).

(١) تفسير المراغي(٢/٢٢٠).

(٢) ذكر البخاري (٣/١٠٥) ومسلم (٣/٢٨) حديث صلات الكسوف وفيه قوله ﷺ: (وَلَقَدْ رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ وَرَأَيْتُ فِيهَا عَمْرَو بْنَ لُحَيٍّ وَهُوَ الَّذِي سَيَّبَ السَّوَائِبَ)، وقال البزار في مسنده(٢/٤٧٩) في ذكر عمرو بن لحي (أنه كان أول من غير دين إسماعيل فسيب السائبة وبحر البحيرة ووصل الواصلة وحمى الحامي))

(٣) تفسير المراغي(٣/٣٧).

(٤) المصدر السابق(٣/١٣٢).

(٥) سورة الأنعام الآية (١٥٩).

وقد ذهب بعض مفسري السلف إلى أن الآية نزلت في أهل الكتاب إذ فرقوا دين إبراهيم وموسى وعيسى، فجعلوه أديانا مختلفة، وكل منها مذاهب تتعصب لها شيع مختلفة، يتعادون ويتقاتلون فيه(١)، وذهب بعض آخر إلى أنها نزلت في أهل البدع والفرق الإسلامية والمذاهب التي استحدثت فمزقت وحدة الأمة.

ولا مانع من الجمع بين الرأيين، فإنه تعالى ذكر أهل الكتاب وشرعهم وأمر من استجاب لدعوة الإسلام بالوحدة وعدم التفرق كما تفرق من قبلهم، كما جاء في سورة آل عمران: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(٢) ثم بين أن رسوله بريء من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كما فعل أهل الكتاب، فهو يحذر من صنيعهم، وينهى عن سلوك طريقهم، فمن اتبع سنتهم في هذا التفريق فالرسول بريء منه، كما هو بريء من أولئك المفرقين من سالفي الأمم.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: «اختلفت اليهود والنصارى قبل أن يبعث محمد ﷺ، فلما بعث محمد أنزل عليه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾(٣)»(٤).

وأخرج رواة التفسير بالمأثور عن أبي هريرة في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾(٥) قال: «هم في هذه الأمة»(٦).

وأخرج الترمذي وابن أبي حاتم والبيهقي وغيرهم عن عمر بن الخطاب أن النبي ﷺ قال لعائشة: « يا عائش إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا هم أصحاب البدع وأصحاب الأهواء وأصحاب الضلالة من هذه الأمة ليست لهم توبة، يا عائشة إن لكل صاحب ذنب توبة إلا أصحاب البدع وأصحاب الأهواء ليس لهم توبة، أنا منهم بريء وهم مني برئاء»(٧).

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير(١٢/٢٦٩).

(٢) سورة آل عمران الآية (١٠٥).

(٣) سورة الأنعام الآية (١٥٩).

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره(١٢/٢٧٠).

(٥) سورة الأنعام الآية (١٥٩).

(٦) أخرجه ابن جرير في تفسيره(١٢/٢٧٠).

(٧) أخرجه الطبراني في الصغير(١/٣٣٠) الحديث رقم(٥٦٠)، والبيهقي في شعب الإيمان(٩/٣٩١) الحديث

وليس المراد بنفي التوبة عنهم أنهم لا تقبل لهم توبة إذا ظهر لهم خطؤهم وعرفوا بدعتهم فرجعوا وتابوا إلى ربهم، بل المراد أنهم لا يتوبون لزعمهم أنهم على الصواب، وسواهم على الباطل.

والخلاصة: إن المراد بالذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا هم أهل الكتاب، والمقصود من براءة الرسول منهم تحذير أمته من مثل فعلهم، ليعلم أن من فعل فعلهم وحذا حذوهم من هذه الأمة فالرسول منه بريء، إذ ما ورد في الكتاب والسنة من صفات الكفار وأفعالهم ليس خاصا بهم، بل إذا اتصف المسلمون بمثل ما اتصفوا به كان حكمهم كحكمهم، لأن الله لا يبيح للمسلمين البدع والضلالات والتفرق في الدين لأنهم مسلمون، فإن ذلك يكون هدما لأسس الدين، وخروجا من سنن المهتدين"[١].

وذكر أن من بغي الظالمين للأمة إحداث البدع، أوضح ذلك بعد قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾[٢] فقال: "ومن ذلك: الابتداع، إذ يبغونها عوجا بما يزيدون في الدين من البدع المحدثات التي لم يرد بها كتاب ولا سنة"[٣].

المراغي رحمه الله أجاد في التحذير من الابتداع في الدين، وقرر أن من أعظم ما يهدم العقيدة إحداث ما لم يأذن الله به، ونزيد الأمر وضوحا بما يلي:

ورد في السنة التحذير من البدع، فعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ وَعَلاَ صَوْتُهُ وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: «صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ»، وَيَقُولُ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ». وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وَيَقُولُ: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ الله وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ»[٤].

رقم(٦٨٤٧)، وأبو نعيم في الحلية(١٣٨/٤) وقال: حديث غريب من حديث شعبة تفرد به بقية، وقال ابن كثير في تفسيره(٢٣٩/٢): غريب ولا يصح رفعه.

(١) تفسير المراغي(٢٤٥/٣-٢٤٦).

(٢) سورة الأعراف الآية (٥٤).

(٣) تفسير المراغي(٣٠٧/٣).

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٥٩٢/٢) الحديث رقم(٨٦٧).

وأئمة السلف حذروا من الابتداع في الدين، ومن ذلك ما قاله الإمام مالك رحمه الله: "من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدا ﷺ خان الرسالة لأن الله يقول: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾[١] فما لم يكن يومئذ دينا فلا يكون اليوم دينا"[٢].

وإمام اهل السنة الإمام أحمد رحمه الله قال: "أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والاقتداء بهم وترك البدع، وكل بدعة فهي ضلالة، وترك الخصومات والجلوس مع أصحاب الأهواء، وترك المراء والجدال والخصومات في الدين"[٣].

---

(١) سورة المائدة الآية (٣).

(٢)الاعتصام للشاطبي(١٨/٢).

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة للالكائي(١٥٦/١).

الباب الأول: آراء المراغي الاعتقادية في الإيمان باللّه

وفيه تمهيد وثلاثة فصول:

الفصل الأول: آراء المراغي الاعتقادية في توحيد الربوبية.

الفصل الثاني: آراء المراغي الاعتقادية في توحيد الألوهية.

الفصل الثالث: آراء المراغي الاعتقادية في توحيد الأسماء و الصفات.

الفصل الأول: آراء المراغي الاعتقادية في توحيد الربوبية

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

التمهيد: تعريف توحيد الربوبية.

المبحث الأول: أول واجب على المكلف.

المبحث الثاني: أدلة المراغي على وجود الله.

المبحث الثالث: ردود المراغي على المخالفين في الربوبية.

التمهيد: تعريف توحيد الربوبية:

الربوبية: مصدر ربّ يربّ ربابة وربوبية(١).

قال ابن قتيبة(٢): "الرب: المالك، يقال: هذا رب الدار ورب الضيعة، أي مالكه، قال الله سبحانه: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾(٣) أي إلى سيدك، ولا يقال لمخلوق: هذا الرب، معرفا بالألف واللام كما يقال لله، إنما يقال: هذا رب كذا فيعرف بالإضافة، لأن الله مالك كل شيء، فإذا قيل: الرب دلَّت الألف واللام على معنى العموم، وإذا قيل لمخلوق: ربُّ كذا وربُّ كذا؛ نُسب إلى شيء خاص؛ لأنه لا يملك شيئاً غيره"(٤).

وقال ابن الأنباري(٥): "الرب ينقسم على ثلاثة أقسام، يكون الرب: المالك، ويكون الرب: السيد المطاع، قال الله تعالى: ﴿فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗا﴾(٦)أي: سيده، ويكون الرب: المصلح"(٧).

ويقول ابن فارس: "الراء والباء يدل على أصول:

الأول: إصلاح الشيء والقيام عليه.

الثاني: لزوم الشيء والإقامة عليه.

الثالث: ضم الشيء للشيء"(٨).

---

(١) اشتقاق أسماء الله لأبي القاسم الزجاجي طبعة مؤسسة الرسالة -بيروت- ١٤٠٦هـ، ص (٣٢).

(٢) هو: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، الإمام العلامة خطيب أهل السنة، من أئمة الأدب واللغة والنحو والشرع، ومن شيوخه إسحاق بن راهويه ومحمد الزيادي وزياد الحساني، ومن تلاميذه أحمد بن عبد الله وعبيد الله السكري وعبيد الله بن أحمد بن بكر، ومن مؤلفاته: غريب القرآن وغريب الحديث وأدب الكاتب، ولد سنة ٢١٣ وتوفي ببغداد سنة ٢٧٦. انظر: تاريخ بغداد(١٠/١٧٠-١٧١)، ووفيات الأعيان(٣/٤٢-٤٤).

(٣) سورة يوسف الآية (٥٠).

(٤) تفسير غريب القرآن ص(٩).

(٥) ابن الأنباري هو: الحافظ العلامة شيخ الأدب أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار النحوي كان من أفراد الدهر في سعة الحفظ مع الصدق والدين، أخذ عنه الدارقطني وأقرانه، له مصنفات كثيرة منها: الأضداد، وكتاب شرح الكافي، وغريب الحديث، مات سنة: ٣٢٨هـ، انظر: تذكرة الحفاظ(٣/٤٢).

(٦) سورة يوسف الآية (٤١).

(٧)تهذيب اللغة(١٥/١٧٧)، وانظر: تفسير الطبري(١/١٤١-١٤٣).

(٨) معجم مقاييس اللغة لابن فارس(ت٣٩٥هـ) دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٧٩م، (٢/٣٨٣).

ومن نظر في كتب اللغة وجد تعريفاتهم في الأغلب ترجع إلى ثلاث معان:

١- المالك ٢- السيد ٣- المصلح(١).

أما تعريف الرب في الشرع فلا يختلف عن التعريف اللغوي، فعرَّفه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بقوله:

"هو المالك المدبر، المعطي المانع، الضار النافع، الخافض الرافع، المعز المذل"(٢).

وعرّفه ابن سعدي فقال: "الرب: المنفرد بالخلق والرزق والتدبير". (٣)

أما المراغي فعرفه فقال: " (رب) هو السيد المربي الذي يسوس من يربيه ويدبر شؤونه، وتربية الله للناس نوعان:

النوع الأول: تربية خَلْقية: تكون بتنمية أجسامهم حتى تبلغ الأشُدَّ، وتنميةُ قواهم النفسية والعقلية.

النوع الثاني: تربية دينية تهذيبية: تكون بما يوحيه إلى أفراد منهم ليبلغوا للناس ما به تكمل عقولهم وتصفو نفوسهم"(٤).

وقال: "الربُّ الذي يدل على التربية والإحسان"(٥).

وقال أيضا: "الرب: السيد والمالك والمدبر والمربي"(٦).

وزاد في الإيضاح فقال: "توحيد الربوبية: أي اعتقاد أن الله وحده هو الخالق المدبر لهذا الكون والمتصرف فيه على مقتضى حكمته ونظام سنته وتسخير الأسباب لمن شاء بما شاء"(٧).

---

(١) تهذيب اللغة للأزهري (ت ٣٧٠ هـ)، طبعة الدار المصرية، القاهرة: ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م، (١٧٦/١٥)، والصحاح للجوهري (ت٣٩٣هـ)، طبعة دار للعلم للملايين، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٧٩م، (١٣٠/١)، ولسان العرب لابن منظور (ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت (٣٩٩/١).

(٢) مجموعة الفتاوى الكبرى لابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ)، تحقيق: عامر الجزار وأنور الباز، دار الوفاء، المنصورة، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، (٧٢/١).

(٣) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، الطبعة الأولى: (١٤٢٢هـ) الناشر: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالسعودية، ص (٢١).

(٤) تفسير المراغي لأحمد مصطفى المراغي طبعة دار الكتب العلمية ط الثانية ٢٠٠٦ م، بيروت، (٣١/١ -٣٢-٥٩).

(٥) تفسير المراغي (١٤٨/٢).

(٦) المصدر السابق (٣١٥/٣).

(٧) المصدر السابق (٣٧٠/٤).

وذكر في تعريف الرب فقال: "والرب: هو السيد المالك المربِّي المدبر المتصرف، وليس للخلق رب ولا إله إلا الله الذي خلقهم، فهو المالك لكل شيء وفى كل زمن وعلى كل حال، وملك غيره ناقص موقوت فهو المعبود بحق"(١).

وبين عند قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾(٢): "أي اتخذوا رؤساءهم أربابًا من دون الله، والربوبية تستلزم الألوهية، إذ الرب هو الذي يجب أن يعبد وحده، والحال أنهم ما أمروا على لسان موسى وعيسى ومن اتبعهما فيما جاءا به من عند الله، إلا أن يعبدوا ويطيعوا في الدين إلهًا واحدًا بما شرعه لهم وهو ربهم ورب كل شيء ومليكه"(٣).

فالمراغي رحمه الله وافق تعريف أهل العلم رحمهم الله تعالى لمعنى الرب حسب الوضع اللغوي والمعنى الشرعي.



(١) تفسير المراغي(١٤٤/٣).

(٢) سورة التوبة الآية (٣١).

(٣) تفسير المراغي(٨٤/٤).

المبحث الأول: أول واجب على المكلف.

اختلف الناس في طريقة معرفة الله تبارك وتعالى هل هي فطرية ضرورية أم كسبية نظرية وينبني على هذا الخلاف تقرير ما هو أول واجب على المكلفين، هل هو توحيد العبادة أو توحيد الربوبية.

١- ذهب عامة أهل السنة والجماعة -رحمهم الله- إلى أن معرفة الله فطرية ضرورية وأن أول واجب عبادة الله ﷻ، وهو الحق الذي تؤيده النصوص[١].

٢- وذهب جمهور المتكلمين من المعتزلة[٢] والأشاعرة[٣] والماتريدية[٤] إلى أن معرفة الله كسبية نظرية وأن أول واجب توحيد الربوبية.

---

(١) يراجع الفتاوى لابن تيمية، (٤٨/١)، ودرء تعارض العقل لابن تيمية دار الكنوز الأدبية - الرياض، ١٣٩١هـ، (١٢٦/٣)، وشفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن قيم الجوزية دار المعرفة، بيروت، لبنان، (٨٢١/٢)، وفتح الباري شرح لابن حجر العسقلاني دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ، (٧٠/١)، وأضواء البيان لمحمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ) دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان عام النشر: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م، ٣ /٤١٠).

(٢) انظر: شرح الأصول الخمسة، للقاضي عبد الجبّار بن أحمد الهمذاني، ط١، ١٣٨٤هـ، مكتبة وهبة بمصر. ص (٣٩- ٤٦ -٥٢)، والكشاف للزمخشري، مطبعة الحلبي، القاهرة، سنة ١٣٨٥هـ، (٥٩١/١).

والمعتزلة: فرقة ظهرت في الإسلام في القرن الثاني الهجري بزعامة رجل يسمى واصل بن عطاء الغزال، وقد تفرقت فرقا كثيرة، يعتمدون في معتقدهم على أصول خمسة أصلوها لأنفسهم بدلا من أركان الإسلام وأركان الإيمان وهي: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، انظر: الملل والنحل للشهرستاني(٥٦/١)، وفرق معاصرة للعواجي(١١٦٤/٣).

(٣) انظر: الإنصاف للباقلاني (ت ٤٠٣هـ)، دار الكتب المصرية ص(١٣)، والإرشاد الطبعة الأولى (١٤٠٥هـ) مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ص(٢٥).

والأشاعرة: فرقة تنتسب إلى أبي الحسن الأشعري، وهم لا يثبتون لله إلا سبع صفات، وطريقهم في إثباتها العقل لا النقل، ويقولون إن كلام الله كلام نفسي، والقرآن عبارة عنه، انظر: الملل والنحل للشهرستاني(٩٤/١)، وفرق معاصرة للعواجي(١٢٠٥/٣).

(٤) انظر: التوحيد للماتريدي دار الجامعات المصرية ص(١٢٩)، وإشارات المرام للبياضي، كمال الدين أحمد، (ت١٠٩٨هـ) مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده، ط١ سنة ١٣٦٨هـ-١٩٤٩، ص(٥٣).

والماتريدية: فرقة تنتسب إلى أحد علماء القرن الثالث الهجري وهو محمد بن محمد بن محمود المعروف بأبي منصور الماتريدي، أثبتوا لله الأسماء الحسنى ولكنهم توسعوا فيها، وأثبتوا لله ثماني صفات وقالوا بأن كلام الله نفسي وغير ذلك من

أما المراغي رحمه فقد نص على مذهب أهل السنة والجماعة في هذه المسألة فقال: "إن أول الواجب على المكلف أن يعلم أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له". [١]

والدليل على أن أول واجب توحيد العبادة الكتاب والسنة والإجماع:

أما الكتاب: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[٣].

فالرُّسل عليهم الصلاة والسلام أول ما يستفتحون دعوتهم إلى توحيد العبادة والنهي عن الشرك فدل على أنه أول واجب على المكلف.

ومن السنة: قوله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «**إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله**...»[٤] الحديث.

وقوله ﷺ في حديث ابن عمر رضي الله عنهما «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله** ...» الحديث[٥].

فدلالة السنة ظاهرة في أن أول واجب على المكلفين توحيد العبادة وليس توحيد الربوبية لأن معرفة الرب فطرية.

أما الإجماع: فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "السلف والأئمة متفقون على أن أول ما يؤمر به العباد الشهادتان، ومتفقون على أن من فعل ذلك قبل البلوغ لم يؤمر بتجديد ذلك عقب البلوغ"[١].

الآراء التي خالفوا فيها مذهب السلف ومذهبهم قريب من مذهب الأشاعرة، انظر: فرق معاصرة للعواجي(٣/١٢٢٧)، والماتريدية للشمس الأفغاني(١/٢١٤).

(١) تفسير المراغي (٦/٨٤).

(٢) سورة النحل الآية: (٣٦).

(٣) سورة الأنبياء الآية: (٢٥).

(٤) سبق تخريجه ص(٢٧).

(٥) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب: {فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم} (١/ ٩٤- ٩٥) رقم الحديث: (٢٥). ومسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، محمد رسول الله (١/ ٥٣) رقم الحديث: (٢٢).

وقال ابن القيم رحمه الله: "أجمع المسلمون على أن الكافر إذا قال لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فقد دخل في الإسلام"[٢].



(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية: ١٤١١هـ -١٩٩١م، (٨/ ١١).

(٢) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة الثانية: (١٣٩٣هـ / ١٩٧٣)، (٣/٤٢١).

المبحث الثاني: أدلة المراغي على وجود الله

الإيمان بوجود الله ﷻ أمر فطري فطر الله الخلق عليه ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[١]، لكن هذه الفطرة قد يطرأ عليها ما يغيرها أو يضعفها فيحتاج الإنسان للأدلة والبراهين لكي تعيده إلى الصراط المستقيم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "إن الإقرار بالخالق وكماله يكون فطريا ضروريا في حق من سَلِمَت فطرته، وإن كان مع ذلك تقوم عليه الأدلة الكثيرة، وقد يحتاج إلى الأدلة عليه كثيرٌ من الناس عند تغير الفطرة وأحوال تعرض لها" [٢].

أما المراغي رحمه الله فقد ذكر مجموعة من الأدلة على وجود الله جل وعلا، ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الفطرة:

الفطرة لغة: يراد بها معان عدة، هي: الابتداء، والشق، والخلق، والاختراع[٣]

والفطرة شرعا: ذهب عامة السلف إلى أنها الإسلام.

قال ابن عبد البر رحمه الله: "هو المعروف عند عامة السلف من أهل العلم بالتأويل"[٤].

وقال ابن تيمية رحمه الله: "الآثار المنقولة عن السلف لا تدل إلا على هذا القول"[٥].

أما المراغي رحمه الله فتطرق إلى دلالة الفطرة في أكثر من موضع في تفسيره، فقال في تعريف الميثاق: "العهد الشديد المؤكد، وهو قسمان: عهد خلقة وفطرة، وعهد نبوة ورسالة"[٦].

---

(١) سورة الروم الآية: (٣٠).

(٢) الفتاوى لابن تيمية (٤٥/٦).

(٣) تهذيب اللغة للأزهري(٢٢٢/١٣)، والصحاح للجوهري (٧٨١/٢)، ولسان العرب لابن منظور (٥٥/٥)، والقاموس المحيط للفيروزآبادي (٤٥٦/١).

(٤) التمهيد لابن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ)، الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية – المغرب، عام النشر: ١٣٨٧هـ، (٧٢/١٨).

(٥) درء التعارض لابن تيمية دار الكنوز الأدبية – الرياض، ١٣٩١هـ، (٢٩٨/٤).

(٦) تفسير المراغي(١٣٢/١).

وقال عند الكلام على آية الميثاق في سورة الأعراف في المعنى الإجمالي: "ذكر -أي الله تعالى- هدايته لهم بما أودع في فطرتهم وركب في عقولهم من الاستعداد للإيمان به وتوحيده وشكره منذ النشأة الأولى"[١]، ثم ذكر رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ﴾[٢]: "واذكر أيها الرسول للناس كافة ما أخذه الله من ميثاق الفطرة على البشر عامة، إذ استخرج من بني آدم ذريتهم بطنا إثر بطن، وخلقهم على فطرة الإسلام بما أودع في قلبهم، من غريزة الإيمان اليقيني بأن كل فعل لا بد له من فاعل وأن فوق كل العوالم القائمة على سنة الأسباب والمسببات سلطانا أعلى على جميع الكائنات هو المستحق للعبادة وحده، وأشهد كل واحد من هؤلاء الذرية الحادثة جيلا بعد جيل على نفسه بما أودعه في غريزته واستعداده قائلا لهم قول إرادة وتكوين لا قول وحي وتبليغ ألست بربكم؟ فقالوا بلسان الحال لا بلسان المقال بلى أنت ربنا المستحق للعبادة، فالكلام من قبيل التمثيل). [٣]

ثم ذكر بعد ذلك قول ابن كثير رحمه الله فقال: "قال ابن كثير في تفسير الآية: يخبر الله تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم، وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾[٤]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة**»[٥]. وفي رواية: «**على هذه الملة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تلد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟** »[٦]،

(١) تفسير المراغي (٩/١٠٢).

(٢) سورة الأعراف الآية: (١٧٢).

(٣) تفسير المراغي: (٧/١٢١).

(٤) سورة الروم الآية: (٣٠).

(٥) صحيح البخاري: كتاب الجنائز، بَابُ ما قيل في أولاد المشركين، (٢/١٠٠) رقم الحديث(١٣٨٥)، ومسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، (٤/٢٠٤٧) رقم الحديث (٢٦٥٨).

(٦) صحيح مسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، (٤/٢٠٤٧)، رقم الحديث: (٢٦٥٨).

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار[١] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم**»[٢][٣].

وبعد ذلك نقل قول ابن القيم فقال: "قال ابن القيم في كتاب الروح في سياق البحث في خلق الأرواح قبل الأجساد ما خلاصته: إن الله سبحانه استخرج صور البشر وأمثالهم، فميز شقيهم وسعيدهم ومعافاهم من مبتلاهم، والآثار متظاهرة به مرفوعة، وأن الله أقام عليهم الحجة حينئذ، وأشهدهم بربوبيته، واستشهد عليهم ملائكته، كما تدل على ذلك الآية"[٤].

ونقل المراغي عن أبي إسحاق الزجاج[٥] قوله: "جائز أن يكون الله سبحانه جعل لأمثال الذر التي أخرجها فَهْمًا تعقل به كما قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾[٦] وقد سخر مع داود الجبال تسبح معه والطير"[٧].

ونقل أيضا عن ابن الأنباري أن: "مذهب أهل الحديث وكبراء العلم في هذه الآية أن الله أخرج ذرية آدم من صلبه ومن أصلاب أولاده وهم في صور الذر فأخذ عليهم الميثاق أنه

---

(١) هو الصحابي هو عياض بن حمار بن أبي حمار بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم التميمي المجاشعي، يعد في البصريين وكان صديقا لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- قديما، انظر: طبقات ابن سعد(٣٧/٦)، والاستيعاب لابن عبد البر(١٢٣٣/٣).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، (٢١٩٧/٤) رقم الحديث (٢٨٦٥).

(٣) تفسير ابن كثير، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، (٥٠٠/٣).

(٤) الروح لابن القيم، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، ١٣٩٥–١٩٧٥، ص(١٥٦-١٦٠).

(٥) أبو إسحاق هو إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج، عالم بالنحو واللغة، ولد ببغداد سنة ٢٤١هـ، له كتب كثيرة منها: "معاني القرآن وإعرابه" في ثلاثة أجزاء، وكتاب "فعلت وأفعلت"، وكتاب "الاشتقاق" وغيرها، توفي ببغداد سنة: ٣١١ هـ، انظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي(٦١٣/٦)، ووفيات الأعيان لابن خلكان(٤٩/١).

(٦) سورة النمل الآية: (١٨).

(٧) تفسير المراغي(١٠٨/٩)، وينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج، الناشر: عالم الكتب – بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، (٣٩٠/٢).

خالقهم وأنهم مصنوعون له، فاعترفوا بذلك وفعلوا، وذلك بعد أن ركَّب فيهم عقولًا عرفوا بها ما عُرِض عليهم"(١).

وقال في المفردات عند تفسيره آية الروم: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٢): "والفطرة: هي الحال التي خلق الله الناس عليها من القابلية للحق، والتهيؤ لإدراكه، وخلق الله: هو فطرته المذكورة أولا"(٣).

ثم قال في إيضاحه لآية الروم: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾: "أي فسدد وجهك نحو الوجه الذي وجهك إليه ربك لطاعته، وهو الدين القيم، دين الفطرة، ومِل عن الضلال إلى الهدى.

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي الزموا خلقة الله التي خلق الناس عليها، فقد جعلهم بفطرتهم جانحين للتوحيد وموقنين به، لكونه موافقاً لما يهدي إليه العقل، ويرشد إليه صحيح النظر، كما ورد في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم: «**كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة جمعاء،** (مستوية لم يذهب من بدنها شيء) **هل تحسون من جدعاء**» (٤) (مقطوعة الأذن أو الأنف) ".

ثم علل وجوب الامتثال بقوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا ينبغي أن تبدل فطرة الله أو تغير، وهذا خبر في معنى النهي كأنه قيل: لا تبدلوا دين الله بالشرك، بيان هذا أن العقل الإنساني كصحيفة بيضاء، قابلة لنقش ما يراد أن يكتب فيها، كالأرض تقبل كل ما يغرس فيها، فهي تنبت حنظلاً وفاكهة، ودواء وسُمًّا، والنفس يَرِد عليها الديانات والمعارف فتقبلها، والخير أغلب عليها من الشر، كما أن اغلب نبات الأرض يصلح للرعي، والقليل منه سُمٌّ لا ينتفع به، ولا تغير بالآراء الفاسدة إلا بمعلم يعلمها ذلك كالأبوين اليهوديين أو النصرانيين، ولو

(١) انظر: كتاب الروح لابن القيم الجوزية دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ، (١٦٣/١)، وتفسير المراغي(٤٣٢/٣-٤٣٣-٤٣٤).

(٢) سورة الروم الآية: (٣٠).

(٣) تفسير المراغي (٤٥/٢١).

(٤) سبق تخريجه ص(٥٧).

ترك الطفل وشأنه لعرف أن الإله واحد ولم يسقه عقله لغير ذلك، فإن البهيمة لا تجدع إلا بمن يجدعها من الخارج، هكذا صحيفة العقل لا تُغير إلا بمؤثر خارجي يضلها بعد علم"(١).

وقال عند قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾(٢): "وهذا العهد الذي نقضوه هو العهد الفطري. . . ثم قال فمن أنكر الإله وصفاته بعد أن شهدت بوجوده الآثار المنبثة في الكون، أو أنكر نبوة نبي بعد أن أقام الدليل على صدقه فقد قطع ما أمر الله به أن يوصل بمقتضى العهد الفطري، لأنه قطع الصلة بين الدليل والمدلول"(٣).

وقال عند قوله ﷻ: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾(٤): "أي صبغنا الله وفطرنا على الاستعداد للحق والإيمان بما جاء به الأنبياء المرسلون"(٥).

وذكر رحمه الله في موضع آخر من تفسيره: "إن الدين الفطري الذي هو من خلق الله وآثار قدرته ليس هو مجموع الأحكام التي جاء بها الرسل ليبلغوها للناس، بل هو ما أودعه الله في فطرة البشر من توحيده والاعتراف بقدرته وجلاله، وهو ما أشار إليه في الحديث: «**كل مولود يولد على الفطرة**»(٦)"(٧).

وقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾(٨): "أي وما وجدنا لأكثر أولئك الأقوام عهدا ما يفون به سواء كان عهد الفطرة التي فطر الله الناس عليها. . . أم كان العهد الذي أخذه ربهم عليهم وهم في الأصلاب أنه ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو، وأقروا بذلك وشهدوا على أنفسهم به، وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم، وعبدوا معه غيره بلا دليل ولا حجة من عقل ولا شرع، وقد جاء في صحيح مسلم: «**إني**

(١) تفسير المراغي (٧/٢٧٥-٢٧٦).
(٢) سورة البقرة الآية: (٢٧).
(٣) تفسير المراغي (١/٦٨).
(٤) سورة البقرة الآية: (١٣٨).
(٥) تفسير المراغي (١/١٨٨).
(٦) سبق تخريجه ص(٥٦).
(٧) تفسير المراغي (٢/٣١٨).
(٨) سورة الأعراف الآية: (١٠٢).

خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم» (١).

وفي الصحيحين: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»(٢)"(٣).

وقال عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾(٤): "أي إن الناس جميعا كانوا أمة واحدة على فطرة الإسلام والتوحيد ثم اختلفوا في الأديان، وإلى ذلك الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»(٥)"(٦).

وذكر عند قوله ﷻ: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾(٧): "أي في وجود الله شك، وكيف ذلك والفطرة شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به، فالاعتراف به ضروري لدى كل ذي رأي حصيف كما جاء في الحديث: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**» (٨)"(٩).

وقال في تفسير سورة الأعراف: "فالإسلام دين الفطرة"(١٠).

فالمراغي رحمه الله لم يخرج في تقريره عن الفطرة عن مذهب السلف.

وجملة الأقوال المروية عن أهل السنة والجماعة في هذا الباب خمسة أقوال وهي:

الأول: الفطرة التي فطروا عليها من المعرفة.

---

(١) سبق تخريجه ص(٥٦).

(٢) سبق تخريجه ص(٥٧).

(٣) تفسير المراغي(٣١٨/٢).

(٤) سورة يونس الآية: (١٩).

(٥) سبق تخريجه ص(٥٧).

(٦) تفسير المراغي (٢١٩/٤).

(٧) سورة إبراهيم الآية: (١٠).

(٨) سبق تخريجه ص(٥٨).

(٩) تفسير المراغي (١١١/٥).

(١٠) المصدر السابق (١٢٥/٨)

الثاني: ما أُخِذ عليهم من الميثاق.

الثالث: ما فُطِروا عليه من الكفر والإيمان والإنكار والمعرفة.

الرابع: هي ما يقلب الله عليه قلوب الخلق إليه مما يريد ويشاء.

الخامس: الفطرة هي الإسلام(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بعد ذكره لبعض هذه الأقوال: "لا منافاة بينها بل يحصل بها المقصود"(٢).

ولكن القول الأخير هو الظاهر والأرجح لظاهر الأدلة؛ فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٣): "فقد ذكر عامة السلف أن المقصود بفطرة الله دين الإسلام(٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "الآثار المنقولة عن السلف لا تدل إلا على هذا القول"(٥).

ومن السنة: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة جمعاء، هل تحسون من جدعاء**» قال أبو هريرة رضي الله عنه: اقرؤوا إن شئتم ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٦). وفي رواية: «**ما من مولود إلا وهو على الملة**» وفي رواية أخرى: «**إلا على هذه الملة**» (٧).

---

(١) ينظر في ذلك: التمهيد لابن عبد البر (ت: ٤٦٣ هـ)، دار الكتب السلفية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، (١٨/٦٨-٩٥)، وتفسير القرطبي (ت: ٦٧١هـ): دار الكتب المصرية – القاهرة الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م، (١٤/٢٥)، ودرء التعارض لابن تيمية (٨/٣٥٩-٤٣٥)، وشفاء العليل لابن القيم الجوزية، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (٢/٧٧٥-٨٠٥).

(٢) درء التعارض لابن تيمية (٨/٤٥٤).

(٣) سورة الروم الآية: (٣٠).

(٤) انظر: التمهيد لابن عبد البر(١٨/٧٢)، ودرء التعارض لابن تيمية (٨/٣٦٧).

(٥) درء التعارض لابن تيمية (٨/٤١٠).

(٦) سورة الروم الآية: (٣٠).

(٧) هاتان الروايتان في صحيح مسلم وسبق تخريجهما ص(٥٧).

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم**» [(١)].

"والحنيف في كلام العرب: هو المستقيم المخلص، ولا استقامة أكثر من الإسلام"[(٢)].

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله شارحا وموضحا لهذا الموضوع: "ومما ينبغي أن يعلم أنه إذا قيل إنه يولد على الفطرة، أو على الإسلام، أو على هذه الملة، أو خلق حنيفا، فليس المراد به أنه حين يخرج من بطن أمه يعلم هذا الدين ويريده، فإن الله يقول: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[(٣)]، ولكن فطرته موجبة مقتضية لدين الإسلام لقربه، فنفس الفطرة تستلزم الإقرار بخالقه ومحبته وإخلاص الدين له، وموجبات الفطرة ومقتضياتها تحصل شيئا بعد شيء بحسب كمال الفطرة إذا سلمت من المعارض"[(٤)].

وقال الشوكاني رحمه الله في معنى حنيفا: "أي مائلين عن الأديان إلى دين الإسلام"[(٥)].

القسم الثاني: النظر والاستدلال بالآيات:

الله ﷻ وتقدس نصب الأدلة الكثيرة على معرفته في الأنفس والأفاق؛ فمن نظر في الكون نظر اعتبار وتبصر وتفكر وتدبر ظهر له من الدلائل والبينات الموجبة لزيادة الإيمان ورسوخه في القلب الشيء الكثير، فمن أجل ذلك تنوعت الأدلة وتكاثرت لعظم أثرها المحسوس على الناس؛ قال ﷻ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[(٦)]، وقال ﷻ: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[(٧)].

---

(١) سبق تخريجه ص(٥٦).

(٢) التمهيد لابن عبد البر (٧٥/١٨) ودرء التعارض لابن تيمية (٣٦٩/٨).

(٣) سورة النحل الآية: (٧٨).

(٤) شفاء العليل لابن القيم (٢/ ٧٨٩).

(٥) فتح القدير الشوكاني (ت: ١٢٥٥ هـ)، طبعة البابي الحلبي، الطبعة الأولى، سنة ١٣٥٠هـ، (٤٧٦/٥).

(٦) سورة فصلت الآية: (٥٣).

(٧) سورة الذاريات الآية: (٢٠-٢١).

قال ابن القيم رحمه الله في هذا الموضوع: "وإذا تأملت ما دعا الله سبحانه في كتابه عباده إلى الفكر فيه، أوقعك على العلم به ﷻ وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله، من عموم قدرته وعلمه، وكمال حكمته ورحمته وإحسانه وبره ولطفه، وعدله ورضاه وثوابه وعقابه، فبهذا تعَرَّف إلى عباده وندبهم إلى التفكر في آياته"(١).

والمراغي رحمه الله تطرق إلى هذه الآيات التي جعلها الله جلا وعلا دلالات على معرفته ﷻ، فقال في حال المتقين وما يتمتعون به من التدبر والتفكر: "ونظرهم في دلائل التوحيد التي في الآفاق والأنفس، وتفكيرهم في ملكوت السماوات والأرض مصدقين قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾(٢)"(٣). وقال: "وفي الأرض دلائل على وجود الخالق وعظيم قدرته، استبانت لمن فكر وتدبر في هذا الكون، وبديع صنعه"(٤).

وقال عن فوائد هذه الآيات وأنها دالة على توحيد الربوبية والألوهية: "والآيات: واحدتها آية وهي العلامة الظاهرة، والمراد بها كل ما يدل على وجود الخالق ووحدانيته مما أودعه في هذا الكون ونشاهده في الأنفس"(٥).

وقال في موضع آخر عند تفسير قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾(٦) "أي بيّن سبحانه وحدانيته بنصب الدلائل التكوينية في الآفاق والأنفس"(٧).

ثم ذكر حديث عائشة رضي الله عنها، وفيه التحذير من عدم التفكر في آيات الله الكونية، لقول النبي ﷺ لبلال: «**ومالي لا أبكي وقد أنزل الله علي في هذه الليلة؟** ﴿إِنَّ فِي

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١)، دار الكتب العلمية، بيروت، (١/١٧٨).

(٢) سورة فصلت الآية: (٣).

(٣) تفسير المراغي (٩/٢٨٦).

(٤) المصدر السابق (٩/٢٨٧).

(٥) المصدر السابق (١/٨٦).

(٦) سورة آل عمران الآية: (١٨).

(٧) تفسير المراغي (١/٤٧١).

﴿خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[(١)] ثم قال: «**ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها**» وروي: «**ويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأملها**» [(٢)(٣)].

وذكر المراغي أن الدلائل في الكون على نوعين:

النوع الأول: دلائل الآفاق:

قال المراغي رحمه الله: "فنظر الحواس في الأكوان وإدراكها ما فيها من بديع الإتقان ينير هذه الحواس"[(٤)].

وقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[(٥)]: "أي في نظام السماوات والأرض وبديع تقديرهما وعجيب صنعهما، وفي اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما بنظام دقيق طوال العام، نرى آثاره في أجسامنا وعقولنا بتأثير حرارة الشمس وبرد الليل، وفي الحيوان والنبات وغير ذلك، لآيات ودلائل على وحدانية الله وكمال علمه وقدرته"[(٦)].

وقد تكلم رحمه الله على مجموعة من الآيات في سورة الأنعام، التي ذكر الله فيها كثيرا من الآيات الكونية مثل الليل والنهار، والشمس والقمر، وإنزال المطر، وإخراج النبات، واختلاف شكله ولونه وطعمه.

ثم ذكر قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾[(٧)]: "أي ذلكم المتصف بكامل القدرة وبالغ الحكمة هو الله الخالق لكل شيء المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فكيف تصرفون عن عبادته وتشركون به من لا يقدر على شيء من ذلك".

---

(١) سورة آل عمران الآية: (١٩٠).

(٢) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار، لأبي جعفر الطحاوي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م، (١٢/٣٣)، رقم الحديث(٤٦١٨)، وابن حبان في صحيح ابن حبان لأبي حاتم محمد بن حبان البستي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، (٢/٣٨٦)، رقم الحديث(٦٢٠)، قال الشيخ الألباني: حسن، انظر: صحيح الترغيب والترهيب(٢/٨٨)، وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على صحيح ابن حبان: "إسناده صحيح على شرط مسلم".

(٣) تفسير المراغي (٢/١٣٣).

(٤) المصدر السابق: (١/٣٨٨).

(٥) سورة آل عمران الآية: (١٩٠).

(٦) تفسير المراغي (٢/١٣٣).

(٧) سورة الأنعام الآية: (٩٥).

وذكر فائدة تكرار الآيات الكونية فقال: "لتكون دليلا على الربوبية والألوهية وأنه لا معبود سواه"(١).

وقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾(٢): "أي وكم في السماوات والأرض من آيات دالة على توحيد الله وكمال علمه وقدرته من شمس وقمر ونجوم وجبال وبحار ونباتات وأشجار، يمر عليها أكثر الناس وهم غافلون عما فيها من عبرة ودلالة على توحيد ربها، وأن الألوهية لا تكون إلا للواحد القهار الذي خلقها وخلق كل شيء فأحسن تدبيره"(٣).

وذكر عند قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٤): "أي وسخر لكم جميع ما خلقه في سمواته وأرضه مما تتعلق به مصالحكم، وتقوم به معايشكم، فمما سخر لكم من المخلوقات السماوية الشمس والقمر والنجوم النيرات والمطر والسحاب والرياح، ومن المخلوقات الأرضية الدواب والأشجار والجبال والسفن رحمة منه وفضلاً، وكل هذه أدلة على أنه الله الذي لا إله غيره، لمن تأمل فيها واعتبرها وتدبرها حق التدبر"(٥).

(١) تفسير المراغي (٣/٣١٦).
(٢) سورة يوسف الآية: (١٠٥).
(٣) تفسير المراغي (٥/٣٩-٤٠).
(٤) سورة الجاثية الآية: (١٢).
(٥) تفسير المراغي (٩/١٢٢).

النوع الثاني: دلائل الأنفس:

قال المراغي رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ﴾[(١)]: "الإنشاء: إيجاد الشيء وتربيته، أو إحداثه بالتدرج، والنفس تطلق على الروح وعلى الشخص المركب من روح وبدن.

والمعنى: إنه تعالى هو الذي أنشأكم من نفس واحدة هي الإنسان الأول الذي تسلسل منه سائر الناس بالتوالد، وهو آدم عليه السلام.

وفي إنشاء جميع البشر من نفس واحدة آيات بينات على قدرة الله وعلمه وحكمته ووحدانيته"، ثم ذكر فائدة ختم الآية بالتفقه فقال: "لأن استخراج الحكم من خلق البشر يتوقف على غوص في أعماق الآيات وفطنة في استخراج دقائق الحكم"[(٢)].

وفي سورة الزمر ذكر الله جلَّ وعلا عددا من الآيات الكونية في الآفاق والأنفس، ومن ذلك مراحل خلق الإنسان والحيوان فختم الله تبارك وتعالى الآيات بقوله: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴾[(٣)]، فعلق المراغي رحمه الله على ذلك بقوله: "وقول الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ ﴾ أي ذلكم العظيم الشأن الذي عددت أفعاله هو الله، مُربّيكم فيما ذكر من الأطوار وفيما بعدها، المستحق لتخصيص العبادة به سبحانه، ﴿ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ ﴾ على الإطلاق في الدنيا والآخرة، ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ﴿ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادته تعالى مع وفور موجباتها ودواعيها، وانتفاء ما يصرف عنها إلى عبادة غيره سبحانه من غير داع إليها مع كثرة ما يصرف عنها، والخلاصة: كيف تعبدون معه سواه؟ أين ذهبت عقولكم؟ وكيف ضاعت أحلامكم؟ "[(٤)].

---

(١) سورة الأنعام الآية: (٩٨).

(٢) تفسير المراغي (٣/١٦٧-١٦٨).

(٣) سورة الزمر الآية: (٦).

(٤) تفسير المراغي (٨/٢٤٤-٢٤٥).

وقال رحمه الله: "وعهد الله ما أخذه على عباده من فهم السنن الكونية بالنظر والاعتبار بما أوتوه من نعمة العقل والحواس المرشدة إلى الفهم، ونقضه عدم استعمال تلك المواهب فيما خلقت له حتى كأنهم فقدوها"(١).

وقال بعد قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾(٢) أي حقا إن حال الإنسان لتدعو إلى العجب؛ فإنه بعد أن رأى في نفسه مما عددناه من عظيم الآيات، وشاهد من جلائل الآثار ما يحرك الأنظار، ويسير بها إلى صواب الآراء، وصحيح الأفكار، لم يقض ما أمره به من التأمل في دلائل قدرته، والتدبر في معالم هذا الكون المنبئة بوحدانية خالقه، الناطقة بأن لها موجدا يستحق أن يقصده وحده دون سواه، ويتوجه إليه بالعبادة والامتثال إلى ما يأمره به.

والخلاصة: أن الإنسان قد بلغ في جحده آيات خالقه مبلغا لا ينتهي منه العجب؛ إذ قد رأى في نفسه وفي السموات والأرض وسائر ما يحيط به من العوالم، الآيات الناطقة بوحدانية الخالق، الدالة على عظيم قدرته، ثم هو لا يزال مستمرا في نكران نعمته عليه، فإذا ذكِّر لا يتذكر، وإذا أرشد إلى الهدى لم يسلك سبيله الأقوم، ولا يزال يرتكب ما نهي عنه، ويترك ما أمر به"(٣).

فالمراغي في ذكره للآيات الكونية في الآفاق والأنفس، ودلالتها على توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وافق مذهب أهل السنة والجماعة في ذلك، وأن المقصود الأعظم من الآيات الكونية الدلالة على توحيد العبادة؛ لأن توحيد الربوبية الأصل فيه الفطرة.

يقول الراغب الأصفهاني رحمه الله(٤): "جعل -أي الله- لكل إنسان من بدنه ونفسه عالَماً صغيراً، أوجد فيه مثال كل ما هو موجود في العالَم الكبير، ليجري ذلك من العالَم مجرى مختصَرٍ من الكتاب البسيط، يكون مع كل أحد نسخة يتأملها في الحضر والسفر والليل والنهار، فإن نشط وتفرغ للتوسع في العلم نظر في الكتاب الكبير الذي هو العالم، فيطلع منه

(١) تفسير المراغي: (٦٦/١).

(٢) سورة عبس الآية: (٢٣).

(٣) تفسير المراغي: (٣٣٣/١٠).

(٤) هو: أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل الأصفهاني الملقب بالراغب، العلامة المحقق الباهر، له مصنفات منها: "الذريعة إلى مكارم الشريعة" و"تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين" وغيرها، اختلف في سنة وفاته والأقرب أنها سنة (٥٠٢هـ) كما ذكره محققوا السير، انظر: سير أعلام النبلاء (١٢٠/١٨).

على الكون ليغزر علمه ويتسع فهمه، وإلا فليقنع بالمختصر الذي معه، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾[1][2].

يقول ابن تيمية . رحمة الله تعالى -: "فالاستدلال على الخالق بخلق الإنسان في غاية الحسن والاستقامة، وهي طريقة عقلية صحيحة، وهي شرعية دل القرآن عليها وهدى الناس إليها، وبينها وأرشد إليها وهي عقلية، فإن نفس كون الإنسان حادثًا بعد أن لم يكن، ومولودًا ومخلوقاً من نطفة ثم من علقة، هذا لم يُعلم بمجرد خبر الرسول، بل هذا يعلمه الناسُ كلهم بعقولهم، سواء أخبر به الرسول أم لم يخبر، لكن الرسول أمر أن يُستدلَّ به ودلَّ به وبيَّنه واحتجَّ به، فهو دليل شرعي؛ لأن الشرع استدل به وأمر أن يستدل به، وهو عقلي لأن بالعقل تعلم صحته. . . "[3].

ويقول ابن القيم رحمه الله: "لما كان أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه، دعاه خالقه وبارئه ومصوِّره وفاطره من ماء إلى التبصر والتفكر في نفسه، فإذا تفكر الإنسان في نفسه استنارت له آيات الربوبية، وسطعت له أنوار اليقين، واضمحلت عنه غمرات الشك والريب. . . "[4].

وقال الشوكاني رحمه الله: "والمراد بالنظر: التفكر والاعتبار، أي تفكروا واعتبروا بما في السموات والأرض من المصنوعات الدالة على الصانع ووحدته وكمال قدرته، فإن في كل مخلوقاته عبرة للمعتبرين، وموعظة للمتفكرين، سواء كانت من جلائل مصنوعاته، كملكوت السموات والأرض، أو من دقائقها من سائر مخلوقاته"[5].



---

(١) سورة الذاريات الآية: (٢٠).

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة، للراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ)، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، ص(٢٠٢).

(٣) النبوات لابن تيمية، الناشر: أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ص(٩٢).

(٤) التبيان في أقسام القرآن لابن القيم، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م، ص(٣٠٣).

(٥) فتح القدير للشوكاني (ت: ١٢٥٥هـ)، طبعة البابي الحلبي سنة ١٣٥٠هـ، طبعة أولى، (٢/٢٧١).

المبحث الثالث: ردود المراغي على المخالفين في الربوبية

تطرق المراغي رحمه الله في تفسيره إلى الرد على بعض المخالفين في باب توحيد الربوبية، وبيَّن ضلالهم وبُعدهم عن الفطرة التي فطر الله الخلقَ عليها، وغفلتهم عن الآيات الكونية التي بثَّها الله في الآفاق والأنفس.

ومن المخالفين في هذا الباب ما قصه الله عن الذي حاجَّ إبراهيم عليه السلام في ربه فقال سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].

فذكر المراغي رحمه الله في المعنى الإجمالي للآية، كيفية توفيق الله لإبراهيم عليه السلام "إلى الحجج القيمة التي أزال بها تلك الشبهات التي عرضها عليه خصمه، حتى فاز عليه وفلج بحجته، وأن الذي حاجَّه كيف عمي عن نور الحق، فانتقل من ظلمة من ظلمات الشكوك والأوهام إلى أخرى، وتردَّى في مهاوي الهلاك بولاية الطاغوت له".

ثم قال بعد ذلك في إيضاح الآية: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾: "أي ألم ينته إلى علمك الذي يبلغ مرتبة اليقين قصص ذلك الملِك الذي تجبر وادعى الربوبية، وعارض إبراهيم في ربوبية ربه -ويقال إنه نمروذ بن كنعان بن سام بن نوح عليه السلام-.

﴿ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ أي إن الذي أورثه الكبر والبطر، وحمله على الإسراف في الغرور والإعجاب بقدرته حتى حاجّ إبراهيم هو إيتاء الله إياه الملك.

ثم بين تفصيل تلك المحاجة فقال: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ هذا جواب من إبراهيم حين كسر الأصنام التي تعبد من دون الله، وسفَّه أحلام عابديها، فسأله نمروذ عن ربه الذي يدعو إلى عبادته قال: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾. فأنكر الملِك الطاغية هذا الجواب و﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ﴾ أي أنا أحيي من حُكِم عليه بالإعدام بالعفو عنه، وأميت من شئتُ إماتته بالأمر بقتله، وهذا الإنكار من ذلك الملك الجبار يدل على أنه لم يفهم قول إبراهيم صلى الله عليه وسلم، فإن الحياة في جوابه بمعنى إنشاء الحياة في جميع العوالم الحية من نبات وحيوان وغيرها،

---

(١) سورة البقرة الآية: (٢٥٨).

وإزالة الحياة بالموت، وفي جواب نمروذ بمعنى أنه يكون سببا في الإحياء والإماتة، من أجل هذا أوضح إبراهيم جوابه كما حكى سبحانه عنه ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ أي إن ربي الذي يعطى الحياة ويسلبها بقدرته وإرادته، هو الذي يطلع الشمس من المشرق، فهو المكوِّن لهذه الكائنات على ذلك النظام البديع، والسنن الحكيمة التي نشاهدها، فإن كنت تستطيع أن تفعل كما يفعل، فغيِّر لنا شيئا من هذه النظم، فالشمس تطلع من المشرق فحوِّلها وائت بها من المغرب، ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ أي فدهش ولم يجد جوابا، وكأنما ألقمه حجرا.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي إن الله لا يهدي من أعرض عن قبول الهداية، ولم ينظر في الدلائل التي توصل إلى معرفة الحق ويستسلم للطاغوت، ويترك ما أعطاه الله من الفهم، اتباعا لهواه وشهواته التي تزين له ما هو فيه، وهو حينئذ قد ظلم نفسه وضلَّ ضلالا بعيدا"[(١)].

وذكر عند تفسير الآية الأولى من سورة الأنعام فقال: "وقول الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[(٢)] أي الحمد والشكر للذي خلقكم وخلق السموات والأرض، فهو المستوجب للحمد بنعمه عليكم، لا من تعبدون من دونه وتجعلونه له شريكا من خلقه.

والمراد بالسموات والأرض: العوالم العلوية التي يرى كثير منها فوقنا وهذا العالم الذي نعيش فيه، وكذلك الذي أوجد الظلمات والنور، واختلف العلماء في المراد منهما، فمن قائل إن المقصود منهما ظلمة الليل ونور النهار، وإلى هذا جنح ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي، وفى ذلك ردٌّ على المجوس الثَّنويَّة[(٣)] الذين زعموا أن للعالم ربَّين أحدهما النور وهو الخالق للخير، والثاني الظلمة وهو الخالق للشر"[(٤)].

---

(١) تفسير المراغي (١/٣٨٩-٣٩٠).

(٢) سورة الأنعام الآية: (١).

(٣) الثنوية: فرقة تزعم أن النور والظلمة أزليان قديمان، بخلاف المجوس، فإنهم قالوا بحدوث الظلام، وذكروا سبب حدوثه، وهؤلاء قالوا بتساويهما في القدم، واختلافهما في الجوهر، والطبع، والفعل، والحيز، والمكان والأجناس، والأبدان والأرواح، والثنوية أربع فرق: المانوية والمرقونية والديصانية والمزدكية، انظر: الملل والنحل(٢/٤٩)، ودرء تعارض العقل والنقل(٩/٣٤٦).

(٤) تفسير المراغي (٣/٥٩).

وبعد ذلك ذكر المراغي رحمه الله الأدلة الدالة على وجود الله؛ التي لو نظر إليها الجاحدون للربوبية نظر تدبر وتفكر لأرجعتهم إلى الفطرة التي ضلوا عنها، فقال عند الآيات من سورة الأنبياء: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[(١)]:

اعلم أنه سبحانه ذكر أدلة ستة تثبت وجود الخالق الواحد القادر، لو تدبرها المنصفون، وعقلها الجاحدون، لم يجدوا مجالا للإنكار ولا سبيلا إلى الجحد:

(١) ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ ﴾ أي ألم يعلم الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا مرتوقتين: أي ملتحمتين متصلتين، ففصلناهما وأزلنا اتحادهما.

(٢) ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ أي وخلقنا من الماء كل حيوان، كما قال في آية أخرى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ ﴾[(٢)] وكذا يحيا به كل نبات وينمو، وقال قتادة[(٣)]: خلقنا كل نام من الماء، فيدخل الحيوان والنبات ﴿ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أن يتدبروا هذه الأدلة، فيعلموا بها الخالق الذي لا يشبه غيره، ويتركوا طريق الشرك.

(٣) ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ أي وجعلنا فيها جبالا ثوابت، لئلا تميد وتضطرب بهم.

(٤) ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ أي وجعلنا في الأرض طرقا بين جبالها يسلكها الناس من قطر إلى قطر ومن إقليم إلى آخر، ليهتدوا بذلك إلى مصالحهم ومهامِّ أمورهم المعيشية.

(٥) ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ أي إنه تعالى نظَّم السماء وجعلها كالسقف المحفوظ من الاختلال وعدم النظام، فقد حفظت الشموس والكواكب في مداراتها بحيث لا يختلط بعضها ببعض.

---

(١) سورة الأنبياء من الآية: (٣٠) إلى (٣٣).

(٢) سورة النور الآية: (٤٥).

(٣) سورة الأنبياء من الآية: (٣٠) إلى (٣٣).

﴿ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ والمشركون معرضون عن التفكر في تلك الآيات الدالة على وحدانيتنا وعظيم قدرتنا وإحاطة علمنا.

(٦) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ أي والله خلق لكم الليل والنهار نعمة منه عليكم، وحجة على عظيم سلطانه، فهما يختلفان عليكم لصلاح معايشكم وأمور دنياكم وآخرتكم، وخلق الأرض والشمس والقمر تجري في أفلاكها كما يجري السمك في الماء. (١)

---

(١) تفسير المراغي بتصرف(٦/١٦١-١٦٥).

الفصل الثاني:آراء المراغي الاعتقادية في توحيد الألوهية

وفيه تمهيد ومبحثان:

التمهيد: تعريف توحيد الألوهية.

المبحث الأول: معنى توحيد الألوهية عند المراغي.

المبحث الثاني: موقف المراغي مما ينافي توحيد الألوهية أو يقدح فيه.

وفيه ثمانية مطالب:

المطلب الاول: ما يتعلق بالغلو بالأنبياء والأولياء والصالحين:

المطلب الثاني: عبادة الاوثان والأصنام.

المطلب الثالث: الشفاعة وما يتعلق بها.

المطلب الرابع: السحر وما يتعلق به:

المطلب الخامس: الذبح لغير الله.

المطلب السادس: الرياء والسمعة.

المطلب السابع: التوكل المشروع والممنوع.

المطلب الثامن: الألفاظ المنهي عنها.

التمهيد: تعريف توحيد الألوهية

توحيد الألوهية في اللغة والاصطلاح:

الألوهية في اللغة: مصدر أله يأله ألوهة وألوهية، فالإله هو الذي يؤله ويعبد[(١)].

واصطلاحا: هو إفراد الله بجميع أنواع العبادة، يقول شيخ الإسلام -رحمه الله-: "إثبات الإلهية لله وحده بأن يشهد أن لا إله إلا هو، ولا يعبد إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يوالي إلا له، ولا يعادي إلا فيه، ولا يعمل إلا لأجله"[(٢)].

ويقول ابن القيم – رحمه الله –: "وتوحيد الإلهية المتضمن أنه وحده الإله المعبود المحبوب، الذي لا تصلح العبادة والذل والخضوع والحب إلا له"[(٣)].

ويسمى توحيدا فعليًّا "لأنه متضمن لأفعال القلوب والجوارح، فهو توحيد الله بأفعال العبيد"[(٤)].

ويطلق على توحيد الألوهية "توحيد العبادة باعتبارين؛ فباعتبار إضافته إلى الله يسمى: أ-توحيد الألوهية، وباعتبار إضافته إلى الخلق يسمى: ب-توحيد العبادة؛ وهو إفراد الله ﷻ بالعبادة، فالمستحق للعبادة هو الله تعالى، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ ﴾[(٥)] والعبادة تطلق على شيئين:

الأول: التعبد: بمعنى التذلل لله ﷻ بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ محبة وتعظيماً.

الثاني: المتعبَّد به؛ فمعناها كما قال شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله: "اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة"[(٦)]، مثال ذلك: الصلاة؛ ففعلها عبادة، وهو التعبد، ونفس الصلاة عبادة، وهو المتعبد به.

---

(١) ينظر: تهذيب اللغة(١/١٨٩)، ومعجم مقاييس اللغة(١/١٢٧)، ولسان العرب(١٣/٤٦٨-٤٦٩).

(٢) درء التعارض (١/٢٢٤).

(٣) بدائع الفوائد (٤/١٣٢).

(٤) المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ ابن سعدي (٣/٢١٢).

(٥) سورة لقمان الآية (٣٠).

(٦) الفتاوى (١٠/١٤٩).

فإفراد الله بهذا التوحيد: أن تكون عبداً لله وحده تفرده بالتذلل؛ محبة وتعظيماً، وتعبده بما شرع، قال تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2] فوصفه سبحانه بأنه رب العالمين كالتعليل لثبوت الألوهية له؛ فهو الإله لأنه رب العالمين، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾[3] فالمنفرد بالخلق هو المستحق للعبادة.

إذ من السفه أن تجعل المخلوق الحادث الآيل للفناء إلهاً تعبده؛ فهو في الحقيقة لن ينفعك لا بإيجاد ولا بإعداد ولا بإمداد، فمن السفه أن تأتي إلى قبر إنسان صار رميماً تدعوه وتعبده، وهو بحاجة إلى دعائك، وأنت لست بحاجة إلى أن تدعوه؛ فهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً؛ فكيف يملكه لغيره؟!

وهذا القسم كفر به وجحده أكثر الخلق، ومن أجل ذلك أرسل الله الرسل، وأنزل عليهم الكتب، قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[4] ومع هذا؛ فأتباع الرسل قلة، قال عليه الصلاة والسلام: «**فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد**»[5].

ومن العجب أن أكثر المصنفين في علم التوحيد من المتأخرين يركزون على توحيد الربوبية، وكأنما يخاطبون أقواماً ينكرون وجود الرب -وإن كان يوجد من ينكر الرب-، لكن ما أكثر المسلمين الواقعين في شرك العبادة! ![6].



---

(١) سورة الإسراء الآية: (٢٢).

(٢) سورة الفاتحة الآية: (٢).

(٣) سورة البقرة الآية: (٢١).

(٤ سورة الأنبياء الآية: (٢٥).

(٥) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب من لم يرق، (١٣٤/٧)، رقم الحديث(٥٧٥٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، (١٩٩/١)، رقم الحديث(٣٧٤).

(٦) مجموع فتاوى ومقالات العلامة ابن عثيمين، جمع وترتيب فهد السليمان، دار الوطن-دار الثريا، الطبعة الأخيرة، ١٤١٣هـ، (٤/٩-٦).

المبحث الأول: معنى توحيد الألوهية عند المراغي.

عرف المراغي رحمه الله توحيد الألوهية في مواضع عدة في تفسيره ولم يخالف في هذه التعريفات منهج أهل السنة والجماعة؛ فقال: "والإله هو المعبود الذي يُدْعى حين الشدائد، ويُقْصد عند الحاجة اعتقادا بأنه وحده ذو السلطة الغيبية، (الله) عَلَم مختص بالمعبود بالحق، لم يطلق على غيره تعالى، وكان العربي في الجاهلية إذا سُئِل من خلق السموات والأرض؟ يقول الله، وإذا سُئِل هل خَلَقَت اللات والعُزَّى شيئا من ذلك؟ يجيب: لا.

والإله: اسم يقع على كل معبود بحق أو باطل، ثم غلب على المعبود بالحق"[(١)].

وقال رحمه الله: "الله هو المعبود بحق لم يطلق على غيره تعالى"[(٢)].

وقال في موضع آخر: "وقوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾[(٣)] أي إن أول الواجب على المكلف أن يعلم أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ﴿فَٱعْبُدْنِي﴾: وإذ كنت أنا الإله حقا ولا معبود سواي، فخُصَّني بالعبادة والتذلل والانقياد في جميع ما كلفتك به"[(٤)].

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[(٥)]: "أي واعلموا أنه لا إله يعبد بحق إلا هو، إذ من خصائص الإله أن يعلم ما لا يعلمه غيرُه، وأن يعجز مَنْ عداه عن مثل ما يقدر عليه"[(٦)].

وقال رحمه الله: "والإله هو المعبود وكل من عبد شيئا فقد اتخذه إلها، والرب: هو السيد المالك المربِّي المدبر المتصرف، وليس للخلق رب ولا إله إلا الله الذي خلقهم، فهو المالك لكل شيء وفى كل زمن وعلى كل حال، وملك غيره ناقص موقوت فهو المعبود بحق، والعبادة: هي

---

(١) تفسير المراغي (٢٩/١).

(٢) المصدر السابق (٣١/١).

(٣) سورة طه الآية: (١٤).

(٤) تفسير المراغي (٨٤/٦)

(٥) سورة هود الآية: (١٤).

(٦) تفسير المراغي (٢٩٨/٤)

التوجه بالدعاء والتعظيم القولي أو العملي إلى ذي السلطان الأعلى خالق الخلق والموجد له والمتصرف فيه"[١].

وقال رحمه الله: "والإله: هو المعبود الذي يُدعى لكشف الضر أو جلب النفع، ويتقرب إليه بالأقوال والأعمال التي يرجى أن ترضيه، والله: اسم لخالق الخلق أجمعين، ولا يُثبِت الموحِّدون ربًّا سواه، وأكثر المشركين يقولون: إنه أكبر الأرباب أو رئيسهم وأعظم الآلهة، وكان مشركو العرب لا يُثبِتون ربا سواه، وإنما يعبدون آلهة تقربهم إليه"[٢].

وذكر رحمه الله أن التوحيد قسمان:

(١) "توحيد الألوهية: وهو أول ما دعا إليه محمد ﷺ ودعا إليه كل رسول قبله، وهو عبادته تعالى وحده وعدم عبادة أحد معه كما قال: ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾[٣] فعبادة غيره من الأصنام كحجر وشجر وكوكب، أو بشر وليٍّ أو نبيٍّ أو شيطان أو مَلَك، إذا توجه العبد إليها توجها تعبديا ابتغاء النفع أو كشف الضر في غير الأسباب التي سخرها الله لجميع الناس، كل ذلك كفر لا فرق بينه وبين عبادة الأصنام أو الأوثان، إذ جميع ما عدا الله فهو عبد ومُلْك له، لا يتوجَّه بالعبادة إليه.

(٢) توحيد الربوبية: أي اعتقاد أن الله وحده هو الخالق المدبر لهذا الكون، والمتصرف فيه على مقتضى حكمته ونظام سنته وتسخيره الأسباب لمن شاء بما شاء، وكان أكثر المشركين من العرب ومَنْ قبلهم يؤمنون بأن الرب الخالق المدبر واحد، ولكن يقولون بتعدد الآلهة التي يتقرَّب بها إليه توسلا وطلبا للشفاعة عنده"[٤].

وذكر رحمه الله أن الخلل وقع في الناس بعد اعتقادهم أن الاعتراف بتوحيد الربوبية كاف في الإيمان بالله، فقال بعد قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[٥]: "أي ولقد جئنا هؤلاء القوم بكتاب كامل البيان وهو القرآن، فصلنا آياته تفصيلا

---

(١) تفسير المراغي(٣/١٤٤)

(٢) المصدر السابق(٣/٣١٥)

(٣) سورة هود الآية: (٢).

(٤) تفسير المراغي(٤/٣٧٠)

(٥) سورة الأعراف الآية: (٥٢).

على علم منا بما يحتاج إليه المكلَّفون من العلم والعمل، تزكية لنفوسهم وتطهيرا لقلوبهم، وجعلناه سبب سعادتهم في معاشهم ومعادهم، وهدى ورحمة لمن يؤمن به إيمانا يبعثه على العمل بما أمر به، والانتهاء عما نهي عنه. . . ثم قال: "وحين وجد الناس افتنُّوا في الشرك، وفرقوا بين توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية، فظنوا أن الإيمان بوحدة الرب خالق الكون كاف في الإيمان، ولا يضر التوجه إلى غيره من المقربين بالدعاء وطلب ما يعجز المرء عن نيله من طريق الأسباب، ظنا منهم أن التوسل به إليه وشفاعته عنده مما يرضيه، أبطل هذه الشبهات، وأزال هذه التعلات(١) وبسط ذلك كل البسط، وأطنب فيه أيّما إطناب، إلى نحو ذلك من مسائل تبصّر المرء في دينه ودنياه، وتعرفه مبدأه ومنتهاه"(٢).

وقال عند قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾(٣): "أي بيّن سبحانه وحدانيته بنصب الدلائل التكوينية في الآفاق والأنفس، وإنزال الآيات التشريعية الناطقة بذلك، والملائكة أخبروا الرسل بهذا وشهدوا شهادة مؤيدة بعلم ضروري وهو عند الأنبياء أقوى من جميع اليقينيات، وأولو العلم أخبروا بذلك وبيّنوه وشهدوا به شهادة مقرونة بالدلائل والحجج، لأن العالم بالشيء لا تعوزه الحجة عليه، وقوله ﴿بِٱلْقِسْطِ ﴾ أي بالعدل في الاعتقاد، فالتوحيد هو الوسط بين إنكار الإله والشرك به"(٤).

وعلَّق المراغي رحمه الله على وصية يعقوب عليه السلام لبنيه عند موته، حيث قال لهم: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾(٥) قال المراغي: "أي قالوا: نعبد الإله الذي قامت الأدلة العقلية والحسية على وجوده ووجوب عبادته لا نشرك به سواه، ونحن له منقادون خاضعون معترفون له بالعبودية متوجهون إليه عند الملمّات، وقد كانوا في عصر فشت فيه عبادة

(١) التعلات جمع تعلة، والتعلة: ما يتعلل به، وعلله بطعام وحديث ونحوهما: شغله بهما؛ يقال: فلان يعلل نفسه بتعلة، وتعلل به أي تلهى به، انظر: لسان العرب(١١/٤٦٩)، والقاموس المحيط(٢/١٣٦٧).

(٢) تفسير المراغي (٣/٣١٣-٣١٤).

(٣) سورة آل عمران الآية: (١٨).

(٤) تفسير المراغي (١ / ٤٧١).

(٥) سورة البقرة الآية: (١٣٣).

الأصنام والكواكب، والحيوان وغيرها. . . وقد أرشدت الآية الكريمة إلى أن دين الله واحد في كل أمة، وعلى لسان كلِّ نبي، وروحه التوحيد والاستسلام لله، والإذعان لهدى الأنبياء، وبهذا كان يوصي النبيون أممهم كما قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾[1] فالقرآن يحثُّ الناس على الاتفاق في الدين الذي أساسه أمران: أولهما التوحيد والبراءة من الشرك بأنواعه، وثانيهما الاستسلام لله والخضوع له في جميع الأعمال، فمن لم يتصف بذلك فليس بالمسلم أي ليس على الدين القيم الذي كان عليه الأنبياء، والناس يطلقون الإسلام اليوم لقبا على طوائف من الناس لهم ميزات دينية، وعادات تميزهم من سائر الناس الذين يلقبون بألقاب دينية أخرى، وقد يكون من بعض أهله من لم يكن مستسلما مخلصا لله في أعماله، بل قد يكون مبتدعا ما ليس منه، أو فاسقا عنه قد اتخذ إلهه هواه.

والإسلام الذي دعا إليه القرآن هو الذي دعا إليه النبي ﷺ ولم يدع إلى الإسلام بمعنى ذلك اللقب المعروف اليوم"[2].

وقال رحمه الله: "إن روح الدين التوحيد، وملاك أمره الإخلاص المعبَّر عنه بالإسلام، فإذا زال هذا المقصد وحفظت الأعمال الصورية لم يغن ذلك شيئا، وأهل الكتاب أزهقوا هذا الروح وحفظوا الرسوم والتقاليد، فهم ليسوا على شيء من الدين، ولكنَّ محمدا ﷺ جاء بما أحيا ذلك الروح الذي كان عليه جميع الأنبياء والمرسلين، فهو الذي كمَّل شريعتهم بشريعته التي تصلح لجميع البشر في كلِّ زمان ومكان"[3].

وقال في ختام سورة الأنعام الجامعة لأصول الدين والتي ختمت في بيان معنى توحيد الألوهية، قال عقب قول الحق جل وعلا: ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[4].

---

(١) سورة الشورى الآية: (١٣).

(٢) تفسير المراغي (١/١٨٤-١٨٥).

(٣) المصدر السابق (١/١٩٠).

(٤) سورة الأنعام الآية: (١٦١).

قال: "لما كانت هذه السورة أجمع السور لأصول الدين مع إقامة الحجج عليها ودفع الشبه عنها، وإبطال عقائد أهل الشرك وخرافاتهم، جاءت هذه الخاتمة آمرة له ﷺ بأن يقول لهم قولا جامعا لجملة ما فصِّل فيها؛ وهو أن الدين القيم والصراط المستقيم هو ملة إبراهيم دون ما يدعيه المشركون وأهل الكتاب المحرِّفون، وأنه ﷺ مستمسك به معتصم بحبله يدعو إليه قولا وعملا على أكمل الوجوه، وهو أول المخلصين وأخشع الخاشعين، وهو الذي أكمل هذا الدين بعد انحراف جميع الأمم عن صراطه، ثم بين أن الجزاء عند الله على الأعمال، وأن لا تزر وازرة وزر أخرى، وأن المرجع إليه تعالى وحده، وأن له سننا في استخلاف الأمم واختبارها بالنعم والنقم، وأن الله وحده، هو الذي يتولى عقاب المسيئين ورحمة المحسنين، فلا ينبغي الاتكال على الوسطاء ولا الشفعاء بين الله والناس في غفران الذنوب وقضاء الحاجات كما هي عقيدة أهل الشرك أجمعين.

قوله: ﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ أي قل أيها الرسول لقومك ولسائر البشر: إن ربي أرشدني بما أوحاه إليَّ بفضله، إلى صراط مستقيم لا عوج فيه ولا اشتباه، يهدي سالكه إلى سعادة الدنيا والآخرة؛ وهو الذي يدعوكم إلى طلبه منه حين تناجونه فتقولون: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[(١)].

﴿ دِينٗا قِيَمٗا ﴾ أي إن هذا الصراط المستقيم هو الدين الذي به يقوم أمر الناس في معاشهم ومعادهم، وبه يصلحون.

﴿ مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا ﴾ أي الزموا ملة إبراهيم حال كونه حنيفا مائلا عن جميع ما سواه من الشرك والباطل.

﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ أي إنه منزه عن الشرك وما عليه المبطلون، وفيه تكذيب لأهل مكة القائلين إنهم على ملة إبراهيم وهم يعتقدون أن الملائكة بنات الله، ولليهود الذين يقولون: عزير ابن الله، وللنصارى الذين يقولون: عيسى ابن الله، وهذا كقوله: ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴾[(٢)].

(١) سورة الفاتحة الآية: (٦).

(٢) سورة النساء الآية: (١٢٥).

هذا الدين هو دين الإخلاص لله وحده، وهو الدين الذي بعث به جميع رسله وقرره في جميع كتبه، وجعله ملة إبراهيم لأنه هو النبي الذي أجمع على الاعتراف بفضله وصحة دينه مشركو العرب وأهل الكتاب من اليهود والنصارى، وكانت قريش ومن لفَّ لفَّها من العرب يسمون أنفسهم الحنفاء مدَّعين أنهم على ملة إبراهيم، وهكذا فعل أهل الكتاب حين ادَّعوا اتباعه واتباع موسى وعيسى عليهما السلام كما قال: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾(١).

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(٢): المراد بالصلاة ما يشمل المفروض منها والمستحب، والنسك: العبادة، والناسك: العابد، وكثر استعماله في عبادة الحج، والمراد من كون محياه ومماته لله أنه قد وجه وجهه وحصر نيته وعزمه في حبس حياته لطاعته ومرضاته وبذلها في سبيله، فيموت على ذلك كما يعيش.

والآية جامعة لكل الأعمال الصالحة التي هي غرض المؤمن الموحد من حياته وذخيرته لمماته، ويكون فيها الإخلاص لله رب العالمين.

فينبغي للمؤمن أن يوطن نفسه على أن تكون حياته لله ومماته لله، فيتحرى الخير والصلاح والإصلاح في كل عمل من أعماله، ويطلب الكمال في ذلك لنفسه رجاء أن يموت ميتة ترضي ربه، ولا يحرص على الحياة لذاتها، فلا يرهب الموت فيمتنع عن الجهاد في سبيل الله، كما أن عليه أن يقيم ميزان العدل فيأخذ على أيدي أهل الجور ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

وأفرد الصلاة بالذكر مع دخولها في النسك، لأن روحها وهو الدعاء وتعظيم المعبود وتوجه القلب إليه والخوف منه، مما يقع فيه الشرك ممن يغلون في تعظيم الصالحين وما يُذَكِّر بهم كقبورهم وصورهم وتماثيلهم.

والخلاصة: إنه لا ينبغي أن تكون العبادة إلا لله رب العباد وخالقهم، فمن توجه إليه وإلى غيره من عباده المكرمين أو إلى غيرهم مما يستعظم من خلقه كان مشركا، فالله لا يقبل من العبادة إلا ما كان خالصا لوجهه الكريم.

---

(١) سورة آل عمران الآية: (٦٧).

(٢) سورة الأنعام الآية: (١٦٢).

﴿ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾: أي لا شريك له في ربوبيته فيستحق أن يشركه في العبادة ويتوجه إليه معه للتأثير في عبادته، وبذلك أمرني ربى، وأنا أول المسلمين المنقادين إلى امتثال ما أمره به، وترك ما نهى عنه.

وفى هذا بيان إجمالي لتوحيد الألوهية بالعمل بعد بيان أصل التوحيد في العقيدة، ثم انتقل إلى برهانه الأعلى، وهو توحيد الربوبية بما أمره به فقال: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾(١): أي أغير الله الذي خلق الخلق ورباهم أطلب ربًّا آخر أشركه في عبادتي له بدعائه والتوجه إليه، لينفعني أو يمنع الضر عني أو ليقربني إليه زلفى، وهو تعالى ربُّ كل شيء مما عُبِد ومما لم يُعبد، فهو الذي خلق الملائكة والمسيح والشمس والقمر والكواكب والأصنام كما قال: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾(٢) وإذا كان الله هو الخالق والمدبر فكيف أسفه نفسي، وأكفر بربي بجعل المخلوق المربوب مثلي ربًّا لي، وجميع المشركين يعترفون بأن معبوداتهم مخلوقة لله رب العالمين وخالق الخلق أجمعين. . .

﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾(٣). . . وهذه الوصية من أعظم دعائم الإصلاح في المجتمع البشرى وهادمة لأسس الوثنية، وهادية للناس جميعا إلى ما تتوقف عليه سعادتهم في الدنيا والآخرة، فإن العمل وحده هو وسيلة الفوز وطريق النجاة، لا كما يزعم الوثنيون من طلب رفع الضر وجلب النفع بقوة من وراء الغيب، وهي وساطة بعض المخلوقات الممتازة ببعض الخواص والمزايا بين الناس وربهم، ليعطيهم ما يطلبون في الدنيا بلا كسب ولا سعي من طريق الأسباب التي جرت بها سنته في خلقه، وليحملوا عنهم أوزارهم حتى لا يعاقبوا بها، أو ليحملوا الخالق على رفعها عنهم وترك عقابهم عليها، وعلى إعطائهم نعيم الآخرة وإنقاذهم من عذابها"(٤).

(١) سورة الأنعام الآية: (١٦٤).

(٢) سورة الصافات الآية: (٩٦).

(٣) سورة الأنعام الآية: (١٦٤).

(٤) تفسير المراغي (٣/٢٥٠-٢٥٣).

وذكر رحمه الله أن أول دعوة الأنبياء تكون إلى توحيد الله فقال عند قوله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾[(١)] أي فلما أتاهم قال: يا قوم اعبدوا الله وحده ولا تعبدوا معه غيره، فما لكم من إله إلا هو، وقد جرت سنة الأنبياء أن يبدؤوا بالدعوة إلى التوحيد، لأنه جذر شجرة الإيمان، ثم يتبعونه بالأهم فالأهم فيما يرون لدى أقوامهم"[(٢)].

وقال رحمه الله: "التوحيد رأس الدين ورأس الحكمة، وهو مبدأ الأمر ومنتهاه"[(٣)].

فالمراغي رحمه الله في تعريفه لتوحيد الألوهية في هذا المبحث لم يخرج عن تعريف أهل السنة والجماعة كما ذكرت في التمهيد لهذا الفصل.

تعريف العبادة:

العبادة في اللغة: الخضوع والتذلُّل من قولهم: طريق معبَّد أي مذلل بكثرة الوطء عليه، يقال: تعبَّد فلان لفلان إذا تذلل له، وكل خضوع ليس فوقه خضوع فهو عبادة، طاعة كان للمعبود أو غير طاعة، وكل طاعة لله على جهة المحبة والخضوع والتذلل فهي عبادة[(٤)].

واصطلاحا: "اسم جامع لكلّ ما يحبّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظّاهرة"[(٥)].

وقيل: "هي اسم يجمع كمال الحبّ لله ونهايته، وكمال الذّلّ لله ونهايته"[(٦)].

وقيل: عبادة الله: طاعته بفعل المأمور وترك المحذور[(٧)].

---

(١) سورة هود الآية: (٨٤).

(٢) تفسير المراغي (٣٤٢/٤).

(٣) المصدر السابق (٣١٦/٥).

(٤) لسان العرب: (٢٥٨/١٤)، والمفردات للراغب الأصفهاني ص: (٣١٥).

(٥) العبودية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة السادسة، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، ص(٤٤).

(٦) كتاب التوحيد وقرة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين لعبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب، تحقيق: محمد بشير عيون، مكتبة المؤيد-الطائف-مكتبة دار البيان-دمشق، ط١، ١٤١١هـ-١٩٩٠م، ص(٣)، ونسبه لشيخ الإسلام ولم أجده في كتبه.

(٧) تيسير العزيز الحميد لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، تحقيق: زهير شاويش، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، ص(٣٠)، وفتح المجيد لعبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب، تحقيق: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، الطبعة السابعة، ١٣٧٧هـ-١٩٥٧م، ص(١٤)، ونسبه صاحب فتح المجيد إلى ابن كثير ولم

أمّا العبوديّة فقد عرّفها الجرجانيّ بقوله: هي الوفاء بالعهود، وحفظ الحدود، والرّضا بالموجود، والصّبر على المفقود[١].

وعرف المراغي رحمه الله العبادة بقوله: "العبادة خضوع ينشأ عن استشعار القلب بعظمة المعبود اعتقادا بأن له سلطانا لا يدرك العقل حقيقته لأنه أعلى من أن يحيط به فكره، أو يرقى إليه إدراكه. فمن يتذلل لملِك لا يقال إنه عبده، لأن سبب التذلل معروف، وهو إما الخوف من جوره وظلمه، وإما رجاء كرمه وجوده، وللعبادة صور وأشكال تختلف باختلاف الأديان والأزمان، وكلها شرعت لتنبيه الإنسان إلى ذلك السلطان الأعلى، والملكوت الأسمى، ولتقويم المعوجِّ من الأخلاق وتهذيب النفوس، فإن لم تُحدث هذا الأثر لم تكن هي العبادة التي شرعها الدين"[٢].

وعرف العبادة عند قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾[٣] فقال: "عبادة الله هي الخضوع له وتمكين هيبته وعظمته من النفس، والخشوع لسلطانه في السر والجهر، وأمارة ذلك العمل بما به أمر، وترك ما عنه نهى، وبذا تصلح جميع الأعمال من أقوال وأفعال.

والعبادة هي الخضوع لسلطة غيبية وراء الأسباب المعروفة يرجى خيرها ويخشى شرها، وهذه السلطة لا تكون لغير الله، فلا يرجى غيره ولا يخشى سواه، فمن اعتقد أن غيره يشركه فيها كان مشركا، وإذا نهى الله عن إشراك غيره معه، فلأن ينهى عن إنكار وجوده وجحد ألوهيته أولى"[٤].

وذكر رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾[٥] فقال: "ذكر -أي الله- أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليأمرهم ويكلفهم بعبادته، لا لاحتياجه إليهم في تحصيل رزق ولا إحضار طعام، فالله هو الرزاق ذو القوة. . . ، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ أي: وما خلقتهم إلا ليعرفوني، إذ لو لا خلقهم لم يعرفوا وجودي ولا

أجده.

(١) التعريفات لعلي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ص (١٤٦).

(٢) تفسير المراغي (١ / ٣٤).

(٣) سورة النساء الآية: (٣٦).

(٤) تفسير المراغي (٢/٢١١-٢١٢).

(٥) سورة الذاريات الآية: (٥٦).

توحيدي، يرشد إلى ذلك ما جاء في الحديث القدسي: «**كنت كنزا مخفيا فأردت أن أُعرف، فخلقت الخلق فبي عرفوني**»(١) قاله مجاهد.

ورُوي عنه أيضا أن المعنى: إلا لآمرهم وأنهاهم(٢)، ويدل عليه قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾(٣) واختاره الزجاج، ويرى جمع من المفسرين أن المعنى: إلا ليخضعوا لي ويتذللوا، فكل مخلوق من الجن والإنس خاضع لقضاء الله، متذلل لمشيئته، منقاد لما قدره عليه، خلقهم على ما أراد، ورزقهم كما قضى، لا يملك أحد منهم لنفسه نفعا ولا ضرا"(٤).

أقوال أهل العلم في معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ :

قال ابن جرير رحمه الله بعد ذكره للأقوال: "وأولى القولين في ذلك بالصواب القول الذي ذكرنا عن ابن عباس، وهو: ما خلقت الجنَّ والإنس إلا لعبادتنا، والتذلل لأمرنا"(٥).

وقال الشنقيطي رحمه الله: "التحقيق -إن شاء الله- في معنى هذه الآية الكريمة: ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾، أي: إلا لآمرهم بعبادتي وأبتليهم أي أختبرهم بالتكاليف ثم أجازيهم على أعمالهم، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، وإنما قلنا إن هذا هو التحقيق في معنى الآية، لأنه تدل

---

(١) قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى(١٢٢/١٨، ٣٧٦): "ليس هذا من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يعرف له إسناد صحيح، ولا ضعيف، وتبعه على هذا كل من جاء بعده؛ كالزركشي في التذكرة في الأحاديث المشتهرة ص(١٣٦)، والسخاوي في المقاصد الحسنة ص(٨٣٨/٣٢٧)، وقال العلامة الآلوسي في تفسيره(٢٢/٢٧) عقب قول ابن تيمية: "ومن يرويه من الصوفية معترف بعدم ثبوته نقلا؛ لكن يقول: إنه ثابت كشفا. . . والتصحيح الكشفي شنشنة لهم"، وقال الألباني في السلسلة الضعيفة برقم(٦٠٢٣): "لا أصل له اتفاقا".

(٢) انظر: النكت والعيون لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الدائم، دار الكتب العلمية، (٣٧٤/٥)، والجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤هـ، (٥٦/١٧).

(٣) سورة التوبة الآية: (٣١).

(٤) تفسير المراغي (٢٩٨/٩-٢٩٩).

(٥) تفسير ابن جرير (جامع البيان في تأويل القرآن) لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، (٤٤٤/٢٢-٤٤٥).

عليه آيات محكمات من كتاب الله، فقد صرح تعالى في آيات من كتابه أنه خلقهم ليبتليهم أيهم أحسن عملا، وأنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم"(١).

وقال الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله: "قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال؛ أي: ما خلقت الجن والإنس لأي شيء إلا للعبادة.

واللام في قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ للتعليل، وهذا التعليل لبيان الحكمة من الخلق، وليس التعليل الملازم للمعلول؛ إذ لو كان كذلك للزم أن يكون الخلق كلهم عبّاداً يتعبدون له، وليس الأمر كذلك، فهذه العلة غائية، وليست موجبة.

فالعلة الغائية لبيان الغاية والمقصود من هذا الفعل، لكنها قد تقع، وقد لا تقع، مثل: بريت القلم لأكتب به؛ فقد تكتب، وقد لا تكتب.

والعلة الموجبة معناها: أن المعلول مبني عليها؛ فلابد أن تقع، وتكون سابقة للمعلول، ولازمة له، مثل انكسر الزجاج لشدة الحر"(٢).

ولما تكلم المراغي رحمه الله عن أسباب شرع الدين أعقبه بأسباب شرع العبادات فقال: "وأما العبادات فإنما شرعت لتربية هذا الروح الخلقي ليسهل على صاحبه القيام بسائر التكاليف الدينية"(٣).

وقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾(٤): بدأ النبي ﷺ دعوته بعبادة الله وحده، وقد كان هذا صنيع كل نبي كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾(٥)، والمخاطبون بهذه الدعوة أوّلا هم العرب واليهود في المدينة وما حولها، وكانوا يؤمنون بالله ويعبدون غيره إما بدعائه مع الله أو من دون الله.

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الجكني الشنقيطي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، (٧/٤٤٥).

(٢) القول المفيد على كتاب التوحيد، لمحمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، ط٢، ١٤٢٤هـ، (١/٢٥).

(٣) تفسير المراغي (١ / ٤٧٢).

(٤) سورة البقرة الآية: (٢١).

(٥) سورة النحل الآية: (٣٦).

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾[١] أي: إن هذا الرب العظيم المتصف بتلك الصفات التي تعلمونها هو الذي خلقكم وخلق مَن قبلكم، ورباكم وربَّى أسلافكم، ودبَّر شؤونكم، ووهبكم من طرق الهداية ووسائل المعرفة مثل ما وهبهم، فاعبدوه وحده، ولا تشركوا بعبادته أحدا من خلقه.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾أي: فاعبدوه على تلك الشاكلة، فإن العبادة على هذا السَّنَن هي التي تعدُّكم للتقوى، ويرجى بها بلوغ درجة الكمال القصوى"[٢].

وقال عند تفسير آية الكرسي: "والعبادة استعباد الروح وإخضاعها لسلطة غيبية لا تحيط بها علما، ولا تدرك كنهها وحقيقتها، وكل ما ألَّه البشر من جماد ونبات وحيوان وإنسان، فقد اعتقدوا فيه هذا السلطان الغيبي استقلالا أو تبعا لسواه. . .

ثم قال: "وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾[٣] أي الإله الحق الذي يستحق أن يُعبد هو الله الواحد الصمد، ذو الملك والملكوت، الحي الذي لا يموت، القائم بتدبير أمر عباده، يكلؤهم ويحفظهم ويرزقهم"[٤].

وذكر رحمه الله أن الغاية من ذكر الله بالقلب واللسان أن يكون الإنسان عبدا لله عند قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖ﴾[٥] فقال: "والوسيلة إلى ذلك ذكر الله بالقلب واللسان ومراقبته في جميع الأحوال حتى يكون عبدا له لا لأهوائه وشهواته"[٦].

وتطرق إلى العبادة عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[٧].

قال رحمه الله في توضيح المفردات: "ادعوني: أي اعبدوني، أستجب لكم أي أثبكم على عبادتكم إياي".

---

(١) سورة البقرة الآية: (٢١).

(٢) تفسير المراغي (١/٦٠).

(٣) سورة البقرة الآية: (٢٥٥).

(٤) تفسير المراغي (١ / ٣٨٢)

(٥) سورة البقرة الآية: (٢٠٣).

(٦) تفسير المراغي (١/٢٧٧).

(٧) سورة غافر الآية: (٦٠).

ثم قال: "ولما كانت العبادة لا تنفع إلا إذا أقيمت الأدلة على وجود المعبود، ذكر من ذلك تعاقب الليل والنهار، وخلق السموات والأرض، وخلق الإنسان في أحسن صورة ورزقه من الطيبات.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أي: اعبدوني أثبكم، هكذا روي عن ابن عباس والضحاك ومجاهد في جماعة آخرين[1]، ويؤيده أن القرآن كثيرا ما استعمل الدعاء بمعنى العبادة كقوله ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾[2]، وما رواه النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ «**الدعاء هو العبادة**» ثم قرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾»[3].

ويجوز أن يراد بالدعاء والاستجابة معناهما الظاهر، ويرجحه ما روي عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**الدعاء الاستغفار**»[4]، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لم يدع الله يغضب عليه**» أخرجه أحمد والحاكم[5].

---

(١) انظر: التفسير الوسيط لأبي الحسن الواحدي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وجماعة، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م، (١٩/٤)، والكشاف لأبي القاسم الزمخشري، دار الكتاب العربي، ط٣، ١٤٠٧هـ، (١٧٥/٤)، وزاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق مهدي، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٢٢هـ، (٤٣/٤).

(٢) سورة النساء الآية: (١١٧).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب فضل الدعاء، (٢٤٩/١)، رقم الحديث(٧١٤)، وأحمد في المسند رقم الحديث(١٨٣٨٦)، وأبو داود في سننه، باب تفريع أبواب الوتر، باب الدعاء (٧٦/٢)، رقم الحديث(١٤٧٩)، والترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة، (٢١١/٥)، رقم الحديث(٢٩٦٩)، وابن ماجه في سننه، كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، (١٢٥٨/٢)، رقم الحديث(٣٨٢٨)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وقال ابن حجر في الفتح(٤٩/١): وأخرجه أصحاب السنن بسند جيد، وصحح الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم(٣٤٠٧).

(٤) بحثت عنه بهذا اللفظ ولم أجده، ولكن أخرجه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب رقم الحديث(٢٨٩٧) بلفظ: «أفضل العلم لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الاستغفار»، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة برقم(٢٨٤٢).

(٥) أخرجه أحمد في مسنده رقم الحديث(٩٧٠١)، والبزار في مسنده رقم الحديث(٩٤٢٥)، والبخاري في الأدب المفرد، باب من لم يسأل الله يغضب عليه، (٢٢٩/١)، رقم الحديث(٦٥٨)، والترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء (٤٥٦/٥)، رقم الحديث(٣٣٧٣)، والطبراني في الدعاء، باب ما جاء في فضل لزوم الدعاء والإلحاح فيه، (٢٩/١)، رقم الحديث(٢٣)، والحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر، (٦٦٧/١-٦٦٨)، رقم الحديث (١٨٠٦، ١٨٠٧)، وقال الحاكم عقبه: صحيح الإسناد، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم الحديث(٢٦٥٤).

وعن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال: «**لا ينفع حذر من قدر، ولكن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، فعليكم بالدعاء**» أخرجه أحمد وأبو يعلى والطبراني[١]، وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**الدعاء مخ العبادة**» أخرجه الترمذي[٢]، وعن ابن عباس قال: «**أفضل العبادة الدعاء**»[٣] وقرأ هذه الآية، وأخرج البخاري في الأدب عن عائشة قالت: «**سئل النبي ﷺ أي العبادة أفضل؟ فقال: دعاء المرء لنفسه**» [٤].

ثم صرح سبحانه بأن المراد من الدعاء العبادة فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي إن الذين يتعظمون عن إفرادي بالعبادة وإفرادي بالألوهية سيدخلون جهنم صاغرين أذلاء، وفي هذا وعيد شديد لمن استكبر عن دعاء الله، وفيه لطف بعباده عظيم، وإحسان إليهم كبير، من حيث توعد من ترك طلب الخير منه، واستدفاع الشر بالدعاء بهذا الوعيد البالغ، وعاقبه بهذه العقوبة الشديدة، فيا عباد الله وجهوا رغباتكم إليه، وعوِّلوا في كل مطالبكم على من أمركم بتوجيهها إليه، وأرشدكم إلى التوكل عليه، وكفل لكم الإجابة بإعطاء مطالبكم، وحصول رغباتكم، فهو الكريم الجواد الذي يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ويغضب على من لم يطلب من فضله العظيم، وملكه الواسع ما يحتاج إليه من أمور الدين والدنيا.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦/٣٧٠)، رقم الحديث(٢٢٠٤٤)، والبزار في مسنده(١٨/١١٩)، والطبراني في الكبير (٢٠/١٠٣)، وأخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر من حديث عائشة (١/٦٦٩)، رقم الحديث(١٨١٣)، وقال عقبه: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال ابن الجوزي في العلل المتناهية(٢/٣٦٠): هذا الحديث لا يصح، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير رقم (٤٧٨٥).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء (٥/٤٥٦)، رقم الحديث(٣٣٧١)، والطبراني في الأوسط رقم الحديث(٣١٩٦)، وقال الترمذي عقب الحديث: "هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة"، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير رقم الحديث(٣٠٠٣).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر (١/٦٦٧)، رقم الحديث(١٨٠٥)، ومن طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن مرسلا أخرجه أبو بكر الشافعي في الفوائد الغيلانيات(١/٦٣٢)، رقم الحديث(٨٤٥)، وابن الشجري في الأمالي الشجرية: (١/١٨٨)، وأخرجه ابن عدي في الكامل(٦/١٦٣) من حديث أبي هريرة، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم الحديث(١٥٧٩).

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب فضل الدعاء (١/٢٤٩)، وأبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم(٤/٣٨٢) رقم الحديث(١٥٦٧)، وضعفه الألباني في ضعيف الأدب المفرد ص(٦٧).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله عند توضيح قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[(١)]: "والدعاء نوعان دعاء عبادة ودعاء مسألة والعابد داع كما أن السائل داع وبهما فسر قوله تعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ قيل أطيعوني أثبكم وقيل سلوني أعطكم وفسر بهما قوله تعالى ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[(٢)]"[(٣)].

ولما أمر بالدعاء، والاشتغال به لا بد أن يسبق بمعرفة المدعوّ ذكر الدليل عليه بذكر بعض نعمه فقال:

(١) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾[(٤)] أي: إن الله الذي لا تصلح الألوهية إلا له، ولا تنبغي العبادة لغيره هو الذي جعل الليل للسكون والاستراحة من الحركة والتردد في طلب المعاش والحصول على ما يفي بحاجات الحياة.

(٢) ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي وجعل النهار مضيئا بشمسه ذات البهجة والرواء، لتتصرفوا فيه بالأسفار، وجَوْب الأقطار، والتمكن من مزاولة الصناعات، ومختلف التجارات.

ثم ذكر نتيجة لما تقدم فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي فهو المتفضل عليهم بالنعم التي لا تحصى، ولا يمكن أن تستقصى.

ثم بين أن كثيرا من عباده جحدوا هذه النعم، واستكبروا عن عبادة المنعم فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم، ولا يعترفون بها، إما لجحودهم وكفرهم بها كما هو شأن الكفار، وإما لإهمالهم النظر وغفلتهم عما يجب من شكر المنعم كما هو حال الجاهلين، ونحو الآية قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾[(٥)]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[(٦)].

ثم بين كمال قدرته المقتضية لوجوب توحيده فقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[(٧)] أي ذلكم الذي فعل كل هذا، وأنعم عليكم بهذه النعم هو الله الواحد

---

(١) سورة غافر الآية: (٦٠).

(٢) سورة البقرة الآية: (١٨٦).

(٣) جلاء الأفهام ص(١٥٥).

(٤) سورة غافر الآية: (٦١).

(٥) سورة الزُّخرُف الآية: (١٥).

(٦) سورة إبراهيم الآية: (٣٤).

(٧) سورة غافر الآية: (٦٢).

الأحد خالق جميع الأشياء لا إله غيره ولا رب سواه، فكيف تنقلبون عن عبادته، والإيمان به وحده، مع قيام البرهان الساطع، والدليل الواضح، وتعبدون غيره من الأصنام التي لا تخلق شيئا وهى مخلوقة منحوتة بأيديكم.

ثم ذكر أن هؤلاء ليسوا ببدع في الأمم قبلهم، بل قد سبقهم إلى هذا خلق كثير فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾(١) أي كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله، ضل وأفِك الذين من قبلهم فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان، بل للجهل والهوى.

وبعد أن ذكر من الدلائل تعاقب الليل والنهار ذكر منها خلق الأرض والسماء؛ فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾(٢) أي الله الذي جعل لكم الأرض مستقرا تعيشون عليها، وتتصرفون فيها، وتمشون في مناكبها، وجعل لكم السماء سقفا محفوظا مزينا بنجوم ينشأ عنها الليل والنهار والظلام والضياء.

و بعد أن ذكر دلائل الآفاق والأكوان، ذكر دلائل الأنفس فقال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾(٣) أي وخلقكم فأحسن خلقكم، إذ خلق كلًّا منكم منتصب القامة، بادي البشرة، متناسب الأعضاء، مهيأً لمزاولة الصناعات، واكتساب الكمالات، ورزقكم من طيبات المطاعم والمشارب.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٤) أي ذلكم الذي أنعم عليكم بهذه النعم، هو الذي لا تنبغي الألوهية إلا له، ولا تصلح الربوبية لغيره، لا من لا ينفع ولا يضر، فتقدس سبحانه وتنزَّه وهو رب العالمين.

ثم نبه إلى وحدانيته وأمر بإخلاص العبادة فقال: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾(٥) أي هو الحي الذي لا يموت، وما سواه فمنقطع الحياة غير دائمها، لا معبود بحق غيره، ولا تصلح الألوهية إلا له، فادعوه مخلصين له الطاعة، ولا تشركوا في عبادته شيئا سواه من وثن أو صنم، ولا تجعلوا له ندًّا ولا عدلا.

---

(١) سورة غافر الآية: (٦٣).

(٢) سورة غافر الآية: (٦٤).

(٣) سورة غافر الآية: (٦٤).

(٤) سورة غافر الآية: (٦٤).

(٥) سورة غافر الآية: (٦٥).

ثم أمر عباده أن يحمدوه على جزيل نعمه وجليل إحسانه؛ فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[١] أي احمدوه سبحانه فهو مالك جميع أصناف الخلق من مَلَك وإنس وجن، لا الآلهة التي تعبدونها، ولا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا فضلا عن نفع غيرها وضره، وعن ابن عباس أنه قال: «**من قال لا إله إلا الله فليقل إثرها: الحمد لله رب العالمين**» [٢] وذلك قوله: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣].



(١) سورة غافر الآية: (٦٥).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره(٢١/٤١٠)، وقال رحمه الله: "وكان جماعة من أهل العلم يأمرون من قال: لا إله إلا الله أن يتبع ذلك: (الحمد لله رب العالمين) تأولا منهم هذه الآية بأنها أمر من الله بقيل ذلك" وذكر ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن سعيد بن جبير رحمه الله، وأخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، تفسير سورة حم المؤمن (٢/٤٦٧)، رقم الحديث(٣٦٣٩)، وعنه البيهقي في الأسماء والصفات، باب ما جاء في فضل الكلمة الباقية. . . ، (١/٢٦٢)، رقم الحديث(١٩٤)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في التلخيص.

(٣) تفسير المراغي (٨/٣٢٨- ٣٣٢).

المبحث الثاني: موقف المراغي مما ينافي توحيد الألوهية أو يقدح فيه.

المراغي رحمه الله أبدا وأعاد وكرر التحذير مما يقدح في توحيد الألوهية؛ لأن هذا الموضوع تكرر في القرآن كثيرا، ولأنه يعالج انحراف الفطرة التي فطر الله الخلق عليها، وأعظم ما يقدح في التوحيد الشرك الأكبر ثم الشرك الأصغر ثم ما كان وسيلة إلى الشرك بنوعيه، ولذلك قال المراغي رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[١]: "ذكر -أي الله- هنا أن هذا الوعيد وشديد التهديد إنما هو لجريمة الكفر، فأما سائر الذنوب سواه فالله قد يغفرها ويتجاوز عن زلاتها، أخرج ابن المنذر عن أبي مجلز قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٢] قام النبي ﷺ على المنبر فتلاها على الناس، فقام إليه رجل فقال: والشرك بالله، فسكت، ثم قام إليه فقال يا رسول الله والشرك بالله تعالى فسكت مرتين أو ثلاثا فنزلت هذه الآية[٣].

وقال: "وقوله تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ الشرك بالله ضربان:

(١) شرك في الألوهية، وهو الشعور بسلطة وراء الأسباب والسنن الكونية لغير الله تعالى.

(٢) شرك في الربوبية، وهو الأخذ بشيء من أحكام الدين بالتحليل والتحريم عن بعض البشر دون الوحي، وهذا ما أشار إليه الكتاب الكريم بقوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ

---

(١) سورة النساء الآية: (٤٨)

(٢) سورة الزُّمَر الآية: (٥٣).

(٣) أخرجه ابن المنذر في تفسيره (٧٣٩/٢)، وإسناده ضعيف للإرسال، ومن حديث ثوبان أخرجه أحمد في المسند رقم الحديث(٢٢٣٦٢)، والروياني في مسنده رقم الحديث(٦٤٧)، والبيهقي في الشعب، باب معالجة كل ذنب بالتوبة(٣٣٩/٩) رقم الحديث(٦٧٣٥) بلفظ "قال ثوبان: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية: {يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم} [الزمر: ٥٣] فقال رجل: يا رسول الله، فمن أشرك؟ فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال: "إلا من أشرك إلا من أشرك "ثلاث مرات"، وفي إسناده عبد الله بن لهيعة، قال شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند: إسناده ضعيف.

﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾[(١)] وقد فسر النبي ﷺ اتخاذهم أربابا بطاعتهم واتباعهم في أحكام الحلال والحرام[(٢)].

وقد سرى الشرك في الألوهية والربوبية إلى بعض المسلمين منذ قرون كثيرة.

وفى الآية إيماء إلى تسمية أهل الكتاب بالمشركين، وكأنه يقول لهم: لا يغرَّنكم انتماؤكم إلى الكتب والأنبياء، وقد هدمتم أساس الدين بالشرك الذي لا يغفره الله بحال، والحكمة في عدم مغفرة الشرك أن الدين إنما شرع لتزكية النفوس وتطهير الأرواح وترقية العقول، والشرك ينافي كل هذا، لأنه منتهى ما تهبط إليه العقول، ومنه تتولد سائر الرذائل التي تفسد الأفراد والجماعات، فبه يرفعون من دونهم أو من هم مثلهم إلى مرتبة التقديس والخضوع لهم، باعتبار أن السلطة العليا بأيديهم، وأن إرضاءهم وطاعتهم هو إرضاء لله وطاعة له، وبالتوحيد يعتق المرء من رق العبودية لأحد من البشر أو لشيء من الأشياء السماوية أو الأرضية، ويكون حرا كريما لا يخضع إلا لمن خضعت لسننه الكائنات، بما أقامه من ربط الأسباب بالمسببات.

والخلاصة: إن أرواح الموحدين تكون راقية لا تهبط بها الذنوب إلى الحضيض الذي تهوي إليه أرواح المشركين، إذ مهما عمل المشرك من الطيبات، فإن روحه تبقى مظلمة بالعبودية والخضوع لغير الله، ومهما أذنب الموحدون، فإن ذنوبهم لا تحيط بأرواحهم إذ خيرهم يغلب شرهم ولا يبعد بهم الأمد وهم في غفلة عن ربهم، كما قال تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[(٣)] فهم يسرعون إلى التوبة ويتبعون السيئة بالحسنة حتى يذهب أثرها من النفس، وذلك هو غفرانها.

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ أي ومن يجعل لغير الله شركة مع الله قيُّوم السموات والأرض -سواء أكانت الشركة بالإيجاد أو بالتحليل والتحريم- فقد اخترع ذنبا عظيم الضرر،

---

(١) سورة التوبة الآية: (٣١)

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة (٥/٢٧٨)، رقم الحديث(٣٠٩٥)، وابن أبي حاتم في تفسيره(٦/١٧٨٤)، والطبراني في الكبير(١٧/٩٢)، والبيهقي في الكبرى، كتاب آداب القاضي، باب ما يقضي به القاضي ويفتي به المفتي. . . . (١٠/١٩٨)، رقم الحديث(٢٠٣٥٠)، وقال الترمذي عقب الحديث: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث، والحديث حسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم(٣٢٩٣).

(٣) سورة الأعراف الآية: (٢٠١)

تستصغر في جنب عظمته جميع الذنوب والآثام، فهو جدير بألا يغفر، وما دونه قد يمحى بالغفران"[(١)].

وذكر رحمه الله الأسباب الداعية إلى تكرار التحذير من الشرك عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[(٢)]. فقال: "تقدم هذا النص بعينه في غرض آخر من هذه السورة، وأعيد هنا مرة أخرى، لأنه إنما ترجى الهداية والموعظة بإبراز المعاني التي يراد إيداعها في نفوس السامعين في كل سياق يقصد فيه توجيها إليها وإعدادها لقبولها، ولن يتم ذلك إلا بتكرار المقاصد الأساسية من تلك المعاني حتى تتمكن في النفوس بذلك التكرار، ومن ثَمَّ نرى رجال الدين والسياسة الذين عرفوا سنن الاجتماع وفهموا طبائع البشر وأخلاقهم يكررون في خطبهم ومقالاتهم، أغراضهم ومقاصدهم التي ينشرونها في الصحف والكتب، فإن الذهن إذا تكرر عليه مدح الشيء أو ذمه أثر فيه.

المعنى: أكد الله لعباده أنه لا يغفر البتة لأحد أشرك به سواه، وأنه قد يغفر لمن يشاء من المذنبين ما دون الشرك من الذنوب فلا يعذبهم عليه؛ ذاك أن الشرك هو منتهى فساد الأرواح وضلال العقول، فكل خير يلابسه لا يقوى على إضعاف مفاسده وآثامه والعروج بها إلى جوار ربها، إذ أنها تكون موزعة بين شركاء يحولون بينها وبين الخلوص إليه ﷻ، والله لا يقبل إلا ما كان خالصا له.

وبعض الناس ممن يسمون أنفسهم بالموحدين يفعلون كما يفعل سائر المشركين، فيدعون حين يشتد الكرب ويعظم الخطب غير الله وحده أو مع الله ولا يسمون عملهم دعاء، بل يسمونه توسلا واستشفاعا، ويسمون من يدعونهم أولياء وشفعاء، ولو لم يكن منهم إلا هذا الدعاء لقضاء الحاجات، وتفريج الكربات، لكفى ذلك عبادة وشركا بالله، وقد قال النبي ﷺ «**الدعاء هو العبادة**»[(٣)]، أي إن العبادة جدَّ العبادة إنما تكون في الدعاء الذي يفيض على اللسان من قرارة النفس حين وقوع الخطب، واشتداد الكرب، وهذا ما تسمعه من أصحاب الحاجات، عند حدوث الملمات، وفى هياكل العبادات، ولدى قبور الأموات، فكل ذلك يمثل

---

(١) تفسير المراغي (٢/٢٣١-٢٣٣).

(٢) سورة النساء الآية: (١١٦).

(٣) سبق تخريجه ص(٨٩).

الخشـوع والخضـوع، ويـذرف مـن العـين الـدموع ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[1].

وما عدا هذا الدعاء من العبادات، جلُّه يفعل بالتعليم، ويكون في الغالب خاليا من الشعور الذي به يكون القول أو الفعل عبادة، إذ هو خال من معنى العبادة وروحها؛ وهو الشعور بالسلطة الغيبية التي هي وراء الأسباب العادية، ولا سيما الأدعية التي تكون في الصلوات أو في غير الصلوات، إذ نرى الحافظ لها يحرك بها لسانه وقلبه مشغول بشواغل أخرى، فمثل هذا لا يمثِّل العبادة الحقة التي تملأ القلب نورا، والنفس استسلاما وخضوعا، والروح طهارة وزكاء.

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[2] أي ومن يشرك بالله شيئا فيدعوه معه ويذكر اسمه مع اسمه، أو يدعوه وحده ملاحظا أنه يقربه إليه زلفى فقد ضل عن القصد، وبعد عن سبيل الرشد ضلالا بعيدا في سبيل الغواية، لأنه ضلال يفسد العقل، ويكدِّر صفاء الروح ويجعله يخضع لعبد مثله، ويخضع أمام مخلوق يحاكيه ويكون عبدا للخرافات والأوهام.

وخلاصة ما تقدم:

(١) إن الشرك في العبادة الذي يتجلى في الدعاء، هو أقوى أنواع الشرك، لأنه يكون باعتقاد ناشئ عن وجدان حاكم على النفس مستعبد لها.

(٢) إن دون هذا الشرك المبني على الفكر والنظر الذي يحاجك فيه صاحبه بالشبهات، المنتزعة من تشبيه الخالق بالمخلوق، وقياسه على ظلمة الملوك، كقولهم: إن الإنسان الخاطئ لا يليق أن يخاطب الإله العظيم مباشرة، بل عليه أن يتخذ له وليا يكون واسطة بينه وبينه، كما يتخذ آحاد الرعية الوسائط إلى الملوك والأمراء من المقربين إليهم، ومثله من يشرك في ربوبية الله باتخاذ بعض المخلوقين شارعين يحلُّون له ما يرون تحليله ويحرِّمون عليه ما يرون تحريمه فيتبعهم في ذلك.

(٣) إن الجزاء في الآخرة يكون تابعا لما تكون عليه النفس في الدنيا من سلامة العقيدة، ومقدار درجة الفضيلة، التي يلازمها فعل الخيرات، أو فساد الفطرة وخطأ العقيدة، والتدنس بالرذيلة، التي يلازمها فعل السيئات.

---

(١) سورة البقرة الآية: (١٦٥).

(٢) سورة النساء: (١١٦).

(٤) إن الناس متفاوتون فيما بين ذلك من درجات ودركات، أخسها الشرك وأعلاها التوحيد، ولكل منهم صفات تناسبها، فلو جاز أن يغفر الشرك ويجعل صاحبه مع النبيين والصديقين والملائكة المقربين لكان ذلك نقضا لسنة الله التي لا تبديل فيها ولا تغيير"(١).

وذكر رحمه الله ما حكاه الله عن عيسى عليه السلام مع قومه وأنه دعاهم إلى عبادة الله وحده، فقال بعد قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾(٢).

قال: "و معنى قوله ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾أي متجاوزين بذلك توحيد الله وإفراده بالعبادة، وذلك إما أن يكون باتخاذ إله أو أكثر مع الله تعالى وهو الشرك، إذ عبادة الشريك المتخذ غير عبادة الله خالق السموات والأرض، سواء اعتقد المشرك أن هذا الشريك ينفع ويضر استقلالا، أو اعتقد أنه ينفع ويضر بإقدار الله إياه وتفويضه بعض الأمر إليه فيما وراء الأسباب أو بالوساطة عند الله أي بما له من التأثير والكرامة على النفع والضر، وهذا هو الأكثر الذي كان عليه مشركو العرب عند البعثة، كما حكاه الله عنهم في قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾(٣)، وقوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾(٤)، وقل أن يوجد من المشركين من يتخذ إلها غير الله متجاوزا بعبادته الإيمان بالله الذي هو خالق الكون ومدبره، فالإيمان الفطري الذي غُرس في نفوس البشر يرشد إلى أن تدبير الكون كله صادر عن قوة غيبية لا يدرك كنهها أحد، فالموحدون أتباع الأنبياء يتوجهون بعباداتهم إلى رب هذه السلطة الغيبية وحده اعتقادا منهم أنه هو الفاعل الكامل التصرف، وإن نسب الفعل إلى غيره فبإقدار الله إياه وتسخيره له بمقتضى سننه في خلقه، والمشركون يتوجهون إليه تارة وإلى بعض ما يستكبرون من خلقه تارة أخرى،

(١) تفسير المراغي (٣١٤/٢-٣١٦).

(٢) سورة المائدة الآية: (١١٧).

(٣) سورة يونس الآية: (١٨).

(٤) سورة الزُّمَر الآية: (٣).

كالشمس والنجم والملائكة وبعض مخلوقات أخرى، ويتوجهون أحيانا إليهما معا فيجعلون تلك المخلوقات المعظمة وسيلة إلى خالق الأكوان ومدبر الكائنات.

والخلاصة: إن اتخاذ إله من دون الله يراد به عبادة غيره، سواء أكانت خالصة لغيره أو شركة بينه وبين غيره، ولو بدعاء هذا الغير والتوجه إليه ليكون واسطة عنده.

و قد نعى الله عليهم اتخاذ المسيح إلها في مواضع عدة من هذه السورة، وعبادة أمة كانت معروفة في الكنائس الشرقية والغربية، ثم أنكرت عبادتها فرقة البروتستانت[1] (إصلاح المسيحية) التي جاءت بعد الإسلام بزمن طويل، وهذه العبادة منها ما هو صلاة ذات دعاء وثناء على المعبود، ومنها ما هو استغاثة واستشفاع، ومنها ما هو صيام ينسب إليها ويسمى بصيام العذراء، وكل أولئك يقترن بخشوع وخضوع لذكرها ولصورها وتماثيلها واعتقاد السلطة الغيبية لها وأنها تنفع وتضر في الدنيا والآخرة إما بنفسها أو بواسطة ابنها ويسمونها (والدة الإله).

والآية ترشد إلى أنهم اتخذوها هي وابنها إلهين (والاتخاذ غير التسمية) فيصدق بالعبادة وهي واقعة حتما.

﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ التسبيح تنزيه الله تعالى عما لا يليق به، وأصل الكلمة من السبح والسباحة، وهي الذهاب السريع البعيد في البحر أو البرِّ ومنه فرس سبوح، أي أنزهك يا الله عن أن يكون معك إله آخر، وبذا أثبت له التنزيه عن المشاركة في الذات والصفات.

ثم انتقل من هذا إلى تبرئة نفسه العالمة بالحق عن قول ما ليس بحق فقال: ﴿مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي ليس من شأني ولا مما يصح أن يقع مني أن أقول قولا لا حق لي أن أقوله، لأنك أيدتني بالعصمة عن مثل هذا القول الباطل، وهو بتنزيهه الله أوَّلًا أثبت أن ذلك القول الذي نُسِب إليه قول لا شائبة فيه من الحق، وليس من شأنه ولا مما يقع من مثله، وقد أكد هذا النفي مرة أخرى بحجة أخرى، ارتقى فيها من برهان راجع إلى نفسه وهو عصمته عليه السلام، إلى برهان أعلى راجع إلى ربه علام الغيوب؛ فقال: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي

---

(١) "البروتستانتية اسم عام يطلق على مئات الطوائف والفرق النصرانية، والبروتستانتية وليدة حركة الإصلاح الديني المعروفة في أوربا، وكلمة البروتستانت كلمة لاتينية معناه المحتج، وقد استخدمت لأول مرة عام ١٥٢٩م حينما احتج بعض الألمان على محاولة الكنيسة الكاثوليكية الحد من نشاط اللوثريين، ثم أطلق الاسم بعد ذلك على جميع الطوائف والفرق النصرانية التي اختلفت مع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية وخرجت عليها" الموسوعة العربية العالمية ص(٩٩).

﴿نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ أي: إن ذلك القول إن كان قد صدر مني فقد علمته، إذ علمك واسع محيط بكل شيء، فأنت تعلم ما أسره وأخفيه في نفسى فكيف لا تعلم ما أظهرته ودعوت إليه وعلمه مني غيري؟ كما أني لا أعلم ما تخفيه من علومك الذاتية التي لا ترشدني إليها بالكسب والاستدلال، لكني أعلم ما تظهره لي بالوحي بواسطة ملائكتك المقربين إليك.

﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ أي لأنك أنت المحيط بالعلوم الغيبية وحدك، ما كان منها وما سيكون وما هو كائن، وعلم غيرك مستمد من فيضك لا من ذاته، فهو إما أن يناله بواسطة المشاعر والحواس أو العقل، وإما أن يتلقاه هبة منك بالوحي والإلهام.

وبعد تنزيه ربه وتبرئة نفسه وإقامة البراهين على ذلك، بين حقيقة ما قاله لقومه، إذ الشهادة عليهم لا تكون تامة كاملة إلا بإثبات ما يجب أن يكونوا عليه من أمر التوحيد بعد نفي ضده، فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ أي: إني ما قلت لهم في شأن الإيمان وأساس الدين إلا ما أمرتني بالتزامه اعتقادا وتبليغا لهم، بأنك ربي وربهم وأنني عبد من عبادك مثلهم إلا أنك خصصتني بالرسالة إليهم.

﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي وكنت قائما عليهم أراقبهم وأشهد على ما يقولون وما يفعلون، فأقر الحق وأنكر الباطل مدة وجودي بينهم.

﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي فلما قبضتني إليك كنت أنت الحفيظ عليهم دوني، لأني إنما شهدت من أعمالهم ما عملوه وأنا بين أظهرهم، وأنت تشهد على كل شيء إذ لا يخفى عليك شيء، وفى هذا إيماء إلى أن الله إنما عرَّفه أفعال القوم ومقالتهم بعد ما قبضه إليه بقوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ﴾. وقد تقدم في هذه السورة ما يثبت براءة عيسى عليه السلام من مثل هذه المقالة، وذلك قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾(١).

وجاء في إنجيل يوحنا (و هذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته)"(٢).

(١) سورة المائدة الآية: (٧٢).

(٢) تفسير المراغي (٣/٥٠-٥٢).

وذكر المراغي رحمه الله بعد أن ساق الآيات الواردة في الأنبياء والرسل عليهم السلام فقال: "ثم ختم سبحانه الآية بنفي الشرك وتقرير التوحيد فقال: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١) أي ولو أشرك أولئك المهديون بربهم فعبدوا معه غيره لبطل أجر أعمالهم التي يعملونها، إذ توحيد الله تعالى هو المزكّي للأنفس، فضده وهو الشرك منتهى النقص والفساد المدسّي لها والمفسد لفطرتها، فلا يبقى معه فائدة لعمل آخر يترتب عليه نجاتها وفلاحها به"(٢).

وقال المراغي رحمه الله بعد أن ذكر الآيات في أصول المحرمات وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٣)، فقال: "وقد بدأها -أي الله- بأكبر المحرمات وأعظمها وأشدها إفسادا للعقل والفطرة، وهو الشرك بالله، سواء أكان باتخاذ الأنداد له أو الشفعاء المؤثّرين في إرادته، أو بما يذكّر بهم من صور وتماثيل وأصنام وقبور، أو باتخاذ الأرباب الذين يتحكمون في التشريع فيحللون ويحرمون؛ فقال: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ أي: ومما أتلوه عليكم في بيان هذه المحرمات وما يقابلها من الواجبات، ألا تشركوا بالله شيئا من الأشياء وإن عظمت في الخلق كالشمس والقمر والكواكب، أو في القدر كالملائكة والنبيين والصالحين، فإن عظمتها لا تخرجها عن كونها مخلوقة لله، مسخّرة له بقدرته وإرادته: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾(٤)، ويلزم هذا أن تعبدوه وحده بما شرعه لكم على لسان رسوله لا بأهوائكم ولا بأهواء أحد من الخلق أمثالكم"(٥).

وذكر رحمه الله من الطوائف الذين وقع منهم الشرك ثلاث طوائف فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾(٦) "أي: وليحذّر من بين هؤلاء الكفار من قالوا هذه المقالة الشنعاء، إن الله اتخذ ولدا، وهؤلاء ثلاث طوائف.

---

(١) سورة الأنعام الآية: (٨٨).

(٢) تفسير المراغي (٣/١٥٢).

(٣) سورة الأنعام الآية: (١٥١).

(٤) سورة مريم الآية: (٩٣).

(٥) تفسير المراغي (٣/٢٣١-٢٣٢).

(٦) سورة الكهف الآية: (٤).

(١) المشركون الذين قالوا الملائكة بنات الله.

(٢) اليهود القائلون عزيز ابن الله.

(٣) النصارى القائلون المسيح ابن الله.

وإنما خص هؤلاء مع دخولهم في الإنذار السابق[1] لفظاعة حالهم، وشناعة كفرهم وضلالهم.

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾[2] أي ليس لهم باتخاذ الولد برهان، بل هو قول لم يصدر عن علم يؤيده، ولا عقل يظاهره.

﴿وَلَا لِآبَآئِهِمْ﴾[3] أي وكذلك ليس لآبائهم الذين قالوا مثل هذه المقالة وهم القدوة لهم به علم.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾[4] أي عظمت مقالتهم هذه في الكفر، وليتهم اكتفوا بخطورها بالبال، وترددها في الصدور، بل تلفظوا بها على مرأى من الناس ومسمع، وكثير مما يوسوس به الشيطان وتحدِّث به النفس لا يتلفَّظ به، بل يكتفى بما يعتقده القلب، فكيف ساغ لهم أن يجرؤوا على التلفظ بهذا المنكر الذي لا مستند له من عقل ولا نقل؟.

ثم أكد هذا الإنكار وبين أنه كما لا علم لهم ولآبائهم به لا علم لأحد به، لأنه لا وجود له، وما هو إلا محض اختلاق بقوله: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[5] أي: ما يقولون إلا قولا لا حقيقة له بحال"[6].

وذكر رحمه الله ما وقع من السامري[7] ومن معه من عبادة العجل، ثم تطرق إلى غلاة الصوفية، والأعمال التي تقدح في توحيد الألوهية وقد تجر إلى الوثنية؛ فقال بعد قوله تعالى:

---

(١) الإنذار السابق قوله سبحانه بعد ذكر الكتاب العظيم: ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾[الكهف: ٢].

(٢) سورة الكهف الآية: (٥).

(٣) سورة الكهف الآية: (٥).

(٤) سورة الكهف الآية: (٥).

(٥) سورة الكهف الآية: (٥).

(٦) تفسير المراغي: (٥/٣٧٣-٣٧٤).

(٧) السامري: هو رجل من بني إسرائيل من قوم موسى عليه السلام، حكى الله قصته وإضلاله لقوم موسى ودعائهم إلى عبادة العجل المصنوع من ذهب بعد ذهاب موسى للقاء ربه، انظر: تاريخ الطبري(١/٤٢٢)، والبداية والنهاية(١/٢٨٦).

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾(١) أي: دعاهم إلى الضلال باتخاذ العجل والدعاء إلى عبادته، وكان من قوم يعبدون البقر، فدخل في دين بني إسرائيل في الظاهر وفي قلبه حنين لعبادة البقر، فأطاعه بعض وامتنع آخرون.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾(٢) أي فانصرف موسى إلى قومه بني إسرائيل بعد انقضاء الليالي الأربعين مغتاظا من قومه، حزينا لما أحدثوا من بعده من الكفر بالله، روي أنه لما رجع موسى سمع الصياح والضجيج وكانوا يرقصون حول العِجْل فقال للسبعين الذين كانوا معه هذا صوت الفتنة(٣).

قال القرطبي(٤): "سئل الإمام أبو بكر الطرطوشي(٥) عن جماعة يجتمعون ويكثرون من ذكر الله وذكر رسوله ﷺ، ثم إنهم يضربون بالقضيب(٦) على شيء من الطبل ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد(٧) حتى يقع مغشيا عليه، ويحضرون شيئا يأكلونه، فهل الحضور معهم جائز أم لا؟ فأجاب: يرحمك الله، مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة

---

(١) سورة طه الآية: (٨٥).

(٢) سورة طه الآية: (٨٦).

(٣) انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي(٦/٢٥٨)، ومعالم التنزيل للبغوي(٥/٢٩١).

(٤) هو: الشيخ الإمام، أبو عبد الله، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري، الأندلسي، القرطبي، المفسر، قال الذهبي: إمام متفنن متبحر في العلم، له تصانيف مفيدة تدل على إمامته، وكثرة اطلاعه ووفور فضله، مصنف التفسير المشهور، الذي سارت به الركبان، والتذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، توفي سنة (٦٧١هـ)، انظر: تاريخ الإسلام للذهبي(١٥/٢٢٩)، والديباج المذهب لابن فرحون(٢/٣٠٨)، وطبقات المفسرين للسيوطي(١/٩٢).

(٥) هو: أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهري الطرطوشي الأندلسي المالكي نزيل الإسكندرية وأحد الأئمة الكبار، فقيه حافظ إمام محدث ثقة، زاهد فاضل عالم عامل، رحل إلى العراق وقد تفقه بالأندلس وصحب أبا الوليد الباجي مدة، عاش سبعين سنة وتوفي في جمادى الأولى سنة (٥٢١هـ)، انظر: بغية الملتمس لأبي جعفر الضبي(١/١٣٥)، ووفيات الأعيان لابن خلكان(٤/٢٦٢).

(٦) القضيب: الغصن، ويطلق على السيف والسهم، انظر: تهذيب اللغة للأزهري(٨/٢٧١)، ومقاييس اللغة لابن فارس(٥/١٠٠).

(٧) الوجد والتواجد حال من أحوال الصوفية، قال الكالاباذي في التعرف لمذهب أهل التصوف(١/١١٢): "الوجد هو ما صادف القلب من فزع أو غم أو رؤية معنى من أحوال الآخرة أو كشف حالة بين العبد وبين الله عز وجل. . . فمن ضعف وجده تواجد والتواجد ظهور ما يجد في باطنه على ظاهره ومن قوى تمكن فسكن"، وله تعريفات كثيرة انظر: الكلام عليه في دراسات في التصوف لإحسان إلهي ظهير(١/١٧٧).

رسوله ﷺ وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري لما اتخذ لهم عجلا جسدا له خوار، فقاموا يرقصون حوله ويتواجدون، فهو دين الكفار وعبَّاد العجل، وأما الطبل فأول من اتخذه الزنادقة[١] ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله، وإنما كان مجلس النبي مع أصحابه، كأنما على رءوسهم الطير من الوقار، فينبغي للسلطان أن يمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم أو يعينهم على باطلهم، وهذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين")[٢]

وذكر رحمه الله عظم الشرك وخسارة صاحبه وأنه مخلد في النار إن لم يتب؛ فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[٣] أي والذين كفروا بالأدلة التي وضعت في الأكوان وجاءت في القرآن، دالة على وحدانية الله وعظيم قدرته وبديع حكمته، أولئك هم المغبونون حظوظهم من خيرات السموات والأرض، لأنهم حرموا من ذلك في الآخرة بخلودهم في النار.

ثم أمر رسوله أن يوبخ المشركين على أمره ﷺ بعبادة الأصنام والأوثان فقال: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾[٤] أي قل لمشركي قومك الداعين لك إلى عبادة الأصنام والقائلين لك: هو دين آبائك: أفتأمروني أيها الجاهلون بعد مشاهدتي الآيات الدالة على تفرده ﷻ بالألوهية أن أعبد غيره، والعبادة لا تصلح لشيء سواه.

روي عن ابن عباس: (أن قريشا دعت رسول الله ﷺ أن يعطوه مالا فيكون أغنى رجل بمكة، ويزوجوه ما أراد من النساء ويطئون عقبه (أي يغطون دعوته ويزيلونها) وقالوا: هذا لك يا محمد وتكفُّ عن شتم آلهتنا ولا تذكرها بسوء، قال: حتى أنظر ما يأتيني من ربي، فنزل: ﴿قُلْ

(١) الزنادقة جمع زنديق وهو لغة كلمة فارسية معربة ومعناها كما قال الخليل في العين(٥/٢٥٥): "ألا يؤمن بالآخرة وبالربوبية"، وفي اصطلاح الفقهاء: "هو المنافق الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر" انظر: المغني لابن قدامة(٢/٢٦٦)، والألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية ص(٣٣١).

(٢) تفسير المراغي (٦/١١٦)، وانظر: النقل عن القرطبي في تفسيره(١١/٢٣٧-٢٣٨).

(٣) سورة الزُّمَر الآية: (٦٣).

(٤) سورة الزُّمَر الآية: (٦٤).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾(١) إلى آخر السورة، ونـزل: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾(٢)(٣).

وعنه أيضا: (إن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم وهم يعبدون معه إلهه)(٤).

ثم بين أنه حذَّر وأنذر عباده من الشرك بلسان جميع الأنبياء فقال: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾(٥) أي: ولقد نـزل عليك الوحي من ربك بأنه إذا حصل منك إشراك به بعبادة صنم أو وثن، ليبطلنَّ كل عمل لك من أعمال الخير كصلة رحم وبرٍّ ببائس فقير، ولا تنالنَّ به ثوابا ولا جزاء، ولتكونن ممن خسروا حظوظهم في الدنيا والآخرة، وأوحى إلى الرسل من قبلك بمثل هذا، فاحذر أن تشرك بالله شيئا فتهلك، وهذا كلام سيق على سبيل الفرض والتقدير، لتهييج المخاطب المعصوم، وللإيذان بشناعة الإشراك وقبحه، حتى لينهى عنه من لا يكاد يفعله فكيف بغيره؟ والحكم بحبوط عمل المشرك في الآخرة مقيّد بما إذا مات وهو كذلك بدليل قوله في الآية الأخرى: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾(٦)، ثم رد عليهم ما أمروه به من عبادة الأصنام وأمره بعبادته وحده؛ فقال: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾(٧) أي لا تعبد ما أمرك به قومك، بل الله فاعبده دون سواه من الأنداد والأوثان، ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لإنعامه عليك بما هداك إليه من التوحيد والدعاء إلى دينه، وما اختصك به من الرسالة)(٨).

---

(١) سورة الكافرون الآية: (٢).

(٢) سورة الزُّمَر الآية: (٦٥). .

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره(٢٤/٦٦٢)، وابن أبي حاتم في تفسيره(١٠/٣٤٧١)، والطبراني في المعجم الصغير(٢/٤٤) رقم الحديث(٧٥١)، وإسناده ضعيف فيه أبو خلف عبد الله بن عيسى الخزاز قال ابن حجر عنه في التقريب ص(٥٣٤): "ضعيف"".

(٤) انظر: تفسير ابن كثير(٧/١١٢).

(٥) سورة الزُّمَر الآية: (٦٥).

(٦) سورة البقرة الآية: (٢١٧).

(٧) سورة الزُّمَر الآية: (٦٦).

(٨) تفسير المراغي (٨/٢٨١-٢٨٢).

وذكر رحمه الله حال المشرك والموحّد في المشي يوم القيامة فقال عند قول الحق سبحانه: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾[١] "ضرب مثلا يبين حالي المشرك والموحّد، فمثَّل حال الأول بحال من يمشي منحنيا إلى الأمام على وجهه، فلا يدري أين يسلك، ولا كيف يذهب، فيكون حائرا ضالا، ومثَّل حال الثاني بحال من يمشي منتصب القامة على الطريق الواضح، فيرى ما أمامه ويهتدي إلى ما يريد. . . ثم قال: وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ "أي أفمن يمشي وهو يتعثر في كل ساعة، ويخر على وجهه في كل خطوة، لتوَعُّرِ طريقه، واختلاف أجزائها انخفاضا وارتفاعا أهدى سبيلا وأرشد إلى المقصد الذي يؤمه، أم من يمشى سالما من التخبط والعثار على الطريق السويّ الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف؟ فهذا المكب على وجهه هو المشرك الذي يمشي على وجهه في النار يوم القيامة، والذي يمشي سويا هو الموحد الذي يحشر على قدميه إلى الجنة)[٢].

وذكر رحمه الله عظم الشرك عند قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾[٣] فقال: "أي واذكر أيها الرسول الكريم موعظة لقمان لابنه، وهو أشفق الناس عليه، وأحبهم لديه حين أمره أن يعبد الله وحده، ونهاه عن الشرك، وبين له أنه ظلم عظيم أما كونه ظلما، فلما فيه من وضع الشيء في غير موضعه، وأما أنه عظيم، فلما فيه من التسوية بين من لا نعمة إلا منه، وهو ﷻ، ومن لا نعمة لها، وهي الأصنام والأوثان، روى البخاري عن ابن مسعود قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾[٤] شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: أيُّنا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إنه ليس بذلك، ألا تسمعون لقول لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾**»[٥][٦].

---

(١) سورة الملك الآية: (٢٢).

(٢) تفسير المراغي: (١٠/١٥٨-١٥٩).

(٣) سورة لقمان الآية: (١٣).

(٤) سورة الأنعام الآية: (٨٢).

(٥) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم} (٦/١١٤)، رقم الحديث(٤٧٧٦).

(٦) تفسير المراغي (٧/٣٠٥).

وجوب البراءة من المشركين وأوضح رحمه الله عقيدة الولاء والبراء عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾(١) أي قد كان لكم أيها المؤمنون قدوة حسنة في إبراهيم خليل الرحمن، تقتدون به وبالذين معه من أتباعه المؤمنين، حين قالوا لقومهم الذين كفروا بالله وعبدوا الطاغوت: أيها القوم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله من الآلهة والأنداد.

ثم فسر هذه البراءة بقوله: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾(٢) أي: جحدنا ما أنتم عليه من الكفر، وأنكرنا عبادتكم ما تعبدون من دون الله، فلا نعتدُّ بكم ولا بآلهتكم، فإن ما أنتم عليه لا تقره العقول الراجحة، ولا الأحلام الحصيفة؛ فما قيمة الأحجار والأصنام التي تتخذونها معبودات ترجون منها النفع والضر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾(٣). . . .

وقوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾(٤) أي لكم في ابراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها إلا في استغفار إبراهيم لأبيه، فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، وقد كان بعض المؤمنين يدعون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم، ويقولون: إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه(٥)، فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾(٦).

والخلاصة: لا تجاملوهم ولا تبدوا لهم الرأفة وتستغفروا لهم، كما فعل إبراهيم لأبيه، لأنه إنما استغفر له قبل أن يتبين له أنه عدوٌّ لله، فلما مات على الكفر تبين له ذلك، فترك الاستغفار،

(١) سورة الممتحنة الآية: (٤).

(٢) سورة الممتحنة الآية: (٤).

(٣) سورة الحج الآية: (٧٣).

(٤) سورة الممتحنة الآية: (٤).

(٥) انظر: تفسير ابن كثير: (٤/٤١٨).

(٦) سورة التوبة الآية: (١١٤).

وأنتم قد استبانت لكم عداواتهم بكفرهم بالرسول، وإخراجكم من الديار، فلا ينبغي أن تستغفروا لهم"[(١)].

ثم قال رحمه الله: "وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾[(٢)]، كرَّر النهي عن موالاة الكافرين مرة أخرى، يهودا كانوا أو نصارى، ليكون عظة وذكرى لحاطب بن أبي بلتعة[(٣)] ومن نحا نحوه ممن يفضلون توثيق الصلات الدنيوية على مصلحة الدعوة الدينية، ويجعلون شؤون الدنيا مقدمة على شؤون الدين.

رُوي أن قوما من فقراء المؤمنين كانوا يخبرون اليهود بأخبار المسلمين، ليصيبوا من ثمارهم فنزلت الآية[(٤)].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي لا تتخذوا اليهود والنصارى وسائر الكفار ممن غضب الله عليهم، واستحقوا الطرد من رحمته أولياء لكم، وأصدقاء تسرون إليهم بما يضر نشر الدعوة، ويحول دون تقدم شؤون الملة) [(٥)].

وبعد هذه المقدمة التي أوضح فيها المراغي رحمه الله خطورة الشرك والوسائل الموصلة إليه، وخطورة تولي المشركين، ذكر بعد ذلك الخلل الحاصل في توحيد العبادة والمنتشر في عالمنا الإسلامي، وحذَّر منه في مواضع كثيرة من تفسيره.

ومن أجل ترتيب وتقريب هذا المبحث قسمته على مطالب:

المطلب الأول: ما يتعلق بالغلو بالأنبياء والأولياء والصالحين:

تطرق المراغي رحمه الله في تفسيره إلى مسألة الغلو، وذكر أن هذا الموضوع هو الذي أخرج فئاما من الناس عن دين الله إلى دين المشركين، وإن سمي بغير اسمه، لأن التسمية لا تغير من

---

(١) تفسير المراغي: (١٠/٥٦-٥٧).

(٢) سورة الممتحنة الآية: (١٣).

(٣) قصة حاطب أخرجها البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس، (٤/٥٩)، رقم الحديث(٣٠٠٧)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم وقصة حاطب بن أبي بلتعة، (٤/١٩٤٢)، رقم الحديث(٢٤٩٤).

(٤) انظر: أسباب النزول للواحدي ص(٤٢٥)، ومعالم التنزيل للبغوي(٥/٧٨).

(٥) تفسير المراغي (١٠/٦٤-٦٥).

الحقيقة شيئا، فالشرك شرك مهما تغيرت المسميات، فقال عن الأنداد: "والندُّ: الشريك والكفء، يقال فلان ندُّ فلان إذا كان مماثلا له في بعض الشؤون"(١).

وقال أيضا: "عدَّد -أي الله- بعض نعمه المتظاهرة عليهم الموجبة للعبادة والشكر، فجعل منها خلقهم أحياء قادرين على العمل والكسب، ثم خلق الأرض مستقرا ومهادا لينتفعوا بخيراتها، ويستخرجوا معادنها ونباتها، ثم بنى لهم السماء التي زينها بالكواكب، وجعل فيها مصابيح يهتدي بها الساري في الليل المظلم، وأنزل منها الماء فأخرج به ثمرات مختلفا ألوانها وأشكالها؛ أفليس في كل هذا ما يطوّح بالنظر، ويهدي الفكر إلى أن خالق هذا الكون البديع المثال لا ندَّ له ولا نظير، وأن ما جعلوه أندادا له لا يقدرون على إيجاد شيء مما خلق، وأنهم يعلمون ذلك حق العلم، فكيف يستغيثون بغير الله، ويدعون غير الله، ويستشفعون به، ويتوسلون إليه، مع أنه لا خالق ولا رازق إلا الله؟ "(٢).

وقال عند قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(٣) "وبذلك اجتثَّ جذور الشرك التي كانت فاشية في جميع الأمم، وهي اتخاذ أولياء من دون الله يستعان بهم على قضاء الحاجات ويتقرب بهم إلى الله زلفى"(٤).

وذكر عن المشركين وما يفعلونه عند بداية أعمالهم فقال: "كان العرب قبل الإسلام يبدأون أعمالهم بأسماء آلهتهم، فيقولون باسم اللات أو باسم العزى، وكذلك كان يفعل غيرهم من الأمم، فإذا أراد امرؤ منهم أن يفعل أمرا مرضاة لملك أو أمير يقول أعمله باسم فلان، أي إن ذلك العمل لا وجود له لولا ذلك الملك أو الأمير"(٥).

وقال: "فمن يستعين بقبر ناسك، أو ضريح عابد لقضاء حاجة له، أو تيسير أمر تعسَّر عليه، أو شفاء مريض أو هلاك عدو فقد ضل سواء السبيل، وأعرض عما شرعه الله، وارتكب ضربا من ضروب الوثنية التي كانت فاشية قبل الإسلام وبعده، ولا تزال إلى الآن كذلك، وقد

---

(١) تفسير المراغي (١ / ٥٩).

(٢) المصدر السابق (١/٥٩).

(٣) سورة الفاتحة الآية: (٥).

(٤) تفسير المراغي (١/٢٦).

(٥) تفسير المراغي (١/٣٠).

نهى عن مثلها الشارع الحكيم، إذ حصر طلب المعونة فيه دون سواه، وجعلها مقصد كل مخبت أوّاه"[١].

وقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾[٢]: "الأنداد هم الذين خضع الناس لهم وقصدوهم في قضاء حاجاتهم، وكان مشركو العرب يسمون ذلك الخضوع عبادة، إذ لم يكن عندهم شرع ينهاهم عن عبادة غير الله، وأهل الكتاب الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أندادا وأربابا كانوا يتحاشون هذا اللفظ، فلا يسمون ذلك الاتخاذ عبادة، ولا أولئك المعظمين آلهة وأندادا، بل يسمون دعاءهم غير الله والتقربَ إليه توسُّلًا واستشفاعا، ويسمون تشريعَهم لهم بعض العبادات، وتحليلَ المنكرات، وتحريمَ بعض الطيبات، فقهًا واستنباطًا من التوراة، والكل متفقون على أنه لا خالق إلا الله ولا رازق إلا هو.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي وإنكم لتعلمون بطلان ذلك، وإنكم إذا سئلتم من رزقكم من السموات والأرض ومن يدبر الأمر؟ تقولون: الله، فلم إذاً تدعون غيره، وتستشفعون به؟ ومِن أين أتيتم بهذه الوسائط التي لا تضر ولا تنفع؟ ومِن أين جاءكم أن التقرب إلى الله يكون بغير ما شرعه الله حتى قلتم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[٣]"[٤].

وذكر عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[٥]: "أي إن جميع الملل والشرائع التي جاء بها الأنبياء روحها الإسلام والانقياد والخضوع، وإن اختلفت في بعض التكاليف وصور الأعمال، وبه كان الأنبياء يوصون، فالمسلم الحقيقي من كان خالصا من شوائب الشرك، مخلصا في أعماله مع الإيمان من أي ملة كان، وفي أي زمان وجد، وهذا هو المراد بقوله عز اسمه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[٦]، ذاك أن الله شرع الدين لأمرين:

(١) المصدر السابق(١/٣٥).

(٢) سورة البقرة الآية: (٢٢).

(٣) سورة الزُّمَر الآية: (٣).

(٤) تفسير المراغي (١/٦٠)

(٥) سورة آل عمران الآية: (١٩).

(٦) سورة آل عمران الآية: (٨٥).

(١) تصفية الأرواح وتخليص العقول من شوائب الاعتقاد بسلطة غيبية للمخلوقات بها تستطيع التصرف في الكائنات لتسلم من الخضوع والعبودية لمن هم من أمثالها.

(٢) إصلاح القلوب بحسن العمل وإخلاص النية لله وللناس"[١].

وقال عن أهل الكتاب وما وقعوا فيه من الشرك: "وقد كان من توليهم وإعراضهم أن اتخذوا الأحبار والرهبان أربابا مشرّعين يحلُّون ويحرِّمون، ويبيحون ويحظرون، ويزيدون ما شاءوا من الشعائر والمناسك الدينية، فكأنهم شركاء لله يشرِّعون لهم ما لم يأذن به الله"[٢].

ثم ذكر المراغي رحمه الله ما يغتر به المشركون من التعلق بغير الله فقال تعليقا على الآيتين من سورة آل عمران وهي قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٣]: "أخرج ابن إسحاق[٤] وغيره عن ابن عباس قال: قال أبو رافع القرظي[٥] حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ وقد دعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟ وقال رجل نصراني من أهل نجران: أو ذاك تريد؟ فقال رسول الله ﷺ: «**معاذ الله أن نعبد غير الله أو نأمر بعبادة غيره، ما بذلك بعثني الله ولا بذلك أمرني**»، فأنزل الله الآية[٦].

---

(١) تفسير المراغي (٤٧٢/١).

(٢) المصدر السابق (١٣٥/١).

(٣) سورة آل عمران الآية: (٨٠).

(٤) هو: محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار وقيل ابن يسار بن كوثان المديني مولى قيس بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف، كان عالما بالسير والمغازي وأيام الناس، وأخبار المبتدأ، وقصص الأنبياء، حدث عنه أئمة العلماء كشعبة والثوري وغيرهما، قدم بغداد فنزلها حتى مات بها، توفي سنة (١٥١هـ) على الراجح، انظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي(٧/٢)، وتاريخ الإسلام للذهبي(١٩٣/٤).

(٥) أبو رافع القرظي، هو سلام بن أبي الحقيق وقيل عبد الله بن أبي الحقيق اليهودي، وكان سلام بن أبي الحقيق أبو رافع فيمن حزب الأحزاب على رسول الله ﷺ، قتله عبد الله بن عتيك بأمر رسول الله ﷺ. انظر: غوامض الأسماء المبهمة لابن بشكوال(٦٣٨/٢)، وتاريخ الإسلام للذهبي(٢٢٨/١).

(٦) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره(٥٣٩/٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره(٦٩٣/٢)، وفي إسناده محمد بن إسحاق صدوق يدلس كما في التقريب ص(٨٢٥)، وقد روى بالعنعنة عن محمد بن أبي حميد وهو مجهول كما في التقريب ص(٩٥/٨).

وأخرج عبد الرزاق عن الحسن قال: بلغني أن رجلا قال يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض، أفلا نسجد لك؟ قال: «**لا، ولكن أكرموا نبيكم، واعرفوا الحق لأهله، فإنه لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله تعالى**»، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ الآيتين[١]. . . .

ومعنى قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي متجاوزين ما يجب من إفراده تعالى بالعبادة، فإن العبادة الصحيحة لا تتحقق إلا إذا أخلصت له وحده، ولم تشبها شائبة من التوجه إلى غيره، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾[٢]، ومن دعا إلى عبادة نفسه فقد دعا الناس إلى أن يكونوا عابدين له من دون الله وإن لم ينههم عن عبادة الله، بل وإن أمرهم بعبادة الله.

ومن جعل بينه وبين الله واسطة في العبادة كالدعاء، فقد عبد هذه الواسطة من دون الله، لأن هذه الواسطة تنافي الإخلاص له وحده، وحين ينتفي الإخلاص تنتفي العبادة، ومن ثم قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾[٣]، فتوسلهم بالأولياء جعله تعالى يقول إنهم اتخذوا من دونه أربابا، ويقول ﷺ: «**قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيرى تركته وشركه**» -وفي رواية-: «**فأنا منه بريء، هو للذي عمله**». رواه مسلم وغيره[٤]، وقال ﷺ: «**إذا جمع الله الناس يوم القيامة نادى مناد، من أشرك في عمل عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك**» رواه أحمد. [٥]

---

(١) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص(١١٣)، وأورده ابن حجر في العجاب في بيان الأسباب(٢/٧٠٥) قال: (أخرج عبد بن حميد عن روح عن عوف عن الحسن: بلغني أن رجلًا قال. . .) فذكره، وأورده السيوطي في الدر المنثور(٢/٢٥٠) قال: وأخرج عبد بن حميد عن الحسن فذكره، وقال المناوي في الفتح السماوي(١/ ٣٧٠): "قال الحافظ ابن حجر: لم أجد له إسنادا، ونقله الواحدي في الأسباب عن الحسن البصري، وكذا أخرجه عبد بن حميد في تفسيره عنه"، وإسناده صحيح إلى الحسن ولكنه مرسل فهو ضعيف.

(٢) سورة الزُّمَر الآية: (١٤).

(٣) سورة الزُّمَر الآية: (٣).

(٤) صحيح مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله (٤/٢٢٨٩)، رقم الحديث (٢٩٨٥).

(٥) أخرجه الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الكهف، (٥/٣١٤)، رقم الحديث (٣١٥٤)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة، (٢/١٤٠٦)، رقم الحديث (٤٢٠٣)، وأحمد في مسنده(٢٥/١٦١)، رقم الحديث

وقوله: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ أي ولكن يأمرهم النبي الذي أوتي الكتاب والحكم بأن يكونوا منسوبين إلى الرب مباشرة من غير توسطه هو ولا التوسل بشخصه، وإنما يهديهم إلى الوسيلة الحقيقية الموصلة إلى ذلك وهي تعليم الكتاب ودراسته، فبعلم الكتاب وتعليمه والعمل به يكون الإنسان ربَّانيا مرضيا عند الله، إذ العلم الذي لا يبعث على العمل لا يعد علما صحيحا، ومن ثم استغنى بذكره عن ذكر التصريح بالعمل.

وقوله: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًا﴾ أي ما كان لبشر أن يستنبئه الله ثم يأمر الناس بعبادة نفسه، ويأمر باتخاذ الملائكة والنبيين أربابا، ومثال ذلك أن تقول: ما كان لمحمد أن أكرمه، ثم يهينني ويستخفَّ بي، وقد نقل عن مشركي العرب عبادة الملائكة قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾[(١)]، فجاء الإسلام فبين أن هذا مخالف لما جاء به الأنبياء من الأمر بعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، والنهي عن عبادة غيره، ومن ثم قال: ﴿أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾؟ أي أيأمركم بعبادة الملائكة والسجود للأنبياء بعد توحيدهم لله والإخلاص له، إذ لو فعل ذلك لكفر، ونزعت منه النبوة والإيمان، ومن آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة يكون أعلم الناس بالله، فإن الله لا يؤتي وحيه إلا نفوسا طاهرة، وأرواحا طيبة، فلا تجتمع نبوة ودعاء إلى عبادة غير الله"[(٢)].

وذكر رحمه الله سبب المنع من زخرفة المساجد لأن ذلك يشغل المصلي ويكون وسيلة إلى إقامة الأضرحة في بيوت الله فقال: "قد جاء الإسلام بمنع الزخارف والزينة في المساجد وبيوت العبادة، حتى لا يشغل المصلي شيء منها عن مناجاة ربه، ولكن وأسفا قلَّد المسلمون أرباب الملل الأخرى في الزَّخارف والنقش في المساجد والمنابر، وأقيمت الأضرحة، ولبس رجال الدين مثل لباسهم، بل سبقوهم في كثير من ذلك، فأصبحت المساجد كأنها هياكل ومعابد للوثنيين، ونسوا أو تناسوا الحكمة التي لأجلها امتنع المسلمون في الصدر الأول عن تجميلها، وفرشها

(١٥٨٣٨)، وابن حبان في صحيحه، ذكر نفي وجود الثواب على الأعمال في العقبى لمن أشرك بالله في عمله (١٣٠/٢)، رقم الحديث (٤٠٤)، والطبراني في الكبير(٣٠٧/٢٢)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب(٨/١) رقم الحديث(٣٣).

(١) سوة التوبة الآية: (٣٠).

(٢) تفسير المراغي (٥٣٤/١-٥٣٦).

بالطنافس وعمل الحليِّ فيها، وصدق فيهم ما جاء في الأثر: «**لتتَّبعنَّ سنن من قبلكم باعا فباعا حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلتموه**»(١)"(٢).

وأوضح رحمه الله ما يقع من المشركين في ما يتعلق بالأولياء والصالحين من المخالفات في توحيد الألوهية؛ فقال عند قول الحق سبحانه: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(٣).

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ أي قل لهم: لا أطلب من غيره نفعا ولا ضرا، لا فعلا ولا منعا، فيما هو فوق كسبه وتصرفه الذي منحه الله لأبناء جنسه، أما تناصر المخلوقين وتولِّي بعضهم بعضا فيما هو من كسبهم العادي، فلا يدخل في عموم الإنكار الذي يفهم من الآية، فقد أثنى الله على المؤمنين بأن بعضهم أولياء بعض، وقد كان المشركون من الوثنيين ومن طرأ عليهم الشرك من أهل الكتاب يتخذون معبوداتهم وأنبياءهم وصلحاءهم أولياء من دون الله، يتوجهون إليهم بالدعاء ويستغيثون بهم ويستشفعون بهم عند الله في قضاء حاجاتهم من نصر على عدو، وشفاء من مرض، وسعة في رزق إلى نحو أولئك، وهذا بلا شك عبادة وشرك بالله لاعتقادهم أن حصول المطلوب من غير أسبابه العادية قد كان بمجموع إرادة هؤلاء الأولياء وإرادة الله، ويلزم هذا أن إرادة الله ما تعلقت بفعل ذلك المطلوب إلا تبعا لإرادة الولي الشافع أو المتَّخذ وليا وشفيعا.

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي إنه تعالى أوجدهما على غير مثال سابق، وقد روي عن ابن عباس أنه قال: (ما عرفت ما فاطر السموات والأرض؟ حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها أي ابتدعتها)(١).

---

(١) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري؛ أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (١٦٩/٤)، رقم الحديث(٣٤٥٦)، ومسلم، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى (٢٠٥٤/٤)، رقم الحديث(٢٦٦٩)، ولفظه: «لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه»، قلنا يا رسول الله: اليهود، والنصارى قال: «فمن»، وأما لفظ باعا فباعا فأخرجه أحمد في مسنده(٥٠٨/١٥) رقم الحديث (٩٨١٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الفتنة، باب من كره الخروج في الفتنة وتعوذ منها(٤٧٩/٧)، رقم الحديث(٣٧٣٧٦)، قال شعيب الأرنؤوط: "إسناده حسن من أجل محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي فقد روى له البخاري مقرونا، ومسلم في المتابعات".

(٢) تفسير المراغي (٣٧١/١).

(٣) سورة الأنعام الآية: (١٤).

و قد كانت المادة التي خلقت منها السموات والأرض كتلة واحدة دخانية، ففتق رتقها وفصل منها أجرام السموات والأرض، وهذا ولا شك ضرب من الفطر والشق، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾[2]، وفي ذلك تعريض بأن من فطر السموات والأرض بمحض إرادته، بدون تأثير مؤثر ولا شفاعة شافع ينبغي ألا يتوجَّه إلى غيره بالدعاء، ولا يستعان بسواه في كل ما وراء الأسباب.

وقد أكد هذا المعنى وزاده تثبيتا بقوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي إنه يرزق الناس الطعام وليس هو بحاجة إلى من يرزقه ويطعمه، لأنه منزه عن الحاجة إلى كل ما سواه، أيا كان نوعها، وفي هذا إيماء إلى أن من اتخذوا أولياء من دونه من البشر محتاجون إلى الطعام ولا حياة لهم بدونه، وأن الله هو الذي خلق لهم الطعام فهم عاجزون عن خلقه، وعاجزون عن البقاء بدونه فأحرى بهم ألا يتَّخذوا أولياء مع الغنيِّ الرَّزاق الفعال لما يريد، وإذا كان الإنكار توجه إلى البشر فأولى به أن يتوجه إلى الأصنام والأوثان لأنها أضعف من البشر؛ إذ قد اتفق العقلاء على تفضيل الحيوان على الجماد والإنسان على جميع أنواع الحيوان.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أي قل لهم بعد أن استبانت لديكم الأدلة على وجوب عبادة الله وحده، وعدم اتخاذ غيره وليًّا: إني أمرت من ربي الموصوف بجليل الصفات أن أكون أول من أسلم إليه وانقاد لديه من تلك الأمة التي بعثت فيها، فلا أدعو إلى شيء إلا كنت أول مؤمن به سائر على نهجه.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي وقيل لي بعد إسلام الوجه له: لا تكونن من المشركين الذين اتخذوا من دونه أولياء ليقربوهم إليه زلفى.

وخلاصة ذلك: إني أمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك.

و بعد أن أمره بهذا القول المبيِّن لأساس الدين، وبين أنه مأمور به كغيره أمره بقول آخر فيه بيان لجزاء من خالف الأمر والنهي السالفين فقال: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ

---

(١) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في غريب الحديث(٤/٣٧٣)، وابن جرير الطبري في تفسيره(١١/٢٨٣)، والدولابي في الكنى والأسماء(١/٢٥٢) رقم الحديث(٤٤٧)، والبيهقي في الشعب، باب طلب العلم والعلم إذا أطلق علم الدين(٣/٢١٢)، وابن عبد البر في التمهيد(١٨/٧٨)، وقال ابن كثير في مقدمة تفسيره(١/٤٣): إسناده جيد.

(٢) سورة الأنبياء الآية: (٣٠).

﴿عَظِيمٍ﴾[١] أي قل لهم إن فرض وقوع العصيان مني، فإنني أخاف أن يصيبني عذاب ذلك اليوم العظيم، وهو يوم القيامة الذي يتجلى فيه الرب على عباده، ويحاسبهم الحساب العسير على أعمالهم ويجازيهم بما يستحقون.

وفى الآية إشارة إلى أن هذا يوم لا محاباة فيه لأحد مهما كان عظيما، وأنه لا تنفع فيه شفاعة الشافعين، بل الأمر يومئذ لله، فلا سلطان لغيره يتكل عليه من يعصيه، ظنا منه أنه يخفف عنه العذاب أو ينجيه، وإذا كان خوف النبي ﷺ من العذاب على المعصية منتفيا لوجود العصمة، فخوف الإجلال والتعظيم ثابت له في جميع الأحوال.

﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾[٢] أي من يحوَّل عنه هذا العذاب في ذلك اليوم فقد رحمه الله، إذ أنجاه من الهول الأكبر، ومن نجا منه فقد دخل الجنة، والنجاة من العذاب والتمتع بالنعيم في دار البقاء هو الفوز المبين الظاهر الذي لا فوز أعظم منه، وقد سبق أن قلنا: إن الفوز إنما ينال بحصول مطلوبين: أحدهما سلبيٌّ وهو النجاة من العذاب، والثاني إيجابيٌّ وهو الظفر بالنعيم المقيم في الجنة، وبعد أن بين أن صرف العذاب والفوز بالنعيم من رحمته في الآخرة، بيَّن أن الأمر كذلك في الدنيا، وأن التصرف فيها له وحده.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٣] أي وإن يصبك أيها الإنسان ضر؛ كمرض وفقر وحزن وذل اقتضته سنة الله؛ فلا كاشف له ولا صارف يصرفه عنك إلا هو، دون الأولياء الذين يتَّخذون من دونه، ويتوجه إليهم المشرك بكشفه، وهو إما أن يكشفه عنك بتوفيقك للأسباب الكسبية التي تزيله، وإما أن يكشفه بغير عمل منك، بل بلطفه وكرمه، فله الحمد على نعمه المتظاهرة التي لا حدَّ لها، وإن يمسسك بخير كصحة وغنًى وقوة وجاه فهو قادر على حفظه عليك كما قدر على إعطائه إياك، وهو القدير على كل شيء، أما أولئك الأولياء الذين اتخذوا من دونه فلا يقدرون على مسِّك بخير ولا ضرٍّ، فعلى المؤمن الصادق في إيمانه ألا يطلب شيئا من أمور الدنيا والآخرة، من كشف ضُرٍّ وصرف

(١) سورة الأنعام الآية: (١٥).

(٢) سورة الأنعام الآية: (١٦).

(٣) سورة الأنعام الآية: (١٧).

عذاب، أو إيجاد خير ومنح ثواب إلا من الله تعالى وحده، دون غيره من الشفعاء والأولياء الذين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا.

وهذا الطلب إما طلب بالعمل ومراعاة الأسباب التي اقتضتها سنته في الخلق ودلَّ عليها الشرع وهدى إليها العقل، وإما بالتوجه إليه ودعائه كما ندب إلى ذلك كتابه الكريم وسنة نبيه ﷺ، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[١].

وبعد أن أثبت عزَّ اسمه لنفسه كمال القدرة، أثبت لها كمال السلطان والتسخير لجميع عباده والاستعلاء عليهم، مع كمال الحكمة والعلم المحيط بخفايا الأمور، ليرشدنا إلى أن من اتخذ الأولياء فقد ضلَّ ضلالا بعيدا؛ فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[٢] أي إن الرب من شأنه العزة والسلطان، والعلو والكبرياء، وهو الحكيم الخبير، فلا ينبغي للمؤمن أن يتخذ وليا من عباده المقهورين تحت سلطان عزته، المذلَّلين لسنته التي اقتضتها حكمته وعلمه بتدبير الأمر في خلقه، وهو جلَّت قدرته لم يجعل من خلقه شريكا له في التصرف، ولا في كونه يدعى معه ولا وحده لكشف ضُرٍّ ولا جلب نفع؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾[٣]، وقال: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾[٤]"[٥]

وأوضح رحمه الله ما يحصل من المشركين من عبادتهم للأولياء والصالحين، وأن هذا حاصل من محض التقليد واتباع الهوى فقال عند قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[٦]: "والدعاء: النداء لطلب إيصال الخير أو دفع الضر، ولا يكون عبادة إلا إذا كان فيما وراء الأسباب العادية التي سخرها الله للعباد وينالونها بكسبهم واجتهادهم وتعاونهم عليها. . .

(١) سورة غافر الآية: (٦٠).

(٢) سورة الأنعام الآية: (١٨).

(٣) سورة الجن الآية: (١٨).

(٤) سورة الإسراء الآية: (٥٦).

(٥) تفسير المراغي (٣/٧٢- ٧٥).

(٦) سورة الأنعام الآية: (٥٦).

ثم ذكر أن الله "نهى عن سلوك سبيلهم وهو عبادة غير الله، وأن هذه العبادة إنما هي بمحض الهوى والتقليد، لا سبيل الحجة والبرهان، فهي جمادات وأحجار ينحتونها بأيديهم ويركبونها ثم يعبدونها.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء الداعين لك إلى الإشراك: إني نهيت أن أعبد الذين تدعونهم وتستغيثون بهم من دون الله، أي غير الله من الملائكة والصالحين من عباده، دع ما دونهم من الأصنام والأوثان التي لا علم لها ولا عمل، وهذا النهي شامل لنهي الله عنه في كتابه الكريم في كثير من الآيات، ولأمره بضده وهو دعاؤه وحده، ولنهي العقل والفطرة السليمة قبل إرسال الأنبياء.

ثم أمره أن يبين لهم أن هذه العبادة مبنية على الرأي والهوى، وهي ضلال وغيٌّ ﴿قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ أي قل لهم: لا أتبعكم على ما تدعونني إليه؛ لا في هذه العبادة ولا في غيرها من الأعمال، لأنها مؤسسة على الهوى، وليست على شيء من الحق والهدى، فإن فعلتُ ذلك فقد تركتُ محجة الحق وسِرْت على غير هدى، فصرت ضالا مثلهم وخرجت من عداد المهتدين، وفي هذا تعريض بأنهم ليسوا من الهداية في شيء.

ثم أمره أن يقول لهم: إني على هدى من ربي فيما أتبعه ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾[(١)] أي قل لهم أيها الرسول إني فيما أخالفكم فيه على بينة من ربي، أي على بيان قد تبينته، وبرهان قد وضح لي من ربي بالوحي والعقل، إذ القرآن بينة مشتملة على ضروب كثيرة من البينات العقلية والكونية التي يعجز الرسول عن الإتيان بمثلها.

﴿وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ أي والحال أنكم كذَّبتم به أي بالقرآن الذي هو بينتي من ربي، ومن عجيب أمركم أنكم تكذبون ببينة البينات، ثم تطمعون أن أتبعكم على ضلال من أمركم لا بينة لكم عليه إلا محض التقليد، والتقليد براءة من الاستدلال، ورضا بجهل الآباء والأجداد.

وفي هذا حجة دامغة، وبينة ناصعة على ما قبله، من نفي عبادته ﷺ للذين يدعونهم من دون الله"[(٢)].

---

(١) سورة الأنعام الآية: (٥٧).

(٢) تفسير المراغي (٣/١١٦-١١٧).

وبين رحمه الله ما يكون عليه المشركون عند وقوع الشدة والكرب، وأنهم يخلصون في دعاء الله، فإذا زالت الشدة رجعوا إلى شركهم؛ فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾(١) قال: "التضرع: المبالغة في الضراعة، وهي الذل والخضوع، والمراد به هنا ما كان صادرا عن الإخلاص الذي يثيره الإيمان الفطري الطويُّ في أنفس البشر، والخفية (بالضم والكسر) الخفاء والاستتار، والدعاء قد يكون بالجهر ورفع الصوت مع البكاء، وقد يكون بالإسرار هربا من الرياء، فتارة يجأر المرء بالدعاء رافعا صوته متضرِّعًا مبتهلًا، وأخرى يسر الدعاء ويخفيه مخلصا محتسبا، ويتحرَّى ألا تسمعه أذن ولا يعلم به أحد، ويرى أنه يكون بذلك أجدر بالقبول، وأرجى لنيل المسئول، والكرب: الغم الشديد. . .

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي: قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين الغافلين عن أنفسهم، وعما أودع في الآفاق من آيات التوحيد؛ من ينجيكم من ظلمات البر إذا ضللتم فيه فتحيرتم وأظلمت عليكم المحجة، ومن ظلمات البحر إذا ركبتموه فأظلم عليكم فيه السبيل فلم تهتدوا، غيرُ الله الذي إليه مفزعكم بالدعاء تضرعا منكم إليه، معلنين الدعاء تارة ومخفين له أخرى.

﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي مقسمين: لئن أنجيتنا من هذه الظلمات التي نحن فيها لنكونن من المتصفين بالشكر، المخلصين لك بالعبادة دون من نشركه معك في عبادتك.

وفي معنى الآية قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾(٢).

ثم بين أنهم يحنثون في أيمانهم بعد النجاة، ويشركون بربهم سواه، فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ أي: إن الله هو الذي ينجيكم المرة بعد المرة من تلك الظلمات، ومن كل كرب يعرض لكم، ثم أنتم تشركون به غيره بعد النجاة أقبح الشرك،

---

(١) سورة الأنعام الآية: (٦٤).

(٢) سورة يونس الآية: (٢٢).

حال كونكم مخلفي وعْدكم له بالشكر حانثين بما وكَّدتموه من الأيمان، وأظهر أنواع الشرك أنكم تدعون أولياء من دون الله، وتنسبون إليهم الشفاعة عنده، حتى هذه النجاة التي نجَّاكموها.

والخلاصة: إنه إذا شهدت الفطرة السليمة بأنه لا ملجأ في هذه الحالة إلا إلى الله، ولا تعويل إلا على فضله، فالواجب أن يبقى هذا الإخلاص في جميع الأحوال والأوقات، لكن الإنسان بعد الفوز بالسلامة والنجاة يحيل ذلك إلى الأعمال الجسمانية، أو إلى نحو ذلك من الأسباب، ويعود إلى الشرك في العبادة ولا يوفي بالعهد.

وفى الآية تنبيه إلى أن من أشرك في عبادته تعالى غيره، فكأنه لم يعبده رأسا، فالتوحيد ملاك الأمر وأساس العبادة"(١).

وتطرق إلى أنواع الإلحاد وذكر منها ما يتعلق في الأولياء والصالحين فقال: "الإلحاد ضربان: إلحاد إلى الشرك بالله وهو ينافي الإيمان ويبطله، وإلحاد إلى الشرك بالأسباب كأن ينظر إليها مع الغفلة عن كونها من خلق الله وتسخيره، أو يعتقد أنها مؤثرة بذاتها لا بفعله تعالى، وهذا يوهن عرى الإيمان ولا يبطله ..."(٢).

(١) تفسير المراغي (١٢٥-١٢٦).

(٢) قول المراغي رحمه الله في شرك الأسباب: "وهذا يوهن عرى الإيمان ولا يبطله" فيه نظر، والصحيح أن يقسم ذلك إلى قسمين:

القسم الأول: من ينظر إلى الأسباب مع الغفلة عن كونها من خلق الله وتسخيره فهذا شرك أصغر يوهن عرا الإيمان ولا يبطله.

القسم الثاني: من ينظر إلى الأسباب ويعتقد أنها مؤثرة بذاتها لا بفعله تعالى، فهذا شرك أكبر يوهن عرى الإيمان ويبطله.

قال الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله في تقريب التدمرية لشيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله: "والناس في الأسباب طرفان ووسط: فالطرف الأول: نفاة أنكروا تأثير الأسباب وجعلوها مجرد علامات يحصل الشيء عندها لا بها، حتى قالوا: إن انكسار الزجاجة بالحجر إذا رميتها به حصل عند الإصابة لا بها، وهؤلاء خالفوا السمع، وكابروا الحس، وأنكروا حكمة الله تعالى في ربط المسببات بأسبابها.

والطرف الثاني: غلاة أثبتوا تأثير الأسباب، لكنهم غلوا في ذلك وجعلوها مؤثرة بذاتها، وهؤلاء وقعوا في الشرك، حيث أثبتوا موجداً مع الله تعالى وخالفوا السمع والحس، فقد دل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على أنه لا خالق إلا الله، كما أننا نعلم بالشاهد المحسوس أن الأسباب قد تتخلف عنها مسبباتها بإذن الله، كما في تخلف إحراق النار لإبراهيم الخليل حين ألقي فيها فقال الله تعالى: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] فكانت برداً وسلاماً عليه ولم يحترق بها.

=وأما الوسط: فهم الذين هدوا إلى الحق وتوسطوا بين الفريقين، وأخذوا بما مع كل واحد منهما من الحق، فأثبتوا للأسباب تأثيراً في مسبباتها لكن لا بذاتها بل بما أودعه الله تعالى فيها من القوى الموجبة" تقريب التدمرية ص(٨١).

ثم قال المراغي رحمه الله ومن أنواع الإلحاد: "إشراك غيره في كمال أسمائه كمن يزعم أو يعتقد أن لغيره رحمة كرحمته، ورأفة كرأفته، وغير ذلك من معاني أسمائه كالمجيب مثلا؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[١].

وبعض الذين يدعون غير الله تعالى من الموتى يعتقدون أنهم أسرع وأقرب في إجابتهم من الله تعالى، فيجمعون بذلك بين شركين: شرك دعاء غير الله مع اعتقاد إجابته للدعاء، وشرك الكفر به بتفضيل غيره عليه سبحانه في سرعة الإجابة، مع أن الله يقول: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾[٢] أي لا يجيب المضطر إلا هو فهو المستحق وحده للعبادة"[٣].

وقال رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾[٤] "أي فلما أعطاهما ما طلبا وجاء الولد بشرا سويا لا نقص فيه ولا فساد في تركيب جسمه، جعلا له شركاء فيما أعطاه، أي أظهرا ما كان راسخا في أنفسهما منه، وقد نسب هذا الجعل إلى آدم وحواء والمراد أولادهما، قال الحسن البصري: «هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولادا فهوّدوا ونصّروا»[٥].

وقال الحافظ ابن كثير: "أما نحن فعلى مذهب الحسن البصري في هذا وأنه ليس المراد من السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك ذريته، ولهذا قال: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٦] ثم قال: فذكره آدم وحواء أولا كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس"[٧].

---

(١) سورة البقرة الآية: (١٨٦).

(٢) سورة النمل الآية: (٦٢).

(٣) تفسير المراغي (٣/ ٤٤٥- ٤٤٦)

(٤) سورة الأعراف الآية: (١٩٠). .

(٥) أخرجه ابن جرير في تفسيره(٣١٥/١٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره(١٦٣٤/٥)، وقال ابن كثير في تفسيره(٤٧٦/٣): وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن.

(٦) سورة الأعراف الآية: (١٩٠).

(٧) تفسير ابن كثير(٤٧٧/٣).

وقال صاحب الانتصاف: إن المراد جنس الذكر والأنثى لا يقصد فيه إلى معين، وكأن المعنى -والله أعلم-: خلقكم جنسا واحدا، وجعل أزواجكم منكم أيضا لتسكنوا إليهن، فلما تغشى الجنسُ الذي هو الذكر، الجنسَ الذي هو الأنثى جرى من هذين الجنسين كيت وكيت، وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس وإن كان فيهم الموحّدون، لأن المشركين منهم كقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾[١]، وقوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾[٢]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾[٣].

وقال صاحب الكشاف: إن المراد بالزوجين الجنس لا فردان معينان، والغرض بيان حال البشر فيما طرأ عليهم من نزعات الشرك الخفي والجلي في هذا الشأن وأمثاله، والجنس يصدق ببعض أفراده، وبهذا تعلم أن ما روي عن بعض الصحابة والتابعين من أن الآية في آدم وحواء، وما رُوي في حديث سمرة بن جندب مرفوعا قال: «**لما ولدت حواء طاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد، فقال سميه عبد الحارث فانه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش، فكان ذلك من وحي الشيطان**» [٤]، ونحوه آثار كثيرة في هذا المعنى مفصلة ومطولة، فهو خرافة من دس الإسرائيليين نقلت عن مثل كعب الأحبار ووهب بن منبّه فلا يوثق بها، لأن فيها طعنا صريحا في آدم وحواء عليهما السلام ورميا لهما بالشرك، ومن ثم رفضها كثير من المفسرين، وقال الحافظ ابن كثير: "وهذه الآثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم**»[٥].

---

(١) سورة مريم الآية: (٦٦).

(٢) سورة عبس الآية: (١٧).

(٣) سورة العصر الآية: (٢).

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأعراف، (٥/٢٦٧)، رقم الحديث(٣٠٧٧) وقال: هذا حديث حسن غريب، وأحمد في مسنده(٣٣/٣٠٥) رقم الحديث(٢٠١١٧)، والبزار في مسنده(١٠/١٢٨) رقم الحديث(٤٥٨٠)، والحديث ضعفه ابن كثير في تفسيره(٣/٤٧٥)، وضعفه الألباني سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة(١/٥١٦) رقم الحديث(٣٤٢).

(٥) سبق تخريجه ص(٣٠).

وأخبار أهل الكتاب ثلاثة أقسام:

(١) فمنها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله.

(٢) ومنها ما علمنا كذبه بما دل الدليل على خلافه من الكتاب والسنة أيضا.

(٣) ومنها ما هو مسكوت عنه فهو المأذون في روايته بقوله ﷺ: «**حدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**»[(١)].

وهو لا يصدَّق ولا يكذَّب لقوله: «**فلا تصدِّقوهم ولا تكذبوهم**»"[(٢)].

وزيادة على ما ذكره المراغي رحمه الله في بطلان نسبة هذه القصة إلى آدم وحواء، يجدر بنا أن نذكر كلام ابن القيم رحمه الله فقد قال: "واللذان جعلا له شركاء فيما آتاهما المشركون من أولادهما ولا يلتفت إلى غير ذلك مما قيل إن آدم وحواء كانا لا يعيش لهما ولد فأتاهما إبليس فقال إن أحببتما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحارث ففعلا فإن الله سبحانه اجتباه وهداه فلم يكن ليشرك به بعد ذلك"[(٣)].

أما الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله، فقد ذكر سبعة أوجه مختصرة في بطلان هذه القصة فقال:

الوجه الأول: أنه ليس في ذلك خبر صحيح عن النبي ﷺ، وهذا من الأخبار التي لا تتلقى إلا بالوحي، وقد قال ابن حزم عن هذه القصة: "إنها رواية خرافية مكذوبة موضوعة"[(٤)].

الوجه الثاني: أنه لو كانت هذه القصة في آدم وحواء؛ لكان حالهما إما أن يتوبا من الشرك أو يموتا عليه. . . ، فمن جوز موت أحد من الأنبياء على الشرك فقد أعظم الفرية، وإن كان تابا من الشرك؛ فلا يليق بحكمة الله وعدله ورحمته أن يذكر خطأهما ولا يذكر توبتهما منه، فيمتنع غاية الامتناع أن يذكر الله الخطيئة من آدم وحواء وقد تابا، ولم يذكر توبتهما، والله تعالى إذا ذكر خطيئة بعض أنبيائه ورسله ذكر توبتهم منها، كما في قصة آدم نفسه حين أكل من الشجرة وزوجه، وتابا من ذلك.

---

(١) سبق تخريجه ص(٣٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/٤٧٧).

(٣) روضة المحبين ص(٢٨٩).

(٤) انظر: قول بن حزم في: الفصل في الملل والأهواء والنحل لأبي محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت: ٤٥٦هـ)، الناشر: مكتبة الخانجي-القاهرة، (٤/٤).

الوجه الثالث: أن الأنبياء معصومون من الشرك باتفاق العلماء.

الوجه الرابع: أنه ثبت في حديث الشفاعة أن الناس يأتون إلى آدم يطلبون منه الشفاعة، فيعتذر بأكله من الشجرة وهو معصية، ولو وقع منه الشرك؛ لكان اعتذاره به أقوى وأولى وأحرى.

الوجه الخامس: أن في هذه القصة أن الشيطان جاء إليهما وقال: "أنا صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة"(١)، وهذا لا يقوله من يريد الإغواء، وإنما يأتي بشيء يقرب قبول قوله، فإذا قال: "أنا صاحبكما الذي أخرجكما من الجنة"، فسيعلمان علم اليقين أنه عدو لهما، فلا يقبلان منه صرفا ولا عدلا.

الوجه السادس: أن في قوله في هذه القصة: "لأجعلن له قرني أيل": إما أن يصدقا أن ذلك ممكن في حقه؛ فهذا شرك في الربوبية؛ لأنه لا يقدر على ذلك إلا الله، أو لا يصدقا؛ فلا يمكن أن يقبلا قوله وهما يعلمان أن ذلك غير ممكن في حقه.

الوجه السابع: قوله تعالى: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بضمير الجمع، ولو كان آدم وحواء؛ لقال: عما يشركان.

فهذه الوجوه تدل على أن هذه القصة باطلة من أساسها، وأنه لا يجوز أن يعتقد في آدم وحواء أن يقع منهما شرك بأي حال من الأحوال، والأنبياء منزهون عن الشرك، مبرءون منه باتفاق أهل العلم، وعلى هذا؛ فيكون تفسير الآية كما أسلفنا أنها عائدة إلى بني آدم الذين أشركوا شركا حقيقيا، فإن منهم مشركا، ومنهم موحدا"(٢).

قال المراغي رحمه الله: "ثم بين سبحانه فساد رأيهم وسخافة عقولهم لهذا الشرك فقال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾(٣) أي أيشركون به سبحانه وهو الخالق لهم ولأولادهم ولكل مخلوق ما لا يخلق شيئا وإن كان حقيرا كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم في تفسيره(٥/١٦٣٤).

(٢) القول المفيد على كتاب التوحيد(٢/٣٠٨-٣١٠)

(٣) سورة الأعراف الآية: (١٩١).

﴿ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾[(١)] بل هم مخلوقون أيضا، ولا يليق بذي العقل السليم أن يجعل المخلوق العاجز شريكا للخالق القادر.

والآية وما بعدها حكاية لشرك عبَّاد الأصنام عامة، وينتظم فيهم مشركو مكة وأمثالهم ممن نزل القرآن في عهدهم، وتوبيخ لهم بتفصيل أحوال أولئك الشركاء التي تنافي ما اعتقدوه.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾[(٢)] أي ولا يستطيعون لعابديهم معونة إذا حزبهم أمر مهمٌّ وخطب ملمٌّ، كما لا يستطيعون لأنفسهم نصرا على من يعتدي عليهم بإهانة لهم أو أخذ شيء مما عندهم من طيب أو حلي كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾[(٣)].

والخلاصة: أنهم يحتاجون إليكم في تكريمهم، وفي النضال عنهم وأنتم لا تحتاجون إليهم.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾[(٤)] أي وإن تدعوهم إلى أن يهدوكم إلى ما تحصلون به رغباتكم، أو تنجون به من المكاره التي تحيق بكم، لا يتبعوكم فلا يستجيبوا لكم ولا ينفعوكم.

ثم أكد عدم نفعهم فقال: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾[(٥)] أي مستولديكم دعاؤكم إياهم وبقاؤكم على صمتكم، فإنه لا يتغير حالكم في كلتا الحالين، إذ هم لا يفهمون دعاءكم ولا يسمعون أصواتكم ولا يعقلون ما يقال لهم.

والخلاصة: أنه لا ينبغي أن يعبد من كانت هذه صفته، وإنما الرب المعبود هو النافع من يعبده، الضار من يعصيه، الناصر وليَّه، الخاذل عدوَّه، الهادي إلى الرشاد من أطاعه، السامع دعاء من دعاه، ولا شك أن هذه الحجة قائمة على مَنْ يقصدون قبور الأولياء والصلحاء ويعظمونها ويطلبون منها قضاء الحاجات، لأن هذه الأوصاف التي سيقت في معرض التوبيخ والإنكار تنطبق على حالهم أشد الانطباق، فهم لا ينفعون ولا يضرون و ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾، وقد روى البخاري عن ابن عباس في أصنام قوم نوح التي انتقلت إلى

---

(١) سورة الحج الآية: (٧٣).

(٢) سورة الأعراف الآية: (١٩٢).

(٣) سورة الحج الآية: (٧٣).

(٤) سورة الأعراف الآية: (١٩٣).

(٥) سورة الأعراف الآية: (١٩٣).

العرب، أنها لم تنصب إلا للتذكير بأناس من الأولياء والصالحين[(١)]، وقد كانت اللَّاتُ لرجل يلتُّ عليها السويق ويطعم الناس.

والخلاصة: إن الأصنام والتماثيل والقبور التي تعظَّم تعظيما دينيا، عمل لم يأذن به الله، وكلها سواء في كونها وضعت للتذكير بأناس عرفوا بالصلاح، وكانوا هم المقصودين بالدعاء تخيُّلًا من عابديها بأن لها تأثيرا في إرادة الله أو التصرف الغيبي في ملك الله، وذلك من أفحش الشرك وأقبحه، ولا فرق بين إشراك الصنم والوثن وإشراك الولي أو النبي أو الملك. . .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾[(٢)] الدعاء هو النداء لدفع الضر وجلب النفع الذي يوجه إلى من يعتقد الداعي أن له سلطانا يمكنه أن يجيبه إلى ما طلبه، إما بذاته وإما بحمله الربَّ الخالق على ذلك، أي إن الذين تدعونهم من دون الله هم عباد أمثالكم في كونهم مخلوقين لله خاضعين لإرادته وقدرته، وإذا كانوا أمثالكم كان من المستحيل عقلا أن تطلبوا منهم مالا يستطيعون نيله بأنفسكم ولا بمساعدة أمثالكم، وإنما يدعى الرب الخالق لما وراء الأسباب المشتركة بين الخلق، والذي تخضع لإرادته الأسباب وهو لا يخضع لها، ولا لإرادة أحد يحمله على ما لا يشاؤه منها.

﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[(٣)] أي إن كنتم صادقين في زعمكم أنهم قادرون على ما تعجزون عنه بقواكم البشرية من نفع أو ضر فادعوهم فليستجيبوا لكم إما بأنفسهم وإما بحملهم الرب تبارك وتعالى على إعطائكم ما تطلبون.

ثم ارتقى سبحانه في الرد عليهم وأثبت أنهم ليسوا أمثالهم، بل أحط منهم منزلة ودونهم رتبة، ووبَّخهم وأنَّبهم على عبادة هذه الأحجار والأصنام؛ فقال: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ

---

(١) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ}، (٦/١٦٠)، رقم الحديث(٤٩٢٠) ولفظه: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد أما ود كانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع كانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجوف، عند سبإ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم، أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت».

(٢) سورة الأعراف الآية: (١٩٤).

(٣) سورة الأعراف الآية: (١٩٤).

﴿أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾(١) أي: إن هؤلاء فقدوا وسائل الكسب التي يناط بها النفع والضر في هذه الحياة، فليس لهم أرجل يسعون بها إلى دفع ضر أو جلب نفع، وليس لهم أيد يبطشون بها فيما ترجون منهم من خير أو تخافون من شر، وليس لهم أعين يبصرون بها حالكم، ولا آذان يسمعون بها أقوالكم ويعرفون بها مطالبكم، فهم ليسوا مثلكم، بل دونكم في الصفات والقوى التي أودعها الله في الخلق، فكيف ترفعونهم عن مماثلتكم وهم دونكم بالاختبار والمشاهدة.

وإنكم تستكبرون عن قبول الهدى والرشاد من الرسول ويقول بعضكم لبعض: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ﴾(٢) فما بالكم تأبَوْن قبول الحق والخير من مثلكم وقد فضله الله عليكم بالعلم والهدى! ثم ترفعون ما دونه ودونكم إلى مقام الألوهية مع انحطاطه عن درجة المثلية!

ثم أمر رسوله أن يبين لهم حقارة شأنهم فقال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾(٣) أي: قل أيها الرسول لهؤلاء الذين تحتقرون نعم الله عليهم: نادوا شركاءكم الذين اتخذتموهم أولياء، ثم تعاونوا على كيدي جميعا وأوقعوا الضر بي سريعا، فلا تُنْظِرُونِ أي لا تؤخروني ساعة من نهار، والحكمة في مطالبتهم بهذا، أن العقائد الموروثة يتضاءل دونها كلُّ برهان ولا يجدي معها دليل، ومن ثم طالبهم بأمر عملي ينزع هذا الوهم من أعماق القلوب، وهو أن ينادوا هؤلاء الشركاء ويستنجدوا بهم لصدِّ دعوة الداعين إلى الكفر بها، وإثبات العجز لها، وإنكار مالها من سلطان غيبيٍّ وتدبيرٍ كامن، فإن كان لها حقا سلطان في أنفسها أو من عند الله فهذا إبَّانُ ظهوره، وإلا فمتى يظهر ليساعد أبطال عبادتها وينصر عابديها ومُعَظِّمِي شأنِها، ومن الجليِّ أن القوم كانوا ينكرون البعث، فكل ما يرجونه منها من خير أو يخافونه منها من شر فهو في هذه الحياة.

---

(١) سورة الأعراف الآية: (١٩٥).

(٢) سورة المؤمنون الآية: (٣٤).

(٣) سورة الأعراف الآية: (١٩٥).

ثمَّ زاد الأمر بيانا وبالغ في حقارة هذه المعبودات وعابديها على ما كان به من ضعف وقلة ناصر وهو بمكة حين نزول هذه السورة فقال: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾(١) أي إن متولي أمري وناصري هو الله الذي نزَّل عليَّ الكتاب، المؤيد لوحدانيته ووجوب عبادته ودعائه عند الشدائد والملمات، والناعي على المشركين عبادة غيره من وثن أو صنم، وهو يتولى نصر الصالحين من عباده، وهم من صلحت أنفسهم بصحيح العقائد، وسلمت من الأوهام والخرافات، والأعمال التي تصلح بها شؤون الأفراد والجماعات، فينصرهم على ذوي الخزعبلات والأوهام، وفاسدي العقائد والأحلام تصديقا لقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾(٢)

ثم أكد ما سلف بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾(٣) أي وإن من تدعونهم لنصركم وجلب النفع لكم ودفع الضر عنكم عاجزون، فلا هم بالمستطيعين نصرَكُم ولا نصرَ أنفسهم على من يحقِّر شأنهم أو يسلبهم شيئا مما وضع عليهم من طيب أو حليٍّ، فقد كسَّر إبراهيم صلوات الله عليه الأصنام فجعلهم جذاذا فما استطاعوا أن يدفعوه عن أنفسهم ولا أن ينتقموا منه لها.

وقد روي عن معاذ بن عمرو بن الجموح(٤) ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما -وكانا شابين من الأنصار قد أسلما لما قدم النبيُّ ﷺ المدينة- أنهما كانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسِرانها ويُتلِفانها ويتخذانها حطبًا للأرامل، ليعتبر قومهما بذلك ويرتئوا لأنفسهم رأيا آخر.

وكان لعمرو بن الجموح(٥) -وكان سيد قومه- صنمٌ يعبده، فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسِه ويلطخانه بالعَذِرة، فيجئ عمرو فيرى ما صُنِعَ به فيغسِلُه ويُطَيِّبُه ويضع

---

(١) سورة الأعراف الآية: (١٩٦).

(٢) سورة الرعد الآية: (١٧).

(٣) سورة الأعراف الآية: (١٩٧).

(٤) هو الصحابي الجليل معاذ بن عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة الأنصاريّ الخزرجي السلميّ، شهد معاذ العقبة في روايتهم جميعا، وشهد بدرا، وأحدا وتوفي وليس له عقب، وعاش إلى خلافة عمر، انظر: الطبقات لابن سعد(٣/٥٦٦)، والإصابة في تمييز الصحابة(٦/١١٣).

(٥) هو الصحابي الجليل عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة الأنصاري السلمي، من

عنده سيفا ويقول له انتصر، ثم يعودان لمثل ذلك ويعود إلى صنيعه أيضا، حتى أخذاه مرة فقرناه مع كلب ميت ودلياه في حبل في بئر هناك، فلما جاء ورأى ذلك علم أن ما كان عليه من الدين باطل وأنشد:

تالله لو كنت إلها مُسْتَدَنْ   لم تَكُ والكَلْب جميعا في قَرَنْ[(١)]

ثم أسلم وحسن إسلامه، وقتل يوم أحد شهيدًا رضي الله عنه.

وبعد أن نفى عنهم القدرة على النصرة قفى على ذلك بنفي قدرتهم على الإرشاد إلى الهدى والرشاد فقال: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟﴾[(٢)] أي وإن تدعوهم إلى أن يهدوكم إلى ما تحصّلون به مقاصدكم وتنتصرون به -من أسباب خفية أو ظاهرة- لا يسمعوا دعاءكم فضلا عن مدِّ يد المعونة والمساعدة، والآية كقوله ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾[(٣)].

﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[(٤)] أي وتراهم أيها المخاطب ينظرون إليك بما وضع لهم من أعين صناعية وحدق زجاجية أو جوهرية موجهة إلى من يدخل عليها، كأنها تنظر إليه وهم لا يبصرون بها، لأن حاسة الإبصار لا تحصل بالصناعة، وإنما هي من خواصِّ الحياة التي استأثر الله بها، وهم إذ فقدوا السمع لا يسمعون نداء ولا دعاء ممن يعبدونهم ولا من غيرهم، وإذ فقدوا البصر لا يبصرون حاله وحال خصمه، فكيف يرجى منهم نصر وشد أزر أو أي معونة أخرى، أو كيف يخشى منهم إيصال ضر وأذى لمن يحتقرهم؟ "[(٥)].

وذكر رحمه الله ما وقع من اليهود والنصارى من الغلو في علمائهم وعبادهم حتى عبدوهم من دون الله؛ فقال عقب قوله ﷻ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ

بني جشم بن الخزرج، شهد العقبة، ثم شهد بدرا، وقتل يوم أحد شهيدا، ودفن هو وعبد الله بن عمرو بن حرام في قبر واحد، وكانا صهرين. انظر: الاستيعاب لابن عبد البر(٣/١١٦٨)، والإصابة في تمييز الصحابة(٤/٥٠٦).

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير(٣/١٦٦).

(٢) سورة الأعراف الآية: (١٩٨).

(٣) سورة فاطر الآية: (١٤).

(٤) سورة الأعراف الآية: (١٩٨).

(٥) تفسير المراغي (٣/٤٦٢-٤٧٠).

﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾[1]: "أي اتخذ كل من اليهود والنصارى رؤساء الدين فيهم أربابا، فاليهود اتخذوا أحبارهم وهم علماء الدين أربابا بما أعطوهم من حق التشريع فيهم وإطاعتهم فيه، والنصارى اتخذوا قساوستهم ورهبانهم: أي عبَّادهم الذين يخضع لهم العوام أربابا كذلك.

والرهبان عند النصارى أدنى طبقات رجال الدين، فاتخاذهم أربابا يقتضي بالأولى أن يتخذوا من فوقهم من الأساقفة[2] والمطارنة[3] والبطاركة[4]؛ إذ الرهبان يخضعون لتشريع هؤلاء الرؤساء مدونا كان أو غير مدون، والعوام يخضعون لتشريع الرهبان ولو غير مدون، سواء قالوه تبعا لمن فوقهم أو من تلقاء أنفسهم لثقتهم بدينهم.

وانفرد النصارى باتخاذهم المسيح ربا وإلها يعبدونه، ومنهم من يعبد أمه عبادة حقيقية ويصرحون بذلك، وجميع الكاثوليك والأرثوذكس يعبدون تلاميذه ورسله وغيرهم من القديسين في غُرْفهم، ويتوسلون بهم، ويتخذون لهم الصور والتماثيل في كنائسهم، ولكنهم لا يسمون هذا عبادة.

واليهود لم يقتصروا في دينهم على أحكام التوراة، بل أضافوا إليها من الشرائع ما سمعوه من رؤسائهم من قبل أن يدوِّنوه في المشنة[5] والتّلمود[6]، ثم دونوه فكان هو الشرع العام وعليه العمل عندهم، والنصارى غيَّر رؤساؤهم جميع أحكام التوراة الدينية والدنيوية، واستبدلوا بها شرائع أخرى في العبادات والمعاملات جميعا، وزادوا حق مغفرة الذنوب لمن شاءوا، وحرمان من

---

(١) سورة التوبة الآية: (٣١).

(٢) الأساقفة جمع أسقف وهو عالم رئيس من علماء النصارى ورؤسائهم، وهو اسم سرياني، ويحتمل أن يكون سمي به لخضوعه وانحنائه في عبادته، وقيل هو فوق القسيس ودون المطران، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير(٣٧٩/٢)، والقاموس المحيط للفيروزآبادي(١٠٩٣/٢).

(٣) المطارنة جمع مطران وهو: رَئِيس ديني عِنْد النَّصَارَى وَهُوَ دون البطريك وَفَوق الأسقف. انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي(١١٥٨/٢)، والمعجم الوسيط(٤٣٦/٢).

(٤) مفرده بطريك وهو: لقب يُطلق في المسيحيّة على رئيس رؤساء الأساقِفة على أقطار معيّنة أوفي طائفة من الطوائف، ودونه المطران. معجم اللغة العربية المعاصرة(٢١٧/١).

(٥) المشنة ويقال لها المشنا: وهو كتاب جمع روايات شفوية لعلماء اليهود وشرح هذا الكتاب باسم الجمارا، انظر: الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب(٥٠٥/١).

(٦) التلمود: وهو روايات شفوية لعلماء اليهود جمعت في كتاب اسمه المشنا أي الشريعة المكررة، وقد شرحت المشنا في كتاب اسمه جمارا، انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب(٥٠٥/١).

شاءوا من رحمة الله وملكوته، والله يقول: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[1] وزادوا القول بعصمة البابا في تفسير الكتب الإلهية، ووجوب طاعته في كل ما يأمر به من الطاعات، وينهى عنه من المحرمات.

روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير عن عديٍّ بن حاتم رضي الله عنه أنه لما بلغته دعوة الرسول ﷺ فرَّ إلى الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثم منَّ رسول الله عليها وأعطاها، فرجعت إلى أخيها ورغبته في الإسلام وفى القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عديٌّ المدينة وكان رئيسا في قومه طيء -وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم- فتحدث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله ﷺ وهو يقرأ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[2] قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم فقال: «**بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلُّوا الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم**»، وقال رسول الله ﷺ: «**يا عديُّ ما تقول؟ أيضرك أن يقال الله أكبر؟ فهل تعلم شيئا أكبر من الله ما يضرك؟ أيضرك أن يقال لا إله إلا الله، فهل تعلم إلها غير الله؟** » ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم، وشهد شهادة الحق قال: فلقد رأيت وجهه استبشر، ثم قال: «**إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون**»[3].

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾[4] أي اتخذوا رؤساءهم أربابا من دون الله، والربوبية تستلزم الألوهية، إذ الرب هو الذي يجب أن يعبد وحده، والحال أنهم ما أمروا على لسان موسى وعيسى ومن اتبعهما فيما جاءا به من عند الله، إلا أن يعبدوا ويطيعوا في الدين إلها واحدا بما شرعه لهم، وهو ربهم ورب كل شيء ومليكه.

ثم علل الأمر بعبادة إله واحد فقال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[5] أي لا إله غيره في حكم الشرع وفى نظر العقل، وإنما اتخذ المشركون آلهة من دونه بالرأي والهوى جهلا بصفات الألوهية، إذ ظنوا أن لبعض المخلوقات سلطانا غيبيا، وقدرة على الضر والنفع من غير طريق الأسباب المسخرة للخلق، مثل ما لله إما بالذات وإما بالوساطة والشفاعة لديه.

---

(١) سورة آل عمران الآية: (١٣٥).

(٢) سورة التوبة الآية: (٣١).

(٣) سبق تخريجه ص(١٧).

(٤) سورة التوبة الآية: (٣١).

(٥) سورة التوبة الآية: (٣١).

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[(١)] أي تنزيها له عن شركهم في ألوهيته بدعاء غيره معه أو من دونه، وفى ربوبيته بطاعة الرؤساء في التشريع الديني بدون إذنه.

وأمره تعالى بعبادته وحده على لسان موسى عليه السلام جاء في مواضع من التوراة، منها أول الوصايا العشر التي جاءت في سفر الخروج: (أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية، لا يكن لك آلهة أخرى أمامي، لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورا مما في السماء من فوق ولا مما في الأرض من تحت، ولا مما في الماء تحت الأرض، لا تسجد لهن، ولا تعبدهن، لأني أنا الرب إلهك له غيور) إلخ.

وأمره بعبادته على لسان عيسى كثير أيضا، من ذلك ما رواه يوحنا في إنجيله: (وهذه الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته).

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾[(٢)] أي يريد اليهود والنصارى أن يطفئوا نور الله وهو دين الإسلام الذي أرسل به جميع رسله، وأفاضه على البشر بما أوحاه على موسى وعيسى وغيرهما من رسله، وأتمه وأكمله ببعثه خاتم النبيين محمد ﷺ، بالطعن في الإسلام والصد عنه بالباطل بمثل تلك الأقوال في عزير والمسيح، وبما ابتدعه لهم الرؤساء من التشريع حتى صار التوحيد الذي أمروا به هو محض الشرك عندهم، وصار المربوب ربا على تفاوت بين فرقهم في ذلك.

وهكذا عادى أهل الكتاب الإسلام منذ البعثة المحمدية، وقصدوا إبطاله والقضاء عليه بالحرب والقتال ناحية، وبالطعن وإفساد العقائد من ناحية أخرى، وكل من الأمرين أرادوه لإطفاء نوره، ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾[(٣)] ببعثة محمد خاتم النبيين الذي أرسله إلى الخلق أجمعين، وجعل آيته الكبرى وهي القرآن علمية عقلية، وكفل حفظها إلى آخر الزمان، وبيَّن لهم فيه ما يحتاجون إليه من عقائد يؤيدها البرهان، وتبطل بها عبادة الإنسان للإنسان، فضلا عن الأصنام الأوثان، وعبادات تتزكى بها النفس وتطهر من كل رجس، وتجعل كفاية الأغنياء للفقراء

(١) سورة التوبة الآية: (٣١).

(٢) سورة التوبة الآية: (٣٢).

(٣) سورة التوبة الآية: (٣٢).

حقوقا إلهية ويبطل ثوابها المنّ والأذى، وآداب تطبع في الأنفس الفضائل، وتشريع يجمع بين الرحمة والعدل والمساواة بين جميع الناس في الحق.

وخلاصة ما سلف: إنهم يريدون أن يطفئوا نور الله الذي شرعه لهداية عباده وركنه الركين، وأساسه المتين توحيد الربوبية والألوهية، فتحوَّلوا عنه إلى الشرك والوثنية، والله لا يريد إلا أن يتم هذا النور الذي هو كنور القمر فيجعله بدرا كاملا يعم نوره الأرض كلها. . .

ثم ذكر رحمه الله ما يقع من الأحبار والرهبان وأكلهم لأموال الناس بالباطل؛ مثل النذور لأصحاب القبور، وطلب مغفرة الذنوب، فقال بعد قوله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1]، فذكر أوجها من أكل أموال الناس بالباطل:

الوجه الأول: أخذ سدنة قبور الأنبياء والصالحين والمعابد التي بنيت بأسمائهم هدايا ونذورا، والوقف على الدير أو الكنيسة قربة عندهم كالوقف على المسجد عندنا، فأخذ المال وإعطاؤه لبناء المعابد مشروع في كل دين، لكن البدعة الوثنية أن يوضع في المعبد قبر أو صورة أو تمثال فيه صاحبه مع الله تارة ومن دونه أخرى، وينذر له وحده حينا ومع الله آخر، فهذه بدع تتبرأ منها أديان الأنبياء جميعا، والنفقة فيها من الباطل، وآكلوها من رؤساء الدين وسدنة المعابد من الذين يأكلون أموال الناس بالباطل.

الوجه الثاني: بذلها لمن يعتقدون فيهم الصلاح والزهد في الدنيا ليدعوا لهم ويشفعوا عند الله في قضاء حاجاتهم وشفاء مرضاهم، اعتقادا منهم أن الله يستجيب دعاءهم ولا يردُّ شفاعتهم، أو لظنهم أن الله قد أعطاهم تصرفا في الكون يقضون به الحاجات من دفع الضر عمن شاءوا وجلب الخير لمن أحبوا، وتأولها لهم الرؤساء الدينيون الضالون وقالوا: إنها لا تنافي التوحيد الذي جاء به الرسل.

الوجه الثالث: أخذها جعلا على مغفرة الذنوب، ويتوسلون إلى ذلك بما يسمونه سر الاعتراف، فيأتي الرجل أو المرأة لدى القسيس أو الراهب الذي يأذن له الرئيس الأكبر بسماع أسرار الاعتراف ومغفرة الذنوب، فيخلو به أو بها فيقص عليه الخاطئ ما عمل من الفواحش والمنكرات بأنواعها لأجل أن يغفرها له، وهم يعتقدون أن ما يغفره هؤلاء يغفره الله. . . ، وهذا

---

(١) سورة التوبة الآية: (٣٤).

الجعل يتفاوت بتفاوت ثروة المشترين من الملوك والأمراء وكبار الأغنياء فمن دونهم، ويعطون بالمغفرة صكوكا يحملونها ليلقوا بها الله تعالى.

و تلك الطقوس خاصة بالأرثوذكس والكاثوليك، وكانت هذه من الأسباب التي أدت إلى الانقلاب الكبير الذي يسمونه الإصلاح (البروتستانت) إذ ترتب على هذه العقيدة فساد كبير في استباحة الفواحش والمعاصي، وقد كان الاعتراف أولاً بلا ثمن، ولكن رجال الدين جعلوه وسيلة لسلب الأموال والغنى بغير وجه صحيح.

الوجه الرابع: أخذهم للأموال على فتاوى لتحليل الحرام وتحريم الحلال، إرضاء لشهوات الملوك وكبار الأغنياء، أو الانتقام من أعدائهم، أو بظلم رعاياهم، فهم يعملون ضروبا من الحيل والتأويلات يصورون بها الوقائع بغير صورها، ومن ثم خاطب الله أحبار اليهود خطاب احتجاج وتوبيخ بقوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾[1][2].

ولما تكلم رحمه الله عن الجنة ذكر أنها تطلب بالعمل الصالح لا بدعاء الأولياء والصالحين، فقال: "فعلى كل مؤمن أن يستعدَّ لها بتزكية نفسه وترقية روحه، ويعلم أنه لن يكون أهلا لها إلا بالعمل ومجاهدة النفس والهوى، لا بالتوسلات للأولياء والتمني لشفاعتهم كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[3]"[4].

وأوضح رحمه الله أن ما يفعله المشركون من الشرك عند قبور الأولياء والصالحين والأصنام وتسميته توسلا واستشفاعا هو عين ما كان عليه مشركو الجاهلية الأولى، فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[5]: "أي ويعبدون

---

(١) سورة الأنعام الآية: (٩١).

(٢) تفسير المراغي(٤/٨٣-٨٩).

(٣) سورة النساء الآية: (١٢٤).

(٤) تفسير المراغي(٤/٢٠٩).

(٥) سورة يونس الآية: (١٨).

ما لا يملك لهم ضرا ولا نفعا من الأصنام وغيرها حال كونهم متجاوزين ما يجب من عبادته تعالى وحده، فهم يعبدونه ويعبدون معه غيره، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾(١)، و في الآية إيماء إلى أن سبب عبادتها وضلالهم فيما يدَّعون هو اعتقادهم فيها القدرة على الضر والنفع، فرد عليهم خطأهم بأنه وحده هو القادر على نفع من يعبده وضرِّ من يشرك بعبادته غيره في الدنيا والآخرة.

وقد دل تاريخ البشر في كل طور من أطواره على أن كل ما عبده من دون الله من صنم أو وثن فإنما عبده لاعتقاده فيه القدرة على النفع والضر بسلطان له فوق الأسباب المعروفة، كعبادته للأوثان المتخذة من الحجارة أو الخشب، والأصنام المصنوعة من المعادن والحجارة، أو غير المصنوعة كاللَّات، وهي صخرة كانت بالطائف يلتُّ عليها السويق عُظِّمت حتى عبدت، أو الأشجار كالعزَّى معبودة قريش(٢).

﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾أي ويقولون في سبب عبادتهم لهم مع اعتقادهم أنهم لا يملكون الضر والنفع بأنفسهم، إيمانهم بأن الرب الخالق هو الله تعالى، وهؤلاء شفعاء عنده، ونحن إنما نعبدهم ونعظم هياكلهم ونطيِّبها بالعطر ونقدم لهم النذور، ونهلُّ لهم عند ذبح القرابين بذكر أسمائهم وبدعائهم والاستغاثة بهم، لأنهم يشفعون لنا عند الله ويقربوننا إليه زلفى، ويدفعون بجاههم عنا البلاء، ويعطوننا ما نطلب من النَّعماء، وقد روى عكرمة(٣) أن النضر بن الحارث قال: "إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزَّى"(٤).

فأساس عقيدة الشرك أن جميع ما يطلب من الله لا بد أن يكون بوساطة المقربين عنده، إذ هم لا يمكنهم التقرب من الله والحظوة عنده بأنفسهم، لأنها مدنَّسة بالمعاصي، أما الموحدون فيعتقدون أنه يجب على العاصي أن يتوجه إلى الله وحده تائبا إليه طالبا مغفرته ورحمته.

---

(١) سورة يوسف الآية: (١٠٦).

(٢) انظر: تفسير ابن جرير(٢٢/ ٥٢٣-٥٢٥).

(٣) هو أبو عبد الله عكرمة مولى ابن عباس الهاشمي المدني، أصله بربري من أهل المغرب، وهو من كبار التابعين، عالم بالتفسير لم يثبت تكذيبه عن ابن عمر ولا تثبت عنه بدعة، مات سنة أربع ومائة وقيل بعد ذلك، انظر: تهذيب الأسماء واللغات للنووي(١/ ٣٤٠)، وسير أعلام النبلاء للذهبي(٥/ ١٢).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره(٦/ ١٩٣٦).

﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي قل لهم أيها الرسول مبينا لهم كذبهم ومنكرا عليهم افتراءهم على ربهم: أتخبرون الله بشيء لا يعلمه من أمر هؤلاء الشفعاء في السموات من ملائكته، وفي الأرض من خواص خلقه، ولو كان له شفعاء يشفعون لكم عنده لكان أعلم بهم منكم، إذ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فإذًا هؤلاء لا وجود لهم عنده، وأنكم قد اتخذتم ذلك قياسا على ما ترونه من الوساطة عند الملوك الجاهلين بأمور رعيتهم والعاجزين عن تنفيذ مشيئتهم فيهم، بدون وساطة الوزراء وذوي المكانة فيهم.

وبهذا ثبت بطلان الشرك في الألوهية وهو عبادة غير الله مهما يكن المعبود، وبطلان الشرك في الربوبية بادعاء وساطة المعبود في الخلق والتدبير، أو الشفاعة عند الله إذ ليس لمعبود بذاته ولا بتأثير خاص له عند خالقه يحمله على نفع من شاء ولا ضر من شاء، أو كشف ضر عنه كما يعتقده عباد الأولياء من البشر إلى اليوم، فكل ذلك للرب وحده ولا يعلم إلا بوحيه، فادعاء ذلك لغيره كذب لا مستند له.

وفي هذا حجة أيّما حجة على زوار الأضرحة والقبور الذين يقولون: إن هؤلاء الأولياء أحياء عند ربهم كالشهداء، فهم يضرون وينفعون لا كالأصنام، وقد جهلوا أن الله يقول للنصارى إن المسيح لا يملك لهم ضرا ولا نفعا بعبادتهم له مع ما آتاه من المعجزات، وأظن أن الأمر لا يبلغ بهم أن يجعلوا السيد البدوي وسيدنا الحسين والسيدة زينب أفضل عند الله ولا أقرب منه.

وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يخبر الناس بأنه لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾(١).

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾: أي تنزه ربنا وعلا علوًّا كبيرا عما يشركون به من الشفعاء والوسطاء، وما يفترونه عليه من أنَّ لأحد من خلقه وساطة عنده وشفاعة لديه تقرب إليه زلفى، ففي هذا تحقير لمقام الربوبية والألوهية، وتشبيه الرب بعبيده من الملوك الجاهلين، وفي هذا إيماء إلى أن شؤون الرب وسائر ما في عالم الغيب لا يعلم إلا بخبر الوحي، ومن ذلك اتخاذ الشفعاء والوسطاء عنده، فيكون كفرا صراحا". . . .

---

(١) سورة يونس الآية: (٤٩).

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾(١) أي أنه تعالى هو الذي وهبكم القدرة على السير في البر، وسخر لكم الإبل والدواب، وفي البحر بما سخر لكم من السفن التي تجري في البحر والقطر التجارية والسيارات، وفي الهواء بالطائرات التي تسير في الجوّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي حتى إذا كنتم في الفلك التي سخرناها لكم وجرت بمن فيها بسبب ريح مواتية لهم في جهة سيرهم، وفرحوا بما هم فيه من راحة وانتعاش وتمتع بمنظره الجميل وهوائه العليل، جاءت ريح شديدة قوية فاضطرب البحر وتموَّج سطحه كله فتلقاهم من جميع الجوانب والنواحي بتأثير الريح، واعتقدوا أنهم هالكون لا محالة بإحاطة الموج بهم، فبينما يهبط الريح العاصف بهم في لجج البحر حتى كأنهم سقطوا في هاوية، إذا به يثب بهم إلى أعلى كأنهم في قمَّة الجبل الشاهق، فإذا ما نزلت بهم نذر العذاب، وتقطعت بهم الأسباب، دعوا الله مخلصين له الدين ليكشف عنهم ما حل بهم، ولا يتوجهون معه إلى وليٍّ ولا شفيع ممن كانوا يتوسلون بهم إليه حال الرخاء، وقد صمموا العزيمة على طاعته وقالوا ربنا لئن أنجيتنا من هذه التهلكة لنكونن من جماعة الشاكرين، ولا نتوجه في تفريج كروبنا وقضاء حاجتنا إلى وثن ولا صنم، ولا إلى وليٍّ ولا نبي، وفي الآية إيماء إلى أن الناس جبلوا على الرجوع إلى الله حين الشدائد، ولكن من لا يحصى عددهم من المسلمين في هذا العصر لا يدعون حين أشد الأوقات حرجا إلا الميتين من الأولياء والصالحين، ويتأول ذلك لهم بعض العلماء ويسمونه توسلا أو نحو ذلك.

قال السيد حسن صديق الهندي في تفسيره [فتح الرحمن]: "فيا عجبا لما حدث في الإسلام من طوائف يعتقدون في الأموات، فإذا عرضت لهم في البحر مثل هذه الحالة دعوا الأموات ولم يخلصوا لله كما فعله المشركون، كما تواتر ذلك إلينا تواترا يحصل به القطع، فانظر هداك الله ما فعلت هذه الاعتقادات الشيطانية، وأين وصل بها أهلها، وإلى أين رمى بهم الشيطان؟ وكيف اقتادهم وتسلط عليهم حتى انقادوا له انقيادا ما كان يطمع في مثله ولا في بعضه من عباد الأصنام، إنا لله وإنا إليه راجعون! "(٢)

---

(١) سورة يونس الآية: (٢٢).

(٢) كذا في النسخة ولعله خطأ مطبعي، والصواب: فتح البيان في مقاصد القرآن لأبي الطيب محمد صديق حسن خان

وقال الألوسي في تفسيره: "وأنت خبير بأن الناس اليوم إذا اعتراهم أمر خطير وخطب جسيم في برٍّ أو بحرٍ دعوا من لا يضر ولا ينفع، ولا يرى ولا يسمع، فمنهم من يستغيث بأحد الأئمة، ومنهم من يضرع إلى شيخ من مشايخ الأمة، ولا ترى فيهم أحدا يخص مولاه بتضرعه ودعاه، ولا يكاد يمرُّ له ببال أنه لو دعا الله تعالى وحده ينجو من هاتيك الأهوال، فبالله تعالى عليك قل لي: أي الفريقين أهدى سبيلا، وأي الداعيين أقوم قيلا، وإلى الله المشتكى من زمان عصفت فيه ريح الجهالة، وتلاطمت أمواج الضلالة، واتّخذت الاستعانة بغير الله للنجاة ذريعة، وخرقت سفينة الشريعة"[(١)]"[(٢)].

وتكلم المراغي رحمه الله على قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾[(٣)] فقال: "أي قل أيها الرسول لمن يستعجل الوعيد، ويقول لك متى هذا الوعد، إني بشر رسول لا أملك لنفسي فضلا عن غيري شيئا من التصرف في الضر فأدفعه عنها، ولا شيئا من النفع فأجلبه لها من غير طريق الأسباب التي يقدر عليها غيري، وليس منها إنزال العذاب بالكفار المعاندين، ولا بذل النصر والمعونة للمؤمنين، لكن ما شاء الله تعالى من ذلك يكون متى شاء ولا شأن لي فيه، لأنه خاص بمقام الربوبية دون الرسالة التي من وظيفتها التبليغ لا التكوين.

وقد جاء في معنى الآية قوله: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[(٤)].

﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[(٥)] أي لكل أمة من الأمم الذين أصرُّوا على تكذيب رسولهم أجل لعذابهم يحلُّ بهم عند حلوله لا يتعداهم إلى أمة أخرى، إذا جاء ذلك الأجل فلا يملك رسولهم من دون الله تعالى أن يقدمه ولا أن يؤخره ساعة عن الزمان المقدر له وإن قلَّت، قال في فتح البيان: "وفي هذا أعظم وازع وأبلغ زاجر لمن صار ديدنه وهِجِّيراه المناداة

القنوجي (ت: ١٣٠٧هـ)، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، (٦/ ٤٠).

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ، (٦/٩٣).

(٢) تفسير المراغي(٤/٢١٦-١٢٤).

(٣) سورة يونس الآية: (٤٩).

(٤) سورة الأعراف الآية: (١٨٨).

(٥) سورة يونس الآية: (٤٩).

لرسول الله ﷺ أو الاستغاثة به عند نزول النوازل التي لا يقدر على دفعها إلا الله ﷻ، وكذلك من صار يطلب من الرسول ﷺ ما لا يقدر على تحصيله إلا الله ﷻ، فإن هذا مقام رب العالمين الذي خلق الأنبياء والصالحين وجميع المخلوقين، ورزقهم وأحياهم فكيف يطلب من نبي من الأنبياء أو مَلَك من الملائكة أو صالح من الصالحين ما هو عاجز عنه غير قادر عليه، ويترك الطلب من رب الأرباب القادر على كل شيء الخالق الرازق المعطي المانع.

وحسبك ما في الآية من موعظة، فإن هذا سيد ولد آدم وخاتم الرسل يأمره الله بأن يقول لعباده: ﴿لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾ فكيف يملكه لغيره، وكيف يملكه غيره ممَّن رتبته دون رتبته، ومنزلته لا تبلغ إلى منزلته؟.

فيا عجبا لقوم يعكفون على قبور الأموات الذين صاروا تحت أطباق الثرى! ويطلبون منهم من الحوائج ما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ! كيف لا يتَّعظون لما وقعوا فيه من الشرك! ؟ ولا يتنبهون لما حل بهم من المخالفة لمعنى لا إله إلا الله! ؟ ومدلول: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[(١)].

وأعجب من هذا اطلاع أهل العلم على ما يقع من هؤلاء، ولا ينكرون عليهم ولا يحولون بينهم وبين الرجوع إلى الجاهلية الأولى، بل إلى ما هو أشد منها، فإن أولئك يعترفون بأن الله ﷻ هو الخالق الرازق، المحيي المميت، الضار النافع، وإنما يجعلون أصنامهم شفعاء لهم عند الله ومقربين لهم إليه، وهؤلاء يجعلون لهم قدرة على الضر والنفع، وينادونهم تارة على الاستقلال، وتارة مع ذي الجلال -وكفاك من شر سماعه- والله ناصر دينه ومطهِّرٌ شريعته من أوضار الشرك وأدناس الكفر.

وقد توسل الشيطان أخزاه الله تعالى بهذه الذريعة إلى ما تقرُّ به عينه، ويثلج به صدره من كفر كثير من هذه الأمة المباركة: ﴿وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾[(٢)] إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون"[(٣)]. .

.

قولـــه: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[(١)] أي ألا إن لله كـــل مـــن في السموات والأرض عبيدا مملوكين له، لا مالك لشيء من ذلك سواه، فكيف يكون إلها معبودا

---

(١) سورة الإخلاص الآية: (١).

(٢) سورة الكهف الآية: (١٠٤).

(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن لمحمد صديق خان(٧٥/٦).

ما يعبده هؤلاء المشركون من الأوثان والأصنام، والعبادة للمالك دون المملوك، وللرب دون المربوب.

ثم بين أنه لا شريك له أبدا، ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾(٢) أي إن هؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله تعالى بدعائهم في الشدائد، واستغاثتهم في النوازل والتقرب إليهم بالقرابين والنذور، لا يتبعون شركاء له في الحقيقة، يدبرون أمور العباد ويكشفون الضر عنهم، إذ لا شريك له.

ثم أكد ما سلف وزاده بيانا فقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾(٣) أي ما يتبعون في الحقيقة فيما يقولون إلا الظن في دعواهم أنهم أولياء لله وشفعاء عنده، فهم يقيسونه على ملوكهم الظالمين المتكبرين الذين لا يصل إليهم أحد من رعاياهم إلا بوسائل حجَّابه ووزرائه ووسائطه.

ثم زاد ذلك توكيدا بقوله: ﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾(٤) أي وما هم في اتباع هذا الظن الذي لا يغني من الحق شيئا إلا متخرِّصون قائلون بغير علم بما يقولون.

والخلاصة: إنهم إنما اتبعوا ظنونهم الفاسدة وأوهامهم الباطلة، فقاسوا الرب في تدبير أمور عباده على الملوك، وجهلوا أن أفعاله تعالى إنما تجري بمقتضى مشيئته الأزلية وفق علمه الذاتي وحكمته البالغة العادلة، وأن جميع أوليائه وأنبيائه وملائكته عبيد مملوكون له ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾(٥) أي إن أقرب أولئك الذين يدعونهم ويتوسلون إليه بهم كالمسيح والملائكة ومن دونهم، يتوسلون إليه راجين خائفين، لا كأعوان الملوك الذين لا ينتظم أمر ملكهم بدونهم"(٦).

واستنبط المراغي رحمه الله من قصة نوح عليه السلام مع ابنه جهل المتعلقين بالأولياء والصالحين، فقال بعد قوله جلَّ وعلا: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾(٧) أي فلا تسألني في شيء ليس لك به

(١) سورة يونس الآية: (٦٦).
(٢) سورة يونس الآية: (٥٥).
(٣) سورة يونس الآية: (٥٥).
(٤) سورة يونس الآية: (٥٥).
(٥) سورة الإسراء الآية: (٥٧).
(٦) تفسير المراغي(٤/٢٤٥-٢٥٩).
(٧) سورة هود الآية: (٤٦).

علم صحيح، وقد سمى دعاءه سؤالا، لأنه تضمن ذكر الوعد بنجاة أهله، وما رتبه عليه من طلب نجاة ولده.

وفى الآية إيماء إلى أنه لا يجوز الدعاء بطلب ما هو مخالف لسنن الله في خلقه بإرادة قلب نظام الكون لأجل الداعي، ولا بطلب ما هو محرم شرعا، وإنما يجوز الدعاء بتسخير الأسباب والتوفيق فيها والهداية إلى العلم بالمجهول من السنن والنظام، لنكثر من عمل الخير، ونزيد من عمل البر والإحسان.

﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾(١) أي إني أنهاك أن تكون من زمرة من يجهلون، فيسألونه تعالى أن يبطل حكمته وتقديره في خلقه، إجابة لشهواتهم وأهوائهم في أنفسهم أو أهليهم أو محبيهم، وفى ذلك دليل على أن من أكبر الجهالات أن نسأل بعض الصالحين والأولياء ما نهى الله عنه نبيًّا من أولي العزم من رسله أن يسأله إياه، فإن ذلك يقضي بأن الله يعطيهم ما لم يعط مثله لرسله"(٢).

وتكلم رحمه الله عند قول الحق ﷻ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾(٣) فقال: "أي وما يقر هؤلاء بأن الله هو الخالق -كما قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾(٤)- إلا وهم مشركون به في عبادتهم سواه من الأوثان والأصنام ومن زعمهم أن له ولدا، تعالى عما يقولون، قال ابن عباس: «هم أهل مكة آمنوا وأشركوا، وكانوا يقولون في تلبيتهم: **لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك**»(٥)، وهذا هو الشرك الأعظم، إذ يعبد مع الله غيره، وفي صحيح مسلم: "أنهم كانوا إذا قالوا لبيك لا شريك لك قال رسول الله ﷺ: «**قد، قد**»"(٦) أي حسب حسب لا تزيدوا على هذا،

(١) سورة هود الآية: (٤٦).

(٢) تفسير المراغي(٤/٣٢٠)

(٣) سورة يوسف الآية: (١٠٦).

(٤) سورة لقمان الآية: (٢٥).

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير(١٠/١٦٦).

(٦) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب التلبية وصفتها ووقتها، (٢/٨٤٣)، رقم الحديث(١١٨٥).

وفي الصحيحين عن ابن مسعود: قلت يا رسول الله: أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندّا وهو خلقك**»(١).

ومن درس تاريخ الأمم الماضية والحاضرة عرف كيف طرأ الشرك على الأمم، وسرى في عبادتهم سريان السُّمِّ في الدَّسم، قال ابن القيم في إغاثة اللهفان: "وما زال الشيطان يوحي إلى عبَّاد القبور منهم، أن الدعاء عندها مستجاب، ثم ينقلهم من هذه المرتبة إلى الدعاء لها والإقسام على الله بها -مع أن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه، أو يسأل بأحد من خلقه- فإذا تقرر ذلك عندهم، نقلهم منه إلى دعائه وعبادته وسؤاله الشفاعة من دون الله، واتخاذ قبره وَثَنًا تعلَّق عليه القناديل والستور، ويطاف به ويستلم ويقبَّل ويحجُّ إليه ويذبح عنده، فإذا تقرر هذا عندهم نقلهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادته واتخاذه عيدا ومنسكا، ورأوا أن ذلك أنفع لهم في دنياهم وأخراهم، وكل هذا مما علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث الله رسوله ﷺ من تجديد التوحيد وألا يعبد إلا الله"(٢).

أما التوسل(٣) إلى الله بصالحي عباده كقولهم: اللهم بجاه فلان عندك، أو بحق فلان أو بحرمته أسألك أن تفعل كذا، فلم ينقل عن أحد من سلف الأمة أنهم كانوا يدعون بمثل هذا الدعاء، وما أخرجه الطبراني من حديث فاطمة بنت أسد(٤) من قوله: «بحق نبيك والأنبياء من

---

(١) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: {فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون}، (١٨/٦)، رقم الحديث(٤٤٧٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، (٩٠/١)، رقم الحديث(١٤١).

(٢) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض (٢١٢/١) ونقل المراغي منه بالمعنى.

(٣) التوسل في اللغة: التقرب.

وفي الشرع: التقرب إلى الله تعالى بوسيلة مشروعة أو ممنوعة:

أ/ الوسيلة المشروعة مثل التوسل بأسماء الله وصفاته أو بالأعمال الصالحة.

ب/ الوسيلة الممنوعة مثل التوسل بالأموات أو بجاه المخلوقين.

انظر: تهذيب اللغة(٣٨٩٢/٤)، ولسان العرب(٧٢٤/١١)، وقاعدة جليلة في التوسل والوسيلة لابن تيمية ص(١-٢)، والتوسل أنواعه وأحكامه ص(١٣).

(٤) فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصي الهاشمية، تزوجها أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم فولدت له عليا وجعفرا وعقيلا وطالبا -وهو أسنهم- وأم هانئ وجمانة وريطة بني أبي طالب، قيل: إنها ماتت قبل الهجرة، وليس بشيء، والصواب أنها هاجرت إلى المدينة وبها ماتت، انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد(٥١/٨)، والاستيعاب لابن عبد

قبلي»[١] فقد طعن فيه رجال الحديث، على أنه ليس فيه إلا الدعاء بحق النبيين فحسب، وهو ما فضَّلهم الله به على غيرهم من النبوة والرسالة، وما وعدهم به من التمكين والنصر، على أن حقوق الرسل وصلاح الصالحين ليست من أعمال السائل التي يستحق عليها الجزاء ولا رابطة تربطها بإجابة سؤاله"[٢].

وأوضح شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله التوسل بقوله: "فلفظ التوسل بالشخص، والتوجه به، والسؤال به، فيه إجمال واشتراك، غلط بسببه من لم يفهم مقصود الصحابة، يراد به التسبب به لكونه داعيا وشافعا مثلا، أو لكون الداعي مجيبا له، مطيعا لأمره، مقتديا به، فيكون التسبب: إما لمحبة السائل له واتباعه له، وإما بدعاء الوسيلة وشفاعته، ويراد به الإقسام به والتوسل بذاته، فلا يكون التوسل لا لشيء منه، ولا شيء من السائل بل بذاته أو بمجرد الإقسام به على الله، فهذا الثاني هو الذي كرهوه"[٣].

وأوضح المراغي رحمه الله حال المشركين إذا كشف الله عنهم الضر أنهم يرجعون إلى شركهم، فقال بعد قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾[٤] "أي ثم إذا وهب لكم ربكم العافية، ورفع عنكم ما أصابكم من مرض في أبدانكم، أو شدة في معاشكم، بتفريج البلاء عنكم، إذا جماعة منكم يجعلون لله شريكا في العبادة، فيعبدون الأوثان، ويذبحون لها الذبائح، شكرا لغير من أنعم بالفرج، وأزال من الضرر، ونحو الآية قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾[٥]، قال السيد الألوسي في تفسيره: "وفي الآية ما يدل على أن صنيع العوام اليوم من الجؤار إلى غير الله تعالى ممن لا يملك لهم بل ولا لنفسه نفعا ولا ضرا –عند إصابة الضر بهم

البر(١٨٩١/٤).

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٦٧/١)، رقم الحديث(١٨٩)، وفي المعجم الكبير(٣٥١/٢٤)، وعنه أبو نعيم في الحلية(١٢١/٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد(٢٥٧/٩): "رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه روح بن صلاح، وثقه ابن حبان والحاكم، وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح"، وأورده ابن الجوزي في العلل المتناهية(٢٦٩/١)، وضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة(٧٩/١)، رقم الحديث(٢٣).

(٢) تفسير المراغي: (٤٠/٥-٤١).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ص(٤١٦).

(٤) سورة النحل الآية: (٥٤).

(٥) سورة الإسراء الآية: (٦٧).

وإعراضهم عن دعائه تعالى بالكلية- سفه عظيم وضلال جديد، لكنه أشد من الضلال القديم، ومما تقشعرُّ منه الجلود، لحصوله ممن يؤمن باليوم الموعود.

إن بعض المتشيخين قال لي وأنا صغير: إياك ثم إياك أن تستغيث بالله إذا خطب دهاك، فإن الله تعالى لا يعجّل في إغاثتك، ولا يهمه سوء حالتك، وعليك بالاستغاثة بالأولياء السالفين، فإنهم يعجّلون في تفريج كربك، ويهمهم سوء ما حل بك، فمجَّ ذلك سمعي، وهمى دمعي، وسألت الله تعالى أن يعصمني والمسلمين من أمثال هذا الضلال المبين، ولكثير من المتشيخين اليوم كلمات مثل ذلك[١]"[٢].

وأوضح رحمه الله قصة أصحاب الكهف وما جرى لهم مع قومهم، وما وقع من قومهم من الغلو فيهم، حيث اتخذوا عليهم مسجدا، فقال عند قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[٣] "أي وألهمناهم قوة العزيمة، وشددنا قلوبهم بنور الإيمان، حتى عزفت نفوسهم عما كانوا عليه من خفض العيش والرغبة عنه، وقالوا -حين قاموا بين يدى الجبار دقيانوس[٤] إذ عاتبهم على تركهم عبادة الأصنام-: ربنا رب السموات والأرض ورب كل مخلوق.

ثم أردفوا تلك المقالة البراءة من إله غيره فقالوا: ﴿لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا﴾[٥] أي لن ندعو من دون رب السموات والأرض إلها، لا على طريق الاستقلال ولا على سبيل الاشتراك، إذ لا رب غيره ولا معبود سواه.

وقد أشاروا بالجملة الأولى إلى توحيد الألوهية والخلق [وهي قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾]، وبالجملة الثانية إلى توحيد الربوبية والعبادة[وهي قوله تعالى: ﴿لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا﴾]، وعبدة الأصنام يقرون بتوحيد الأولى، ولا يقرون بتوحيد الثانية، بدليل قوله:

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني(١٤/١٦٦).

(٢) تفسير المراغي (٥/٢١٩).

(٣) سورة الكهف الآية: (١٤).

(٤) ويقال له دقيوس، وهو الملك الذي كان على أصحاب الكهف وكان بمدينة للروم اسمها أفسوس، وكان يعبد الأصنام، انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير(١/٣٢٥)، والبداية والنهاية لابن كثير(٢/١١٤).

(٥) سورة الكهف الآية: (١٤).

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[١]، وقوله سبحانه حكاية عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[٢] وكانوا يقولون في تلبيتهم في الحج: «لبيك لا شريك لك: إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك»[٣].

ثم عللوا عدم دعوتهم لغيره بقولهم: ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾[٤] أي إنا إذا دعونا غير الله، لقد أبعدنا عن الحق، وتجاوزنا الصواب.

وفى هذا إيماء إلى أنهم دعوا لعبادة الأصنام وليموا على تركها.

ثم حكى سبحانه عن أهل الكهف مقالة بعضهم لبعض فقال: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ﴾[٥] أي: إن قومنا هؤلاء وإن كانوا أكبر منا سنًّا، وأكثر تجربة، قد أشركوا مع الله غيره، فهلا أتوا بحجة بينة على صدق ما يقولون، كما أتينا على صدق ما ندّعي بالأدلة الظاهرة، وإنهم لأظلم الظالمين فيما فعلوا، افتروا، ومن ثم قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي لا أظلم ممن افترى على الله الكذب ونسب إليه الشريك، تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾[٦] أي وإذ فارقتموهم وخالفتموهم في عبادتهم غير الله، ففارقوهم بأبدانكم والجأوا إلى الكهف، وأخلصوا لله العبادة في مكان تتمكنون منها بلا رقيب ولا حسيب، وإنكم إن فعلتم ذلك، فالله تعالى يبسط لكم الخير من رحمته في الدارين، ويسهل لكم من أمر الفرار بدينكم، والتوجه إليه في عبادتكم، ما ترتفقون وتنتفعون به، وقد قالوا ذلك ثقة بفضل الله تعالى ورجاء منه، لتوكلهم عليه وكمال إيمانهم به...

(١) سورة لقمان الآية: (٢٥).

(٢) سورة الزُّمَر الآية: (٣).

(٣) سبق تخريجه ص(١٤١).

(٤) سورة الكهف الآية: (١٤).

(٥) سورة الكهف الآية: (١٥).

(٦) سورة الكهف الآية: (١٦).

ثم ذكر المراغي رحمه الله موقف قومهم بعد اطلاعهم عليهم فقال بعد قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾[(١)] أي إنهم انقسموا في شأنهم فريقين، فريق يقول: نسد عليهم باب الكهف ونذرهم حيث هم، وفريق يقول: نبني عليهم مسجدا يصلي فيه الناس، وقد غلب هذا الفريقُ الفريقَ الأول في الرأي.

وقوله: ﴿رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡ﴾ جملة معترضة من كلامه تعالى ردا للخائضين في أمرهم ممن أعثروا عليهم، أو ممن كان في عهده ﷺ من أهل الكتاب، في بيان أنسابهم وأسمائهم وأحوالهم ومدة لبثهم.

وقد ذكر العلماء أن اتخاذ القبور مساجد منهيٌّ عنه أشد النهي، حتى ذكر ابن حجر[(٢)] في كتابه الزواجر: أنه من الكبائر[(٣)]، لما روي في صحيح الأخبار من النهي عن ذلك، روى أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «**لعن الله تعالى زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسُّرج**»[(٤)]، وزاد مسلم: «**ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك**»[(٥)]، وروى الشيخان والنسائي عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «**لعن الله تعالى اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم**

---

(١) سورة الكهف الآية: (٢١).

(٢) هو: شهاب الدّين أبو العبّاس أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السّعدي الأنصاري الشافعي، برع في علوم كثيرة من التفسير، والحديث، والكلام، والفقه، والنحو، والصرف، والمعاني، والبيان، والمنطق، والتصوف، له مؤلفات كثيرة منها "شرح المشكاة" و"شرح المنهاج" وغيرها، ولد سنة (٩٠٩هـ)، وتوفي سنة (٩٧٤هـ)، انظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي(٥٤١/١٠)، والنور السافر عن أخبار القرن العاشر للعيدروسي (٢٨٧).

(٣) انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر، لابن حجر الهيتمي، دار الفكر، ط١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، (٢٤٤/١).

(٤) أخرجه أبو داود، كتاب الجنائز، باب في زيارة النساء القبور، (٢١٨/٣)، رقم الحديث(٣٢٣٦)، والترمذي، كتاب الصلاة، باب ما جاء في كراهية أن يتخد على القبر مسجدا، (١٣٦/٢)، رقم الحديث(٣٢٠)، والنسائي، كتاب الجنائز، باب التغليظ في اتخاذ السرج على القبور، (٩٤/٤)، رقم الحديث(٢٠٤٣)، وابن ماجه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في النهي عن زيارة القبور للنساء (٥٠٢/١)، رقم الحديث(١٥٧٥)، وأحمد في مسنده(٣٦٣/٤) رقم الحديث(٢٦٠٣)، والحديث حسنه الترمذي، وضعفه ابن الملقن في البدر المنير(٤٨٥/٢)، والألباني في تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد ص(٥١).

(٥) صحيح مسلم، كاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، (٣٧٧/١)، رقم الحديث(٥٣٢)، أما قوله: "وزاد مسلم" فإنه يشعر أن الحديث الأول أخرجه مسلم وهو لم يخرجه.

مساجد»[١]، وروى أحمد والشيخان والنسائي قوله ﷺ: «**إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوَّروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق يوم القيامة»**[٢]، وروى أحمد والطبراني: «**إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، ومن يتخذ القبور مساجد»** [٣]، إلى نحو ذلك من الآثار الصحيحة، فلْيَعْتَبِرِ المسلمون اليوم بهذه الأخبار التي لا مرية في صحتها، ولْيُقلِعُوا عما هم عليه من اتخاذ المساجد في أضرحة الأولياء والصالحين والتبرك بها، والتمسح بأعتابها، وليعلموا أن هذه وثنية مقنَّعة، وعود إلى عبادة الأوثان والأصنام على صور مختلفة، والعبرة بالجوهر واللب، لا بالعرض الظاهر، فذلك إشراك بالله في ربوبيته وعبادته، وقد حاربه الدين أشد المحاربة، ونعى على المشركين ما كانوا يفعلون.

اللهم ألهم المسلمين رشدهم، وثبتهم في أمر دينهم، ولا تجعلهم يحذون حذو من قبلهم حذو القذَّة بالقذة، وأرجعهم إلى مثل ما كان يفعله المسلمون في الصدر الأول وما بعده، فرجاله هم الأسوة، وقد صح أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما وجد قبر دانيال في عهده بالعراق، أمر أن يسوَّى بالأرض، وأن تدفن تلك الرُّقعة التي وجدوها عنده، وفيها شيء من الملاحم وغيرها من الأخبار[٤]"[١].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ما جاء في قبر النبي صلى الله عليه وسلم، (٢٩٤/٣)، رقم الحديث(١٣٩٠)، ومسلم، كاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، (٣٧٦/١)، رقم الحديث(٥٢٩)، والنسائي، كتاب الجنائز، باب اتخاذ القبور مساجد، (٩٥/٤)، رقم الحديث(٢٠٤٧).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده(٢٩٦/٤٠) رقم الحديث(٢٤٢٥٢)، والبخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة الحبشة، (٤٣٧/١)، رقم الحديث(٣٨٧٣)، ومسلم، كاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، (٦٦/٢)، رقم الحديث(٥٢٨) والنسائي، كتاب المساجد، باب النهي عن اتخاذ القبور مساجد، (٤١/٢)، رقم الحديث(٧٠٤).

(٣) أخرجه أحمد(٣٩٤/٦)، رقم الحديث(٣٨٤٤)، ، وابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الجنائز، باب من كره زيارة القبور(٣٠/٣)، رقم الحديث(١١٨١٦)، وابن خزيمة في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الزجر عن اتخاذ القبور مساجد والدليل. . . . (٦/٢)، رقم الحديث(٧٨٩)، والطبراني في الكبير(١٨٨/١٠)، قال شيخ الإسلام في اقضاء الصراط المستقيم(١٨٦/٢): "إسناده جيد"، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد(٢٧/٢)، رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن، وحسنه الألباني في أحكام الجنائز ص(٢١٧).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الجنائز، باب من كره زيارة القبور(٤/٧) رقم الحديث(٣٣٨١٨)، والبيهقي في دلائل النبوة، باب ما وجد من صورة نبينا محمد ﷺ مقرونة بصورة الأنبياء قبله بالشام(٣٩٠/١)، وصححه ابن كثير في البداية والنهاية(٤٠/٢-٤٢)، والألباني في فضائل الشام(١٨).

وأوضح رحمه الله حال المشركين يوم القيامة مع من عبدوهم من دون الله، فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾(٢): "أي واذكر لقومك تخويفا وتحذيرا يوم يحشر عابدو الأصنام والملائكة وعيسى وعزير وأضرابهم من العقلاء الذين عبدوا من دون الله، ثم يقال لأولئك المعبودين: ءأنتم دعوتم عبادي إلى الغي والضلال حتى دسُّوا أنفسهم وهلكوا، أم هم الذين ضلوا سبيل الرشد والحق، وسلكوا سبيل الهلاك بإعراضهم عن اتباع الرسول؟ فأجاب المعبودون: ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴾(٣) أي: قال المعبودون على طريق التعجب مما قيل لهم، لأنهم ملائكة أو أنبياء معصومون، فما أبعدهم عن الإضلال: تنزهت ربَّنا مما نسب إليك هؤلاء المشركون، ما كان يليق بنا ونحن لا نتخذ من دونك أولياء أن ندعو غيرنا إلى ذلك، ولكنك ربَّنا أكثرت عليهم وعلى آبائهم نعمَكَ ليعرفوا حقها ويشكروك، فاستغرقوا في الشهوات، وانهمكوا في اللذات، وغفلوا عن ذكرك والإيمان بك، فكانوا من الهالكين، فحينئذ يقال لأولئك العابدين: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ﴾(٤) أي فقد كذَّبكم أيها الكافرون مَنْ زعمتم أنهم أضلُّوكم ودعوكم إلى عبادتهم فيما تقولون، فما تستطيعون صرف العذاب عن أنفسكم ولا تجدون من ينصركم ويدفع عقاب الله عنكم.

والخلاصة: إنكم لا تستطيعون النجاة، لا بالهرب ولا بالانتصار لأنفسكم، فأنتم معذبون لا محالة، ثم عمَّمَ سبحانه الحكم وخاطب جميع المكلفين فقال: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾(٥) أي: ومن يكفر منكم أيها المكلفون فيعبد مع الله إلها غيره، كهؤلاء الذين كذبوا بيوم القيامة، نذقه في الآخرة عذابا كبيرا بقدر قدره، ولا تصل العقول إلى معرفة كنهه"(٦).

ودانيال: قيل إنه نبي أو رجل صالح، انظر: البداية والنهاية لابن كثير(٢/٤٠-٤٢)، وشرح الشفا لملا القاري(٢/٥٤٣).

(١) تفسير المراغي(٥/٣٨١-٣٨٩).

(٢) سورة الفرقان الآية: (١٧).

(٣) سورة الفرقان الآية: (١٨).

(٤) سورة الفرقان الآية: (١٩).

(٥) سورة الفرقان الآية: (١٩).

(٦) تفسير المراغي(٦/٣٩٦-٣٩٧)

وأوضح رحمه الله ما يحصل للمشركين المتعلقين بالأولياء والصالحين عند سماعهم التوحيد، فقال بعد قول الحق ﷻ: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾(١): "الاشمئزاز أن يمتلئ القلب غيظا وغما ينقبض عنهما أديم الوجه كما يرى في وجه العابس المحزون، والاستبشار أن يمتلئ القلب سرورا فتنبسط له بشرة الوجه.

أي إنه إذا قيل لا إله في الكون إلا الله وحده نفرت قلوب أولئك المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث والمعاد بعد الموت، وإذا ذكرت الآلهة التي يدعونها من دون الله فقيل: تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى استبشروا وفرحوا لفرط افتنانهم بهم، ونسيانهم حق الله تعالى... ونحو الآية قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا﴾(٢).

قال السيد الألوسي في تفسيره ناعيا حال المسلمين اليوم: "وقد رأينا كثيرا من الناس على نحو هذه الصفة التي وصف الله تعالى بها المشركين، يهشون لذكر أموات يستغيثون بهم ويطلبون منهم، ويطربون من سماع حكايات كاذبة عنهم توافق أهواءهم ومعتقداتهم فيهم، ويعظمون من يحكم لهم ذلك، وينقبضون من ذكر الله تعالى وحده، ونسبة الاستقلال بالتصرف إليه ﷻ، وسرد ما يدل على مزيد عظمته وجلاله، وينفرون ممن يفعل ذلك كل النفرة وينسبونه إلى ما يكره، وقد قلت يوما لرجل يستغيث في شدة ببعض الأموات، وينادي يا فلان أغثني، فقلت له: قل يا الله فقد قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ ﴾(٣) فغضب، وبلغني أنه قال: فلان منكر على الأولياء، وسمعت من بعضهم أنه قال: الولي أسرع إجابة من الله ﷻ، وهذا من الكفر بمكان، نسأل الله تعالى أن يعصمنا من الزيغ والطغيان"(٤). . .

(١) سورة الزُّمَر الآية: (٤٥).

(٢) سورة الإسراء الآية: (٤٦).

(٣) سورة البقرة الآية: (١٨٦).

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني(١٢/٢٦٦).

وقال أيضا عن المشركين: "أنهم حين الوقوع في الضر من فقر ومرض يفزعون إلى الله ويلجأون إليه، علما منهم أنه لا دافع له إلا هو، وإذا نالتهم بعض النعم من فضله زعموا أن ذلك بكسبهم، وحسن صنيعهم، وجميل تدبيرهم، والحقيقة أن ما أوتوه إنما هو فتنة لهم واختبار لحالهم، ليعلم أيشكرون على ما حباهم به من النعم أم يكفرون، ولكن أكثرهم لا يعلمون ذلك.

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١) أي إن أمر المشرك عجيبٌ، يدعو إلى الدهشة والحيرة، فإذا هو أصيب بضر من فقر أو مرض جأر إلى الله واستعان به لكشف ذلك الضر عنه، وإذا تغيرت الحال ونال شيئا من الرخاء أو زال عنه ما به من العلة قال: إنما أوتيت هذا لعلمي بوجوه المكاسب، وجدى واجتهادي، أو لذهابي إلى الأطباء واهتمامي بالعلاج، فلم أدخر دواء نافعا إلا بذلت نفيس المال للحصول عليه، وهذا منه تناقض عجيب، ففي الحال الأولى يستغيث بربه، وفي الحال الثانية ينسب السلامة إلى نفسه ويقطع صلتها عن المنعم بها الذي أوجدها وأرادها، وفي الحق إن ما أعطيه من النعم إنما هو فتنة واختبار لحاله، أيشكر أم يكفر، أيطيع أم يعصي؟ ولكن أكثرهم لا يعلمون أن ذلك استدراج من الله وامتحان لهم، ومن ثم يقولون ما يقولون، ويدَّعون من الدعاوى ما لا يفقهون"(٢).

وأوضح رحمه الله بطلان ما يتعلق به الغلاة في الأولياء والصالحين فقال عند قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾(٣): "أي ولا أعلم ما يفعل بي في الدنيا، أأخرج من بلدي كما أخرجت أنبياء من قبلي، أم أقتل كما قتل منهم من قتل؟ ولا ما يفعل بكم أيها المكذبون، أترمون بحجارة من السماء أم تخسف بكم الأرض؟ كل هذا علمه عند ربي، وفي صحيح البخاري وغيره من حديث أمِّ العلاء أنها قالت: لما مات عثمان بن مظعون رضي الله عنه، قلت: رحمة الله عليك يا أبا السائب، لقد أكرمك الله تعالى، فقال رسول الله ﷺ: «**وما يدريك أن الله أكرمه؟ أمَّا هو فقد جاءه اليقين من**

(١) سورة الزُّمَر الآية: (٤٩).

(٢) تفسير المراغي(٨/٢٦٩-٢٧٣).

(٣) سورة الأحقاف الآية: (٩).

ربه، وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري –وأنا رسول الله– ما يفعل بي ولا بكم»، قالت أمّ العلاء فوالله ما أزكي بعده أبداً[١]، وفي رواية الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس: أنه لما مات قالت امرأته أو امرأة: هنيئا لك ابن مظعون الجنة، فنظر إليها رسول الله ﷺ نظر مغضب وقال: «**وما يدريك؟ والله إني لرسول الله، وما أدري ما يفعل الله بي**»، فقالت: يا رسول الله صاحبك وفارسك وأنت أعلم، فقال: «**أرجو له رحمة ربه تعالى وأخاف عليه ذنبه**»[٢].

ومن هذا يعلم أن ما ينسب إلى بعض الأولياء من العلم بشؤون الغيب، فهو فرية على الله ورسوله، وكفى بما سلف ردًّا عليهم"[٣].

وقال رحمه الله عند تفسير سورة الاخلاص قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾[٤] أي هو الله الذي يقصده العباد ويتوجهون إليه، لقضاء ما أهمهم دون واسطة إلى شفيع، وبهذا أبطل عقيدة مشركي العرب الذين يعتقدون بالوسائط والشفعاء، وعقيدة غيرهم من أهل الأديان الأخرى الذين يعتقدون بأن لرؤسائهم منزلة عند ربهم، ينالون بها التوسط لغيرهم في نيل مبتغاهم، فيلجأون إليهم أحياء وأمواتا، ويقومون عند قبورهم خاضعين خاشعين، كما يخشعون لله أو أشد خشية.

﴿لَمْ يَلِدْ﴾[٥] أي تنزه ربُّنا عن أن يكون له ولد، وفى هذا ردٌّ لمزاعم مشركي العرب الذين زعموا أن الملائكة بنات الله، ولمزاعم النصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله، اقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ۝١٤٩ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ۝١٥٠ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾[٦].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التعبير، باب رؤيا النساء، (٣٤/٩)، رقم الحديث(٧٠٠٣).

(٢) أخرجه الطيالسي في مسنده(٤١١/٤)، رقم الحديث(٢٨١٧)، وأحمد في مسنده(٣٠/٤) رقم الحديث(٢١٢٧)، والطبراني في الكبير(٣٧/٩) رقم الحديث(٨٣١٧)، والحاكم في المستدرك(٢١٠/٣) رقم الحديث(٤٨٦٩) قال ابن حجر في الفتح (٤١١/١٢): "فيه علي بن جدعان وهو ضعيف"، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة(٣٧٣/٧) رقم الحديث(٣٣٦١).

(٣) تفسير المراغي(١٤٦/٩-١٤٧).

(٤) سورة الإخلاص الآية: (١-٢).

(٥) سورة الإخلاص الآية: (٣).

(٦) سورة الصافات الآية: (١٥٢).

﴿وَلَمْ يُولَدْ ﴾[١] لأن ذلك يقتضي مجانسته لسواه، وسبق العدم قبل الوجود، تنزه ربنا عن ذلك.

وأثر عن ابن عباس أنه قال: "لم يلد كما ولدت مريم، ولم يولد كما ولد عيسى وعزير"[٢].

وهو ردٌّ على النصارى الذين قالوا المسيح ابن الله، وعلى اليهود الذين قالوا: عزير ابن الله.

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[٣] أي ليس له ندٌّ ولا مماثل، وفى هذا نفيٌ لما يعتقده بعض المبطلين من أن لله ندًّا في أفعاله، كما ذهب إلى ذلك مشركو العرب حيث جعلوا الملائكة شركاء لله"[٤].

التعليق: المراغي رحمه الله في طرحه لمسألة الغلو في الصالحين لم يخرج عن طرح العلماء السابقين من أهل السنة والجماعة؛ لأن الجميع مصدرهم في ذلك الكتاب والسنة، من أجل ذلك توافقت الأقوال، فهذا شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله يقرر التحذير من الغلو، وأنه من أعظم الأسباب المؤدية إلى الشرك، فألف كتابه (الاستغاثة في الرد على البكري) ردَّ فيه على شبه المخالفين في هذا الباب، وكتابه الآخر (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) وغير ذلك من كتبه المتعلقة بتوحيد العبادة.

وكذلك أئمة الدعوة، وعلى رأسهم الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمهم الله جميعا، فقد قرروا التحذير من شرك الغلو في الصالحين، فمثلا من نظر في (كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد) وعلى شروحه المختلفة، نرى العناوين التالية: باب أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين، وباب ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح، فكيف إذا عبده؟ وباب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يُصَيِّرُها أوثانا تعبد من دون الله، وغير ذلك مما قرره السلف في هذا الموضوع، وإن دلَّ ذلك على شيء، فإنما يدل على أن

---

(١) سورة الإخلاص الآية: (٣).

(٢) أورده القرطبي في تفسيره(٢٠/٢٤٦).

(٣) سورة الإخلاص الآية: (٤).

(٤) تفسير المراغي(١٠/٥١٥).

المراغي رحمه الله لما كان مرجعه الكتاب والسنة، توافقت أقواله مع أقوال من سبقه من العلماء رحم الله الجميع.

المطلب الثاني: عبادة الأوثان والأصنام:

عبادة الأوثان والأصنام حدثت في الناس بعد آدم بقرون، كما في أثر عبدالله بن عباس رضي الله عنهما في صحيح البخاري[١]، ولا تزال قائمة إلى عصرنا هذا.

قال المراغي رحمه الله: "وأصل عبادة الأوثان أنه كان في القوم الذين أرسل إليهم نوح رجال صالحون، فلما ماتوا وضعوا لهم أنصابا ليتذكروهم بها ويقتدوا بهم، ثم صاروا يكرمونها لأجلهم، ثم خلف من بعدهم خلف جهلوا حكمة وضعها لكنهم حفظوا تكريمها، والتبرك بها، تدينا وتوسلا إلى الله، فكان ذلك عبادة لها وتسلسل في الأمم بعدهم، وقد رواه البخاري عن ابن عباس.

إن المضلين يبنون شبهاتهم على جميع أنواع العبادة التي عبدوا بها غير الله كالتوسل به ودعائه، وطلب الشفاعة منه، وذبح القرابين باسمه، والطواف حول تمثاله أو قبره والتمسح بأركانهما، وكل ذلك شرك في العبادة، شبهته تعظيم المقربين من الله تعالى للتقرب بهم إليه. وقد انتشرت هذه الشبهات الوثنية في أرباب الكتب الإلهية، وأولوا لأجلها النصوص القطعية وأنكروا تسمية ذلك عبادة، أو أن هذه العبادة إذا كانت لغير الله لجعله واسطة ووسيلة إليه لا تعد شركا به، وما الشرك في العبادة إلا هذا"[٢].

وعرف المراغي رحمه الله الطاغوت فقال: "الطاغوت: كل معبود دون الله من شيطان وكاهن وصنم، وكل من دعا إلى ضلال، ويقع على الواحد؛ كقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾[٣]، وعلى الجمع؛ كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾[٤]"[٥].

---

(١) سبق تخريجه ص(١٢٥).

(٢) تفسير المراغي(٣/١٩٠).

(٣) سورة النساء الآية: (٦٠).

(٤) سورة البقرة الآية: (٢٥٧).

(٥) تفسير المراغي(٥/٢٠٦-٢٠٧).

وقال في تعريف التماثيل: "التماثيل: واحدها تمثال وهو الصورة المصنوعة على شبه مخلوق من صنع الله، كطير أو شجر أو إنسان والمراد بها هنا الأصنام، سماها بذلك تحقيرا لشأنها، والعكوف على الشيء: ملازمته والإقبال عليه"(١).

وعرف المراغي رحمه الله الأصنام والتماثيل والعكوف عليها فقال: "والعكوف على الشيء: الإقبال عليه وملازمته تعظيما له، والأصنام واحدها صنم: وهو ما يصنع من الخشب والحجر أو المعدن مثالا لشيء حقيقي أو خيالي ليعظَّم تعظيم العبادة، وقد اتخذ بعض العرب في الجاهلية أصناما من عجوة التمر فعبدوها ثم جاعوا فأكلوها(٢)، والتمثال لا بد أن يكون مثالا لشيء حقيقي، وقد يكون للعبادة فيسمى صنما، وقد يكون للزينة الذي يكون على جدران بعض القصور أو أبوابها أو في حدائقها، وقد يكون للتعظيم غير الديني كالتماثيل التي تنصب لبعض الملوك وكبار العلماء والقواد للتذكير بتاريخهم وأعمالهم للاقتداء بهم.

والتعظيم الديني يكون الغرض منه التقرب من المعبود وطلب ثوابه بدفع ضرر أو جلب منفعة من طريق الغيب، باعتقاد أن له سلطة غيبية، أو تعظيم ما يذكر به من صورة أو تمثال أو قبر أو غير ذلك من آثاره لأجل التقرب إليه وقصد الانتفاع به في الأمور التي لا تنال بالأسباب العامة، وكل ذلك عبادة له ولله بالاشتراك، وهذا مظهر من مظاهر الشرك الجلي التي تعتبر كفرا مهما اختلفت تسميتها"(٣).

---

(١) تفسير المراغي(١٧٧/٦).

(٢) كان أهل الجاهلية يعبدون الأصنام ويصنعونها من كل شيء حتى من الأشياء التافهة، قال أبو رجاء العطاردي رضي الله عنه كما في صحيح البخاري(٤٥٥/١٠) وغيره: " كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرا هو أخير منه ألقيناه، وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرا جمعنا جثوة (كومة أو كثبة) من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه، ثم طفنا به"، ونقل الحافظ ابن حجر في الفتح(٣٨٤/١٠) عن القرطبي قوله: " أن أهل الجاهلية كانوا يعملون الأصنام من كل شيء حتى إن بعضهم عمل صنمه من عجوة (تمر) ثم جاع فأكله"، وذكر ابن سعد في الطبقات(٤٢٥/٨) "قصة زواج أم سليم لما خطبها أبو طلحة وهو مشرك فأبت، فقالت له يوما فيما تقول: أرأيت حجرا تعبده لا يضرك ولا ينفعك أو خشبة تاتي بها النجار فينجرها لك ، هل يضرك هل ينفعك؟ قال فوقع في قلبه الذي قالت، قال فأتاها فقال: لقد وقع في قلبي الذي قلت، وآمن، قالت: فإني أتزوجك ولا آخذ منك صداقا غيره"، وأشار إلى ذلك في عمدة القاري شرح صحيح البخاري(١٦٤/١٨)، وفي تحفة الأحوذي(١١٥/٨)، وابن عثيمين في القول المفيد(٣٢٣/١)، ولم أقف عليها مسندة.

(٣) المصدر السابق(٣/ ٣٨٩).

وأوضح رحمه الله مصير الأصنام التي كانت في قوم نوح فقال عند تفسير قوله جل وعلا: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾[(١)]: "أي لا تتركنَّ، ودٌّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر أسماء أصنام كانوا يعبدونها، وقالوا: لا نترك آلهتنا التي عبدناها نحن وآباؤنا من قبل، ولا عجب فقد أضلت الأصنام خلقا كثيرا. . .

وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ "أي وقال بعضهم لبعض: لا تتركوا عبادة آلهتكم وتعبدوا رب نوح، ولا سيما هذه الأصنام التي هي أكبر المعبودات وأعظمها.

وقد انتقلت هذه الأصنام إلى العرب فيما بعد، أخرج البخاري وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال: "صارت هذه الأوثان في العرب بعد فكان ودّ لكلب، وسواع لهذيل، ويغوث لغطيف بالجرف عند سبأ، ويعوق لهمدان، ونسر لحمير آل ذي الكلاع"[(٢)].

وهناك أصنام أخرى لأقوام آخرين: اللات لثقيف بالطائف، والعزَّى لسليم وغطفان وجشم، ومناة لخزاعة بقديد، وإساف لأهل مكة، ونائلة -هبل- وهو أكبر الأصنام وأعظمها عندهم، ومن ثم كان يوضع فوق الكعبة[(٣)]، وليس المراد أن أعيان هذه الأصنام صارت إليهم، بل المراد أنهم أخذوا هذه الأسماء وسموا بها أصنامهم.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾[(٤)]: "أي وقد ضلَّ بعبادة هذه الأصنام التي استحدثت على صور هؤلاء النفر، كثير من الناس، فقد استمرت عبادتها قرونا كثيرة كما قال الخليل عليه الصلاة والسلام في دعائه: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[(٥)]"[(٦)].

والمراغي رحمه الله تطرق إلى هذا الموضوع في تفسيره فقال بعد أن ذكر حال المؤمنين عند الخوف، وأنهم يفوضون أمرهم إلى الله، أعقبه بالكلام عن المشركين فقال: "أما عابدو الأوثان والأصنام فهم في خوف مما يستقبلهم، وحزن مما ينزل بهم، فإذا أصابتهم مصيبة بما قدمت

(١) سورة نوح الآية: (٢٣).

(٢) سبق تخريجه ص(١٢٥).

(٣) انظر: الأصنام لابن الكلبي ص(٢)، وتفسير ابن جرير(٢٣/٦٣٩).

(٤) سورة نوح الآية: (٢٤).

(٥) سورة إبراهيم الآية: (٣٦).

(٦) تفسير المراغي(١٠/٢١٣-٢١٤)

أيديهم داخلهم الهلع، ولم يستطيعوا صبرا على البأساء، وهم يستخذون للدجَّالين والمشعوذين، ويعتقدون بسلطة غيبية لكل من يعمل عملا لا يهتدون إلى معرفة سببه"[(١)].

وقال في تعريف بعض ما كان المشركون يعبدونه: "والأنصاب: حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها، وروي أنهم كانوا يعبدونها ويتقربون إليها"[(٢)].

وقال بعد أن ذكر قصة قوم موسى وعبادتهم للعجل: "فاستبطئوه واتخذوا عجلا من ذهب، له خوار فعبدوه، وظلموا أنفسهم بإشراكهم ووضعهم للشيء في غير موضعه، بعبادة العجل بدل عبادة خالقهم وخالقه"[(٣)].

وقال رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[(٤)]: "أي ولم يكن إبراهيم ممن يشرك بالله سواه من وثن أو صنم، وفي هذا تعريض بأهل الكتاب وبيان بطلان دعواهم اتباع إبراهيم مع إشراكهم، لقولهم عزير ابن الله، والمسيح ابن الله. . .

﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْ﴾[(٥)] "أي فإن آمنوا الإيمان الصحيح بالله، وبما أنزل على النبيين والمرسلين، كما نؤمن به نحن، وتركوا ما هم عليه من ادِّعاء حلول الله في بعض البشر، وكون رسولهم إلها أو ابن إله، فقد اهتدوا إلى الحق وأصابوه كما اهتديتم، ذاك أنه قد طرأ على إيمانهم بالله نزعات الوثنية، وأضاعوا لُبَاب ما أنزل على الأنبياء، وهو الإخلاص والتوحيد وتزكية النفس، وتمسكوا برسوم العبادات، ونقصوا منها وزادوا عليها مما بعُدوا به عن مقاصد الأديان، من حيث يدعون العمل بها كاملة غير منقوصة"[(٦)].

وقرر رحمه الله الفطرة التي فطر الانسان عليها، لكن هذه الفطرة قد تتغير بسبب الوثنيات الحاصلة في الأمة، فقال عند قوله تعالى: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾[(٧)].

(١) المصدر السابق(١/١٦٤).
(٢) المصدر السابق(٣/١٧).
(٣) تفسير المراغي (١/١٠٣).
(٤) سورة البقرة الآية: (١٣٥).
(٥) سورة البقرة الآية: (١٣٧).
(٦) تفسير المراغي(١/١٨٧-١٨٨).
(٧) سورة البقرة الآية: (١٣٨).

"قوله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ أي صبغنا الله وفطرنا على الاستعداد للحق والإيمان بما جاء به الأنبياء والمرسلون، ولا نتبع آراء الرؤساء وأهواء الزعماء وتقاليدهم الوضعية، وهو زينتنا التي بها نتحلى كما يتحلى الثوب بالصبغ.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾أي لا أحد تكون صبغته أحسن من صبغة الله، فإنه هو الذي يصبغ عباده بالإيمان، ويطهرهم به من أدران الكفر، وينجيهم من الشرك، فهي جماع كل خير وبها تتآلف القلوب والشعوب، وتزكو النفوس أما ما أضافه الأحبار والرهبان من أهل الكتاب إلى الدين، فهو من الصبغة البشرية، والصبغة الإنسانية، التي تجعل الدين الواحد مذاهب متفرّقة، والأمة شيعا متنافرة.

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ ولا نعبد سواه، فلا نتخذ الأحبار والرهبان أربابا يزيدون في ديننا وينقصون، ويحلون ويحرِّمون، ويمحون من نفوسنا صبغة التوحيد ويثبتون مكانها صبغة البشر التي تفضي إلى الإشراك بالله واتخاذ الأنداد له.

وفي الآية إيماء إلى أن الإسلام لم يشرع أعمالا خاصة يتميز بها المسلم من سواه، كما شرع النصارى المعمودية، بل المعوَّل عليه ما صبغ الله به الفطرة السليمة من الإخلاص وحبِّ الخير والاعتدال، كما قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(١)]"[(٢)].

ووضح رحمه الله أنواع الشرك عند قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾[(٣)] أي وإلهكم الحقيق بالعبادة إله واحد، فلا تشركوا به أحدا، والشرك به ضربان:

(١) شرك في الألوهية والعبادة، بأن يعتقد المرء أن في الخلق من يشارك الله أو يعينه في أفعاله، أو يحمله على بعضها ويصدُّه عن بعض، فيتوجه إليه في الدعاء عند ما يتوجه إلى الله، ويدعوه معه، أو يدعوه من دون الله، ليكشف عنه ضرا أو يجلب له نفعا.

(٢) شرك به في الربوبية، بأن يسند الخلق والتدبير إلى غيره معه، أو أخذ أحكام الدين من عبادة وتحليل وتحريم من غير كتبه ووحيه الذي بلَّغه عنه الرسل، استنادا إلى أن من يؤخذ

---

(١) سورة الروم الآية: (٣٠).

(٢) تفسير المراغي(١/ ١٨٨-١٨٩).

(٣) سورة البقرة الآية: (١٦٣).

عنهم الدين، هم أعلم بمراد الله، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[١]. . .

والله هو الرَّحمن الرَّحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، فحسب المرء أن يرجوها ولا يعتمد على رحمة سواه، ممن يظن أنهم مقربون إليه، إذ كل ما يعتمد عليه من دونه فليس أهلا للاعتماد عليه، بل الاعتماد عليه من قبيل الشرك.

والإله الذي بيده أزمَّة المنافع، والقادر على دفع المضارِّ، واحد لا سلطان لأحد على إرادته، ولا مبدل لكلماته، ولا أوسع من رحمته.

وإنما ذكر الوحدة والرحمة دون غيرهما من صفاته، لأن الوحدة تذكر أولئك الكافرين الكاتمين للحق، بأنهم لا يجدون ملجأ غير الله يقيهم عقوبته ولعنته، والرحمة بعدها ترغبهم في التوبة وتحول بينهم وبين اليأس من فضله، بعد أن اتخذوا الوسطاء والشفعاء عنده"[٢].

وذكر رحمه الله المشركين الذين لا يعقلون الدلائل الدالة على وحدانية الله جل وعلا فاتخذوا الأنداد مع الله، فقال عند قول الحق سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾[٣]: "الأنداد واحدها ندٌّ، وهو المماثل.

وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ أي: ومن الناس من يتخذ من دون ذلك الإله الواحد الذي ذكرت أوصافه الجليلة أندادا وأمثالا، وهم رؤساؤهم الذين يتبعونهم فيما يأتون وما يذرون، يحبونهم كحب الله، ويسوُّون بينه تعالى وبينهم في الطاعة والتعظيم، ويتقربون إليهم كما يتقربون إليه، إذ هم لا يرجون من الله شيئا إلا وقد جعلوا لأندادهم ضربا من التوسط الغيبي فيه، فهم مشركون بهذا الحب الذي لا يصدر من مؤمن موحِّد.

(١) سورة التوبة الآية: (٣١).

(٢) تفسير المراغي(١/٢١٥-٢١٦).

(٣) سورة البقرة الآية: (١٦٥).

وللمشرك أنداد متعددون، وأرباب متفرقون، فإذا حزبه أمر، أو نزل به ضرٌّ لجأ إلى بشر أو صخر، أو توسل بحيوان أو قبر؟ أو استشفع بزيد أو عمرو، لا يدري أيهم يسمع ويسمع، ويشفع فيشفَّع، فهو دائما مبلبل البال، لا يستقر من القلق على حال.

وقد عظمت فتنة متخذي الأنداد بهم، حتى كان حبهم إياهم من نوع حبهم لله، إذ إنهم لا يرجون منه شيئا إلا وقد جعلوا لأندادهم مثله، فهم يلتجئون إليهم عند الحاجة كما يلتجئون إلى الخالق سبحانه.

وليس من اتخاذ الأنداد طلب المسببات من أسبابها، وقد تخفى علينا أحيانا ويعمى علينا طريق معرفتها، فعلينا بإرشاد الدين والفطرة أن نلجأ إلى الله، لعله برحمته يلهمنا إلى طريقها، مع بذل الجهد والطاقة في العمل بما نستطيع من الأسباب، حتى لا يبقى في الإمكان شيء بعد ذلك، فالدين يحظر علينا أن ننفر إلى الحرب والدفاع عن الأوطان ونحن عزل، أو حاملو سلاح دون سلاح العدو المعتدي اتكالا على الله، واعتمادا على أن النصر بيده، بل يأمرنا بإعداد العُدّة، ثم الاتكال بعد ذلك في الهجوم والإقدام على عناية الله، فمن قصر في اتخاذ الأسباب اعتمادا على الله فهو جاهل بالله، كما أن من التجأ إلى ما ليس بسبب كإنسان مكرَّم أو ملك مقرَّب، أو ما دون ذلك كصنم أو تمثال فهو مشرك بالله، ولا يرغب عن الأسباب إلى التعلق بالأنداد والشفعاء إلا من كان قليل الثقة بالسبب، أو طالبا ما هو أعجل منه، كالمريض يعالجه الأطباء فيتراءى لأحد أقاربه أن يلجأ إلى من يعتقد تأثيرهم في السلطة الغيبية طلبا للتعجيل بالشفاء.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ﴾ من كل ما سواه، إذ حبُّهم له خاص به لا يشركون فيه غيره، إذ هم يعتقدون أن ملكوت السموات والأرض بيده، وهو الذي له القدرة والسلطان على جميع الأكوان، فما ينالهم من خير كسبي فهو بهدايته وتوفيقه، وما يجيئهم بغير حساب فهو بعنايته وفضله، وما تعذر عليهم من الأمور يفوضونه إليه، ولا يعوِّلون إلا عليه.

ثم ذكر بعد هذا وعيد متخذِي الأنداد فقال: ﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي ولو يشاهد الذين ظلموا أنفسهم بتدنيسها بالشرك، وظلم الناس وغشهم، بحملهم على أن يحذو حذوهم، ويتخذوا الأنداد مثلهم، حين يرون العذاب في الآخرة، فتقطع بهم الأسباب، ولا تغني عنهم الأنداد والأرباب، أن القوة لله وحده، بها يتصرف

في كل موجود، لعلموا أن هذه القوة التي تدبر عالم الآخرة هي عين القوة التي تدبر عالم الدنيا، وأنهم كانوا ضالين حين لجأوا إلى سواها، وأشركوا معها غيرها، وكان ذلك منشأ عقابهم وعذابهم.

وأمثال هذا العذاب على من يشوب إيمانه بأدنى شائبة من الشرك كثير في القرآن والسنة الصحيحة، وعليه جرى السلف الصالح، وهو حجة على من يعمل بأقوال أناس من الموتى ممن لا يعرف له تاريخ يوثق به، ولا رواية يصح الاعتماد عليها، مع تركهم لكلام الله ورسوله وكلام أئمة السلف. . .

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ﴾(١) أي وقال التابعون: ليت لنا رجعة إلى الدنيا فنتبع سبيل الحق، ونأخذ بالتوحيد الخالص، ونهتديَ بكتاب الله وسنة رسوله ثم نعود إلى موضع الحساب، فنتبرأ من هؤلاء الضالين كما تبرؤوا منا، ونسعد بعملنا حيث هم أشقياء بأعمالهم.

﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾(٢) إلى الدنيا وهم على صحة العقيدة وصلاح الأعمال، فيشفوا غيظهم من رؤسائهم وأندادهم، ولا إلى الجنة؛ لأن سبب دخولهم هو ما طبعوا عليه من خرافات الشرك وحب الأنداد"(٣).

وذكر رحمه الله أن من القول على الله بلا علم جعل الوسطاء بين الله وبين خلقه، فقرر عند قول الله جل وعلا: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾(٤) "أي ويأمركم أن تقولوا على الله في دينه ما لا تعلمون علم اليقين أنه شرعه لكم من عقائد وشعائر دينية، أو تحليل ما الأصل فيه التحريم، أو تحريم ما الأصل فيه الإباحة، ففي كل ذلك اعتداء على حق الربوبية بالتشريع، وهذا أقبح ما يأمر به الشيطان، فإنه الأصل في إفساد العقائد، وتحريف الشرائع.

ومن هذا زعم الرؤساء أن لله وسطاء بينه وبين خلقه، لا يفعل شيئا إلا بوساطتهم، فحولوا قلوب عباده عنه وعن سننه في خلقه، ووجهوها إلى قبور لا تعد ولا تحصى، وإلى عبيد

(١) سورة البقرة الآية: (١٦٧).

(٢) سورة البقرة الآية: (١٦٧).

(٣) تفسير المراغي(١/ ٢١٩-٢٢٢).

(٤) سورة البقرة الآية: (١٦٩).

ضعفاء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ويسمون مثل هذا توسلا: أي تقربا إلى الله، وحاشى أن يتقبّل التقرب إليه بالشرك به، ودعاء غيره معه، وهو يقول: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾[1]"[2].

وذكر رحمه الله الكفر بالطاغوت، وأنه كل ما عُبِد من دون الله فقال عند قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[3]: "والطاغوت: من الطغيان، وهو مجاوزة الحد المشروع، وهو يشمل كل من أطاعوه في معصية الله تعالى"[4].

وقال: "أي فمن يكفر بما تكون عبادته والإيمان به سببا في الطغيان والخروج عن الحق من عبادة مخلوق، إنسانا كان أو شيطانا أو وثنا أو صنما، أو تقليد رئيس، أو طاعة هوى، ويؤمن بالله فلا يعبد إلا إياه، ولا يرجو شيئا من أحد سواه، ويعترف بأن له رسلا أرسلهم للناس مبشرين ومنذرين بأوامره ونواهيه التي فيها مصلحة للناس كافة، فقد تحرى باعتقاده وعمله أن يكون ممسكا بأوثق عرا النجاة، وأمتن وسائل الحق، وإنما يكون ذلك بالاستقامة على الطريق القويم الذي لا يضل سالكه، فمثله مثل الممسك بعروة الحبل المحكم المأمون الانقطاع لدى حمل جسم كبير ثقيل"[5].

وأوضح بعد قول الله سبحانه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[6]: فقال: "دعاهم هنا إلى أمر آخر هو أصل الدين وروحه الذي اتفقت عليه دعوة الأنبياء جميعا، وهو سواء وعدل بين الفريقين لا يرجح فيه طرف على طرف، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، فلما أعرضوا أمر بأن يقول لهم: اشهدوا بأنا مسلمون. . .

---

(١) سورة الجن الآية: (١٨).

(٢) تفسير المراغي(٢٢٤/١).

(٣) سورة البقرة الآية: (٢٦٥).

(٤) تفسير المراغي(٤٥٩/٢).

(٥) المصدر السابق (٣٨٧/١).

(٦) سورة آل عمران الآية: (٦٤).

ثم بين هذه الكلمة فقال: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: ألا نخضع إلا لإله له السلطة المطلقة في التشريع، وله التحليل والتحريم، ولا نشرك به شيئا سواه، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله.

وقد حوت هذه الآية وحدانية الألوهية في قوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، ووحدانية الربوبية في قوله: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وهذا القدر متفق عليه في جميع الأديان، فقد جاء إبراهيم بالتوحيد، وجاء به موسى، فقد ورد في التوراة قول الله له: (إن الربَّ إلهك، لا يكن لك آلهة أخرى أمامي، لا تصنع لك تمثالا منحوتا، ولا صورة ما مما في السماء من فوق، ومما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض، لا تسجد لهنَّ ولا تعبدهنَّ)، وكذلك جاء عيسى بمثل هذا، ففي إنجيل يوحنا: (وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته)، وجاء خاتم النبيين محمد ﷺ بمثل هذا: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾(١).

وخلاصة المعنى: أنا وأنتم نعتقد أن العالم من صنع إله واحد هو خالقه والمدبر له، وهو الذي يرسل إلينا أنبياءه ليبلغونا عنه ما يرضيه من العمل وما لا يرضيه، فهلمَّ بنا نتفق على إقامة هذه الأصول، ونرفض الشبهات التي تعرض لها، فإذا جاءكم عن المسيح شيء فيه (ابن لله) أوَّلناه على وجه لا يخالف الأصل الذي اتفق عليه الأنبياء، لأننا لا نجد المسيح فسر هذا القول بأنه إله يعبد، ولا دعا إلى عبادته وعبادة أمه، بل كان يدعو إلى عبادة الله وحده والإخلاص له.

وقد كان اليهود موحدين، ولكن كان منبع شقوتهم اتباعهم لرؤساء الدين فيما يقررون من الأحكام، وجعله بمنزلة الأحكام المنزلة من عند الله، وسار النصارى على هذا المنوال، وزادوا مسألة غفران الخطايا، وهي مسألة كان لها أثر خطير في المجتمع المسيحي حتى بلغ من أمرها أن ابتلعت الكنائس أكثر أموال الناس، فقامت طائفة جديدة تطلب الإصلاح وهي فرقة (البروتستانت) وقالت: دعونا من هؤلاء الأرباب، وخذوا الدين من الكتاب، ولا تشركوا معه شيئا سواه من قول فلان وفلان.

---

(١) سورة البقرة الآية: (٢٥٥).

روي عن عدي بن حاتم أنه قال: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: «**يا عديّ اطرح عنك هذا الوثن**»، وسمعته يقرأ في سورة براءة: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[1]، فقلت له: يا رسول الله! لم يكونوا يعبدونهم، فقال: «**أما كانوا يحللون لكم ويحرّمون، فتأخذون بأقوالهم؟** » قال نعم، فقال الطّيّلاِ: «**هو ذاك**» [2].

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ أي أيها اليهود والنصارى: لم تتنازعون وتتجادلون في إبراهيم ويدّعى كل منكم أنه على دينه؟ ، -وقد كان إبراهيم موضع إجلال الفريقين، لما في كتبهم من الثناء عليه في العهد العتيق والعهد الجديد، كما كانت قريش تجلُّه وتدَّعي أنها على دينه- وهو لم يكن على شيء من تقاليدكم، بل كان على الإسلام الذي يدعو إليه محمد ﷺ، وإلى هذا أشار بقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي وما أنزلت التوراة على موسى، ولا الإنجيل على عيسى إلا من بعد إبراهيم بأحقاب طوال، وقد قالوا: إن بين إبراهيم وموسى سبعمائة سنة، وبين موسى وعيسى حوالي ألف سنة، أفلا تعقلون أن المتقدم على الشيء لا يمكن أن يكون تابعا له؟.

وخلاصة ذلك: أنه إذا كان الدين الحق لا يعدو التوراة كما يقول اليهود، ولا يتجاوز الإنجيل كما يقول النصارى، فكيف كان إبراهيم على الحق، واستوجب ثناءكم وثناء من قبلكم، والتوراة والإنجيل خلو من الإخبار بيهوديته ونصرانيته اللتين زعمتموها؟ أليس عندكم عقل يردكم عن مثل هذه الدعوى؟ ويربأ بكم أن تقولوا ما لا سند له من كتاب ولا دليل عليه؟. . .

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[3] الذين يسمون أنفسهم الحنفاء ويدَّعون أنهم على ملة إبراهيم، وهم قريش ومن سار على نهجهم من العرب.

وصفوة القول: إن إبراهيم الذي اتفق اليهود والنصارى والمشركون على إجلاله وتعظيمه، لم يكن على ملة أحد منهم، بل كان مائلا عما هم عليه من الوثنية، مسلما لله، مخلصا له.

---

(١) سورة التوبة الآية: (٣١).

(٢) سبق تخريجه ص(١٧).

(٣) سورة آل عمران الآية: (٦٧).

ثم أكد ما سلف بقوله: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾[(١)]: معه أي إن أحق الناس بإبراهيم ونصرته وولايته، هم الذين سلكوا طريقه ومنهاجه في عصره فوحدوا الله مخلصين له الدين، وكانوا حنفاء مسلمين غير مشركين، وهذا النبي محمد ﷺ والذين آمنوا معه، فإنهم أهل التوحيد الذي لا يشوبه اتخاذ الأولياء ولا التوسل بالشفعاء، المخلصون لله في أعمالهم دون شرك ولا رياء، وهذا هو روح الإسلام والمقصود من الإيمان، ومن فاته ذلك فقد فاته الدين كله"[(٢)].

وذكر المراغي رحمه الله أن سبب الاضطراب والخوف هو البعد عن الله والإشراك به، فقال عند قول المولى سبحانه: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾[(٣)]: "ويلقي في قلوبهم الرعب بسبب إشراكهم بالله أصناما ومعبودات لم يقم برهان من عقل ولا نقل على ما زعموا من ألوهيتها، وكونها واسطة بين الله وخلقه، وإنما قلدوا في ذلك آباءهم الذين ضلوا من قبل، ومن ثم كانوا عرضة لاضطراب القلب، واتباع خطوات الوهم، فهم يعدُّون الوساوس أسبابا، والهواجس مؤثرات وعللا، ويرجون الخير مما لا يرجى منه الخير، ويخافون مما لا يخاف منه الضَّير.

وفى الآية إيماء إلى بطلان الشرك، وسوء أثره في النفوس، إذ طبيعته تورث القلوب الرعب، باعتقاد أن لبعض المخلوقات تأثيرا غيبيا وراء السنن الإلهية، والأسباب العادية، فالمشركون الذين جاهدوا الحق، وآثروا مقارعة الداعي ومن استجاب له بالسيف، بغيا وعدوانا، يرتابون فيما هم فيه ويتزلزلون إذا شاهدوا الذين دعوهم ثابتين مطمئنين، ولا يزال ارتيابهم يزيد حتى تمتلئ قلوبهم رعبا.

والخلاصة: إن طبيعة المشركين إذا قاوموكم أيها المؤمنون، أن تكون نفوسهم مضطربة، وقلوبهم ممتلئة رعبا وهلعا منكم فلا تخافوهم، ولا تبالوا بقول من يدعوكم إلى موالاتهم والالتجاء إليهم"[(٤)].

---

(١) سورة آل عمران الآية: (٦٨).

(٢) تفسير المراغي(١/٥١٩-٥٢٣).

(٣) تفسير آل عمران الآية: (١٥١).

(٤) تفسير المراغي: (٢/٨٠).

وذكر عند قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾[١] قال: "الجبت: أصله الجبس، وهو الرديء الذي لا خير فيه، ويراد به هنا الأوهام والخرافات والدَّجل، والطاغوت ما تكون عبادته والإيمان به سببا للطغيان والخروج من الحق، من مخلوق يعبد، ورئيس يقلَّد، وهوى يتَّبع. . .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ أي ألم تنظر إلى حال هؤلاء الذين أوتوا نصيبا من الكتاب، كيف حرموا هدايته وهداية العقل والفطرة، وآمنوا بالدجل والخرافات، وصدقوا بالأصنام والأوثان، ونصروا أهلها من المشركين على المؤمنين المصدقين بنبوة أنبيائهم والمعترفين بحقية كتبهم؟ "[٢].

وذكر رحمه الله تلاعب الشيطان بالمشركين عبدة الأوثان والأصنام فقال بعد قوله سبحانه: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا ﴾[٣] فقال: "أي هؤلاء المشركون لا يدعون لقضاء حاجتهم وتفريج كربهم إلا أمواتا، فقد كانوا يعظمون الموتى ويدعونها كما يفعل ذلك كثير من أهل الكتاب ومسلمي هذه القرون، أو إلا إناثا كاللات والعزَّى، وقد كان لكل قبيلة صنم يسمونه أنثى بني فلان.

﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾[٤] أي وما يعبدون بعبادتها إلا شيطانا مريدا، إذ هو الذي أمرهم بعبادتها وأغراهم بها، فكانت طاعتهم له عبادة.

﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾[٥] أي أبعده الله عن رحمته وفضله، فإنه داعية الشر والباطل في نفس الإنسان بما يوسوس في صدره ويعده ويمنِّيه.

﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾: النصيب المفروض هو ما للشيطان في نفس كل أحد من الاستعداد للشر، إذ ما من إنسان إلا يشعر من نفسه بوسوسة الشيطان، فإن لم يكن بالشرك فبالمعصية، والإصرار عليها أو الرياء في العبادة، لكن الله أخبر أنه ليس له سلطان على عباده المخلصين، وقد جاء في القرآن والحديث ما يدل على هذا.

---

(١) سورة النساء الآية: (٥١).

(٢) تفسير المراغي(٢/٢٣٥-٢٣٦).

(٣) سورة النساء الآية: (١١٧).

(٤) سورة النساء الآية: (١١٧).

(٥) سورة النساء الآية: (١١٨).

والخلاصة: إن الشيطان خلق متمردا على الحق، بعيدا من الخير، مُغرًى بإغواء البشر وإضلالهم.

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾[١]: إضلال الشيطان لمن يضلهم هو صرفهم عن العقائد الصحيحة، وشغلهم عن الدلائل الموصلة إلى الحق والهدى، وتمنيته لهم: تزيينه لهم الاستعجال باللذات الحاضرة، والتسويف بالتوبة والعمل الصالح.

والخلاصة: إن من شأن الشيطان ومقتضى طبعه إضلال العباد وشغلهم بالأماني الباطلة، كرحمة الله للمجرمين بغير توبة، والخروج من النار بعد دخولها بالشفاعة، وتزيين لذَّات الحياة العاجلة على ثواب الآجلة ونعيمها.

﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾[٢]: أي ولآمرنَّهم بالضلال فليقطِّعُنَّ آذان الأنعام بموجب أمري، والمراد به ما كانوا يفعلونه من قطع آذان بعض الأنعام لأصنامهم كالبحائر[٣] التي كانوا يقطعون آذانها أو يشقونها شقا واسعا ويتركون الحمل عليها، وهذا من سخيف أعمالهم الوثنية الدالة على ضعف عقولهم"[٤].

وقرر وجوب توجه القلب إلى الله جل وعلا والبعد عن الشرك ووسائله فقال بعد قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾[٥]: "أي لا أحد أحسن ممن جعل قلبه خالصا لله وحده، فلا يتوجه إلى غيره في دعاء ولا رجاء، ولا يجعل بينه وبينه حجابا من الوسطاء والشفعاء، ولا يرى في الوجود إلا هو، ويعتقد أنه سبحانه ربط الأسباب بالمسببات، فلا يطلب شيئا إلا من خزائن رحمته، ولا يأتي بيوت هذه الخزائن إلا من مسالكها، وهي السنن والأسباب التي سنها في الخليقة، وهو مع هذا الإيمان الكامل والتوحيد الخالص، محسن للعمل متحلٍّ بأحسن الأخلاق والفضائل.

---

(١) سورة النساء الآية: (١١٩).

(٢) سورة النساء الآية: (١١٩).

(٣) البحائر جمع بحيرة: وهي الناقة إذا انتجت خمسة أبطن، والخامس ذكر نَحَرُوه فأكلَه الرجال والنسا،. وإن كان الخامس أنثى بَحروا أذنها أي: شَقُّوها، وكانت حراما على النساء لحمها ولبنها فإذا ماتت حلّت للنساء. غريب القرآن لابن قتيبة(١/١٤٧).

(٤) تفسير المراغي(٢/٣١٦-٣١٧).

(٥) سورة النساء الآية: (١٢٥).

وقد عبر عن توجه القلب بإسلام الوجه، لأن الوجه أعظم مظهر لما في النفس من إقبال وإعراض، وسرور وكآبة، وما فيه هو الذي يدل على ما في السريرة.

﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾[١]: أي واتبع إبراهيم في حنيفيته التي كان عليها، بميله عن الوثنية وأهلها، وتبريه مما كان عليه أبوه وقومه منها، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾[٢]".

وقال رحمه الله عند قوله ﷻ: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[٣] قال: "البحيرة: الناقة التي يبحرون أذنها أي يشقونها شقا واسعا، وكانوا يفعلون بها ذلك إذا نتجت خمسة أبطن وكان الخامس أنثى، كما روي عن ابن عباس[٤].

والسائبة: الناقة التي تسيَّب بنذرها لآلهتهم فترعى حيث شاءت، ولا يحمل عليها شيء، ولا يجزُّ صوفها ولا يحلب لبنها إلا لضيف.

والوصيلة: الشاة التي تصل أخاها، فقد كانوا إذا ولدت الشاة ذكرا كان لآلهتهم، وإذا ولدت أنثى كانت لهم، وإن ولدت ذكرا وأنثى قالوا وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم.

والحام: الفحل يولد من ظهره عشرة أبطن، فيقولون حمى ظهره فلا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ أي ما بحر الله بحيرة، ولا سيَّب سائمة، ولا وصل وصيلة، ولا حمى حاميا، أي ما شرع ذلك ولا أمر به، وما جعله دينا لهم، وهذا رد وإبطال لما كان يفعله أهل الجاهلية في جاهليتهم.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ إذ يفعلون ما يفعلون ويزعمون أن الله يأمرهم بهذا، وأول من سنَّ لأهل الشرك تلك السنن الرديئة، وغيَّر دين الله دين الحق، وأضاف إليه أنه هو الذي حرم ما حرموا، وأحل ما أحلوا افتراء على الله الكذب واختلاقا عليه، وهو عمرو بن لحيٍّ

---

(١) سورة النساء الآية: (١٢٥).

(٢) سورة الزُّخرُف الآية: (٢٨).

(٣) سورة المائدة الآية: (١٠٣).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره(٤/١٢٢٠).

الخزاعي[١]، فهو الذي غيَّر دين إبراهيم وبحر البحيرة وسيب السائبة وحمى الحام؛ أخرج ابن جرير عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجون[٢] «**يا أكثم عرضت عليّ النار، فرأيت فيها عمرو بن لحيّ ابن قمعة بن حنذف يجرُّ قصبه** (القصب: المعي وجمعه الأقصاب) **في النار، فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به ولا به منك**»، فقال أكثم أخشى أن يضرني شبهه يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «**لا، إنك مؤمن وهو كافر، إنه أول من غيَّر دين إسماعيل وبحر البحيرة وسيب السائبة وحمى الحام**»[٣].

﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أنهم يفترون على الله الكذب بتحريم ما حرموا على أنفسهم، وأن ذلك من أعمال الكفر، بل يظنون أنهم يتقربون به إليه ولو بالوساطة؛ لأن آلهتهم التي يسيبون باسمها السوائب، ويتركون لها ما حرموه على أنفسهم، ليست إلا وسطاء بينهم وبين الله بزعمهم، تشفع لهم عنده وتقربهم إليه زلفى.

والعبرة من هذا أن كل مبتدع في الدين بتحريم طعام أو غيره، وتسييب عِجْل لسيد البدوي أو سواه، وسنِّ ورد أو حزبٍ يضاهي به المشروع من شعائر الدين، ونحو ذلك من العبادات التي لم تؤثر عن الشارع، زاعما أنه جاء بما يتقرب به لله تعالى، وينال به رضاه، فقد ضاهى بعمله عمل عمرو بن لحيٍّ، لأن الله لا يعبد إلا بما شرعه على لسان رسوله ﷺ، فلا عبادة ولا تحريم إلا بنص، وليس لأحد أن يزيد أو ينقص برأي ولا قياس.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾[٤] "أي وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله في القرآن من الأحكام المؤيدة بالحجج والبراهين، وإلى الرسول المبلغ لها والمبين لمجملها فاتبعوه فيها، أجابوا من يدعوهم إلى ذلك: حسبُنا ما وجدنا آباءنا

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير(١٨٧/٢)، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ص(٥/٨)

(٢) هو: أكثم بن الجون أو ابن أبي الجون، وقيل أبو معبد، واسمه عبد العزى بن منقذ بن ربيعة بن أصرم بن ضبيس بن حرام بن حبشية بن كعب بن عمرو بن ربيعة الخزاعي. انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر(٤٤/١)، والاصابة في تمييز الصحابة(١٠٦/١).

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره(١١/ ١١٨)، وأصله في الصحيحين أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب: {ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام}، (١١/ ٢٤٥)، رقم الحديث(٤٦٢٣)، ومسلم، كتاب صفة الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، (١٥٥/٨)، رقم الحديث(٢٨٥٦).

(٤) سورة المائدة الآية: (١٠٤).

يعملون به، ونحن لهم تبع وهم لنا أئمة وقادة، فرد الله عليهم قولهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾(١) أي أيكفيهم ذلك، ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا من الشرائع ولا يهتدون سبيلا إلى المصالح، سواء أكانت دينية أم دنيوية، ولا يعرف ما يكفي الأفراد والأمم إلا بالعلم الصحيح الذي يميز به بين الحق والباطل، فأولئك قوم أميون يتخبطون في ظلمات من الوثنية وخرافات من معتقدات الجاهلية"(٢).

وذكر المراغي رحمه الله وَثَنِيّة التثليث عند النصارى، وأنه منقولة إليهم من الديانات الوثنية القديمة، فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾(٣) فقال: "ولا تقولوا: الآلهة ثلاثة: الأب والابن وروح القدس، أو الله ثلاثة أقانيم كل منها عين الآخر، وكل منها إله كامل، ومجموعها إله واحد، فإن في هذا تركا للتوحيد الذي هو ملة إبراهيم وسائر الأنبياء، واتباعا لعقيدة الوثنيين، والجمع بين التثليث والتوحيد تناقض تحيله العقول، ولا يقبله أولو الألباب.

﴿ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ أي انتهوا عنه وقولوا قولا آخر خيرا لكم منه، وهو قول جميع النبيين والمرسلين الذين جاءوا بتوحيد الله وتنزيهه، فإن المسيح الذي سميتموه إلها يقول كما في إنجيل يوحنا: (وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته). . .

ثم قال المراغي: عقيدة التثليث؛ منشؤها:

اعلم أن عقيدة التثليث وثنية نقلها الوثنيون المتنصرون إلى النصرانية، واعتمدوا فيها على بعض ألفاظ في الكتب اليهودية جعلوها تكأة لهم على ما أرادوا، وحرَّفوا فيها وأوَّلوا، لتفيد ما ادَّعوا، وبذا هدموا آيات التوحيد، والخلاصة: إن الديانة النصرانية بنيت على أساس التوحيد الخالص، فحوَّلها الكهنة إلى ديانة وثنية تقول بتثليث غير معقول، أخذوه من تثليث اليونان

(١) سورة المائدة الآية: (١٠٤).

(٢) تفسير المراغي(٣/٣٥-٣٧).

(٣) سورة النساء الآية: (١٧١).

والرومان المقتبس من تثليث المصريين والبراهمة[(١)] اقتباسا مشوَّها، ونسخوا شريعة سماوية برمَّتها، واستبدلوا بها بدعا وتقاليد غريبة عنها، فقد كانت ديانة زهد وتواضع، فجعلوها ديانة طمع وجشع وكبرياء وترف وأثرة واستعباد للبشر، ديانة نسبوها إلى المسيح وليس عندهم نص فيها يدل على التثليث، بل عندهم نصوص من كلامه تدل على التوحيد وإبطال التثليث، ولو لم يكن عندهم من النصوص في هذه العقيدة إلا ما رواه يوحنا في إنجيله لكفى من قوله عليه السلام: (وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته)، فهذا نص واضح في أنه هو الإله وحده وأنه هو رسوله.

و قال مرقص في الفصل الثاني عشر من إنجيله: (إن أحد الكتبة سأل يسوع عن أول الوصايا فأجابه، أول الوصايا: اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا رب واحد) إلخ، فقال له الكاتب: (جيدا) يا معلِّم بالحق قلت، لأنه واحد وليس آخر سواه، فلما رأى يسوع أنه أجاب بعقل قال له: (لست بعيدا عن ملكوت السموات)، ومن هذا النص يعلم أن التوحيد الخالص هو العقيدة المعقولة التي تؤخذ على ظاهرها بلا تأويل"[(٢)].

وذكر المراغي رحمه الله ما فطر الله الخلق عليه من معرفة الله وتوحيده، وأنه هو الأصل وأن الشرك عارض عند تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾[(٣)]، فقال: "أمر -أي الله- نبيَّه أن يوجه إليهم هذا السؤال مذكِّرا لهم بما أودع في فطرتهم من توحيده عز اسمه، ليعلموا أن ما تقلدوه من الشرك عارض شاغل يفسد أذهانهم وقت الرخاء، وارتفاع اللأواء، حتى إذا جدَّ الجِدُّ ونزل بهم ما لا يطاق حمله من الشدائد: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[(٤)]، وضلَّ عنهم ما كانوا يعبدون من الأصنام والأوثان، وما وضعوا رمزا له من ملك أو إنسان.

---

(١) هم قوم من الهند ينتسبون إلى رجل منهم يقال له براهم وقيل برهمي قيل هو ملك من ملوكهم، أنكروا النبوات أصلا وقرروا استحالة ذلك في العقول، انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم(٦٣/١)، والملل والنحل للشهرستاني(٩٥/٣)،

(٢) تفسير المراغي(٣٦٥/٢-٣٦٨).

(٣) سورة الأنعام الآية: (٤١).

(٤) سورة يونس الآية: (٢٢).

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين المكذبين العادلين بالله الأوثان والأصنام، أخبروني إن أتاكم عذاب الله كالذي نزل بمن قبلكم من الأمم الذين كذبوا بالرسل، فقد هلك بعضهم بريح صرصر عاتية، وبعض آخر بالصاعقة، أو بمياه الطوفان المغرقة، أو جاءتكم الساعة بأهوالها وخزيها ونكالها، وبعثتم لموقف الحساب، أغير الله في هذه الأحوال تدعون لكشف ما نزل بكم من البلاء، أم إلى غيره من آلهتكم تفزعون لينجيكم مما نزل بكم من عظيم البلاء، إن كنتم صادقين في دعواكم ألوهية هؤلاء الشركاء الذين اتخذتموهم أولياء وزعمتم أنهم فيكم شفعاء؟ فأخبروني أغير الله تدعون إذا أتاكم أحد هذين الأمرين؟

ثم أجاب عن ذلك بقوله: ﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ﴾ أي ما أنتم أيها المشركون بالله الآلهةَ والأنداد إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة، بمستجيرين بشيء غير الله من وثن أو صنم إذا اشتد بكم الهول، بل تدعونه وحده، وبه تستغيثون، وإليه تفزعون، دون كل شيء غيره فيفرج عنكم ويزيل البلاء عند استغاثتكم به وتضرعكم إليه إن شاء ذلك، لأنه وحده القادر على كل شيء، والمالك لكل شيء دون ما تدعونه إلها من صنم أو وثن، لأن الفزع إليه سبحانه عند الشدائد مما ركز في فطرة البشر، تنبعث إليه بذاتها كما تنبعث إلى الماء عند العطش، فلا يذهب به ما يتلقَّى بالتعليم الباطل من مسائل الدين، فهم به يجنون على غريزة التوجه إلى خالقهم وخالق العالم كله بما يتخذونه من الأنداد والأولياء والشفعاء الذين يتوجهون إليهم كما يتوجهون إلى الله ويحبونهم كحب الله[(١)].

وذكر رحمه الله أمر الله لرسوله ﷺ أن يقول لقومه: ﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[(٢)] "أي قل أيها الرسول للآمرين لك باتباع دينهم وعبادة الأصنام معهم، أندعو من دون الله حجرا أو شجرا لا يقدر على نفعنا أو ضرنا؟ فنخصُّه بالعبادة دون الله وندع عبادة الذي بيده الضر والنفع والحياة والموت إن كنتم تعقلون فتميزون بين الخير والشر، ولا شك أن خدمة ما يرتجى نفعه ويرهب ضرُّه أحق وأولى من خدمة من لا

---

(١) تفسير المراغي(٣/١٠٠)

(٢) سورة الأنعام الآية: (٧١).

يرجى منه شيء منهما، ونرد على أعقابنا بالعودة إلى الضلال والشرك بعد إذ هدانا الله إلى الإسلام"[١].

وقرر المراغي رحمه الله محاجة إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام مع قومه، وأنه بهذه المحاجة قرر لهم توحيد الألوهية، وبيَّن لهم بطلان آلهتهم التي يعبدونها من دون الله[٢] فقال عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٣] فقال: "أي واذكر أيها الرسول لهؤلاء المشركين –الذين لقناك فيما سبق الحجج على بطلان شركهم وضلالهم، إذ عبدوا ما لا ينفعهم ولا يضرهم– قصص جدِّهم إبراهيم الذي يبجلونه ويدَّعون اتباع ملته، حين جادل قومه وراجعهم في باطل ما كانوا يعملون، إذ قال لأبيه آزر منكرا عليه وعلى قومه شركهم وعائبا عليه عبادته الأصنام دون بارئه وخالقه، يا آزر أتتخذ أصناما آلهة تعبدها من دون الله الذي خلقك وخلقها؟ فهو المستحق للعبادة دونها.

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي إني أراك وقومك الذين يعبدون هذه الأصنام مثلك، في ضلال عن الصراط المستقيم، مبين لا شبهة فيه للهدى، فإن هذه الأصنام تماثيل تنحتونها من الحجارة أو تقطعونها من الخشب، أو تصنعونها من المعادن، فأنتم أرفع منها قدرا وأعز جانبا، ولم تكن آلهة بذاتها بل باتخاذكم إياها ولا يليق بالعاقل أن يعبد ما هو مساوي له في الخلق، ولا ما هو مقهور بتصرف الخالق فيه، ومحتاج إلى الغني القادر، ولا يقدر على نفع ولا ضر، ولا إعطاء ولا منع، والتعبير بالضلال البين بيان لما حدث منهم بما تدل عليه اللغة كقوله تعالى

---

(١) تفسير المراغي(١٣٦/٣).

(٢) قال ابن جرير الطبري في تفسيره(٤٦٥/١١): "القول في تأويل قوله: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ}
قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: واذكر، يا محمد = لحجاجك الذي تحاجّ به قومك، وخصومتك إياهم في آلهتهم، وما تراجعهم فيها، مما نلقيه إليك ونعلمكه من البرهان والدلالة على باطل ما عليه قومك مقيمون، وصحة ما أنت عليه مقيم من الدين، وحقيقة ما أنت عليهم به محتج (١) = (٢) حِجَاج إبراهيم خليلي قومَه، ومراجعته إياهم في باطل ما كانوا عليه مقيمين من عبادة الأوثان، وانقطاعه إلى الله والرضا به وليًّا وناصرًا دون الأصنام، فاتخذه إمامًا واقتد به، واجعل سيرته في قومك لنفسك مثالا = إذ قال لأبيه مفارقًا لدينه، وعائبًا عبادته الأصنام دون بارئه وخالقه".

(٣) سورة الأنعام الآية: (٧٤).

لخاتم أنبيائه: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾[١] وقولك لمن تراه منحرفا عن الطريق الذي يسلكه: إن الطريق من هنا فأنت حائد أو ضالٌّ عنه.

وقد دلت آثار الكشف الحديث في العراق على صدق ما عرف في التاريخ من عبادة أولئك القوم للأصنام الكثيرة، حتى كان لكل منهم صنم للعبادة خاص به، سواء في ذلك الملوك والسُّوقة، وكانوا يعبدون الفلك والنَّيِّرات من الكواكب عامة والدراري السبع خاصة.

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾[٢] أي وكما أرينا إبراهيم الحق في أمر أبيه وقومه، وهو أنهم كانوا في ضلال مبين في عبادتهم للأصنام والأوثان.

كذلك أريناه مرة بعد مرة ملكوت السموات والأرض، أي خلقهما بما فيهما من بديع النظام وغريب الصنع، فأريناه تلك الكواكب التي تدور في أفلاكها على وضع لا تعدوه، وأريناه الأرض وما في طبقاتها المختلفة من أصناف المعادن النافعة للإنسان في معاشه إذا هو استخدمها على الوجه الصحيح الذي أرشدناه إليه، وجلَّينا له بواطن أمورها وظواهرها، وهذه إلى وجوه الحجة فيها مما يدل على وحدانيتنا وعظيم قدرتنا وإحاطة علمنا بكل شيء ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾ أي نريه ذلك ليعرف سنننا في خلقنا، وحكمنا في تدبير ملكنا، وآياتنا الدالة على ربوبيتنا، ليقيم بها الحجة على المشركين الضالين، وليكون في خاصة نفسه من زمرة الراسخين في الإيقان البالغين عين اليقين.

ثم فصل سبحانه ما أجمله من رؤية ملكوت السموات والأرض فقال: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗا ﴾[٣] أي إنه تعالى لما بدأ يريه ملكوت السموات والأرض، كان من أول أمره في ذلك أنه لما أظلم عليه الليل وستر عنه ما حوله من عالم الأرض نظر في ملكوت السموات، فرأى كوكبا عظيما ممتازا عن سائر الكواكب بإشراقه وبريقه ولمعانه، وهو: (كوكب المشتري) الذي هو أعظم آلهة بعض عبَّاد الكواكب من قدماء اليونان والرومان، وكان قوم إبراهيم أئمتهم في هذه العبادة وهم لهم مقتدون، فلما رآه ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي ﴾[٤] أي: قال هذا في

---

(١) سورة الضُّحى الآية: (٧).

(٢) سورة الأنعام الآية: (٧٥).

(٣) سورة الأنعام الآية: (٧٦).

(٤) سورة الأنعام الآية: (٧٦).

مقام المناظرة والحجاج لقومه تمهيدا للإنكار عليهم فحكى مقالتهم أوَّلا ليستدرجهم إلى سماع حجته على بطلانها، فأوهمهم أولا أنه موافق لهم على زعمهم، ثم كرَّ عليه بالنقض بانيا دليله على الحس والعقل.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾(١) أي فلما غرب هذا الكوكب واحتجب قال لا أحب ما يغيب ويحتجب، إذ من كان سليم الفطرة لا يختار لنفسه حب شيء يغيب عنه ويوحشه فقده فما بالك بحب العبادة الذي هو أعلى أنواع الحب وأكمله، لأنه قد هدت إليه الفطرة وأرشد إليه العقل السليم، فلا ينبغي أن يكون إلا للرب الحاضر القريب، السميع البصير الرقيب، الذي لا يغيب ولا يغفل، ولا ينسى ولا يذهل، الظاهر في كل شيء بآياته:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد(٢)

والباطن في كل شيء بحكمته ولطفه الخفي: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾(٣).

وقد جاء في الحديث في وصف الإحسان: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(٤).

والخلاصة: إن في هذا تعريضا بجهل قومه في عبادة الكواكب، إذ يعبدون ما يحتجب عنهم ولا يدري شيئا من أمر عبادتهم، وهذا قريب من قوله لأبيه: ﴿لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾(٥).

وقد احتج إبراهيم بالأفول دون البزوغ وكلاهما انتقال من حال إلى حال، لأن الأفول انتقال مع خفاء واحتجاب، وهو مما ينافي الربوبية.

---

(١) سورة الأنعام الآية: (٧٦).

(٢) من قول أبي العتاهية انظر: ديوان أبي العتاهية ص(١٠٤).

(٣) سورة الأنعام الآية: (١٠٣).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، (١٩/١)، رقم الحديث(٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر، (٣٦/١)، رقم الحديث(٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٥) سورة مريم الآية: ٤٢.

﴿فَلَمَّا رَءَا الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾[١] أي فلما رأى القمر طالعا من وراء الأفق أول طلوعه، قال هذا ربي على طريق الحكاية لما كانوا يقولون، تمهيدا لإبطاله كما علمت فيما سلف.

والمتبادر من سياق الكلام أن إبراهيم رأى الكوكب في ليلة، ورأى القمر في الليلة التالية: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّآلِّينَ﴾[٢] أي فلما أفل القمر كما أفل الكوكب وهو أكبر منه منظرا وأسطع نورا وأقوى منه ضياء، قال مسمعا من حوله من قومه: لئن لم يهدني ربي ويوفقني لإصابة الحق في توحيده لأكوننَّ من القوم الضالين الذين أخطأوا الحق في ذلك، فلم يصيبوا الهدى وعبدوا غير الله واتبعوا أهواءهم ولم يعملوا بما يرضيه سبحانه.

وفى هذا تعريض يقرب من التصريح بضلال قومه، وإرشاد إلى توقف هداية الدين على الوحي الإلهي، وقد ترقى في هذا التعريض، لأن الخصوم قامت عليهم الحجة بالاستدلال الأول فأنسوا بالقدح في معتقدهم، فما عرَّض صلوات الله عليه بضلالهم إلا بعد أن وثق بإصغائهم إلى إتمام المقصود واستماعه إلى آخره، وقد انتقل في المرة الثالثة من التعريض إلى التصريح بالبراءة منهم، والتصريح بأنهم على شرك بيِّنٍ بعد أن تبلَّج الحق وظهر غاية الظهور، وذلك قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾[٣] أي قال مشيرا إليها: هذا الذي أرى الآن هو ربي ﴿هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾[٤] أي من الكواكب والقمر، وفى هذا مبالغة في المجاراة لهم وتمهيد لإقامة الحجة عليهم، واستدراج لهم إلى التمادي في الاستماع بعد ذلك التعريض الذي كان يخشى أن يصدَّهم عنه.

والخلاصة: أن هذا الطالع أكبر من الكواكب والقمر قدرا وأعظم ضياء ونورا فهو أجدر منهما بالربوبية.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[٥] أي فلما أفلت كما أفل غيرها واحتجب ضوء المشرق، وكانت الوحشة بذلك أشد من الوحشة باحتجاب الكوكب والقمر، صرّحَ بما أراد بعد

---

(١) سورة الأنعام الآية: ٧٧.

(٢) سورة الأنعام الآية: ٧٧.

(٣) سورة الأنعام الآية: (٧٨).

(٤) سورة الأنعام الآية: (٧٨).

(٥) سورة الأنعام الآية: (٧٨).

ذلك التعريض الذي تقدم متبرئًا من شرك قومه وتنحّى عنه لقبحه بعد أن جاراهم عليه أولا استمالة لهم وإصغاء إلى ما يقول.

والخلاصة: إنه حاور وداور، وتلطف في القول، وأرخى لخصمه العنان، حتى وصل إلى ما أراد بألطف وجه وأحسن طريق، متبرئًا من تلك المعبودات التي جعلوها أربابا وآلهة مع الله.

وبعد أن تبرأ من شركهم قفّى تلك البراءة ببيان عقيدته عقيدة التوحيد الخالص فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(١) أي إني جعلت توجهي في عبادتي لمن خلق السموات والأرض، وأكمل خلقهن أطوارا في ستة أيام، فهو خالق هذه الكواكب النيرات وخالقكم وما تصنعون منه هذه الأصنام من معدن ونبات.

وفى معنى الآية قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾(٢)، وقوله: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾(٣)، وإسلام الوجه له تعالى توجُّه القلب إليه، وعبر عنه به، لأن الوجه أعظم مظهر لما في النفس من الإقبال أو الإعراض، والسرور أو الكآبة، إلى نحو أولئك، وتوجيهه له جعله يتوجه إليه وحده، في طلب حاجته وإخلاص عبوديته، إذ هو المستحق للعبادة، القادر على الأجر والثواب.

والخلاصة: إن إبراهيم تبرأ أولا من شركهم أو شركائهم، ثم تبرأ منهم أنفسهم، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾(٤).

روى ابن جرير عن ابن زيد(٥) أن قوم إبراهيم قالوا حين قال: إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض: ما جئت بشيء ونحن نعبده ونتوجه إليه، فرد عليهم بأنه حنيف أي

---

(١) سورة الأنعام الآية: (٧٩).

(٢) سورة النساء الآية: (١٢٥).

(٣) سورة لقمان الآية: (٢٢).

(٤) سورة الممتحنة الآية: (٤).

(٥) إذا قال المفسرون: "قال: ابن زيد"، فالمراد به عبد الرحمن، وعبد الرحمن، وإن كان ضعيف الحديث، إلا أنه إمامٌ في التفسير. أسانيد التفسير(٤٢/١)، وهو: عبد الرحمن بن زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب، توفي بالمدينة في أول خلافة هارون، وكان كثير الحديث، ضعيفا جدا، له كتاب التفسير والناسخ والمنسوخ، توفي سنة(١٨٢هـ)، انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد(٤١٣/٥)، وطبقات المفسرين للداوودي(٢٧١/١).

مخلص له لا يشرك به كما يشركون[١]، يريد أنه مائل عن معبوداتهم الباطلة وعن غيرها، فتوجهه وإسلامه خالص، لا يشوبه شرك ولا رياء، وما هو من المشركين به الذين يتوجهون إلى غيره من المخلوقات كالكواكب أو الملائكة أو الملوك أو الصالحين أو ما يتخذ لهم من الأصنام والتماثيل.

وظاهر ما حكاه الله عن إبراهيم ﷺ أن قومه كانوا يتخذون الأصنام آلهة لا أربابا، ويتخذون الكواكب أربابا آلهة، والإله هو المعبود وكل من عبد شيئا فقد اتخذه إلها، والرب: هو السيد المالك المربِّي المدبر المتصرف، وليس للخلق رب ولا إله إلا الله الذي خلقهم، فهو المالك لكل شيء وفي كل زمن وعلى كل حال، وملك غيره ناقص موقوت فهو المعبود بحق، والعبادة: هي التوجه بالدعاء والتعظيم القولي أو العملي إلى ذي السلطان الأعلى خالق الخلق والموجد له والمتصرف فيه.

والأصل في اختراع عبادة غير الله من حجر أو شجر أو شمس أو قمر أمران:

(١) إن بعض ضعاف الأحلام رأوا بعض مظاهر قدرته تعالى في بعض خلقه، فتوهموا أن ذلك ذاتي لهذا المخلوق ليس خاضعا لسنن الله في الأسباب والمسببات.

(٢) اتخاذ بعض المخلوقات ذات الخصوصية في مظاهر النفع والضر وسيلة إلى الإله الحق، تشفع عنده وتقرب إليه كل من توجه إليها، فيتوسل ذو الحاجة إليها بدعائها وتعظيمها بالقول أو الفعل لحمله تعالى بتأثيرها على قبوله وإعطائه سؤله.

وقد أقاموا مقام هذه المخلوقات: التماثيل والأصنام والقبور وغيرها مما يذكِّر بها، وهذه هي الوثنية الراقية التي كانت عليها العرب زمن البعثة، ومن ثم كانوا يقولون في طوافهم بالبيت الحرام: «**لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك**»[٢].

وكان قوم إبراهيم ﷺ قد ارتقوا في وثنيتهم إلى هذه المرتبة، إذ إنهم عقلوا أن الأصنام لا تسمع دعاءهم ولا تبصر عبادتهم ولا تقدر على نفعهم وضرهم، وإنما قلدوا فيها آباءهم كما سيأتي في حججهم في سورة الشعراء، ومن ثم اتخذوا الأصنام آلهة معبودين لا أربابا مدبرين، لكنهم اتخذوا الكواكب أربابا لما لها من التأثير السببي في الأرض، فكانوا يعتقدون أن الشمس

---

(١) ابن جرير في تفسيره(١١/٤٨٨).

(٢) سبق تخريجه ص(١٤١)

رب الناس، والقمر يدبِّر الملوك ويفيض عليهم روح الشجاعة والإقدام وينصر جندهم ويخذل عدوهم، ويعتقدون أن (مرداخ) وهو المشتري شيخ الأرباب، ورب العدل والأحكام، وحافظ الأبواب التي يدخلها الخصوم لفصل الخصومات، وأن (رنكال) وهو المريخ رب الصيد وسلطان الحرب، وأن (عشتار) وهي الزَّهرة ربة الغبطة والسرور والسعادة، وتمثل بصورة امرأة عارية، وأن (نيو) وهو عطارد رب العلم والحكمة.

وجاء إبراهيم بحجته البالغة، فحصر العبادة في فاطر السموات والأرض وحده دون غيره من الوسائل، فقال في تماثيلهم: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾(١).

قال: وقول الله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾(٢).

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾: أي وجادله قومه في أمر التوحيد، فهو حين أبان لهم بطلان عبادة الأصنام وربوبية الكواكب، وأثبت لهم وحدانية الله تعالى ووجوب عبادته وحده، حاجوه ببيان أوهامهم في شركهم، إذ قالوا إن اتخاذ الآلهة لا ينافي الإيمان بالله الفاطر للسموات والأرض، لأنهم شفعاء عنده، ولما لم يجد ذلك معه خوَّفوه أن تمسه آلهتهم بسوء، وانتهت بهم خاتمة المطاف أن قالوا: إنهم ساروا على ما وجدوا عليه آباءهم، وليس للمقلد أن يحتج ولكنه يجادل ويحاج مع كونه لا يخضع للحجة إذا قامت عليه، وكثيرا ما يضطرب المقلد لسماع الحجة، إذ يومض في قلبه نورها ثم يعود إلى سابق وهمه خائفا مما لا يخيف، راجيا ما لا يرجى، كما يشاهد لدى زائري قبور الصالحين والأولياء الذين يتوهمون أن هذه القبور تدفع عن زائرها الضر، وتكشف عنه السوء، وتدرُّ عليه الرزق، وتكبت العدو، إما بتصرفهم في الخلق، وإما لأنهم قربان عند الرب، ولا يرون شيئا من هذا ناقضا للإيمان الصحيح، وفي مثلهم يقول الله عز اسمه: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾(٣).

---

(١) سورة الأنبياء الآية: (٥٦).

(٢) سورة الأنعام الآية: (٨٠).

(٣) سورة يوسف الآية: (١٠٦).

﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾ أي أتجادلونني في شأن الله وما يجب في الإيمان به، قد فضلني عليكم بما هداني إلى التوحيد الخالص، وبما بصرني به من الحجة التي أقمتها عليكم، وأنتم الضالون بإصراركم على شرككم وتقليدكم فيه من قبلكم؟.

﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ أي ولا أرهب من آلهتكم التي تدعونها من دون الله سوءا ينالني في نفسي، ذلك أني أعتقد أنها لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، ولا تقرّب ولا تشفع.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ﴾ أي لا أخاف ما تشركون به في وقت من الأوقات إلا وقت مشيئته تعالى إصابة مكروه لي من جهتها، فإنه يقع لا محالة كما شاء ربي، فإن شاء أن يسقط عليَّ صنم يشجني، أو كسف من شهب الكواكب يقتلني، فإن ذلك يقع بقدرة ربي ومشيئته لا بمشيئة الصنم أو الكواكب ولا بقدرته ولا بتأثيره في قدرته تعالى وإرادته، ولا بجاهه عنده وشفاعته، إذ لا تأثير لشيء من المخلوقات في مشيئة الله الجارية إلا بما يثبت في علمه الأزلي.

ثم أتى بما هو كالعلة لما قبله فقال: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾ أي أحاط بكل شيء علما، فلا يبعد أن يكون في علمه سبحانه إنزال المكروه بي من جهتها بسبب من الأسباب.

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي أتعرضون بعد ما أوضحته لكم عن التأمل في أن آلهتكم ليس بيدها نفع ولا ضر، فلا تتذكرون أيها الغافلون أنها غير قادرة على ضرِّي ولا على إيصال النفع إليكم، فالسلطة العليا له وحده ليس لغيره تأثير فيها ولا تدبير، فإذا أعطى بعض المخلوقات شيئا من النفع أو الضر فلا يكون ذلك داعيا لرفعها عن رتبة المخلوقات، وجعلها أربابا ومعبودات.

وكان يجب أن يفطن لذلك العقلاء ويتذكروه، لأنه تذكير بما يدركه العقل بالبرهان، ويهدي إليه الوجدان.

ومما يجب أن يتنبه له كثير من الذين ينتمون إلى ملة التوحيد أن هذا الضرب من الشرك الذي نعاه إبراهيم على قومه، لا يزال فاشيا بينهم فهم يعتقدون في بعض المخلوقات من أحياء وأموات أن لهم تصرفا غيبيا، فما يقع عقب زيارتهم لهم من زوال مكروه، أو نفع يصل إلى محبوب، إنما كان بدعائهم، والواقع أن ذلك بتقدير السميع العليم، وليس لغيره في ذلك تأثير لا جليٌّ ولا خفيٌّ.

وبعد أن أبان لهم أنه لا يخاف شركاءهم بل يخاف الله وحده، تعجب من تخويفهم إياه ما لا يخيف، وعدم خوفهم مما يجب أن يخاف منه قال:﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ﴾(١) أي وكيف أخاف ما أشركتموه بربكم من خلقه فجعلتموه ندًّا له ينفع ويضر، ولا تخافون إشراككم بالله خالقكم ما لم ينزل به حجة بيِّنة، بوحي ولا نظر عقل تثبت لكم جعله شريكا في الخلق والتدبير، أو في الوساطة والشفاعة، فافتياتكم على خالقكم بهذه الدعوى هو الذي يجب أن يخاف ويتقى.

والخلاصة: إن ما يدَّعى لصحة هذا الخوف باطل، وأنه عليه السلام لم يجد هذا الخوف وجها، فلا يخاف الشركاء لذواتهم، ولا لما يزعمون من وساطتهم عند الله وشفاعتهم، ولا لقدرة على الضر والنفع قد تدَّعى لهم.

وقوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ ﴾(٢) مذكور على طريق التهكم، مع الإعلام بأن الدين لا يقبل إلا بالحجة والبرهان، والتقليد ليس بعذر ولا سيما تقليد من ليس على هداية ولا علم ولا بصيرة، والله لم ينزل بما ادعيتموه سلطانا لأنه باطل فلا سلطان عليه ولا دليل.

﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ﴾(٣) الفريقان: فريق الموحدين الذين يعبدون الله وحده ويخافونه ويرجونه دون غيره، وفريق المشركين الذين استكبروا تأثير بعض الأسباب فاتخذوا ما اتخذوا من الآلهة والأرباب، ونسبوا إلى بعضها النفع والضر كالشمس والقمر والملائكة، أي فأي هذين الفريقين أحق وأجدر بالأمن على نفسه من عاقبة عقيدته وعبادته.

ونكتة التعبير بـ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ دون أن يقول فأينا أحق بالأمن، الإشارة إلى أن هذه المقابلة عامة لكل موحد ومشرك لا خاصة به وبهم، والبعد عن التصريح بخطئهم الذي ربما يدعو إلى اللجاج والعناد، والاحتراس من تنفيرهم من الإصغاء إلى قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(٤) أي إن كنتم من أهل العلم والبصيرة في هذا الأمر فأخبروني بذاك وبينوه بالأدلة، وفى هذا إلجاء لهم إلى الاعتراف بالحق أو السكوت على الحمق والجهل.

---

(١) سورة الأنعام الآية: (٨١).

(٢) سورة الأنعام الآية: (٨١).

(٣) سورة الأنعام الآية: (٨١).

(٤) سورة الأنعام الآية: (٨١).

ثم بين سبحانه الحقيق بالأمن على سبيل التفصيل فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[١] .

المراد بالظلم الذي يلبس به المرء إيمانه بالله ويخلطه به فينقص منه أو ينقصه هو الشرك في العقيدة أو العبادة، كاتخاذ وليٍّ من دون الله يدعى معه أو من دونه، فيعظَّم كتعظيمه ويحَبُّ كحبه، للاعتقاد أن له نفعا أو ضرا بذاته أو بتأثيره في مشيئة الله وقدرته، لا ظلم الإنسان نفسه بفعل بعض المضارِّ أو ترك بعض المنافع عن جهل أو إهمال، ولا ظلمه لغيره ببعض التصرفات والأحكام، يدل على هذا التفسير ما رواه البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية شق ذلك على الناس، وقالوا يا رسول الله! وأيّنا لا يظلم نفسه؟ فقال ﷺ: «**إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح:** ﴿يَـٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٢] **إنما هو الشرك**»[٣].

والمراد بالأمن الأمن من عذاب الله الذي يحل بمن لا يرضى إيمانه ولا عبادته.

أي إن الذين آمنوا بالله تعالى ولم يخلطوا إيمانهم بظلم عظيم وهو الشرك به ﷻ، أولئك لهم الأمن دون غيرهم من الخلود في دار العذاب، وهم فيما وراء ذلك بين الخوف والرجاء...

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾[٤] أي وتلك الحجة الدامغة التي تضمنها البيان السالف، المثبتة للحق، المزيِّفة للباطل، هي الحجة التي أرشدنا إليها إبراهيمَ وأعطيناها إياه ليلزم قومه ويقنِعَهم بها.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾[٥] أي إننا نرفع من شئنا من عبادنا درجات بعد أن لم يكونوا على درجة منها، فالعلم درجة كمال، والحكمة درجة كمال، وقوة العارضة في الحجاج درجة كمال، والسيادة والحكم بالحق كذلك، والنبوة والرسالة أعلى كل هذه الدرجات، لأنها تشتمل عليها وتزيد.

---

(١) سورة الأنعام الآية: (٨٢).

(٢) سورة لقمان الآية: (١٣).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب ظلم دون ظلم، (٥٧٦/١١)، رقم الحديث(٣٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه، (٨٠/١)، رقم الحديث(١٢٤).

(٤) سورة الأنعام الآية: (٨٣).

(٥) سورة الأنعام الآية: (٨٣).

والله يرفع درجات من يؤتيهم ذلك بتوفيق صاحب الدرجة الكسبية إلى ما به ترتقي درجته، ويصرف موانع هذا الارتقاء عنه، ويؤتي ذا الدرجة الوهبية (النبوة) ما لم يؤت غيره من أهل المناقب والآيات: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾(١).

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾(٢) أي إن ربك الذي ربَّاك وعلَّمك، وهداك وجعلك خاتم رسله لجميع خلقه، حكيم في قوله، عليم بشؤونهم، وسيريك ذلك عيانا في سيرتك مع قومك كما أراكه بيانا فيما حدَّث عن إبراهيم مع قومه، وتأسَّ في نفسك وقومك المكذبين بأبيك، واصبر على ما ينوبك منهم كما صبر.

واعلم أن معرفة الله تعالى لا تحصل على الوجه الصحيح إلا بتعميم الوحي، وعلم الأنبياء به ضروري لا نظري، فقد علَّمهم به ما لم يكونوا يعلمون من الحجج العقلية والدلائل النقلية إلى نحو ذلك مما هداهم إليه"(٣).

وقال عند قول الحق سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(٤): "أي إن الظالمين لأنفسهم بالكفر بنعم الله واتخاذ الشركاء له في ألوهيته، والتوجه إليهم فيما يتقرب به إليه تعالى، أو فيم لا يطلب إلا منه، وهو ما خفيت على المرء أسبابه، إذ مثل هذا لا يدعى فيه إلا الله وحده، وما عرف سببه يجب أن يطلب من طريق السبب، مع العلم بأن خالق الأسباب جميعها هو الله تعالى"(٥).

وبين رحمه الله تصرفات المشركين في ما يملكون من الحرث والأنعام والقسمة الجائرة في ما جعلوه لله وما جعلوه لمعبوداتهم، فقال عند قول الحق ﷻ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾(٦).

---

(١) سورة البقرة الآية: (٢٥٣).

(٢) سورة الأنعام الآية: (٨٣).

(٣) تفسير المراغي(٣/ ١٤٠-١٩٤).

(٤) سورة الأنعام الآية: (٢١).

(٥) تفسير المراغي: (٣/٢١٠).

(٦) سورة الأنعام الآية: (١٣٦).

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا﴾ أي وجعلوا لله نصيبا مما خلق من ثمر الزرع وغلته كالتمر والحبوب ونتاج الأنعام، ونصيبا لمن أشركوا معه من الأوثان والأصنام.

﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ أي فقالوا في النصيب الأول هذا لله أي نتقرب به إليه، وفى النصيب الثاني هذا لشركائنا أي لمعبوداتنا نتقرب به إليها، وقوله بزعمهم أي بتقوُّلهم الذي لا بينة لهم عليه ولا هدى من الله، إذ جعله قربة لله يجب أن يكون خالصا له وحده لا يشرك معه غيره فيه، وأن يكون بإذنه، لأنه دين، والدين لله ومن الله وحده، فهذا زعم مخترع، لا دين مشترع فيكون باطلا.

وقد روي أنهم كانوا يجعلون نصيب الله لقرى الضيفان، وإكرام الصبيان، والتصدق على المساكين، ونصيب آلهتهم لسدنتها وقرابينها وما ينفق على معابدها.

﴿وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي فما عيَّنوه لشركائهم لا يصرف إلى الوجوه التي جعلوها لله لا بالتصدق ولا بالضيافة ولا غيرهما، بل يهتمُّون بحفظه وإنفاقه على السدنة وذبح الذبائح والقرابين عندها.

﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡ﴾ أي وما عينوه وجعلوه له فهو يحوَّلُ أحيانا للتقرب به إليها.

﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ أي قبح ما يحكمون به بإيثارهم المخلوق العاجز عن كل شيء على الخالق القادر على كل شيء، وبعملهم شيئا لم يشرعه الله.

وللقبح وجوه متعددة منها:

(١) أنه اعتداء على الله بالتشريع وهو لم يأذن لهم به.

(٢) الشرك في عبادته تعالى، ولا ينبغي أن يشرك مع الله سواه فيما يتقرب به إليه.

(٣) ترجيح ما جعلوه لشركائهم على ما جعلوه لخالقها وخالقهم.

(٤) أن هذا حكم لا مستند له من عقل ولا هداية من شرع.

نقل علي بن أبي طلحة[(١)] والعوفي[(٢)] عن ابن عباس أنه قال في تفسير الآية: (إن أعداء، الله كانوا إذا حرثوا حرثًا أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منه جزءا وللوثن جزءا، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه، وإن سقط منه شيء فيما سمي للصمد ردوه إلى ما جعلوه للوثن، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه للوثن فسقى شيئا جعلوه لله جعلوا ذلك للوثن، وإن سقط شيء من الحرث والثمرة الذي جعلوه لله فاختلط بالذي جعلوه للوثن قالوا هذا فقير ولم يردوه إلى ما جعلوه لله، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه لله فسقى ما سمي للوثن تركوه للوثن)[(٣)].

وكانوا يحرّمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام فيجعلونه للأوثان ويزعمون أنهم يحرمونه قربة لله تعالى.

ثم ذكر سبحانه من أعمال الشرك أيضا عملا لا مستند له من عقل ولا شرع فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾[(٤)] أي ومثل ذلك التزيين لقسمة القرابين من الحرث والأنعام بين الله والآلهة، زيّن لكثير من المشركين

---

(١) هو: أبو الحسن علي بن أبي طلحة، مولى بني هاشم، واسم أبيه سالم بن مخارق، وهو الذى يروى عن ابن عباس الناسخ والمنسوخ والتفسير ولم يره ومات علي سنة ثلاث وأربعين ومائة. قال أحمد بن حنبل: له أشياء منكرات، وقال أبو داود: كان يرى السيف، وقال النسائي: ليس به بأس. انظر: الثقات لابن حبان(٧/٢١١)، وتاريخ بغداد(١٣/٣٨٠).

(٢) هو: أبو الحسن عطية بن سعد بن جنادة العوفي من جديلة قيس، قال ابن عدي: "وقد روى عنه جماعة من الثقات، ولعطية عَن أبي سَعِيد أحاديث عدد، وعن غير أبي سَعِيد وهُوَ مع ضعفه يكتب حديثه، وكان يعد مع شيعة أهل الكوفة"، توفي سنة (١١١هـ)، انظر: المجروحون لابن حبان(٢/١٧٦)، والكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي(٧/٧٤).

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره(١٢/١٣٢).

(٤) سورة الأنعام الآية: (١٣٧).

شركاؤهم؛ سدنة الآلهة وخدمها، أن يقتلوا أولادهم، وكان مصدر هذا التزيين وجوه مختلفة منها:

(١) اتقاء الفقر الحاصل أو المتوقع، وقد أشار سبحانه إلى الأول بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾[١]، وأشار إلى الثاني بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾[٢].

(٢) اتقاء العار بوأد البنات، أي بدفنهن وهن على قيد الحياة خشية أن يكنَّ سببا للعار أو السباء إذا كبرن، أو خشية أن يقترن بأزواج دون آبائهن في الشرف.

(٣) التدين بنحر الأولاد للآلهة تقربا إليها بنذر أو بغير نذر، فقد كان الرجل في الجاهلية ينذر إن ولد له كذا غلاما لينحرنَّ أحدهم كما حلف عبد المطلب في قصص طويل[٣]، أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «**أنا ابن الذبيحين**»[٤].

وسمى الله المزينين لهم الشرك من شياطين الإنس كالسدنة، أو شياطين الجن شركاء وإن كانوا هم لم يسموهم لا آلهة ولا شركاء، لأنهم لما أطاعوهم طاعة إذعان وخضوع في التحليل والتحريم ولا يكون ذلك إلا لله، سماهم كذلك كما قال: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[٥].

وقد حذا كثير من المسلمين حذو هؤلاء فدعوا غير الله من الموتى تضرعا وخضوعا عند قبورهم مع التقرب إليهم بالصدقات وذبائح النسك، ولكنهم لا يسمون عبادتهم هذه شركا ولا

---

(١) سورة الأنعام الآية: (١٥١).

(٢) سورة الإسراء الآية: (٣١).

(٣) انظر: تاريخ الطبري (٤٩٧/١)، وتاريخ ابن كثير(٢٤٨/٢).

(٤) الحديث بهذا اللفظ لا أصل كما بيض له الزيلعي في تخريج الكشاف(١٧٧/٣)، والسخاوي في المقاصد الحسنة ص(٥١)، والألباني في السلسلة الضعيفة(١٧٢/٤) رقم الحديث(٣٣١)، وقد أخرجه الطبري في تفسيره(٨٥/٢١)، والحاكم في المستدرك، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين...، باب ذكر إسماعيل بن إبراهيم صلوات عليهما(٦٠٤/٢) رقم الحديث(٤٠٣٦)، بلفظ "...يا ابن الذبيحين..."، وقال الذهبي في تلخيص المستدرك: "إسناده واه"، وقال ابن كثير في تفسيره(٣٥/٧): "هذا حديث غريب جدا"، وضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (١٧٢/٤)، تحت الحديث(٣٣١).

(٥) سورة التوبة الآية: (٣١).

عبادة، بل يسمونها توسلا (والأسماء لا تغير الحقائق والأعمال) فالدعاء والتضرع أدل على الحقائق من الأسماء والتأويلات.

ثم ذكر سبحانه علة تزيين المنكرات لهم فقال: ﴿لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾(١) أي إنهم زينوا لهم هذه المنكرات ليهلكوهم بالإغواء، ويفسدوا عليهم فطرتهم، فتنقلب عواطف ود الوالدين من رأفة ورحمة إلى قسوة ووحشية، فينحر الوالد ولده ويدفن بنته الضعيفة بيده وهي حية.

والدين الذي لبسوه وخلطوه هو ما كانوا يدَّعونه من دين إسماعيل وملة إبراهيم عليهما السلام، وقد اختلط عليهم بما ابتدعوه من تقاليد الشرك حتى لم يعرف الأصل الذي كان يتبع من هذه الإضافات التي ضموها إليه.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾(٢) أي ولو شاء الله أن يخلق الناس مطبوعين على عبادته طبعا لا يستطيعون غيرها كالملائكة، فلا يؤثِّر فيهم إغواءً ولا تجدي فيهم وسوسة لفعل، ولكن شاء أن يخلقهم مستعدين للتأثر بكل ما يرد على أنفسهم من الأفكار والآراء، وما يشاهدون من المحسوسات، واختيار ما يترجح عندهم أنه الخير على ما يقابله، ومن ثم يؤثِّر في نفوسهم ما يستفيدونه بالتعليم والاختيار والمعاشرة والمخالطة، والناس يتفاوتون في هذا جدَّ التفاوت، فلا يمكن أن يكونوا على رأي واحد أو دين واحد.

فدعهم أيها الرسول وما ينتحلونه من شرائع، وما يفترون من عقائد، وعليك بما أمرت به من التبليغ، والله هو الذي يتولى أمرهم وله سنن في هداية خلقه لا تتغير ولا تتبدل، ومن سننه أن يغلب الحق الباطل.

ثم ذكر نوعا ثالثا من آرائهم الفاسدة فقال﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾(٣) أي إنهم لغوايتهم وشركهم قسموا أنعامهم وزرعهم أقساما ثلاثة:

---

(١) سورة الأنعام الآية: (١٣٧).

(٢) سورة الأنعام الآية: (١٣٧).

(٣) سورة الأنعام الآية: (١٣٨).

(١) أنعام وأقوات من حبوب وغيرها تقتطع من أموالهم وتجعل لمعبوداتهم تعبُّدًا وتديُّنًا، ويمتنعون من التصرف فيها إلا لها، ويقولون هي حجر أي محتجرة للآلهة لا تعطى لغيرهم.

و قوله: ﴿لَا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ أي لا يأكل منها إلا الرجال دون النساء.

وقوله: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾(١) أي بادعائهم الباطل من غير حجة ولا برهان عليه.

(٢) أنعام حرمت ظهورها، فلا تركب ولا يحمل عليها، قال السدي: هي البحيرة والسائبة والحام وقد تقدم ذكرها في قوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾(٢).

(٣) أنعام لا يذكرون اسم الله عليها في الذبح، بل يهلُّون بها لآلهتهم وحدها، وكانوا إذا حجوا لا يحجون عليها ولا يلبُّون على ظهرها.

﴿ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾(٣) أي إنهم قسموا هذا التقسيم وجعلوه من أحكام الدين ونسبوه إلى الله افتراء عليه واختلاقا له والله منه بريء، فهو لم يشرعه لهم، وما كان لغير الله أن يحرم أو يحلل على العباد ما لم يأذن به الله، كما جاء في قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾(٤).

﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾(٥) أي سيجزيهم الجزاء الذي يستحقونه وينكِّل بهم شر النكال بسبب هذا الافتراء القبيح"(٦).

وقال المراغي رحمه الله بعد ذكر الآيات الواردة في طلب قوم موسى عليه السلام أن يجعلهم أصناما يعكفون عليها، فقال بعد قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾(٧): "أي إنهم تجاوزوه بعناية الله وتأييده، فكأنه معهم بذاته فجاوزه مصاحبا لهم، فأتوا عقب تجاوزهم إياه ودخولهم في بلاد العرب من البحر

---

(١) سورة الأنعام الآية: (١٣٨).

(٢) سورة المائدة الآية: (١٠٣).

(٣) سورة الأنعام الآية: (١٣٨).

(٤) سورة يونس الآية: (٥٩).

(٥) سورة الأنعام الآية: (١٣٨).

(٦) تفسير المراغي: (٣/٢١٢-٢١٥).

(٧) سورة الأعراف الآية: (١٣٨).

الأسيوي على قوم يعبدون أصناما لهم: فقالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة حنينا منهم إلى ما ألفوا في مصر من عبادة المصريين وتماثيلها وأنصابها وقبورها، وسر هذا الطلب أنهم لم يكونوا قد فهموا التوحيد الذي جاء به موسى كما فهمه من آمن من سحرة المصريين، إذ إن السحرة كانوا من العلماء فأمكنهم التمييز بين آيات الله التي لا يقدر عليها غيره، والسحر الذي هو من صناعات البشر وعلومهم.

ولم يذكر القرآن شيئا يعيِّن شأن هؤلاء القوم الذين أتى عليهم بنو إسرائيل.

والراجح أنهم من العرب الذين كانوا يقيمون بقرب حدود مصر، روي عن قتادة أنهم من عرب لخم[١]، وعن ابن جريج أن أصنامهم كانت تماثيل بقر من نحاس[٢]. . . ولا شك أن هذا الطلب دليل على الضعف البشري في كل زمان ومكان، فلا عجب أن روي عن بعض حديثي العهد من الصحابة بالإسلام مثل ما طلب بنو إسرائيل من موسى عليه السلام لما كان للوثنية في قلوبهم من التأثير، روى أحمد والنسائي عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين، فمررنا بسدرة فقلت يا رسول الله! اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، فقال: «**الله أكبر! هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ إنكم تركبون سنن من قبلكم**»[٣].

و للمسلمين عبرة في هذا فإن لهم الآن ذوات أنواط في بلاد كثيرة كشجرة الحنفي[٤] بمصر، وقد اجتثت أخيرا وشجرة (ست المنضورة)[٥] ونحو ذلك مما اتخذوه من القبور والأشجار والأحجار التي يعكفون عليها ويطوفون حولها ويقبِّلونها ويتمرغون بأعتابها ويتمسحون بها

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره(١٣/٨١).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره(١٣/٨٠).

(٣) أخرجه أحمد(٣٦/٢٢٥) رقم الحديث(٢١٨٩٧)، والترمذي، أبواب الفتن، باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم(٤/٤٧٥)، رقم الحديث(٢١٨٠)، والنسائي في الكبرى، كتاب التفسير، باب سورة الأعراف، (١٠/١٠٠)، رقم الحديث(١١١٢١)، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في ظلال الجنة في تخريج السنة لابن أبي عاصم(١/٣١).

(٤) شجرة الحنفي: "شجرة قديمة كانت في جامع الحنفي بالقاهرة يتبرك بها" انظر: محمد بن عبد الوهاب عقيدته السلفية ودعوته الإصلاحية وثناء العلماء عليه، لأحمد بن حجر آل بوطامي، مطبعة الحكومة بمكة المكرمة، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م، ص(١١٩) من تعليق الشيخ ابن باز في الحاشية.

(٥) لم لها تعريفا، لكن ذكر محمد رشيد رضا في مجلة المنار أنها في مصر يتبرك بها. مجلة المنار(١/٢٧).

خاشعين ضارعين راجين شفاء الأدواء والانتقام من الأعداء، وحبل العقيم ورد الضالة، وغير ذلك من النفع وكشف الضر، وهذا مخالف لنصوص كتاب الله وسنة رسوله؛ إذ هذا عبادة وإن كانوا لا يسمونها بذلك، فلا فرق بينه وبين شرك الجاهلية (إلا بالتسمية)؛ إذ حقيقة العبادة: كل قول أو عمل يوجه إلى معظَّم يرجى نفعه أو يخشى ضره وحده.

وقد أجابهم موسى عن طلبهم بقوله: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي إنكم تجهلون مقام التوحيد، وما يجب من تخصيص الله بالعبادة بلا واسطة ولا مظهر من المظاهر كالأصنام والتماثيل والعجل أبيس والثعابين، فالله قد كرم البشر وجعلهم أهلا لمعرفته ودعائه ومناجاته بلا واسطة تقربه إليهم فإنه أقرب إليهم من حبل الوريد.

و بعد أن بيَّن لهم جهلهم وسفههم، بيّن لهم فساد ما طلبوه عسى أن تستعد عقولهم لفهمه واستبانة قبحه فقال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٣٩﴾[١] أي إن هؤلاء القوم الذين يعكفون على هذه الأصنام مقضيٌّ على ما هم فيه بالتبار بما سيظهر من التوحيد الحق في هذه الديار، وزائل ما كانوا يعملون من عبادة غير الله ذي الجلال، فإنما بقاء الباطل في ترك الحق له وبعده عنه.

وفي هذا بشارة منه ﷺ بزوال الوثنية من تلك الأرض، وقد حقق الله ما قال.

﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢] أي قال لهم موسى: أأطلب لكم معبودا غير الله رب العالمين وخالق السموات والأرض، وقد فضلكم على العالمين بما جدد فيكم من التوحيد وهداية الدين، فماذا تبغون من عبادة غيره معه أو من دونه؟.

والخلاصة: إن موسى بدأ جوابه لقومه بإثبات جهلهم بربهم وبأنفسهم، وثنَّى ببيان فساد ما طلبوه وكونه عرضة للتبار والزوال لأنه باطل في نفسه، ثم انتقل إلى بيان أن العبادة لغير الله لا تصح البتة سواء أكان المعبود أفضل المخلوقات كالملائكة والنبيين، أو أخسها كالأصنام، ثم أنكر عليهم أن يكون هو الوساطة في هذا الجعل الذي دعا إليه الجهل، ليعلمهم أن طلب هذا الأمر المنكر منه ﷺ جهل بمعنى رسالته، وأيد إنكاره لكلا الأمرين بما يعرفون من فضل الله عليهم بتفضيلهم على أهل زمانهم ممن كانوا أرقى منهم مدنية وحضارة وسعة ملك وسيادة

---

(١) سورة الأعراف الآية: (١٣٩).

(٢) سورة الأعراف الآية: (١٤٠).

على بعض الشعوب، وهم فرعون وقومه، برسالة موسى وهرون منهم وتجديد ملة إبراهيم فيهم. . .

ثم ذكر سبحانه منّته على بني إسرائيل فقال: ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾[١] أي واذكروا إذ أنجيناكم بإرسال موسى وبما أيدناه به من الآيات، من آل فرعون الذين كانوا يسومونكم سوء العذاب بجعلكم عبيدا مسخرين لخدمتهم، ويقتلون ما يولد لكم من الذكور ويستبقون نساءكم لتزدادوا ضعفا بكثرتهن، وفي ذلكم العذاب والإنجاء منه بفضل الله عليكم وتفضيله إياكم على غيركم من سكان مصر، وسكان الأرض المقدسة التي سترثونها، بلاء عظيم أي اختبار لكم من ربكم المدبِّرِ لأموركم ليس هناك اختبار أعظم منه، فلا أجدر بالاعتبار والاستفادة من أحداث الزمان ممن يعطى النعمة بعد النقمة، وأحق الناس بمعرفة الله وإخلاص العبادة له من يرى في نفسه وفي الآفاق ما يوقن به أنه لا يمكن أن يكون فيه شركة لغير الله، وإن أعجب العجب أن تطلبوا بعد هذا كله ممن رأيتم على يديه هذه الآيات أن يجعل لكم آلهة من أخس المخلوقات، تجعلونها واسطة بينكم وبين الله، وهو قد فضلكم عليها وعلى من يعبدونها ومن هم أرقى منهم"[٢].

وذكر رحمه الله ما حصل من بني اسرائيل وعبادتهم العجل فقال بعد قول الله جل وعلا: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾[٣]: "أي وصاغ بنو إسرائيل من بعد ما فارقهم موسى ماضيا إلى ربه لمناجاته وفاء للموعد الذي وعده إياه، من حلي القبط التي كانوا استعاروها منهم عجلا جسدا له خوار، أي تمثالا له صورة العجل وبدنه وصوته ثم عبدوه، والذي فعل ذلك كما سيأتي في سورة طه هو السامري، وكان رجلا مطاعا فيهم ذا منزلة واحترام، وإنما نسبه إليهم لأنه عمل برأي جمهورهم الذين طلبوا أن يجعل لهم إلها يعبدونه.

---

(١) سورة الأعراف الآية: (١٤١).

(٢) تفسير المراغي(٣/٣٨٩- ٣٩٢).

(٣) سورة الأعراف الآية: (١٤٨).

قال ابن كثير: "وقد اختلف المفسرون في ذلك العجل هل صار لحما ودما له خوار، أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقر؟ على قولين والله أعلم"[(١)].

ويرى الرأي الأول قتادة والحسن البصري في جماعة آخرين، وتعليل ذلك عندهم: أن السامري رأى جبريل حين جاوز ببني إسرائيل البحر راكبا فرسا ما وطئ بها أرضا إلا حلت فيها الحياة، واخضرَّ نباتها، فأخذ من أثرها قبضة فنبذها في جوف تمثال العجل، فحلت فيه الحياة وصار يخور كما يخور العجل.

و يرى جماعة آخرون الرأي الثاني ويقولون: إن خواره كان بتأثير دخول الريح في جوفه وخروجها من فيه، ذاك أنه صنع تمثال عجل مجوَّفا ووضع في جوفه أنابيب على طريق فنيَّة مستمدة من دراسة علم الصوت، وجعل وضعه على مهب أنابيب الرياح، فمتى دخلت الريح في جوف التمثال انبعث منه صوت يشبه خوار العجل.

وقال آخرون: بل ذلك الخوار كان تمويها وعملا منه يشبه عمل (الحواة)[(٢)]، ذاك أنه جعل التمثال أجوف وجعل تحت المواضع الذي نصب فيه من ينفخ فيه من حيث لا يشعر الناس فسمعوا الصوت من جوفه كالخوار، والناس يفعلون مثل هذا في النافورات التي تجري فيها المياه، وبهذا الطريق ونحوه ظهر الصوت من التمثال ثم ألقى في روع الناس أن هذا العجل إلههم وإله موسى فعبدوه كلهم إلا هارون كما قال الحسن[(٣)].

فرد الله عليهم ضلالاتهم وأبان لهم فساد آرائهم وقرعهم على جهالاتهم فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾[(٤)]؛ أي ألم يروا أنه فاقد لما يعرف به الإله الحق من تكليمه لمن يختاره من البشر لرسالته لتعليم عباده ما يجب عليهم معرفته من صفاته وسبيل عبادته، كما كلم رب العالمين موسى وألقى إليه الألواح التي فيها من الشرائع ما يزكِّي النفوس، وتقوم بها مصالح العباد وعليها سعادتهم في دنياهم وآخرتهم.

---

(١) تفسير ابن كثير(٢/٣٠٢).

(٢) الحواة: جمع حاوي، وهو صاحب الحيات الذي يرقي الحيات ويجمعها، والرجل يقوم بأعمال غريبة والجمع حواة، يراجع، تهذيب اللغة للأزهري(٥/١٨٧)، والمعجم الوسيط(١/٢١٠) مادة (حوى).

(٣) انظر: هذه الأقوال في تفسير ابن جرير(١٨/٣٥٥-٣٦٢).

(٤) سورة الأعراف الآية: (١٤٨).

وخلاصة ذلك: إنه فاقد لأهم صفة من صفات الإله الحق، وهي صفة الهداية والإرشاد للعباد بإنزال الرسل الذين يختارهم إلى الناس، ومرجعها صفة الكلام.

ثم أكد ما سلف وقرره بقوله: ﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾[1]؛ أي إنهم لم يتخذوه عن دليل وبرهان، بل اتخذوه عن تقليد للمصريين إذ رأوهم يعبدون العجل (أبيس)[2] من قبل، وعن تقليد لما رأوه من العاكفين على أصنام لهم من بعد فعبدوه مثلهم"[3].

وذكر رحمه الله جهل المشركين في الجمع بين عمارة المسجد الحرام وبين عبادة الأصنام، فقال بعد قول الحق جل وعلا: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾[4]؛ أي ما كان من شأن المشركين ولا مما ينبغي لهم أن يعمروا مساجد الله التي منها المسجد الأعظم وهو بيته الحرام بالإقامة فيه للعبادة أو الخدمة والولاية عليه، ولا أن يزوروه حجاجا أو معتمرين، وقد شهدوا على أنفسهم بالكفر قولا وعملا بعبادتهم للأصنام والاستشفاع بها والسجود لما وضعوه منها في البيت عقب كل شوط من طوافهم، وقولهم حينئذ: «**لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك**»[5]؛ إذ في عملهم هذا جمع بين الضدين، فإن عمارة البيت الحسية إنما تكون لعمارته المعنوية بعبادته تعالى وحده، وذلك لا يقع إلا من المؤمن الموحّد لكنهم يشركون به غيره ويساوونه ببعض خلقه في العبادة، وخلاصة ذلك: إنهم يجمعون بين أمرين لا يعقل الجمع بينهما على وجه صحيح، عمارة البيت الحرام بزيارته للحج أو العمرة، والكفر بربه بمساواته ببعض خلقه من الأصنام والأوثان"[6].

---

(١) سورة الأعراف الآية: (١٤٨).

(٢) هو عجل كان للمصريين القدماء كانوا يعبدونه وكانوا يعتقدون إن الإله (أوسيرس) روحه توجد في العجل (أبيس)، انظر: محاسن التأويل للقاسمي(١٦٨/٥)، وتفسير المنار لرشيد رضا(٩٥/٩).

(٣) تفسير المراغي(٤٠٤/٣-٤٠٥).

(٤) سورة التوبة الآية: (١٧).

(٥) سبق تخريجه ص(١٤١).

(٦) تفسير المراغي(٤/ ٦٠).

وقال المراغي رحمه الله بعد تفسيره للآيات الدالة علي أن المشركين مقرين بتوحيد الربوبية فقال بعد قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾(١).

"قوله: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أي فقل لهم أيها الرسول الكريم: أفلا تتقون سخطه وعقابه لكم بشرككم وعبادتكم لغيره ممن لا يملك لكم ضرا ولا نفعا.

﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ﴾(٢)؛ أي فذلكم المتصف بكل تلك الصفات السالفة هو الله المربي لكم بنعمه والمدبر لأموركم، وهو الحق الثابت بذاته الحي المحيي لغيره المستحق للعبادة دون سواه.

﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾(٣)؛ أي فماذا بعد الرب الحق الثابتة ربوبيته إلا الضلال، أي الباطل الضائع المضمحل، فالذي يفعل تلك الأمور هو الرب الحق، وعبادته وحده هي الهدى، وما سواها من عبادة الشركاء والوسطاء ضلال، وكل من يعبد غيره معه فهو مشرك مبطل ضال.

﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾(٤) أي فكيف تتحولون عن الحق إلى الباطل وعن الهدى إلى الضلال؟ مع علمكم بما كان به الله هو الرب الحق، فما بالكم تقرُّون بتوحيد الربوبية دون توحيد الألوهية فتتخذون مع الله آلهة أخرى.

﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ ﴾(٥)، أي مثل ذلك الذي حقَّت به كلمة ربك من وحدة الربوبية والألوهية، وكون الحق ليس بعده لمن تنكَّب عنه إلا الضلال.

﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: أي وعيده على الذين خرجوا من حظيرة الحق، وهو توحيد الألوهية والربوبية وهداية الدين الحق.

---

(١) سورة يونس الآية: (٣١).

(٢) سورة يونس الآية: (٣٢).

(٣) سورة يونس الآية: (٣٢).

(٤) سورة يونس الآية: (٣٢).

(٥) سورة يونس الآية: (٣٣).

﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[(١)] أي هي أنهم لا يؤمنون بما يدعوهم إليه رسلنا من التوحيد والهدى مهما تكن الآية بيِّنة، والحجة ظاهرة قوية.

وليس المراد أنه يمنعهم من الإيمان بالقهر، بل هم يمتنعون منه باختيارهم لفقدهم نور البصيرة واستقلال العقل فلا يتوجهون إلى التمييز بين الحق والباطل، والهدى والضلال لرسوخهم في الكفر، واطمئنانهم به بالتقليد كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾[(٢)].

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾[(٣)]؛ أي قل لهم أيها الرسول: هل أحد من شركائكم الذين عبدتموهم مع الله أو من دون الله من الأصنام أو الأرواح الحالَّة فيها كما تزعمون، أو الكواكب السيارة أو غيرها من الأحياء كالملائكة والجن، من له هذا التصرف في الكون ببدء الخلق في طور ثم إعادته في طور آخر؟.

ولما كانوا لا يجيبون عن هذا السؤال كما أجابوا عن الأسئلة الأولى لإنكارهم للبعث والمعاد، لقَّن الله رسوله الجواب فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾[(٤)] إذ القادر على بدء الخلق يكون قادرا على إعادته بالأولى، وهم ينكرون إعادة الأحياء الحيوانية دون الأحياء النباتية، إذ هم يشاهدون بدء خلق النبات في الأرض حين ما يصيبها ماء المطر في فصل الشتاء وموته بجفافها في فصل الصيف والخريف، ثم إعادته بمثل ما بدأه مرة بعد أخرى، ويقرون بأن الله هو الذي يفعل البدء والإعادة، لأنهم يشاهدون كلا منهما وهم لا يسلمون إلا بما يرون بأعينهم أو يلمسونه بأيديهم.

وقد أمر الله رسوله أن يرشدهم إلى جهلهم وينبههم للتفكير في أمرهم فقال: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[(٥)] أي فكيف تصرفون من الحق الذي لا محيد عنه، وهو التوحيد إلى الضلال البيِّن، وهو الإشراك وعبادة الأصنام، وذلك من دواعي الفطرة وخاصة العقل حين تفكيره في المصير.

---

(١) سورة يونس الآية: (٣٣).

(٢) سورة يونس الآية: (٩٧).

(٣) سورة يونس الآية: (٣٤).

(٤) سورة يونس الآية: (٣٤).

(٥) سورة يونس الآية: (٣٤).

ثم جاء باحتجاج آخر على ما ذكره إلزاما لهم عقب الإلزام الأول، فسألهم عن شأن من شؤون الربوبية المقتضي لاستحقاق الألوهية وتوحيد العبادة الاعتقادية والعملية فقال: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾[١]، أي قل لهم أيها الرسول: هل من أولئك الشركاء من يهدي إلى الحق بوجه من وجوه الهداية التي بها تتم حكمة الخلق، كما يدل على ذلك قوله: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[٢].

والهداية أنواع: هداية الغريزة والفطرة التي أودعها الله في الإنسان والحيوان، وهداية الحواس من سمع وبصر ونحو ذلك، وهداية التفكير والاستدلال بوساطة هذه الوسائل، وهداية الدين، وهو للنوع البشري في جملته بمثابة العقل للأفراد، وهداية التوفيق الموصل بالفعل إلى الغاية بتوجيه النفس إلى طلب الحق وتسهيل سبله ومنع الصوارف عنه، ولما كانوا لا يستطيعون أن يدَّعوا أن أحدًا من أولئك الشركاء يهدي إلى الحق لا من ناحية الخلق ولا من ناحية التشريع، لقَّن الله رسوله الجواب فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾[٣] أي قل هو الله سبحانه الذي يهدي إلى الحق دون غيره بما نصب من الأدلة والحجج، وأرسل من الرسل، وأنزل من الكتب، وهدى إلى النظر والتدبّر، وأعطى من الحواس.

﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾[٤]. . . أي أفمن يهدي إلى الحق وهو الله أحق أن يتَّبع فيما يشرِّعه، أم من لا يهدي غيره ولا يهتدي بنفسه إلا أن يهديه غيره وهو الله تعالى، إذ لا هادي غيره.

ويدخل فيمن نفى عنهم الهداية ممن اتخذوا شركاء: المسيح عيسى بن مريم وعزير والملائكة، وهؤلاء كانوا يهدون إلى الحق بهداية الله ووحيه كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[٥].

---

(١) سورة يونس الآية: (٣٥).

(٢) سورة طه الآية: (٥٠).

(٣) سورة يونس الآية: (٣٥).

(٤) سورة يونس الآية: (٣٥).

(٥) سورة الأنبياء الآية: (٧٣).

﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[١]؛ أي أيُّ شيءٍ أصابكم وماذا حلَّ بكم حتى اتخذتم هؤلاء شركاء وجعلتموهم وسطاء بينكم وبين ربكم الذي لا خالق ولا رازق ولا هادي لكم سواه، كيف تحكمون بجواز عبادتهم وشفاعتهم عنده بدون إذنه.

وفي هذا تعجيب من حالهم وسوء صنيعهم وقبيح فعلهم.

وبعد أن أقام الحجج على توحيد الربوبية والألوهية، بيَّن حال المشركين الاعتقادية فقال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾[٢]؛ أي إن أكثرهم لا يتبعون في شركهم وعبادتهم لغير الله، ولا في إنكارهم للبعث وتكذيبهم للرسول عليه الصلاة والسلام إلا ضربا من ضروب الظن قد يكون ضعيفا، كأن يقيسوا غائبا على شاهد، ومجهولا على معروف، ويقلدون الآباء اعتقادا منهم أنهم لا يكونون على باطل في اعتقادهم، ولا ضلال في أعمالهم، وقليل منهم كان يعلم أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق والهدى، وأن أصنامهم وسائر معبوداتهم لا تضرُّ ولا تنفع، ولكنهم يجحدون بآيات الله، ويكذبون رسوله ﷺ عنادا واستكبارا وخوفا على زعامتهم أن تضيع سدى فيصبحون تابعين بعد أن كانوا متبوعين.

ثم بين حكم الله في الظن فقال: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾[٣] الحق: هو الثابت الذي لا ريب في ثبوته وتحققه، أي: إن الشك لا يقوم مقام اليقين في شيء ولا ينتفع به حيث يحتاج إلى اليقين.

وخلاصة ذلك: إن الظن لا يجعل صاحبه غنيًّا بعلم اليقين فيما يطلب فيه ذلك كالعقائد الدينية، وبهذا تعلم أن إيمان المقلد غير صحيح[٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[٥]؛ أي إن الله عليم بما كانوا يعملون بمقتضى اعتقاداتهم الظنية والقطعية، فهو يحاسبهم ويجازيهم على كل عمل منها، كتكذيبهم للرسول ﷺ مع قيام الأدلة القطعية على صدقه، واتباعهم للظن كالتقليد باتباع الآباء والأجداد"[٦].

---

(١) سورة يونس الآية: (٣٥).

(٢) سورة يونس الآية: (٣٦).

(٣) سورة يونس الآية: (٣٦).

(٤) سيأتي بحث ذلك في باب مسائل الأحكام ص(٧٢٢).

(٥) سورة يونس الآية: (٣٦).

(٦) تفسير المراغي(٤/٢٢٧-٢٣٦).

وساق المراغي قصة ضمام بن ثعلبة ﷺ حين وفد إلى النبي ﷺ وسأله عن الدين فقال: الله أمرك أن تأمرنا أن نعبده ولا نشرك به شيئا، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدونها معه؟ قال: «**اللهم نعم**»، وأنه كان أشعر ذا غديرتين[١]، وأن النبي ﷺ قال: «**إن صدق ذو العقيصتين**[٢] **يدخل الجنة**»، وذكر أنه خرج حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به أن قال: بئست اللات والعزّى، قالوا: مه! (أي كفَّ عن هذا!) يا ضمام، اتق البرص والجذام، اتق الجنون، قال: ويلكم إنهما والله ما يضرّان ولا ينفعان، إن الله قد بعث إليكم رسولا وأنزل كتابا استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، قد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه، فو الله ما أمسى في ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلما[٣][٤].

وقال عند قول الحق سبحانه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٥]؛ "أي قل لهم أيها الرسول إن كنتم في شك من ديني الذي أدعوكم إليه ولم يتبين لكم أنه الحق، فاسمعوا وصفه، واعرضوه على عقولكم، وانظروا فيه، لتعلموا أنه لا مدخل فيه للشك، إني لا أعبد الحجارة التي تعبدونها من دون إلهكم وخالقكم، بل أعبد الله الذي يقبض الخلق فيميتهم إذا شاء، وينفعهم ويضرهم إذا أراد، ومثل هذا هو الحقيق بأن يعبد وأن يخاف وأن يتّقى دون من لا يقدر على شيء من ذلك.

---

(١) غديرتين: واحدها غديرة، وهي الذؤابة والضفيرة انظر: تهذيب اللغة للأزهري(٨/٨٩)، والنهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير(٣/٣٤٥).

(٢) العقيصتين: واحدها العقيصة وهي الشعر المعقوص، وهو نحو من المضفور، وأصل العقص: اللي وإدخال أطراف الشعر في أصوله. النهاية في غريب الحديث والأثر(٣/٢٧٥).

(٣) أخرجه أحمد: (١/٢٦٤)، والدارمي في سننه، كتاب الطهارة، باب فروض الوضوء والصلاة، (١/٥١٦)، رقم الحديث(٦٧٨)، وأصله في البخاري، بكتاب العلم، باب ما جاء في العلم. وقوله تعالى: {وقل رب زدني علما}، (١/٦٧)، رقم الحديث(٦٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب في بيان الإيمان بالله وشرائع الدين(١/٤١)، رقم الحديث(١٢)، وصححه الألباني في تخريجه لفقه السيرة لمحمد الغزالي ص(٤٢٤).

(٤) تفسير المراغي: (٤/٢٤٧).

(٥) سورة يونس الآية: (١٠٤).

وفي ذلك تعريض لطيف وإيماء إلى أن مثل هذا الدين لا يشكُّ فيه، وإنَّما ينبغي أن تشكُّوا فيما أنتم عليه من عبادة الأصنام التي لا تعقل ولا تضر ولا تنفع، إذ عبادة الخالق لا يستنكرها ذوو الفطرة السليمة، أما عبادة الأصنام فيستنكرها كل ذي لبٍّ وعقل سليم.

وقد أمرت أن أكون من المؤمنين الذين وعدهم الله بالنجاة من عذابه، وينصرهم على أعدائهم واستخلافهم في الأرض.

﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(١)؛ أي وأمرت أن أكون من المؤمنين، وأمرت أن أقيم وجهي للدين القيم الذي لا عوج فيه حال كوني حنيفا أي مائلا عن غيره من الشرك والباطل، وذلك بالتوجه إلى الله وحده في الدعاء وغيره بدون التفات إلى شيء سواه، ونحو الآية قوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(٢)، فمن توجه قلبه إلى غيره في عبادة من العبادات ولا سيما مخُّ العبادة وروحها؛ وهو الدعاء فهو عابد له مشرك بالله.

ثم نهى رسوله عن ضد ذلك فقال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾أي ولا تكونن ممن يشرك في عبادة ربه الآلهة والأنداد، كأرباب الديانات الوثنية الباطلة الذين يجعلون بينهم وبين الله حجابا من الوسطاء والأولياء والشفعاء يوجهون قلوبهم إليهم عند الشدة تصيبهم والحاجة تستعصي عليهم، ليقضوا لهم حاجتهم إما بأنفسهم أو بشفاعتهم ووساطتهم عند ربهم، فإن فعلت ذلك كنت من الهالكين.

﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾(٣) أي ولا تدع أيها الرسول غيره تعالى دعاء عبادة، لا على سبيل الاستقلال ولا على سبيل الاشتراك بوساطة الشفعاء، مالا ينفعك في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يضرك إن تركت دعاءه ولا إن دعوت غيره.

﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٤) أي فإن فعلت هذا ودعوت غيره كنت في هذه الحال من الذين ظلموا أنفسهم، ولا ظلم لها أكبر من الشرك بالله تعالى، فدعاؤه وحده أعظم العبادات،

---

(١) سورة يونس الآية: (١٠٥).

(٢) سورة الأنعام الآية: (٧٩).

(٣) سورة يونس الآية: (١٠٦).

(٤) سورة يونس الآية: (١٠٦).

ودعاء غيره شرك وظلم للنفس؛ لإضافة التصرف إلى مالا يصدر منه، فهو وضع للشيء في غير موضعه.

وقد جاء في معنى الآية آيات كثيرة متفرقة في السور، لانتزاع هذا الشرك من قلوب السواد الأعظم من الناس، وقد انتزع من قلوب الذين أخذوا دينهم من كتاب ربهم، وكانت عبادتهم له دعاءه بالغدوّ والآصال والليل والنهار، وفيها نعي على الذين هجروا تدبر القرآن وتلقَّوا عقائدهم من الآباء والأمهات والمعاشرين الأميين الجاهليين فتوجهوا إلى القبور فزيَّنوها بالسرج والمصابيح، ودعوها من دون الله وتقربوا إليها بالهدايا والنذور لتكشف عنهم الضر وتعطيهم ما يرجون من النفع، ويتأوَّلون هذه الآيات الكثيرة فيزعمون أنها خاصة بعبادة الأصنام والنذر للأوثان، والتعظيم للصلبان، كأن الشرك بالله جائز من بعض المخلوقين دون بعض.

ثم أكد سبحانه المعنى السالف ودحض شبهة الذين يدعون غير الله، لأنهم طالما استفادوا من دعائهم والاستغاثة بهم فشفيت أمراضهم وكشف الضر عنهم، فقال: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾(١) أي وإن يمسسك الله أيها الإنسان بضر كمرض يصيبك بمخالفة سننه في حفظ الصحة، أو نقص في الأموال والثمرات بأسباب لك فيها عبرة، أو ظلم يقع عليك من غيرك، فلا كاشف له إلا هو، وقد جعل سبحانه للأشياء أسبابا يعرفها خلقه بتجاربهم ككشف الأمراض بمعرفة أسبابها، ومعرفة خواصِّ العقاقير التي تداوى بها، فعلينا أن نطلبها من الأسباب ونأتي البيوت من الأبواب، ونتوجه إلى الله وحده، وندعوه مخلصين له، متوكلين عليه.

﴿وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾(٢) أي وإن يردك ربك برخاء ونعمة وعافية فلا يقدر أحد أن يحول بينك وبين فضله الذي تعلقت به إرادته تعالى، فما شاء كان حتما، فلا يرجى خير ونفع إلا من فضله، ولا يخاف ردُّ ما يريده، فهو يصيب بالخير من يشاء من عباده بكسب أو بغير كسب، وبسبب ما قدَّره في السنن العامة وبغير سبب، ففضله تعالى على عباده عام بعموم رحمته، بخلاف الضر فإنه لا يقع إلا بسبب من الأسباب الخاصة

---

(١) سورة يونس الآية: (١٠٧).

(٢) سورة يونس الآية: (١٠٧).

بكسب العبد أو العامة في نظام الخلق كالأمراض التي تعرض بترك أسباب الصحة والوقاية جهلا أو تقصيرا، وفساد العمران وسقوط الدول الذي يقع بترك العدل وكثرة الظلم.

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾(١) أي وهو الغفور لذنوب من تاب وأناب من عباده من كفره وشركه إلى الإيمان به وطاعته، الرحيم بمن آمن به منهم فلا يعذبه بعد التوبة، ولولا مغفرته الواسعة ورحمته العامة لأهلك الناس جميعا بذنوبهم في الدنيا قبل الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾(٢) ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾(٣).

وذكر رحمه الله دعوة نبي الله يوسف عليه السلام وهو في السجن للسجناء إلى توحيد الله وترك الشرك، فقال عند قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾(٤):

"قوله: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾(٥) أي يا صاحبيَّ في السجن، وناداهما بعنوان الصحبة في هذه الدار التي هي دار الأشجان وموضع الهموم والأحزان، وفيها تصفو المودة وتخلص النصيحة ليُصغيا إلى مقاله، ويقبلا على استماع ما يلقي إليهما به، فالآذان حينئذ مرهفة، والقلوب قد انصرفت عن الدنيا ولذاتها، وتفرغت لعالم آخر غير ما يشغل الناس من زبرج هذه الحياة وزخرفها.

﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾(٦) هذا استفهام لتقرير ما يذكر بعده وتوكيده، والمراد بالتفرق في الذوات والصفات المعنوية التي ينعتونهم بها، والصفات الحسية التي يصورها لهم بها الكهنة والرؤساء من رسوم منقوشة، وتماثيل منصوبة، في المعابد والهياكل، والقهار: الغالب على أمره الذي لا يغلبه أحد.

والمعنى: أأرباب كثيرون هذا شأنهم في التفرق والانقسام، وما يقتضيه ذلك من التنازع والاختلاف في الأعمال والتدبير الذي يفسد النظام، خير لكما ولغيركما فيما تطلبون من

---

(١) سورة يونس الآية: (١٠٧).

(٢) سورة فاطر الآية: (٤٥).

(٣) سورة الشورى الآية: (٣٠).

(٤) سورة يوسف الآية: (٣٩).

(٥) سورة يوسف الآية: (٣٩).

(٦) سورة يوسف الآية: (٣٩).

كشف الضر وجلب النفع وكل ما تحتاجون فيه إلى المعونة من عالم الغيب، أم الله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لا ينازع ولا يعارض في تصرفه وتدبيره، وله القدرة التامة والإرادة العامة، وهو المسخر لجميع القوى والنواميس الظاهرة التي تقوم بها نظم العوالم السماوية والأرضية من نور وهواء وماء، والغائبة عنا كالملائكة والشياطين مما كان الجهل بحقيقتها هو سبب عبادتها والقول بربوبيتها؟ ولا شك أن الجواب عن هذا مما لا يختلف فيه عاقل، فلا خير في تفرق المعبودات التي لا تستطيع ضرًّا في الأرض والسموات.

ثم بين لهما أن ما يعبدونه ويسمونه آلهة إنما هي جعل منهم، وتسمية من تلقاء أنفسهم، تلقاها خلف عن سلف، ليس لها مستند من العقل ولا الوحي السماوي؛ فقال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾[1]؛ أي ما تعبدون من دون الواحد القهار إلا أسماء لمسميات وضعتموها أنتم وآباؤكم من قبلكم، ونحلتموها صفات الربوبية وأعمالها، وما هي بأرباب تخلق وترزق، وتضر وتنفع، ما أنزل الله حجة وبرهانا على أحد من رسله بتسميتها أربابا، حتى يقال إنكم تتبعونها تعبدا له وحده وطاعة لرسله.

والخلاصة: إنها تسمية لا دليل عليها من نقل سماوي فتكون أصلا من أصول الإيمان، ولا دليل عليها من عقل فتكون من نتاج الحجة والبرهان.

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[2]؛ أي ما الحكم الحق في الربوبية والعبادة إلا لله وحده يوحيه لمن اصطفاه من رسله، ولا يمكن بشرا أن يحكم فيه بهواه ورأيه، ولا بعقله واستدلاله، ولا باجتهاده واستحسانه، وهذه قاعدة اتفقت عليها كل الأديان، دون اختلاف في الأمكنة والأزمان.

ثم بين ما حكم به الله فقال: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[3]؛ أي أمر ألا تعبدوا غيره ولا تدعوا سواه، فله وحده اركعوا واسجدوا، وإليه وحده توجهوا حنفاء غير مشركين به شيئا من ملك من الملائكة ولا ملك من الملوك الحاكمين، ولا شمس ولا قمر ولا نجم ولا شجر، ولا حيوان كالعجل (أبيس) لدى المصريين.

---

(١) سورة يوسف الآية: (٤٠).

(٢) سورة يوسف الآية: (٤٠).

(٣) سورة يوسف: (٤٠).

فالمؤمن الصادق الإيمان لا يذل ولا يخزى لأحد غير الله مما خلق، بدعاء ولا استغاثة ولا طلب فرج من ضيق، لإيمانه بأنه هو الرب المدبر لكل شيء، وأن كل ما سواه فهو خاضع لسلطانه، ولا يملك لنفسه ولا لغيره غير ما أعطاه من القوى، فإليه وحده الملجأ في كل ما يعجز عنه الإنسان أو يجهله من الأسباب، وإليه المصير في الجزاء على الأعمال يوم يقوم الحساب.

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[(١)]؛ أي إن تخصيصه بالعبادة هو الدين الحق الذي لا عوج فيه، والذي دعا إليه جميع الرسل، ودلَّت عليه براهين العقل والنقل.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(٢)]؛ أن ذلك هو الدين الحق الذي لا اعوجاج فيه، لا ما ساروا عليه تبعا لآبائهم الوثنيين من الاعتقاد بأرباب متفرقين، وقد خفيت هذه الحقيقة على كثير ممن يدعون اتباع القرآن، فتراهم يتوجهون إلى غير الله من الأولياء والصلحاء إذا مسهم الضر، ويدعونهم خاشعين متذللين، ويسمونهم شفعاء ووسائل عند الله، وما هذا إلا مثل فِعْل مَنْ قبلهم من المشركين، فليس لهم من صفات الربوبية أدنى حظ، ولا من صفات الألوهية أقل نصيب"[(٣)].

وأوضح رحمه الله ضعف عقول المشركين وقلة تفكيرهم، كيف يدعون أصناما جمادا لا تسمع ولا تجيب؛ فقال عند قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾[(٤)]؛ أي والأصنام الذين يدعوهم المشركون ويتضرعون إليهم ويتجاوزون الله، لا يجيبونهم بشيء مما يريدونه من نفع أو ضر، إلا كما يجيب الماء لمن بسط كفيه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه، والماء جماد لا شعور له ببسط الكفين ولا قبضهما، فكيف يجيب دعاءه، وهكذا أصنامهم لا تحير جوابا.

---

(١) سورة يوسف الآية: (٤٠).

(٢) سورة يوسف الآية: (٤٠).

(٣) تفسير المراغي(٤/٤٠٨-٤٠٩).

(٤) سورة الرعد الآية: (١٤).

وخلاصة ذلك: إنه شبه آلهتهم حين استكفوا بهم ما أهمهم، وهم لا يشعرون بشيء فضلا عن أن يجيبوا أحدًا بماء بمرأى من عطشان باسط كفيه إليه يناديه هلمَّ أقبل إليَّ! وهو لا يستطيع ردا ولا جوابا.

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾[١]؛ أي في ضياع وخسار، فإن دعوا الله لم يجبهم، وإن دعوا الأصنام لم تستطع إجابتهم"[٢].

وقال رحمه الله بعد قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[٣]؛ "عبدوها معه من أصنام وأوثان وأنداد، ثم أعقب ذلك بتوبيخ إثر توبيخ، فقال: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي صفوهم، فهل لهم ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة، وقد يكون المعنى، سموهم من هم وما أسماؤهم؟ فإنهم ليسوا ممن يذكر ويسمَّى، فإنما يسمى من ينفع ويضر.

﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي بل أ تخبرونه بشركاء يستحقون العبادة لا يعلمهم، أو تخبرونه بصفات لهم يستحقون لأجلها العبادة وهو لا يعلمها، وفي هذا نفي لوجودها، لأنها لو كانت موجودة لعلمها، لأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي بل أتسمونهم شركاء ظنا منكم أنهم ينفعون ويضرون كما تسمونهم آلهة كما قال: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[٤].

وخلاصة حجاجه على المشركين: نفي الدليل العقلي والدليل النقلي على أحقية عبادتها، فبعد أن هدم قاعدة الإشراك بقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾[٥] زاد ذلك إيضاحا فقال: وليتهم إذ أشركوا بربهم الذي لا ينبغي أن يشرك به، أشركوا به من له حقيقة واعتبار ومن

---

(١) سورة الرعد الآية: (١٤).

(٢) تفسير المراغي(٥/٦٩).

(٣) سورة الرعد الآية: (٣٣).

(٤) سورة النجم الآية: (٢٣).

(٥) سورة الرعد الآية: (٣٣).

ينفع ويضر، لا من لا اسم له فضلا عن المسمى، بل من لا يعرف له وجود في الأرض ولا في السماء، ويريدون أن ينبئوا عالم السر والنجوى بما لا يعلمه، ثم زاد على ذلك فقال: وما تلك التسمية إلا بظاهر من القول من غير أن يكون تحتها طائل وما هي إلا أصوات جوفاء كثيرة المباني خالية من المعاني.

﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ﴾ أي دع هذا الحجاج وألق به جانبا، فإنه لا فائدة فيه، لأنه زيَّن لهم كيدهم، لاستسلامهم للشرك، وتماديهم في الضلال.

﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي وصرفوا عن سبيل الحق، بما زين لهم من صحة ما هم عليه.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أي ومن يخذله الله لسوء اعتقاده وفساد أعماله واجتراحه للآثام والمعاصي فلا هادى له يوفقه إلى النجاة ويوصله إلى طرق السعادة"[(١)].

وذكر المراغي رحمه الله أن من أعظم الظلم أن ينعم الله على الإنسان ثم يشرك معه آلهة أخرى؛ فقال بعد قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[(٢)]؛ "أي إن الإنسان الذي بدَّل نعمة الله كفرا لشاكر غير من أنعم عليه، فهو بذلك واضع للشكر في غير موضعه، ذاك أن الله هو الذي أنعم عليه بما أنعم، واستحق إخلاص العبادة له، فعبد هو غيره وجعل له أندادا ليضل عن سبيله وذلك هو ظلمه، وهو جحود لنعمه التي أنعم بها عليه، لصرفه العبادة إلى غير من أنعم بها عليه، وتركه طاعة من أنعم عليه"[(٣)].

وأوضح رحمه الله حقيقة الأصنام وغيرها مما يعبد من دون الله فذكر عند تفسير قوله ﷻ: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[(٤)]؛ "أي أفمن يخلق هذه الخلائق العجيبة التي عددناها عليكم، وينعم هذه النعم العظيمة، كمن لا يخلق شيئا ولا ينعم نعما صغيرة ولا كبيرة، أفلا تذكرون هذه النعم، وهذا السلطان العظيم والقدرة على ما شاء من الحكمة، وعجز أوثانكم

(١) تفسير المراغي(٥/٨٩-٩٠).
(٢) سورة إبراهيم الآية: (٣٤).
(٣) تفسير المراغي(٥/١٣٢).
(٤) سورة النحل الآية: (١٧).

وضعفها ومهانتها، وأنها لا تجلب إلى نفسها نفعا، ولا تدفع ضرا، فتعرفوا بذلك خطأ ما أنتم عليه من عبادتها، وإقراركم لها بالألوهية.

وخلاصة هذا: الإنكار عليهم ورميهم بالجهل وسوء التقدير وقلة الشكر لمن أنعم عليهم بما لا يحصى من النعم، مع وضوح ذلك وقلة احتياجه إلى تدبر وتفكر وإطالة نظر، بل يكفي فيه تنبه العقل، ليعلم أن العبادة لا تليق إلا للمنعم بكل هذه النعم، أما هذه الأصنام التي لا فهم لها ولا قدرة ولا اختيار، فلا تنبغي عبادتها ولا الاشتغال بطاعتها.

قال قتادة في الآية: (الله هو الخالق الرازق، لا هذه الأوثان التي تعبد من دون الله، لا تخلق شيئا ولا تملك لأهلها ضرا ولا نفعا)(١).

وبعد أن نبههم سبحانه إلى عظمته ذكَّرهم بنعمه عليهم وإحسانه إليهم؛ فقال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾(٢)؛ أي وإن تعدوا نعم الله لا تضبطوا عددها فضلا عن أن تستطيعوا القيام بشكرها، فإن العبد مهما أتعب نفسه في طاعته، وبالغ في شكران نعمه، فإنه يكون مقصرا، فنعم الله كثيرة، وعقل المخلوق قاصر عن الإحاطة بها، ومن ثم فهو يتجاوز عن ذلك التقصير، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾(٣) فيستر عليكم تقصيركم في القيام بشكرها، ﴿رَّحِيمٞ﴾ بكم فيفيض عليكم نعمه مع استحقاقكم للقطع والحرمان، بما تأتون وما تذرون من أصناف الكفر والعصيان، ومن أفظع ذلك وأعظمه جرما المساواة بين الخالق والمخلوق.

قال بعض الحكماء: إن أي جزء من البدن إذا اعتراه الألم نغَّص على الإنسان النعم، وتمنى أن ينفق الدنيا لو كانت في ملكه حتى يزول عنه ذلك الألم، وهو سبحانه يدبِّرُ جسم الإنسان على الوجه الملائم له، مع أنه لا علم له بوجود ذلك، فكيف يطيق حصر نعمه عليه أو يقدر على إحصائها، أو يتمكن من شكر أدناها؟.

ربنا هذه نواصينا بيدك، خاضعة لعظم نعمك، معترفة بالعجز عن تأدية الشكر لشيء منها، لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، ولا نطيق التعبير بالشكر لك،

---

(١) تفسير ابن جرير(١٧/١٨٧).

(٢) سورة النحل الآية: (١٨).

(٣) سورة النحل الآية: (١٨).

فتجاوز عنا، واغفر لنا، وأسبل ذيول سترك على عوراتنا، فإنك إلا تفعل نهلك، لتقصيرنا في شكر نعمك، فكيف بما فرط منا من التساهل في الائتمار بأوامرك، والانتهاء عن مناهيك؟

العفو يرجى من بني آدم   فكيف لا يرجى من الربِّ! [1]

و بعد أن أبطل عبادة الأصنام، من قبل أنها لا قدرة لها على الخلق والإنعام، أبطل عبادتها بوجه آخر وهو أن الإله يجب أن يكون عليما بالسر والعلانية، وهذه الأصنام جماد لا معرفة لها بشيء فكيف تحمل عبادتها؟! وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾[2]؛ أي والله يعلم ما تسرونه في ضمائركم، وتخفونه عن غيركم، وما تبدونه بألسنتكم وجوارحكم وأفعالكم، وهو مُحْصٍ ذلك كلَّه عليكم فيجازيكم به يوم القيامة، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء منكم بإساءته، وهو سائلكم عما كان منكم من الشكر في الدنيا على النعم التي أنعمها عليكم فيها، ما أحصيتم منها وما لم تحصوا.

ثم وصف سبحانه هذه الأصنام بصفات تجعلها بمعزل عن استحقاق العبادة تنبيها إلى كمال حماقة المشركين وأنهم لا يفهمون ذلك إلا بالتصريح دون التلويح فقال:

(١) ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾[3]؛ أي والأوثان التي تعبدونها من دون الله لا تخلق شيئا بل هي مخلوقة، فكيف يكون إلها ما يكون مصنوعا! وغيره هو الذي دبَّر وجوده، ونحو الآية قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾[4].

(٢) ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ﴾[5]؛ أي هي أموات ولا تعتريها الحياة بوجه، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، وفائدة قوله: ﴿غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ﴾ بيان أن بعض ما لا حياة فيه قد تدركه الحياة بعد كالنطفة التي ينشئها الله تعالى حيوانا، وأجساد الحيوان التي تبعث بعد موتها، أما هذه الأصنام من الحجارة والأشجار فلا يعقب موتها حياة وذلك أتم في نقصها.

---

(١) من شعر أبي يعلى البصري، انظر: يتيمة الدهر للثعالبي(٥/٢٨).

(٢) سورة النحل الآية: (١٩).

(٣) سورة النحل الآية: (٢٠).

(٤) سورة الصافات الآية: (٩٦).

(٥) سورة النحل الآية: (٢١).

(٣) ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[١]؛ أي وما تدري هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله متى تبعث عبدتها، ولا يخفى ما في ذلك من التهكم بها، لأن شعور الجماد بالأمور الظاهرة بديهي الاستحالة لدى كل أحد، فكيف بما لا يعلمه إلا العليم الخبير، كما أن فيه تهكما بالمشركين من قبل أن آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم ليجازوهم على عبادتهم إياهم، وفيه تنبيه إلى أن البعث من لوازم التكليف، لأنه جزاء على العمل من خير أو شر، وأن معرفة وقته لا بد منه في الألوهية.

ولما أبطل طريق عبدة الأصنام وبيَّن فساد مذهبهم صرح بالمدَّعى ولخص النتيجة بعد إقامة الحجة فقال: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾[٢]؛ أي معبودكم الذي يستحق العبادة وإفراد الطاعة له دون سائر الأشياء، معبود واحد لا تصلح العبادة إلا له، فأفردوا له الطاعة، وأخلصوا له العبادة، ولا تجعلوا معه شريكا سواه.

ثم ذكر الأسباب التي لأجلها أصرَّ الكفار على الشرك وإنكار التوحيد؛ فقال: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[٣]؛ "أي فالذين لا يصدقون بوعد الله ولا وعيده، ولا يقرون بالمعاد إليه بعد الممات، قلوبهم جاحدة لما قصصناه عليكم، من قدرة الله وعظمته، وجزيل نعمه عليهم، وأن العبادة لا تصلح إلا له، والألوهية ليست لشيء سواه، فلا يؤثر فيها وعظ، ولا ينجع فيها تذكير وهم مستكبرون عن قبول الحق، متعظِّمون عن الإذعان للصواب، مستمرون على الجحد، تقليدا لما مضى عليه آباؤهم من الشرك به كما حكى سبحانه عنهم قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[٤]، وقولهم: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[٥]؛ وقال: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[٦].

---

(١) سورة النحل الآية: (٢١).

(٢) سورة النحل الآية: (٢٢).

(٣) سورة النحل الآية: (٢٢).

(٤) سورة الزخرف الآية: (٢٣).

(٥) سورة ص الآية: (٥).

(٦) سورة الزُّمَر الآية: (٤٥).

ثم ذكر وعيدهم على أعمالهم فقال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[١]؛ أي حقا إن الله يعلم ما يسر هؤلاء المشركون من إنكارهم لما قصصته عليك واستكبارهم على الله، ويعلم ما يعلنون من كفرهم به، وافترائهم عليه.

ثم علل سوء صنيعهم بشدة استكبارهم فقال: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾[٢]؛ أي إن الله لا يحب المستكبرين عن توحيده، والاستجابة لأنبيائه ورسله، بل يبغضهم أشد البغض، وينتقم منهم أعظم الانتقام"[٣].

وقال رحمه الله: "حكى سبحانه بعض قبائح المشركين الذين عبدوا الأوثان والأصنام وعدَّ منها:

(١) ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾[٤] أي ويجعل هؤلاء المشركون للأصنام التي لا يعلمون منها ضرًّا ولا نفعًا نصيبًا مما رزقناهم من الحرث والأنعام، وغيرهما مما خلق الله يتقربون به إليها، وهذا إشراك منهم لما لا يعلمون منه الفائدة بالذي يعلمون أنه الذي هو خلقهم، وهو الذي رزقهم، وهو الذي ينفعهم وهو الذي يضرهم دون غيره، وقد سبق تفصيل ذلك فيما حكى الله عنهم في سورة الأنعام بقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[٥].

(٢) ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾[٦]؛ أي ولقد بلغ من جهل هؤلاء المشركين وعظيم أباطيلهم أنهم يجعلون لمن خلقهم، ودبَّر شؤونهم، واستحق شكرهم على جزيل نعمائه البنات، إذ قالت خزاعة: الملائكة بنات الله كما قال عز اسمه: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾[٧]، وعبدوها مع الله وقد أخطئوا في ذلك خطأ كبيرا، وضلُّوا ضلالًا

---

(١) سورة النحل الآية: (٢٣).

(٢) سورة النحل الآية: (٢٣).

(٣) تفسير المراغي(٥/ ١٩٥-١٩٨).

(٤) سورة النحل الآية: (٥٦).

(٥) سورة الأنعام الآية: (١٣٦).

(٦) سورة النحل الآية: (٥٧).

(٧) سورة الزُّخرُف الآية: (١٩).

بعيدا، إذ نسبوا إليه الأولاد ولا أولاد له، وأعطوه منها أخسَّها وهي البنات وهم لا يرضونها لأنفسهم، بل لا يرضون إلا البنين كما قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾[1]، وقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[2].

والمراد من قوله: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾: أنهم يختارون لأنفسهم الذكور ويأنفون من البنات التي نسبوها إلى الله، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرا.

قال ابن عباس يقول: تجعلون لي البنات، ترتضونهن لي ولا ترتضونهنَّ لأنفسكم[3]"[4].

وذكر المراغي رحمه الله أن الله بيَّن بطلان عبادة الأصنام والأوثان "فضرب لذلك مثلين يؤكد بهما إبطال عبادتها:

أولهما: العبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، والحر الكريم الغني الكثيرُ الإنفاقِ سرًّا وجهرا، ولفت النظر إلى أنهما هل يكونان في نظر العقل سواء مع تساويهما في الخلق والصورة البشرية؟ وإذا امتنع ذلك فكيف ينبغي أن يسوى بين القادر على الرزق والإفضال، والأصنام التي لا تملك ولا تقدر على النفع والضر.

والثاني: مثل رجلين أحدهما أبكم عاجز لا يقدر على تحصيل خير وهو عبء ثقيل على سيده، وثانيهما حوَّل[5] قلَّب ناطق كامل القدرة، أيستويان لدى أرباب الفكر مع استوائهما في البشرية؟ وإذا فكيف يدور بخلد عاقل مساواة الجماد برب العالمين في الألوهية والعبادة؟. . .

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾[6]؛ أي ويعبد هؤلاء المشركون بالله من دونه أوثانا لا تملك لهم رزقا من السموات، فلا تقدر على إنزال القطر منها لإحياء الميت من الأرضين، ولا تملك لهم رزقا منها، فلا تقدر على إخراج

---

(١) سورة النجم الآية: (٢٢).

(٢) سورة الصافات الآية: (١٥٤).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره(٢٢٨٧/٧)، والسيوطي في الدر المنثور(١٤١/٥).

(٤) تفسير المراغي(٢٢٠/٥-٢٢١)

(٥) رجل حُوَّلٌ بتشديد الواو أي بصير بتحويل الأمور، انظر: لسان العرب(١٨٤/١١).

(٦) سورة النحل الآية: (٧٣).

شيء من نباتها ولا ثمارها، ولا على شيء مما ذكر في سالف الآيات مما أنعم الله به على عباده، ولا يستطيعون أن يملكوا ذلك ولا يمكنهم.

وفائدة قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أن من لا يملك شيئا قد يكون في استطاعته أن يتملكه بوجه، فبين بذلك أن هذه الأصنام لا تملك وليس في استطاعتها تحصيل الملك.

وبعد أن بيَّن ضعفها وعجزها رتب على ذلك ما هو كالنتيجة له فقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾(١)؛ أي فلا تجعلوا لله مثلا ولا تشبِّهوه بخلقه، فإنه لا مثل له ولا شبيه.

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال في الآية: «أي لا تجعلوا معي إلها غيري، فإنه لا إله غيري»(٢).

ثم هددهم على عظيم جرمهم، وكبير ما اجترحوا من الكفر والمعاصي فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٣)؛ أي إن الله يعلم كنه ما تفعلون من الإجرام وعظيم الآثام، وهو معاقبكم عليه أشد العقاب، وأنتم لا تعلمون حقيقته ولا مقدار عقابه ومن ثم صدر ذلك منكم وتجاسرتم عليه ونسبتم إلى الأصنام ما لم يصدر منها ولا هي منه في قليل ولا كثير.

وبعد أن نهاهم سبحانه عن الإشراك أعقبه بمثل يكشف عن فساد ما ارتكبوه من الحماقات والجهالات؛ فقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ﴾(٤)؛ أي إن مثلكم في إشراككم بالله الأوثان، مثل من سوَّى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف، وحرٍّ مالكٍ ما لا ينفق منه كيف يشاء، ويتصرف فيه كما يريد، والفطرة الأولى تشهد بأنهما ليسا سواء في التجلة والاحترام، مع استوائهما في الخلق والصورة، فكذلك لا ينبغي لعاقل أن يسوِّيَ بين الإله القادر على الرزق والإفضال والأصنام التي لا تملك ولا تقدر على شيء البتة.

---

(١) سورة النحل الآية: (٧٤).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره(١٧/٢٦٠)، وابن أبي حاتم في تفسيره(٧/٢٢٩٢)، والسيوطي في الدر المنثور(٥/١٥٠).

(٣) سورة النحل الآية: (٧٤).

(٤) سورة النحل الآية: (٧٥).

ثم ذكر ما هو كالنتيجة لما سلف فقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[(١)]؛ أي الحمد الكامل لله خالصا دون ما تدعون من دونه من الأوثان، فإياه فاحمدوا دونها، ما الأمر كما تفعلون، ولا القول كما تقولون، فليس للأوثان عندكم من يد ولا معروف فتحمد عليه، إنما الحمد لله، ولكن أكثر هؤلاء الكفار الذين يعبدونها لا يعلمون أن ذلك كذلك، فهم بجهلهم بما يأتون وما يذرون يجعلونها لله شركاء في العبادة والحمد.

ثم ضرب مثلا آخر يدل على ما يدل عليه المثل السابق على وجه أظهر وأوضح فقال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[(٢)]؛ أي ضرب الله مثلا لنفسه والآلهة التي يعبدونها من دونه مثل رجلين أحدهما أخرس أصم لا يفهم ولا يُفْهِم، فلا يقدر على شيء مما يتعلق بنفسه أو بغيره، وهو عيال على من يعوله ويلي أمره، حيثما يرسله مولاه في أمر لا يأت بنجح ولا كفاية مهمٍّ، وثانيهما رجل سليم الحواس عاقل ينفع نفسه وينفع غيره، يأمر الناس بالعدل وهو على سيرة صالحة ودين قويم هل يستويان؟، كذلك الصنم لا يسمع شيئا ولا ينطق؛ لأنه إما خشب منحوت، وإما نحاس مصنوع لا يقدر على نفع من خدمه، ولا دفع ضر عنه، وهو كَلٌّ على من يعبده، يحتاج أن يحمله ويضعه ويخدمه، وهو لا يعقل ما يقال له فيأتمر بالأمر، ولا ينطق فيأمر وينهى، هل يستوي هو ومن يأمر بالحق ويدعو إليه، وهو الله الواحد القهار الذي يدعو عباده إلى توحيده وطاعته!، وهو مع أمره بالعدل على طريق مستقيم لا يعوجُّ عن الحق ولا يزول عنه"[(٣)].

وذكر رحمه الله فعل النبي ﷺ في الأصنام المعلقة على الكعبة يوم الفتح فقال: "أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال: «**دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح وكان حول البيت ثلاثمائة وستون صنما، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول:** ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾[(٤)]، ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾[(٥)]»[(١)].

---

(١) سورة النحل الآية: (٧٥).

(٢) سورة النحل الآية: (٧٦).

(٣) تفسير المراغي(٥/٢٣٥- ٢٣٦).

(٤) الإسراء الآية: (٨١).

(٥) سورة سبأ الآية: (٤٩).

وفي رواية للطبراني والبيهقي عن ابن عباس: «أنه ﷺ جاء ومعه قضيب، فجعل يهوي به إلى كل صنم منها فيخرّ لوجهه فيقول: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾(٢)، **حتى مر عليها كلّها**»(٣)"(٤).

وذكر المراغي رحمه الله أن المنكرين للتوحيد فريقان:

الأول: "فريق أثبتوا معبودا سوى الله حيا عاقلا وهم النصارى".

والثاني: "فريق أثبتوا معبودا هو جماد ليس بحي ولا عاقل، وهم عبدة الأصنام".

ثم قال: "والفريقان وإن اشتركا في الضلال، فضلال الفريق الثاني أشد، ومن ثم قدَّم الكلام في النصارى على الكلام في عبدة الأصنام.

وذكر قصص إبراهيم أوّلا لأنه أبو العرب وكانوا مقرين بعلوّ شأنه، معترفين بدينه كما قال: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾(٥) إلَّا أنه تعالى نبَّههم إلى أن الطريق التي جروا عليها، وهي التقليد بنحو قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾(٦) تخالف طريق الاستدلال التي سار عليها أبوهم إبراهيم في حجاجه مع أبيه آزر".

ثم قال: "وقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ٤١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾(٧)؛ "أي واتل أيها الرسول على قومك الذين يعبدون الأصنام ما

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: {وقل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا}، (٨٧٦/٢)، رقم الحديث(٤٧٢٠)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب: إزالة الأصنام من حول الكعبة، (١٧٣/٥)، رقم الحديث(١٧٨١).

(٢) الإسراء الآية: (٨١).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير(٢٧٢/٢)، رقم الحديث(١١٥٢)، وفي الكبير(٢٧٩/١٠)، رقم الحديث(١٠٦٥٦)، وأبو نعيم في الحلية(٢١١/٣)، والبيهقي في دلائل النبوة، باب دخول النبي ﷺ مكة يوم الفتح. . . . ، (٧١/٥)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد(٥١/٧): "رواه الطبراني في الصغير وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات"، قلت: وقد ورد تصريحه بالسماع عند الطبراني في الكبير وأبي نعيم في الحلية والبيهقي في دلائل النبوة فالإسناد صحيح.

(٤) تفسير المراغي(٣٤٨/٥).

(٥) سورة الحج الآية: (٧٨).

(٦) سورة الزُّخرُف الآية: (٢٣).

(٧) سورة مريم الآية: (٤٢).

كان من خبر إبراهيم خليل الرحمن الذين هم من ذريته ويدَّعون أنهم على ملته -وهو الصِّدِّيق النبيُّ- حين نهى قومه عن عبادتها، وقال لأبيه: ما الذي حبَّب إليك أن تعبد ما لا يسمع ثناءك على حين عبادتك له، ولا يبصر خشوعك وخضوعك بين يديه، ولا ينفعك فيدفع عنك ضرا إذا استنصرت به؟.

وقد سلك عليه السلام في دعوته أجمل الآداب في الحجاج، واحتج بأروع البرهانات ليرده عن غيِّه، ويقفه على طريق الهدى والرشاد، فاستهجن منه أن يعبد ما يستخفُّ به كل ذي لبٍّ، ويأبى الركون إليه كل ذي عقل، فالعبادة هي الغاية القصوى في التعظيم، فلا يستحقها إلا الخالق الرازق، المحيي المميت، المثيب المعاقب، لا الأصنام التي لا تسمع الأصوات، ولا تنظر الأشياء، وتعجز عن جلب المنافع، ودفع المضار، وقصارى ما قال: إن الإنسان السميع البصير يأنف أن يعبد نظيره، فكيف تعبد ما خرج عن الألوهية بفقره وضعفه واحتياجه إلى من يصنعه، وعن الإنسانية بفقد العقل، وعن الحيوانية بفقد الحواس، أما كان لك عبرة في حاجته وفقده السمع والبصر؟.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾[1]؛ أي يا أبي إني وإن كنت من صلبك، وتراني أصغر منك لأني ولدك، فاعلم أنِّي قد اطَّلعت من العلم على ما لم تعلمه أنت ولا اطلعت عليه، فاتبعني أهدك طريقا مستقيما لا زيغ فيه، يوصلك إلى نيل المطلوب، وينجيك من كل مرهوب.

وفى قوله: قد جاءني إيماء إلى أن هذه المحاورة كانت بعد أن نبئ، ولم يعين ما جاءه ليشمل كل ما يوصِّله إلى الجنة ونعيمها، ويبعد به عن النار وعذابها.

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾[2]؛ أي لا تطع الشيطان في عبادة هذه الأصنام، فإنه هو الداعي إلى عبادتها والموسوس بها، ونحو الآية قوله: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾[3]، وقوله: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا﴾[4].

---

(١) سورة مريم الآية: (٤٣).

(٢) سورة مريم الآية: (٤٤).

(٣) سورة يس الآية: (٦٠).

(٤) سورة النساء الآية: (١١٧).

ثم بيَّن سبب النهي عن طاعته بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾[١]؛ أي إن الشيطان عاص مستكبر عمن شملته رحمتك، وعمَّته نعمتك، ولا ريب في أن من أطاع العاصي يكون عاصيا وجديرا بأن تسترد منه النعم، وحقيقا بأن تنزل عليه النقم"[٢].

وقال رحمه الله عند تفسير قوله ﷻ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ﴾[٣]؛ أي بل اتخذوا آلهة من الأرض هم مع حقارتهم وجماديتهم ينشرون الموتى، وإنهم ولا شك بمعزل عن ذلك، والمشركون وإن لم يقولوا ذلك صريحا، فما ادَّعوه لها من الألوهية يستدعي ثبوت إحياء الموتى لها، لأنه من خصائصها.

ووصف الآلهة بكونها من الأرض؛ للإشارة إلى أنها من الأصنام التي تعبد فيها، وللإيماء إلى ضعة شأنها، وحقارة أمرها.

ثم أقام الدليل العقلي على التوحيد، ونفى أن يكون هناك إله غير الله فقال: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[٤]؛ أي لو كان في السموات والأرض إله غير الله لخربتا وهلك من فيهما؛ ذاك أنه لو كان فيهما إلهان فإما أن يختلفا أو يتفقا في التصرف في الكون، والأول ظاهر البطلان، لأنه إما أن ينفذ مرادهما معا فيريد أحدهما الإيجاد والثاني لا يريده فيثبت الوجود والعدم لشيء اختلفا فيه، وأما أن ينفذ مراد أحدهما دون الثاني، فيكون هذا مغلول اليد عاجزا، والإله لا يكون كذلك، والثاني باطل أيضا، لأنهما إذا أوجداه معا وجب توارد الخلق من خالقين على مخلوق واحد.

ولما أثبت بالدليل أن المدبر للسموات والأرض لا يكون إلا واحدا، وأن ذلك الواحد لا يكون إلا الله قال: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[٥] أي فتنزيها لله رب العرش المحيط بهذا الكون ومركز تدبير العالم عما يقول هؤلاء المشركون من أن له ولدا أو شريكا.

ثم أكد هذا التنزيه بقوله: ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾[١]؛ أي هو الحاكم الذي لا معقِّب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد، لعظمته وجلاله، وعلمه وحكمته، وعدله ولطفه، وهو

---

(١) سورة مريم الآية: (٤٤).

(٢) تفسير المراغي(٦/٤٦– ٤٨).

(٣) سورة الأنبياء الآية: (٢١).

(٤) سورة الأنبياء الآية: (٢٢).

(٥) سورة الأنبياء الآية: (٢٢).

سائل خلقه عما يعملون كما قال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٢]، وقال: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾[٣].

ثم أعاد الإنكار مرة أخرى استفظاعا لشأنهم، واستعظاما لكفرهم، وإظهارا لجهلهم فقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾[٤]؛ أي أبعد هذه الأدلة التي ظهرت تقولون: إن لله شركاء؟.

ثم أمرهم بإقامة الدليل على صحة ما يدَّعون فقال: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾[٥]؛ أي بعد أن ثبت أنه لا إله غيره، فهاتوا برهانكم على صحة اتخاذ الآلهة من الأصنام والأوثان، ولا سبيل إلى ذلك، لا بالدليل العقلي، لأنه مر بطلانه، ولا بالدليل النقلي، لأن الكتب السماوية جميعا متفقة على هذا، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾[٦]؛ أي هذا هو الكتاب المنزل على من معي، وهذه هي الكتب المنزلة على من تقدمني من الأنبياء كالتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى، انظروا فيها هل تجدون إلا الأمر بالتوحيد والنهي عن الإشراك.

قال الزجاج: "قيل لهم: هاتوا برهانكم بأن رسولا من الرسل أنبأ أمته بأن لهم إلها غير الله، فهل في ذكر من معي وذكر من قبلي إلا توحيد الله؟ "[٧].

وفى هذا تبكيت لهم متضمن إثبات نقيض مدَّعاهم، وإذا فليس لهم إلا العجز مركبا.

ولما كانوا لا يجدون لهم شبهة فضلا عن حجة، ذمهم على جهلهم بمواضع الحق فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ﴾[٨]؛ أي بل أكثر هؤلاء لا يميزون بين الحق والباطل، فلا تؤثِّر فيهم الحجة والبرهان ولا يقتنعون به.

---

(١) سورة الأنبياء الآية: (٢٣).

(٢) سورة الحِجر الآية: (٩٣).

(٣) سورة المؤمنون الآية: (٨٨).

(٤) سورة الأنبياء الآية: (٢٤).

(٥) سورة الأنبياء الآية: (٢٤).

(٦) سورة الأنبياء الآية: (٢٤).

(٧) معاني القرآن للزجاج(٣/٣٨٩).

(٨) سورة الأنبياء الآية: (٢٤).

ثم ذكر أن هذا كان سببا في إعراضهم وتجافيهم عن سماع الحق فقال: ﴿فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾[(١)]؛ أي فهم لأجل هذا الجهل المستولي على أكثرهم أعرضوا عن قبول الحق وعن النظر الموصل إليه، فلا يتأملون حجة، ولا يتدبرون برهانا، ولا يتفكرون في دليل.

ثم أكد ما تقدم من أدلة التوحيد فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[(٢)]؛ أي وما أرسلنا رسولا إلى أمة من الأمم إلا أوحينا إليه أن لا معبود في السموات والأرض إلا أنا، فأخلصوا لي العبادة وأفردوا لي الألوهة.

وخلاصة ذلك: إن الرسل جميعا أرسلوا بالإخلاص والتوحيد لا يقبل منهم سواه، ونحو الآية قوله: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[(٣)]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[(٤)].

وبعد أن بيَّن سبحانه بالدلائل الباهرة أنه منزه عن الشريك والندِّ، أردف ذلك ببراءته من اتخاذ الولد فقال: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾[(٥)]؛ أي وقال فريق من هؤلاء المشركين وهم بطون من خزاعة وجهينة وبني سلمة: الملائكة بنات الله، فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾[(٦)]؛ أي تنزيها له عن ذلك، لأن الولد لا بد أن يكون شبيها بالوالد، فلو كان له ولد لأشبهه ولا مجانسة بين النعمة والمنعم، والخالق والمخلوق"[(٧)].

وأوضح رحمه الله ما جرى بين إبراهيم عليه السلام وبين قومه عبدة الأصنام قال: "وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾[(٨)]؛ "أي ولقد آتينا إبراهيم ما فيه صلاحه وهداه من قبل موسى وهرون، ووفقناه للحق، وأضأنا له سبيل الرشاد، وأنقذناه من بين قومه من عبادة الأصنام، وكنا عالمين بأنه ذو يقين وإيمان بالله وتوحيد له، لا يشرك به شيئا، فهو جامع

---

(١) سورة الأنبياء الآية: (٢٤).

(٢) سورة الأنبياء الآية: (٢٥).

(٣) سورة الزُّخرُف الآية: (٤٥).

(٤) سورة النحل الآية: (٣٦).

(٥) سورة الأنبياء الآية: (٢٦).

(٦) سورة الأنبياء الآية: (٢٦).

(٧) تفسير المراغي(٦/١٥٧-١٥٩).

(٨) سورة الأنبياء الآية: (٥١).

لأحاسن الفضائل ومكارم الأخلاق وجميل الصفات، وقال الفراء[(١)]: "أعطيناه هداه من قبل النبوة والبلوغ. أي وفقناه للنظر والاستدلال لما جنَّ عليه الليل فرأى الشمس والقمر والنجم، وعلى هذا جرى كثير من المفسرين"[(٢)].

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾[(٣)]؛ أي آتيناه الرشد حين قال لأبيه آزر ولقومه -وهم مجتمعون-: ما هذه الأصنام التي تقيمون على عبادتها وتعظيمها؟ ، وقد أراد عليه السلام بهذا السؤال تنبيه أذهانهم إلى التأمل في شأنها، وتحقير أمرها، متجاهلا حقيقتها، وكأنه يومئ بذلك إلى أنهم لو تأملوا قليلا لأدركوا أن مثل هذه الأحجار والخشب لا تغني عنهم قُلًّا ولا كُثْرًا.

ولما لم يجدوا ما يعوَّل عليه في تعرف حقيقتها لجأوا إلى التشبث بالتقليد دون إقامة الحجة والبرهان، ﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾[(٤)]؛ أي قال آزر وقومه له: إنا وجدنا آباءنا يعبدون هذه الأوثان فسرنا على نهجهم واقتفينا أثرهم ولا حجة لنا غير ذلك.

وخلاصة مقالهم: ليس لنا برهان على صحة ما نفعل، وإنما نحن مقلدون للآباء والأجداد، وكفى بهذا سُبَّةً لهم، فإن الشيطان قد استدرجهم وكاد لهم حتى عفَّرُوا لها جباههم وجدُّوا في نصرتها، وجادلوا أهل الحق فيها، وما كان أجدرهم أن يتوارَوْا خجلًا وحياء ولا يقولوا مثل هذا.

والتقليد هو العصا التي يتوكأ عليها كل عاجز، والحبل الذي يتشبث به كل غريق، وهكذا يجيب المقلِّدة من أهل الملة الإسلامية إذا أنكر عليهم العالم بالكتاب والسنة العمل بالرأي الذي يدفعه الدليل بهذا قال إمامنا الذي وجدنا آباءنا له مقلدين، وبرأيه آخذين وكأنه يقول:

وهل أنا إلا من غزيَّةَ إن غوت ... غويتُ وإن تَرشُدْ غزيَّةُ أرشُدِ[(٥)]

---

(١) الفراء هو: يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور، أبو زكريا الديلمي المعروف بالفراء، الإمام المشهور، أخذ عنه الكسائي وهو من جلة أصحابه، وكان أبرع الكوفيين، له مصنفات كثيرة مشهورة في النحو واللغة ومعاني القرآن، مات بطريق مكة سنة سبع ومئتين. انظر: البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة للفيروزآبادي ص(٣١٣)، نزهة الألباء في طبقات الأدباء لابن الأنباري ص(٨١).

(٢) انظر: تفسير القرطبي(١١/٢٩٦).

(٣) سورة الأنبياء الآية: (٥٢).

(٤) سورة الأنبياء الآية: (٥٣).

(٥) البيت لدريد بن الصمة، ينظر: جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ص(٤٦٨)، والشعر والشعراء لابن قتيبة(٢/٧٣٨).

وقد أجابهم إبراهيم ببيان قبّح ما يصنعون، وبكّتهم على سوء ما يفعلون.

﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[(١)]؛ أي قال لهم: لقد كنتم أيها القوم أنتم وآباؤكم بعبادتكم إياها في ضلال بيّن، وجور واضح عن سبيل الحق لمن تأمله بلبه، وفكّر فيه بعقله.

وخلاصة هذا: إن المقلدين ومن قُلِّدُوا في ضلال ظاهر لا يخفى على من لديه أدنى مسكة من عقل، فالفريقان لا يستندان إلا إلى هوى متبع، وشيطان مطاع، وقد أحسن من قال:

يأبى الفتى إلا اتّباع الهوى ومنهج الحق له واضح[(٢)]

و في ذلك إيماء إلى أن الباطل لا يصير حقا بكثرة المستمسكين به، وقد أجابوه إجابة مستفهم متعجب مما يسمع ويرى.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾[(٣)]؛ أي قالوا له حين سمعوا مقالته، مستبعدين أنهم في ضلال، ومتعجبين من تضليله إياهم: أجادٌّ أنت فيما تقول أم أنت لاعب مازح؟ فإنا لم نسمع بمثله من قبل.

وخلاصة هذا: إنهم لما سمعوا منه ما يدل على تحقير آلهتهم، وتضليله إياهم، وشاهدوا منه الجدَّ في القول والغلظة فيه، طلبوا منه الدليل على صدق ما يقول إن كان جادا، ثم ارتقوا من هذا إلى بيان أنه هازل لاعب، كما هو دأبه وعادته من قبل، ولا يقصد بذلك إظهار حق البتة.

فردَّ عليهم منتقلا من تضليلهم في عبادة الأوثان، إلى بيان الحق، وذكر المستحق للعبادة، ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾[(٤)]؛ أي قال لهم: بل جئتكم بالحق لا اللعب، إن الذي يستحق العبادة من أنشأ السموات والأرض على غير مثال يحتذى، وأنتم مغمورون بجميل عطفه، وعظيم جوده وبرّه.

---

(١) سورة الأنبياء الآية: (٥٤).

(٢) البيت لأبي نواس الحسن بن هانئ في ديوانه ص(٢٢١).

(٣) سورة الأنبياء الآية: (٥٥).

(٤) سورة الأنبياء الآية: (٥٦).

وصفوة هذا: إن الجدير بالعبادة هو من ربَّاكم تحت ظلال عطفه، وأنعم عليكم بجزيل برِّه ولطفه، وأوجدكم وأوجد السموات والأرض من العدم، لا من كان بمعزل عن كل ذلك.

وفي هذا إرشاد إلى أنه ينبغي لهم أن يَرْعَوُوا عن غَيِّهم، ويعلموا من يستحق العبادة، فيعبدونه ويخضعون له، وبذلك يهتدون إلى الطريق السويِّ.

ثم ختم مقاله بنفي اللعب والهزل عن نفسه فقال: ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[(١)]؛ أي وأنا أدلي على ما أقول بالحجة كما تصحح الدعوى بالشهادة، وأبرهن عليه كما تبين القضايا بالبينات، فلست مثلكم أقول ما لا أقدر على إثباته، فإنكم لم تقدروا على الاحتجاج على مذهبكم، ولم تزيدوا على أن تقولوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون.

وقصارى ما أقول: لست من اللاعبين الهازلين، بل من العالمين بذلك بالبراهين القاطعة، والحجج الساطعة، كالشاهد الذي يكون قوله الفصل في إثبات الدعوى، وإحقاق الحق.

وبعد أن أقام البرهان على إثبات الحق أتبعه بالتهديد لهدم الباطل ومحو آثاره، وأنه سينتقل من المحاجة القولية إلى تغيير المنكر بالفعل ثقة بالله، ومحاماة عن دينه، جمعا بين القول والفعل: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾[(٢)] أي وتالله القويِّ العظيمِ لأجتهدنَّ في كسر أصنامكم وإلحاق الأذى بها بعد أن تذهبوا إلى عيدكم، وقد فعل ذلك ﵇، ليرشدهم إلى ما هم فيه من الضلال، ويبين لهم خطأهم على ألطف أسلوب، وأتم وجه.

وفى التعبير بالكيد إيذان بصعوبة انتهاز الفرصة، وتوقفها على استعمال الحيلة في كل زمان، ولا سيما زمن نمرود، على عتوه واستكباره، وقوة سلطانه وتهالكه على نصرة دينه.

قال مجاهد وقتادة: قال إبراهيم هذه المقالة سرا من قومه ولم يسمع ذلك إلا رجل واحد، فأفشاه عليه وقال: إنا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم.

وقال السُّدِّيُّ[(٣)]: كان لهم في كل سنة مجمع عيد، وكانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها ثم عادوا إلى منازلهم، فلما كان ذلك العيد قال آزر: يا إبراهيم لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا، فخرج معهم، ولما كان ببعض الطريق ألقى بنفسه ﴿فَقَالَ إِنِّي

---

(١) سورة الأنبياء الآية: (٥٦).

(٢) سورة الأنبياء الآية: (٥٧).

(٣) انظر: تفسير الثعلبي(٦/٢٧٩)، وتفسير اللباب لابن عادل(١٣/٥٢٦).

﴿سَقِيمٌ﴾[١] أشتكي برجلي، فلما مضوا نادى في آخرهم، وقد بقي فيهم ضعفاء الناس: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾، فسمعوها منه، ثم رجع إبراهيم إلى بيت الآلهة وهي في بهو عظيم، وكان مستقبل هذا البهو صنم عظيم إلى جنبيه أصغر منه والأصنام بعضها إلى جنب بعض، كل صنم يليه أصغر منه إلى باب البهو، وإذا هم قد جعلوا طعاما فوضعوه بين يدي الآلهة، وقالوا إذا رجعنا وباركت الآلهة عليه أكلنا منه، فلما نظر إبراهيم إليهم وإلى ما بين أيديهم من الطعام قال لهم مستهزئا: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾[٢]، فلما لم يجيبوه قال لهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾[٣]؟ ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ﴾[٤]، وجعل يكسرهن بفأس في يده حتى إذا لم يبق إلا الصنم الأكبر علق الفأس في عنقه، ثم خرج فذلك قوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾[٥]؛ أي فتولَّوا فأتى إبراهيم الأصنام فجعلهم قطعًا قطعًا إلَّا كبيرا لهم لم يكسره، ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾[٦]؛ أي لعل هؤلاء الضلال يرجعون إلى الكبير كما يرجع إلى العالِم في حل المشكلات، فيقولون له: ما لهؤلاء مكسورة ومالك صحيحا والفأس في عنقك أو في يدك؟ وحينئذ يستبين لهم أنه عاجز لا ينفع ولا يضر، ويظهر لهم أنهم في عبادتهم على جهل عظيم.

وقد كان هذا بناء على ظنه في أمرهم لما جرب وذاق من مكابرتهم لعقولهم في آلهتهم وتعظيمهم لها.

فلما عادوا إلى أصنامهم فوجدوها على تلك الحال؛ ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾[٧]؛ أي قال قوم إبراهيم على سبيل التوبيخ والتأنيب حين رأوا آلهتهم قد صارت جذاذا إلا الذي علق فيه إبراهيم الفأس: من كسر هذه الآلهة وجعلها هكذا؟.

وفى تعبيرهم بالآلهة دون الأصنام تشنيع ومبالغة في اللوم والتعنيف.

(١) سورة الصافات الآية: (٨٩).
(٢) سورة الصافات الآية: (٩١).
(٣) سورة الصافات الآية: (٩٢).
(٤) سورة الصافات الآية: (٩٣).
(٥) سورة الأنبياء الآية: (٥٨).
(٦) سورة الأنبياء الآية: (٥٨).
(٧) سورة الأنبياء الآية: (٥٩).

﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]؛ أي إنه لمن زمرة الذين ظلموا أنفسهم وجرأوا على إهانة هذه الآلهة، وهي الحفيَّة بالإعظام والتكريم.

﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾[2]؛ أي قال بعض منهم ممن سمع قوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾: سمعنا فتى يعيبهم ويستهزئ بهم، ولم نسمع أحدا يقول ذلك غيره، وإنا لنظن أنه صنع ذلك بهم.

﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾[3]؛ أي قال أولئك القائلون من فعل هذا بآلهتنا: إذا كان الأمر كما ذكرتم فأتوا به بمرأى من الناس ومسمع.

﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾[4]؛ أنه الذي فعل ذلك، فتكون شهادتهم عليه حجة لنا.

﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾[5]؛ أي فلما أتوا به قالوا له أأنت الذي كسر هذه الأصنام وجعلهم جذاذا؟ وقد طلبوا منه الاعتراف بذلك ليقدموا على إيذائه وهم مقتنعون بصحة هذه الجريمة في زعمهم، فما كان منه إلا أن بادرهم بما أدهشهم حتى تمنَّوُا الخلاص منه فقال: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾[6]؛ أي قال: بل الذي فعل هذا هو الصنم الأكبر الذي لم يكسر، وإيضاح هذا: أن إبراهيم عليه السلام لما رأى تعظيمهم لهذا الصنم أشد من تعظيمهم لسائر ما معه من الأصنام غضب أشد الغضب، وأسند إليه الفعل الصادر منه هو من قِبل أنه هو الذي حمله على ذلك، وهو يومئ بذلك إلى مقصده وهو إلزامهم الحجة على ألطف وجه وأحسنه، مع حملهم على التأمل في شأن آلهتهم.

و مجمل كلامه: إن شديد غضبي من تعظيمكم له حملني على أن أفعل هذا، والفعل كما ينسب إلى المباشر له ينسب إلى الباعث عليه، فهذا الصنم الأكبر قد كان السبب في استهانتي بهم وتحطيمي إياهم.

---

(١) سورة الأنبياء الآية: (٥٩).

(٢) سورة الأنبياء الآية: (٦٠).

(٣) سورة الأنبياء الآية: (٦١).

(٤) سورة الأنبياء الآية: (٦١).

(٥) سورة الأنبياء الآية: (٦٢).

(٦) سورة الأنبياء الآية: (٦٣).

﴿فَسْئَلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾[(١)] أي فاسألوهم عن كسرها ليخبروكم به إن كانوا ممن ينطق على زعمكم أنهم آلهة تنفع وتضر.

وقد كانت مقالة إبراهيم عليه السلام قوية الحجة شديدة الوقع في نفوسهم، وكأنما ألقمهم حجرا، وذلك ما أشار إليه بقوله: ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾[(٢)]؛ أي فرجعوا على أنفسهم بالملامة، إذ علموا أن ما لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ولا على إلحاق الضر بمن ألحق به الأذى، يستحيل أن يقدر على دفع مضرة عن غيره أو جلب منفعة له، وإذا فكيف يستحق أن يكون معبودا؟

ثم بين ملامتهم لأنفسهم بقوله: ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[(٣)]؛ أي فقال بعضهم لبعض: إنكم أنتم الظالمون بعبادة ما لا ينطق، وما هذا منكم إلا غرور وجهل بما ينبغي أن تكون عليه حال المعبود.

ثم أبان أنهم أُرْكِسُوا بعدئذ ورجعوا عن فكرة سليمة لا غبار عليها بوصفهم أنفسهم بالظلم، إلى فكرة خاطئة وهي الحكم بصحة عبادتها، مع اعترافهم بأن حالهم دون حال الحيوان، فلا ينبغي لعاقل أن يعبدها فقال: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾[(٤)]؛ أي لقد بلغ الأمر بهم أن قالوا إنما اتخذناهم آلهة مع علمنا بأنهم لا ينطقون ولا يتكلمون، فكيف تأمرنا بسؤالهم، وإنما قال ينطقون ولم يقل يسمعون أو يعقلون، مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضا، من قبل أن نتيجة السؤال الجواب، وأن عدم نطقهم أبلغ في تبكيتهم. . . ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾[(٥)]؛ أي قال إبراهيم مبكتا لهم: أفتعبدون غير الله معبوداتٍ لا تنفعكم شيئا فتُعَلِّقُوا رجاءكم بها، ولا تضركم شيئا فتخافوها: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[(٦)]؛ أي تبًّا لكم وقبحا لمعبوداتكم التي اتخذتموها من دون الله.

---

(١) سورة الأنبياء الآية: (٦٣).

(٢) سورة الأنبياء الآية: (٦٤).

(٣) سورة الأنبياء الآية: (٦٤).

(٤) سورة الأنبياء الآية: (٦٥).

(٥) سورة الأنبياء الآية: (٦٦).

(٦) سورة الأنبياء الآية: (٦٧).

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[١]؛ أي أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الذي لا يروج إلا على جاهل فاجر، وأنتم الشيوخ الذين بَلَوُا الزمانَ حلوَه ومرَّه، وحنَّكَتْهُم تجاربُ الأيام، فمن حقكم أن تعاودوا الرأي وتقلِّبوه ظهرا لبطن، لعلكم ترشدون بعد الضلال، وتهتدون بعد الغيِّ والعمى.

ولما بان عجزهم وحصحص الحق لجأوا إلى الغلظة واستعمال القسوة، وذلك ما أشار إليه بقوله: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾[٢]؛ أي قال بعضهم لبعض: حرِّقوا إبراهيم بالنار، وانصروا آلهتكم إن كنتم ناصريها، ولا تريدون خذلانها وترك عبادتها.

ثم أبان سبحانه أنه أبطل كيدهم ودفع عنه هلاكا محققا بمعونته وتأييده؛ فقال: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾[٣]؛ أي فأوقدوا له نارا ليحرِّقوه ثم ألقوه فيها، فقلنا للنار: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾؛ أي ابردي بردا غير ضارٍّ به.

روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «**لما ألقى إبراهيم في النار قال: اللهم إنك في السماء واحد، وأنا في الأرض واحد أعبدك**»[٤].

﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾[٥]؛ أي وأرادوا بإبراهيم مكرا لإيصال الأذى به، فجعلناهم من ذوي الخسران والوبال، إذ صار سعيهم في إطفاء نور الحق قولا وفعلا برهانا على أنه عليه السلام على الحق وهم على الباطل، وأنهم استحقوا أشد العذاب.

---

(١) سورة الأنبياء الآية: (٦٧).

(٢) سورة الأنبياء الآية: (٦٨).

(٣) سورة الأنبياء الآية: (٦٩).

(٤) أخرجه البزار في مسنده، (١٦/١٩)، رقم الحديث(٩٠٤٧) والدارمي في الرد على الجهمية(١/٥٢)، رقم الحديث(٧٥)، وأبو نعيم في الحلية(١/١٩) والخطيب في تاريخ بغداد(١٢/٦٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد(٨/٢٠١): "رواه البزار، وفيه عاصم بن عمر بن حفص، وثقه ابن حبان وقال: يخطئ ويخالف، وضعفه الجمهور"، وأورده الدارقطني في العلل(١٠/٩٨-٩٩) وأعله وصحح الموقوف على ابن عباس، وضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة(٣/٣٦٠)، رقم الحديث(١٢١٦).

(٥) سورة الأنبياء الآية: (٧٠).

وفي هذا القصص من العبرة: أن الجهاد لنصرة الحق والفضيلة فيه الخير كل الخير، وأنه مهما صادف المرء فيه من آلام وأهوال فهي هيِّنةٌ لينةٌ، فلنجاهد إذا مثل ما جاهد إبراهيم، فإن متنا أو قتلنا فإن ما يصيبنا في سبيل الحق يكون لنا عزًّا وشرفًا"(١).

وذكر المراغي رحمه الله مصير الأصنام يوم القيامة والحكمة من ذلك فقال بعد قوله جل وعلا: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾(٢)؛ "أي إنكم أيها المشركون بالله العابدون من دونه الأوثان والأصنام، وما تعبدون من دونه من الآلهة وقود جهنم، وإنكم واردوها وداخلون فيها، ونحو الآية قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾(٣)

والحكمة في أن الآلهة تقرن بهم وتدخل معهم في النار:

(١) أنهم كلما رأوهم ازدادوا غما وحسرة، لأنهم ما وقعوا في العذاب إلا بسببهم وقد قالوا: النظر إلى وجه العدوِّ باب من أبواب العذاب.

(٢) أنهم قد كانوا في الدنيا يظنون أنهم يشفعون لهم في الآخرة، ويدفعون عنهم العذاب، فإذا استبان لهم أن الأمر على عكس ما كانوا يظنون لم يكن شيء أبغض إليهم منهم.

(٣) أن إلقاءهم في النار استهزاء بهم وبعبادتهم.

ثم بين لهم بالدليل خطأ ما يعتقدون فقال: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾(٤)، أي لو كان هؤلاء الأصنام آلهة كما تزعمون أيها العابدون، ما وردوا النار ولا دخلوها، لكنه قد اتضح لكم على أتمِّ وجه أنهم وردوها، إذ صاروا حطبها، فامتنع كونهم آلهة.

وقصارى ذلك: إن الأصنام إذا كانت لا تنفع نفسها، ولا تدفع الضر عنها، فهي أبعد من أن تدفع الضر عن غيرها، ومن جرَّاء ذلك فهي جديرة بالتحقير والإهانة، لا بالتعظيم والعبادة.

﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(٥)؛ أي وكل من الآلهة ومَن عبدوها ماكثون في النار أبدا، لا خلاص لهم منها"(٦).

---

(١) تفسير المراغي(٦/١٧٧-١٨٦).

(٢) سورة الأنبياء الآية: (٩٨).

(٣) سورة البقرة الآية: (٢٤).

(٤) سورة الأنبياء الآية: (٩٩).

(٥) سورة الأنبياء الآية: (٩٩).

(٦) تفسير المراغي(٦/٢٠١-٢٠٢).

وقال رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُـرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ﴾[١]؛ "أي يعبد من دون الله آلهة لا تضره إن لم يعبدها في الدنيا، ولا منفعة له في الآخرة إن عبدها.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾[٢]؛ أي ذلك الارتداد وعبادة تلك الآلهة دون الله هو السير على غير استقامة والذهاب على غير هدى، فما مثله إلا مثل من أبعد في التيه ضالًّا، وبعدت مسافة ضلاله، فلم يهتد إلى الصراط السوي، ولم ينل ما يبتغي وبلغت به الحيرة كل مبلغ، ثم زاد ما سلف توكيدا وبين مآل دعائه وعبادته غير الله فقال: ﴿ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾[٣]؛ أي يقول الكافر برفع صوت وصراخ حين يرى تضرره بذلك المعبود ودخوله النار بسببه، ولا يرى أثرا مما كان يتوقع من نفعه: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾.

وخلاصة ذلك: أيُّ عشيرٍ هذا، وأيُّ ناصرٍ ذاك الذي لا ينفع ولا ينصر من يعاشره؟ والله لبئس العشير ولبئس النصير"[٤].

وأوضح رحمه الله حقارة الأصنام وضعف عقول عابديها فقال بعد قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ﴾[٥]؛ "أي يا أيها الناس جعل المشركون لي أشباها وأندادا وهي الآلهة التي يعبدونها معي، فأنصتوا وتفهَّموا حال ما ملوهم وجعلوهم لي في عبادتهم إياهم أشباها وأمثالا.

ثم بين حال هؤلاء الأشباه والأمثال فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾[٦]؛ أي لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأوثان على أن يخلقوا ذبابة واحدة على صغر حجمها وحقارة شأنها ما قدروا وما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

---

(١) سورة الحج الآية: (١٢).

(٢) سورة الحج الآية: (١٢).

(٣) سورة الحج الآية: (١٣).

(٤) تفسير المراغي: (٦/١٢٠).

(٥) سورة الحج الآية: (٧٣).

(٦) سورة الحج الآية: (٧٣).

رُوي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**قال الله ﷻ: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة فليخلقوا شعيرة**»[(١)].

﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾[(٢)]؛ أي وإن يسلب الذباب الآلهة والأوثان شيئا مما عليها من طيب وما أشبهه، لا تستنقذ ذلك منه على ضعفه.

والخلاصة: إنهم عاجزون عن خلق ذباب واحد، بل أعجب من ذلك أنهم عاجزون عن مقاومته والانتصار منه لو سلبهم شيئا مما عليهم من طيب ونحوه.

و في ذلك إيماء إلى أنهم قد بلغوا غاية الجهالة، وأشركوا بالله القادر على كل شيء آلهتهم من الأصنام والأوثان التي لا تقدر على خلق أحقر المخلوقات وأصغرها وهو الذباب ولو اجتمعت له، ولا تستطيع أن تنتصر منه لو سلبها شيئا.

﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾[(٣)]؛ أي عجز الطالب وهو الآلهة أن تستنقذ من المطلوب وهو الذباب ما سلبها إياه من الطيب وما أشبهه.

وقصارى هذا: إنه سبحانه وصف هذه الآلهة بما وصف، للدلالة على مهانتها وضعفها، تقريعا منه لعبدتها من مشركي قريش، وكأنه قيل لهم: كيف تجعلون لي مثلا في العبادة، وتشركون معي فيها ما لا قدرة له على خلق ذباب، وإن أخذ منه الذباب شيئا لم يقدر أن ينتصر منه، وأنا الخالق لما في السموات والأرض، المالك لجميع ذلك، المحيي لما أردت والمميت له؟ إن فاعل ذلك بالغ غاية الجهل وعظيم السفه.

ثم زاد هذا الإنكار توكيدا فقال: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾[(٤)]؛ أي ما عظَّموه حق التعظيم، إذ عبدوا معه غيره من هذه الأصنام التي لا تقاوم الذباب لضعفها، ولا تنتصر منه إن سلبها شيئا.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب اللباس، باب نقض الصور، (٢٢/١٩)، رقم الحديث(٥٩٥٣)، ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب: لا تدخل الملائكة بيت فيه كلب ولا صورة، (١٦٢/٦)، رقم الحديث(٢١١١).

(٢) سورة الحج الآية: (٧٣).

(٣) سورة الحج الآية: (٧٣).

(٤) سورة الحج الآية: (٧٤).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(١)؛ أي إنه تعالى قويٌّ لا يتعذر عليه شيء، وبقدرته خلق كل شيء، عزيز لا يغالب لعظمته وسلطانه، ولا يقدر شيء أن يسلبه من ملكه شيئا، وليس كآلهتكم التي تدعونها من دون الله"(٢).

وقال رحمه الله: "نفى سبحانه عن نفسه شيئين:

(١) ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾(٣)؛ أي ليس له ولد كما زعم قوم من المشركين حين قالوا: الملائكة بنات الله، وكيف يكون له ذلك، ولا مثل له ولا ندَّ، والولد إنما يتخذ للحاجة إلى النصير والمعين، والله غنيٌّ عن كل شيء.

(٢) ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾(٤) يشركه في الألوهية، لا قبل خلق العالم ولا حين خلقه له ولا بعد خلقه.

ثم ذكر دليلين على بطلان تعدُّد الآلهة فقال:

(١) ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾(٥)؛ أي لو قدِّرَ تعدد الآلهة لا نفرد كل منهم بما خلق، إذ لكل صانع ضرب من الصنعة يغاير صنعة سواه، فكان يحصل التباين في نظم الخلق والإيجاد، ويوجد الاختلاف بين المخلوقات المتحدة الأنواع فلا ينتظم الكون، والمشاهد أنه منتظم متسق، وهو الغاية في الكمال كما قال: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾(٦).

(٢) ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾(٧)؛ أي ولكان لكل منهم أن يطلب قهر الآخر وغلبته، فيعلو بعضهم على بعض كما هو حال ملوك الدنيا، وإذا لم تروا أثرا للتحارب والتغالب فاعلموا أنه إله واحد بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون.

وبعد أن وضح الحق وصار كفلق الصبح جاء بما هو كالنتيجة لذلك فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(١) أي تنزه ربنا وتقدَّس عما يقوله الكافرون من أن له ولدا أو شريكا"(٢).

---

(١) سورة الحج الآية: (٧٤).

(٢) تفسير المراغي(٦/٢٥٩-٢٦١).

(٣) سورة المؤمنون الآية: (٩١).

(٤) سورة المؤمنون الآية: (٩١).

(٥) سورة المؤمنون الآية: (٩١).

(٦) سورة الملك الآية: (٣).

(٧) سورة المؤمنون الآية: (٩١).

وتكلم رحمه الله عن صفات الأصنام المعبودة من دون الله وقلة تفكير عابديها فقال: "وقد أبان سبحانه ما بها من النقص من وجوه متعددة:

(١) إنها لا تخلق شيئا، والإله يكون قادرا على الخلق والإيجاد.

(٢) إنها مخلوقة، والمخلوق محتاج، والإله يجب أن يكون غنيا عن كل ما سواه.

(٣) إنها لا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا، فضلا عن أن تملك ذلك لغيرها، ومن كان كذلك فلا فائدة في عبادته وإجلاله وتعظيمه.

(٤) إنها لا تقدر على التصرف في شيء ما، فلا تستطيع إماتة الأحياء، ولا إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم، ومن كان كذلك فكيف يسمى إلها، وتعطى له خصائص الآلهة من الخضوع لعظمته والإخبات لجلاله؟.

وعلى الجملة: فعبدة الأصنام قد تركوا عبادة الخالق المالك لكل شيء، المتصرف فيه بقدرته وسلطانه، وعبدوا ما لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، وليس بعد هذا من حماقة، ولا يرضى بمثله من له مسكة من عقل، ولا أثارة من علم"[(٣)].

وذكر رحمه الله ما جرى لنبي الله سليمان عليه السلام مع عبدة الشمس، فقال بعد قول الحق سبحانه: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾[(٤)]؛ "أي وجدتها وقومها في ضلال مبين، فهم يعبدون الشمس لا ربَّ الشمس وخالق الكون المحيط بكل شيء علما، وزين لهم الشيطان قبيح أعمالهم، فظنوا حسنًا ما ليس بالحسن، وصدهم عن الطريق القويم الذي بعث به الأنبياء والرسل وهو إخلاص السجود والعبادة لله وحده.

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾[(٥)]؛ أي فصدهم عن السبيل حتى لا يهتدوا ويسجدوا لله الذي يظهر المخبوء في السموات والأرض كالمطر

(١) سورة المؤمنون الآية: (٩١).

(٢) تفسير المراغي(٣٠٦/٦).

(٣) تفسير المراغي(٣٨٨/٦).

(٤) سورة النمل الآية: (٢٤).

(٥) سورة النمل الآية: (٢٥).

والنبات والمعادن المخبوءة في الأرض، ويعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الأقوال والأفعال كما قال: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾[(١)].

ولما بيَّن أن كل العوالم مفتقرة إليه ومحتاجة إلى تدبيره، ذكر ما هو كالدليل على ذلك، فأبان أن أعظمها قدرا، وهو العرش الذي هو مركز تدبير شئون العالم هو الخالق له وهو محتاج إليه، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[(٢)]؛ أي هو الله الذي لا تصلح العبادة إلا له وهو رب العرش العظيم، فكل عرش وإن عظم فهو دونه، فأفردوه بالطاعة ولا تشركوا به شيئا"[(٣)].

وأوضح رحمه الله تذكير الله لعبدة الأصنام وتنبيههم إلى ضلالهم وجهلهم؛ حيث آثروا عبادة الأصنام على عبادة الواحد القهار، فقال: "وقول الحق سبحانه: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[(٤)]، أي الله الذي ذكرت لكم شؤونه العظيمة خير أم الذي تشركون به من الأصنام؟ وفي ذلك ما لا يخفى من تسفيه آرائهم، وتقبيح معتقداتهم، وإلزامهم الحجة، إذ من البين أنه ليس فيما أشركوه به سبحانه شائبة خير حتى يوازن بينها وبين ما هو محض الخير، فهو من وادي ما حكاه سيبويه: تقول العرب: السعادة أحب إليك أم الشقاء[(٥)]؟ وكما قال حسان يهجو أبا سفيان بن حرب ويمدح النبي ﷺ:

أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء[(٦)]

وجاء في بعض الآثار: أن النبي ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال: «**بل الله خير وأبقى، وأجل وأكرم**»[(٧)].

---

(١) سورة الرعد الآية: (١٠).

(٢) سورة النمل الآية: (٢٦).

(٣) تفسير المراغي: (١٠٩/٧).

(٤) سورة النمل الآية: (٥٩).

(٥) انظر: الكتاب، لسيبويه عمرو بن عثمان، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، (١٧٣/٣).

(٦) أخرجه أبو يعلى في مسنده(١٠٣/٨)، رقم الحديث(٤٦٤٠)، والطحاوي في مشكل الآثار للطحاوي(٤٤٣/٨)، وقال حسين سليم أسد في تعليقه على مسند أبي يعلى: "رجاله ثقات".

(٧) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان(٤٣٠/٣)، تعظيم القرآن، فصل في قطع القراءة رقم الحديث(١٩١٥)، والفريابي في أحكام العيدين، باب القراءة في صلاة العيد ص(١٩٧) موقوفا على أبي موسى الأشعري، وقال البيهقي قبل إيراده: " وقد روي عن النبي ﷺ في دعاء الختم حديث منقطع بإسناد ضعيف"، وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة

ثم انتقل من التوبيخ تعريضا إلى التبكيت تصريحا فقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾(١)؛ أي أعبادة ما تعبدون أيها المشركون من أوثانكم التي لا تضر ولا تنفع خير، أم عبادة من خلق السموات على ارتفاعها وصفائها وجعل فيها كواكب نيِّرةً ونجومًا زاهرة، وأفلاكا دائرة، وخلق الأرض وجعل فيها جبالا وأنهارا وسهولا وأوعارا، وفيافي وقفارا، وزروعا وأشجارا، وحيوانات مختلفة الأصناف والأشكال والألوان، وأنزل لكم من السماء مطرا جعله رزقا للعباد، فأنبت به بساتين مونقةً تسرُّ الناظرين؟ ولولاه ما نبت الشجر، ولا ظهر الثمر، ونحو الآية قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾(٢)، وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾(٣).

ثم زاد في التوبيخ فنفى الألوهية عما يشركون بعد تبكيتهم على نفي الخيرية عنها فقال: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾(٤) أي أإله غيره يقرُّون به، ويجعلونه شريكا له في العبادة، مع تفرده جل شأنه بالخلق والتكوين؟ ونحو الآية قوله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾(٥).

ثم انتقل من تبكيتهم إلى بيان سوء حالهم فقال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾(٦) أي بل هؤلاء المشركون قوم دأبهم العدول عن طريق الحق، والانحراف عن جادَّة الاستقامة في جميع شؤونهم، ومن ثمَّ يفعلون ما يفعلون من العدول عن الحق الواضح وهو التوحيد، ويعكفون على الضلال المبين وهو الإشراك، وفي معنى الآية قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو

والموضوعة(٣١٢/١٣)، رقم الحديث(٦١٣٥): "موضوع".

(١) سورة النمل الآية: (٦٠).

(٢) سورة الزُّخرُف الآية: (٨٧).

(٣) سورة العنكبوت الآية: (٦٣).

(٤) سورة النمل الآية: (٦٠).

(٥) سورة المؤمنون الآية: (٩١).

(٦) سورة النمل الآية: (٦٠).

رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾[(١)]، وقولـه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾[(٣)].

ثمّ أعاد التوبيخ بوجه آخر فقال: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾[(٤)]؛ أي أعبادة ما تشركون أيها الناس بربكم مع أنه لا يضر ولا ينفع خير، أم عبادة الذي جعل الأرض مستقرا للإنسان والدواب، وجعل في أوسطها أنهارا تنتفعون بها في شربكم وسقي أنعامكم ومزارعكم، وجعل فيها ثوابت الجبال حتى لا نميد بكم، وحتى تنتفعوا بما فيها من المعادن المختلفة، وقد أنزل الماء على شواهقها وجعل بين المياه العذبة والملحة حاجزا يمنعهما من الاختلاط حتى لا يفسد هذا بذاك، والحكمة تقضي ببقاء كل منهما على حاله، فالعذبة: لسقي الناس والحيوان والنبات والثمار، والملحة: تكون مصادر للأمطار التي تجرى منها، وكذلك هي وسيلة لإصلاح الهواء.

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾[(٥)]؛ في إبداع هذه الكائنات وإيجاد هذه الموجودات.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(٦)]؛ أي بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون قدر عظمة الله وما عليهم من ضرٍّ في إشراكهم غيره به، وما لهم من نفع في إفرادهم إياه بالألوهية، وإخلاصهم العبادة له، وبراءتهم من كل معبود سواه.

ثم زادهم توبيخا من وجه ثالث فقال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾[(٧)]؛ أي أمن تشركون بالله خير أم من يجيب المكروب الذي يحوجه المرض أو الفقر أو النازلة من نوازل الدهر إلى اللَّجأ والتضرع إليه إذا دعاه وقت اضطراره، ويرفع عن الإنسان ما يسوءه من فقر أو مرض، ويجعلكم خلفاء من قبلكم من الأمم في الأرض فيورثكم إياها بالسكنى والتصرف فيها؟.

---

(١) سورة الزُّمَر الآية: (٩).

(٢) سورة الزُّمَر الآية: (٢٢).

(٣) سورة الرعد الآية: (٣٣).

(٤) سورة النمل الآية: (٦١).

(٥) سورة النمل الآية: (٦١).

(٦) سورة النمل الآية: (٦١).

(٧) سورة النمل الآية: (٦٢).

وجاء رجل إلى مالك بن دينار فقال: أسألك بالله أن تدعو لي فأنا مضطر قال: إذا فاسأله فإنه يجيب المضطر إذا دعاه[1]، وقال الشاعر:

وإني لأدعو الله والأمر ضيِّقٌ ... عليَّ فما ينفك أن يتفرَّجا

ورُبَّ أخٍ سدَّت عليه وجوهه ... أصاب لها لـمَّا دعا الله مخرجا[2]

وعن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ في دعاء المضطر: «**اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت**»[3].

وجاء في الخبر: «**ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن، دعوة المظلوم، ودعوة المسافر ودعوة الوالد على ولده**»[4].

وفى صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال لمعاذ لما وجهه إلى أرض اليمن: «**واتق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب**»[5].

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾[6] الذي هذه شؤونه، وتلك نعمه؟.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: (٢٢٣/١٣).

(٢) ذكره أبو الفتح ابن الإمام في سلاح المؤمن في الدعاء والذكر ص(٤١)، قال: "قال الواحدي: أنشدنا أبو إسحاق الثعلبي فذكره.

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب النوم، باب ما يقول إذا أصبح، (٤٨٤/٤)، رقم الحديث(٥٠٩٠)، وأحمد في المسند(٧٤/٣٤)، رقم الحديث(٢٠٤٣٠)، والبخاري في الأدب المفرد، باب الدعاء عند الكرب(٢٤٤/١)، والنسائي في الكبرى، كتاب أذكار اليوم والليلة، باب ما يقول عند الكرب إذا نزل به. . . . (٢٤١/٩)، رقم الحديث(١٠٤١٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد(١٣٧/١٠): رواه الطبراني وإسناده حسن، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير(٦٣٨/١)، رقم الحديث(٣٣٨٨).

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، باب تفريع أبواب الوتر، باب الدعاء بظهر الغيب، (٨٩/٢)، رقم الحديث(١٥٣٦)، والترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في دعوة الوالدين، (٣١٤/٤)، رقم الحديث(١٩٠٥)، وأحمد(٤٧٩/١٢)، رقم الحديث(٧٥١٠)، وقال الترمذي: حديث حسن، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة(٩٥/٢)، رقم الحديث(٥٩٨).

(٥) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء، (٨٦٤/٢)، رقم الحديث(١٤٩٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، (٣٧/١)، رقم الحديث(١٩).

(٦) سورة النمل الآية: (٦٢).

ثم بين أن من طبيعة الإنسان ألا يتذكر نعم الله عليه إلا قليلا، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾(١)؛ أي قليلا ما تتذكرون نعم الله عليكم، وأياديه عندكم، ومن ثمَّ أشركتم به غيره في العبادة.

ثم زادهم تأنيبا وتهكما من ناحية أخرى فقال: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾(٢)؛ أي أمن تشركون بالله خير، أم من يرشدكم في ظلمات البر والبحر إذا أظلمت عليكم السبل فضللتم الطريق، بما خلق من الدلائل السماوية كما قال: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾(٣)، وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾(٤)، ومن يرسل الرياح أمام الغيث الذي يحيي موات الأرض.

ولما اتضحت الأدلة ولم يبق لأحد في ذلك عذر ولا علة قال: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾(٥) فعل هذا؟. ثم أكد هذا النفي وقرره بقوله: ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٦) أي تنزه ربنا المنفرد بالألوهية، ومن له صفات الكمال والجلال، ومن تخضع له جميع المخلوقات، وتذلُّ لقهره وجبروته عن شرككم الذي تشركونه به وعبادتكم معه ما تعبدون.

ثم أضاف إلى ذلك برهانا آخر لعلهم يرتدعون عن غيهم فقال: ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾(٧)؛ أي أما تشركون به خير أم الذي ينشئ الخلق بادئ بدء، ويبتدعه من غير أصل سلف، ثم يفنيه إذا شاء، ثم يعيده إذا أراد كهيئته قبل أن يفنيه، وهو الذي يرزقكم من السماء والأرض فينزل من الأولى غيثا وينبت من الثانية نباتا لأقواتكم وأقوات أنعامكم؟ وهم وإن كانوا ينكرون الإعادة والبعث لم يلتفت إلى ذلك الإنكار لظهور أدلته فلم يبق لهم عذر فيه.

---

(١) سورة النمل الآية: (٦٢).

(٢) سورة النمل الآية: (٦٣).

(٣) سورة النحل الآية: (١٦).

(٤) سورة الأنعام الآية: (٩٧).

(٥) سورة النمل الآية: (٦٣).

(٦) سورة النمل الآية: (٦٣).

(٧) سورة النمل الآية: (٦٤).

وبعد أن وضح الدليل على نفي الشريك بكّتهم وقال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾(١) يفعل هذا حتى يجعل شريكا له؟

وبعد أن ذكر البرهان تلو البرهان، وأوضح الحق حتى صار كفلق الصبح؛ زاد في التهكم بهم والإنكار عليهم والتسفيه لعقولهم، فأمر رسوله أن يطلب منهم البرهان على صدق ما يدَّعون؛ فقال: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾(٢)؛ أي قل لهم أيها الرسول: هاتوا الدليل على وجود ما تزعمون من الشركاء إن كان ما تقولونه حقا وصدقا"(٣).

وأوضح رحمه الله سبب المودة بين عبدة الأوثان فقال عند تفسير قوله جل وعلا: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾(٤)؛ "أي وقال لهم إبراهيم مؤنبا وموبخا على سوء صنيعهم بعبادة الأوثان: إنما اجتمعتم على عبادتها في الدنيا للصداقة والألفة التي بين بعضكم وبعض، فأنتم تتحابون على عبادتها، وتتوادون على خدمتها، كما يتفق الناس على مذهب، فيكون ذلك سبب ألفتهم ومودتهم، لا لقيام الدليل عندكم على صحة عبادتها.

وقصارى ذلك: إن مودة بعضكم بعضا هي التي دعتكم إلى عبادتها، إذ قد رأيتم بعض من تودون عبدوها، فعبدتموها موافقة لهم لمودتكم إياهم، كما يرى الإنسان من يوده يفعل شيئا، فيفعله مودة له"(٥).

وذكر رحمه الله ما يقع من عَبَدة الأصنام عند الشدائد، وأنهم يرجعون إلى الفطرة التي فطروا عليها فقال: "مع إشراكهم بربهم سواه في الدعاء والعبادة، إذا هم ابتلوا بالشدائد، كما إذا ركبوا البحر وعلتهم الأمواج من كل جانب، وخافوا الغرق نادوا الله، معترفين بوحدانيته، وأنه لا منجِيَ سواه، وليتهم استمروا على ذلك، ولكن سرعان ما يرجعون القهقرى، ويعودون سيرتهم الأولى، كما هو دأب من يعمل للخوف لا للعقيدة. . .

---

(١) سورة النمل الآية: (٦٤).

(٢) سورة النمل الآية: (٦٤).

(٣) تفسير المراغي(١٢٥/٧-١٣٠).

(٤) سورة العنكبوت الآية: (٢٥).

(٥) تفسير المراغي(٢٢٨/٧).

ثم قال: "وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾(١)؛ أي فإذا ركب هؤلاء المشركون في السفينة وخافوا الغرق، دعوا الله وحده، وأفردوا له الطاعة، ولم يستغيثوا بآلهتهم وأندادهم، ليخلصوهم من تلك الشدة، فهلا يكون هذا منهم دائما؟

ثم بين سرعة رجوعهم وعودتهم إلى ما كانوا عليه وشيكا فقال: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾(٢)؛ أي فلما خلَّصهم مما كانوا فيه من الضيق، ونجاهم من الهلاك، ووصلوا إلى البر، رجعوا القهقرى، وعادوا سيرتهم الأولى، وجعلوا مع الله الشركاء، ودعوا الآلهة والأنداد، ونحو الآية قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾(٣).

روى محمد بن إسحاق في السيرة عن عكرمة بن أبي جهل قال: «لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهبت فارًّا منها، فلما ركبت البحر إلى الحبشة اضطربت بنا السفينة، فقال أهلها: يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء، فإنه لا منجي هاهنا إلا هو، فقال عكرمة: لئن كان لا ينجي في البحر غيره فإنه لا ينجي في البر أيضا غيره، اللهم لك عليَّ عهد، لئن خرجت لأذهبنَّ فلأضعن يدي في يد محمد فلأجدنَّه رؤوفا رحيما فكان كذلك»(٤).

وقال عكرمة: كان أهل الجاهلية إذا ركبوا في البحر حملوا معهم الأصنام، فإذا اشتد عليهم الريح ألقوها فيه وقالوا يا رب! يا رب! (٥).

﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾(٦)؛ أي يشركون لتكون عاقبة أمرهم الكفران بما آتيناهم من نعمة النجاة، وليتمتعوا باجتماعهم على عبادة الأصنام وتوادِّهم عليها.

ثم تهددهم وتوعدهم فقال: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾(٧) عاقبة ذلك حين يعاقبون يوم القيامة"(٨).

---

(١) سورة العنكبوت الآية: (٦٥).

(٢) سورة العنكبوت الآية: (٦٥).

(٣) سورة الإسراء الآية: (٦٧).

(٤) أورده ابن كثير في تفسيره(٦/٢٩٥).

(٥) انظر: معالم التنزيل للبغوي(٦/٢٥٥).

(٦) سورة العنكبوت الآية: (٦٦).

(٧) سورة العنكبوت الآية: (٦٦).

(٨) تفسير المراغي(٧/٢٥٤-٢٥٥)

وقال رحمه الله عن عبدة الأصنام: "إنهم زادوا في ضلالهم، وأقبلوا على عبادة من لا يضر ولا ينفع، وتوقعوا منه النصرة مع أنهم هم الناصرون لهم، كما قال تعالى حاكيا عنهم: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ﴾[١]، والحقيقة أنها لا هي ناصرة ولا منصورة.

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ﴾[٢]؛ أي واتخذ هؤلاء المشركون من دون الله آلهة يعبدونهم، طمعا في نصرتهم، ودفع العذاب عنهم، وتقريبهم إلى الله زلفى ثم بيَّن بطلان آرائهم، وخيبة رجائهم، وانعكاس تدبيرهم فقال: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ﴾[٣]؛ أي لا تقدر هذه الآلهة على نصر عابديها، فهي أضعف من ذلك وأحقر، ولا تقدر على الاستنصار لأنفسها، ولا الانتقام ممن أرادها بسوء، لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل.

﴿وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٌ مُّحۡضَرُونَ﴾[٤]؛ أي والمشركون يغضبون للآلهة في الدنيا، وهم لا يسوقون إليهم خيرا ولا يدفعون عنهم ضرا.

والخلاصة: إن العابدين وهم المشركون كالجند، لحمايتهم والذبِّ عنهم في الدنيا، والمعبودون يوم القيامة لا يستطيعون أن يقدِّموا لهم معونة، ولا يدفعون عنهم مضرَّة"[٥].

وتكلم رحمه الله على شبه المشركين في ردهم دعوة النبي ﷺ، فقال بعد قوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾[٦]؛ "أي أزعم أن المعبود إله واحد لا إله إلا هو؟ وقد أنكروا ذلك وتعجبوا من ترك الشرك بالله، من أجل أنهم تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأشربته قلوبهم، فلما دعاهم إلى محو ذلك من قلوبهم، وإفراد الإله بالوحدانية أعظموا ذلك وتعجبوا منه، وقالوا: إن آباءهم على كثرتهم ورجاحة عقولهم لا يعقل أن يكونوا جاهلين مبطلين، ويكون محمد وحده محقًّا صادقًا، ولا شك أن هذا استبعاد فحسب، ولا مستند له من عقل ولا نقل.

---

(١) سورة الأنبياء الآية: (٦٨).

(٢) سورة يس الآية: (٧٤).

(٣) سورة يس الآية: (٧٥).

(٤) سورة يس الآية: (٧٥).

(٥) تفسير المراغي(١٥٢/٨)

(٦) سورة ص الآية: (٥).

ونحو الآية قوله: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾[(١)]، روى ابن جرير عن ابن عباس قال: «لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل، فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويفعل ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فنهيته، فبعث أبو طالب إليه فجاء النبي ﷺ فدخل البيت وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل واحد، قال فخشي أبو جهل إن جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرقَّ عليه، فوثب فجلس في ذلك المجلس، ولم يجد رسول الله ﷺ مجلسا قرب عمه، فجلس عند الباب فقال له أبو طالب: أي ابن أخي ما لقومك يشكونك يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول؟ قال وأكثروا عليه من القول، وتكلم رسول الله فقال: يا عم؛ إني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها، تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم بها العجم الجزية، ففرحوا لكلمته ولقوله، فقال القوم: ما هي وأبيك؟ لنعطينَّكها وعشرا، قال ﷺ: «**لا إلهَ إلَّا الله**»، فقاموا فزعين ينفضون أثوابهم، ويقولون: ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾[(٢)]، فنزل من هذا الموضع إلى قوله: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾[(٣)(٤)].

﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ﴾[(٥)]؛ أي وانطلق أشراف قريش من مجلس أبي طالب بعد ما بكَّتهم رسول الله وشاهدوا تصلُّبَه في الدين، ويئسوا مما كانوا يرجون منه بوساطة عمه، يتحاورون بما جرى ويقلِّبون وجوه الرأي فيما يفعلون، ويقولون: اثبتوا على عبادتها محتملين القدح فيها والغضَّ من شأنها والاستهزاء بأمرها.

---

(١) سورة يونس الآية: (٢).

(٢) سورة ص الآية: (٥).

(٣) سورة ص الآية: (٨).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده(٣/٤٥٨)، رقم الحديث(٢٠٠٨)، والنسائي في الكبرى، كتاب التفسير، سورة ص، (١٠/٢٣٣)، رقم الحديث(١١٣٧٢)، وابن حبان في صحيحه، ذكر الإخبار عن أداء العجم الجزية إلى العرب(١٥/٧٩)، رقم الحديث(٦٦٨٦)، والحاكم في المستدرك، تفسير سورة ص، (٢/٤٦٩)، رقم الحديث(٣٦١٧)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في التلخيص.

(٥) سورة ص الآية: (٦).

ثم عللوا الأمر بالصبر بما شاهدوه من تصلبه عليه السلام فقالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾[١]؛ أي إن هذا لأمر عظيم يريد محمد إمضاءه وتنفيذه لا محالة من غير صارف يلويه، ولا عاطف يثنيه، لا قول يقال من طرف اللسان، أو يرجى فيه المسامحة بشفاعة إنسان، فاقطعوا أطماعكم عن استنزاله إلى إرادتكم، واصبروا على عبادة آلهتكم.

ثم ذكروا أيضا ما ظنوا أن فيه إبطالا لدعواه فقالوا: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾[٢]؛ أي ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه محمد من التوحيد في الملة الآخرة، وهي ملة النصارى، فإنهم يقولون بالتثليث ويزعمون أنه الدين الذي جاء به عيسى عليه السلام وحاشاه، وإنما خصوا النصرانية لأنها آخر الأديان المعروفة لديهم من أديان أهل الكتاب"[٣].

وتكلم رحمه الله عن كمال غنى الله سبحانه وتعالى وعن تناقض عبدة الأصنام، فقال عن الله جل وعلا: "هو الغنى عما سواه من المخلوقات، فهو لا يريد بعبادته جر منفعة، ولا دفع مضرة، ولكنه لا يرضى الكفر لعباده، بل يرضى لهم الشكر، وأن كل نفس مطالبة بما عملت، وبعدئذ تردُّ إلى عالم الغيب والشهادة فيجازيها بما كسبت. . . "

ثم أوضح "تناقض المشركين فيما يفعلون، فإذا أصابهم الضر رجعوا في طلب دفعه إلى الله، وإذا ذهب عنهم عادوا إلى عبادة الأوثان، وقد كان العقل يقضي بأنهم وقد علموا أنه لا يدفع الضر سواه أن يعبدوه في جميع الحالات، ثم أمر رسوله أن يقول لهم متهكما موبخا: تمتعوا بكفركم قليلا ثم مصيركم إلى النار وبئس القرار".

قال: "وقول الله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾[٤]؛ أي إن تكفروا به سبحانه مع مشاهدة ما يوجب الإيمان والشكر فإن ذلك لا يضيره شيئا، فهو الغني عن سائر المخلوقات كما قال تعالى حكاية عن موسى: ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[٥].

---

(١) سورة ص الآية: (٦).

(٢) سورة ص الآية: (٧).

(٣) تفسير المراغي(٨/٢٠٣-٢٠٥).

(٤) سورة الزُّمَر الآية: (٧).

(٥) سورة إبراهيم الآية: (٨).

وجاء في صحيح مسلم: «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجِنَّكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئا**» [(١)].

ثم ذكر ما يحبه سبحانه وما يكرهه فقال: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ﴾[(٢)]؛ أي لا يحبه ولا يأمر به، لأنه مانع من ارتقاء النفوس البشرية بجعلها ذليلة خاضعة للأرباب المتعددة والمعبودات الحقيرة من الخشب والنُّصب، وممن يأكل الطعام ويمشي في الأسواق.

﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾[(٣)]؛ لأنه على مقتضى السَّنن القويم، والصراط العادل المستقيم كما قال: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾[(٤)]. . . .

ثم بين أن هذه المجازاة ليست بالعسيرة عليه سبحانه فقال: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[(٥)] أي إنه تعالى محص جميع أعمالكم حتى ما تضمره صدوركم مما لا تدركه أعينكم فكيف بما رأته العيون، وأدركته الأبصار؟

ثم بين سبحانه شأن الكافر بالنسبة إلى ربه فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[(٦)]؛ أي وإذا أصاب الكافر بلاء في جسده، أو شدة في معيشته، أو خوف على حياته، استغاث بربه الذي خلقه ورغب إليه في كشف ما نزل به، تائبا إليه مما كان عليه من قبل ذلك من الكفر به وإشراك الآلهة والأوثان في عبادته، ثم إذا منحه نعمة منه فأزال ما به من ضرٍّ، وأبدله بالسقم صحة، وبالشدة رخاء، ترك دعاءه الذي كان يدعوه من قبل أن يكشف ما كان به من ضرٍّ، فجعل لله شركاء، وأضل الناس ومنعهم من توحيده والإقرار به والدخول في الإسلام له. . .

ثم ذكر ما أمر به نبيه من الإخلاص في الطاعة فقال: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾[(٧)]؛ أي قل أيها الرسول لمشركي قومك: إن الله أمرني أن أعبده مفردا له الطاعة دون كل

---

(١) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، (١٦/٨)، رقم الحديث(٢٥٧٧).

(٢) سورة الزُّمَر الآية: (٧).

(٣) سورة الزُّمَر الآية: (٧).

(٤) سورة إبراهيم الآية: (٧).

(٥) سورة الزُّمَر الآية: (٧).

(٦) سورة الزُّمَر الآية: (٨).

(٧) سورة الزُّمَر الآية: (١١).

ما تدعون من دونه من الآلهة والأنداد، وفي هذا نعي لهم على تماديهم في عبادة الأوثان، والكلام عليه من وادي قولهم: (إياك أعني واسمعي يا جاره).

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(١)؛ أي وأُمِرت أن أكون أول المسلمين وسابقهم في إخلاص التوحيد لله، وإخلاص العبادة له، والبراءة من كل ما دونه من الآلهة.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(٢)؛ أي قل لهم: إني أخاف إن عصيت ربى بترك الإخلاص له أو إفراده بالربوبية، عذاب يوم القيامة الكثير الأهوال والآلام، وفي هذا من التعريض بهم ما لا يخفى.

ثم كرر الأمر مرة أخرى بالإخلاص في الطاعة للتهديد والوعيد، فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾(٣)؛ أي قل لهم: الله أعبدُ لا غيرَه، لا استقلالا ولا اشتراكا، مخلصا له عبادتي مبتعدا من الشرك والرياء، فاعبدوا ما شئتم أن تعبدوه من دونه من الأوثان والأصنام، وستعلمون وبال عاقبتكم حينما تلقون ربكم. . .

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾(٤)؛ أي ويخوفك المشركون بغير الله من الأوثان والأصنام عبثا وباطلا، لأن كل نفع أو ضر فلا يصل إلا بإرادته تعالى، وقد روي أنهم خوَّفوا النبي ﷺ مضرة الأوثان فقالوا: أتسبُّ آلهتنا؟ لئن لم تكفَّ عن ذكرها لتخبلنَّك أو تصيبنَّك بسوء(٥).

وقال قتادة: مشى خالد بن الوليد إلى العزَّى ليكسرها بالفأس، فقال له سادنها: أحذِّركها يا خالد، فإن لها شدة لا يقوم لها شيء، فعمد خالد إلى العزَّى فهشم أنفها حتى كسرها بالفأس(٦).

وفي الآية إيماء إلى أنه سبحانه يكفي نبيه ﷺ دينه ودنياه ويكفي أتباعه أيضا، ويكفيهم شر الكافرين، ونحو الآية قوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾(٧)، وقوله تعالى حكاية

---

(١) سورة الزُّمَر الآية: (١٢).

(٢) سورة الأنعام الآية: (١٥).

(٣) سورة الزُّمَر الآية: (١٥).

(٤) سورة الزُّمَر الآية: (٣٦).

(٥) انظر: تفسير القرطبي(١٥/٢٥٨).

(٦) تفسير ابن جرير(٢١/٢٩٤).

(٧) سورة البقرة الآية: (١٣٧).

عن إبراهيم: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾[(١)]"[(٢)].

وذكر رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦﴾[(٣)] فقال: أرشد-أي الله- إلى أن بغض الأصنام وبغض عبادتها جاء على لسان كل نبي، فمحمد ﷺ ليس بدعا من بينهم في الإنكار عليها حتى يعارض ويبغض. . .

أخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن عثمان المخزومي: أن قريشا قالت قيّضوا لكل رجل من أصحاب محمد رجلا يأخذه، فقيّضوا لأبي بكر طلحة بن عبيد الله، فأتاه وهو في القوم فقال أبو بكر: إلام تدعوني؟ قال: أدعوك إلى عبادة اللَّاتِ والعُزَّى، قال أبو بكر: وما اللَّات؟ قال: أولاد الله، قال: وما العزَّى؟ قال: بنات الله، قال أبو بكر: فمن أمُّهم؟ فسكت طلحة فلم يجبه، وقال لأصحابه: أجيبوا الرجل، فسكت القوم، فقال طلحة: قم يا أبا بكر أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فأنزل الله هذه الآية[(٤)]. . . .

ثم وبخ مشركي قريش بأن ما هم عليه من عبادة الأصنام لم يأت في شريعة من الشرائع فقال: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[(٥)]؛ أي واسأل أمم من أرسلنا من قبلك من الرسل: هل حكمنا بعبادة غير الله؟ وهل جاء ذلك في ملة من الملل؟ والمراد بهذا الاستشهاد بيان إجماع المرسلين على التوحيد والتنبيه إلى أن محمدا ﷺ ليس ببدع من بين الرسل في الأمر به، حتى يكذَّب ويعادى له.

وقصارى ذلك: إن الرسل جميعا دعوا إلى ما دعا إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام، ونحو الآية قوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[(٦)]. . . .

---

(١) سورة الأنعام الآية: (٨١).
(٢) تفسير المراغي(٨/٢٤٥-٢٦٣).
(٣) سورة الزُّخرُف الآية: (٣٦).
(٤) تفسير ابن أبي حاتم(١٢/٢٠٧).
(٥) سورة الزُّخرُف الآية: (٤٥).
(٦) سورة النحل الآية: (٣٦).

روى محمد بن إسحاق في السيرة: أن رسول الله ﷺ جلس يوما في المسجد مع الوليد بن المغيرة، فجاء النضر بن الحارث وجلس معهم، وفي المسجد غير واحد من رجالات قريش، فتكلم رسول الله ﷺ، فعرض له النضر، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1]، ثم قام رسول الله ﷺ، وأقبل عبد الله بن الزِّبعرى التميمي وجلس، فقال له الوليد بن المغيرة: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد، وقد زعم محمد أنَّا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال ابن الزِّبعرى: أما والله لو وجدته لخصمته، سلوا محمدا، أكلُّ ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيرا، والنصارى تعبد المسيح عيسى بن مريم، فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزِّبعرى، ورأوا أنه قد احتج وخاصم، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته**»، وأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[2]؛ أي عيسى وعزير ومن عبد معهما، فاتخذهم من بعدهم من أهل الضلال أربابا من دون الله، ونزل فيما يذكر من أمر عيسى عليه السلام وأنه يعبد من دون الله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾[3][4].

وقال في إيضاح الآية: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾[5]؛ أي ولما ضرب ابن الزِّبعرى عيسى بن مريم مثلا، وجادل رسول الله ﷺ بعبادة النصارى له، إذا قومك من هذا المثل يرتفع لهم ضجيج وجلبة فرحا وسرورا، كما يرتفع لغط القوم وجلبهم إذا أعيوا في حجة ثم فتحت عليهم.

---

(١) سورة الأنبياء الآية: (٩٩).

(٢) سورة الأنبياء الآية: (١٠١).

(٣) سورة الزُّخرُف الآية: (٥٧).

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره(٥٣٩/١٨) من طريق ابن إسحاق، وذكره الألباني في صحيح السيرة النبوية ص(١٩٧).

(٥) سورة الزُّخرُف الآية: (٥٧).

وقد روي أن عبد الله بن الزبعرى قبل إسلامه قال للنبي ﷺ وقد سمعه يقول: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ أليس النصارى يعبدون المسيح وأنت تقول كان نبيا وعبدا صالحا، فإن كان في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه، ففرح قريش وضحكوا وارتفعت أصواتهم.

﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾(١)؛ أي إن آلهتنا ليست خيرا من عيسى، فإذا كان عيسى من حصب جهنم كان أمر آلهتنا أهون.

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾(٢)؛ أي ما ضربوا لك المثل إلا لأجل الجدل والغلبة في القول لا لإظهار الحق، فإن قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إنما ينطلق على الأصنام والأوثان ولا يتناول عيسى والملائكة، ولكنهم قوم ذوو لدد في الخصومة، مجبولون على سوء الخلق واللجاج. . .

ثم بين أن عيسى عبد من عبيده الذين أنعم عليهم بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾(٣)؛ أي ما عيسى بن مريم إلا عبد أنعمنا عليه بالنبوة وروادفها، فهو رفيع المنزلة عليُّ القدر، وقد جعلناه آية، بأن خلقناه من غير أب، وشرفناه بالنبوة، وصيرناه عبرة سائرة، تفتح للناس باب التذكر والفهم، وليست مخالفة العادة بموجبة لعبادته كما يزعم النصارى، بل مذكرة بعبادة الخالق الحكيم"(٤).

وقال رحمه الله عند تفسير قوله جل وعلا: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾(٥)؛ "أي قل لهم: إن ثبت ببرهان صحيح توردونه، وحجة واضحة تدلون بها أن للرحمن ولدا، كنت أسبقكم إلى طاعته، والانقياد له، كما يعظِّمُ الرجل ابنَ الملك تعظيما لأبيه، ولا شكَّ أن هذا أبلغ أسلوب في نفي الولد، كما يقول الرجل لمن يناظره ويجادله: إن ثبت ما تقول بالدليل، فأنا أول من يعتقده ويقول به، وهذا ما اختاره ابن جرير ورجحه(٦).

---

(١) سورة الزُّخرُف الآية: (٥٨).

(٢) سورة الزُّخرُف الآية: (٥٨).

(٣) سورة الزُّخرُف الآية: (٥٩).

(٤) تفسير المراغي(٩/٧٣-٨٥).

(٥) سورة الزُّخرُف الآية: (٨١).

(٦) انظر: تفسير ابن جرير(٢١/٦٤٨-٦٥١).

وخلاصته: إذا كنت لم أعترف بولد، بدليل أني لم أعبده مع أني أقرب الناس إلى الله، فالولد لا وجود له حتما، وكأنه يقول: إن انتفاء الولد مرتب على انتفاء عبادته، لما علم من أنه إذا انتفى اللازم لشيء انتفى ذلك الشيء، كما استدل بعدم فساد نظام الكون على وحدانية الله في قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ﴾ –السماوات والأرض– ﴿ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[١].

ثم نزه سبحانه نفسه فقال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[٢]؛ أي تنزه مالك السموات والأرض وما فيهما من الخلق، ورب العرش المحيط بذلك كله عما يصفه به المشركون كذبا، وعما ينسبون إليه من الولد، إذ كيف تكون هذه العوالم كلها ملكا له، ويكون شيء منها جزءا منه، تعالى ربنا عن ذلك علوًّا كبيرا.

ولما ذكر الدليل القاطع على نفي الولد أمره أن يتركهم وشأنهم فيما يقولون، فقال: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾[٣]؛ أي فاترك أيها الرسول هؤلاء المفترين على الله، الواصفيه بأن له ولدا، يخوضوا في باطلهم، ويلعبوا في دنياهم حتى يأتي ذلك اليوم الذي لا محيص عنه، وحينئذ يعلمون عاقبة أمرهم، ويذوقون الوبال والنكال جزاء ما اجترحوه من الشرك والآثام، ولا يخفى ما في هذا من شديد الوعيد والتهديد.

ثم أكد هذا التنزيه فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٤]؛ أي وهو الله الذي يعبده أهل السماء وأهل الأرض، ولا تصلح العبادة إلا له، وهو الحكيم في تدبير خلقه وتسخيرهم لما يشاء، العليم بمصالحهم، فالحكمة المقترنة بالعلم تخللت كل رطب ويابس وجليل وحقير، فمن يشاهد إتقان العالم وحسن تنسيقه وإبداعه يجد الحكمة فيه على أتم وجوهها، ويعجب مما فيه من جمال وكمال ويدهش لما يجد فيه من غرائب يحار فيها اللب، فأفردوا له العبادة، ولا تشركوا به شيئا سواه.

---

(١) سورة الأنبياء الآية: (٢٢).

(٢) سورة الزُّخرُف الآية: (٨٢).

(٣) سورة الزُّخرُف الآية: (٨٣).

(٤) سورة الزُّخرُف الآية: (٨٤).

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾[(١)]؛ أي وتقدَّس خالق السموات والأرض وما فيهما من عوالم لا ندري كنهها ولا نعلم حقيقتها، المتصرف فيهما بلا مدافعة ولا ممانعة من أحد، وهو العلي العظيم الذي بيده أزمَّة الأمور نقضا وإبراما.

﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾[(٢)]؛ أي وعنده العلم بميقات الساعة لا يجلِّيها لوقتها إلا هو.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[(٣)]؛ أي وإليه المرجع فيجازي كل أحد بما يستحق، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[(٤)]؛ أي ولا تقدر الأصنام والأوثان التي يعبدونها على الشفاعة لهم كما زعموا أنهم شفعاء عند ربهم، ولكن من نطق بكلمة التوحيد وكان على بصيرة وعلم من ربه كالملائكة وعيسى تنفع شهادتهم عنده بإذنه لمن يستحقها.

وقال سعيد بن جبير: إن معنى الآية: "لا يملك هؤلاء الشفاعة إلا لمن شهد بالحق وآمن على علم وبصيرة"[(٥)].

ثم بين أن هؤلاء المشركين متناقضو الأقوال والأفعال فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[(٦)]؛ أي ولئن سألت أيها الرسول هؤلاء المشركين بالله العابدين غيره، من خلق الخلق جميعا؟ ليعترفنَّ بأنه الله تعالى وحده لا شريك له في ذلك، ولا يستطيعون الجحود لظهور الأمر وجلائه.

﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[(٧)]؛ أي فكيف ينقلبون عن عبادة الله إلى عبادة غيره، وينصرفون عنها مع هذا الاعتراف، فإن المعترف بأن الله خالقه إذا عمد إلى صنم أو حيوان وعبده مع الله أو عبده

---

(١) سورة الزُّخرُف الآية: (٨٥).
(٢) سورة الزُّخرُف الآية: (٨٥).
(٣) سورة الزُّخرُف الآية: (٨٥).
(٤) سورة الزُّخرُف الآية: (٨٦).
(٥) تفسير القرطبي(١٢٢/١٦).
(٦) سورة الزُّخرُف الآية: (٨٧).
(٧) سورة الزُّخرُف الآية: (٨٧).

وحده، فقد عبد بعض مخلوقات الله، فهم في غاية الجهل والسفه وضعف العقل، وفي هذا تعجيب شديد من إشراكهم بعد هذا"(١).

وتكلم رحمه الله على الأصنام التي كانت موجوده عند المشركين في مكة وما حولها فقال عند قوله ﷻ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾(٢)، فقال في التعريف:

"**اللات والعزى ومناة:** أصنام كانت تعبدها العرب في جاهليتها.

فاللات كانت لثقيف؛ وأصل ذلك أن رجلا كان يَلُتُّ السويق للحاج، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه، ثم صنعوا له صورة وعبدوها.

والعزى: شجرة بغطفان كانوا يعبدونها، وبعث النبي ﷺ بعد الإسلام خالد بن الوليد ليقطعها، فجعل يضربها بفأسه ويقول:

يا عزَّ كفرانك لا سبحانك   إني رأيت الله قد أهانك

ومناة: صخرة كانت لهذيل وخزاعة، وكانت دماء النسائك تمنى عندها؛ أي تراق(٣).

والأخرى: أي المتأخرة الوضيعة القدر كما جاء في قوله: ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾(٤)؛ أي وقال وضعاؤهم لأشرافهم ورؤسائهم، وقد جاء لفظ (الأخرى) بهذا المعنى بين المصريين فيقول: هو الآخر وهي الأخرى، يريدون الضعة وتأخر القدر والشرف.

ضيزى: من ضزته حقه (بالضم والكسر) أي نقصته، والمراد أنها قسمة جائرة غير عادلة، قال امرؤ القيس:

ضازت بنو أسد بحكمهم   إذ يجعلون الرأس كالذنب(٥)

بعد أن بين ما رآه محمد ﷺ من العجائب ليلة المعراج، قال للمشركين: ماذا رأيتم في هذه الأصنام؟ وكيف تحصرون أنفسكم في العالم المادي وأصنامه، وتقطعون على أنفسكم طريق

---

(١) تفسير المراغي: (٩/٩٣-٩٥).

(٢) سورة النجم الآية: (٢٢).

(٣) انظر: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار للأزرقي(١/٩٥-٩٦).

(٤) سورة الأعراف الآية: (٣٩).

(٥) انظر: البحر المحيط لأبي حيان(٨/١٥٤)، والدر المنثور للسيوطي(٧/٦٥٤).

التقدم والارتقاء، وإن النفس لا ترقى إلا بما استعدت له، فإذا وقفت النفوس عند هذه المادة وتلك الأصنام لم يكن لها عروج إلى السماء، ولا سيما أن هذه الأصنام لا تشفع لهم عند ربهم ولا تجديهم نفعا.

قال: "وقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾؛ أي أفبعد أن سمعتم ما سمعتم من آثار كمال الله ﷻ وعظمته في ملكه وملكوته، وجلاله وجبروته، وأحكام قدرته ونفاذ أمره، وأن الملائكة على رفعة مقامهم وعلوّ قدرهم ينتهون إلى السدرة ويقفون عندها، تجعلون هذه الأصنام على حقارة شأنها شركاء لله مع ما علمتم من عظمته.

وفى هذا تقريع شديد، وتوبيخ عظيم، وتأنيب لا إلى غاية، وإن عاقلا لا ينبغي أن يخطر بباله مثل هذا، ويمتهن رأيه إلى هذا الحد.

رُوي أن أبا سفيان قال يوم أحد: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم، فقال رسول الله ﷺ: «**قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم**»[1]، وبعد أن أنَّبهم على سخف عقولهم، وسفاهة أحلامهم، بعبادتهم الأصنام التي كانوا يزعمون أنها هياكل للملائكة، والملائكة بنات الله، وبَّخهم على نسبة البنات إليه سبحانه وهم لا يرضونها لأنفسهم فقال: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾؛ أي أتجعلون له ولدا وتجعلون هذا الولد أنثى؟ وتختارون لأنفسكم الذكران، على علم منكم أن البنات ناقصات والبنين كاملون، والله كامل العظمة، فكيف تنسبون إليه الناقص، وأنتم على نقصكم تنسبون إلى أنفسكم الكامل.

﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾؛ أي تلك قسمة جائرة غير مستوية، ناقصة غير تامة، لأنكم جعلتم لربكم ما تكرهونه لأنفسكم، وآثرتم أنفسكم بما ترضون لها.

ثم أنكر عليهم ما ابتدعوه من الكذب والافتراء في عبادة الأصنام وتسميتها آلهة فقال: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾[2]؛ أي إن هذه الأصنام التي تسمونها آلهة، هي أسماء فحسب، وليس لها مسميات هي آلهة البتة، كما تزعمون وتعتقدون أنها تستحق أن يعكف على عبادتها وتقديم القرابين إليها، وليس لكم من حجة ولا برهان تؤيدون

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، (١٠/٧٨)، رقم الحديث(٣٠٣٩).

(٢) سورة النجم الآية: (٢٣).

به ما تقولون، وإنما قلَّد فيها الآخر الأول، وتبع في ذلك الأبناء الآباء، ولا يخفى ما في ذلك من التحقير، كما تقول: ما هو إلا اسم إذا لم يكن مشتملا على صفة معتبرة لها شأن وقدر، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(١)].

ثم أكد ما سلف بقوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾[(٢)]؛ أي ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم، وإلا حظوظ نفوسهم في رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين.

والخلاصة: إنكم تعبدون هذه الأصنام توهما منكم أن ما عليه آباؤكم حق، وإشباعا لشهوات أنفسكم.

ثم بين أنه ما كان ينبغي لهم ذلك، لأنه قد جاءهم ما ينبههم إلى سوء رأيهم وعظيم غفلتهم فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[(٣)]؛ أي هم يتبعون ما كان عليه أسلافهم وينقادون إلى آرائهم، وقد أرسل الله إليهم الرسول بالحق المنير، والحجة الواضحة، وقد كان ينبغي أن يكون لهم في ذلك مزدجر، لكنهم أعرضوا عنه وتولوا: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ﴾[(٤)].

وبعد أن بيَّن أن جعلهم الأصنام شركاء لله لا يستند إلى دليل، بل لا يستند إلا إلى التشهي والهوى واتباع الظن، ذكر أنها مع هذا لا تجديهم نفعا، فهي لا تشفع لهم عند الله، ولا يظفرون منها بجدوى فقال: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾[(٥)]؛ أي بل ألهم ما يتمنونه من شفاعة الآلهة يوم القيامة كلا إن هذا لن يكون، ولن يجديكم ذلك فتيلا ولا قطميرا، فإن كل ما في الدنيا والآخرة فهو ملك له تعالى، ولا دخل لهذه الأصنام في شيء منه.

وهذا تيئيس لهم من أن ينالوا خيرا من عبادتها والتقرب إليها، ولا تكون وسيلة لهم عند ربهم، ثم حرمهم فائدة عبادتها من وجه آخر فقال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا

---

(١) سورة يوسف الآية: (٤٠).

(٢) سورة النجم الآية: (٢٣).

(٣) سورة النجم الآية: (٢٣).

(٤) سورة المدَّثر الآية: (٥١).

(٥) سورة النجم الآية: (٢٥).

﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾[١]؛ أي وكثير من الملائكة لا تفيد شفاعتهم شيئا إلا إذا أذن بها ربهم لمن يشاء ويرضى عنهم، ممن أخلصوا له في القول والعمل، وإذا كان هذا حال الملائكة وهم عالم روحي لهم القرب من ربهم والزلفى لديه، فما بالكم بأصنام أرضية ميتة لا روح فيها ولا حياة، فهي بعيدة كل البعد عن الذات الأقدس.

وخلاصة ذلك: إنه لا مطمع لهم في شفاعة هذه الأصنام، ولا تجديهم نفعا في هذا اليوم"[٢].

وذكر رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾[٣]، فقال: "هي الشعرى العبور وهي ذلك النجم الوضاء الذي يقال له مرزم الجوزاء، وقد عبدته طائفة من العرب. . .

وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾؛ أي وأنه تعالى رب هذا الكوكب الوهاج الذي تطلع خلف الجوزاء في شدة الحر، وإنما خصها بالذكر من بين الأجرام السماوية، وفيها ما هو أكبر منها جرما وأكثر ضوءا، لأنها عبدت من دون الله في الجاهلية، فقد عبدتها حمير وخزاعة[٤]، وأول من سن عبادتها أبو كبشة وكان من أشراف العرب، وكانت قريش تقول لرسول الله ﷺ ابن أبي كبشة تشبيها له به، لمخالفته دينهم كما خالفهم أبو كبشة[٥]، وكان من أجداد النبي ﷺ من قبل أمه، ومن ذلك قول أبي سفيان حين دخوله على هرقل: «لقد أَمِر أَمْرُ ابن أبي كبشة»[٦].

ومن العرب من كانوا يعظمونها، ويعتقدون أن لها تأثيرا في العالم، ويتكلمون على المغيبات حين طلوعها.

وهي شعريان إحداهما شامية، وثانيتهما يمانية، وهي المرادة هنا وهي التي كانت تعبد من دون الله"[٧].

---

(١) سورة النجم الآية: (٢٦).

(٢) تفسير المراغي(٩/٣٣١-٣٣٣).

(٣) سورة النجم الآية: (٤٩).

(٤) انظر: تفسير ابن جرير(٢٢/٥٥١).

(٥) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير(٤/٢٤٦).

(٦) أخرجه: البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قل: يا {أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله}، (١/١٠)، رقم الحديث(٤٥٥٣)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، (٥/١٦٣)، رقم الحديث(١٧٧٣).

(٧) تفسير المراغي(٩/٣٤٠-٣٤٥).

المراغي رحمه الله في مبحث عبادة الأوثان والأصنام قرر مذهب السلف، ونقل عنهم، ولطول هذا المبحث أكتفي بالإشارة لبعض كتب السلف في ذلك، ومنها في التفسير تفسير الإمام ابن جرير وابن كثير، وعموم كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم، ومؤلفات أئمة الدعوة خصوصا شروح كتاب التوحيد، فمن اراد الاستزادة فعليه الرجوع لعموم كتب السلف في ذلك.

المطلب الثالث: الشفاعة وما يتعلق بها

الشفاعة لغة: خلاف الوتر.

قال ابن فارس: "الشين والفاء والعين أصل صحيح يدل على مقارنة الشيئين، والشفع خلاف الوتر"(١).

وفي الاصطلاح: "التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة"(٢).

وعرفها المراغي بقوله: "الشفاعة: من الشفع ضد الوتر، لأن الشفيع ينضم إلى الطالب في تحصيل ما يطلب فيصير معه شفعا بعد أن كان وترا"(٣).

وقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾(٤).

"قوله: ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ﴾؛ أي إنها إذا جاءت بشفاعة شفيع لم تقبل منها.

﴿وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ﴾؛ أي ولا يؤخذ منها فداء إن هي استطاعت أن تأتي بذلك.

﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾؛ أي يمنعون من العذاب.

والخلاصة: إن ذلك يوم تتقطع فيه الأسباب، وتتحول فيه سنة الحياة الدنيا من دفع المكروه عن النفس بالفداء أو بشفاعة الشافعين، عند الأمراء و السلاطين، أو بأنصار ينصرونها بالحق والباطل على سوءها، وتضمحل فيه جميع الوسائل إلا ما كان من إخلاص في العمل قبل حلول الأجل، ولا يتكلم فيه أحد إلا بإذن الله.

وقد كان اليهود كغيرهم من الأمم الوثنية يقيسون أمور الآخرة على أمور الدنيا، فيتوهمون أنه يمكن تخليص المجرمين من العذاب بفداء يدفع، أو بشفاعة بعض المقربين إلى الحاكم فيغير رأيه وينقض ما عزم عليه، فجاء الإسلام ومحا هذه العقيدة ليعلم المؤمنون أنه لا ينفع في ذلك اليوم إلا مرضاة الله بالعمل الصالح، والإيمان الذي يبلغ قراره النفس، ويتجلى في أعمال الجوارح"(٥).

---

(١) معجم مقاييس اللغة، مادة شفع(٣/٢٠١).

(٢) انظر: النهاية لابن الأثير(٢/٤٨٥)

(٣) تفسير المراغي(١/٩٥).

(٤) سورة البقرة الآية: (٤٨).

(٥) تفسير المراغي(١/٩٦).

ولما تكلم على قوله تعالى: (﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1]، قال بعد ذلك: "لكن غلبة الجهل جعلت الناس يعتمدون في طلب سعادة الآخرة، وبعض مصالح الدنيا على كرامات الصالحين، وساعدهم على ذلك رؤساء الأديان، فأوَّلوا لهم نصوص الدين اتباعًا للهوى، ومن ثمَّ جاء القرآن يقرِّرُ ارتباط السعادة بالكسب والعمل، وينفي الانتفاع بالأنبياء والصالحين لمن لم يقتد بهم في صالح أعمالهم، وقد حاجَّ بذلك أهل الكتاب الذين يفتخرون بأسلافهم ويعتمدون على شفاعتهم وجاههم ليقطع أطماعهم في تلك الشفاعة.

وعلينا معشر المسلمين أن نجعل نصب أعيننا ورائدنا في أعمالنا تلك القاعدة: الجزاء على العمل، ولا نغتر بشفاعة سلفنا الصالح، ونجعلها وسيلة لنا في النجاة إذا نحن قصَّرنا في عملنا، فكل من السلف والخلف مجزيٌّ بعمله، ولا ينفع أحدا عمل غيره"[2].

وعلق المراغي رحمه الله على التوجه إلى الله في الدعاء دون سواه من الشفعاء والوسطاء، فقال عند قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[3]: "قرب الله من عباده إحاطة علمه بكل شيء، فهو يسمع أقوالهم ويرى أعمالهم، أي ذكِّر أيها الرسول عبادي بما يجب أن يراعوه في هذه العبادة وغيرها من الطاعة والإخلاص والتوجه إليَّ وحدي بالدعاء، وأخبرهم بأني قريب منهم ليس بيني وبينهم حجاب، ولا وليٌّ ولا شفيع يبلغني دعاءهم وعبادتهم، ويشاركني في إجابتهم وإثابتهم، وأجيب دعوة من يدعوني بلا وساطة أحد إذا هو توجه إليَّ وحدي في طلب حاجته، لأنني أنا الذي خلقته وأعلم ما توسوس به نفسه، والعارف بالشريعة وبسنن الله في خلقه، لا يقصد بدعائه إلا هدايته إلى الأسباب التي توصله إلى تحصيل رغباته ونيل مقاصده، فهو إذا سأل الله أن يزيد في رزقه، فهو لا يقصد أن تمطر له السماء ذهبا وفضة، وإذا سأله شفاء مريضه الذي أعياه علاجه، فإنه لا يريد أن يخرق العادات، بل يريد توفيقه إلى العلاج الذي يكون سبب الشفاء، ومن ترك السعي والكسب وطلب أن يؤتي مالا فهو غير داع بل جاهل، وكذا المريض الذي لا

(١) سورة البقرة: (١٣٤).

(٢) تفسير المراغي: (١/١٩١).

(٣) سورة البقرة الآية: (١٨٦).

يراعي الحمية ولا يتخذ الدواء ويطلب الشفاء والعافية، لأن مثل هذين يطلبان إبطال السنن التي سنها الله في الخليقة.

والدعاء المطلوب هو الدعاء بالقول مع التوجه إلى الله بالقلب، وذلك أثر الشعور بالحاجة إليه، والمذكّر بعظمته وجلاله، ومن ثم سماه النبي ﷺ «**مخُّ العبادة**»[(١)] وإجابة الدعاء: تقبَّله ممن أخلص له وفزع إليه، سواء وصل إليه ما طلبه في ظاهر الأمر أم لم يصل، ونحو الآية قوله في سورة ق: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[(٢)]، وعلى هذا فلا داعي لرفع الصوت في الدعاء، ولا إلى الوساطة بينهم وبينه في طلب الحاجات كما كان يفعله المشركون من التوسل بالشفعاء والوسطاء"[(٣)].

وذكر عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾[(٤)]؛ "أي واذكروه كما علمكم كيف تذكرونه، بأن يكون بتضرع وخيفة وطمع في ثوابه، صادر عن رغبة ورهبة كما قال ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[(٥)]، ولا تعدلوا عنه إلى ما كنتم تفعلونه في الجاهلية من الشرك واتخاذ الوسطاء بينكم وبينه، فلا تفرغ قلوبكم له، فقد كانوا يقولون في التلبية: «**لبَّيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك**»[(٦)].

﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾[(٧)]؛ أي وإنكم كنتم من قبل هذا الهدى من الضالين عن الحق في العقائد والأعمال بعباد الأوثان والأصنام، وباتخاذ الوسطاء الذين يشفعون عنده ويقربون إليه زلفى"[(٨)].

وتكلم عن تهاون بعض الناس في شعائر الدين، مثل الصلاة اتكالا على الشفعاء، وغرورا ببعض أهل الطرق فقال: "أرأيت بعد هذا كيف أعرض جمهرة المسلمين عن الصلاة، وكثر

---

(١) سبق تخريجه ص(٩٠).

(٢) سورة ق الآية: (١٦).

(٣) تفسير المراغي: (١/٢٥٠).

(٤) سورة البقرة الآية: (١٩٨).

(٥) سبق تخريجه ص(١٧٤).

(٦) سبق تخريجه ص(١٤١).

(٧) سورة البقرة الآية: (١٩٨).

(٨) تفسير المراغي(١/٢٧٣).

التاركون الغافلون عنها، وقلَّ عدد المصلين، أرأيت أن أحدهم لَتُتْلَى عليه الآيات والأحاديث فيصرُّ مستكبرا كأن لم يسمعها كأنَّ في أذنيه وقرا، اتكالا على شفاعة الشافعين، وغرورا بالانتساب إلى الإسلام، واعتقادا بأن ذلك كاف في نيل السعادة في الآخرة، ولهم من مشايخ الطرق وغيرهم ما يمدُّهم في غَيِّهم، ويستدرجهم في غرورهم"[1].

وتكلم على الشفاعة، وما يتعلق به من ضلَّ في هذا الباب عند قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[2]؛ أي من ذا الذي يستطيع من عبيده أن يغيِّر ما مضت به سنته، وقضت به حكمته، وأوعدت به شريعته، من تعذيب ذوي العقائد الباطلة، والأخلاق السافلة الذين أفسدوا في الأرض، وانحرفوا عن جادة الدين إلا إذا أذن له ربه، ونحو هذا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[3]، وهذا تمثيل لانفراده بالملك والسلطان في ذلك اليوم، وأن أحدا من عباده لا يجرؤ على الشفاعة أو التكلم بدون إذنه، وإذنه غير معروف لأحد من خلقه، وفي ذلك قطع لأمل الشافعين، والذين يركنون إلى الشفاعة التي كان يقول بها المشركون وأهل الكتاب.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾[4]؛ أي يعلم أمور الدنيا التي خلفوها، وأمور الآخرة التي يستقبلونها، وهذه الجملة مؤَكِّدَةٌ لنفي الشفاعة، إذ من كان عالما بكل شيء فعله العباد في الماضي وفيما هو حاضر بين أيديهم وفيما يستقبلهم، وكان ما يجازيهم به مبنيا على هذا العلم، كانت الشفاعة على هذا النحو المعروف، مما يستحيل عليه تعالى، لأنها لا تتحقق إلا بإعلام الشفيع المشفوع عنده من أمر المشفوع له وما يستحقه ما لم يكن يعلم.

وما ورد من أحاديث الشفاعة، فهو محمول على الدعاء الذي يفعل الله تعالى عقبه ما سبق في علمه الأزلي أنه سيفعله، مع أنا نقطع بأن الشافع لا يغيِّر شيئا من علمه، ولا يحدث تأثيرا في إرادته، وبذلك تظهر كرامة الله لعبده بما أوقع من الفعل عقب دعائه، قاله شيخ الإسلام ابن تيمية[5]. . . .

---

(١) المصدر السابق(١/٣٥٥).

(٢) سورة البقرة الآية: (٢٥٥).

(٣) سورة هود الآية: (١٠٥).

(٤) سورة البقرة الآية: (٢٥٥).

(٥) انظر: قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص(٣٣)، والفتاوى(١٤/١٦٨)، واقتضاء الصراط المستقيم(١/٤٤٥).

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾[(١)]؛ أي وهو المتعالي عن الأنداد والأشباه، العظيم على كل شيء سواه، فهو المنزَّه بعظمته عن الاحتياج إلى من يعلمه بحقيقة أحوالهم، أو يستنزله عما يريد من مجازاتهم على أعمالهم.

والخلاصة: إن هذه الآية تملأ القلب مهابة من الله وجلاله وكماله، حتى لا تدع موضعا للغرور بالشفعاء الذين يعظمهم المغرورون ويتكلون على شفاعتهم، فأوقعهم ذلك في ترك المبالاة بالدين، فخويت القلوب من ذكر الله، وخلت من خشيته جهلا منها بما يجب من معرفته، وأفسدت فطرتهم الأهواء والجهالات، فلا يجدون ما يلهون به إلا كلمة (الشَّفاعَة) ومن اغترَّ بها فشيطانه هو الذي يوسوس له، ويمده في الغيِّ.

فهذه النفوس لم تعرف عظمة الله، ولم تستشعر بالحياء منه، ولم تحترم دينها وشريعتها، إذ آية ذلك بذل المال والروح في إعلاء كلمته، لا تعظيمه بالقول دون أن يصدق ذلك العمل.

و إنك لترى المسلمين يترنمون بهذه الآيات، وقلَّما تحدث لأحد منهم ذكرا يصرفه عن الشفاعات، ويرجو النجاة بعمل الصالحات وهو مؤمن، كما وعد الله بذلك في كتابه، وقد حذوا حذو أهل الكتاب من قبلهم، واتكلوا في نجاتهم على شفاعة سلفهم، وتركوا المبالاة بالدين"[(٢)].

وذكر رحمه الله من أنواع الشرك ما يقع باسم الشفعاء والتوسل بهم فقال: "والإشراك ضروب مختلفة: منها ما ذكره سبحانه عن مشركي العرب من عبادة الأصنام باتخاذهم أولياء وشفعاء عند الله يقربون المتوسل بهم إليه ويقضون الحاجات عنده، وقد جاء ذكر هذا في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[(٣)].

---

(١) سورة البقرة الآية: (٢٥٥).

(٢) تفسير المراغي(١/٣٨٣-٣٨٥).

(٣) سورة يونس الآية: (١٨).

ومنها ما ذكره عن النصارى من أنهم عبدوا المسيح ، قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾[(١)].

وأقوى أنواعه ما سماه الله دعاء واستشفاعا، وهو التوسل بغيره له وتوسيطه بينه وبين الله، ولا ينفع مع هذا صلاة ولا صوم ولا أي عبادة أخرى، وقد فشا هذا النوع بين المسلمين فتراهم يستشفعون ويقولون: يا شيخ العرب، يا سيد يا بدوي[(٢)]، يا سيدي إبراهيم الدسوقي[(٣)] إلى غير ذلك، ويعتذر بعض الناس لمثل هؤلاء، وغاية ما تصل إليه المعذرة أن يحولوهم من شرك جليٍّ واضح إلى شرك أقل منه وضوحا، ولكنه شرك على كل حال"[(٤)].

وقرر رحمه الله معنى الوسيلة وأقسامه المشروع والممنوع من ذلك، فقال عند قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾[(٥)] فقال: "اتقاء الله هو اتقاء سخطه وعقابه بعدم مخالفة دينه وشرعه، والوسيلة ما يتوصل به إلى مرضاته والقرب منه واستحقاق مثوبته في دار الكرامة.

روى ابن جرير عن قتادة أنه قال في تفسير الآية: "أي تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه"[(٦)].

---

(١) سورة التوبة الآية: (٣١).

(٢) هو: أحمد بن علي بن إبراهيم الحسيني، أبو العباس البدوي، المتصوف، أصله من المغرب، ولد بفاس، وطاف البلاد وأقام بمكة والمدينة. ودخل مصر في أيام الملك الظاهر بيبرس، كان يلقب بشيخ العرب، ويلقب بالسطوحي، توفي سنة (٦٧٥هـ) ودفن في طنطا حيث قبره هناك يزار ويحج إليه، انظر: الأعلام للزركلي(١/١٧٥).

(٣) هو: إبراهيم بن عبد العزيز أبو المجد الدسوقي ولد سنة (٦٢٣هـ)، وإليه تنسب الطريقة الدسوقية التي تقوم على الخروج عن حظوظ النفس والهوى، والدعاء إلى المحبة بين الناس والتسليم المطلق من المريد للشيخ وعدم استحباب الخلوة إلاّ في حضرة الشيخ، توفي سنة (٦٦٧هـ)، انظر: موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام–الدرر السنية بإشراف علوي عبد القادر السقاف(٦/٤٥٩).

(٤) تفسير المراغي(٢/٢١٢).

(٥) سورة المائدة الآية: (٣٥).

(٦) أخرجه ابن جرير في تفسيره(١٠/٢٩١).

وروى البخاري من حديث جابر أن النبي ﷺ قال: «**من قال حين يسمع النداء** -الأذان- **اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمدا الوسيلة والفضيلة، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة**»(١).

وروى مسلم من حديث عبد الله بن عمر أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليَّ فإنه من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه عشرا، ثم سلوا لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة**»(٢).

وبهذا يعلم أن هذه الوسيلة هي أعلى منازل الجنة، فمن دعا الله تعالى أن يجعلها للنبي ﷺ كافأه النبي ﷺ بالشفاعة، وهي دعاء أيضا والجزاء من جنس العمل.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٣)؛ أي افعلوا كل هذا رجاء الفوز والفلاح، والسعادة في المعاش والمعاد والخلود في جنات النعيم.

وبعد فلم يؤثر عن صحابي ولا تابعي ولا أحد من علماء السلف أن الوسيلة هي التقرب إلى الله تعالى بغير ما شرعه الله للناس من الإيمان والعمل كالدعاء ونحوه، ولكن جدَّ في القرون الوسطى التوسل بأشخاص الأنبياء والصالحين؛ أي جعلهم وسائل إلى الله تعالى، والإقسام بهم على الله، وطلب قضاء الحاجات ودفع الضر وجلب النفع منهم عند قبورهم أو بعيدا عنها، وكثر هذا حتى أصبح الناس يدعون مع الله أصحاب القبور في الحاجات، أو يدعونهم من دون الله، وألَّف بعض الناس كتبا في هذا، وزعم أنهم يسمعون ويستجيبون للداعي، وشغف العامة بمثل هذا القول المخالف لقول الله: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾(٤)، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾(٥)، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ

---

(١) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا}، (٢٦/٢)، رقم الحديث(٤٧١٩).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، (٤/٢)، رقم الحديث: (٣٨٤).

(٣) سورة المائدة الآية: (٣٥).

(٤) سورة الجن الآية: (١٨).

(٥) سورة الأعراف الآية: (١٩٤).

﴿لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[(١)]، والذي عليه المعول في ذلك أن لفظ التوسل يراد به أحد معان ثلاثة:

(١) التوسل إلى الله بطاعته والتقرب إليه بفعل ما يرضيه، وهذا فرض حتم وبه جاءت الشرائع وهو أس كل دين.

(٢) التوسل إلى النبي ﷺ بدعائه وشفاعته كما كان الصحابة يفعلون، وهذا كان في حال حياته، ولهذا قال عمر بن الخطاب: «**اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا**»[(٢)]؛ أي بدعائه وشفاعته، ويوم القيامة يتوسل المؤمنون بدعاء النبي ﷺ وشفاعته.

(٣) التوسل بالله بمعنى الإقسام بذاته، وهذا لم تكن الصحابة تفعله في الاستسقاء ونحوه لا في حياة النبي ﷺ ولا بعد مماته لا عند قبره ولا بعيدا عنه، ولا يعرف هذا في شيء من الأدعية المأثورة عندهم، وإنما ينقل شيء من ذلك في أحاديث ضعيفة أو عمن ليس قوله حجة، وقد قال أبو حنيفة وأصحابه: إن مثل هذا لا يجوز، وقالوا لا يسأل بمخلوق، ولا يقول أحد أسألك بحق أنبيائك، ولا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به، وكرهوا أن يقال بمعاقد العز من عرشك، أو بحق خلقك لأنه لا حقَّ للخلق على الخالق.

والخلاصة: إن الوسيلة ما تتقرب به إلى الله، وترجو أن تصل به إلى مرضاته، بما شرَّعه لتزكية نفسك، وقد دل كتاب الله في جملته وتفصيله على أن مدار النجاة والفلاح هو الإيمان والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾[(٣)]، وقال: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾[(٤)]، وقال: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(٥)].

---

(١) سورة فاطر الآية: (١٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء، (٣٤٢/١)، رقم الحديث(١٠١٠).

(٣) سورة النجم الآية: (٤١).

(٤) سورة طه الآية: (١٥).

(٥) سورة النمل الآية: (٩٠).

نعم دلت السنة على أن دعاء المؤمن لغيره قد ينفعه، وثبت أيضا أن النبي ﷺ كان حريصا على إيمان عمه أبي طالب فأنزل الله عليه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[1].

والخلاصة: إن العمدة في تقرُّب الإنسان إلى الله وابتغاء مرضاته هو إيمانه وعمله لنفسه، فإذا لم يعمل لنفسه ما شرعه الله وجعله سبب فلاحه، فهل يكون قد ابتغى إليه الوسيلة بطلب الدعاء من بعض عباده المكرمين، أو طلبه منهم بعد موتهم أن يشفعوا له أي يدعوا له، كلا إن الطلب من الميت غير مشروع فضلا عن أنه لا يعلم إن كان مقبولا أو غير مقبول، فإن ذلك من أمور الآخرة: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾[2].

وما روى عن النبي ﷺ في ذلك كله ضعيف بل موضوع، وحديث الأعمى الذي علَّمه أن يقول: «**أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة**»[3]، لا يصلح حجة في هذا الباب، لأنه إنما توسل بدعاء النبي ﷺ وشفاعته، وقد أمره النبي ﷺ أن يقول: «**اللهم شفّعه في**»، وقد ردَّ الله عليه بصره حين دعا له النبي ﷺ، وكان ذلك من معجزاته ﷺ.

والحلف بالمخلوقات حرام عند أبي حنيفة والشافعي، وحكى إجماع الصحابة على ذلك حتى قال عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر: «لأن أحلف بالله كاذبا أحب إلي من أن أحلف بغير الله صادقا»[4]، وقد جاء في الصحيحين أنه قال: «**من كان**

---

(١) سورة القصص الآية: (٥٦).

(٢) سورة الانفطار الآية: (١٩).

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات، (٥/٥٦٩)، رقم الحديث(٣٥٧٨)، وأحمد(٢٨/٤٧٨)، رقم الحديث(١٧٢٤٠)، وعبد بن حميد في مسنده(١/١٤٧) رقم الحديث(٣٧٩)، وقال الترمذي عقبه: هذا حديث حسن صحيح غريب، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم(١٢٧٩).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، كتاب الأيمان والنذور، باب الأيمان ولا يحلف إلا بالله، (٨/٤٦٨)، رقم الحديث(١٥٩٢٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الأيمان والنذور والكفارات، باب الرلاجل يحلف بغير الله أو بأبيه(٣/٧٩)، رقم الحديث(١٢٢٨١)، والطبراني في الكبير(٩/١٨٣)، رقم الحديث(٨٩٠٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد(٤/١٧٧): رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني في إرواء الغليل(٨/١٩١) رقم الحديث(٢٥٦٢)، وأشار إلى أنه روي عن هؤلاء لصحابة الثلاثة شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى(١/٢٠٤).

حالفا فليحلف بالله»[١]، وقال: «**لا تحلفوا بآبائكم فإن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم**»[٢].

والحلف بالأنبياء ليس بيمين عند مالك وأبي حنيفة والشافعي فلا كفارة فيه، وكذلك الحلف بالمخلوقات المحترمة كالعرش، والكرسي، والكعبة والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجد النبي ﷺ، والملائكة، والصالحين، والملوك، وسيوف المجاهدين، وترب الأنبياء والصالحين.

ثم أكد ما سبق من أن مدار الفوز والفلاح تقوى الله وتزكية النفس فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[٣]؛ أي إن الذين جحدوا ربوبية ربهم، وعبدوا غيره من عجل أو صنم أو وثن، وهلكوا وهم على هذه الحال قبل التوبة، لو أن لهم ملك ما في الأرض كلها وضِعفَه معه ليفتدوا به من عقاب الله إياهم على تركهم أمره وعبادتهم غيره، فافتدوا بذلك كله يوم القيامة ما تقبل الله منهم ذلك فداء وعوضا من عذابهم وعقابهم، بل هو معذبهم عذابا موجعا مؤلما لهم؛ لأن سنته تعالى قد مضت بأن سبب الفلاح والنجاة إنما يكون من نفس الإنسان لا من خارج عنها: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[٤].

وهذا هو الفارق بين الإسلام وغيره من الأديان؛ فالنصارى يعتقدون أن خلاصهم وسعادتهم يكون بالمسيح فدية لهم يفتديهم بنفسه مهما كانت حالهم، والمسلمون يعتقدون أن العمدة في النجاة تزكية النفس بالفضائل والأعمال الصالحة"[٥].

وقال في تفسير قوله ﷻ: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[١]: "ومن هذا تعلم أن كلام عيسى عليه السلام لا يتضمن شيئا من الشفاعة لقومه، ومما يؤيد هذا ما رواه

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب لا تحلفوا بآبائكم، (١٨/ ٤١٣)، رقم الحديث(٦٦٤٦)، ومسلم، كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله، (٣/ ١٢٦٦)، رقم الحديث(١٦٤٦).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب لا تحلفوا بآبائكم، (١٦/٥١١)، رقم الحديث(٦٦٤٨)، ومسلم، كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله، (٥/٨٠)، رقم الحديث(١٦٤٦).

(٣) سورة المائدة الآية: (٣٦).

(٤) سورة الشمس الآية: (١٠).

(٥) تفسير المراغي(٢/٤٣٠- ٤٣٣).

مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن النبي ﷺ تلا قول الله تعالى في إبراهيم ﷺ: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢]، وقول عيسى عليه السلام: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾، فرفع يديه إلى السماء وقال: «**اللهم أمتي أمتي، وبكى، فقال الله ﷻ: يا جبريل اذهب إلى محمد -وربك أعلم- فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال -وهو أعلم- فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك**»[٣]، وما رواه البخاري عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «**ألا وإنه يجاء برجال من أمتي يوم القيامة فيؤخذ بهم ذات اليمين وذات الشمال فأقول: أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح:** ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[٤] **قال: فيقال إنهم لم يزالوا مرتدِّين على أعقابهم**»[٥].

وما رواه أحمد والنسائي وابن مردويه: «أنه ﷺ قام بهذه الآية: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ حتى أصبح يركع بها ويسجد، فسأله أبو ذر عن ذلك فقال: «**إني سألت ربي الشفاعة فأعطانيها وهي نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئا**»[٦].

فهذه الأحاديث صريحة في أن الشفاعة لا ينالها أحد يشرك بالله شيئا"[٧].

---

(١) سورة المائدة الآية: (١١٨).

(٢) سورة إبراهيم الآية: (٣٦).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لأمته، (١٣٢/١)، رقم الحديث(٢٠٢).

(٤) سورة المائدة الآية: (١١٨).

(٥) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم}، (٤٩٢/١١)، رقم الحديث(٤٦٢٥)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، (١٥٧/٨)، رقم الحديث(٢٨٦٠).

(٦) أخرجه النسائي مختصرا (١٥٦/١ - ١٥٧)، وأحمد في المسند(٢٥٦/٣٥)، رقم الحديث(٢١٣٢٨)، وابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الفضائل، باب ما أعطى الله تعالى محمدا ﷺ، (٣٢٣/٦)، رقم الحديث(٣١٧٦٧)، وقال الحاكم(٢٤١/١): صحيح، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صفة صلاة النبي(٥٣٤/٢-٥٣٥).

(٧) تفسير المراغي(٥٣/٣).

وبيَّن المراغي رحمه الله أسباب تقديس المشركين الأولياء والشفعاء لما تكلم على قوله تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾[1]، فقال: "أي ما أنتم أيها المشركون بالله الآلهة والأنداد إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة، بمستجيرين بشيء غير الله من وثن أو صنم إذا اشتد بكم الهول، بل تدعونه وحده، وبه تستغيثون، وإليه تفزعون، دون كل شيء غيره فيفرج عنكم ويزيل البلاء عند استغاثتكم به وتضرعكم إليه إن شاء ذلك، لأنه وحده القادر على كل شيء، والمالك لكل شيء دون ما تدعونه إلها من صنم أو وثن، لأن الفزع إليه سبحانه عند الشدائد مما ركز في فطرة البشر تنبعث إليه بذاتها كما تنبعث إلى الماء عند العطش، فلا يذهب به ما يتلقَّى بالتعليم الباطل من مسائل الدين، فهم به يجنون على غريزة التوجه إلى خالقهم وخالق العالم كله بما يتخذونه من الأنداد والأولياء والشفعاء الذين يتوجهون إليهم كما يتوجهون إلى الله ويحبونهم كحب الله، وما منشأ ذلك التقديس إلا اعتقاد القدرة على النفع والضر من غير طريق الأسباب المعروفة، لكنهم عند الشدائد وتراكم الأهوال والكروب ينسونهم ويدعون الله وحده، ولهذا الحب والتعظيم ثلاث درجات:

(١) أعرقها في الجهل أن يعتقد المرء في شيء من المخلوقات أنه إله ينفع ويضر بذاته فيتوجه إليه ويدعوه ويتضرع إليه.

(٢) المرتبة الوسطى أن يعتقد أن الإله قد حلَّ في بعض المخلوقات واتحد بها كما تَحِلُّ الروح في البدن وتدبِّره، فيكونان شيئا واحدا.

(٣) أضعف درجاته أن يعتقد أن الله تعالى هو الخالق لكل شيء، القادر على كل شيء، المتصرف في كل شيء، ولكن له وسطاء بينه وبين عباده يقرِّبونهم إليه زلفى ويشفعون لهم عنده، فهو لأجلهم يعطي ويمنع ويضر وينفع، وهذه هي الدرجة التي كان عليها مشركو قريش، فقد حكى الله عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[2]، ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾[3]، والتوحيد الخالص هو الإيمان بأن الله يفعل ما يشاء ويختار، وأن جميع الخلق مسخرون لإرادته وتدبيره، خاضعون لسننه وتقديره، لا يملك أحد منهم لنفسه ولا لغيره شيئا إلا في دائرة

---

(١) سورة الأنعام الآية: (٤١).

(٢) سورة الزُّمَر الآية: (٣).

(٣) سورة يونس الآية: (١٨).

الأسباب التي شرعها لعباده، وأن الوساطة بينه وبين عباده محصورة في تبليغ الرسول رسالته إليهم دون تصرفه فيهم، وأن شفاعة الآخرة لله وحده يأذن بها إن شاء لمن شاء ممن ارتضى، يرشد إلى ذلك قوله تعالى لخاتم رسله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[١]، وقوله: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾[٢]، وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾[٣].

وقد بيَّن سبحانه أن تلك الوساطة الشِّركيَّة تُنْسَى عند اشتداد الكروب والأهوال، فقال: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[٤]، وقال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾[٥][٦].

وقرر رحمه الله أن النفس المسلمة متعلقة بالله وحده، ولم تتعلق بالشفعاء والوسطاء كما وصفها الله بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾[٧].

فقوله: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي والحال أنه ليس لها من غير الله وليٌّ ولا ناصر ينصرها ولا شفيع لها عند الله؛ كما قال: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[٨]، وقال: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[٩]، وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[١٠].

---

(١) سورة آل عمران الآية: (١٢٨).

(٢) سورة الأعراف الآية: (١٨٨).

(٣) سورة الجن الآية: (٢٣).

(٤) سورة العنكبوت الآية: (٦٥).

(٥) سورة لقمان الآية: (٣٢).

(٦) تفسير المراغي(٣/١٠٠-١٠١).

(٧) سورة الأنعام الآية: (٧٠).

(٨) سورة غافر الآية: (١٨).

(٩) سورة الزُّمَر الآية: (٤٤).

(١٠) سورة الأنبياء الآية: (٢٨).

ثم أرشد إلى أنه لا ينفع في الآخرة إلا صالح العمل لا الشفعاء والوسطاء، فقال: ﴿وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآ﴾؛ أي وإن تفد النفس المبسلة(١) كل نوع من أنواع الفداء لا يؤخذ منها ولا يقبل، والمراد أنه لا يقع الأخذ ولا يحصل، وهذا كقوله في سورة البقرة: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾(٢).

والخلاصة: إن النفس المبسلة تمنع في ذلك اليوم من أي وسيلة من وسائل النجاة، فلا وليَّ ولا حميم، ولا شفيع، ولا فداء، إلى نحو أولئك مما ربما نفع في مقاصد الدنيا وأنجز بعض المنافع، وفي هذا إبطال لأصل من أصول الوثنية وهو رجاء النجاة في الآخرة كما هو الحال في الدنيا بتقديم الفدية لله تعالى أو بشفاعة الشافعين ووساطة الوسطاء عنده تعالى، وتقرير لأصل ديني وهو أن لا نجاة في الآخرة، ولا رضوان من الله ولا قرب منه إلا بالعمل بما شرعه على ألسنة رسله من إيمان به وعمل صالح يزكي النفس ويطهرها، أما من دسَّى نفسه وأبسلَهُ كسبه للسيئات والخطايا واتخذ دين الله هزوا ولعبا، وغرته الحياة الدنيا فلا تنفعه شفاعة، ولا تقبل منه فدية.

ثم بيَّن أن هذا الإبسال كان بسوء صنيعهم فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ﴾، أي أولئك المتخذون دينهم هزوا ولعبا المغترون بالحياة الدنيا، هم الذين حرموا الثواب، وأسلموا للعذاب، وحبسوا عن دار السعادة، بسبب ما كسبوا من الأوزار والآثام حتى أحاطت بهم خطاياهم، ولم يكن لهم من دينهم الذي اتخذوه زاجرٌ ولا مانعٌ يرشدهم إلى التحول عن تلك الأعمال القبيحة، ويصدُّهم عن العقائد الزائفة"(٣).

وقال المراغي رحمه الله بعد أن ذكر الآيات الدالة على إتيان الخلق فرادى يوم القيامة ليس معهم الشفعاء ثم قال: "وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾(٤)؛ "أي وما نبصر معكم شفعاءكم من الملائكة والصالحين من البشر، ولا تماثيلهم

---

(١) عرف المراغي البسل فقال: (حبس الشيء ومنعه بالقهر... وفسره هنا بالحبس في النار وبالحرمان من الثواب وبالفضيحة). تفسير المراغي(١٣١/٣).

(٢) سورة البقرة الآية: (٤٨).

(٣) تفسير المراغي(١٣٤/٣-١٣٥).

(٤) سورة الأنعام الآية: (٩٤).

وقبورهم، وقد زعمتم في الدنيا أنهم شركاء لله تدعونهم ليشفعوا لكم عنده ويقرّبوكم إليه زلفى بتأثيرهم في إرادته، وحملهم إياه على ما لم تتعلق به إرادته في الأزل.

وفي هذه الجملة والتي قبلها هدم لقاعدتين من قواعد الوثنية وهما الفداء والشفاعة.

﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾؛ أي لقد تقطع ما كان بينكم من صلات النسب والملك والولاء والصداقة.

﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؛ أي وغابت عنكم شفاعة الشفعاء، وتقريب الأولياء وأوهام الفداء، وقد علمتم بطلان غروركم واعتمادكم على غيركم.

والخلاصة: إن آمالكم قد خابت في كل ما تزعمون وتتوهمون فلا فداء ولا شفاعة، ولا ما يغني عنكم من عذاب الله من شيء"[1].

وذكر رحمه الله احتجاج المشركين في القدر على اتخاذ الشفعاء والأولياء مع الله فقال عند قول الحق سبحانه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾[2]؛ أي سيقول هؤلاء المشركون: لو شاء الله ألا نشرك به من اتخذنا من الأولياء والشفعاء من الملائكة والبشر، وألا نعظِّم ما عظمنا من تماثيلهم وصورهم، وألا يشرك آباؤنا من قبلنا لما أشركنا ولا أشركوا، ولو شاء ألا نحرم شيئا مما حرمنا من الحرث والأنعام وغيرها لما حرمنا، ولكنه شاء أن نشرك به هؤلاء الأولياء والشفعاء ليقربونا إليه زلفى، وشاء أن نحرم ما حرمنا من البحائر والسوائب وغيرها فحرمناها، فإتياننا إياها دليل على مشيئته تعالى وعلى رضاه وأمره بها، ونحو الآية قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[3]، وقوله: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[4]، وقد ردَّ عليهم شبهتهم فقال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي ومثل ذلك التكذيب الذي صدر من مشركي مكة لرسوله ﷺ فيما جاء

---

(١) تفسير المراغي: (١٦٢/٣).

(٢) سورة الأنعام الآية: (١٤٨).

(٣) سورة النحل الآية: (٣٥).

(٤) سورة الزُّخرُف الآية: (٢٠).

به من إبطال الشرك وإثبات توحيد الله في الألوهية والربوبية، ومنها حق التشريع والتحليل والتحريم، كذب الذين من قبلهم لرسلهم تكذيبا غير مبنيٍّ على أساس من العلم.

والرسل صلوات الله عليهم قد أقاموا الحجج والبراهين العلمية والعقلية على التوحيد وغيره مما ادعوا، وأيدهم الله بباهر الآيات، ولكن المكذبين لم ينظروا فيها نظرة إنصاف، بل أعرضوا عنها وأصرُّوا على جحودهم وعنادهم حتى ذاقوا بأسه تعالى وأهلكهم بذنوبهم وصاروا كأمس الدابر.

ولو كانت مشيئة الله لما كانوا عليه من الشرك تتضمن رضاه عن فاعلها، وأمره بها لما عاقبهم عليها تصديقا لما قال الرسل، كذلك لو كانت أعمالهم بالجبر المخرج لها عن كونها من أعمالهم، لما استحقوا العقاب عليها، ولما قال إنه أخذهم بذنوبهم، وأهلكهم بظلمهم وكفرهم ونحو ذلك مما جاء في كثير من الآيات.

فقوله: ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا﴾ برهان دالٌّ على صدق الرسل في دعواهم وبطلان شبهات المشركين المكذبين لهم.

وبعد أن ذكرهم بالبرهان الواضح أمر رسوله أن يطالبهم بدليل يثبت ما يزعمون فقال: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾؛ أي هل عندكم بما تقولون علم تعتمدون عليه وتحتجون به، فتخرجوه لنا لنفهمه ونوازن بينه وبين ما جئناكم به من الآيات العقلية والوقائع المحكية عن الأمم قبلكم، ونتبين منها الراجح من المرجوح؟ وفي هذا الاستفهام من التعجيز والتوبيخ ما لا يخفى.

ثم قفَّى على ذلك ببيان حقيقة حالهم فقال: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾؛ أي إنكم لستم على شيء من العلم، بل ما تتبعون في عقائدكم وآرائكم في الدين والعمل به إلا الحدس والتخمين الذي لا يستقر عنده حكم.

وبعد أن نفى عنهم درجات العلم أثبت لذاته الحجة البالغة التي لا تعلوها حجة فقال: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1]؛ أي قل أيها الرسول لهؤلاء الجاهلين بعد تعجيزك إياهم عن أن يأتوا بأدنى دليل أو قول يرقى إلى أضعف درجة من العلم: إن لم يكن عندكم علم في أمر دينكم، فإن لله وحده أعلى درجات العلم، وله الحجة البالغة على ما أراد من

(١) سورة الأنعام الآية: (١٤٩).

إحقاق الحق وإزهاق الباطل بما بينه في هذه السورة وغيرها من الآيات البينات على أصول العقائد وقواعد التشريع الموافقة للعقول الحكيمة والفطر السليمة، وسننه في الاجتماع البشري، ولكن لا يهتدي بهذه الآيات إلا المستعدُّ للهداية، المحب للحق، الحريص على طلبه، الذي يستمع القول فيتبع أحسنه، دون من أعرض عن النظر فيها استكبارا عنها وحسدا للمبلِّغِ الذي جاء بها، وجمودا على تقليد الآباء واتباع الرؤساء، ولو شاء سبحانه أن يهديكم بغير هذه الطريق التي أقام أمر البشر عليها، -وهي التعليم والإرشاد بطريق النظر والاستدلال- لهداكم أجمعين، فجعلكم تؤمنون بالفطرة كالملائكة المفطورين على الحق والخير، جل شأنه كما قال سبحانه عنهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[(١)]، ويجعل الطاعة فيكم بغير شعور منكم ولا إرادة كما يجري الدم في أبدانكم، أو مع الشعور بأنها ليست من أفعالكم، وحينئذ لا تكونون من نوع الإنسان الذي قضت الحكمة وسبق العلم بخلقه مستعدا لعمل الخير والشر والحق والباطل، ويرجح أحدهما على الآخر بالاختيار، والاختيار لأحدهما بمشيئته لا ينفي مشيئة الله تعالى ولا يعارضها، فإنه هو الذي شاء أن يجعله فاعلا باختياره.

ونحو الآية قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾[(٢)]، وقوله: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[(٣)]، وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[(٤)]؛ وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[(٥)(٦)].

ولما تكلم المراغي رحمه الله على الاعتداء في الدعاء ذكر من أنواعه توجه المشركين إلى غير الله لطلب الشفاعة من الأموات، فقال عند قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[(٧)]؛ أي

---

(١) سورة التحريم الآية: (٦).

(٢) سورة الأنعام الآية: (١٠٧).

(٣) سورة الأنعام الآية: (٣٩).

(٤) سورة المائدة الآية: (٤٨).

(٥) سورة يونس الآية: (٩٩).

(٦) تفسير المراغي(٣/٢٢٧-٢٢٠).

(٧) سورة الأعراف الآية: (٥٥).

المتجـاوزين مـا أمـروا بـه، ونحـو الآيـة قولـه: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(١)، وللاعتداء في الدعاء مظاهر شتى:

(١) اعتداء خاص بالألفاظ كالمبالغة في رفع الصوت والتكلف في صيغ الدعاء.

(٢) اعتداء خاص بالمعنى وهو طلب غير المشروع من وسائل المعاصي ومقاصدها، كضرر العباد، وطلب إبطال سنن الله في الخلق، أو تبديلها، كطلب النصر على الأعداء مع ترك وسائله، كأنواع السلاح والعتاد، وطلب الغنى بلا كسب، وطلب المغفرة مع الإصرار على الذنب مع أن الله يقول: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾(٢).

(٣) اعتداء بالتوجه فيه إلى غير الله ليشفع له عنده، وهذا شر أنواع الاعتداء كما قال: ﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾(٣)، ومن طلب ذلك من غير الله فقد اتخذه إلها، لأن الإله هو المعبود، كما روى أحمد عن النعمان بن بشير أن النبي ﷺ قال: «**الدعاء هو العبادة**»(٤)، وروى الترمذي عن أنس مرفوعا: «**الدعاء مخ العبادة**»(٥)، وروي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**سلوا الله لي الوسيلة، قالوا وما الوسيلة؟ قال: القرب من الله ﷻ، ثم قرأ:** ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾(٦)»(٧)، وابتغاء ذلك يكون بدعائه وعبادته بما شرعه على لسان رسوله دون غيره.

وقد جاءت آيات كثيرة في الإنكار على المشركين دعاء غير الله وكونه عبادة له وشركا بالله، ولكن مدَّعي العلم الذين يقولون على الله يقولون: لا بأس بدعاء الأولياء والصالحين عند

---

(١) سورة البقرة الآية: (٢٢٩).

(٢) سورة فاطر الآية: (٤٣).

(٣) سورة الجن الآية: (١٨).

(٤) سبق تخريجه ص(٨٩).

(٥) سبق تخريجه ص(٩٠).

(٦) سورة الإسراء الآية: (٥٧).

(٧) أورده السيوطي في الدر المنثور(٥/٣٠٦) وعزاه إلى الترمذي وابن مردويه ولم أجده كذلك عند الترمذي، فالذي عنده تفسير الوسيلة بأنها أعلى درجة في الجنة، والحديث أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي(١/٢٨٨)، رقم الحديث(٣٨٤).

قبورهم، والتضرع والخشوع لهم، ويكون توسلا بهم إلى الله ليقربوهم منه بشفاعتهم، لا عبادة لهم.

وقد علمت أن التوسل إنما هو التقرب إلى الله بما يرتضيه وبما شرعه من عبادته دون غيرها، وآيات الكتاب الكريم صريحة في ذلك.

نعم إن طلب الدعاء من المؤمنين مشروع من الأحياء لا من الأموات، ويسمى ذلك توسلا لأنه قد شرعه الله كما توسل عمر والصحابة بالعباس بصلاة الاستسقاء[١] وما بعدها من الدعاء.

وما ذم الله المشركين إلا لأنهم أشركوا مع الله غيره في الدعاء، وهم كانوا يؤمنون بالله، وبعضهم كان يؤمن باليوم الآخر، ولكن طرأ عليهم الشرك الذي أحبط أعمالهم، وهكذا يحبط إيمان من أشرك من المسلمين بدعاء غير الله"[٢].

وتكلم رحمه الله على الشفاعة عند قوله تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾[٣]؛ أي لا يوجد شفيع يشفع لأحد عنده تعالى إلا من بعد إذنه، والآية بمعنى قوله سبحانه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾[٤]، وقد جاء في كتابه تعالى أنه لا يشفع أحد عنده بإذنه إلا من ارتضاه للشفاعة كما قال: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾[٥]، ومن أذن له بالشفاعة لا يشفع إلا لمن رضي له الرحمن لإيمانه وصالح عمله، كما قال: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾[٦]، وفي هذا إيماء لدحض العقيدة التي كان يعتقدها مشركو العرب ومقلدوهم من أهل الكتاب من أن الأصنام والأوثان وعبادة المقربين من الملائكة والبشر يشفعون لهم عند الله بما يدفع عنهم الضرر ويجلب لهم النفع، كما حكى الله عن عبدة الأصنام قولهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[٧]، وفي هذه العقيدة حجة عليهم إذ يقال لهم: إنكم إذا كنتم تؤمنون بأن

---

(١) سبق تخريجه ص(٢٥٩).

(٢) تفسير المراغي(٣/ ٣٢٢-٣٢٣).

(٣) سورة يونس الآية: (٣).

(٤) سورة البقرة الآية: (٢٥٥).

(٥) سورة طه الآية: (١٠٩).

(٦) سورة الأنبياء الآية: (٢٨).

(٧) سورة الزُّمَر الآية: (٣).

لله شفعاء من أوليائه وعباده المقربين يشفعون لكم بما يقربكم إليه زلفى، وهو قول عليه تعالى بغير علم، فما بالكم تنكرون وتعجبون أن يوحي إلى من يشاء ويصطفي من عباده من يعلّمهم ما يهديهم إلى العمل الموصل إلى السعادة، والهادي إلى طريق الرشاد.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾(١)؛ أي ذلكم الموصوف بالخلق والتقدير والحكمة والتدبير والتصرف في أمر الشفاعة يأذن بها لمن يشاء، هو الله ربكم المتولي شؤونكم، فاعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئا، ولا تشركوا معه أحدا لا في شفاعة ولا غيرها، فالشفعاء لا يملكون لكم من دونه نفعا ولا ضرا، بل هو الذي يملك ذلك وحده، وهو قد هداكم إلى أسباب النفع والضر الكسبية بالعقول والمشاعر التي سخرها لكم، وإلى أسباب النفع والضر الغيبية بوحيه، فلا تطلبوا نفعا ولا ضرا إلا بالأسباب التي سخرها لكم، وما تعجزون عنه أو تجهلون أسبابه، فادعوه فيه تعالى وحده يحصل لكم ما فيه ترغبون، أو يدفع عنكم ما تكرهون.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(٢)؛ أي أتجهلون هذا الحق الواضح فلا تتذكرون أن الذي خلق السموات والأرض، وانفرد بتدبير هذا العالم هو الذي يجب أن يعبد ولا يعبد سواه، وذلك هو مقتضى الفطرة، والإعراض عنه غفلة يجب التنبيه إليها، وفي ذلك إيماء إلى أنه لا ينبغي أن نوجه وجوهنا شطر قبور الأولياء والصالحين، ونشد الرحال إلى من بعُد منهم، ونتقرب إليهم بالنذور، ونطوف بهم كما يطوف الحاج بيت الله الحرام، داعين متضرعين خاشعين نطلب منهم ما عجزنا عنه بكسبنا من دفع ضر أو جلب نفع، وكيف نتذكر هذه الآيات وأمثالها التي تجعل العبادة خاصة به تعالى، وما الدعاء إلا مخ العبادة وروحها وأجلى مظاهرها، كما جاء في الأثر: «**الدعاء مخ العبادة**»(٣).

ولكن أكثر العلماء وجمهرة الناس يتأولون هذه العبادة ويسمونها توسلا واستشفاعا، والأسماء لا تغير من قيمة الحقائق شيئا، فذلك بعينه هو ما كان يدَّعيه المشركون وأهل الكتاب: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾(٤).

---

(١) سورة يونس الآية: (٣).

(٢) سورة يونس الآية: (٣).

(٣) سبق تخريجه ص(٩٠).

(٤) سورة الزُّمَر الآية: (٣).

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾[١]؛ أي إلى ربكم وحده دون غيره من معبوداتكم وشفعائكم وأوليائكم ترجعون جميعا بعد الموت وفناء هذا العالم الذي أنتم فيه، لا يتخلف منكم أحد"[٢].

وذكر رحمه الله أن من أظهر الأدلة في الرد على المتعلقين بالشفعاء ما قصه الله عن إبرهيم خليل الرحمن عليه السلام فقال بعد قوله تعالى: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾[٣]: "أي يا إبراهيم أعرض عن الجدال في أمر قوم لوط والاسترحام لهم، إنه قد نفذ فيهم القضاء، وحقت عليهم الكلمة بالهلاك وحلول البأس الذي لا يرد عن القوم المجرمين، وإنهم آتيهم عذاب لا سبيل إلى دفعه ورده بجدل ولا شفاعة ولا بغيرهما.

وفي هذه الآية عبرة لمن يتخذ من دون الله أندادا من أوليائه، ويزعم أنهم يتصرفون في الكون كما يريدون، ولا يُرَدُّ لهم طلب كما قال: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾[٤]، وفيها أكبر ردٍّ عليهم فيما يتخرصون به، فهذا جدُّ الأنبياء وأفضلهم بعد محمد ﷺ وهو إبراهيم نهاه الله عن التعرض لما قضى به فأراده"[٥].

وقال المراغي رحمه الله: "رد -أي الله- على هؤلاء الذين يشركون بربهم، ويتخذون الشفعاء والأنداد، وندَّد عليهم وسفَّه أحلامهم فقال: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾[٦]؛ أي قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين الذين جعلوا مع الله إلها آخر: لو كان الأمر كما تقولون، وأن معه آلهة تعبد لتقرَّبَ إليه وتشفَعَ لديه، لكان أولئك المعبودون يعبدونه، ويتقربون إليه، ويبتغون لديه الوسيلة، فاعبدوه وحده كما يعبد من تدعونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه"[٧].

---

(١) سورة يونس الآية: (٤).
(٢) تفسير المراغي(٤/٢٠٢-٢٠٣).
(٣) سورة هود الآية: (٧٦).
(٤) سورة الزُّمَر الآية: (٣٤).
(٥) تفسير المراغي(٤/٣٣٧).
(٦) سورة الإسراء الآية: (٤٢).
(٧) تفسير المراغي(٥/٣١٨).

وعلق رحمه على قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾[١]؛ أي هؤلاء الذين يدعوهم المشركون أربابا، وينادونهم لكشف الضر عنهم، يطلبون مجتهدين إلى ربهم ومالك أمرهم القرب إليه بالطاعة والقربة.

أخرج الترمذي وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**سلوا الله لي الوسيلة**»، قالوا وما الوسيلة؟ قال: «**القرب من الله**» ثم قرأ هذه الآية[٢].

﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾[٣]؛ أي إن أقرب أولئك المعبودين إلى الله يدعوه يبتغي إليه الوسيلة والقرب منه، وإذا كان العجز عن كشف الضر عنكم، والافتقار إلى ربكم، شأن أعلاهم وأدناهم، فكيف تعبدونهم؟.

﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾[٤]؛ أي ويرجون بفعلهم للطاعة رحمته، ويخافون بمخالفة أمره عذابه.

ثم ذكر العلة في خوفهم من العذاب فقال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾[٥]؛ أي إن عذابه حقيق بأن يحذره كل أحد من الملائكة والأنبياء فضلا عن سواهما"[٦].

وعرف المراغي رحمه الله المقام المحمود فقال هو: "مقام الشفاعة العظمى حين فصل القضاء، حيث لا أحد إلا وهو تحت لوائه ﷺ. . . "

ثم قال: "وقوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾[٧]؛ أي افعل هذا الذي أمرتك، لنقيمك يوم القيامة مقاما يحمدك فيه كل الخلائق وخالقهم تبارك وتعالى قال ابن جرير: "قال أكثر أهل العلم: ذلك هو المقام الذي يقومه ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس، ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة في ذلك اليوم"[٨].

---

(١) سورة الإسراء الآية: (٥٧).

(٢) سبق تخريجه ص(٢٦٩).

(٣) سورة الإسراء الآية: (٥٧).

(٤) سورة الإسراء الآية: (٥٧).

(٥) سورة الإسراء الآية: (٥٧).

(٦) تفسير المراغي(٥/٣٢٩).

(٧) سورة الإسراء الآية: (٧٩).

(٨) تفسير ابن جرير(١٧/٥٢٦).

أخرج النسائي والحاكم وجماعة عن حذيفة رضى الله عنه قال: يجمع الله الناس في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، حفاة عراة كما خلقوا، قياما لا تكلم نفس إلا بإذنه، فينادي: يا محمد، فيقول: «**لبَّيك وسعديك، والخير في يديك، والشر ليس إليك، والمهديُّ من هديت وعبدك بين يديك، وبك وإليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، تباركت وتعاليت، سبحانك ربَّ البيت**»، فهذا هو المقام المحمود الذي ذكره الله(١)، وروى البخاري عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «**من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمدا الوسيلة والفضيلة، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته، حلّت له شفاعتي**» (٢). وروى الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي**» الحديث(٣).

وقال رحمه الله عن حال الشفعاء يوم القيامة: "أخبر سبحانه عما يخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريعا لهم وتوبيخا فقال: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾(٤)؛ أي واذكر أيها الرسول يوم الجمع حين يقول الله تعالى للكافرين على سبيل التأنيب والزجر: نادوا للشفاعة لكم من زعمتم في الدنيا أنهم شركائي، لينقذوكم مما أنتم فيه، والمراد بهم كل ما عبد من دون الله، فدعوهم ليستغيثوا بهم، ويشفعوا لهم، فلم يغيثوهم، ونحو الآية قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره، سورة بني إسرائيل(٢/٣٠٩)، رقم الحديث(١٦٠٩)، والطيالسي في مسنده(١/٣٣٠) رقم الحديث(٤١٤)، وابن أبي عاصم في السنة، باب في ذكر شفاعة النبي ﷺ (٢/٣٦٧)، رقم الحديث(٧٨٩)، والحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، ومن تفسير سورة بني إسرائيل. . . (٢/٣٩٥)، رقم الحديث(٣٣٨٤)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في التلخيص، وقال ابن منده في الإيمان(٢/٨٧٢): «هذا إسناد مجمع على صحته وقبول رواته»، وصححه الألباني في ظلال الجنة في تخريج السنة لابن أبي عاصم(٢/٦٢).

(٢) سبق تخريجه ص(٢٥٨).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة بني إسرائيل(٥/٣٠٨)، رقم الحديث(٣١٤٨)، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب الشفاعة(٢/١٤٤٠)، رقم الحديث(٤٣٠٥)، والآجري في الشريعة(٤/١٥٩١)، رقم الحديث(١٠٧٥)، وقال الترمذي: حديث حسن، وصححه الألباني في الجامع الصغير رقم الحديث(٢٣٤٨).

(٤) سورة الكهف الآية: (٥٢).

نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾[1]، وقوله: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ ﴾[2]، وقوله: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾[3].

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾[4]؛ أي وجعلنا بين المشركين وما كانوا يدعون من دون الله شركاء في الدنيا، موضعا للهلاك وهو النار حسما لأطماعهم أن يصل إليهم من دعوه للشفاعة"[5].

وقال رحمه الله بعد أن تكلم عن ما يحصل من الأهوال يوم القيامة، ومنها طلب الشفاعة فقال: "وقول الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾[6]؛ أي يومئذ لا تنفع الشفاعة أحدا إلا شفاعة من أذن له الرحمن أن يشفع، ورضي له قولا صدر منه، والفاسق قد قال قولا يرضاه الرحمن فقد قال لا إله إلا الله، كما رُوي عن ابن عباس[7].

والخلاصة: إن الشفاعة لا تكون نافعة للمشفوع له إلا بشرطين:

(١) إذن الله للشافع بالشفاعة.

(٢) رضا الله عن قول صدر من المشفوع له، ليأذن بشفاعة الشافع له.

وقصارى ذلك: إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن في أن يشفع له، وكان له قول يرضى.

وبمعنى الآية قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾[8]، وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾[9]، وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾[10]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ

---

(١) سورة الأنعام الآية: (٩٤).

(٢) سورة الأحقاف الآية: (٥).

(٣) سورة مريم الآية: (٨٢).

(٤) سورة الكهف الآية: (٥٢).

(٥) تفسير المراغي(٥/٤١٣).

(٦) سورة طه الآية: (١٠٩).

(٧) انظر: تفسير ابن جرير(٢٤/١٧٨).

(٨) سورة البقرة الآية: (٢٥٥).

(٩) سورة النجم الآية: (٢٦).

(١٠) سورة الأنبياء الآية: (٢٨).

ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾[(١)].

ولما نفى أن تنفع شفاعة بغير إذنه، علل ذلك بقوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾[(٢)]؛ أي يعلم ما بين أيدي عباده من شؤون الدنيا، وما خلفهم من أمور الآخرة، وهم لا يعلمون جملة ذلك ولا تفصيله"[(٣)].

وأوضح رحمه الله الشفاعة عند قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾[(٤)]، فقال: "أي إنه سبحانه المالك لشؤونهما، المدبر لأمورهما، ولا يملك أحد من أهلهما مخاطبته تعالى بالشفاعة إلا بإذنه.

ثم أكد هذا وقرره بقوله: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾[(٥)]، أي إن الملائكة على جلالة أقدارهم، ورفيع درجاتهم لا يستطيعون أن يتكلموا في هذا اليوم، إجلالا لربهم، ووقوفا عند أقدارهم، إلا إذا أذن لهم ربهم، وقالوا قولا صدقا وصوابا.

وفي الآية دلالة على أنهم مع قربهم من ربهم لا يستطيع أحد منهم أن يشفع لأحد، أو يطلب منحة إلا بعد أن يأذن له ربه، ولا يأذن إلا لمن علم أنه سيجاب، لأنه يقول الصواب، وإنما يكون الكلام ضربا من التكريم لمن يأذن له ويختص به، ولا أثر له فيما أراده البتة"[(٦)].

وأوضح رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾[(٧)] فقال: "وإذا كانوا يعرفون أن هذا كله بفضل رب هذا البيت، فلم يتوسلون إليه بتعظيم غيره، وتوسيط سواه عنده؟ مع أنه لا فضل لأحد ممن يوسطونه في شيء من النعمة التي هم فيها، نعمة الأمن ونعمة الرزق: وكفاية الحاجة"[(٨)].

---

(١) سورة النبأ الآية: (٣٨).

(٢) سورة طه الآية: (١١٠).

(٣) تفسير المراغي(١٢٧/٦-١٢٨).

(٤) سورة النبأ الآية: (٣٧).

(٥) سورة النبأ الآية: (٣٨).

(٦) تفسير المراغي: (٣١١/١٠-٣١٢).

(٧) سورة قريش الآية: (٤).

(٨) تفسير المراغي: (٤٩٧/١٠).

التعليق: نرى المراغي رحمه الله في موضوع الشفاعة وشروطها لم يخرج عما قرره السلف في هذا الباب، فانظر مثلا بعض كتب شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله (الواسطة بين الحق والخلق) و (قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة) فقد قرر رحمه الله في هذين الكتابين وغيرهما من كتبه الشفاعة المثبتة والمنفية وشروطها، من خلال الأدلة الواردة في الكتاب والسنة، ورده على المخالفين في هذا الباب، وكذلك إمام الدعوة محمد بن عبد الوهاب رحمه الله أوضح الشفاعة وما يتعلق بها في مواضع كثيرة من كتبه، انظر مثلا: كتاب (كشف الشبهات)، وكتاب (التوحيد مع شروحه مثل تيسير العزيز الحميد وفتح المجيد وغيرها).

المطلب الرابع: السحر وما يتعلق به:

عرف المراغي رحمه الله السحر بقوله: "السحر لغة: كل ما لطف مأخذه وخفي سببه، وسحره خدعه، وجاء في كلامهم: عين ساحرة وعيون سواحر، وفي الحديث: «**إن من البيان لسحرا**»[(١)][(٢)].

وقال: "والسحر: تمويه وتخييل به يرى الإنسان الشيء على غير حقيقته"[(٣)][(٤)].

وقال في تعريف الكاهن والعراف: "والكاهن: من يخبر بالأخبار الماضية الخفية بضرب من الظن، والعرَّاف: من يخبر بالأخبار المستقبلة كذلك قاله الراغب"[(٥)].

وقال رحمه الله في توضيح حقيقة السحر، بعد وصف الكفار للقرآن بالسحر في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾[(٦)]: "وقد كذبوا في تسميته سحرا، لأن السحر ما يكون بأسباب خفيَّة يتعلمها بعض الناس من بعض، إما بالحيل والشعوذة، وإما باستخدام خواص طبيعية علمية مجهولة للجماهير، وإما بتأثير قوى النفس وتوجيه الإرادة، وجميعها من الأمور التي يشترك فيها الكثير من العارفين بها، والقرآن ليس بسحر يؤثِّر بالعلم والصناعة، بل هو أقوال مشتملة على آداب عالية وتشريع حكيم فيه مصلحة للناس، معجز في أسلوبه ونظمه ومعانيه، أتى على لسان محمد ﷺ ليبلغه للناس، ولم يكن ليقدر على شيء من مثله، وبهذا ثبت أنه نبي من عند الله، وأن ما جاء به وحي من لدنه"[(٧)].

قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب الخطبة، (١٩٧٦/٥)، رقم الحديث(٥١٤٦)، ومسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، (١٣/٣)، رقم الحديث(٨٦٩).

(٢) تفسير المراغي(١٥٠/١).

(٣) المصدر السابق(٤٤/٣).

(٤) أشار إلى ذلك ابن جرير في تفسيره(٢٨/١٣)، وابن كثير(٢٨٩/٢-٢٩٠).

(٥) تفسير المراغي(٣١٣/٩).

(٦) سورة يونس الآية: (٢).

(٧) تفسير المراغي(٤/ ٢٠٠).

إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[١].

"والملكان: رجلان صاحبا هيبة ووقار يجلهما الناس ويحترمونهما. . . وحين نبذوه اشتغلوا بصناعات وأعمال صادَّةٍ عن الأديان من صنع شياطين الإنس والجن، فاشتغلوا بالسحر والشعوذة والطَّلسمات التي نسبوها إلى سليمان، وزعموا أن ملكه كان قائما عليها، وهذه أباطيل منهم وسوسوا بها إلى بعض المسلمين فصدقوهم فيما زعموا منها، وكذبوهم فيما رموا به سليمان من الكفر، ولا يزال حال الدجالين من المسلمين إلى اليوم يتلون العزائم ويخُطُّون خطوطا ويعملون طلسمات يسمونها خاتم سليمان، وعهودا يزعمون أنها تحفظ من يحملها من اعتداء الجن ومسِّ العفاريت.

وإنما قصَّ القرآن علينا هذا القصص للذكرى، وليبين لنا ما افتراه أهل الأهواء على سليمان من أمر السحر، فكان صادا عن العمل بالدين وأحكامه لدى اليهود، ومن ثم لم يهتدوا بالنبي الذي بشر به كتابهم. . .

﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ ﴾؛ أي وما سحر، لأنه لو فعل ذلك فقد كفر، إذ كونه نبيًّا ينافي كونه ساحرا، فالسحر خداع وتمويه، والأنبياء مبرءون من ذلك. . .

﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ قد جاء ذكر السحر في القرآن في مواضع كثيرة ولا سيما في قصص موسى وفرعون، ووصفه بأنه خداع وتخييل للأعين حتى ترى ما ليس بكائن كائنا كما قال تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[٢]، وقال في آية أخرى: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾[٣]، والآية نص صريح على أن السحر كان يعلَّم ويلقَّن، والتاريخ يؤيد هذا.

والسحر إما حيلة وشعوذة، وإما صناعة وعلم خفيٌّ، يعرفه بعض الناس ويجهله الكثير منهم، ومن ثم يسمون العمل به سحرا لخفاء سببه عليهم.

وقد روى المؤرخون أن سحرة فرعون استعانوا بالزئبق على إظهار الحبال والعصيِّ بصور الحيات والثعابين حتى خُيِّل إلى الناس أنها تسعى، وقد اعتاد الذين اتخذوه صناعة للمعاش أن

---

(١) سورة البقرة الآية: (١٠٢).

(٢) سورة طه الآية: (٦٦).

(٣) سورة الأعراف الآية: (١١٦).

يتكلموا بأسماء غريبة وألفاظ مبهمة، اشتهر بين الناس أنها من أسماء الشياطين وملوك الجن، ليوهموهم أن الجنَّ يستجيبون دعاءهم ويسخّرون لهم، وهذا هو منشأ اعتقاد العامة أن السحر عمل يستعان عليه بالشياطين، وأرواح الكواكب، ولمثل هذا تأثير في إثارة الوهم دلت التجربة على وجوده، وهو يغني منتحل السحر عن توجيه همته وتأثير إرادته فيمن يعمل له السحر.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ في الملكين قراءتان فتح اللام وكسرها، وهما رجلان شبِّها إما بالملائكة لانفرادهما بصفات محمودة، وقد جرت العادة أن يقولوا هذا مَلَك وليس بإنسان، وإما بالملوك كما يقال لمن كان سيدا عزيزا يظهر الغنى عن الناس: هذا من الملوك، وكان الناس في عهد هاروت وماروت كحالهم اليوم لا يقصدون للفصل في شؤونهم الروحية إلا أهلَ السمت والوقار الذين يلبسون لباس أهل الصلاح والتقوى.

وظاهر الآية يدل على أن ما أنزل على الملكين غير السحر لكنه من جنسه، وقد ألهماه واهتديا إليه بلا أستاذ ولا معلم، وقد يسمى مثل هذا وحيا كما في قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾(١)، وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾(٢).

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾؛ أي وما يُعلِّم المِلَكان أحدا حتى ينصحاه ويقولا له: إنما نحن ابتلاء من الله عزَّ اسمه، فمن تعلم منا وعمل به كفر، ومن تعلم ولم يعمل به ثبت على الإيمان، فلا تكفر باعتقاده وجواز العمل به.

وفي هذا إيماء إلى أن تعلُّم السحر وكل ما لا يجوز اتباعه والعمل به ليس محظورا، وإنما الذي يحظر ويمنع هو العمل به فحسب(٣).

وإنما كانا يقولان ذلك إبقاء على حسن اعتقاد الناس فيهما، إذ كانا يقولان إنهما ملكان، كما نسمع الآن من الدجالين الذين يحترفون مثل ذلك لمن يعلمونهم الكتابة للحب والبغض:

---

(١) سورة النحل الآية: (٦٨).

(٢) سورة القصص الآية: (٧).

(٣) اختلف العلماء في حكم تعلم السحر على ثلاثة أقوال:

أ- الجواز وهذا ظاهر كلام المراغي ورد على هذا القول الإمام ابن كثير في تفسيره(١/١٤٤).

ب- الجواز عند الضرورة، انظر: فتح الباري لابن حجر(١/٢٢٤).

ت- التحريم وهو قول جمهور أهل السنة، قال ابن قدامة رحمه الله: "تعلم السحر وتعليمه حرام لا نعلم فيه خلافا بين أهل العلم" المغني لابن قدامة(٨/١٥١).

نوصيك بألا تكتب هذا لجلب امرأة إلى حبٍّ غير زوجها، ولا تكتب لأحد الزوجين أن يبغض الآخر، بل تجعل ذلك للمصلحة العامة كالحبِّ بين الزوجين، والتفريق بين عاشقين فاسقين، وهذا منهم إيهام بأن علومهم إلهية وصناعتهم روحية.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾؛ أي كانوا يتعلمون منهما ما وضع لأجل التفريق بين الزوجين، مما يسمى الآن (كتاب البغضة).

والآية لا ترشد إلى حقيقة ما يتعلمونه من السحر، أمؤثر بطبعه أو بسبب خفيٍّ أو بخارق من خوارق العادات، أم غير مؤثِّر؟ كما أنها لم تبين نوع ما يتعلمونه، أتمائم وكتابة هو، أم تلاوة رقى وعزائم، أم أساليب سعاية، أم دسائس تنفير ونكاية، أم تأثير نفساني، أم وسواس شيطان؟ فأي ذلك أثبته العلم كان تفصيلا لما أجمله القرآن ولا نتحكم في حمله على نوع منها، ولو علم الله الخير في بيانه لبينه، ولكنه وكل ذلك إلى بحوث الناس وارتقائهم في العلم، فهو الذي يجلِّي الغامض، ويكشف الحقائق.

﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي إن هذين لم يعطيا شيئا من القوى الغيبية فوق ما أعطي سائر الناس، بل هي أسباب ربط الله بها مسبباتها، فإذا أصيب أحد بضرر بعمل من أعمالهم، فإنما ذلك بإذنه تعالى، فهو الذي يوجد المسببات حين حصول الأسباب: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ من قبل أنه سبب في إضرار الناس، وهذا مما يعاقب الله عليه، ومن عرف بإيذاء الناس أبغضوه واجتنبوه ولا نفع لهم فيه، فإنا نرى منتحلي هذه المهن من أفقر الناس وأحقرهم، وذلك حالهم في الدنيا، فما بالك بهم في الآخرة يوم يجزى كل عامل بما عمل.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾؛ أي إنهم عالمون بأن من اختار هذا وقدَّمه على العلم بأصول الدين وأحكام الشريعة التي توصل إلى السعادة في الدارين، فليس له حظ في الآخرة، لأنه قد خالف حكم التوراة التي حظرت تعلم السحر، وجعلت عقوبة من اتبع الجنَّ والشياطين والكهان، كعقوبة عابدي الأصنام والأوثان"[1].

وذكر رحمه الله الذين يتحاكمون إلى الكهان والعرافين والرمالين عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟

(١) تفسير المراغي(١/١٥٠-١٥٤).

﴿أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾[(١)]، فقال: "أي انظر إلى عجيب أمر هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بك، وآمنوا بمن قبلك من الأنبياء، ويأتون بما ينافي الإيمان! إذ الإيمان الصحيح بكتب الله ورسله يقتضي العمل بما شرعه الله على ألسنة أولئك الرسل، وترك العمل مع الاستطاعة دليل على أن الإيمان غير راسخ في نفس مدَّعيه، فكيف إذا عمل بضد ما شرعه الله؟ فهؤلاء المنافقون إذ هربوا من التحاكم إليك وقبلوا التحاكم إلى مصدر الطغيان والضلال من أولئك الكهنة والمشعوذين... دليل على أن الإيمان ليس له أثر في نفوسهم، بل هي كلمات يقولونها بأفواههم لا تعبر عما تلجلج في صدورهم، وكيف يزعمون الإيمان بك، وكتابك المنزل عليك يأمرهم بالكفر بالجبت والطاغوت في نحو قوله: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾[(٣)]، وهم يتحاكمون إليه؟ فألسنتهم تدَّعي الإيمان بالله وبما أنزله على رسله، وأفعالهم تدلُّ على كفرهم بالله وإيمانهم بالطاغوت وإيثارهم لحكمه.

ويدخل في هؤلاء كل من يتحاكم إلى الدجَّالين كالعرَّافين وأصحاب المندل والرمل، ومدَّعي الكشف والولاية"[(٤)].

وذكر رحمه الله أن من خرافات الجاهلية الاستقسام بالأزلام، وإتيان الكهان والعرافين فقال: "والأزلام: قداح أي قطع رقيقة من الخشب بهيئة السهام، كانوا يستقسمون بها في الجاهلية لأجل التفاؤل أو التشاؤم"[(٥)].

وقال في موضع آخر: "الأزلام واحدها زلم: وهو قطعة من الخشب على هيئة السهم، لكن لا يركب فيه النصل الذي يجرح ما يرمى به من صيد وغيره، وكانت الأزلام ثلاثة، كتب على أحدها: (أمرني ربي)، وعلى الثاني: (نهاني ربي)، والثالث: غُفْلٌ ليس عليه شيء، فإذا أراد أحدهم سفرا أو غزوا أو زواجا أو بيعا أو نحو ذلك أجال -حرَّك- هذه الأزلام، فإن خرج له الزلم المكتوب عليه: (أمرني ربي) مضى لما أراد، وإن خرج المكتوب عليه: (نهاني ربي) أمسك

---

(١) سورة النساء الآية: (٦٠).

(٢) سورة النحل الآية: (٣٦).

(٣) سورة البقرة الآية: (٢٦٥).

(٤) تفسير المراغي(٢/٢٤٦-٢٤٧).

(٥) المصدر السابق(٣/١٧).

عن ذلك ولم يمض فيه، وإن خرج الغُفْلُ الذي لا كتابة عليه أعاد الاستقسام، وهو: طلب معرفة ما قسم له دون ما لم يقسم بواسطة الأزلام.

أي وحرَّم عليكم أن تطلبوا علم ما قسم لكم بالأزلام كما كانت تفعل العرب في الجاهلية.

وحكمة هذا التحريم أنه من الخرافات والأوهام التي لا يركن إليها إلا من كان ضعيف العقل، يفعل ما يفعل من غير بينة ولا بصيرة، ويترك ما يترك كذلك، ويجعل نفسه ألعوبة للكهنة والسَّدنة، ويتفاءل ويتشاءم بما لا فأل فيه ولا شؤم، ومن ثمَّ أبطل ذلك دين العقل والبصيرة كما أبطل التطيُّر والكهانة والعيافة والعرافة وسائر خرافات الجاهلية، إلى أن فيها افتراءً على الله إن أرادوا بقولهم: (أمرني ربي) الله ﷻ، وجهلا وشركا إن أرادوا به الصنم، إلى أن فيه طلبا لعلم الغيب الذي استأثر الله به.

وقد استنَّ بعض جهال المسلمين بسنة مشركي الجاهلية، أو بما يشبهها فتراهم يستقسمون بالسُّبَحِ وغيرها، ويسمون ذلك استخارة أو فألا، فيقتطعون طائفة من حب السُّبحة ويحركونها حبة بعد أخرى، يقولون: (افعل) على واحدة (لا تفعل) على الثانية، ويكون الحكم الفصل للحبة الأخيرة، وما هذا بالاستخارة التي ورد الإذن بها، بل قد ورد ما يؤيد تحريمها.

و منهم من يستقسم أو يأخذ الفأل من القرآن الكريم فيصبغون عملهم بصبغة الدين، ويلبسون الباطل ثوب الحق، ولم يرد في هذا نص يجوِّز العمل به، ولكن الإلف والعادة جعلا هذه البدع مستحسنة وتأوَّلُوا لها اسم الفأل الحسن، ورووا في ذلك حديث أبي هريرة عن عائشة أن رسول الله ﷺ: «**كان يعجبه الفأل الحسن**»[1]، وليس هذا من الفأل الحسن، بل الفأل ضد الطيرة التي أبطلتها الأحاديث.

والعجيب من أمر بعض المسلمين أنهم تركوا الاهتداء بالقرآن وحرموه على أنفسهم، واكتفوا من الإيمان به والتعظيم له بالاستقسام به كما كانت الجاهلية تستقسم بالأزلام، أو الاستشفاء بمداد تكتب به آياته في كاغد أو جام (فنجان)، وكل هذا من الضلالات والخرافات التي لم يرد شيء منها عن رسول الله ﷺ ولا عن السلف الصالح.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب الفأل، (٤٠٩/١٤)، رقم الحديث(٥٧٥٦) بلفظ: "الفأل الصالح"، ومسلم، كتاب السلام، باب الطيرة والفأل، (٣٣/٧)، رقم الحديث(٢٢٢٤).

وأعجب من ذلك جعل بعض الدجالين الاستقسام من قبيل الاستخارة، وجعل بعضهم له من قبيل القرعة المشروعة، وكل ذلك ضلال، إذ لا بينة فيه ولا سلطان.

والاستخارة التي وردت بها السنة هي التوجه إلى الله، والالتجاء إليه بالصلاة والدعاء بأن يزيل عن المستخير الحيرة، ويرشده إلى ما فيه الفائدة فيما تتعارض فيه الدلائل والبينات، فلا يستبين له إن كان الخير في الإقدام أو في الترك، فإذا شرح الله صدره لشيء أمضاه.

وقد روى الشيخان من حديث جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يعلّمنا الاستخارة كما يعلمنا سورة من القرآن يقول: «**إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاجل أمري وآجله، فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فبه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌّ لي في ديني ومعاشي وعاجل أمري وآجله، فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به**» [(١)] قال ويسمي حاجته، والقرعة تشبه هذا، بل أمرها أظهر، فإنها إنما تكون للترجيح بين المتساويين قطعا كالقسمة بين اثنين، إذ لا وجه لإلزام من تقسم بينهما بأن يأخذ زيد منهما هذه الحصة وعمرو الأخرى، فتكون القرعة طريقة حسنة عادلة"[(٢)].

وتكلم رحمه الله على السحر والسحرة في قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه في سورة الاعراف، فقال:

"فالسحر صناعة تتلقى بالتعليم كما ثبت بنص الكتاب الكريم، وبالاختبار الذي لم يبق فيه شك بين العلماء في هذا العصر، قال أبو بكر الرازي المعروف بالجصاص[(٣)] وهو من فقهاء

(١) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الاستخارة، (١٦/١٥٧)، رقم الحديث(٦٣٨٢)، وليس هو عند مسلم.

(٢) تفسير المراغي(٢/٣٨٢-٣٨٣).

(٣) هو أحمد بن علي أبو بكر الرازي المعروف بالجصاص ولد سنة خمس وثلاثمائة، وسكن بغداد وانتهت إليه رياسة الحنفية، وله كتاب أحكام القرآن، وشرح مختصر الكرخي، وشرح الأسماء الحسنى، توفى يوم الأحد سابع ذي الحجة سنة سبعين وثلاثمائة ببغداد. انظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي(٥/٧٢)، والجواهر المضية في طبقات الحنفية لعبد القادر القرشي(١/٨٤).

الحنفية في القرن الرابع: زعموا أن النبي ﷺ سُحِر، وأن السحر عمل فيه حتى قال فيه: «**إنه يخيَّل إليَّ أني أقول الشيء وأفعله، ولم أقله ولم أفعله**»، وإن امرأة يهودية سحرته في جفِّ طلعة -وعاء طلع النخل- ومشط ومشاطة، حتى أتاه جبريل عليه السلام فأخبره أنها سحرته في جفِّ طلعة وهو تحت راعوفة البئر، فاستخرج وزال عن النبي ﷺ ذلك العارض[1].

إلى أن قال: ومثل هذه الأخبار من وضع الملحدين تلعُّبًا بالحشو الطَّغام، واستجرارا لهم إلى القول بإبطال معجزات الأنبياء عليهم السلام والقدح فيها، وأنه لا فرق بين معجزات الأنبياء وفعل السحرة، وأن جميعه من نوع واحد، والعجب ممن يجمع بين تصديق الأنبياء عليهم السلام وإثبات معجزاتهم، وبين التصديق بمثل هذا من فعل السحرة مع قوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾[2]، فصدَّق هؤلاء من كذَّبه الله وأخبر ببطلان دعواه وانتحاله، وجائز أن تكون المرأة اليهودية بجهلها فعلت ذلك ظنًّا منها بأن ذلك يعمل في الأجساد، وقصدت به النبيَّ عليه الصلاة والسلام، فأطلع الله نبيه على موضع سرِّها وأظهر جهلَها فيما ارتكبت وظنت ليكون ذلك من دلائل نبوته، لا أن ذلك ضرَّه، وخلط عليه أمره، ولم يقل كل الرواة إنه اختلط عليه أمره، وإنما هذا اللفظ زيد في الحديث ولا أصل له"[3] انتهى كلام المراغي.

أقوال أهل العلم في مسألة سحر النبي ﷺ:

وقع خلاف بين أهل العلم في مسألة وقوع السحر على النبي ﷺ، فذهبت المعتزلة ومن تبعهم إلى إنكار تأثير السحر على النبي ﷺ؛ لأن ذلك يخالف العصمة، وذهب جمهور أهل السنة والجماعة إلى إثبات وقوع السحر، لكنه من باب وقوع المرض على الناس جميعا، ومنهم الأنبياء عليهم السلام، وأن ذلك ليس له دخل في العصمة.

والمراغي رحمه الله ساق كلام الجصاص في أحكام القرآن وإنكاره لمسألة وقوع السحر على النبي ﷺ، ولم يعلق عليه لكن يظهر أنه يوافقه.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب السحر، (١٤/٤١٨)، رقم الحديث(٥٧٦٣)، ومسلم، كتاب السلام، باب السحر، (٧/١٤)، رقم الحديث(٢١٨٩).

(٢) سورة طه الآية: (٦٩).

(٣) أحكام القرآن للجصاص(١/٦٠).

أما أهل السنة والجماعة فأثبتوا الأحاديث الواردة في إثبات وقوع السحر على النبي ﷺ، وأن ذلك من باب الأمراض التي تصيب الخلق جميعا، وهو ظاهر حديث عائشة رضي الله عنها الذي أخرجه البخاري ومسلم: قَالَتْ سَحَرَ رَسُولَ الله ﷺ يهودي مِنْ يَهُودِ بَنِي زُرَيْقٍ يُقَالُ لَهُ لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَمِ، قَالَتْ: حَتَّى كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشيء وَمَا يَفْعَلُهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ دَعَا رَسُولُ الله ﷺ ثُمَّ دَعَا ثُمَّ دَعَا ثُمَّ قَالَ: «**يَا عَائِشَةُ أَشَعَرْتِ أَنَّ الله أفتاني فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ، جاءني رَجُلاَنِ فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رأسي، وَالآخَرُ عِنْدَ رجلي، فَقَالَ الَّذِى عِنْدَ رأسي للذي عِنْدَ رجلي أَوِ الَّذِى عِنْدَ رجلي للذي عِنْدَ رأسي: مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ. قَالَ: مَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَمِ. قَالَ: في أي شيء؟ قَالَ: في مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ. قَالَ: وَجُبِّ طَلْعَةِ ذَكَرٍ. قَالَ: فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: في بِئْرِ ذي أَرْوَانَ**».

قَالَتْ فَأَتَاهَا رَسُولُ الله -ﷺ- في أُنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**يَا عَائِشَةُ! وَالله لَكَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحِنَّاءِ، وَلَكَأَنَّ نَخْلَهَا رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ**». قَالَتْ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ الله! أَفَلاَ أَحْرَقْتَهُ؟ قَالَ: «**لاَ أَمَّا أَنَا فَقَدْ عافاني الله، وَكَرِهْتُ أَنْ أُثِيرَ عَلَى النَّاسِ شَرًّا فَأَمَرْتُ بِهَا فَدُفِنَتْ**»(١).

قال ابن القيم رحمه الله: "إن الذي أصابه هو مرض من الأمراض، من جنس الأسقام والأمراض الأخرى المعتادة، التي أصابته ﷺ وشفاه الله منها، ولا تقدح في نبوته، لأنه بشر يجوز عليه ما يجوز على البشر من الأمراض، مثل إغمائه ﷺ في مرضه، وإصابته في غزوة أحد. . . الخ، فليس في هذا ما يدخل عليه داخلة في شيء من صدقه، لقيام الدليل والإجماع على عصمته من هذا".

وقال أيضا: "ولا عيب ولا نقص بوجه ما في ذلك، فإن المرض يجوز على الأنبياء، وهذا من البلاء الذي يزيده الله به رفعة في درجاته، ونيل كرامته، وأشد الناس بلاء الأنبياء، فابتلوا من أممهم بما ابتلوا به من القتل، والضرب، والشتم، والحبس، فليس ببدع أن يبتلى ﷺ من

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الطب، باب السحر، (٢٧٣/١٥)، رقم الحديث(٥٧٦٦)، ومسلم، كتاب السلام، باب السحر، (١٤/٧)، رقم الحديث(٢١٨٩).

بعض أعدائه بالسحر، كما ابتلي بالذي رماه فشجه، وبالذي ألقى على ظهره السَّلا وهو ساجد وغير ذلك.

وقال: "وهذا المرض -السحر- لا ينافي حماية الله لأنبيائه، فإنه ﷻ كما يحميهم ويصونهم ويتولاهم، فيبتليهم بما شاء من أذى الكفار ليستوجبوا كمال كرامته، وليتسلى بهم من بعدهم من أممهم، وخلفائهم إذا أوذوا من الناس، فرأوا ما جرى على الرسل والأنبياء فصبروا، ورضوا وتأسوا بهم، ولتمتلئ صاع الكفار، فيستوجبون ما أعد لهم من النكال العاجل، والعقوبة الآجلة، فيسحقهم بسبب بغيهم وعداوتهم، فيعجل تطهير الأرض منهم، فهذا من بعض حكمته تعالى في ابتلاء أنبيائه ورسله بإيذاء أقوامهم"(١).

وقال الحافظ بن حجر رحمه الله: "وهذه -يعني ما أصاب رسول الله ﷺ من سحر وتأثير- من أمور الدنيا التي لم يبعث من أجلها، فهو في ذلك عرضة لما يعترض البشر كالأمراض"(٢).

وقال القاضي عياض رحمه الله: "وهكذا سائر أنبيائه تعالى بين مبتلى، ومعافى، وذلك من تمام حكمته ليظهر شرفهم في هذه المقامات؛ أي في أحوالهم المتغيرة والمتفاوتة فيها الحالات، وليبين أمرهم، ويتم كلمته فيهم، وليحقق بامتحانهم بشريتهم، وهذه الطوارئ إنما تختص بأجسامهم البشرية، وأما بواطنهم فمنزهة غالبا عن ذلك، معصومة منه، متعلقة بالملأ الأعلى والملائكة، لأخذها عنهم، وتلقيها الوحي منهم".

وقال أيضا: "فإن قلت: فقد جاءت الأخبار الصحيحة أنه ﷺ سُحِر، كما في صحيح البخاري عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «سحر رسول الله ﷺ حتى أنه ليخيَّلُ إليه أنه فعل الشيء وما فعله»، وإذا كان هذا من التباس الأمر على المسحور، فكيف حال النبي ﷺ في ذلك؟ وكيف جاز عليه وهو معصوم؟

فاعلم -وفقنا الله وإياك- أن هذا الحديث صحيح متفق عليه، وقد نزه الله الشرع والنبيَّ ﷺ عما يدخل في أمره لبسا، وإنما السحر مرض من الأمراض، وعارض من العلل، ويجوز عليه

---

(١) بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، ص(٢٢٤-٢٢٦).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي-محب الدين الخطيب، دار المعرفة، ١٣٧٩هـ، (٢٢٧/١٠).

كأنواع المرض مما لا ينكر، ولا يقدح في نبوته، وأما ما ورد أنه كان يخيل إليه أنه فعل الشيء ولا يفعله، فليس في هذا ما يدخل عليه داخلة في شيء من تبليغه أو شريعته، أو يقدح في صدقه، لقيام الدليل والإجماع على عصمته من هذا، وإنما هذا فيما يجوز طروءه عليه في أمر دنياه التي لم يبعث بسببها، ولا فضل لأجلها، وهو فيها عرضة للآفات كسائر البشر، فغير بعيد أن يخيل إليه من أمورها ما لا حقيقة له ثم ينجلي عنه كما كان.

وقد قيل: إن المراد بالحديث أنه كان يتخيل الشيء أنه فعله وما فعله، لكنه تخيل لا يعتقد صحته، فتكون اعتقاداته كلها على السداد، وأقواله على الصحة، وكذلك أقول: إنه في هذه الأحوال كلها من وصب ومرض وسحر وغضب، لم يجز على باطنه ما يخل به، ولا فاض على لسانه وجوارحه ما لا يليق به، كما يعتري غيره من البشر"[١].

وقال المازري رحمه الله[٢]: "مذهب أهل السنة وجمهور علماء الأمة على إثبات السحر، وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة خلافا لمن أنكر ذلك ونفى حقيقته، وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة لا حقائق لها، وقد ذكره الله تعالى في كتابه، وذكر أنه مما يُتعلَّم، وذكر ما فيه إشارة إلى أنه مما يُكفَّر به، وأنه يفرق بين المرء وزوجه، وهذا كله لا يمكن فيما لا حقيقة له.

وهذا الحديث أيضا مصرح بإثباته، وأنه أشياء دُفِنَت وأُخرِجت، وهذا كله يبطل ما قالوه، فإحالة كونه من الحقائق محال، ولا يستنكر في العقل أن الله ﷻ يخرق العادة عند النطق بكلام ملفق، أو تركيب أجسام، أو المزج بين قوى على ترتيب لا يعرفه إلا الساحر، ومَن شاهد الإنسان بعض الأجسام منها قاتلة كالسموم، ومنها مسقمة كالأدوية الحادة، ومنها مضرة كالأدوية المضادة للمرض، لم يستبعد عقله أن ينفرد الساحر بعلم قوى قتالة، أو كلام مهلك أو مؤد إلى التفرقة.

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، مع حاشية الشمني، للقاضي عياض، دار الفكر، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م، (١٧٩/٢-١٨٢).

(٢) هو: أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد التميمي المازري الفقيه المالكي المحدث؛ أحد الأعلام المشار إليهم في حفظ الحديث والكلام عليه، وشرح صحيح مسلم شرحا جيدا سماه كتاب المعلم بفوائد كتاب مسلم، وله كتاب إيضاح المحصول في برهان الأصول، مات سنة (٥٣٦هـ)، انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان(٢٨٥/٤)، وسير أعلام النبلاء (١٠١/٣٩).

وقد أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث بسبب آخر، فزعم أنه يَحُطُّ منصِب النبوّة، ويشكك فيها، وأن تجويزه يمنع الثقة بالشرع، وهذا الذي ادعاه هؤلاء المبتدعة باطل؛ لأن الدلائل القطعية قد قامت على صدقه وصحته وعصمته فيما يتعلق بالتبليغ، والمعجزة شاهدة بذلك، وتجويز ما قام الدليل بخلافه باطل، فأما ما يتعلق ببعض أمور الدنيا التي لم يبعث بسببها، ولا كان مفضلا من أجلها، وهو مما يعرض للبشر فغير بعيد أن يخيل إليه من أمور الدنيا ما لا حقيقة له، وقد قيل إنه إنما كان يُتخيَّل إليه أنه وطىء زوجاته وليس بواطئ، وقد يَتخيَّل الإنسانُ مثل هذا في المنام فلا يبعد تخيله في اليقظة ولا حقيقة له، وقيل إنه يخيل إليه أنه فعله وما فعله، ولكن لا يعتقد صحة ما يتخيله فتكون اعتقاداته على السداد"[(١)].

وسئل الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله كيف يُسحر الرسول ﷺ والله يقول له: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[(٢)]؟ وكيف يُسحر وهو يتلقى الوحي عن ربه ويبلغ ذلك للمسلمين؟ فكيف يبلغ وهو مسحور؟ وقول الكفار والمشركين: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا﴾[(٣)]، نرجو إيضاحها، وبيان هذه الشبهات.

فأجاب رحمه بقوله: "هذا ثبت في الحديث الصحيح أنه وقع في المدينة، وعندما استقر الوحي واستقرت الرسالة، وقامت دلائل النبوة وصدق الرسالة، ونصر الله نبيه على المشركين وأذلهم، تعرض له شخص من اليهود يدعى: لبيد بن الأعصم، فعمل له سحرا في مشط ومشاطة وجُفِّ طلعة ذكر النخل، فصار يخيل إليه أنه فعل بعض الشيء مع أهله ولم يفعله، لكن لم يزل بحمد الله تعالى عقله وشعوره وتمييزه معه فيم يحدث به الناس، ويكلم الناس بالحق الذي أوحاه الله إليه، لكنه أحس بشيء أثر عليه بعض الأثر مع نسائه، كما قالت عائشة رضي الله عنها: إنه كان يخيل إليه أنه فعل بعض الشيء في البيت مع أهله"[(٤)].

---

(١) المعْلم بفوائد مسلم للمازري(٣/١٥٨-١٥٩)، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، تونس الطبعة الأولى (١٩٩١م).

(٢) سورة المائدة الآية: (٦٧).

(٣) سورة الإسراء الآية: (٤٧).

(٤) مجموع فتاوى ابن باز(٨/١٤٩).

وأخيرا، وبعد سياق الأدلة الشرعية واقوال العلماء المتقدمين منهم والمتأخرين في هذا الموضوع، نجمل شبه المنكرين لوقوع السحر على النبي صلى الله عليه وسلم والرد عليها في هذه الأوجه:

الأول: أما دعواهم بأن الحديث مكذوب من وضع الملحدين يُردُّ عليه أن الحديث اتفق على إخراجه البخاري ومسلم.

الثاني: دعواهم أن الحديث مقدوح في إسناده دعوى ليس عليها دليل، وقد نظرت في شروح الحديث أمثال فتح الباري، وشرح النووي على مسلم فلم ينقلوا عن عالم واحد من علماء الحديث طعنا في الحديث أو في رواته.

الثالث: أما دعواهم بأن الحديث حديث آحاد، وأحاديث الآحاد لا تقبل في المسائل الاعتقادية.

فالجواب: أن الصحيح من أقوال أهل العلم أن الأحاديث الآحاد تقبل في مسائل الاعتقاد كما تقبل في المسائل العملية، والذين فرقوا بينهما لم يأتوا بدليل يدل على صحة هذا التفريق.

الرابع: أما ادعاؤهم أن هذا الحديث يقدح في مقام النبوة، وينافي العصمة فهو غير صحيح؛ لأن الرسول ﷺ معصوم بالإجماع من كل ما يؤثر خللا في التبليغ والتشريع، وأما بالنسبة إلى الأعراض البشرية كأنواع الأمراض والآلام ونحو ذلك، فالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم يعتريهم من ذلك ما يعتري البشر.

الخامس: دعواهم أن السحر من عمل الشيطان، والشيطان لا سلطان له على عباد الله، نقول: إن المراد بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[1]؛ أي في الإغواء والإضلال، أما إصابة الشيطان العبد الصالح في بدنه فالآيات لا تنفيها وقد جاء في القرآن ما يدل على إمكان وقوعها، كما حصل لأيوب وموسى عليهما السلام.

السادس: أما دعواهم أن هذا الحديث مناقض للقرآن مصدق لمزاعم المشركين الذين زعموا أن الرسول ﷺ رجل مسحور فأكذبهم القرآن في ذلك.

---

(١) سورة الحِجر الآية: (٤٢).

فالجواب عن هذا الزعم أن هذا الحديث موافق للقرآن لو تدبروا، فموسى عليه السلام من أولي العزم من الرسل، وقد خيل إليه عندما ألقى السحرة عصيهم ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾[(١)]، فهذا القرآن الكريم يدل صراحة على أن السحر قد يؤثر في الأنبياء"[(٢)].

وقال المراغي رحمه الله بعد الآيات الواردة في قصة موسى عليه السلام مع السحرة ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾[(٣)]: "أي وجاء السحرة الذين حشرهم أعوان فرعون وشرطته إليه، وحين جاءوا قالوا لفرعون: هل لنا من أجر كفاء ما نقوم به من العمل العظيم الذي يتم به الغلب على موسى.

﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾[(٤)]؛ أي قال فرعون مجيبا لهم إلى ما طلبوا: نعم إن لكم أجرا عظيما على ما تقومون به من ذلك العمل الجليل، وأنتم مع ذلك تكونون من المقرَّبين منا فتجمعون بين المال والجاه، وذلك منتهى ما تطمعون فيه من نعيم الدنيا وسعادتها.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾[(٥)]؛ أي قال السحرة لموسى بعد عدة فرعون لهم: إما أن تلقي ما عندك أولا، وإما أن نلقي ما عندنا، وفي هذا التخيير منهم له دليل على اعتدادهم بسحرهم وثقتهم بأنفسهم وعدم المبالاة بعمله، ولولا ذلك لما خيروه؛ إذ المتأخر في العمل يكون أبصر بما تقتضيه الحال بعد وقوفه على منتهى جهد خصمه.

﴿قَالَ أَلْقُواْ﴾[(٦)]؛ أي قال موسى عليه السلام وهو واثق بشأنه محتقر لهم غير مبال بهم: ألقوا ما أنتم ملقون وهو عليه السلام لم يأمرهم بفعل السحر ابتداء، وإنما أمر بأن يتقدموه فيما جاءوا لأجله ولا بد لهم منه، وأراد بذلك التوسل إلى إظهار بطلان السحر لا إثباته، وإلى بناء ثبوت الحق على بطلانه، ولم يكن هناك وسيلة للإبطال إلا ذلك، وقد صرح به فيما حكاه تعالى عنه:

---

(١) سورة طه الآية: (٦٧).

(٢) عالم السحر والشعوذة، لعمر سليمان الأشقر –بتصرف واختصار– (١٨١، ١٨٧).

(٣) سورة الأعراف الآية: (١١٣).

(٤) سورة الأعراف الآية: (١١٤).

(٥) سورة الأعراف الآية: (١١٥).

(٦) سورة الأعراف الآية: (١١٦).

﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾(١).

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾(٢)؛ استرهبه أوقع في قلبه الرَّهب والخوف، أي فلما ألقوا ما ألقوا من حبالهم وعصيِّهم سحروا أعين النظارة، ومنهم موسى عليه السلام كما جاء في سورة طه: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾(٣).

﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾(٤) في مظهره، كبير في تأثيره في أعين الناس.

قال ابن كثير: "أي خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة في الخارج، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنهم ألقوا حبالا غلاظا وخشبا طوالا، فأقبلت يخيَّل إليه من سحرهم أنها تسعى(٥).

قال ابن اسحق: إن السحرة كانوا خمسة عشر ألف ساحر، وإن الحيات التي أظهروها بخيال سحرهم كانت كأمثال الجبال قد ملأت الوادي(٦).

وقال السدي: إن السحرة كانوا بضعا وثلاثين ألفا"(٧).

وكل هذا مبالغات إسرائيلية وتهويلات لم يصح شيء منها وليس في التوراة ما يؤيدها.

وقال الجصاص في تفسيره: "سحروا أعين الناس، يعني موَّهوا عليهم حتى ظنوا أن حبالهم وعصيهم تسعى، كما قال: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾(٨)، فأخبر أن ما ظنوه سعيا منها لم يكن سعيا وإنما كان تخيلا، وقد قيل: إنها كانت عِصِيًّا مجوَّفة قد ملئت زئبقا، وكذلك الحبال كانت معمولة من جلد محشوة زئبقا، وقيل: حفروا قبل ذلك تحت المواضع أسرابا ملؤوها نارا،

---

(١) سورة يونس الآية: (٨٢).

(٢) سورة الأعراف الآية: (١١٦).

(٣) سورة طه الآية: (٦٦).

(٤) سورة الأعراف الآية: (١١٦).

(٥) أخرجه ابن جرير في تفسيره(١٣/٢٨).

(٦) المصدر السابق(١٣/٢٨).

(٧) تفسير ابن كثير(٢/٢٨٩-٢٩٠).

(٨) سورة طه الآية: (٦٦).

فلما طرحت عليه وحمي الزئبق حركها، لأن من شأن الزئبق إذا أصابته النار أن يطير"[١]، فعلى هذا يكون سحرهم لأعين الناس عبارة عن هذه الحيلة الصناعية إذا صح خبرها.

ويمكن أن تكون هناك حيلة أخرى كإطلاق أبخرة أثرت في الأعين فجعلتها تبصر ذلك، أو أن الحبال والعصيَّ جعلت على صورة الحيات وحركت بمحركات خفية سريعة لا تدركها أبصار الناظرين. . .

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾[٢]؛ أي أوحى الله إلى عبده ورسوله موسى عليه السلام في ذلك الموقف العظيم الذي قرن فيه بين الحق والباطل، أن يلقي ما في يمينه وهي عصاه؛ فإذا هي تبتلع ما يلقون ويوهمون به أنه حق وهو باطل.

قال ابن عباس: فجعلت لا تمرُّ بشيء من حبالهم ولا خشبهم إلا التقمته، فعرفت السحرة أن هذا شيء من السماء وليس بسحر فخروا سُجَّدًا ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾[٣].

ويرى جماعة من المفسرين أن لقفها لما يأفكون: هو أنها أتت عليه حتى أظهرت بطلانه، وبيان حقيقة أمره في نفسه بسرعة، فإن كان إفكهم بما أحدثوه من التأثير في الأعين فلقفها إياه: إزالته وإبطاله برؤية الحبال والعصيِّ على حقيقتها، وإن كان تحريكا لها بمحركات خفية سريعة فكذلك، وإن كان قد حصل بجعلها مجوفة محشوَّة بالزئبق وتحريكه إياها بفعل الحرارة: (سواء كانت نارا أعدت لها أو الشمس حين أصابتها) فلقفها لذلك يكون بعمل من الحية، أخرجت به الزئبق من الحبال والعصيِّ فانكشفت به الحيلة، ولو كانت قد ابتلعتها لبقي الأمر ملتبسا على الناس، إذ قصاراه أن كلا من السحرة وموسى قد أظهر أمرا غريبا ولكن أحد الفريقين كان أقوى من الآخر فأخفاه على وجه غير معلوم ولا مفهوم، وهذا لا ينافي كونهما من جنس واحد، ولكن زوال غشاوة السحر وتخييله حتى رأى الناس أن الحبال والعصي التي ألقاها السحرة ليست إلا حبالا وعصيًّا لا تسعى ولا تتحرك، وأن عصا موسى لم تزل حيَّة تسعى هو الذي ماز الحق من الباطل، وعرفت به الآية الإلهية والحيلة الصناعية، وقد فعلت ذلك بسرعة،

---

(١) أحكام القرآن للجصاص(٥٢/١).

(٢) سورة الأعراف الآية: (١١٧).

(٣) سورة طه الآية: (٧٠).

ومن ثم عبر عنه باللقف، ولكن لا يعرف بما كان لها هذا التأثير؟ لأنها آية إلهية لا أمر صناعي حتى تدرك حقيقته"[١].

وذكر رحمه الله ما وقع من فرعون لما سئل الكهنة عن رأياه فقال: "روى السديُّ أن فرعون رأى في منامه أن نارا أقبلت من بيت المقدس حتى اشتعلت على بيوت مصر فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل، فسأل علماء قومه، فأخبره الكهنة أنه سيخرج من هذا البلد رجل يكون هلاك مصر على يديه، فأخذ يفعل ما قص علينا الكتاب الكريم"[٢].

قال الزجاج: "والعجب من حمق فرعون، فإن الكاهن الذي أخبره بذلك إن كان صادقا عنده فما ينفع القتل، وإن كان كاذبا فلا داعي للقتل"[٣]"[٤].

وذكر رحمه الله ما يدلُّ على إبطال الكهانة والسحر عند توضيح قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[٥]، فقال: "أي عالم ما غاب عن أبصار خلقه فلم يروه، وهذا لا يعلم به أحد إلا من ارتضى من الرسل صلوات الله عليهم، فإنه يطلعهم على ما شاء منه، ونحو الآية قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾[٦].

وفي الآية إيماء إلى إبطال الكهانة والتنجيم والسحر، لأن أصحابها أبعدُ الناس عن الارتضاء وأدخَلُهم في السخط، وإلى أن من ادَّعى أن النجوم تدله على ما يكون من حياة أو موت أو غير ذلك فقد كفر بالقرآن"[٧].

وقال رحمه الله عند تفسير سورة الفلق، وقوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾[٨]؛ أي ومن شر النمامين الذين يقطعون روابط المحبة، ويبددون شمل المودة، وقد شبه عملهم

---

(١) تفسير المراغي(٣/٣٧٠-٣٧٥).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره(٢/٤٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره(١/١٣٠).

(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج(٤/١٣٢).

(٤) تفسير المراغي(٧/١٤٩).

(٥) سورة الجن الآية: (٢٧).

(٦) سورة البقرة الآية: (٢٥٥).

(٧) تفسير المراغي(١٠/٢٢٩).

(٨) سورة الفَلَق الآية: (٤).

بالنفث، وشبهت رابطة الوداد بالعقدة، والعرب تسمى الارتباط الوثيق بين شيئين عقدة، كما سمي الارتباط بين الزوجين: ﴿عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾[(١)].

فالنميمة تحول ما بين الصديقين من محبة إلى عداوة بالوسائل الخفية التي تشبه أن تكون ضربا من السحر، ويصعب الاحتياط والتحفظ منها، فالنمام يأتي لك بكلام يشبه الصدق، فيصعب عليك تكذيبه، كما يفعل الساحر المشعوذ إذا أراد أن يحل عقدة المحبة بين المرء وزوجه، إذ يقول كلاما ويعقد عقدة وينفث فيها، ثم يحلها إيهاما للعامة أن هذا حل للعقدة التي بين الزوجين. . .

وقوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[(٢)]؛ أي ونستعيذ بك ربنا من شر الحاسد إذا أنفذ حسده، بالسعي والجدِّ في إزالة نعمة من يحسده، فهو يعمل الحيلة، وينصب شباكه، لإيقاع المحسود في الضرر، بأدق الوسائل، ولا يمكن إرضاؤه، ولا في الاستطاعة الوقوف على ما يدبره، فهو لا يرضى إلا بزوال النعمة، وليس في الطوق دفع كيده، وردُّ عواديه، فلم يبق إلا أن نستعين عليه بالخالق الأكرم، فهو القادر على ردِّ كيده، ودفع أذاه، وإحباط سعيه"[(٣)].

التعليق: المراغي رحمه الله في موضوع السحر حذَّر من السحر والسحرة والكهان والمنجمين وغيرهم، ولم يخالف أهل السنة إلا في مسألة سحر النبي ﷺ حيث ساق كلام الجصاص في إنكاره لسحر النبي ﷺ ولم يتعقبه، وقد سبق بيان ذلك في موضعه.

وأزيد الأمر وضوحا ببعض أقوال أهل العلم في السحر؛ قال الإمام النووي رحمه الله: "فعمل السحر حرام وهو من الكبائر بالإجماع وقد سبق في كتاب الإيمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عده من السبع الموبقات وسبق هناك شرحه ومختصر ذلك أنه قد يكون كفرا وقد لايكون كفرا بل معصيته كبيرة فإن كان فيه قول أو فعل يقتضي الكفر كفر وإلا فلا"[(٤)].

ويقول ابن قدامة: "والساحر الذي يركب المكنسة وتسير به في الهواء ونحوه يكفر ويقتل، فأما السحر بالأدوية والتدخين وسقيا شيء يضر فلا يكفر"[(٥)].

---

(١) سورة البقرة الآية: (٢٣٥).

(٢) سورة الفَلَق الآية: (٥).

(٣) تفسير المراغي(١٠/٥١٨-٥١٩).

(٤) شرح النووي لصحيح مسلم(١٤/١٧٦).

(٥) المقنع(٣/٥٢٣-٥٢٤).

قال ابن عثيمين رحمه الله: "وأما في الشرع؛ فإنه ينقسم إلى قسمين:

الأول: عقد ورقى؛ أي: قراءات وطلاسم يتوصل بها الساحر إلى استخدام الشياطين فيما يريد به ضرر المسحور، لكن قد قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ١٠٢].

الثاني: أدوية وعقاقير تؤثر على بدن المسحور وعقله وإرادته وميله؛ فتجده ينصرف ويميل، وهو ما يسمى عندهم بالصرف والعطف فيجعلون الإنسان ينعطف على زوجته أو امرأة أخرى، حتى يكون كالبهيمة تقوده كما تشاء، والصرف بالعكس من ذلك فيؤثر في بدن المسحور بإضعافه شيئا فشيئا حتى يهلك، وفي تصوره بأن يتخيل الأشياء على خلاف ما هي عليه وفي عقله؛ فربما يصل إلى الجنون والعياذ بالله.

فالسحر قسمان:

أ: شرك وهو الأول الذي يكون بواسطة الشياطين؛ يعبدهم ويتقرب إليهم ليسلطهم على المسحور.

ب: عدوان وفسق، وهو الثاني الذي يكون بواسطة الأدوية والعقاقير ونحوها.

وبهذا التقسيم الذي ذكرناه نتوصل به إلى مسألة مهمة، وهي: هل يكفر الساحر أو لا يكفر؟ اختلف في هذا أهل العلم: فمنهم من قال: إنه يكفر ومنهم من قال: إنه لا يكفر.

ولكن التقسيم السابق الذي ذكرناه يتبين به حكم هذه المسألة، فمن كان سحره بواسطة الشياطين؛ فإنه يكفر لأنه لا يتأتى ذلك إلا بالشرك غالبا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾[البقرة: ١٠٢ إلى قوله: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا

لَهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾[البقرة: ١٠٢] ومن كان سحره بالأدوية والعقاقير ونحوها؛ فلا يكفر، ولكن يعتبر عاصيا معتديا"[١].

والشيخ محمد بن عبدالوهاب عقد أبوابا في كتاب التوحيد في هذا الموضوع، ومن ذلك باب ما جاء في السحر، وباب بيان شيء من أنواع السحر، وباب ما جاء في الكهان ونحوهم، وباب ما جاء في النشرة، وباب ما جاء في التنجيم.

---

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد(٤٨٩/١).

المطلب الخامس: الذبح لغير الله:

حذّر المراغي رحمه الله من الذبح لغير الله في تفسيره، وذكر أن ذلك من الشرك بالله، فقال في تعريف الإهلال: "الإهلال رفع الصوت، وكانوا إذا ذبحوا لآلهتهم يرفعون أصواتهم بذكرها، ويقولون: باسم اللات، أو باسم العُزَّى، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾(١)؛ أي وحرم ما رفع به الصوت عند ذبحه لصنم وغيره مما يعبد من دون الله، لأنه من أعمال الوثنية، وفيه إشراك واعتماد على غير الله، وقد نص الفقهاء على أن كل ما ذكر عليه اسم غير الله ولو مع اسم الله فهو محرم، ومثل ذلك ما يفعله العامة في القرى إذ يقولون عند الذبح: باسم الله الله أكبر، يا سيد يا بدوي، يريدون بذلك أن يتقبل منهم النذر ويقضي حاجة صاحبه"(٢).

وكذلك ذكر رحمه الله مما حرم من الذبائح؛ ما ذبح لغير الله، ومن ذلك:

١- ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾(٣) الإهلال: رفع الصوت، يقال أهلَّ فلان بالحج إذا رفع صوته بالتَّلبية له: (لبيك اللهم لبيك) واستهلّ الصبيّ إذا صرخ عند الولادة، والمراد به: ما ذبح على ذكر غير الله تعالى من المخلوقات التي يعظمها الناس تعظيما دينيا، ويتقربون إليها بالذبائح، وكانوا يذبحون لأصنامهم فيرفعون أصواتهم بقولهم باسم اللات أو باسم العزّى.

وحكمة التحريم في هذا أنه من عبادة غير الله، فالأكل منه مشاركة لأهله ومشايعة لهم عليه، وهو مما يجب إنكاره لا إقراره.

ويدخل في ذلك ما ذكر عند ذبحه اسم نبيٍّ أو وليٍّ كما يفعل بعض أهل الكتاب وجهلة المسلمين الذين اتبعوا مَنْ قبلهم وساروا على نهجهم باعا فباعا، وذراعا فذراعا. . .

٢- ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾(٤)؛ والنصب واحد الأنصاب: وهي حجارة كانت حول الكعبة عددها ثلاثمائة وستون حجرا(٥)، وكان أهل الجاهلية يذبحون عليها ويعدون ذلك قربة.

ومن هذا تعلم أن ما ذبح على النصب هو من جنس ما أهلَّ به لغير الله؛ من حيث إنه يذبح بقصد العبادة لغير الله تعالى، وخص بالذكر لإزالة وهم من يتوهم أنه قد يحل لقصد

---

(١) سورة البقرة الآية: (١٧٣).

(٢) تفسير المراغي(١/٢٢٧-٢٢٨).

(٣) سورة المائدة الآية: (٣).

(٤) سورة المائدة الآية: (٣).

(٥) سبق تخريجه ص(٢١٢).

تعظيم البيت الحرام، إذا لم يذكر اسم غير الله عليه، وهو من خرافات الجاهلية التي جاء الإسلام بمحوها. . . وقد كان بعض العرب يذبح الحيوان على اسم غير الله، وهو شرك وفسق"(١).

وأوضح رحمه الله ما يقع من المشركين عند قبور ما يسمى بالأولياء والصالحين من تقريب القرابين لهذه الأوثان، وإن ذلك من الشرك الأكبر فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾(٢): "أي إذا كان حال أكثر هؤلاء الناس ما بينته لكم من الضلال، فكلوا مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح دون غيره، إن كنتم بآياته التي جاءتكم بالهدى والعلم مؤمنين، وبما يخالفها من الضلال والشرك مكذبين.

وقد كان مشركو العرب وغيرهم من أرباب الملل والنحل يجعلون الذبائح من أمور العبادات، ويقرنونها بأصول الدين والاعتقادات، فيتعبدون بذبح الذبائح لآلهتهم ومن قدَّسوا من رجال دينهم، ويهلون لهم عند ذبحها، وهذا شرك بالله، لأنه عبادة يقصد بها غيره، سواء سمَّوه إلها أو معبودا أو لم يسموه، وقد وقع كثير من المسلمين في مثل ما كان عليه أولئك الضالون المشركون من مشركي العرب وسواهم، فذبحوا باسم بعض الأولياء والصالحين، وسيَّبوا لهم السوائب، فتراهم ينذرون العجول والخراف للسيد البدوي وغيره من أرباب الأضرحة والقبور ممن يستشفعون بهم إلى ربهم في زعمهم، وهذا شرك صريح.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾(٣)، العرب تقول مالك ألا تفعل كذا، على معنى وأي شيء يمنعك من ذلك؟ والمراد هنا وأي شيء يمنعكم أن تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه؟

﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾(٤)؛ أي وقد فصل لكم ما حرَّمه عليكم وبيَّنه بما سيأتي في قوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾(٥) ومعنى أهلَّ لغير الله به أي: ذكر عليه اسم غيره عند ذبحه كالأصنام والأنبياء والصالحين الذين وضعت التماثيل ذكرى لهم.

---

(١) تفسير المراغي: (٢/٣٧٩-٣٨٢).

(٢) سورة الأنعام الآية: (١١٨).

(٣) سورة الأنعام الآية: (١١٩).

(٤) سورة الأنعام الآية: (١١٩).

(٥) سورة الأنعام الآية: (١٤٥).

﴿إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ﴾[(١)]؛ أي إلا ما دعتكم الضرورة إلى أكله بأن لم يوجد من الطعام عند شدة الجوع إلا المحرم فحينئذ يزول التحريم.

والقاعدة الشرعية: (الضرورات تبيح المحظورات)، والقاعدة الأخرى: (الضرورة تقدَّر بقدرها)، فيباح للمضطر ما تزول به الضرورة ويتَّقى به الهلاك أكثر منه[(٢)].

﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ﴾[(٣)]؛ أي وإن كثيرا من الناس يضلون غيرهم بأهوائهم الزائغة وشهواتهم الفاسدة من غير علم منهم بصحة ما يقولون، ولا برهان على ما فيه يجادلون، اعتداء وخلافا لأمر الله ونهيه وطاعة للشياطين، كعمرو بن لحيٍّ وقومه الذين اتخذوا البحائر والسوائب، وأحلوا أكل الميتة، وما أهل به لغير الله بذكر اسم ذلك من نبي أو وثن أو صم.

وأصل عبادة الأوثان أنه كان في القوم الذين أرسل إليهم نوح رجال صالحون، فلما ماتوا وضعوا لهم أنصابا ليتذكروهم بها ويقتدوا بهم، ثم صاروا يكرمونها لأجلهم، ثم خلف من بعدهم خلف جهلوا حكمة وضعها لكنهم حفظوا تكريمها، والتبرك بها، تدينا وتوسلا إلى الله، فكان ذلك عبادة لها وتسلسل في الأمم بعدهم، وقد رواه البخاري عن ابن عباس.

إن المضلين يبنون شبهاتهم على جميع أنواع العبادة التي عبدوا بها غير الله كالتوسل به ودعائه، وطلب الشفاعة منه، وذبح القرابين باسمه، والطواف حول تمثاله أو قبره والتمسح بأركانهما، وكل ذلك شرك في العبادة، شبهته تعظيم المقربين من الله تعالى للتقرب بهم إليه.

وقد انتشرت هذه الشبهات الوثنية في أرباب الكتب الإلهية، وأولوا لأجلها النصوص القطعية وأنكروا تسمية ذلك عبادة، أو أن هذه العبادة إذا كانت لغير الله لجعله واسطة ووسيلة إليه لا تعد شركا به، وما الشرك في العبادة إلا هذا...

ثم صرح سبحانه بالنهى عن ضد ما فهم من الأمر السابق وهو قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾[(٤)] لشدة العناية به لأنه من أظهر أعمال الشرك فقال: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ

(١) سورة الأنعام الآية: (١١٩).

(٢) انظر: المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل المؤلف: عبد القادر بن بدران الدمشقي الناشر: مؤسسة الرسالة – ط، ١٤٠١ت عبد الله بن عبد المحسن التركي، والموافقات، تأليف: إبراهيم بن موسى الشاطبي دراسة وتحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان الناشر: دار ابن عفان ط١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

(٣) سورة الأنعام الآية: (١١٩).

(٤) سورة الأنعام الآية: (١١٨).

﴿مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾[(١)]؛ أي ولا تأكلوا أيها المؤمنون مما مات فلم تذبحوه، ولا ما أهل لغير الله به مما ذبحه المشركون لأوثانهم، فإن أكل ذلك فسق ومعصية كما جاء في الآية الأخرى: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾[(٢)]. . .

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾[(٣)]؛ أي وإن شياطين الإنس والجن الذين يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا، ليوحون إلى أوليائهم بالوسوسة والتلقين الخادع ما يجادلونكم به من الشبهات، وإن أطعتموهم فيها فجاريتموهم في هذه العبادة الوثنية الباطلة إنكم لمشركون مثلهم، فإن التعبد لغير الله شرك كدعاء غير الله وسائر ما يتوجه به من العبادات لغيره، وإن كان لأجل التوسل بذلك الغير إليه ليقرِّب المتوسِّل إليه زلفى ويشفع له عنده، كما يفعل أهل الوثنية"[(٤)].

وقال رحمه الله بعد قوله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾[(٥)]: "أي إنما حرم عليكم ربُّكم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير، وما ذُبح للأنصاب فسمي عليه بغير اسمه تعالى، فإن ذلك من ذبائح من لا يحل أكل ذبيحته.

والخلاصة: إن ما سمي عليه غير الله عند الذبح سواء كان صنما أو وثنا أو روحا خبيثا من جن، أو روحا طيبا من إنس، كالنبي والولي حيا أو ميتا، فأكله حرام لما جاء في الحديث: «**ملعون من ذبح لغير الله**»[(٦)] سواء سمى الله عند ذبحه أو لم يسمِّ، لأن هذا الحيوان قد

---

(١) سورة الأنعام الآية: (١٢١).

(٢) سورة الأنعام الآية: (١٤٥).

(٣) سورة الأنعام الآية: (١٢١).

(٤) تفسير المراغي(٣/١٨٧-١٩١).

(٥) سورة النحل الآية: (١١٥).

(٦) أخرجه أحمد في مسنده(٥/٨٣)، رقم الحديث(٢٩١٤)، وأبو نعيم في الحلية(٩/٢٣٢)، وابن بشران في أماليه(١/٢٠٥) رقم الحديث(٤٧٤)، والحاكم في المستدرك(٤/٣٥٦) وسكت عنه، وتعقبه الذهبي بقوله: "قلت هارون ضعفوه"، أي الراوي هارون بن هارون التميمي، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير رقم الحديث(١٠٨٣١)، وأصل الحديث عند مسلم من حديث علي بن أبي طالب بلفظ: "لعن الله من ذبح لغير الله. . . "، كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله(٣/١٥٦٧)، رقم الحديث(١٩٧٨).

انتسب إلى غيره تعالى، فمن ذبح للسيد البدوي أو لإبراهيم الدسوقي أو للسيدة زينب لا يجوز أكل هذا الذبيح"(١).

التعليق: المراغي رحمه الله حذَّر من الذبح لغير الله؛ لأن هذا الشرك قد انتشر في بعض بلدان العالم الإسلامي، وأهل السنة والجماعة يعقدون أبوابا في كتب العقائد وغيرها في التحذير من ذلك، انظر: صحيح مسلم فقد قال الإمام مسلم في صحيحه: باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله، وقال البيهقي في السنن الكبرى: باب ما ذبح لغير الله، وانظر أيضا كتاب (تيسير العزيز الحميد)، و (فتح المجيد) حيث شرحوا باب ما جاء في الذبح لغير الله.

(١) تفسير المراغي(٥/٢٦٧).

المطلب السادس: الرياء والسمعة:

عرف المراغي رحمه الله الرياء فقال عند توضيح قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾(١) قال: "يراءون: أي يفعلون بقدر ما يرى الناس أنهم يفعلون ذلك من غير أن تستشعر قلوبهم خشية الله بها.

وحقيقة الرياء: طلب ما في الدنيا بالعبادة، وطلب المنزلة في قلوب الناس، ويكون فعل ذلك على ضروب:

(١) بتحسين السمت مع إرادة الجاه وثناء الناس.

(٢) بلبس الثياب القصار أو الخشنة ليأخذ بذلك هيبة الزهاد في الدنيا.

(٣) بإظهار السخط على الدنيا، وإظهار التأسف على ما يفوته من فعل الخير.

(٤) بإظهار الصلاة والصدقة، أو بتحسين الصلاة لرؤية الناس له. . .

وقال جار الله(٢): "ولا يكون الرجل مرائيا بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة، فمن حق الفرائض الإعلان بها وتشهيرها لقوله عليه الصلاة والسلام: «**ولا غمَّةَ في فرائض الله**»(٣) لأنها أعلام الإسلام، وشعائر الدين، ولأن تاركها يستحق الذم والمقت، فوجب إماطة التهمة بالإظهار، وإن كان تطوعا فحقه أن يخفى، لأنه مما لا يلام بتركه ولا تهمة فيه، فإن أظهره قاصدا الاقتداء به كان جميلا، وإنما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه الأعين فيثنى عليه بالصلاح، وعن بعضهم أنه رأى رجلا في المسجد قد سجد سجدة الشكر وأطالها فقال: ما أحسن هذا لو كان في بيتك؟ وإنما قال هذا لأنه توسم فيه الرياء والسمعة، على أن اجتناب

---

(١) سورة الماعون الآية: (٧).

(٢) هو: أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد جار الله الزمخشري كان إماما في التفسير والنحو واللغة والأدب، واسع العلم كبير الفضل متفننا في علوم شتى، معتزليّ المذهب متجاهرا بذلك، له مؤلفات كثيرة من أشهرها، الكشاف في التفسير، والفائق في غريب الحديث، وأساس البلاغة في اللغة، وغيرها، توفي سنة (٥٣٨هـ) انظر: معجم الأدباء للحموي(٦/٢٦٨٧)، ووفيات الأعيان لابن خلكان(٥/١٦٨).

(٣) لم أجده بهذا اللفظ، لكن الطبراني في الكبير أخرجه بلفظ: (ولا وِرَاطَ في الإسلام)، (١٥/٤٢٥)، والمعنى متقارب في اللغة، فقوله: (فلا وراط) أي أنْ تُجْعَل الغَنَمُ في هُوَّة من الأرض لتَخْفَى على المِصَدِّق، النهاية في غريب الحديث والأثر(٥/٣٨٤)، وحكم عليه الزيلعي بالغرابة في تخريج أحاديث تفسير الكشاف للزمخشري(١/٩٢)، وقال أبو حيان في تفسير الحديث في البحر المحيط(٦/٨٩): أي لا تستر ولكن يجاهر بها.

الرياء صعب إلا على المرتاضين بالإخلاص، ومن ثم قال رسول الله ﷺ: «**الرياء أخفى من ديب النملة السوداء في الليلة الظلماء على المسح الأسود**»[(١)]؛ المسح: كساء خشن من صوف يلبسه الزهاد. . .

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ﴾؛ أي إنهم يفعلون أفعالا ظاهرة بقدر ما يرى الناس، دون أن تستشعر قلوبهم بها، أو تصل إلى معرفة حكمها وأسرارها"[(٢)].

وتكلم رحمه الله عند أمر الله بإكمال الحج والعمرة، ويشمل ذلك الأعمال الباطنة "بالإخلاص لله تعالى دون قصد الكسب والتجارة، أو الرياء والسمعة، والتجارة لا تنافي الإخلاص إذا لم تقصد لذاتها، بدليل قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ﴾[(٣)]، والرياء والسمعة إذا كانا هما الباعث على الحج، فالحج ذنب للمرائي لا طاعة، وهكذا حكم من يحج ليقال له: (الحاج فلان) أو ليحتفل بقدومه، أو يقترض بالربا، أو يرتكب أكبر ضروب المنكر ليحج، أو لا تخطر على باله مناسك الحج وأركانه، وإنما يقصد زيارة النبي ﷺ ولا يعرف من الحج إلا هذه الزيارة.

وقد كان الحج معروفا في الجاهلية من عهد إبراهيم وإسماعيل، وأقرَّه الإسلام بعد أن أزال ما فيه من ضروب الشرك والمنكرات، وزاد فيه مناسك وعبادات"[(٤)].

وتكلم على الآيات المحذرة من إنفاق المال بالمن والأذى، أو طلب الرياء والسمعة، فقرر عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[(٥)]

فقال: "﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾: أي مراءاة لهم لأجل أن يروه فيحمدوه، ولا يقصد ابتغاء رضوان الله بتحري ما حث عليه من رحمة عباده الضعفاء والمعوزين، وترقية شأن الأمة بالقيام بما يصلح شؤنها. . . ونحو ذلك ما يقال: إن صلاة المرائي باطلة، على معنى أن الغرض منها وهو توجه

(١) الكشاف(٤/٨٠٥).

(٢) تفسير المراغي(١٠/٤٩٩).

(٣) سورة البقرة الآية: (١٩٨).

(٤) تفسير المراغي(١/١٦٧).

(٥) سورة البقرة الآية: (٢٦٤).

القلب إلى الله واستشعار سلطانه والإذعان لعظمته والشكر لإحسانه لم يحصل، لأن قلب المرائي إنما يتوجه إلى من يرائيه لا إلى ذي العظمة والجبروت، والملك والملكوت...

والخلاصة: إن كلا من المرائي وذي المن والأذى أتى بعمل غير مقبول ولا صحيح بل هو باطل ومردود عليه. . . والوجه المشترك بينهما، أن الناس يرون أن لهؤلاء المرائين أعمالا كما يرى التراب على الصفوان، فإذا جاء يوم القيامة وصاروا إلى الله اضمحل ذلك كله وذهب، لأنه لم يكن لله، كما يذهب الوابل من المطر ما كان على الصفوان، فيتركه أملس لا شيء عليه. . . وأما في الآخرة فلأن المنَّ والأذى كالرياء مناف للإخلاص، ولا أجر عند الله إلا للمخلصين في أعمالهم الذين يتحرَّون تزكية نفوسهم وإصلاح أحوالهم...

وفي هذا تعريض بأن كلا من الرياء والمنِّ والأذى من صفات الكافرين التي ينبغي للمؤمنين أن يتجنبوها...

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1]، فهو يجازي كلًّا من المخلص والمرائي بما هو أعلم به، وفي ذلك تحذير من الرياء الذي يظن صاحبه أنه يغشُّ الناس بإظهاره خلاف ما يضمر.

فعليك أيها المنفق أن تخلص لربك الذي لا يخفى عليه ما تنطوي عليه سريرتك"[2].

وتطرق رحمه الله إلى مسائل في باب الرياء عند قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾[3] الرئاء والرياء والمراءاة سواء، أي: إن مانعي الإحسان من أهل الفخر والخيلاء فريقان: فريق يبخلون ويكتمون فضل الله عليهم، وفريق يبذل المال لا شكرا لله على نعمه ولا اعترافا لعباده بحق، بل ينفقونها مرائين الناس: أي يقصدون أن يروهم فيعظموا قدرهم ويحمدوا فعلهم.

﴿وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾[4]؛ أي إن المؤمنين المرائين في إنفاقهم يثقون بما عند الناس من المدح والثناء والتعظيم والإطراء، ولا يثقون بما أعد الله لعباده من الثواب والجزاء، ويفضلون التقرب إليهم على التقرب إليه، فالله في نظرهم أهون من الناس، فمثل هؤلاء لا

---

(١) سورة البقرة الآية: (٢٦٥).

(٢) تفسير المراغي(١/ ٣٩٦-٤٠٣).

(٣) سورة النساء الآية: (٣٨).

(٤) سورة النساء الآية: (٣٨).

يعدُّون مؤمنين إيمانا حقيقيا بالله ولا باليوم الآخر، بل إيمانهم ضرب من التخيل ليس له ما يؤيده من أثر في القلب ولا إذعان للنفس، فهم لا يعرفون الله، وإنما يسمعون الناس يقولون قولا فيقلدونهم فيما يحفظونه منهم، فهم لا يعرفون أنه موجد الكائنات النافذ علمه وقدرته فيما في الأرض والسموات، ولو كانوا مؤمنين باليوم الآخر وأن هناك حياة أبدية لما فضلوا عليها عرض هذه الحياة القصيرة.

ومن أمارات التفرقة بين المخلص والمرائي، أن الأول قلما يتذكر عمله أو يذكره إلا لمصلحة كترغيب بعض الناس في البذل، كأن يقول إني على ما بي من فقر قد أعطيت كذا درهما في مصلحة كذا فاللائق بمثلك أن يبذل كذا وكذا درهما"(١).

وأوضح رحمه الله فوائد الإسرار بدعاء، وأن ذلك أقرب إلى الاخلاص، وأبعد عن الرياء والسمعة، فقال بعد قوله تبارك وتعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾(٢)، قال: "أي ادعوا ربكم ومتولي أموركم حال كونكم متضرعين مبتهلين إليه مخفين دعاءكم.

وفى هذا إيماء إلى أن الدعاء في الخفية إن لم يكن واجبا فهو مندوب على الأقل، ويدل على ذلك وجوه:

(١) إنه تعالى أثنى على زكريا فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾(٣)؛ أي إنه أخفاه عن العباد وأخلصه لله وانقطع به إليه.

(٢) روى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال رسول الله ﷺ: «**أيها الناس أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا، إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم**» رواه مسلم(٤).

---

(١) تفسير المراغي: (٢/٢١٦-٢١٧).

(٢) سورة الأعراف الآية: (٥٥).

(٣) سورة مريم الآية: (٣).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير، (١٦/١٦١)، رقم الحديث(٢٩٩٢)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، (٨/٧٣)، رقم الحديث(٢٧٠٤).

(٣) روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**دعوة في السر تعدل سبعين دعوة في العلانية**»[١]، وقال: «**خير الذكر الخفي، وخير الرزق ما يكفي**»[٢].

(٤) روي عن الحسن البصري أنه قال: "إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزَّور وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقواما ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعلموه في السر فيكون علانية أبدا، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾[٣]"[٤].

(٥) إن النفس شديدة الرغبة في الرياء والسمعة، فإذا رفع المرء صوته بالدعاء امتزج الرياء به، فلا يبقى فيه فائدة البتة، ومن ثم كان الأولى الإخفاء ليبقى مصونا عن الرياء"[٥].

وقال المراغي رحمه الله: "العمل لا يُتقبَّل إلا إذا صاحبه أمران:

(١) أن يكون خالصا لوجهه تعالى.

(٢) وأن يكون مبرأ من الشرك الخفي والجلي.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف عن الحسن(٤٤٢/١٠) بإسناد منقطع، وأخرجه أحمد في الزهد(٢٥٢/١) رقم الحديث(١٨٠٣)، ومن طريقه أبو نعيم في الحلية(٢٦١/٢) بإسناد صحيح عن عقبة بن عبد الغافر، وأخرجه الديلمي في مسند الفردوس(٢١٤/٢)، وقال الألباني في السلسلة الضعيفة(٩٢/٨) رقم الحديث(٣٥٩٨): "**ضعيف جدا**، أخرجه الديلمي عن أبي الشيخ معلقا، عن أبان، عن الحسن، عن بعض الصحابة مرفوعا، قلت: وهذا إسناد ضعيف جدا؛ أبان هو ابن أبي عياش؛ متروك".

(٢) أخرجه أحمد في مسنده(٧٦/٣)، رقم الحديث(١٤٧٧)، وابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الزهد، باب ما ذكر عن نبينا محمد ﷺ من الزهد (٨٤/٧)، رقم الحديث(٣٤٣٧٧)، وابن حبان في صحيحه (٩١/٣)، كتاب الرقائق، باب الأذكار، رقم الحديث(٨٠٩)، قال العجلوني في كشف الخفاء(٤٤٩/١): "قال النووي في فتاواه: ليس بثابت"، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير(٤٢٤/١) رقم الحديث(٢٨٨٧).

(٣) سورة الأعراف الآية: (٥٥).

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره(٤٨٥/١٢).

(٥) تفسير المراغي(٣٢١/٣-٣٢٢).

روى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: «**من سمَّع سمَّع الله به، ومن يرائي يرائي الله به**»[(١)]؛ أي من عمل عملا مراءاة للناس، وليشتهر به شهَّره الله يوم القيامة، وروى مسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله تبارك وتعالى يقول: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى تركته وشركه**»[(٢)]...

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[(٣)]؛ أي قل لهم أيها الرسول: إنما أنا بشر مثل ما أنتم كذلك، ولا أدَّعي الإحاطة بكلمات الله جلَّت قدرته، ولا علم لي إلا ما علمني ربي، وأن الله أوحى إلي أن معبودكم الذي يجب أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا هو معبود واحد لا ثاني له ولا شريك.

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[(٤)]؛ أي فمن كان يطمع في ثواب الله على طاعته فليخلص له العبادة، وليفرد له الربوبية، ولا يشرك به سواه، لا إشراكا جليًّا كما فعل الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه، ولا إشراكا خفيًّا كما فعل أهل الرياء ممن يطلب بعمله الدنيا، وهذا هو الشرك الأصغر كما صح في الحديث، وروي مستفيضا في الأخبار من أن كل عمل أريد به الدنيا لا يقبل، فقد أخرج أحمد ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة عن النبي ﷺ يرويه عن ربه قال: «**أنا خير الشركاء، فمن عمل عملا أشرك فيه غيري فأنا بريء منه وهو للذي أشرك**»[(٥)] نسأل المولى القدير أن يجعل عملنا خالصا لوجهه، لا يراد به رضا أحد من خلقه"[(٦)].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب الرياء والسمعة، (٣٣٤/١٦)، رقم الحديث(٦٤٩٩)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، (٢٢٣/٨)، رقم الحديث(٢٩٨٦).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، (٢٢٣/٨)، رقم الحديث(٢٩٨٥).

(٣) سورة الكهف الآية: (١١٠).

(٤) سورة الكهف الآية: (١١٠).

(٥) أخرجه أحمد في المسند(٣٧٧/١٣) الحديث رقم(٧٩٩٩)، وأخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، (٢٢٣/٨)، رقم الحديث(٢٩٨٥) بلفظ «... تركته وشركه».

(٦) تفسير المراغي(٢١/٦-٢٥).

وتكلم رحمه الله على الإخلاص فقال: إن الله "أمر رسوله بعبادته والإخلاص له فقال: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾(١)؛ أي فاعبده تعالى ممحّضًا له العبادة من شوائب الشرك والرياء بحسب ما أنزل في تضاعيف كتابه، على لسان أنبيائه من تخصيصه وحده بالعبادة، وأنه لا ندَّ له ولا شريك.

ثم أكَّد هذا الأمر بقوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾(٢)؛ أي ألا لله العبادة والطاعة وحده لا شركة لأحد معه فيها، لأن كل ما دونه ملكه، وعلى المملوك طاعة مالكه، وفي حديث الحسن عن أبي هريرة: أن رجلا قال: يا رسول الله إني أتصدق بالشيء وأصنع الشيء أريد به وجه الله وثناء الناس، فقال رسول الله ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده، لا يقبل الله شيئا شورك فيه، ثم تلا:** ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾(٣)»(٤).

التعليق: السلف المتقدمون والمتأخرون يعقدون أبوابا في التحذير من الرياء والأمر بالإخلاص، ومن ذلك قول البخاري في صحيحه: باب الرياء والسمعة، ومسلم في صحيحه: باب تحريم الرياء، وفي كتاب التوحيد لمحمد بن عبدالوهاب: باب ما جاء في الرياء.

---

(١) سورة الزُّمَر الآية: (٢).

(٢) سورة الزُّمَر الآية: (٣).

(٣) أورده مكي بن أبي طالب القيسي في الهداية إلى بلوغ النهاية(١٠/٦٢٩٦).

(٤) تفسير المراغي(٨/٢٤٠-٢٤١).

المطلب السابع: التوكل المشروع والممنوع:

تكلم المراغي رحمه الله عن التوكل عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾(١)، فعرّف التوكل بقوله: "والتوكل: إظهار العجز والاعتماد على غيرك والاكتفاء به في فعل ما تحتاج إليه. . .

وفى الآية إرشاد للمكلفين، وترغيب لهم في التوكل على الله، والرجوع إليه، والإعراض عن كل ما سواه.

قال الرازي: "دلت الآية على أنه ليس التوكل أن يهمل الإنسان نفسه كما يقول بعض الجهال، وإلا كان الأمر بالمشاورة منافيا للأمر بالتوكل، بل التوكل عليه أن يراعي الإنسان الأسباب الظاهرة، ولكن لا يعوّل بقلبه عليها، بل يعول على عصمة الحكمة"(٢).

فالتوكل الصحيح إنما يكون مع الأخذ بالأسباب، وبدونها يكون دعوى التوكل جهلا بالشرع وفسادا في العقل، قال تعالى: ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾(٦)، وقال لنبيه لوط: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾(٧)، وقال لموسى عليه السلام: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا﴾(٨)، وقال حكاية عن نبيه يعقوب لابنه يوسف: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾(٩)، وقال أيضا حاكيا عنه: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ

---

(١) سورة آل عمران الآية: (١٥٩).

(٢) مفاتيح الغيب، لفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٤٢٠هـ، (٩/٤١٠).

(٣) سورة الملك الآية: (١٥).

(٤) سورة النساء الآية: (٧١).

(٥) سورة الأنفال الآية: (٦٠).

(٦) سورة البقرة الآية: (١٩٧).

(٧) سورة هود الآية: (٨١).

(٨) سورة الدخان الآية: (٢٣).

(٩) سورة يوسف الآية: (٥).

﴿وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾[(١)]، ففي هذا أمر بالحذر مع التنبيه إلى أنه متوكل على الله، ولا تنافي بينهما ولا غنى للمؤمن عنهما.

روى الشيخان (البخاري ومسلم) عن ابن عباس مرفوعا: «**يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب، الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون**»[(٢)]، وقد قرن التوكل بترك الأعمال الوهمية دون غيرها، إذ لم ينف من الأعمال إلا الاستشفاء بالرُّقية، وهي إنما يطلبها الجاهلون بالأسباب الحقيقية[(٣)]، وإلا التطير وهو التيمن والتشاؤم بحركات الطير، وإلا الكي بالنار وكانوا يتداوون به في الجاهلية، وكان النبي ﷺ يكرهه لأمته، ويعده من الأسباب المؤلمة التي تنافي التوكل، وقد روى أحمد: «**لم يتوكل من استرقى أو اكتوى**»[(٤)].

وروى أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه: «**لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصا وتروح بطانا**»[(٥)]، وهو ظاهر في أن التوكل يكون مع السعي، لأنه ذكر للطير عملا وهو الذهاب صباحا في طلب الرزق وهي فارغة البطن، والرجوع وهي ممتلئتها.

---

(١) سورة يوسف الآية: (٦٧).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب {ومن يتوكل على الله فهو حسبه}، (٣٣٧/١٤)، رقم الحديث(٦٤٧٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، (٢٧١/١)، رقم الحديث(٢١٨).

(٣) الرقية يقسمها أهل العلم إلى قسمين: مشروعة ممنوعة، ينظر في أصل ذلك إلى أحكام الرقى والتمائم د.فهد السحيمي.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الطب، باب ما جاء في كراهية الرقية(٣٩٣/٤)، رقم الحديث(٢٠٥٥)، وأحمد في مسنده(١٤٠/٣٠) والحاكم في المستدرك، كتاب الرقى والتمائم(٤٦١/٤)، رقم الحديث(٨٢٧٩)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في التلخيص، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة(٤٨٩/١) رقم الحديث(٢٤٤).

(٥) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب في التوكل على الله، (٥٧٣/٤)، رقم الحديث(٢٣٤٤)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب التوكل واليقين، (١٣٩٤/٢)، رقم الحديث(٤١٦٤)، وأحمد في مسنده(٤٣٨/١)، رقم الحديث(٣٧٠)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في تعليقه على الترمذي، ولم أجده في النسائي.

وأخرج ابن حبان في صحيحه: حديث الرجل الذي جاء النبي ﷺ وأراد أن يترك ناقته وقال: أأعقلها وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ فقال النبي ﷺ: «**اعقلها وتوكل**»[(١)].

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: قلت لأبي: هؤلاء المتوكلون يقولون: نقعد وأرزاقنا على الله ﷻ، قال: ذا قول رديء خبيث، يقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾[(٢)(٣)].

وقال أيضا: سألت أبي عن قوم يقولون: نتكل على الله ولا نكتسب، قال: ينبغي للناس كلهم أن يتوكلوا على الله ولكن يعوّدون أنفسهم الكسب، هذا قول إنسان أحمق[(٤)].

وسر هذا أن الإنسان إذا توكل ولم يستعدَّ للأمر ويأخذ له الأهبة بحسب ما سنَّه الله من الأسباب، أسف وندم وتحسر على ما فات، وعُدَّ ملومًا عقلًا وشرعًا، كما أنه إذا أخذ الأهبة واعتمد عليها، وغفل قلبه عن الله كان عرضة للهلع والجزع إذا خاب سعيه ولم ينل بغيته، وربما وقع في اليأس الذي لا مطمع معه في فلاح ولا نجاح"[(٥)].

ولما ذكر الله ﷻ قصة نبي الله شعيب عليه السلام ختمها بقول شعيب: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾[(٦)]، قال المراغي معلقا على ذلك: "أي إلى الله وحده وكلنا أمورنا مع قيامنا بكل ما أوجبه علينا من الحفاظ على شرعه ودينه، فهو الذي يكفينا تهديدكم وما ليس في استطاعتنا من جهادكم، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾[(٧)]، إذ من شروط التوكل الصحيح القيام بالأحكام الشرعية ومراعاة السنن الكونية والاجتماعية، فمن يترك العمل بالأسباب فهو الجاهل المغرور لا المتوكل المأجور، كيف وقد قال النبي ﷺ لمن سأله أيترك ناقته سائبة ويتوكل على الله؟ «**اعقلها**

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، (٤/٦٦٨)، رقم الحديث(٢٥١٧)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب الورع والتوكل(٢/٥١٠)، رقم الحديث(٧٣١)، وصححه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء(٥/٢٣١٦)، وقال شعيب الأرنؤوط: حديث حسن. وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير(١/٢٤٢) رقم الحديث(١٠٦٨).

(٢) سورة الجمعة الآية: (٩).

(٣) أخرجه أبو بكر الخلال في الحث على التجارة(١/١٠٧).

(٤) أخرجه أبو بكر الخلال في الحث على التجارة(١/١١٠).

(٥) تفسير المراغي(٢/ ٩٢-٩٧).

(٦) سورة الأعراف الآية: (٨٩).

(٧) سورة الطلاق الآية: (٣).

وتوكل» رواه الترمذي[١]، وقال تعالى مخاطبا رسوله بعد أن أمره بمشورة أصحابه في غزوة أحد: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾[٢] وإنما يكون العزم بعد الأخذ بالأسباب فقد لبس من يومئذ درعين[٣]، وأعدَّ العدة لقتال أعدائه، ورتب الجيوش بحسب القوانين المعروفة في ذلك العصر"[٤].

وقال رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٥]: "أي إنهم يتوكلون على ربهم وحده ولا يفوضون أمرهم إلى سواه، فمن كان موقنا بأن الله هو المدبر لأموره وأمور العالم كله، لا يمكن أن يكل شيئا منها إلى غيره.

وإذا كان الشرع والعقل حاكمين بأن للإنسان كسبا اختياريا كلفه الله العمل به وأنه يجازى على عمله إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وجب على الإنسان أن يسعى في تدبير أمور نفسه بحسب ما وضعه الله في نظام الأسباب وارتباطها بالمسببات، وأن هذا الارتباط لم يكن إلا بتسخير الله تعالى، وأن ما يناله باستعمالها فهو فضل من الله الذي سخرها وجعلها أسبابا وعلَّمه ذلك، وأن ما لا يعرف له سبب يطلب به، فالمؤمن يتوكل على الله وحده وإليه يتوجه فيما يطلبه منه.

أما ترك الأسباب وتنكب سنن الله في الخلق فهو جهل بالله وجهل بدينه وجهل بسننه التي لا تتبدل ولا تتحول"[٦].

وعلق رحمه الله على قول يعقوب عليه السلام في التوكل فقال: "وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾[٧]؛ أي عليه دون غيره، ودون حولي وقوتي، اعتمدت في كل ما آتي وأذر.

---

(١) سبق تخريجه ص(٣١٠).

(٢) سورة آل عمران الآية: (١٥٩).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في لبس الدروع (٣/٣١)، رقم الحديث(٢٥٩٠) بلفظ: «ظهر يوم أحد بين درعين أو لبس درعين»، وابن ماجه في سننه، كتاب الجهاد، باب السلاح، (٢/٩٣٨)، رقم الحديث(٢٨٠٦)، وأحمد في مسنده(٢٤/٤٤٩)، رقم الحديث(١٥٧٢٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود الأم (٧/٣٣٩)، رقم الحديث(٢٣٣٢).

(٤) تفسير المراغي(٣/٣٥٤).

(٥) سورة الأنفال الآية: (٢).

(٦) تفسير المراغي(٣/٤٨٤).

(٧) سورة يوسف الآية: (٦٧).

وفي هذا إيماء إلى أنَّ الأخذ بالأسباب ومراعاة اتباعها لا ينافي التوكل، وقد جاء في الخبر: «**اعقلها وتوكل**»[(١)].

﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[(٢)] لا على أمثالهم من المخلوقين ولا على أنفسهم، فعلى كل مؤمن أن يتخذ لكل أمر يقدم على عمله العدَّة، ويهيئ من الأسباب ما يوصل إليه على قدر طاقته، ثم بعد ذلك يكل أمر النجاح فيه إلى الله، ويطلب منه التوفيق والمعونة في إنجازه، فقد يكون من الأسباب ما يخفى عليه أو ما لا تصل إليه يده"[(٣)].

وتكلم رحمه الله على التوكل عند قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾[(٤)]: "أي وتوكل على ربك الدائم الباقي رب كل شيء ومليكه، واجعله ملجأك وذخرك، وفوِّض إليه أمرك، واستسلم له، واصبر على ما نابك فيه، فإنه كافيك وناصرك ومبلغك ما تريد، ونزِّهْهُ عما يقوله هؤلاء المشركون من الصاحبة والولد، فهو الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد، كما تنزهه عن الأنداد والشركاء من الأصنام والأوثان فهو لا كفء له ولا ند: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[(٥)].

وقد علمت قبل أن التوكل اعتماد العبد على الله في كل الأمور، والأسباب وسائط أمرنا باتباعها من غير اعتماد عليها، ونحو الآية قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[(٦)].

وفي قوله: ﴿ٱلْحَيِّ﴾ إيماء إلى أنه لا ينبغي أن يتوكل على من لم يتصف بالحياة من صنم أو وثن، ولا على من لا بقاء له ممن يموت، لأنه إذا مات ضاع من توكل عليه.

وحكي عن بعض السلف أنه قرأ هذه الآية فقال: لا ينبغي لذى لُبٍّ أن يثق بعدها بمخلوق. . .

---

(١) سبق تخريجه ص(٣١٠).

(٢) سورة يوسف الآية: (٦٧).

(٣) تفسير المراغي(١٤/٥).

(٤) سورة الفرقان الآية: (٥٨).

(٥) سورة الإخلاص الآية: (٤).

(٦) سورة المائدة الآية: (٦٧).

ثم وصف نفسه بذكر أفعاله التي تجعله حقيقا أن يُتوكَّل عليه فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[١]. . . ولكن يلاحظ هنا أنه تعالى وصف نفسه بالأبدية والعلم الشامل، ثم بخلق السموات والأرض ليقرر وجوب التوكل عليه ويؤكده، فإن من أحدَثَ هذه الأجرام العظيمة على ذلك النمط البديع، وجعلها مرفوعة بغير عمد في تلك الأيام، وقد كان قديرا على إبداعها دفعة واحدة بقدرته التي لا تقف على كنهها العقول، جدير بأن يُتوكَّل عليه ويفوَّض أمره إليه. . .

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[٢]؛ أي عظيم الرحمة بكم، والحدب عليكم، فلا تعبدوا إلا إياه ولا تتوكلوا إلا عليه.

وخلاصة ذلك: توكلوا على من لا يموت، وهو رب كل شيء وخالقه، وخالق السموات السبع على ارتفاعها واتساعها وما فيها من عوالم لا يعلم كنهها إلا هو، وخالق الأرضين السبع على ذلك الوضع البديع في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ويقضي بالحق"[٣].

وقال رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[٤]: "أي عليه لا على غيره يعتمد العاملون.

وفي الحديث: «**من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله ﷻ أوثق منه بما في يديه، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله ﷻ**»[٥].

ورُوي عن ابن عباس أنه قال: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله.**

---

(١) سورة الفرقان الآية: (٥٩).

(٢) سورة الفرقان الآية: (٥٩).

(٣) تفسير المراغي(٧/٢٥-٢٦).

(٤) سورة الزُّمَر الآية: (٣٨).

(٥) أخرجه عبد بن حميد في مسنده(١/٢٢٥) رقم الحديث(٦٧٥)، وأبو عبيد في الخطب والمواعظ(١/١٩١)، رقم الحديث(١٢٣)، الحاكم في المستدرك، كتاب الأدب(٤/٣٠٠)، رقم الحديث(٧٧٠٧)، وأبو نعيم الأصفهاني في الحلية الأولياء(٣/٢١٨)، وقال العقيلي في الضعفاء(٤/٣٤٠): وليس لهذا الحديث طريق يثبت، وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة(١١/٧٠١) رقم الحديث(٥٤٢١): ضعيف جدا.

واعلم أن الناس لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، رفعت الأقلام وجفّت الصحف، واعمل لله بالشكر في اليقين. واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا»(١).

ونحو الآية قول هود عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾(٢)، حين قال له قومه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖ﴾(٣)"(٤).

وقال رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾(٥): "أي ومن يكل أمره إلى الله ويفوض إليه الخلاص منه، كفاه ما أهمه في دنياه ودينه، والمراد بذلك أن العبد يأخذ في الأسباب التي جعلها الله من سننه في هذه الحياة، ويؤديها على أمثل الطرق، ثم يكل أمره إلى الله فيما لا يعلمه من أسباب لا يستطيع الوصول إلى علمها، وليس المراد أن يلقي الأمور على عواهنها، ويترك السعي والعمل ويفوض الأمر إلى الله، فما بهذا أمر الدين بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾(٦)، وقوله ﷺ: «**اعقلها وتوكل**»(٧)، إلى نحو ذلك مما هو مستفيض في الكتاب والسنة.

ورُوي عن ابن عباس: أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يوما فقال له رسول الله ﷺ: «**يا غلام إني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك، لم**

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، (٦٦٧/٤) رقم الحديث(٢٥١٦)، وأحمد في= =مسنده(١٩/٥) رقم الحديث(٢٨٠٣)، والطبراني في الكبير(١٢٣/١١)، والبيهقي في شعب الإيمان(٣٥٣/١٢)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وحسنه السخاوي في المقاصد الحسنة(٢٥٧/١)، وصححه الألباني في تعليقه على سنن الترمذي رقم(٢٥١٦).

(٢) سورة هود الآية: (٥٦).

(٣) سورة هود الآية: (٥٦).

(٤) تفسير المراغي(٢٦٤/٨).

(٥) سورة الطلاق الآية: (٣).

(٦) سورة الأنفال الآية: (٦٠).

(٧) سبق تخريجه ص(٣١٠).

ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك، لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف»(١).

ثم ذكر السبب في وجوب التوكل عليه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾(٢): "أي إن الله تعالى منفذ أحكامه في خلقه بما يشاء، وقد جعل لكل شيء مقدارا ووقتا، فلا تحزن أيها المؤمن إذا فاتك شيء مما كنت تؤمل وترجو، فالأمور مرهونة بأوقاتها، ومقدرة بمقادير خاصة كما قال: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾(٣)"(٤).

وقال رحمه الله بعد قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾(٥): "وكلوا مما أوجده لكم فيها بفضله من واسع الأرزاق، والسعي في الأرزاق لا ينافي التوكل على الله.

روى أحمد عن عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير؛ تغدو خماصا، وتروح بطانا**»(٦) فأثبت لها غُدُوًّا ورواحا لطلب الرزق مع توكلها على الله ﷻ، وهو المسخِّر الميسِّرُ المسبِّب.

وأخرج الحكيم الترمذي عن معاوية بن قرَّة(٧) قال: "مرَّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه بقوم فقال: من أنتم؟ فقالوا: المتوكلون، قال: بل أنتم المتأكلون، إنما المتوكل رجل ألقى حبة في بطن الأرض، وتوكل على الله ﷻ"(٨).

---

(١) سبق تخريجه ص(٣١٤).

(٢) سورة الطلاق الآية: (٣).

(٣) سورة الرعد الآية: (٨).

(٤) تفسير المراغي: (١٠/١١٩-١٢٠).

(٥) سورة الملك الآية: (١٥).

(٦) سبق تخريجه ص(٣١٠).

(٧) هو: أبو إياس معاوية بن قرة بن إياس بن هلال بن رئاب المزني البصري، قال الذهبي: "الإمام العالم الثبت"، روى عن أبيه وأنس وغيرهما من الصحابة، مات سنة ثلاث عشرة ومائة وهو ابن ست وسبعين سنة، انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد(٧/٢٢١)، وسير أعلام النبلاء(٥/١٥٣).

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في التوكل على الله(١/٥٠)، والبيهقي في شعب الإيمان(٢/٤٢٩)، وذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول(١/٤٠٥)، والدينوري في المجالسة وجواهر العلم(٧/١٣٢)، رقم الحديث(٣٠٢٧)، وقال محققه مشهور آل سلمان: إسناده منقطع.

وجاء في الأثر: «**إن الله يحب العبد المؤمن المحترف**»[(١)"(٢)].

وذكر المراغي رحمه الله التطيُّر وهو مما ينافي التوكل على الله فقال: "ويطيروا يتشاءموا، وسر إطلاق التطير على التشاؤم؛ أن العرب كانت تتوقع الخير والشر مما تراه من حركة الطير، فإذا طارت من جهة اليمين تيمنت بها ورجت الخير والبركة، وإذا طارت من جهة الشمال تشاءمت وتوقعت الشر، ويسمى الطائر الأول السانح، والثاني البارح، وسموا الشؤم طيرا وطائرا والتشاؤم تطيرا"[(٣)].

وقال: "﴿طَـٰٓئِرَهُۥ﴾[(٤)]: أي عمله، سمي به إما لأنه طار إليه من عشِّ الغيب، وإما لأنه سبب الخير والشر كما قالوا: طائر الله لا طائرك، أي قدر الله الغالب الذي يأتي بالخير والشر لا طائرك الذي تتشاءم به وتتيمن، إذ جرت عادتهم بأن يتفاءلوا بالطير ويسمونه زجرا، فإن مرَّ بهم من اليسار إلى اليمين تيمنوا به وسمَّوه سانحا، وإن مرَّ من اليمين إلى اليسار تشاءموا منه وسموه بارحا"[(٥)].

وقال رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾[(٦)]:

"﴿ٱطَّيَّرۡنَا﴾: أي تطايرنا وتشاءمنا بك، ﴿طَـٰٓئِرُكُمۡ﴾: أي ما يصيبكم من الخير والشر، وسمي طائرا لأنه لا شيء أسرع من نزول القضاء المحتوم.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال(٧١/١) رقم الحديث(٢٠٤)، والطبراني في الأوسط(٣٨٠/٨) رقم الحديث(٨٩٣٤)، والبيهقي في شعب الإيمان(٤٤١/٢) رقم الحديث(١١٨١)، وقال أبو حاتم في العلل(١٥٢/٥): "حديث منكر"، وقال البيهقي عقبه: "تفرد به أبو الربيع، عن عاصم وليسا بالقويين"، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير رقم الحديث(١٧٠٤).

(٢) تفسير المراغي(١٥٤/١٠).

(٣) تفسير المراغي(٣٨١/٣).

(٤) سورة الإسراء الآية: (١٣).

(٥) تفسير المراغي(٢٩٤/٥).

(٦) سورة النمل الآية: (٤٧).

﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾؛ أي قالوا: إنا تشاءمنا بك وبمن آمن معك، إذ زجرنا الطير فعلمنا أن سيصيبنا بك وبهم من المكاره ما لا قبل لنا به، ولم تزل في اختلاف وافتراق منذ اخترعتم دينكم، وأصابنا القحط والجدب بسببكم.

وسمي التشاؤم تطيرا من قبل أنه كان من دأبهم أنهم إذا خرجوا مسافرين فمرُّوا بطائر زجروه؛ أي رموه بحجر ونحوه، فإن مرَّ سانحا بأن مر من ميامن الشخص إلى مياسره تيمنوا به، وإن مر بارحا بأن مر من المياسر إلى الميامن تشاءموا منه.

﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي قال: إن ما يصيبكم من خير أو شر مكتوب عند الله، وهو بقضائه وقدره، وليس شيء منه بيد غيره، فهو إن شاء رزقكم، وإن شاء حرمكم، وسمي ذلك القضاء طائرا لسرعة نزوله بالإنسان، فلا شيء أسرع منه نزولا.

ثم أبان لهم سبب نزول ما ينزل من الشر بقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾؛ أي بل أنتم قوم يختبركم ربكم حين أرسلني إليكم، أتطيعونه فتعملوا بما أمركم به فيجزيكم الجزيل من ثوابه، أم تعصونه فتعملوا بخلافه فيحل بكم عقابه؟ "[1].

وروى الطبراني عن حارثة بن النعمان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث لازمات لأمتي: الطِّيرة والحسد وسوء الظن**». فقال رجل وما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال ﷺ: «**إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقِّق، وإذا تطيرت فامض**»[2]"[3].

أخرج الحاكم وصححه عن أبي حسان[4]: أن رجلين دخلا على عائشة رضي الله عنها فقالا: إن أبا هريرة يحدِّث أن النبي ﷺ كان يقول: إنما الطِّيرة في المرأة والدابة والدار، فقالت: والذي أنزل القرآن على أبي القاسم ﷺ ما هكذا كان يقول، كان يقول: «**كان أهل الجاهلية**

---

(١) تفسير المراغي(٧/١١٩-١٢١).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير(٣/٢٢٨) رقم الحديث(٣٢٢٧)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني(٤/١٧) رقم الحديث(١٩٦٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد(٧/٧٨): "فيه إسماعيل بن قيس الأنصاري وهو ضعيف"، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع رقم(٢٥٢٦).

(٣) تفسير المراغي(٩/٢٥١).

(٤) أبو حسان الأعرج الأحرد البصري مشهور بكنيته، واسمه مسلم بن عبدالله صدوق رمي برأي الخوارج، قتل سنة ثلاثين ومائة من الرابعة، انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد(٧/٢٢٢)، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم(٨/٢٠١).

يقولون: إنما الطيرة في المرأة والدابة والدار ثم قرأ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾[(١)]»[(٢)]"[(٣)].

(١) سورة الحديد الآية: (٢٢).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده(١٩٧/٤٣)، رقم الحديث(٢٦٠٨٨)، والحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، تفسير سورة الحديد(٥٢١/٢)، رقم الحديث(٣٧٨٨)، والبيهقي في الكبرى، كتاب القسامة، باب العيافة والطيرة والطرق(٢٤١/٨)، رقم الحديث(١٦٥٢٥)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في التلخيص، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد(١٠٤/٥): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة(٦٨٩/٢)، رقم الحديث(٩٩٣).

(٣) تفسير المراغي(٤٣٨/٩).

المطلب الثامن: الألفاظ المنهي عنها:

تكلم المراغي رحمه الله في تفسيره عن بعض الألفاظ المنهي عنها كلاما مختصرا في مسائل الاعتقاد، فأفردته في هذا المطلب ومن ذلك:

أولا: النهي عن قول عبدي وأمتي:

قال المراغي رحمه الله: "وعبر عن الإماء بالفتيات تكريما لهن وإرشادا لنا إلى ألا ننادي بالعبد والأمة، بل بلفظ الفتى والفتاة، وقد روى البخاري قوله ﷺ: «**لا يقولنَّ أحدكم عبدي أمتي، ولا يقل المملوك ربي، ليقل المالك فتاي وفتاتي، وليقل المملوك سيدى وسيدتي، فإنكم المملوكون، والرب هو الله ﷻ**»[(١)]"[(٢)].

قال عبد الرحمن بن حسن رحمه الله: " هذه الألفاظ المنهي عنها وإن كانت تطلق لغة، فالنبي صلي الله عليه وسلم نهى عنها تحقيقا للتوحيد وسدا لذرائع الشرك؛ لما فيها من التشريك في اللفظ؛ لأن الله هو رب العباد جميعهم، فإذا أطلق على غيره ما يطلق عليه تعالى وقع الشبه في اللفظ، فينبغي أن يجتنب هذا اللفظ في حق المخلوق من ذلك، فأرشدهم ﷺ إلى ما يقوم مقام هذا اللفظ وهو قوله: سيدي ومولاي، وكذلك قوله: «لا يقل أحدكم عبدي وأمتي»؛ لأن العبيد عبيد الله، والإماء إماء الله. قال تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم: ٩٣]"[(٣)].

ثانيا: الحلف بغير الله:

وقال عن الحلف بغير الله: "وهاهنا مسائل تتعلق بالأيمان يجمل بك أن تعرفها تكملة لدينك:

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ أبو داود، كتاب الأدب، باب لا يقول المملوك ربي وأمتي، (٧١٢/٢)، رقم الحديث(٤٩٧٥)، وأصله في البخاري، كتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق، (٩٠١/٢)، رقم الحديث(٢٥٥٢)، ومسلم، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب حكم إطلاق لعبد العبد والأمة، (٤٧/٧)، رقم الحديث(٢٢٤٩).

(٢) تفسير المراغي(١٩١/٢).

(٣) قرة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين ص(٤٢٨).

١ – لا يجوز الحلف بغير الله تعالى وأسمائه وصفاته قال ﷺ: «**من كان حالفا فلا يحلف إلا بالله**» رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر[١]، ورَوَيَا أيضا عنه أن النبي ﷺ سمع عمر وهو يحلف بأبيه فقال: «**إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت**»[٢]، وروى البخاري عن ابن عمر قال: «**كان أكثر ما يحلف به النبي ﷺ لا ومقلِّب القلوب**»[٣].

والمحرّم أن يحلف بغير الله حلفا يلتزم به ما حلف عليه، والبر به فعلا أو تركا، لأن الشارع جعل هذا خاصا بالحلف بالله وأسمائه وصفاته، أما ما يجيء لتأكيد الكلام ويجري على ألسنة الناس دون قصد لليمين فلا يدخل في باب النهي، نحو قوله ﷺ للأعرابي: «**أفلح وأبيه إن صدق**»[٤].

ويدخل في النهي الحلف بالنبي والكعبة وسائر ما هو معظم شرعا تعظيما يليق به، ولقد كان غلوُّ الناس في تعظيم أنبيائهم والصالحين منهم سببا في هدم الدين واستبدال الوثنية به...

(٢) ما ليس من أيمان المسلمين كالحلف بالمخلوقات نحو الكعبة والملائكة والمشايخ والملوك والآباء وتربتهم، وهذه يمين غير منعقدة، ولا كفارة فيها، بل هي منهي عنها نهي تحريم لما تقدم من الأحاديث"[٥].

قال في تيسير العزيز الحميد معلقا على حديث «أفلح وأبيه إن صدق» ذكر أن للعلماء عن ذلك أجوبة:

١- أن هذه الرواية غير محفوظة.

٢- أن ذلك يجري على ألسنتهم من غير قصد للقسم به.

٣- أنه قصد به التأكيد لا التعظيم.

٤- أن ذلك كان في أول الأمر ثم نسخ. ورجح هذا القول" انتهى مختصرا[١].

---

(١) سبق تخريجه ص(٢٦٠).

(٢) سبق تخريجه ص(٢٦١).

(٣) صحيح البخاري، كتاب القدر، باب {يحول بين المرء وقلبه}، (٤٠١/١٨)، رقم الحديث(٦٦١٧).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب الزكاة من الإسلام، (٣٨٦/١٧)، رقم الحديث(٤٦)، ومسلم واللفظ له، كتاب الإيمان، باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام، (٤٠/١)، رقم الحديث(١١).

(٥) تفسير المراغي(١٤/٣).

وأوضح رحمه الله قَسَم الله ببعض المخلوقات فقال: "لو تدبرنا أمر القسَمِ ببعض المخلوقات في الكتاب الكريم لوجدناه يرجع إلى أحد أمرين:

(١) أن تكون هذه المخلوقات قد عظمت في أعين بعض الناس، وقوي سلطانها في نفوسهم، حتى عبدوها واتخذوها آلهة من دون الله كالشمس والقمر في نحو قوله: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾[٢]، وقد ذكر سبحانه بجانب ذلك بعض صفاتها الدالة على أنها مخلوقة له كتغيرها من حال إلى حال، وما يطرأ عليها من الأفول والزوال، مما لا يكون من شأن الآلهة المستحقة للعبادة.

(٢) أن تكون مما احتقره الناس لغفلتهم عن فائدته، وذهولهم عن موضع العبرة فيه، ولو أنهم تدبروا فيما هو عليه من جليل الصنعة، وبديع الحكمة لاهتدوا إلى معرفة خالقة، ونعتوه بما هو أهل له من صفات الجلال والكمال، فأقسم سبحانه على التوحيد في قوله: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾[٣]"[٤].

المراغي رحمه الله ذكر بعض الحكم من قسم الله ببعض مخلوقاته، وأزيد الأمر وضوحا ببعض كلام أهل العلم على القسم.

قال القرطبي رحمه الله: " لله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته من حيوان وجماد، وإن لم يعلم وجه الحكمة في ذلك"[٥].

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: "هذا من فعل الله، والله لا يسأل عما يفعل، وله أن يقسم سبحانه بما شاء من خلقه، وهو سائل غير مسئول، وحاكم غير محكوم عليه"[٦].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: "إن الله يقسم بما يقسم به من مخلوقاته لأنها آياته ومخلوقاته. فهي دليل على ربوبيته وألوهيته ووحدانيته وعلمه وقدرته ومشيئته ورحمته وحكمته وعظمته

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص(٥٢٦-٥٢٧).

(٢) سورة الشمس الآية: (٢).

(٣) سورة الصافات الآية: (٤).

(٤) تفسير المراغي(١٠/٣١٥-٣١٦).

(٥) تفسير القرطبي(١٩/٢٣٧).

(٦) مجموع فتاوى رسائل العثيمين(١٠/٧٩٧).

وعزته فهو سبحانه يقسم بها لأن إقسامه بها تعظيم له سبحانه. ونحن المخلوقون ليس لنا أن نقسم بها بالنص والإجماع"[(١)].

وقال الشخ ابن عثيمين حمه الله: "قسم الله بهذه الآيات دليل على عظمته وكمال قدرته وحكمته، فيكون القسم به الدال على تعظيمها ورفع شأنها متضمنا للثناء على الله عز وجل، بما تقتضيه من الدلالة على عظمته، وأما نحن، فلا نقسم بغير الله أو صفاته؛ لأننا منهيون عن ذلك"[(٢)].

وفصل الشيخ ابن عثيمين رحمه الله الحكمة في قسم الله بمخلوقاته بقوله:

"فإن قيل: ما الفائدة من إقسامه سبحانه مع أنه صادق بلا قسم؛ لأن القسم إن كان لقوم يؤمنون به ويصدقون كلامه فلا حاجة إليه، وإن كان لقوم لا يؤمنون به فلا فائدة منه، قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ﴾[(٣)].

أجيب: أن فائدة القسم من وجوه:

الأول: أن هذا أسلوب عربي لتأكيد الأشياء بالقسم، وإن كانت معلومة عند الجميع، أو كانت منكرة عند المخاطب، والقرآن نزل بلسان عربي مبين.

الثاني: أن المؤمن يزداد يقينا من ذلك، ولا مانع من زيادة المؤكدات التي تزيد في يقين العبد، قال تعالى عن إبراهيم: ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾[(٤)].

الثالث: أن الله يقسم بأمور عظيمة دالة على كمال قدرته وعظمته وعلمه، فكأنه يقيم في هذا المقسم به البراهين على صحة ما أقسم عليه بواسطة عظم ما أقسم به.

الرابع: التنويه بحال المقسم به؛ لأنه لا يقسم إلا بشيء عظيم، وهذان الوجهان لا يعودان إلى تصديق الخبر، بل إلى ذكر الآيات التي أقسم بها تنويها له بها وتنبيها على عظمها.

الخامس: الاهتمام بالمقسم عليه، وأنه جدير بالعناية والإثبات"[(٥)].

---

(١) مجموع الفتاوى(١/٢٩٠).

(٢) مجموع فتاوى رسائل العثيمين(١٠/٧٩٨).

(٣) سورة البقرة الآية: (١٤٥).

(٤) سورة البقرة الآية: (٢٦٠).

(٥) مجموع فتاوى رسائل العثيمين(١٠/٦١٢-٦١٣).

ثالثا: النهي عن سب الدهر:

أوضح رحمه الله مسألة سب الدهر عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾[(١)]: "أي وقال المشركون الذين سبق ذكر بعض أوصافهم: لا حياة بعد هذه الحياة التي نحن نعيش فيها، فنموت نحن وتحيا أبناؤنا من بعدنا، وهذا تكذيب صريح منهم للبعث والمعاد.

وقصارى ذلك: ما ثمَّ إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وليس هناك بعث ولا قيامة.

﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾[(٢)]؛ أي وما يفنينا إلا مرُّ الليالي والأيام، فمرورها هو المؤثر في هلاك الأنفس، ويضيفون كل حادث إلى الدهر، وأشعارهم ناطقة بذلك، قال:

أشاب الصغير وأفنى الكبير ... كرُّ الغداة ومرُّ العشي[(٣)]

قد كان العرب في جاهليتهم إذا أصابتهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا يا خيبة الدهر، وقد جاء النهي عن سبِّ الدهر، فجاء في الحديث القدسي: «**يقول الله ﷻ: يؤذيني ابن آدم، يسبُّ الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلِّب الليل والنهار**»[(٤)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله تعالى: استقرضت عبدي فلم يعطني، وسبني عبدي يقول وادهراه! وأنا الدهر**»[(٥)].

قال الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله ﷺ: «**لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر**»: كان العرب في الجاهلية إذا أصيبوا بشدة أو بلاء قالوا يا خيبة الدهر[(٦)]، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبُّونه، وإنما فاعلها هو الله، فكأنهم إنما سبوا الله ﷻ، لأنه

---

(١) سورة الجاثية الآية: (٢٤).

(٢) سورة الجاثية الآية: (٢٤).

(٣) البيت للصلتان العبدي، انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة(٤٩٣/١)، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي(٥٦/٢).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: {وما يهلكنا إلا الدهر}، (٧٩/١٢)، رقم الحديث(٤٨٢٦)، ومسلم، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر، (٤٥/٧)، رقم الحديث(٢٢٤٦).

(٥) أخرجه أحمد في مسنده(٣٤٠/١٦) رقم الحديث(١٠٥٧٨)، والبزار في مسنده(٧٩/١٥) رقم الحديث(٨٣٢١)، والحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، باب تفسير سورة التغابن(٥٣٣/٢)، رقم الحديث(٣٨١٦)، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي في التلخيص، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة(١٣٩٥/٧) رقم الحديث(٣٤٧٧).

(٦) انظر: تفسير ابن كثير(١٨٤/٤).

فاعل ذلك في الحقيقة، فلذا نهى عن سبِّ الدهر بهذا الاعتبار، لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه، ويسندون إليه تلك الأفعال.

ثم نعى عليهم مقالهم هذا الذي لا دليل عليه فقال: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾(١)؛ أي وما لهم بقصر الحياة على حياة الدنيا ونسبة الإهلاك إلى الدهر، علم يستند إلى عقل أو نقل، وقصارى أمرهم الظن والتخمين من غير أن يكون لهم ما يتمسكون به من حجة نافذة.

وفي الآية إشارة إلى أن القول بغير بينة ولا حجة لا ينبغي أن يعوَّل عليه، وأن اتباع الظن منكر عند الله"(٢).

وذكر رحمه الله أن الكفار يضيفون الأحداث إلى الدهر لما تكلم على سورة العصر: ﴿وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾(٣) فقال: "الكفار كانوا يضيفون أحداث السوء إلى الدهر، فيقولون هذه نائبة من نوائب الدهر، وهذا زمان بلاء، فأرشدهم سبحانه إلى أن الدهر خلق من خلقه، وأنه ظرف تقع فيه الحوادث خيرها وشرُّها، فإن وقعت للمرء مصيبة فبما كسبت يداه، وليس للدهر فيها من سبب.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾(٤) فاعتقدوا اعتقادا صحيحا أن للعالم كله إلها خالقا قادرا يرضى عن المطيع، ويغضب على العاصي، وأن هناك فرقا بين الفضيلة والرذيلة، فدفعهم ذلك إلى عمل البر والخير؛ وجماع ذلك: نفع المرء نفسه ونفعه للناس أجمعين"(٥).

رابعا: ما يتعلق بالرقى والتمائم:

وتكلم رحمه الله في الفرق بين من يتخذ الأسباب المشروعة في طلب مراده، وبين من يتخذ أسبابا غير مشروعة في طلب مراده، مثل العزائم والتبخيرات؛ فقال عند قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾(٦): "أي إنهم لا يفقهون بقلوبهم ما تزكو به أنفسهم من توحيد الله المبعد لها عن

---

(١) سورة الجاثية الآية: (٢٤).

(٢) تفسير المراغي(٩/١٣١-١٣٢).

(٣) سورة العصر الآية: (٢).

(٤) سورة العصر الآية: (٣).

(٥) تفسير المراغي(١٠/٤٨٧).

(٦) سورة الأعراف الآية: (١٧٩).

الخرافات والأوهام، وعن الذلة والصغار، فإن من يعبد الله وحده تسمو نفسه بمعرفته، فلا تذل بدعاء غيره ولا الخوف منه ولا الرجاء فيه والاتكال عليه، بل يطلب من الله ما يحتاج إليه، فإن كان مما أقدر الله عليه خلقه بإعلامهم بأسبابه، وتمكينهم منها طلبه بسببه مع مراعاة سننه في خلقه، وإن لم يكن كذلك توجه إلى الله لهدايته إلى العلم بما لم يعلم من سببه، وإقداره على ما يقدر عليه من وسائله، أو تسخير من شاء من خلقه لمساعدته عليه، كالأطباء لمداواة الأمراض، وأقوياء الأبدان لرفع الأثقال، والعلماء الراسخين للفتوى في المسائل العلمية وحل إشكال ما غمض من حقيقتها، ولا يتوجه في طلبه إلى غير ما يعرف البشر من الأسباب المطَّردة كالرُّقى والعزائم والتبخيرات، وكرامات الصالحين من الأحياء والأموات، والدعاء إليهم بما يعدُّ من العبادات، فالله يقول: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[(١)]، ويقول: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾[(٢)]"[(٣)].

وذكر رحمه الله مما يدخل في باب الرقية التعوذ من شر الشياطين فقال عند قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾[(٤)]: "أي وقل: رب إني ألتجئ إليك من أن يصل إلي الشياطين بوساوسهم، أو أن يبعثوا إلي أعداءك لإيذائي، وهكذا يدعو المؤمنون فإن الشيطان لا يصل إليهم إلا بأحد هذين الأمرين.

وإذا انقطع العبد إلى مولاه، وتبتل إليه وسأله أن يعيذه من الشياطين استيقظ قلبه، وتذكر ربه فيما يأتي ويذر، ودعاه ذلك إلى التمسك بالطاعة، وازدجر عن المعصية.

وقد استعاذ ﷺ أن تحضره الشياطين في عمل من أعماله، ولا سيما حين الصلاة وقراءة القرآن وحلول الأجل، أخرج أحمد وأبو داود والترمذي وحسنه، والبيهقي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: «**كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات نقولها عند النوم خوف الفزع: بسم الله أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه، وشر عباده، ومن همزات الشياطين**

(١) سورة الجن الآية: (١٨).

(٢) سورة الأنعام الآية: (٤١).

(٣) تفسير المراغي(٣/٤٤١)

(٤) سورة المؤمنون الآية: (٩٨).

وأن يحضرون»، قال فكان ابن عمرو يعلمها من بلغ من أولاده أن يقولها عند نومه، ومن كان منهم صغيرا لا يعقل أن يحفظها كتبها له فعلقها في عنقه[١].

وأخرج أحمد عن الوليد بن الوليد أنه قال: يا رسول الله إني أجد وحشة، قال: «**إذا أخذت مضجعك فقل: أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون، فإنه لا يحضرك وبالحري لا يضرك**»[٢].

وروى أبو داود أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الهرم، وأعوذ بك من الهدم، ومن الغرق، وأعوذ بك أن تتخبطني الشياطين عند الموت**»[٣]"[٤].

وذكر رحمه الله من الذين يأكلون أموال الناس بالباطل؛ "باعة التمائم والعزائم وختمات القرآن، والعدد المعلوم من سورة يس لقضاء الحاجات أو رحمة الأموات"[٥].

المراغي رحمه الله تطرق لبعض مسائل الرقى والتمائم، وأزيد الأمر بتعريف مختصر لذلك فأقول:

الرقى جمع رقية، وهي العوذة التي يرقى بها صاحب الآفة كالحمى والصرع، وهي التي تسمى العزائم، وهي نوعان: جائزة: وهي ما تجردت من الشرك واجتمعت فيها شروط ثلاثة:

١-أن تكون باللسان العربي وما يعرف معناه.

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الطب، باب كيف الرقى، (٤/١٨)، رقم الحديث(٣٨٩٣)، والترمذي، كتاب الدعوات، (٥/٥٤١)، رقم الحديث(٣٥٢٨)، وأحمد في مسنده(١١/٦٩٥)، رقم الحديث(٦٦٩٦)، والبيهقي في الدعوات الكبير(١/٥٥٢)، رقم الحديث(٤٢٩)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزادته(١/١٨١) رقم الحديث(٣٢١).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده(٢٧/١٠٨)، رقم الحديث(١٦٥٧٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه(٦/٨٠)، رقم الحديث(٢٩٦١)، وابن السني في عمل اليوم والليلة، باب ما يقول من بلي بالوحشة(١/٤٩٥)، رقم الحديث(٦٣٨)، وقال البوصيري إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة(٦/٤٠٢): "هذا حديث رجاله ثقات"، وقال شعيب الأرنؤوط في تحقيقه للمسند: "حديث محتمل للتحسين"، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب(٢/١٢٠): "حسن لغيره".

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب تفريع أبواب الوتر، باب في الاستعاذة، (١/٥٦٨)، رقم الحديث(١٥٥٢)، والنسائي، كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من التردي والهدم (٨/٢٨٣)، رقم الحديث(٥٥٣٣)، وأحمد في المسند(٢٤/٢٨١)، رقم الحديث(١٥٥٢٣)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود -الأم(٥/٢٧٤)، رقم الحديث(١٣٨٨).

(٤) تفسير المراغي(٦/٣٠٩).

(٥) المصدر السابق(١/٢٥٥).

٢-أن تكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته أو بكلام رسوله.

٣-أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله وما سوى ذلك لا يجوز.

أما التمائم فهي جمع تميمة، وهي ما يعلق على الأولاد من خرزات وتعاويذ وغيرها، يتقون بها العين فأبطلها الإسلام ونهى عنها وحرمها لأنه لا دافع إلا الله.

لكن يستثنى من ذلك إذا كان المعلق من القرآن فقد اختلف فيه العلماء؛ فرخص فيه بعضهم وأجاز تعليقه، وبعضهم لم يرخص فيه وجعله من المنهي عنه، وهو الصحيح لأمور ثلاثة:

١-عموم النهي عن تعليق التمائم ولا مخصص للعموم.

٢-كونه ذريعة إلى تعليق ما ليس من القرآن فيفضي إلى عدم إنكارها.

٣-أن تعليق القرآن يكون سببا في امتهانه، فلابد أن يمتهنه المعلق بحمله في حال قضاء الحاجة والاستنجاء ونحو ذلك[1].

خامسا: الاستعاذة:

وذكر رحمه الله الاستعاذة عند قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[2]: "أي وأن رجالا من الإنس كانوا يستعيذون في الفقر برجال من الجن، فزادوا الجن بذلك طغيانا وغيًّا، بأن أضلوهم حتى استعاذوا بهم.

وخلاصة ذلك: أنهم لما استعاذوا بالجن خوفا منهم ولم يستعيذوا بالله، استذلوهم واجترأوا عليهم وزادوهم ظلما"[3].

وقال رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾[4]: "أمر رسوله أن يستعين بمن يربي الناس بنعمه، ويؤدبهم بنقمه. . . ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾[5]؛ أي ألجأ إليك ربَّ الخلق وإلههم ومعبودهم أن تنجينا من شر الشيطان الموسوس الكثير الخنوس والاختفاء،

---

(١) انظر: توضيح ذلك في شروح كتاب التوحيد، باب ما جاء في الرقى والتمائم.

(٢) سورة الجن الآية: (٦).

(٣) تفسير المراغي(٢٢١/١٠)

(٤) سورة الناس الآية: (١).

(٥) سورة الناس الآية: (٤)

لأنه يأتي من ناحية الباطل، فلا يستطيع مقاومة الحق إذا صدمه، ولكنه يذهب بالنفس إلى أسوإ مصير، إذا انجرَّت مع وسوسته، وانساقت معه إلى تحقيق ما خطر بالبال.

وهذه الأحاديث النفسية إذا سلط عليها نظر العقل خفيت واضمحلت، ولكن الموسوس عند إلقائها، وحديث النفس بالفواحش وضروب الأذى للناس، يذهب هباء إذا تنبهت النفس لأوامر الشرع، وهكذا إذا وسوس لك امرؤ وبعثك على فعل السوء ثم ذكَّرته بأوامر الدين يخنس ويمسك عن القول، إلى أن تسنح له فرصة أخرى.

وإنما جعل الوسوسة في الصدور من قبل أنه عهد في كلام العرب أن الخواطر في القلب، والقلب مما حواه الصدر عندهم، ألا تراهم يقولون: إن الشك يحوك في صدرك، ويجيش في صدري كذا، ويختلج ذلك بخاطري، وما الشك إلا في نفسه وعقله، وأفاعيل العقل تكون في المخ، ويظهر لها أثر في حركات الدم وضربات القلب، وضيق الصدر وانبساطه.

قال الأستاذ الإمام محمد عبده: الموسوسون قسمان:

(١) قسم الجنة: وهم الخلق المستترون الذين لا نعرفهم، وإنما نجد في أنفسنا أثرا ينسب إليهم، ولكل واحد من الناس شيطان، وهي قوة نازعة إلى الشر، ويحدث منها في نفسه خواطر السوء.

(٢) قسم الناس: ووسوستهم ما نشاهده ونراه بأعيننا، ونسمعه بآذاننا. [(١)]. ا هـ ملخصا.

وقد بدئت السورة برب الناس، ومن كان مربيهم فهو القادر على دفع إغواء الشيطان ووسوستهم.

وقد أرشد في هذه السورة إلى الاستعانة به تعالى شأنه، كما أرشد إليها في الفاتحة للإشارة إلى أن ملاك الأمر كله هو التوجه إليه وحده، والإخلاص له في القول والعمل والالتجاء فيما لا قدرة لنا على دفعه"[(٢)].



---

(١) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)(٢٢٢/١).

(٢) تفسير المراغي: (٥٢٢/١٠).

الفصل الثالث: آراء المراغي الاعتقادية في توحيد الأسماء والصفات

وفيه تمهيد ومبحثان:

التمهيد: في تعريف توحيد الأسماء والصفات.

المبحث الأول: آراء المراغي الاعتقادية في أسماء الله.

المبحث الثاني: آراء المراغي الاعتقادية في صفات الله.

التمهيد: في تعريف توحيد الأسماء والصفات

عرَّف أهل العلم توحيد الأسماء والصفات، قال الإمام الأوزاعي رحمه الله: "ندور مع السنة حيث دارت، أي: نفيا وإثباتا، فما ثبت في الكتاب والسنة أثبتناه، وما نفي في الكتاب والسنة نفيناه، فباب الأسماء والصفات هو باب إثبات ونفي، إثبات ما أثبته الله لنفسه، ونفي ما نفاه الله عن نفسه"(١).

وقال الإمام أحمد رحمه الله: "نصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ لا نتجاوز القرآن والحديث"(٢).

وعرَّفه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه فقال: "ومن الإيمان بالله: الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل"(٣).

وقال ابن القيم رحمه الله: "وهدى الله أصحاب سواء السبيل: للطريقة المثلى فلم يتلوثوا بشيء من أوضار هذه الفرق وأدناسها، وأثبتوا لله حقائق الأسماء والصفات، ونفوا عنه مماثلة المخلوقات فكان مذهبهم مذهبا بين مذهبين، وهدى بين ضلالتين، خرج من بين مذاهب المعطِّلين والمخيِّلين والمجهِّلين والمشبِّهين، كما خرج اللبن من بين فرثٍ ودمٍ لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين، وقالوا: نصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تشبيه ولا تمثيل بل طريقتنا إثبات حقائق الأسماء والصفات، ونفي مشابهة المخلوقات، فلا نعطل ولا نؤول ولا نمثل ولا نجهل"(٤).

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، لهبة الله بن الحسن اللالكائي (٤٧).

(٢) التحفة السنية شرح منظومة ابن أبي داود المسماة بالحائية ص(٢٤).

(٣) العقيدة الواسطية، لأبي العباس ابن تيمية، تحقيق: أشرف بن عبد المقصود، أضواء السلف، الرياض، ط٢، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م ص (٥٧-٥٨).

(٤) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، لابن قيم الجوزية، تحقيق، علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، ط١، ١٤٠٨هـ، (٢/٤٢٥-٤٢٦).

وعرَّفه الشيخ محمد ابن عثيمين رحمه الله بقوله: "النوع الثالث: توحيد الأسماء والصفات، وهو: إفراد الله ﷻ بما سمى الله به نفسه، ووصف به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، وذلك بإثبات ما أثبته من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تكييف، ولا تمثيل"(١).

ومن أجمع التعريفات وأقربها للوضوح تعريفُ الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله، فقد عرَّفه بتعريف جامع حيث قال: "توحيد الأسماء والصفات: هو اعتقاد انفراد الرب ﷻ بالكمال المطلق من جميع الوجوه بنعوت العظمة، والجلال، والجمال التي لا يشاركه فيها مشارك بوجه من الوجوه، وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله من جميع الأسماء، والصفات، ومعانيها، وأحكامها الواردة في الكتاب والسنة على الوجه اللائق بعظمته وجلاله، من غير نفي لشيء منها، ولا تعطيل، ولا تحريف، ولا تمثيل، ونفي ما نفاه عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله من النقائص والعيوب ومن كل ما ينافي كماله"(٢).

أمَّا المراغي رحمه الله فلم أجد له تعريفا لتوحيد الأسماء والصفات لكنه قال في سياق التحذير من الخوض في باب الأسماء والصفات بغير علم فقال بعد قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(٣): "أي فالزم الصراطَ المستقيم الذي لا عوج فيه وأثبت عليه، وكذلك فليستقم من تاب من الشرك وآمن معك، ولا تنحرفوا عما رسم لكم بتجاوز حدوده غلوا في الدين، فإن الإفراط فيه كالتفريط كلاهما زيغٌ عن الصراط المستقيم، وفي هذا إيماء إلى وجوب اتباع النصوص في الأمور الدينية من عقائد وعبادات واجتناب الرأي وبطلان التقليد فيها، وإيضاح هذا أن تحكيم العقل البشري في الخوض في ذات الله وصفاته، وفيما دون ذلك من عالم الغيب كالملائكة والعرش والجنة والنار تجاوز لحدوده، فإن أكبرَ العلماء والفلاسفة عقولًا عجزوا إلى اليوم عن معرفة كنه أنفسهم، وأنفس ما دونهم من

---

(١) فتاوى مهمة لعموم الأمة للشيخ ابن باز وابن عثيمين، تحقيق: إبراهيم الفارس، دار العاصمة، ط١، ١٤١٣هـ، ص(١٠-١١).

(٢) القول السديد في شرح كتاب التوحيد، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، طبعو وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط٢، ١٤٢١هـ، ص(١٧).

(٣) سورة هود الآية (١١٢).

المخلوقات صغيرها وكبيرها، حتى الحشرات منها كالنحل والنمل، فأنى لهم أن يعرِّفوا كنه ذات الله وصفاته، أو معرفة حقيقة ملائكته وغيرهم من جند الله؟.

ولما خرج متأخرو الأمة عن هدي سلفهم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان زاغوا فكانوا﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾(١) فسقط بعضهم في خيال التشبيه، وبعضهم في خيال التعطيل، ولو كانوا قد نهجوا نهج السابقين لتجنبوا أسباب الخلاف والتفرق في الدين الذي أوعد الله أهله بالعذاب العظيم وبرأ رسوله منهم، والواجب التزام كتاب الله وما فسرته به سنة رسوله ﷺ من العبادات العملية بدون تحكم بالرأي والقياس، والمعاملات على النحو الذي بينه الكتاب والسنة على السنن القويم دون تأويل ولا تخريج لهما على غير ما يفهم من ظاهرهما"(٢).

---

(١) سورة الروم الآية (٣٢).

(٢) تفسير المراغي(٤/٣٦٠).

المبحث الأول: آراء المراغي الاعتقادية في أسماء الله

قال ابن القيم رحمه الله: "فالعلم بأسمائه وإحصاؤها أصل لسائر العلوم، فمن أحصى أسماءه كما ينبغي أحصى جميع العلوم، إذ إحصاءُ أسمائه أصلٌ لإحصاء كل معلوم؛ لأن المعلومات هي من مقتضاها ومرتبطة بها"(١).

وقال المراغي رحمه الله عند توضيح قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾(٢): "أي وعظم ربك أيها الرسول بما أمرناك أن تعظمه به من قول أو فعل، وأطعه فيما أمرك به ونهاك عنه، وتكبيره تعالى وتنزيهه يكون بأمور منها: تكبيره في أسمائه، فلا يذكر إلا بأسمائه الحسنى، ولا يوصف إلا بصفاته المقدسة"(٣).

المراغي رحمه الله في تفسيره أوضح مسائل كثيرة تتعلق بأسماء الله ﷻ ومن ذلك:

أولا: تعريف الاسم:

قال المراغي رحمه الله في تعريف الأسماء: "الأسماء: واحدها اسم، وهو في اللغة ما به يعلم الشيء"(٤)، ثم قال عند قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾(٥): "اسم الله هو ما به عرَّفناه في أذهاننا بحيث يقال إنا نؤمن بوجوده، وهو بهذا الإطلاق هو الذي يتقدس ويتبارك ويتعالى، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾(٦) ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾(٧)، أو يقال: المراد من الأسماء المسميات، وعبر بها عنها للصلة الوثيقة بين الدال والمدلول، وسرعة الانتقال من أحدهما إلى الآخر، وأيا كان فإن العلم الحقيقي إنما هو إدراك المعلومات، أما الألفاظ الدالة عليها فهي تختلف باختلاف اللغات التي تجري بالمواضعة والاصطلاح"(٨).

---

(١) بدائع الفوائد (١٧١/١).
(٢) سورة الإسراء الآية (١١١).
(٣) تفسير المراغي(٣٩٦/٥).
(٤) تفسير المراغي(٨١/١).
(٥) سورة البقرة الآية (٣١).
(٦) سورة الأعلى الآية (١).
(٧) سورة الرحمن الآية (٧٨).
(٨) تفسير المراغي(٧٤/١ -٧٧).

وقال عند قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾[(١)]: "أمر سبحانه رسوله أن ينزه اسمه عن كل ما لا يليق به، واسم الله ما يعرف به، والله إنما يعرف بصفاته من نحو كونه عالما قادرا حكيما، وهذا الاسم هو الذي يوصف بأنه ذو الجلال والإكرام، وهو المراد بالوجه في قوله ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾[(٢)]، وهو المذكور في قوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾[(٣)] أي علمه رسوم الأشياء وما تعرَّف به، فالله يأمرنا بتسبيح هذا الاسم أي تنزيهه عن أن نصفه بما لا يليق به من شبه المخلوقات، أو ظهوره في واحد منها بعينه، أو اتخاذه شريكا أو ولدا له، فلا تتجه عقولنا إليه إلا بأنه خالق الكائنات وهو الذي أوجدها وسواها، وأنه هو الذي أخرج المرعى ثم جعله جافا حتى لفظه السيل بجانب الوادي.

وقال في إيضاح الآية ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾[(٤)]: "أي نزه اسم ربك عن كل ما لا يليق بجلاله في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه فلا تذكره إلا على وجه التعظيم له، ولا تُطلِق اسمَه على غيره زاعمًا أنه يشاركه في صفاته، ثم وصف ذلك الاسم الأعلى فقال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾[(٥)] أي الذي خلق الكائنات جميعا؛ فسوَّى خلقَها وجعلَها منسقة محكمة، ولم يأت بها متفاوتة غير ملتئمة، دلالة على أنها صادرة عن عالم حكيم مدبر، أحسن تدبيرها، فأحكم أسرها... ثم قال: وقصارى ما سلف إنا مأمورون أن نعرَّف الله جل شأنه؛ بأنه القادر العالم الحكيم، الذي شهدت بصفاته آثاره في خلقه، وألا ندخل في هذه الصفات ما لا يليق به، كما أدخل الملحدون الذين اتخذوا من دونه شركاء، أو وصفوه بما به يشبه خلقه، وإنما توجه إلينا الأمر بتسبيح الاسم دون تسبيح الذات، ليرشدنا إلى أن مبلغ جهدنا أن نعرَّف الصفات بما يدل عليها، أما الذات فهي أعلى وأرفع من أن تتوجه إليها عقولنا إلا بما نلحظ من هذه الصفات بما يدل عليها"[(٦)].

---

(١) سورة الأعلى الآية (١).

(٢) سورة الرحمن الآية (٢٧).

(٣) سورة البقرة الآية (٣١).

(٤) سورة الأعلى الآية (١).

(٥) سورة الأعلى الآية (٢).

(٦) تفسير المراغي(٣٠/١٢٢-١٢٣).

وقال عند قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(١): "الأسماء: واحدها اسم، وهو اللفظ الدال على الذات أو عليها مع صفة من صفاتها... ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ﴾(٢) أي ولله دون غيره جميع الأسماء الدالة على أحسن المعاني وأكمل الصفات، فاذكروه ونادوه بها إما للثناء عليه؛ نحو ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾(٣)، ونحو ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾(٤)، وإما لدى السؤال وطلب الحاجات"(٥).

وقال أيضا: "الأسماء الحسنى: أي الأسماء الدالة على محاسن المعاني التي تظهر في مظاهر هذا الوجود، فنظم هذه الحياة وبدائع ما فيها دليل على كمال صفاته، وكمال الصفة يرشد إلى كمال الموصوف"(٦).

بعد أن قرر المراغي رحمه الله ما يتعلق بتعريف الاسم وهل يسبح الاسم، أم يقع التسبيخ على الذات أذكر أقوال السلف عى هذه المسألة فقد ذكر الإمام ابن جرير رحمه الله بعد قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾(٧) هل المراد تسبيح الاسم كما ذكر المراغي، أو تسبيح الذات؟

قال الإمام ابن جرير رحمه الله بعد ذكره للأقوال في الآية: "وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب قول من قال: معناه: نزه اسم ربك أن تدعو به الآلهة والأوثان، لما ذكرت من الأخبار، عن رسول الله ﷺ، وعن الصحابة أنهم كانوا إذا قرأوا ذلك قالوا: سبحان ربي الأعلى، فبين بذلك أن معناه كان عندهم معلوما: عظم اسم ربك ونزهه"(٨).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في سياق كلامه على الاسم والمسمى: "بل أمرَ الله بتسبيح اسمه كما أمر بذكر اسمه، والمقصود بتسبيحه وذكره هو تسبيح المسمى وذكره؛ فإن

---

(١) سورة الأعراف الآية (١٨٠).

(٢)سورة الأعراف الآية (١٨٠).

(٣) سورة البقرة الآية (٢٥٥).

(٤) سورة الحشر الآية (٢٢).

(٥) تفسير المراغي(٣/٤٤٣).

(٦) تفسير المراغي(١٠/٤٨).

(٧) سورة الأعلى الآية (١).

(٨) تفسير ابن جرير(٢٤/٣٦٨).

المسبح والذاكر إنما يسبح اسمه ويذكر اسمه؛ فيقول: سبحان ربي الأعلى فهو نطق بلفظ ربي الأعلى، والمراد هو المسمى بهذا اللفظ، فتسبيح الاسم هو تسبيح المسمى، ومن جعله تسبيحًا للاسم يقول: المعنى أنك لا تسم به غير الله، ولا تلحد في أسمائه، فهذا مما يستحقه اسم الله؛ لكن هذا تابع للمراد بالآية ليس هو المقصود بها القصد الأول"[(١)].

وقال ابن عثيمين رحمه الله: "قوله: «وتبارك اسمك» «اسم» هنا مفرد، لكنه مضاف فيشمل كل اسم من أسماء الله.

وهل المراد بالاسم هنا المسمى كما في قوله: «**تباركت يا ذا الجلال والإكرام**»[(٢)]، ويكون المراد بـ «تبارك اسمُك» أي: تباركت، كقوله﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾[(٣)] والمسبَّحُ الله المسَمَّى، أو أن المراد أن اسم الله نفسه كله بركة، وإذا كان اسم المسمَّى بركةً فالـمُسمَّى أعظم بركة وأشدُّ وأولى؟

الجواب: الثاني أظهر؛ لأننا نسلَمُ فيه من التجوُّزِ بالاسم عن المسمَّى، ولأنه يلزم منه تبارُكُ المسمَّى.

أمثلة من بركة اسم الله: لو ذبحت ذبيحة بدون تسمية؛ لكانت ميتة نجسة حراما، ولو سميت الله عليها لكانت ذكية طيبة حلالا.

وأيضا: إذا سميت على الطعام لم يشاركك الشيطان فيه، وإن لم تسم شاركك.

وإذا سميت على الوضوء -على قول من يرى وجوب التسمية- صحَّ وُضوؤك، وإن لم تسم لم يصح وضوؤك، وعلى قول من يرى استحبابها يكون وضوؤك أكمل مما لو لم تسم، فهذه من بركة اسم الله عز وجل"[(٤)].

---

(١) الفتاوى(١٩٩/٦).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته (٤١٤/١) الحديث رقم(٥٩١).

(٣) سورة الأعلى الآية (١).

(٤) الشرح الممتع على زاد المستقنع، لمحمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٢٢هـ-١٤١٨هـ، (٤٥/٣).

ثانيا: الإلحاد في أسماء الله

عرَّف المراغي الإلحاد فقال: هو "الميل؛ يقال: لحد وألحد: إذا مال عن القصد، ومنه سُمِّيَ العادلُ عن الحق ملحدا"(١).

وقال بعد قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٢) : "الإلحاد: الميل عن الوسط حسا أو معنى، والأول هو الأصل فيه، ومنه لحد القبر: وهو ما يحفر في جانب القبر مائلا عن وسطه، وألحد السهمُ الهدفَ: أي مال في أحد جانبيه ولم يصب وسَطَه، ومن الثاني: ألحد فلانٌ: مال عن الحق ... ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾(٣) أي: ادعوه أيها المؤمنون، واتركوا جميع الذين يلحدون في أسمائه، بالميل بألفاظها أو معانيها عن نهج الحق الوسط إلى متفرق السبل؛ من تحريف أو تأويل، أو شرك أو تكذيب، أو زيادة أو نقصان، أو ما ينافي وصفها بالحسنى، كأن يوصف بما لا يصحُّ وصفُه به أو تتأول أوصافُه على ما لا يليق به.

ثم بيَّن العلةَ في تركِهم في خوضِهم يلعبون فقال: "﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٤) أي لأنهم سيلقون جزاء عملهم وتحل بهم العقوبة في الدنيا قبل الآخرة، فاجتنبوا إلحادهم كيلا يصيبكم مثلَ ما يصيبهم.

والإلحاد ضربان: إلحاد إلى الشرك بالله وهو ينافي الإيمان ويُبطِلُه، وإلحادٌ إلى الشرك بالأسباب كأن ينظر إليها مع الغفلة عن كونها من خلق الله وتسخيره، أو يعتقد أنها مؤثرة بذاتها لا بفعله تعالى، وهذا يوهن عُرَا الإيمان ولا يُبطله(٥).

والخلاصة: إن الإلحاد في أسمائه الحسنى أقسام:

(١) تسميتُه تعالى بما لم يسم به نفسه في كتابه أو ما صح من حديث رسوله ﷺ فقد اتفق أهل الحق على أن أسماءه وصفاته تعالى توقيفية: أي تحتاج إلى إذن من الشارع لصحة

---

(١) تفسير المراغي(٥/٢٥٧).

(٢) سورة الأعراف الآية (١٨٠).

(٣) سورة الأعراف الآية (١٨٠).

(٤) سورة الأعراف الآية (١٨٠).

(٥) سبق توضيح ذلك، انظر: ص(١٢٠).

إطلاقها عليه تعالى، وكلُّ ما ورد في الكتاب والأحاديث الصحيحة دعاءً ووصفًا له وإخبارا عنه يصحُّ إثباته له، ويمنع كل ما دلت على منعِه، قال في الكشاف: كقول أهل البدو: يا أبا المكارم، يا أبيض الوجه، يا سخيُّ[1].

(٢) ترك تسميته بما سمَّى به نفسه أو وصفها به، أو ترك إسناد ما أسنده تعالى إلى نفسه من الأفعال، بناء على أن ذلك لا يليق به تعالى، أو أنه يوهم نقصًا في حقه، كأن هؤلاء الملحدين أعلم منه ومن رسوله ﷺ بما يليق به وما لا يليق.

(٣) تغيير أسمائه بوضعها لغيره مما عُبِدَ من دونه كاللَّات والعُزَّى.

(٤) تحريف أسمائه وصفاته تعالى عما وُضعت له بضربٍ من التأويل، فقد ذهب جماعة من المسلمين إلى جعل الربِّ القُدُّوس الذي ليس كمثله شيء كرجل من خلقه؛ لأنه تعالى وصفَ نفسَه بصفاتٍ يدلُّ مجموعُها على ذلك: كالسمع والبصر والكلام، والوجه واليد والرجل، والضحك والرضا والغضب، وذهب آخرون إلى تأويل جميع صفاتِه تعالى حتى جعلوها كالعدم.

(٥) إشراك غيره فيما هو خاصٌ به من أسمائه باللفظ؛ كاسم الجلالة (الله) والرحمن ورب العالمين، وما في معناه كرب السماء والأرض أو رب الكعبة أو رب البيت (الكعبة) كما قال ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴾[2].

(٦) إشراك غيره في كمال أسمائه، كمن يزعم أو يعتقد أن لغيره رحمة كرحمته، ورأفة كرأفته، وغير ذلك من معاني أسمائه؛ كالمجيب مثلا؛ كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[3]، وبعض الذين يدعون غير الله تعالى من الموتى؛ يعتقدون أنهم أسرع وأقرب في إجابتهم من الله تعالى، فيجمعون بذلك بين شركين: شرك دعاء غير الله مع اعتقاد إجابته للدعاء، وشرك الكفر به بتفضيل غيره عليه سبحانه في سرعة

(١) الكشاف للزمخشري(٢/١٦٩).

(٢) سورة قريش الآية (٣).

(٣) سورة البقرة الآية (١٨٦).

الإجابة؛ مع أن الله يقول: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ ﴾[١] أي لا يجيب المضطرَ إلا هو، فهو المستحق وحده للعبادة"[٢].

وقال في موضع آخر عن الإلحاد: "ألحدَ الحافرَ في الأرض: إذا مال عن الاستقامة فحفر في شقٍّ منها، والمراد بالملحدين المنحرفون في تأويل الآيات بحملها على المحاملِ الباطلة"[٣].

المراغي رحمه الله تطرق لأنواع الإلحاد الذي بليت به هذه الأمة بسبب بعدها عن المصادر الشرعية التي يتلقى منها العلوم الدينية، "والإلحاد لغة: الميل، واصطلاحا: الميل عما يجب اعتقاده أو عمله.

ويكون في أسماء الله لقوله تعالى: ﴿ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ﴾[٤]، ويكون في آيات الله لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ ﴾[٥].

وأنواع الإلحاد في أسماء الله أربعة:

١. أن ينكر شيئا منها، أو مما تضمنته من الصفات كما فعل الجهمية.

٢. أن يُسمِّيَ الله بما لم يسمِّ به نفسَه كما سماه النَّصارى أبا.

٣. أن يعتقد دلالتَها على مشابهة الله لخلقه كما فعل المشبهة.

٤. أن يشتق منها أسماء للأصنام كاشتقاق المشركين العُزَّى من العزيز.

الإلحاد في آيات الله نوعان:

١. الإلحاد في الآيات الكونية التي هي المخلوقات، وهو إنكار انفراد الله بها بأن يعتقد أن أحدا انفرد بها أو ببعضها دونه، وأن معه مشاركا في الخلق أو معينا.

٢. الإلحاد في الآيات الشرعية التي هي الوحي النازل على الأنبياء، وهو تحريفها أو تكذيبها أو مخالفتها"[٦].

---

(١) سورة النمل الآية (٦٢).

(٢) تفسير المراغي(٣/٤٤٣-٤٤٦).

(٣) تفسير المراغي(٨/٣٧٠).

(٤) سورة الأعراف الآية (١٨٠).

(٥) سورة فصلت الآية (٤٠).

(٦) مجموع الفتاوى(٤/٢٦٤).

ثالثا: هل أسماء الله توقيفية

نصَّ المراغي رحمه الله في تفسيره أن أسماء الله توقيفية فذكر من أنواع الإلحاد في أسماء الله: "تسميته تعالى بما لم يسم به نفسه في كتابه، أو ما صح من حديث رسوله ﷺ، فقد اتفق أهل الحق على أن أسماءه وصفاته تعالى توقيفية؛ أي تحتاج إلى إذن من الشارع لصحة إطلاقها عليه تعالى، وكلُّ ما ورد في الكتاب والأحاديث الصحيحة دعاءً ووصفًا له وإخبارا عنه يصحُّ إثباته له، ويمنع كل ما دلت على منعِه، قال في الكشاف: كقول أهل البدو: يا أبا المكارم، يا أبيض الوجه، يا سخيُّ"(١)"(٢).

ذكر ابن القيم رحمه الله أن أسماء الله توقيفية؛ فقال تعليقا على حديث: «أسألك بكل اسم سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك» "فالحديث صريح في أن أسماءه ليست من فعل الآدميين وتسمياتهم"(٣).

قال الشيخ محمد ابن عثيمين رحمه الله في القواعد في أسماء الله: " (القاعدة الخامسة: أسماء الله تعالى توقيفية، لا مجال للعقل فيها)، وعلى هذا فيجب الوقوف فيها على ما جاء به الكتاب والسنة، فلا يزاد فيها ولا ينقص، لأن العقل لا يمكنه إدراك ما يستحقه تعالى من الأسماء، فوجب الوقوف في ذلك على النص؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾(٤)، وقوله ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٥)، ولأن تسميته تعالى بما لم يسم به نفسه، أو إنكار ما سمَّى به نفسه، جنايةٌ في حقه تعالى فوجب سلوكُ الأدب في ذلك، والاقتصار على ما جاء به النص"(٦).

---

(١) الكشاف(١/١٦٩).

(٢) تفسير المراغي(٣/٤٤٥).

(٣) شفاء العليل ص(٧).

(٤) سورة الإسراء الآية (٣٦).

(٥) سورة الأعراف الآية (٣٣).

(٦) القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، محمد بن صالح العثيمين، الناشر: الجامعة الإسلامية، ط٣، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م، ص(١٣).

رابعا: عدد أسماء الله

بيَّن المراغي رحمه الله أن أسماء الله كثيرة؛ فقال بعد قول الحق ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[(١)] "أي: ولله دون غيره جميعُ الأسماء الدالة على أحسن المعاني وأكمل الصفات، فاذكروه ونادوه بها ... وأسماءُ الله كثيرة، وكلُّها حُسنَى لدلالة كلٍّ منها على مُنتهَى كمال معناه، وتفضيلُها على ما يطلق منها على المخلوقين: كالرحيم والحكيم والحفيظ والعليم، وروى الشيخان من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ لله تسعةً وتسعين اسمًا مائةً إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنة**»[(٢)]، وفي رواية له: «**إنَّ لله تسعةً وتسعين اسمًا من حفظها دخل الجنة، وإن الله وتر يحب الوتر**»[(٣)].

وقد سرد الأسماء التسعة والتسعين الترمذي والحاكم من طريق الوليد بن مسلم قال: «**هو الله الذي لا إله إلا هو: الرحمن الرحيم الملك. القدوس. السلام. المؤمن. المهيمن. العزيز. الجبار. المتكبر. الخالق. البارئ. المصور. الغفار. القهار. الوهاب. الرزاق. الفتاح. العليم. القابض. الباسط. الخافض. الرافع. المعز. المذل. السميع. البصير. الحكم. العدل اللطيف. الخبير. الحليم. العظيم. الغفور. الشكور. العلى. الكبير. الحفيظ. المقيت. الحسيب. الجليل. الكريم. الرقيب. المجيب. الواسع. الحكيم. الودود. المجيد. الباعث. الشهيد. الحق. الوكيل. القوى. المتين. الولي. الحميد. المحصى. المبدئ. المعيد. المحيي. المميت. الحي. القيوم. الواجد. الماجد. الواحد. الصمد. القادر. المقتدر. المقدم. المؤخر. الأول. الآخر. الظاهر. الباطن. الوالي. المتعالي. البر. التواب. المنتقم. العفو. الرءوف. مالك الملك. ذو الجلال والإكرام.**

---

(١) سورة الأعراف الآية (١٨٠).

(٢) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب إن لله مائة اسم إلا واحدا، (٤٠٣/١٨)، الحديث رقم(٧٣٩٢)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، (٦٣/٨)، الحديث رقم(٢٦٧٧).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب لله مائة اسم غير وأحد (٨٧/٨)، الحديث رقم(٦٤١٠)، ومسلم، (٢٠٧/١٦) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، (٦٣/٨)، الحديث رقم(٢٦٧٧).

المقسط. الجامع. الغنى. المغني. المانع. الضار. النافع. النور. الهادي. البديع. الباقي. الوارث. الرشيد. الصبور»[(١)].

وقد اختلف المحدثون في سرد هذه الأسماء هل هو مرفوع أو مدرج في الحديث من بعض الرواة؟ والثاني هو الراجح، ومن ثمَّ لم يخرجه الشيخان لتفرد الوليد به، واحتمال الإدراج كما قاله الحافظ ابن حجر في الفتح[(٢)]"[(٣)].

وذكر عند توضيح قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[(٤)]؛ فقال: "وقصارى ذلك: إنه سبحانه أخبر أن عظمته وكبرياءه، وجلاله وأسماءه الحسنى لا يحيط بها أحد، ولا يصل البشر إلى معرفةِ كُنهِهَا

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب، (٥٣٠/٥)، الحديث رقم(٣٥٠٧) قال الترمذي عقبه: " هذا حديث غريب حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح، ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح: وهو ثقة عند أهل الحديث وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا نعلم في كبير شيء من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث. وقد روى آدم بن أبي إياس، هذا الحديث بإسناد غير هذا عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ وذكر فيه الأسماء وليس له إسناد صحيح"، وابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب الأذكار، (٨٨/٣)، الحديث رقم(٨٠٨)، والحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان(٦٢/١)، الاحديث رقم(٤٢)، وضعف طرقه ابن حزم في المحلى كما ذكر الحافظ في الفتح(٢١٧/١١)، ووافقه الحافظ ابن حجر، وضعفه ابن تيمية في جامع الرسائل(٣٥٦/١)، وقال البوصيري في زوائد ابن ماجه(٢٥٦/١٠): " لم يخرج أحد من الأئمة الستة عدد أسماء الله الحسنى من حديث أبي هريرة ولا من غيره سوى ابن ماجة والترمذي وابن حبان لكن طريق الترمذي بغير هذا السياق وبزيادة ونقص وتقدم وتأخير وطريق الترمذي أصح شيء في هذا الباب... وإسناد طريق ابن ماجه ضعيف لضعف عبد الملك بن محمد الصنعاني"

وقال ابن كثير في التفسير(٢٦٩/٢): " والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه".

وقال الصنعاني في سبل السلام(١٠٨/٤): " اتفق الحفاظ من أئمة الحديث أن سردها إدراج من بعض الرواة".

وأخيرا نعلم أن هذه الزيادة مدرجة في الحديث ولا يصح رفعها.

(٢) فتح الباري(٢١٦/١١).

(٣) تفسير المراغي(٤٤٣/٣-٤٤٥).

(٤) سورة لقمان الآية (٢٧).

وعدِّها كما ورد في الحديث: «**سبحانك لا نُحْصِي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»[(١)]"[(٢)].

ظاهر كلام المراغي رحمه الله أنه لا يرى حصر أسماء الله بعدد معين لأنَّ "أسماء الله تعالى كثيرة لا يمكن حصرُها مهما أردت، والدليل على ذلك حديث عبدالله بن مسعود ﷺ «**ما من إنسان يصيبه همٌّ أو غمٌّ أو حزنٌ ثم يقول: اللهمَّ إني عبدُك، ابنُ عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمُك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك اللهمَّ بكل اسمٍ هو لك، سميتَ به نفسَكَ، أو أنزلته في كتابك، أو علَّمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك**»[(٣)]، فجعل الله الأسماء ثلاثة أقسام، ما أنزله في كتابه، مثال الاسم الذي جاء في القرآن (الرحمن)، أو علَّمته أحدًا من خلقك مثل (الرب، الشافي)، جاء في السنة، قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب**»[(٤)]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**أما الركوع فعظموا فيه الرب**»[(٥)]، فهذا مما علمه أحدا من خلقه.

«**أو استأثرت به في علم الغيب عندك**» هذا القسم الثالث ما استأثر الله به في علم الغيب، واستأثر بمعنى انفرد، وما انفرد الله بعلمه فلم ينزله في الكتاب، ولم يعلمه أحدا من الخلق، لا يمكن الإحاطة به، إذن أسماء الله لا يمكن الإحاطة بها، ولا هي محصورة بعدد، لأننا لا نعلمها، وأما قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**إن لله تسعةً وتسعين اسمًا من**

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، (٣٥٢/١)، الحديث رقم(٢٢٢) بلفظ: «اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك».

(٢) تفسير المراغي(٣١٦/٧).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٢٤٦/٦) الحديث رقم(٣٧١٢)، والبزار في مسنده الحديث رقم(١٩٩٤)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب الأدعية (٢٥٣/٣)، الحديث رقم(٩٧٢)، وصححه ابن القيم في الجواب الكافي ص(١٩) والألباني في السلسلة الحديث رقم(١٩٩).

(٤) أخرجه أحمد في المسند(١٨٦/١)، الحديث رقم(٧)، والنسائي في سننه، كتاب الطهارة، باب الترغيب في السواك(١٠/١)، الحديث رقم(٥)، وابن ماجه في سننه، كتاب الطهارة، باب السواك(١٠٦/١)، الحديث رقم(٢٨٩)، وذكره البخاري في صحيحه معلقا مجزوما به(٣١/٣)، وحسنه ابن عبد البر في التمهيد(٣٠١/١٨)، وصححه ابن الملقن في البدر المنير(٦٨٤/١)، والألباني في إرواء الغليل(١٠٥/١)، الحديث رقم(٦٦).

(٥) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود(٣٤٨/١)، الحديث رقم(٤٧٩).

أحصاها دخل الجنة»[(١)]، فالمعنى أن من الأسماء تسعةً وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة هذا المعنى، ومعنى (أحصاها) أي: عرَفها لفظًا، وعرفها معنًى، وتعبَّد لله بمقتضاها، وليس المراد أن تحفظها فقط، بل لابد من حفظ اللفظ وفهم المعنى، والتعبد لله بها بمقتضاها، فمثلا: إذا علمت أن الله ﷻ غفور فتعرض للمغفرة، لا تقل: الله غفور، وتفعل الذنب متى شئت، بل تعرَّضْ للمغفرة واستغفر الله تجد الله غفورا رحيما، وإذا علمت أن الله عزيز فتتعبد الله بمقتضى هذا، وتخاف منه وتحذر، وهلم جرا"[(٢)].

خامسا: توضيحه لبعض الأسماء الحسنى

ذكر المراغي رحمه الله توضيحًا وبيانًا لبعض أسماء الله الحسنى خلال تفسيره، وغالبا يكون الكلام عليها مختصرا، فناسب أن أذكر تعليقه عليها جملة ثم أعلق عليها إجمالا.

فمما ذكره من الأسماء الله الحسنى:

١- **الإله**: "هو المعبود الذي يدعى لكشف الضر أو جلب النفع، ويتقرب إليه بالأقوال والأعمال التي يرجى أن ترضيه، والله: اسم الخالق الخلق أجمعين، ولا يثبت الموحدون ربا سواه، وأكثر المشركين يقولون إنه أكبر الأرباب، أو رئيسهم وأعظم الآلهة، وكان مشركو العرب لا يثبتون ربًّا سواه، وإنما يعبدون آلهة تقربهم إليه"[(٣)].

وقال: "الإله الحق الذي يستحق أن يعبد هو الله الواحد الصمد، ذو الملك والملكوت، الحي الذي لا يموت، القائم بتدبير أمر عباده، يكلؤهم ويحفظهم ويرزقهم"[(٤)].

٢- **الرب**: قال: "هو السيد المالك المربي المدبر المتصرف، وليس للخلق ربٌّ ولا إله إلا الله الذي خلقهم، فهو المالك لكل شيء، وفي كل زمن وعلى كل حال، وملك غيره ناقص موقوت فهو المعبود بحق"[(٥)].

٣- **البصير**: قال: "العالم بكنه الشيء الخبير به"[(١)].

---

(١) سبق تخريجه ص(٣٤٠).

(٢) تفسير الحجرات-الحديد لابن عثيمين، دار الثريا- الرياض، ط١، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤، ص(٣٩٨).

(٣) تفسير المراغي(٣/٣١٥).

(٤) المصدر السابق(١/٣٨٣) .

(٥) المصدر السابق(٣/١٤٤).

٤- **الرؤوف**: قال: "الرأفة العناية بالضعيف والرفق به"[٢].

٥- **القادر**: قال: "فقدرنا: أي على خلقه وتصويره كيف شئناه"[٣].

٦- **المقتدر**: قال: "أي لايعجزه شيء"[٤].

٧- **العزيز**: قال: "أي إنك أنت القويُّ الذي لا يُغلَبُ ولا يُنَالُ بِضَيْمِ من توكَّلَ عليك"[٥].

٨- **الحكيم**: قال: "والحكيم: هو المحكم لمبتدعاته، الذي لا يفعل إلا ما فيه الحكمة البالغة"، وقال: "الحكيم في أفعالك في عبادك، فلا تفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة"، وقال: "والحكيم: الذي أحكم أمر الدارين ودبره بحسب ما تقتضيه الحكمة"[٦].

٩- **السميع**: قال: "أي ربنا أنت السميع لدعائنا"[٧].

١٠- **العليم**: قال: "هو الذي لا تخفى عليه خافية"، وقال: "العليم: بنياتنا في جميع أعمالنا"[٨].

١١- **الأول والآخر**: قال: "فهو الأوَّلُ، ومنه بدأت الخلائق، وهو الآخر وإليه ترجع الأمور وتصير"، وقال: "الأول: أي السابق على سائر الموجودات، والآخر: أي الباقي بعد فنائها"[٩].

١٢- **القيوم**: قال: "القائم على خلقه بتدبير آجالهم وأعمالهم وأرزاقهم؛ كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾[١]، وقال: "القيوم: القائم على كل شيء بكلاءته وحفظه"، وقال: "القيوم: القائم بتدبير أمور عباده ومجازاة كل نفس بما كسبت"[٢].

---

(١) المصدر السابق(١/١٤٤).

(٢) المصدر السابق(٤/١٨١) .

(٣) المصدر السابق(١٠/٢٩٠).

(٤) المصدر السابق(٩/٣٦٧) .

(٥) المصدر السابق(١/١٨١) .

(٦) المصدر السابق(١/ ٧٤-١٨١) (٨/٤٦).

(٧) المصدر السابق(١/١٨٠) .

(٨) تفسير المراغي(١/٧٤-١٨٠).

(٩) المصدر السابق(١/٢٨٤-٩/٤٢١).

١٣- **العلي**: قال: "هو المتعالي عن الأشباه والأنداد"(٣).

١٤- **العظيم**: قال: "هو الكبير الذي لا شيء أعظم منه"(٤).

١٥- **الرقيب**: قال: "المراقب وهو المشرف من مكان عال، والمرقب: المكان الذي يشرف منه الإنسان على ما دونه، والمراد هنا بالرقيب الحافظ؛ لأن ذلك من لوازمه"، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ (٥) "أي إنَّـهُ مشرف على أعمالكم ومناشئها من نفوسكم، وتأثيرها في أحوالكم لا يخفى عليه شيء من ذلك، فلا يشرع لكم من الأحكام إلا ما فيه صلاحكم وسعادتكم في الدنيا والآخرة، وفي ذلك تنبيه لنا إلى الإخلاص في أعمالنا، إذ من كان متذكرا أن الله مراقب لأعماله كان جديرا أن يتقيه ويلتزم حدوده"(٦).

١٦- **الخبير**: قال: "العالم بالشيء على وجه الدقة والضبط"، وقال: "خبير: أي عليم بكنه الأشياء وحقائقها"، وقال: "خبير: يعلم ظواهر الأمور وخوافيها"(٧).

١٧- **السلام والسلامة**: قال: "البراءة والعافية من الآفات والعيوب، والسلام: من أسمائه تعالى يدل على تنزيهه عن كل ما لا يليق به من نقص وعجز وفناء، واستعمل السلام في التحية بمعنى السلامة من كل ما يسوء، وبمعنى تأمين المسلم عليه من كل أذى يناله من المسلم فهو دليل المودة والصفاء، وهو تحية أهل الجنة يحييهم بها ربهم جلَّ وعلا وملائكته الكرام، ويُحيِّي بها بعضهم بعضا"، وقال: "السلام أي الذي سلم الخلق من ظلمه، إذ جعلهم على نظم كفيلة برقيهم"(٨).

١٨- **البديع**: قال: "والبديع من أسمائه تعالى لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها"(٩).

---

(١) سورة الرعد (٣٣).

(٢) تفسير المراغي(١/٣٨٢-٤٤٩)، (٦/١٢٦).

(٣) المصدر السابق(١/٣٨٢).

(٤) المصدر السابق(١/٣٨٢) .

(٥) سورة النساء الآية (١).

(٦) تفسير المراغي(٢/١٤٥-١٤٨).

(٧) تفسير المراغي(٢/٣٦٩) (٧/٣٠٤-٣٠٨).

(٨) المصدر السابق(٣/١١٤) (١٠/٤٨).

(٩) المصدر السابق(٣/١٦٩).

١٩- **الحميد**: قال: "والحميد: المحمود المثنى عليه بحمده لنفسه أزلًا، وبحمد عباده له أبدا"، وقال: "المحمود في جميع أفعاله وأقواله وأمره ونهيه"، وقال: "المحمود على جميع ما يخلق ويقدر، لأنه مصدر الخيرات، ومفيض البركات"(١).

٢٠- **المجيد**: قال: "أي كثير الخير والإحسان"، وقال: "المجيد: أي السامي القدر المتناهي في الجود والكرم"(٢).

٢١ - **الكبير المتعال**: قال: "أي هو العظيم الشأن الذي يجل عما وصفه به الخلق من صفات المخلوقين، والمتعالي المستعلي على كل شيء بقدرته وجبروته، وهو وحده الذي له التصرف في ملكوته"(٣).

٢٢- **الحق**: قال: "أي الثابت في ذاته وصفاته"(٤).

٢٣- **اللطيف**: قال: "لطيف بعباده: أي هو بَرٌّ بهم يُفيضُ عليهم من جوده وإحسانه"، وقال: "اللطيف: هو العالم بالأشياء التي يخفى علمُها على العالمين، ومن ثم يقال: إن لطف الله بعباده عجيب، ويراد به دقائق تدبيره لهم"(٥).

٢٤- **الرحيم الغفور**: قال: "أي وهو مع كثرة نعمه وسبوغ فضله، رحيمٌ بعباده فلا يعاجل بعقوبة، غفورٌ لذنوب التائبين إليه المتوكلين عليه"، وقال: "الغفور: أي الذي يعفو ويستر ذنوب عباده بمغفرته"(٦).

٢٥- **المحيط**: قال: "أي إنه تعالى عليم بجمل الأشياء وتفاصيلها، مقتدر عليها لا يفوته شيء منها، فهو يعلم ما تفرق من أجزاء الأجسام، ويقدر على إعادتها إلى مكنتها، ثم بعثها وحسابها، لتستوفي جزاءها على ما قدمت من عمل"(٧).

٢٦- **الولي**: قال: "الناصر والمعين"، وقال: "أي يتولى شؤونكم"(١).

---

(١) المصدر السابق(١٠٣/٥) (١٠٠/١٠).
(٢) المصدر السابق(٣٣٣/٤) (٣٨١/١٠).
(٣) المصدر السابق(٦٥/٥).
(٤) المصدر السابق(١٢٩/٦).
(٥) تفسير المراغي(٢٨/٩) (١٥٢/١٠).
(٦) المصدر السابق(٤٦/٨) (٣٨١/١٠).
(٧) المصدر السابق(٩/٩).

٢٧- **الرحمن**: قال: "المفيض للنعم، المحسن على عباده بلا حصر ولا نهاية"، وقال: "اسم من أسماء الله الحسنى"[٢].

٢٨ — **الحي**: قال: "الذي لا يموت، الفرد الصمد، المنزه عن الصاحبة والولد، سبوح قدوس، رب الملائكة والروح"[٣].

٢٩- **الظاهر والباطن**: قال: "أي وهو الذي ظهرت دلائل وجوده وتكاثرت، وخفيت عنا ذاته فلم ترها العيون، فهو ظاهر بآثاره وأفعاله، وباطن بذاته، ومشرقٌ بجماله وكماله، وهو ظاهر بغلبته على مخلوقاته وتسخيرها لإرادته وباطن بعلمه بما خفي منها، فلا تخفى عليه خافية".

وقال: "(والظاهر والباطن) أي وهو العالي فوق كل شيء، فلا شيء أعلى منه، وهو الباطن بذاته، فلا تحوم حوله الظنون، فهو ظاهر بآثاره وأفعاله، وباطن بعلمه بما بطن وخفي، فلا شيء إليه أقرب من شيء"[٤].

٣٠- **القدوس**: قال: "المنزه عن النقائص المتصف بصفات الكمال"[٥].

٣١- **المؤمن**: قال: "أي واهب الأمن، فكل مخلوق يعيش في أمن فالطائر في جوه، والحية في وكرها، والسمك في البحر تعيش كذلك، ولا يعيش قوم على الأرض ما لم يكن هناك حراس يحرسون قراهم وإلا هلكوا"[٦].

٣٢- **الجبار**: قال: "أي الذي جبر خلقه على ما أراد وقسرهم عليه"[٧].

٣٣- **المتكبر**: قال: "أي البليغ الكبرياء والعظمة"[٨].

٣٤- **الخالق**: قال: "أي المقدر للأشياء على مقتضى الحكمة"[٩].

(١) المصدر السابق(١٧/٩) (٢٢٥/٢).
(٢) المصدر السابق(٣٢/١) (٣٧٦/٩).
(٣) المصدر السابق(٤٢٠/٩).
(٤) تفسير المراغي(٤٢٠/٩).
(٥) المصدر السابق(٧٩/١٠).
(٦) المصدر السابق(٤٨/١٠ -٥٠).
(٧) المصدر السابق(٤٨/١٠).
(٨) المصدر السابق(٤٨/١٠).
(٩) المصدر السابق(٤٨/١٠).

٣٥- **البار**: قال: "أي المبرز لها على صفحة الوجود؛ بحسب السنن التي وضعها والغرض الذي خلقت له"[١].

٣٦- **المصور**: قال: "أي الموجد للأشياء على صورها ومختلف أشكالها كما أراد"[٢].

٣٧- **الودود**: قال: "أي الذي يحب أولياءه ويتودد إليهم بالعفو عن صغير ذنوبهم"[٣].

٣٨- **الحافظ**: قال: "أي رقيب يراقبها في أطوار وجودها، وهو الله تعالى".

ثم ذكر المقسم عليه فقال: ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾[٤] "أي أحلف بالسماء، وبالنجم الثاقب؛ إن للنفوس رقيبا يحفظها ويدبر شئونها، في جميع أطوار وجودها، حتى ينتهي أجلها، وذلك الحافظ والرقيب هو ربها المدبر لشئونها، المصرف لأمورها في معاشها ومعادها"[٥].

٣٩- **المتين**: قال: "الشديد القوي"[٦].

٤٠- **القوي**: قال: "ذو القدرة والقوة الغالب على أمره؛ ولكن أكثر الناس لا يعلمون"[٧].

٤١- **الواسع**: قال: "لا يحصر ولا يتحدد"، وقال: "والله واسع التصرف والقدرة"[٨].

٤٢- **الكريم**: قال: "العلي العظيم"[٩].

٤٣- **الأكرم**: قال: "أي وربك اكرم لكل من يرتجي منه الإعطاء"[١٠].

٤٤- **البرُّ**: قال: "الواسع الإحسان".

٤٥- **الحفيظ**: قال: "إن ربي رقيب على كل شيء قائم بالحفظ عليه"[١١].

---

(١) المصدر السابق(١٠/٤٨).
(٢) المصدر السابق(١٠/٤٨).
(٣) المصدر السابق(١٠/٣٨١).
(٤) سورة الطارق الآية (٤).
(٥) تفسير المراغي(١٠/٣٨٥-٣٨٦).
(٦) المصدر السابق(٩/٢٧٩).
(٧) المصدر السابق(٩/٣٠٠).
(٨) المصدر السابق(١/١٦٥) (١/٣٦٨).
(٩) المصدر السابق(٣٠/٦٥).
(١٠) المصدر السابق(١٠/٤٥٧).
(١١) المصدر السابق(٤/٣٢٧).

٤٦- **المقيت**: قال: "أي مقتدرا أو حافظا أو شاهدا، قال الراغب: "وحقيقته قائما عليه يحفظه ويعينه"[(١)]"[(٢)].

٤٧- **الوهاب**: قال: "أي إنك أنت الكثير المواهب والعطاء؛ فأجب طلبي وحَقِّقْ رجائي"[(٣)].

٤٨- **الشهيد**: قال: "أي شاهد على كل ما يفعله خلقه، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض"[(٤)].

٤٩- **الحاسب**: قال: "حاسبين أي عادلين محصين ... المحاسب إذا كان عليما بكل شيء، ولا يعجز عن شيء، كان جديرا بالعاقل أن يكون في حذر وخوف منه"[(٥)].

٥٠- **الوكيل**: قال: "الكافي الذي توكل إليه الامور"[(٦)].

٥١- **الحسيب**: قال: "الرقيب"، وقال: "المحاسب على العمل ... وقد يراد به المكافىء والكافي"[(٧)].

٥٢- **الصمد**: قال: "الذي يقصد في الحاجات"[(٨)].

٥٣- **الشاكر**: قال: "أي مجاز على الإحسان إحسانا"[(٩)].

٥٤- **الشكور**: قال: "لطاعاتهم فمجازيهم عليها الجزاء الأوفى"[(١٠)].

٥٥- **النصير**: قال: "أي معينا يدفع شرهم عنكم"[(١١)].

---

(١) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان بن عدنان الداوودي، دار القلم-الدار الشامية، ط١، ١٤١٢هـ، (٦٨٧/١).

(٢) تفسير المراغي(٢٧٣/٢).

(٣) المصدر السابق(٢٢٤/٨).

(٤) تفسير المراغي(٧/٩).

(٥) المصدر السابق(١٧١/٦).

(٦) المصدر السابق(١٠٨/٢).

(٧) المصدر السابق(١٥٤/٢- ٢٧٣).

(٨) المصدر السابق(٥١٤/١٠).

(٩) المصدر السابق(٢١٠/١).

(١٠) المصدر السابق(١٠٦/٨).

(١١) المصدر السابق(٢٢٥/٢).

٥٦- **الحليم**: قال: "الذي لا يعجل بالعقوبة، بل يمهل عباده ليصلحوا بصالح أعمالهم ما أفسدوا بما سبق من زلاتهم"[(١)].

٥٧- **العفوُّ** قال: "ذو العفو، والعفو عن الذنب محوه وجعله كأن لم يكن، ... الغفور ذو المغفرة، والمغفرة ستر الذنوب بعدم الحساب عليها"[(٢)].

٥٨- **الغفار**: قال: "لذنوب عباده التائبين"[(٣)].

٥٩- **التواب**: قال: "الذي يقبل التوبة عن عباده كثيرا"، وقال: "وتاب الله على العبد: رحمه وعطف عليه"[(٤)].

٦٠- **القاهر**: قال: "القهر الغلبة والإذلال ... الرب من شأنه العزة والسلطان، والعلو والكبرياء، ... إنه تعالى هو الغالب لعباده، العالي عليهم بتذليله لهم، وخلقه إياهم، فهو فوقهم بالقهر وهم دونه"[(٥)].

٦١- **القهار**: قال: "الغالب على أمره الذي لا يغلبه أحد"[(٦)].

وبعد ذكر كلام المراغي رحمه الله على أسماء الله الحسنى خم هذا المبحث بكلام بعض أهل العلم على الأسماء الحسنى، ومن ذلك ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "الأسماء الحسنى المعروفة هي التي يدعى الله بها، وهي التي جاءت في الكتاب والسنة وهي التي تقتضي المدح والثناء بنفسها، والعلم والقدرة والرحمة ونحو ذلك وهي في نفسها صفات مدح، والأسماء الدالة عليها أسماء مدح"[(٧)].

---

(١) المصدر السابق(٣٤٩/١).

(٢) المصدر السابق(٢٢١/٢).

(٣) المصدر السابق(٢٤٤/٨).

(٤) تفسير المراغي(٨٣/١-١٧٨).

(٥) المصدر السابق(٦٩/٣- ٧٥).

(٦) المصدر السابق(٤٠٨/٤).

(٧) شرح العقيدة الأصفهانية ص(١٩).

وقال ابن القيم رحمه الله: "أسماؤه كلها أسماء مدح وحمد وثناء وتمجيد، ولذلك كانت حسنى، وصفاته كلها صفات كمال، ونعوته كلها نعوت جلال، وأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وعدل"(١).

وقال: "أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات كماله، فهي مشتقة من الصفات، فهي أسماء، وهي أوصاف، وبذلك كانت حسنى، إذ لو كانت ألفاظا لا معاني فيها لم تكن حسنى، ولا كانت دالة على مدح ولا كمال"(٢).

ويقول الشيخ السعدي رحمه الله عند فسير آية الأعراف ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠]: "هذا بيان لعظيم جلاله وسعة أوصافه، بأن له الأسماء الحسنى، أي: له كل اسم حسن، وضابطه: أنه كل اسم دال على صفة كمال عظيمة، وبذلك كانت حسنى، فإنها لو دلت على غير صفة، بل كانت علما محضا لم تكن حسنى، وكذلك لو دلت على صفة ليست بصفة كمال، بل إما صفة نقص أو صفة منقسمة إلى المدح والقدح، لم تكن حسنى، فكل اسم من أسمائه دال على جميع الصفة التي اشتق منها، مستغرق لجميع معناها.

وذلك نحو {العليم} الدال على أن له علما محيطا عاما لجميع الأشياء، فلا يخرج عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

و {كالرحيم} الدال على أن له رحمة عظيمة، واسعة لكل شيء.

و {كالقدير} الدال على أن له قدرة عامة، لا يعجزها شيء، ونحو ذلك.

ومن تمام كونها "حسنى" أنه لا يدعى إلا بها، ولذلك قال: {فَادْعُوهُ بِهَا} وهذا شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة، فيدعى في كل مطلوب بما يناسب ذلك المطلوب، فيقول الداعي مثلا اللهم اغفر لي وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم، وتب عَلَيَّ يا تواب، وارزقني يا رزاق، والطف بي يا لطيف ونحو ذلك.

وقوله: {وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} أي: عقوبة وعذابا على إلحادهم في أسمائه، وحقيقة الإلحاد الميل بها عما جعلت له، إما بأن يسمى بها من لا

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين(١/١٢٥).

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين(١/٢٨).

يستحقها، كتسمية المشركين بها لآلهتهم، وإما بنفي معانيها وتحريفها، وأن يجعل لها معنى ما أراده الله ولا رسوله، وإما أن يشبه بها غيرها، فالواجب أن يحذر الإلحاد فيها، ويحذر الملحدون فيها"[(١)].

(١) تفسير السعدي(٢/١٧٥-١٧٦).

المبحث الثاني: آراء المراغي الاعتقادية في صفات الله

يتبين مذهب المراغي رحمه الله في باب الصفات؛ من خلال كلامه على الآيات الواردة في هذا الباب؛ فقد وافق مذهب السلف في بعضها؛ وفي البعض الآخر جانبه؛ فقال عن عموم باب الصفات عند قوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) "أي وله تعالى الصفة العليا، وهي أنه الواحد المنزه عن الولد، وأنه لا إله إلا هو، وله صفات الكمال والجلال من القدرة والعلم والإرادة ونحو ذلك"(٢).

وقال عند قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(٣): "أي وله الوصف البديع في السموات والأرض، وهو أنه لا إله إلا هو، ليس كمثله شيء، تعالى عن الشبيه والنظير"(٤).

وذكر عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ (٥) فقال عن أنواع تكبيره جل وعلا: "تكبيره في صفاته؛ باعتقاد أنه مستحق لكل صفات الكمال، منزه عن صفات النقص"(٦).

وذكر في تعريف التسبيح والتقديس فقال: "والتسبيح: تنزيهه تعالى عما لا يليق به، والتقديس: إثبات ما يليق من صفات الكمال"(٧).

وذكر رحمه الله بعد قول الحق جل وعلا: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (٨).

---

(١) سورة النحل الآية (٦٠).

(٢) تفسير المراغي(٥/٢٢٢).

(٣) سورة الروم الآية (٢٧).

(٤) تفسير المراغي(٧/٢٧٢).

(٥) سورة الإسراء الآية (١١١).

(٦) تفسير المراغي(٥/٣٦٩).

(٧) المصدر السابق(١/٧١).

(٨) سورة آل عمران الآية (٧).

قال: "وصف –أي الله– الكتاب وجعله قسمين، محكمِ العبارة محفوظٍ من الاحتمال والاشتباه، وهو الأصل الذي دعى الناس إلى تدبُّرِ معانيه والعمل به، وإليه يرجع في فهم المتشابه، ومتشابهٍ وهو ما يدل اللفظ فيه على شيء والعقل على خلافه، فتشابهت الدلالة ولم يمكن الترجيح، كالاستواء على العرش، وكون عيسى روح الله وكلمته، ثم بين أن الناس في هذا انقسموا فرقتين: فرقة زائغة يرجعون في تأويله إلى أهوائهم وتقاليدهم لا إلى الأصل المحكم الذي بني عليه الاعتقاد، وفرقة يقولون آمنا به ونفوض علمه إلى ربنا، وقد دعوه ألا يضلهم بعد الهداية، ويرزقهم الثبات على معرفة الحقيقة والاستقامة على الطريقة"(١).

ثم قال في توضيح الآية: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾(٢): "أي هو الذي أنزل عليك الكتاب منقسمًا إلى محكمِ العبارة، بعيدٍ من الاحتمال والاشتباه، ومتشابهٍ وهو ضربان:

(١) ما يدل اللفظ فيه على شيء، والعقل على خلافه، فتشابهت فيه الدلالة ولم يمكن الترجيح؛ كالاستواء على العرش(٣).

(٢) ما استأثر الله بعلمه من أحوال الآخرة.

وقد جاء وصف القرآن بالمحكم في قوله: ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾(٤)، وهو إما بمعنى إحكام النظم وإتقانه، وإما بمعنى الحكمة التي اشتملت عليها آياته، ووصفه بالمتشابه في قوله ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ﴾(٥) بمعنى أنه يشبه بعضه بعضا، في الهداية والسلامة من التناقض والتفاوت والاختلاف؛ كما قال: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾(٦)،

---

(١) تفسير المراغي(١/٤٤٩- ٤٥٢).

(٢) سورة هود الآية (١).

(٣) انظر: الكلام على الاستواء ص(٣٧٣).

(٤) سورة الزمر الآية (٢٣).

(٥) سورة الزمر الآية (٢٣).

(٦) سورة النساء الآية (٨٢).

وقوله ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ (١) أي إن ما جيئوا به من الثمرات في الآخرة يشبه ما رزقوا به من قبل، فاشتبهوا فيه لهذا التشابه.

ثم قال: "﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ﴾ (٢) أي فأما الذين يميلون عن الحق ويتبعون أهواءهم الباطلة؛ فينكرون المتشابه وينفرون الناس منه، ويستعينون على ذلك بما في غرائز الناس وطبائعهم من إنكار ما لم يصل إليه علمهم، ولا يناله حسهم، كالإحياء بعد الموت، وجميع شؤون العالم الأخروي، ويأخذونه على ظاهره بدون نظر إلى الأصل المحكم ليفتنوا الناس بدعوتهم إلى أهوائهم، فيقولون إن الله روح والمسيح روح منه، فهو من جنسه، وجنسه لا يتجزأ فهو هو، ومعنى ابتغاء تأويله: أنهم يرجعونه إلى أهوائهم وتقاليدهم، لا إلى الأصل المحكم الذي بنى عليه الاعتقاد، فيحولون خبر الإحياء بعد الموت، وأخبار الحساب والجنة والنار عن معانيها، ويصرفونها إلى معان من أحوال الناس في الدنيا؛ ليخرجوا الناس من دينهم، والقرآن مليء بالرد عليهم من نحو قوله: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ﴾ "(٣).

ثم قال: "﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ (٤) للعلماء في تفسير هذه الآية رأيان:

(١) رأى بعض السلف وهو الوقوف على لفظ الجلالة، وجعل قوله: والراسخون في العلم كلام مستأنف، وعلى هذا فالمتشابه لا يعلم تأويله إلا الله، واستدلوا على ذلك بأمور منها:

(أ) أن الله ذم الذين يتبعون تأويله.

(ب) أن قوله: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾(١) ظاهر في التسليم المحض لله تعالى، ومن عرف الشيء وفهمه لا يعبر عنه بما يدل على التسليم المحض، وهذا رأي كثير من الصحابة رضوان الله عليهم كأبي بن كعب وعائشة(٢).

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٥).

(٢) سورة آل عمران الآية (٧).

(٣) سورة يس الآية (٧٩).

(٤) سورة آل عمران الآية (٧).

(٢) ويرى بعضٌ آخرون الوقف على لفظ (العلم)، ويجعل قوله: (يقولون آمنا) كلام مستأنف، وعلى هذا فالمتشابه يعلمه الراسخون؛ وإلى ذلك ذهب ابن عباس وجمهرة من الصحابة، وكان ابن عباس يقول: «أنا من الراسخين في العلم، أنا أعلم تأويله»(٣).
وردُّوا على أدلة الأوَّلين بأن الله تعالى إنما ذم الذين يبتغون التأويل بذهابهم فيه إلى ما يخالف المحكمات يبتغون بذلك الفتنة، والراسخون في العلم ليسوا كذلك؛ فإنهم أهل اليقين الثابت الذي لا اضطراب فيه، فالله يُفيض عليهم فهم المتشابه بما يتفق مع فهم المحكم، وبأن قولهم ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ (٤) لا ينافي العلم، فإنهم لرسوخهم في العلم، ووقوفهم على حق اليقين لا يضطربون، بل يؤمنون بهذا وذاك لأن كلا منهما من عند الله وليس في هذا من عجب، فإن الجأهل في اضطراب دائم، والراسخُ في العلم ثابتُ العقيدة لا تشتبه عليه المسالك.

ووجود المتشابه الذي يستأثر الله بعلمه من أحوال الآخرة ضروري؛ لأن من مقاصد الدين الإخبارُ بأحوالها، فيجب الإيمان بما جاء به الرسول من ذلك، وهو من عالم الغيب نؤمن به كما نؤمن بالملائكة والجن، ولا يعلم تأويل ذلك: أي حقيقة ما تؤول إليه هذه الألفاظ إلا الله، والراسخون في العلم وغيرهم في مثل هذا سواء، لأن الراسخين يعرفون ما يقع تحت حكم الحس والعقل، ولا يستشرفون بأنظارهم إلى معرفة حقيقة ما يخبر به الرسل من عالم الغيب، إذ هم يعلمون أنه لا مجال لحسهم ولا لعقلهم فيه، إنما سبيله التسليم، فيقولون آمنا به كل من عند ربنا، فالوقف في مثل هذا لازم على لفظ الجلالة (الله).

أما النوع الأول من المتشابه؛ وهو الألفاظ التي لا يجوز في العقل أخذها على ظاهرها من صفاته تعالى وصفات أنبيائه؛ كقوله ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ (٥) فمثل هذا يمنع الدليل العقليُّ والدليل النقليُّ حملَه على ظاهره، ومثل هذا هو الذي يأتي فيه الخلاف في علم الراسخين بتأويله، فالذين نفوا عنهم علمهم به جعلوا حكمة تخصيص الراسخين بالتفويض

(١) سورة آل عمران الآية (٧).
(٢) انظر: تفسير الطبري (٦/٢٠٢).
(٣) انظر: تفسير الطبري(٦/٢٠٣).
(٤) سورة آل عمران الآية (٧).
(٥) سورة النساء الآية (١٧١).

والتسليم هي تمييزهم بين الأمرين، وإعطاء كلٍّ حكمَه كما تقدم، والذين أثبتوا لهم علمه يردون ما تشابه ظاهره من صفات الله وأنبيائه إلى أم الكتاب وهو المحكم، ويأخذون منه ما يمكنهم من فهم المتشابه، وعلى هذا فتخصيص الراسخين بهذا العلم لبيان أن غيرهم يمتنع عليه الخوض فيه، ولا يجوز لهم التهجم عليه.

وقد يخطر على البال سؤال وهو: لم كان في القرآن متشابه لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم؟ ولم لم يكن كلُّه محكمًا يتساوى في فهمه جميع الناس، وهو قد نزل هاديا، والمتشابه يحول دون الهداية لوقوع اللَّبْس في فهمه، وفتح باب الفتنة في تأويله لأهل التأويل؟

أجاب العلماء عن هذا بأجوبة كثيرة منها:

(١) إن في إنزال المتشابه امتحانا لقلوبنا في التصديق به، إذ لو كان ما جاء في الكتاب معقولًا واضحًا لا شبهة فيه لأحد، لما كان في الإيمان به شيء من الخضوع لأمر الله والتسليم لرسله.

(٢) إن في وجوده في القرآن حافزا لعقول المؤمنين إلى النظر فيه كيلا تضعف وتموت، إذ السهل الجلي لا عمل للعقل فيه، وإذا لم يجد العقل مجالا للبحث مات، والدين أعز شيء على الإنسان، فإذا ضعف عقله في فهمه ضعف في كل شيء، ومن ثم قال﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ ﴾(١)، ولم يقل والراسخون في الدين لأن العلم أعم وأشمل، فمن رحمته أن جعل في الدين مجالا لبحث العقل بما أودع فيه من المتشابه، إذ بحثه يستلزم النظر في الأدلة الكونية، والبراهين العقلية، ووجوه الدلالة ليصل إلى فهمه ويهتدي إلى تأويله.

(٣) إن الأنبياء بُعِثُوا إلى الناس كافةً، وفيهم العالم والجاهل والذكي والبليد، وكان من المعاني الحكمُ الدقيقةُ التي لا يمكن التعبير عنها بعبارة تكشف عن حقيتها، فجعل فهم هذا من حظ الخاصة، وأمر العامة بتفويض الأمر فيه إلى الله، والوقوف عند فهم المحكم، ليكون لكلٍّ نصيبُه على قدر استعداده، فإطلاق كلمة الله وروح من الله على عيسى يفهم منه الخاصة ما لا يفهمه العامة، ومن ثمَّ فُتِنَ النصارى بمثل هذا التعبير إذ لم يقفوا عند حدِّ المحكم؛ وهو التنزيه واستحالة أن يكون لله أم أو ولد بمثل ما دل عليه قوله: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾(٢).

---

(١) سورة آل عمران الآية (٧).

(٢) سورة آل عمران الآية (٥٩).

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[(١)] أي: وما يعقل ذلك ويفقه حكمته إلا ذوو البصائر المستنيرة، والعقول الراجحة التي امتازت بالتدبر والتفكر في جميع الآيات المحكمة التي هي الأصول، حتى إذا عرض لهم المتشابه بعد ذلك سهل عليهم أن يتذكروها ويردوا المتشابه إليها، ويقولوا في المتشابه الذي هو نبأ عالم الغيب: إن قياس الغائب على الشاهد قياس مع الفارق لا ينبغي للعقلاء أن يعتبروه"[(٢)].

مجمل كلام المراغي رحمه الله السابق على هذه الآية أنه ذكر في المعنى الإجمالي للآية أن الله قسم كتابه الى قسمين:

القسم الأول: محكم العبارة محفوظ من الاحتمال والاشتباه، وهو الأصل الذي دعى الناس إلى تدبر معانيه والعمل به، إليه يرجع في فهم المتشابه.

والقسم الثاني: متشابه وهو ما يدل اللفظ فيه على شيء والعقل على خلافه، فتشابهت الدلالة ولم يمكن الترجيح؛ كالاستواء على العرش، وكون عيسى روح الله وكلمته.

ثم ذكر المراغي أن الناس في هذا انقسموا فرقتين:

الفرقه الأولى: فرقة زائغة يرجعون في تأويله إلى أهوائهم وتقاليدهم لا إلى الأصل المحكم الذي بُنِيَ عليه الاعتقاد.

والفرقه الثانية: فرقة يقولون: آمنا به ونفوض علمه إلى ربنا.

ثم ذكر المراغي في توضيح الآية أن الكتاب منقسم إلى قسمين:

القسم الأول: محكم العبارة، بعيد من الاحتمال والاشتباه.

والقسم الثاني: متشابه؛ وهو ضربان:

(١) ما يدل اللفظ فيه على شيء والعقل على خلافه، فتشابهت فيه الدلالة ولم يمكن الترجيح؛ كالاستواء على العرش.

(٢) ما استأثر الله بعلمه من أحوال الآخرة.

ثم ذكر بعد ذلك رحمه الله موقف العلماء من المتشابه، وقسمه إلى قولين:

القول الأول: المتشابه لا يعلمه إلا الله، وموقفهم منه التفويض والتسليم.

---

(١) سورة آل عمران الآية (٧).

(٢) تفسير المراغي(١/٤٥٥– ٤٥٨).

القول الثاني: المتشابه يعلمه الراسخون في العلم، وموقفهم منه أنهم يردون المتشابه إلى المحكم.

المراغي رحمه الله أفاض في مسئلة المحكم والمتشابه، وذكر أقوال الناس في ذلك ولم يرجح قولا على قول، لكن أقول: هذه المسئلة قد خاض الناس فيها بالحق تارة وبالباطل تارات فخاض فيها أهل التعطيل والتحريف والمفوضة اهل التجهيل الذين قال عنهم في تلخيص الحموية: "فصل: وأما أهل التجهيل فهم كثير من المنتسبين إلى السنة وأتباع السلف.

وحقيقة مذهبهم أن ما جاء به النبي ﷺ من نصوص الصفات ألفاظ مجهولة لا يَعرِفُ معناها حتى النبيُّ ﷺ يتكلم بأحاديث الصفات ولا يعرفُ معناها.

ثم هم مع ذلك يقولون: ليس للعقل مدخل في باب الصفات.

فيلزم على قولهم أن لا يكون عند النبي ﷺ وأصحابه وأئمة السلف في هذا الباب علومٌ عقليةٌ ولا سمعيةٌ؛ وهذا من أبطل الأقوال.

وطريقتهم في نصوص الصفات إمرارُ لفظها مع تفويض معناها، ومنهم من يتناقض فيقول: تُجرَى على ظاهرها مع أن لها تأويلا يخالفه لا يعلمه إلا الله، وهذا ظاهرُ التناقض فإنه إذا كان المقصود بها التأويل الذي يخالف الظاهر؛ وهو لا يعلمه إلا الله؛ فكيف يمكن إجراؤها على ظاهرها؟

وقد قال الشيخ رحمه الله –أي ابن تيمية– عن طريقة هؤلاء في كتاب (العقل والنقل): "فتبين أن قول أهل التفويض الذين يزعمون أنهم متبعون للسنة والسلف من شر أقوال أهل البدع والإلحاد"(١).

والشبهة التي احتج بها أهل التجهيل هي وقف أكثر السلف على {إلا الله} من قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ ﴾(٢)، وقد بنوا شبهتهم على مقدمتين:

الأولى: أن آيات الصفات من المتشابه.

---

(١) در تعارض العقل والنقل، لأبي العباس ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود، ط٢، ١٤١١هـ-١٩٩١م، (١٢١/١).

(٢) سورة آل عمران الآية (٧).

الثانية: أن التأويل المذكور في الآية: هو صرف اللفظ عن ظاهره إلى المعنى الذي يخالف الظاهر، فتكون النتيجة أن لآيات الصفات معنى يخالف ظاهرها لا يعلمه إلا الله.

والرد عليهم من وجوه:

الأول: أن نسألهم ماذا يريدون بالتشابه الذي أطلقوه على آيات الصفات، أيريدون اشتباه المعنى وخفاءه، أم يريدون اشتباه الحقيقة وخفاءها؟.

فإن أرادوا المعنى الأول -وهو مرادهم- فليست آيات الصفات منه لأنها ظاهرة المعنى، وإن أرادوا المعنى الثاني فآيات الصفات منه لأنه لا يعلم حقيقتها وكيفيتها إلا الله تعالى. وبهذا عُرِفَ أنه لا يصح إطلاق التشابه على آيات الصفات؛ بل لابد من التفصيل السابق.

الثاني: أن قولهم: "إن التأويل المذكور في الآية هو صرف اللفظ عن ظاهره إلى المعنى الذي يخالف الظاهر" غير صحيح، فإن هذا المعنى للتأويل اصطلاح حادث لم يعرفهُ العرب والصحابة الذين نزل القرآن بلغتهم، وإنما المعروف عندهم أن التأويل يراد به معنيان:

إما التفسير؛ ويكون التأويل على هذا معلوما لأولي العلم؛ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: "أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله"[(١)]، وعليه يحمل وقف كثير من السلف على قوله تعالى: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾[(٢)] من الآية السابقة.

وإما حقيقة الشيء ومآله، وعلى هذا يكون تأويل ما أخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر غيرُ معلوم لنا، لأن ذلك هو الحقيقة والكيفية التي هو عليها، وهو مجهول لنا كما قاله مالك وغيرُه في الاستواء وغيرِه، وعليه يحمل وقف جمهور السلف على قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[(٣)] من الآية السابقة.

الوجه الثالث: أن الله أنزل القرآن للتدبر، وحثَّنا على تدبُّرِه كلِّه، ولم يستثن آيات الصفات، والحث على تدبُّرِه يقتضي أنه يمكن الوصول إلى معناه، وإلا لم يكن للحث على تدبُّرِه معنًى، لأن الحثَّ على شيء لا يمكن الوصول إليه لغوٌ من القول يُنزَّهُ كلامُ الله وكلامُ رسوله ﷺ عنه، وهذا -أعني الحث على تدبره كله من غير استثناء- يدل على أن لآيات

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره(٦/٢٠٣).

(٢) سورة آل عمران الآية (٧).

(٣) سورة آل عمران الآية (٧).

الصفات معنًى يمكن الوصول إليه بالتدبُّر، وأقرب الناس إلى فهم ذلك المعنى هو النبيُّ ﷺ وأصحابُه، لأنَّ القرآنَ نزل بلغتهم، ولأنهم أسرعُ الناس إلى امتثال الحث على التدبر خصوصًا فيما هو أهم مقاصد الدين.

وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي[(١)]:«**حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن؛ عثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لا يتجاوزونها حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل، قال: فتعلمنا القرآن، والعلم، والعمل جميعا**»[(٢)]، فكيف يجوز مع هذا أن يكونوا جاهلين بمعاني نصوص الصفات التي هي أهم شيء في الدين؟!

الرابع: إن قولهم يستلزم أن يكون الله قد أنزل في كتابه المبين ألفاظًا جوفاء لا يبين بها الحق، وإنما هي بمنزلة الحروف الهجائية والأبجدية، وهذا ينافي حكمة الله التي أنزل الله الكتاب وأرسل الرسول من أجلها.

تنبيه: علم مما سبق أن معاني التأويل ثلاثة:

أحدها: التفسير وهو إيضاح المعنى وبيانه، وهذا اصطلاح جمهور المفسرين، ومنه قوله ﷺ لابن عباس: «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**»[(٣)]، وهذا معلوم عند العلماء في آيات الصفات وغيرها.

---

(١) مقرئ الكوفة، الإمام، العلم، عبد الله بن حبيب بن ربيعة الكوفي، من أولاد الصحابة، مولده في حياة النبي ﷺ الكوفي المقرىء مشهور بكنيته ولأبيه صحبة، قال أبو إسحاق: كان أبو عبد الرحمن السلمي يقرئ الناس في المسجد الأعظم أربعين سنة، وقال سعد بن عبيدة: أقرأ أبو عبد الرحمن في خلافة عثمان، وإلى أن توفي في زمن الحجاج، انظر: السير(٤/٢٦٨).

(٢) أخرجه أحمد في المسند(٣٨/٤٦٦)، الحديث رقم(٢٣٤٨٢)، وابن أبي شيبة في مسنده(٢/٤١٣)، وحسن إسناده شعيب الأرنؤوط في تحقيق المسند.

(٣) أخرجه البخاري بلفظ «اللهم فقهه في الدين»، كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء (١/٤١)، الحديث رقم(١٤٣)، ومسلم بلفظ «اللهم فقهه»، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، (٤/١٩٢٧)، الحديث رقم(٢٤٧٧)، وخرجه بتمامه أحمد في المسند(٤/٢٢٥) الحديث رقم(٢٣٩٧)، وصححه الألباني في تعليقه على ابن حبان(١٠/١٥٦).

الثاني: الحقيقة التي يؤول الشيء إليها، وهذا هو المعروف من معنى التأويل في الكتاب والسنة؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ (١) ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٢)، فتأويل آيات الصفات بهذا المعنى هو الكنه والحقيقة التي هي عليها، وهذا لا يعلمه إلا الله.

الثالث: صرف اللفظ عن ظاهره إلى المعنى الذي يخالف الظاهر، وهو اصطلاح المتأخرين من المتكلمين وغيرهم، وهذا نوعان: صحيح وفاسد:

فالصحيح: ما دل الدليل عليه مثل تأويل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ (٣) إلى أن المعنى إذا أردت أن تقرأ.

والفاسد: ما لا دليل عليه كتأويل استواء الله على عرشه باستيلائه ويده بقوته ونعمته ونحو ذلك"(٤).

وقال في تلخيص التدمرية: "فإن قلت: ما الجواب عن قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (٥)؛ فإن هذا يقتضي أن في القرآن آيات متشابهات لا يعلم تأويلهن إلا الله؟

قلنا: الجواب أن للسلف في الوقف في هذه الآية قولين:

أحدُهما: الوقف عند قوله: (إلا الله) وهو قول جمهور السلف والخلف، وبناء عليه يكون المراد بالتأويل في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (٦) الحقيقة التي يؤول الكلام إليها، لا التفسير الذي هو بيان المعنى، فتأويل آيات الصفات على هذا هو حقيقة تلك الصفات وكنهها، وهذا من الأمور الغيبية التي لا يدركها العقل، ولم يرد بها السمع فلا يعلمها إلا الله.

---

(١) سورة الأعراف الآية (٥٣).

(٢) سورة النساء الآية (٥٩).

(٣) سورة النحل الآية (٩٨).

(٤) تلخيص الحموية ص(٤٦).

(٥) سورة آل عمران الآية (٧).

(٦) سورة آل عمران الآية (٧).

الثاني: الوصل فلا يقفون على قوله: (إلا الله) وهو قول جماعة من السلف والخلف، وبناء عليه يكون المراد بالتأويل في قوله﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾[1] التفسير الذي هو بيان المعنى، وهذا معلوم للراسخين في العلم كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله»[2]، وقال مجاهد: «عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته، أقفه عند كل آية وأسأله عن تفسيرها»[3].

وبهذا تبين أن الآية لا تدل على أن في القرآن شيئا لا يعلم معناه إلا الله تعالى، وإنما تدل على أن في القرآن شيئا لا يعلم حقيقته وكنهه إلا الله على قراءة الوقف، وتدل على أن الراسخين في العلم يعلمون معنى المتشابه الذي يخفى على كثير من الناس على قراءة الوصل، وعلى هذا فلا تعارض مع ما ذكرناه من أنه ليس في القرآن شيء لا يعلم معناه"[4].

لما ذكرت كلام المراغي رحمه الله على عموم الصفات، الآن أذكر كلامه على آحاد الصفات، فمن ذلك:

١ – صفة الأحد والصمد:

قال بعد قوله تعالى:﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾[5]: "أحد: أي واحد لا كثرة في ذاته، فهو ليس بمركب من جواهر مختلفة مادية، ولا من أصول متعددة غير مادية، والصمد: الذي يقصد في الحاجات كما قال:

لقد بكر الناعي بخير بني أسد بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد[6]...

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾[7] أي قل لمن سألك عن صفة ربك: الله هو الواحد المنزه عن التركيب والتعدد، لأن التعدد في الذات مستلزم لافتقار المجموع إلى تلك الأجزاء، والله لا يفتقر إلى شيء.

(١)سورة آل عمران الآية (٧).

(٢) سبق تخريجه ص(٣٥٨).

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره(١/٩٠).

(٤) تقريب التدمرية (٥٧).

(٥) سورة الإخلاص الآية (١-٢).

(٦) البيان والتبيين، لأبي عثمان الجاحظ، دار ومكتبة الهلال، ١٤٢٣هـ، (١/١٦١).

(٧) سورة الإخلاص الآية (١).

﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ [(١)] أي: هو الله الذي يقصده العباد ويتوجهون إليه"[(٢)].

المراغي رحمه الله ذكر التركيب والجسم في الصفات، وهذا إطلاقه على الله نفيًا أو إثباتًا من البدع المحدثة في الأمة، لأنه لم يرد في الكتاب والسنة، وهو من الألفاظ المجملة، ومذهب أهل السنة في ذلك التفصيل.

قال الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله في تلخيص الحموية لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "الكلام في الجسم وإطلاقه على الله نفيا أو إثباتا من البدع التي لم ترد في الكتاب والسنة، وأقوال السلف، وهو من الألفاظ المجملة التي تحتاج إلى تفصيل:

فإن أريد بالجسم الشيء المحدث المركب، المفتقر كل جزء منه إلى الآخر، فهذا ممتنع على الرب الحي القيوم.

وإن أريد بالجسم ما يقوم بنفسه، ويتصف بما يليق به، فهذا غير ممتنع على الله تعالى، فإن الله قائم بنفسه، متصف بالصفات الكاملة التي تليق به.

لكن لما كان لفظ الجسم يحتمل ما هو حق وباطل بالنسبة إلى الله؛ صار إطلاق لفظه نفيا أو إثباتا ممتنعا على الله.

وهذه اللوازم التي يذكرها أهل البدع ليتوصلوا بها إلى نفي ما أثبته الله لنفسه من صفات الكمال على نوعين:

الأول: لوازم صحيحة لا تنافي ما وجب لله من الكمال، فهذه حق يجب القول بها وبيان أنها غير ممتنعة على الله.

الثاني: لوازم فاسدة تنافي ما وجب لله من الكمال، فهذه باطلة يجب نفيها، وأن يبين أنها غير لازمة لنصوص الكتاب والسنة، لأن الكتاب والسنة حق، ومعانيهما حق، والحق لا يمكن أن يلزم منه باطل أبدا"[(٣)].

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: "فإن في سورة الإخلاص من كمال التوحيد العلمي الاعتقادي، وإثبات الأحدية لله المستلزمة نفي كل شركة عنه، وإثبات الصمدية المستلزمة

(١) سورة الإخلاص الآية (٢).

(٢) تفسير المراغي(١٠/٥١٤-٥١٥).

(٣) فتح رب البرية بتلخيص الحموية ص(٢٢).

لإثبات كل كمال له، مع كون الخلائق تصمد إليه في حوائجها، أي تقصده الخليقة وتتوجه إليه علويُّها وسفليُّها، ونفي الوالد والولد والكفء عنه المتضمن لنفي الأصل والفرع، والنظير والمماثل، مما اختصت به وصارت تعدل ثلث القرآن، ففي اسمه الصمد إثبات كل الكمال، وفي نفي الكفء التنزيه عن الشبيه والمثال، وفي الأحد نفي كل شريك لذي الجلال، وهذه الأصول الثلاثة هي مجامع التوحيد"(١).

وقال أيضا لما تكلم على سورة الكافرون والاخلاص: "وقد اشتملتا على نوعي التوحيد الذي لا نجاة للعبد ولا فلاح إلا بهما، وهما توحيد العلم والاعتقاد، المتضمن تنزيه الله عما لا يليق به من الشرك والكفر، والولد والوالد، وأنه إله أحد صمد، لم يلد فيكون له فرع، ولم يولد فيكون له أصل، ولم يكن له كفوًا أحد فيكون له نظير، ومع هذا فهو الصمد الذي اجتمعت له صفات الكمال كلها، فتضمنت السورة إثبات ما يليق بجلاله من صفات الكمال، ونفي ما لا يليق به من الشريك أصلا وفرعا ونظيرا، فهذا توحيد العلم والاعتقاد، والثاني توحيد القصد والإرادة، وهو أن لا يعبد إلا إياه، فلا يشرك به في عبادته سواه، بل يكون وحده هو المعبود"(٢).

وقال الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله في تفسيره لسورة الإخلاص: "وقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ (٣) أي هو الله الذي تتحدثون عنه وتسألون عنه {أحد} أي: متوحد بجلاله وعظمته، ليس له مثيل، وليس له شريك، بل هو متفرد بالجلال والعظمة عز وجل، {الله الصمد} جملة مستقلة، بين الله تعالى أنه {الصمد}، أجمع ما قيل في معناه: أنه الكامل في صفاته، الذي افتقرت إليه جميع مخلوقاته، فقد روي عن ابن عباس أن الصمد هو الكامل في علمه، الكامل في حلمه، الكامل في عزته، الكامل في قدرته، إلى آخر ما ذكر في الأثر(٤)، وهذا يعني أنه مستغن عن جميع المخلوقات لأنه كامل، وورد أيضا في تفسيرها أن الصمد هو الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجها، وهذا يعني أن جميع المخلوقات مفتقرة إليه،

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت-مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط٢٧، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م، (١٦٦/٤).

(٢) بدائع الفوائد(٢٣٠/٢).

(٣) سورة الإخلاص الآية (١-٢).

(٤) تفسير ابن جرير(٦٩٢/٢٤).

وعلى هذا فيكون المعنى الجامع للصمد هو: الكامل في صفاته الذي افتقرت إليه جميع مخلوقاته"(١).

٢- صفة المحبة والرضى لله

ذكر المراغي رحمه الله الحديث الصحيح في المحبة فقال: "روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله تعالى: من عادى لي وليا فقد بارزني بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أفضل من أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشى بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن دعاني لأجبته، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه**»(٢)، أي إن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله عز وجل، فلا يسمع إلا لله، ولا يبصر إلا لله أي لما شرعه الله له، ولا يبطش ولا يمشي إلا في طاعته عز وجل، مستعينا به في ذلك كله"(٣).

وذكر حديث "عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أحب الله تعالى عبدا يقول لجبريل: إني قد أحببت فلانا فأحبه، فينادي في السماء، ثم تنزل له المحبة في الأرض، فذلك قول الله تعالى:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾(٤)»(٥)"(٦).

وقال: "ومحبة الله للعمل: ثوابه عليه، ومحبته للعامل: رضاه عنه"(٧).

وقال: "محبة الله لعباده إرادة الخير والثواب لهم"(١).

---

(١) تفسير ابن عثيمين جزء عم ص(٣٤٩).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الرقائق، باب التواضع (١٠٥/٨)، الحديث رقم(٦٥٠٢).

(٣) تفسير المراغي(٢٣٩/٥).

(٤) ورة مريم الآية (٩٦).

(٥) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع جبريل ونداء الله الملائكة (١٤٢/٩)، الحديث رقم(٧٤٨٥)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدا حببه لعباده، (٢٠٣٠/٨)، الحديث رقم(٢٦٣٧).

(٦) تفسير المراغي(٧٤/٦).

(٧) المصدر السابق(٣٢١/٣).

وقال بعد قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾[٢]: "أي إن الله يحب الذين يرجعون إليه تائبين غير مصرين على سيِّء أفعالهم، بتغليب سلطان الشهوة على سنة الفطرة حين أتوا نساءهم في المحيض، أو في غير المأتي الذي أمر الله به، ﴿ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[٣] أي: وإنه تعالى يحب كل من نزه نفسه عن الأقذار، وابتعد عن ارتكاب المنكرات، وهؤلاء أحب إلى الله ممن فرطت منهم الزلة ووقعوا في الدنس ثم تابوا"[٤].

وقال بعد قوله تعالى: ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾[٥]: "حب الله لشيء هو الرضا به والإثابة عليه"[٦].

وقال عن محبة الله العباده: "وحبه تعالى وبغضه شأن من شؤونه لا نبحث عن كنهه ولا عن كيفيته"[٧].

وقال بعد قوله تعالى: "﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾[٨] رضي الله عنهم: أي قبل طاعتهم، ورضوا عنه: أي بما أسبغ عليهم من النعم الدنيوية والدينية"[٩].

وقال بعد قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾[١٠]: "وحب الله إياهم من صفات كماله، إذ العالم بتفاوت الأشياء في الحسن والقبح والكمال والنقص؛ يكون من صفاته حب الكمال والحق والخير وبغض أضدادها، وحبه تعالى منزه عن مشابهته حبنا كتنزه ذاته وسائر صفاته عن مشابهة ذواتنا وصفاتنا، ويظهر أثر حبه لعباده في أخلاقهم وأعمالهم ومعارفهم وآدابهم، كما

---

(١) تفسير المراغي(١/٢٦١).
(٢) سورة البقرة الآية (٢٢٢).
(٣) سورة البقرة الآية (٢٢٢).
(٤) تفسير المراغي(١/٣١٩).
(٥) سورة النساء الآية (١٤٨).
(٦) تفسير المراغي(٢/٣٤٣).
(٧) المصدر السابق(٢/٤٥٧).
(٨) سورة التوبة الآية (١٠٠).
(٩) تفسير المراغي(٤/١٥٨).
(١٠) سورة التوبة الآية (١٠٨).

أشار إليه الحديث القدسي الذي رواه البخاري «**ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به**»[(١)] الحديث"[(٢)].

المراغي رحمه الله في كلامه السابق عن صفة المحبه عرّفها بثلاثة أشياء:

١ — قال: حبه تعالى وبغضه شأن من شؤونه، لا نبحث عن كنهه ولا عن كيفيته.

٢- قال: محبة الله لعباده إرادة الخير والثواب لهم (وهذا من لوازم المحبة).

٣- قال: حبه تعالى منزه عن مشابهته حبنا كتنزه ذاته وسائر صفاته عن مشابهة ذواتنا وصفاتنا (وهذا إثبات لصفة المحبة).

وأما مذهب السلف في صفة المحبة والرضا أنهما صفتان حقيقتان لله عز وجل ثابتتان على الوجه اللائق به؛ من غير تكييف ولا تمثيل، ومن الأدلة على ذلك قول الله عزوجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[(٣)].

وقوله تعالى: (﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[(٤)]، وقول الله عزوجل عن صفة الرضا: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[(٥)].

ومن السنة حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلانا فأحببه؛ فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض**»[(٦)].

أما الإجماع على صفة المحبة؛ فقد ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بقوله: "وقد أجمع سلف الأمة وأئمتها على إثبات محبة الله تعالى لعباده المؤمنين، ومحبتهم له، وهذا أصل دين الخليل إمام الحنفاء عليه السلام"[(٧)].

---

(١) سبق تخريجه ص(٣٦٤).

(٢) تفسير المراغي(١٧١/٤).

(٣)سورة البقرة الآية (٢٢٢).

(٤) سورة الصف الآية (٤).

(٥) سورة الفتح الآية (١٨).

(٦) سبق تخريجه ص(٣٦٤).

(٧) الفتاوى (٣٥٤/٢).

وقال الشيخ محمد خليل الهراس رحمه الله في شرح الواسطية: "ومحبة الله عز وجل لبعض الأشخاص والأعمال والأخلاق صفة له قائمة به، وهي من صفات الفعل الاختيارية التي تتعلق بمشيئته، فهو يحب بعض الأشياء دون بعض على ما تقتضيه الحكمة البالغة، وينفي الأشاعرة والمعتزلة صفة المحبة؛ بدعوى أنها توهم نقصًا؛ إذ المحبة في المخلوق معناها ميله إلى ما يناسبه أو يستلذه.

فأما الأشاعرة؛ فيرجعونها إلى صفة الإرادة، فيقولون: إن محبة الله لعبده لا معنى لها إلا إرادته لإكرامه ومثوبته.

وكذلك يقولون في صفات الرضا والغضب والكراهية والسخط؛ كلها عندهم بمعنى إرادة الثواب والعقاب.

وأما المعتزلة؛ فلأنهم لا يثبتون إرادة قائمة به، فيفسرون المحبة بأنها نفس الثواب الواجب عندهم على الله لهؤلاء؛ بناء على مذهبهم في وجوب إثابة المطيع وعقاب العاصي، وأما أهل الحق؛ فيثبتون المحبة صفة حقيقية لله عز وجل على ما يليق به، فلا تقتضي عندهم نقصًا ولا تشبيها، كما يثبتون لازم تلك المحبة، وهي إرادته سبحانه إكرام من يحبه وإثابته.

وليت شعري بماذا يجيب النافون للمحبة عن مثل قوله عليه السلام في حديث أبي هريرة: **«إن الله إذا أحب عبدا؛ قال لجبريل عليه السلام: إني أحب فلانا فأحبه، قال: فيقول جبريل عليه السلام لأهل السماء: إن ربكم عز وجل يحب فلانا فأحبوه، قال: فيحبه أهل السماء، ويوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغضه فمثيل ذلك»**[(١)]، رواه الشيخان؟!"[(٢)].

وذكر الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله صفة المحبة بعد كلامه على قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[(٣)] فقال في الفوائد: "ومنها: إثبات المحبة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وهي محبة حقيقية على ظاهرها؛ وليس المراد بها الثواب؛ ولا إرادة الثواب خلافا للأشاعرة، وغيرهم من أهل التحريف الذين يحرفون هذا المعنى العظيم إلى معنى لا يكون بمثابته؛

---

(١) سبق تخريجه ص(٣٦٤).

(٢) شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص(٩٩).

(٣) سورة البقرة الآية (١٩٥).

فإن مجرد الإرادة ليست بشيء بالنسبة للمحبة؛ وشبهتهم أن المحبة إنما تكون بين شيئين متناسبين؛ وهذا التعليل باطل، ومخالف للنص، ولإجماع السلف، ومنقوض بما ثبت بالسمع والحس من أن المحبة قد تكون بين شيئين غير متناسبين؛ فقد أثبت النبي ﷺ أن أحدا -وهو حصى- جبل يحبنا ونحبه[١]؛ والإنسان يجد أن دابته تحبه، وهو يحبها؛ فالبعير إذا سمعت صوت صاحبها حنت إليه، وأتت إليه؛ وكذلك غيره من المواشي؛ والإنسان يجد أنه يحب نوعا من ماله أكثر من النوع الآخر"[٢].

٣- صفة الرحمة:

قال في توضيح (بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ): "كلاهما مشتق من الرحمة وهي معنى يقوم بالقلب يبعث صاحبه على الإحسان إلى سواه، ويراد منها في جانب المولى عز اسمه أثرها وهو الإحسان، إلا أن لفظ (الرحمن) يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة؛ وهي إسباغ النعم والإحسان، ولفظ (الرحيم) يدل على منشأ هذه الرحمة[٣]، وأنها من الصفات الثابتة اللازمة له، فإذا وصف الله جل ثناؤه بالرحمن استفيد منه لغة أنه المفيض للنعم، ولكن لا يفهم منه أن الرحمة من الصفات الواجبة له دائما، وإذا وصف بعد ذلك بالرحيم علم أن لله صفة ثابتة دائمة هي الرحمة التي يكون أثرها الإحسان الدائم، وتلك الصفة على غير صفات المخلوقين، وإذا يكون ذكر الرحيم بعد الرحمن كالبرهان على أنه يفيض الرحمة على عباده دائما لثبوت تلك الصفة له على طريق الدوام والاستمرار"[٤].

المراغي رحمه الله في أول كلامه على صفة الرحمة يفهم منه التأويل؛ ولكنه في الأخير يفهم منه الإثبات لأنه قال: "إن لله صفة ثابتة دائمة هي الرحمة التي يكون أثرها الإحسان الدائم، وتلك الصفة على غير صفات المخلوقين"، وصفة الرحمة دل عليها الكتاب والسنة والعقل؛ قال

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب خرص الثمر(٢/١٢٥)، الحديث رقم(١٤٨٢)، ومسلم، كتاب الحج، باب أحد جبل يحبنا ونحبه(٢/١٠١١)، الحديث رقم(١٣٩٢).

(٢) تفسير ابن عثيمين الفاتحة والبقرة(٢/٣٩١).

(٣) ذكر ابن القيم رحمه الله في الجمع بين (الرحمن والرحيم) فقال: "الرحمن الدال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم فكان الأول للوصف والثاني للفعل فالأول دال أن الرحمة صفته والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته" بدائع الفوائد(٢/٣٤).

(٤) تفسير المراغي(١/٣٠).

الله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾[(١)]، ومن السنة حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي**»[(٢)].

وأما دلالة العقل عليها؛ فقال الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله عند توضيح بسم الله الرحمن الرحيم: "قوله { الرحمن } أي ذو الرحمة الواسعة؛ ولهذا جاء على وزن "فعلان" الذي يدل على السعة.

و{ الرحيم } أي الموصل للرحمة من يشاء من عباده؛ ولهذا جاءت على وزن "فعيل" الدال على وقوع الفعل.

فهنا رحمة هي صفته، هذه دل عليها { الرحمن }؛ ورحمة هي فعله، أي إيصال الرحمة إلى المرحوم، دل عليها { الرحيم }.

و{ الرحمن الرحيم }: اسمان من أسماء الله يدلان على الذات، وعلى صفة الرحمة، وعلى الأثر: أي الحكم الذي تقتضيه هذه الصفة.

والرحمة التي أثبتها الله لنفسه رحمة حقيقية دل عليها السمع، والعقل؛ أما السمع فهو ما جاء في الكتاب، والسنة من إثبات الرحمة لله، وهو كثير جدا؛ وأما العقل: فكل ما حصل من نعمة، أو اندفع من نقمة فهو من آثار رحمة الله.

هذا وقد أنكر قوم وصف الله تعالى بالرحمة الحقيقية، وحرفوها إلى الإنعام، أو إرادة الإنعام، زعما منهم أن العقل يحيل وصف الله بذلك؛ قالوا: لأن الرحمة انعطاف، ولين، وخضوع، ورقة؛ وهذا لا يليق بالله عز وجل؛ والرد عليهم من وجهين:

الوجه الأول: منع أن يكون في الرحمة خضوع، وانكسار، ورقة؛ لأننا نجد من الملوك الأقوياء رحمة دون أن يكون منهم خضوع، ورقة، وانكسار.

الوجه الثاني: أنه لو كان هذا من لوازم الرحمة، ومقتضياتها فإنما هي رحمة المخلوق؛ أما رحمة الخالق ﷻ فهي تليق بعظمته، وجلاله، وسلطانه؛ ولا تقتضي نقصا بوجه من الوجوه.

---

(١) سورة الكهف الآية (٥٨).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: {وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه}، (١٠٦/٤)، الحديث رقم(٣١٩٧)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، (٢١٠٧/٤)، الحديث رقم(٢٧٥١).

ثم نقول: إن العقل يدل على ثبوت الرحمة الحقيقية لله عز وجل، فإن ما نشاهده في المخلوقات من الرحمة بينها يدل على رحمة الله عز وجل؛ ولأن الرحمة كمال؛ والله أحق بالكمال؛ ثم إنَّ ما نشاهده من الرحمة التي يختص الله بها؛ كإنزال المطر، وإزالة الجدب، وما أشبه ذلك يدل على رحمة الله.

والعجب أن منكري وصف الله بالرحمة الحقيقية بحجة أن العقل لا يدل عليها، أو أنه يحيلها، قد أثبتوا لله إرادة حقيقية بحجة عقلية أخفى من الحجة العقلية على رحمة الله، حيث قالوا: إن تخصيص بعض المخلوقات بما تتميز به يدل عقلا على الإرادة؛ ولا شك أن هذا صحيح؛ ولكنه بالنسبة لدلالة آثار الرحمة عليها أخفى بكثير؛ لأنه لا يتفطن له إلا أهل النباهة؛ وأما آثار الرحمة فيعرفه حتى العوام، فإنك لو سألت عاميا صباح ليلة المطر: بم مطرنا؟، لقال: بفضل الله، ورحمته"[١].

٤- الحياء

قال في تفسيره في معنى المفردات عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ ﴾[٢]: "الحياء تغير وانكسار يعتري الإنسان من تخوف ما يعاب به ويذم، يقال: فلان يستحي أن يفعل كذا، أي إن نفسه تنقبض عن فعله، وكأن الحياء ضعف في الحياة، لأنه يؤثر في القوة المختصة بالحيوان، وهي قوة الحس والحركة، وفعله استحى واستحيا، ويقال: استحييته واستحييت منه، ثم قال في الإيضاح للآية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ ﴾[٣]: أي إن الله جلت قدرته لا يرى من النقص أن يضرب المثل بالبعوضة فما فوقها، لأنه هو الخالق لكل شيء جليلا كان أو حقيرا"[٤].

---

(١) تفسير القرآن لابن عثيمين(٢/٢).
(٢) سورة البقرة الآية (٢٦).
(٣) سورة البقرة الآية (٢٦).
(٤) تفسير المراغي(١/٦٥-٦٧).

المراغي رحمه الله عرَّف الحياء في هذه الآية عند المخلوق ولم يتطرق للحياء كصفة لله ﷻ، وقد دل على صفة الحياء لله الكتاب والسنة، فمن أدلة الكتاب الآية السابقة، وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ ﴾ (١).

ومن السنة حديث أبي واقد الليثي «**أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد؛ والناس معه؛ إذ أقبل ثلاثة نفر؛ فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد؛ قال: فوقفا على رسول الله ﷺ، فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهبا، فلما فرغ رسول الله ﷺ، قال: ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه**» (٢).

وقال ابن القيم في النونية:

"وَهُوَ الْحَيِي فَلَيْسَ يفضح عَبده ... عِنْد التجاهر مِنْهُ بالعصيان

لكنه يلقِي عَلَيْهِ ستره ... فَهُوَ الستير وَصَاحب الغفران

قال الهراس: "وحياؤه تعالى وصف يليق به، ليس كحياء المخلوقين، الذي هو تغير وانكسار يعتري الشخص عند خوف ما يعاب أو يذم، بل هو رك ما يس يتناسب مع سعة رحمته وكمال جوده وكرمه وعظيم عوه ولمه فالعبد يجاهره بالمعصية مع أنه أفقر شيء إليه وأضعفه لديه، ويسيتعين بنعمه على معصيته، ولكن الرب سبحانه مع كمال غناه وتمام قدرته عليه يستحي من هتك ستره وفضيحته، فيستره بما يهيئه له من أسباب الستر، ثم بعد ذلك يعفو عنه ويغفر" (٣) اهـ.

(١) سورة الأحزاب الآية (٥٣).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب من قعد حيث ينتهي به المجلس، ومن رأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، (٢٤/١) الحديث رقم(٦٦)، ومسلم، كتاب السلام، باب من أتى مجلسا فوجد فرجة فجلس فيها وإلا وراءهم (٩/٧) الحديث رقم(٢١٧٦).

(٣) نونية ابن القيم(٨٠/٢).

وذكر الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ﴾[١].

فقال: "من فوائد الآية: إثبات الحياء لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ﴾[٢].

ووجه الدلالة: أن نفي الاستحياء عن الله في هذه الحال دليل على ثبوته فيما يقابلها؛ وقد جاء ذلك صريحا في السنة، كما في قول النبي ﷺ: «**إن ربكم حيي كريم، يستحيي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفرا**»[٣].

والحياء الثابت لله ليس كحياء المخلوق؛ لأن حياء المخلوق انكسار لما يَدْهَمُ الإنسان ويعجز عن مقاومته؛ فتجده ينكسر، ولا يتكلم، أو لا يفعل الشيء الذي يستحيا منه؛ وهو صفة ضعف ونقص إذا حصل في غير محله"[٤].

٥- الاستواء

ذكر المراغي رحمه الله صفة الاستواء في عدة مواضع من تفسيره؛ فقال بعد قول الحق ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾[٥]: "السماء كل ما في الجهة العليا فوق رءوسنا، واستوى إليها أي قصدها قصدا مستويا بلا عاطف يثنيه من إرادة خلق شيء آخر في أثناء خلقها"[٦].

وقال بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ

---

(١)سورة البقرة الآية (٢٦).

(٢)سورة البقرة الآية (٢٦).

(٣) أخرجه أبوداود في سننه، باب تفريع أبواب الوتر، باب الدعاء(١/٥٥٣) الحديث رقم(١٤٨٨)، والترمذي، أبواب الدعوات، (٥/٥٥٦) الحديث رقم(٣٥٥٦)، وقال: هذا حديث حسن غريب وروى بعضهم ولم يرفعه، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية معلقا على كلام الترمذي: "وهذا لا يضر لأنه إذا كان موقوفا على سلمان فمثل هذا الكلام لا يقال إلا توقيفا" بيان تلبيس الجهمية(٢/٤٤١).

(٤) تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة(١/٩٨).

(٥) سورة البقرة الآية (٢٩).

(٦) تفسير المراغي(١/٧٠).

ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[(١)]:"والعرش لغة: كل شيء له سقف، ويطلق على هودج للمرأة يشبه عريش الكرم، وعلى سرير الملك وكرسيه في مجلس الحكم والتدبير، والاستواء لغة: استقامة الشيء واعتداله، واستوى الملك على عرشه أي ملك، وثلَّ عرشه أي هلك"[(٢)].

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾[(٣)] : "أي إنه تعالى قد استوى على عرشه بعد تكوين هذا الملك يدبر أمره ويصرف نظامه بحسب تقديره الذي اقتضته حكمته، وفي معنى الآية قوله في سورة يونس: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾[(٤)]. واستواؤه تعالى على العرش: هو استقامة أمر السموات والأرض وانفراده بتدبيرهما، والإيمان بذلك غير موقوف على معرفة حقيقة ذلك التدبير، ولا معرفة صفته ولا كيف يكون، فالصحابة رضوان الله عليهم والأئمة من بعدهم لم يشتبه أحد منهم فيه، وقد أثر عن ربيعة شيخ الإمام مالك أنه «سئل عن قوله: {استوى على العرش}، كيف استوى؟ فقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق»[(٥)].

وقال الحافظ ابن كثير: "مذهب السلف الصالح؛ مالك والأوزاعي والثوري والليث، وابن سعد والشافعي وأحمد وإسحق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين، قديما وحديثا إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه، وقال نعيم بن حماد شيخ البخاري: «من شبه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه»[(٦)]، فمن أثبت ما وردت به الآثار الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله ونفي عن الله النقائص فقد سلك سبيل الهدى"[(٧)]"[(٨)].

---

(١) سورة الأعراف الآية (٥٤).

(٢) تفسير المراغي(١٦٩/٨).

(٣) سورة الأعراف الآية (٥٤).

(٤) سورة يونس الآية (٣).

(٥) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة(٣٩٨/٣) والبيهقي في الأسماء والصفات (٣٠٦/٢).

(٦) أخرجه الذهبي في العلو للعلي الغفار(١٧٢).

(٧) تفسير ابن كثير(٤٢٧/٣).

(٨) تفسير المراغي(٢١٥/٢-٢١٩).

وقال بعد قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (١): "العرش مركز تدبير أمور الخلق كما قال تعالى ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ (٢) وعظمته بعظمة الرب الذي استوى عليه، وعظمة الملك الكبير الذي هو مركز تدبيره، وعظمة العرش والملك في الملأ الأعلى وفيما دونه هي مظهر عظمة الله ﷻ، ودليل على أنه وحده الإله الحق الذي لا ينبغي أن يعبد غيره ولا يتوكل على سواه، وهو المالك للعالم كله والمدبر لهم"(٣).

وقال بعد قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ (٤): "والعرش: مركز التدبير ولا نعلم كنهه ولا صفته، أي إن ربكم هو الله الذي خلق العوالم السماوية التي فوقكم، وهذه الأرض التي تعيشون على ظهرها في ستة أزمنة، قد تمَّ في كل زمن منها طورٌ من أطوارها، وقدرها بمقادير أرادها، ثم استوى على عرشه الذي جعله مركز هذا التدبير لهذا الملك العظيم، استواء يليق بعظمته وجلاله، يدبر أمر ملكه بما اقتضاه علمه من النظام واقتضته حكمته من الإحكام، ولا يستنكر من رب هذا الخلق المدبر لأمور عباده أن يُفيض ما شاء من علمه على من اصطفى من خلقه، ما يهديهم به لما فيه كمالهم من عبادته وشكره، وبذلك تصلح أنفسهم وتطهر قلوبهم وتستنير أفئدتهم، لتتم لهم بذلك الحياة السعيدة في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة، كما لا يستنكر أن هذا الوحي منه عز وجل إذ هو من كمال تقديره وتدبيره، ولا يقدر عليه سواه"(٥).

وقال بعد قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾(٦): "والعرش: مركز نظام الملك ومصدر التدبير، وقوله: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ (٧) أي: وكان سرير ملكه في أثناء هذا الطور من خلق هذا العالم أو من قبله على الماء، وعرش الرحمن من عالم الغيب الذي لا ندركه بحواسنا، لا نستطيع تصويره بأفكارنا، فلا نعلم كنه استوائه عليه، ولا صدور تدبيره لأمر هذا

---

(١) سورة التوبة الآية (١٢٩).

(٢) سورة يونس الآية (٣).

(٣) تفسير المراغي(١٩٥/٤).

(٤) سورة يونس الآية (٣).

(٥) تفسير المراغي(٢٠١/٤).

(٦) سورة هود الآية (٧).

(٧) سورة هود الآية (٧).

الملك العظيم، ومن ثم روي عن أم سلمة رضي الله عنها[١]، وعن مالك وربيعة قولهم: الاستواء معلوم، والكيف مجهول"[٢].

وقال بعد قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[٣]: "أي ثم استوى على عرشه الذي جعله مركز هذا التدبير العظيم استواء يليق بعظمته وجلاله، يدبر أمر ملكه بما اقتضاه علمه من النظام، وإرادته وحكمته من إحكام وإتقان، وقد سبق تفصيل هذا في سورتي الأعراف ويونس"[٤].

وقال بعد قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[٥]: "والعرش: في اللغة سرير الملك، ويراد به في لسان الشرع مركز تدبير العالم، واستوى: استولى عليه، قال شاعرهم:

قد استوى بشر على العراق   من غير سيف ودم مهراق[٦]...

وقال في إيضاح قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[٧]: "أي هو الرحمن الذي على عرشه ارتفع وعلا، وقد تقدم إيضاح هذا في سورة الأعراف ببسط وإطناب"[٨].

وقال: "استوى: أي عمد وقصد نحوها قصدا سويا من قولهم: استوى إلى مكان كذا إذا توجه إليه توجهًا لا يلتفت معه إلى عمل آخر"[٩].

وقال بعد قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[١٠]: "ثم استوى على عرشه فارتفع عليه"[١١].

---

(١) إثبات صفة العلو لابن قدامة ص(١٠٩)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وقد روي هذا الجواب عن أم سلمة رضي الله عنها موقوفا ومرفوعا، ولكن ليس إسناده مما يعتمد عليه" الفتاوى(٥/٣٦٥).

(٢) تفسير المراغي(٤/٢٩٠-٢٩١).

(٣) سورة الرعد الآية (٢).

(٤) تفسير المراغي(٥/٥٣).

(٥) سورة طه الآية (٥).

(٦) يأتي تعليق شيخ الإسلام على هذا البيت ص(٣٨٢).

(٧) سورة طه الآية (٥).

(٨) تفسير المراغي(٦/٧٩-٨١).

(٩) تفسير المراغي(٨/٣٤٨).

(١٠) سورة الحديد الآية (٤).

(١١) تفسير المراغي(٩/٤٢٢).

المراغي رحمه الله من خلال كلامه على الآيات الواردة في صفة الاستواء ذكر في معاني الاستواء ما يلي:

١- قال: "واستوى إليها: أي قصدها قصدًا مستويًا بلا عاطف يثنيه".

٢- قال: "والاستواء لغة: استقامة الشيء واعتداله، واستوى الملك على عرشه أي ملك، وثل عرشه أي هلك".

٣- قال: "واستواؤه تعالى على العرش: هو استقامة أمر السموات والأرض وانفراده بتدبيرهما".

٤- قال: "استوى على عرشه الذي جعله مركز هذا التدبير لهذا الملك العظيم، استواء يليق بعظمته وجلاله".

٥- قال: "واستوى: استولى عليه"، ولكنه قال في توضيحه للآية: "الرحمن الذي على عرشه ارتفع وعلا".

بالنظر إلى كلام المراغي في صفة الاستواء يلاحظ أنه لم يثبت على قدم؛ فساق كلام السلف وقرره، ثم ذكر بعض كلام الخلف ولم يرُدَّهُ، والذي أوصله إلى ذلك -والله أعلم- النقل من كتب المفسرين من غير تمحيص، وسوف أذكر بعض كلام المحققين من أهل السنة والجماعة في هذا الموضوع.

قال العلامة المفسر محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: "إنه جل وعلا وصف نفسه بالاستواء على العرش، ووصف غيره بالاستواء على بعض المخلوقات، فتمدح جلَّ وعلا في سبع آيات من كتابه باستوائه على عرشه، ولم يذكر صفة الاستواء إلا مقرونة بغيرها من صفات الكمال، والجلال؛ القاضية بعظمته وجلاله جلَّ وعلا، وأنه الرب وحده، المستحِقُّ لأن يعبد وحده.

الموضع الأول: بحسب ترتيب المصحف الكريم، قوله هنا في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (١).

(١) سورة الأعراف الآية (٥٤).

الموضع الثاني: قوله تعالى: في سورة يونس: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ (١).

الموضع الثالث: قوله تعالى: في سورة الرعد: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢).

الموضع الرابع: قوله تعالى: في سورة طه ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾ (٣).

الموضع الخامس: قوله في سورة الفرقان ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾ (٤).

الموضع السادس: قوله تعالى: في سورة السجدة ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (١).

---

(١) سورة يونس الآية (٣-٤).

(٢) سورة الرعد الآية (٢-٤).

(٣) سورة طه الآية (٢-٦).

(٤) سورة الفرقان الآية (٥٨-٥٩).

الموضع السابع: قوله تعالى: في سورة الحديد ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(٢).

وقال جل وعلا في وصف الحادث بالاستواء على بعض المخلوقات: ﴿ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾(٣)، ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٤)، ﴿ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٥) ونحو ذلك من الآيات.

وقد علمت مما تقدم أنه لا إشكال في ذلك، وأن للخالق جلَّ وعلا استواءً لائقًا بكماله وجلاله، وللمخلوق أيضا استواءٌ مناسبٌ لحاله، وبين استواء الخالق والمخلوق من المنافاة ما بين ذات الخالق والمخلوق؛ على نحو ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾(٦)"(٧).

والاستواء في لغة العرب يأتي على معان متعددة، ويفهم معناه على حسب سياق الكلام، فالاستواء "في اللغة العربية يأتي لازما، ويأتي متعديا إلى المعمول بحرف الجر، ويأتي مقرونا بواو المعية، فهذه ثلاثة وجوه للاستواء، أما الأول وهو أن يأتي مطلقا غير مقيد بالمعمول ولا واو المعية؛ فإنه يكون بمعنى الكمال، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ﴾(٨)، أي كمل، ومنه قول الناس في لغتهم العامية: استوى الطعام أي كمل نضجه، والقسم الثاني أو الوجه الثاني: أن يأتي مقرونا بواو المعية فيكون بمعنى التساوي كقولهم استوى الماء والخشبة أي تساويا، والثالث: يأتي معدًّى بحرف الجر، فإن عُدِّيَ بعلى صار معناه العلو والاستقرار، وإن عُدِّيَ بإلى

(١) سورة السجدة الآية (٤-٥).

(٢) سورة الحديد الآية (٤).

(٣) سورة الزخرف الآية (١٣).

(٤) سورة المؤمنون الآية (٢٨).

(٥) سورة هود الآية (٤٤).

(٦) سورة الشورى الآية (١١).

(٧) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن(٢/٢٨).

(٨) سورة القصص الآية (١٤).

فقد اختلف المفسرون فيه؛ فمنهم من يقول: إنه بمعنى الارتفاع والعلو، ومنهم من يقول: إنه بمعنى القصد والإرادة، مثال المعدَّى بعلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [1]، وقوله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [2]، وقوله بعد ذلك في سبعة مواضع في القرآن الكريم، ومثال المعدَّى بإلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [3]، وقوله ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [4]، ولذلك اختلف المفسرون في الاستواء، استوى هنا فبعضهم قال: معناها علا إلى السماء، ومنهم من قال: معناها قصد وأراد، وعلى كلٍّ فاستواء الله على العرش من الصفات الثابتة التي يجب على المؤمن أن يؤمن بها، وهو أن الله تعالى استوى على عرشه، أي علا عليه علوا خاصا ليس كعلوه على سائر المخلوقات؛ بل هو علو خاص بالعرش كما قال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [5]، ولكن هذا الاستواء ليس معلومًا لنا في كيفيته لأن كيفيته لا يمكن الإحاطة بها، ولم يخبرنا الله عنها ولا رسوله، ولهذا لما سئل الإمام مالك رحمه الله عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [6] كيف استوى؟ فأطرق برأسه حتى علاه العرق، ثم قال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة» [7]، ونحن نعلم معنى الاستواء ونؤمن به ونقره، وهو أنه ﷻ علا على عرشه واستوى عليه علوًّا واستقرارا يليق به ﷻ، ولكننا لا نعلم كيفية هذا الاستواء، فالواجب علينا أن نمسك عن الكيفية، وأن نؤمن بالمعنى، وأما قول من قال: إن معنى استوى على العرش: أي استولى عليه؛ فهذا قول لا يصحُّ، وهو مخالف لما كان عليه السف ولما تدل عليه هذه الكلمة في اللغة العربية، فلا يعول عليه، بل هو باطل، ولو كان معنى استوى استولى للزم أن يكون الله تعالى مستوليًّا على شيء دون شيء، وهو ﷻ مستولٍ على كل شيء، وللزم أن يكون العرش

---

(١) سورة الأعراف الآية (٥٤).

(٢) سورة طه الآية (٥).

(٣) سورة فصلت الآية (١١).

(٤) سورة البقرة الآية (٢٩).

(٥) سورة غافر الآية (١٥).

(٦) سورة طه الآية (٥).

(٧) سبق تخريجه ص(٣٧٣).

قبل هذا ليس ملكا لله بل ملكا لغيره، ثم استولى عليه من غيره، وهذه معان باطلة لا تليق بالله سبحانه وتعالى"(١).

أما من حرف لفظ الاستواء فجعله بمعنى استولى، فمن أجمل وأكمل من بين وأوضح ذلك بالأدلة الشرعية وساق أوجها في رد هذا الباطل ما حرره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حيث قال: "فصل: والمبطل لتأويل من تأول استوى بمعنى استولى وجوه:

أحدها: أن هذا التفسير لم يفسره أحد من السلف من سائر المسلمين من الصحابة والتابعين، فإنه لم يفسره أحد في الكتب الصحيحة عنهم.

الثاني: أن معنى هذه الكلمة مشهور؛ ولهذا لما سئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن، ومالك بن أنس عن قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾(٢) قالا: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»(٣)، ولا يريد أن: الاستواء معلوم في اللغة دون الآية؛ لأن السؤال عن الاستواء في الآية كما يستوي الناس.

الثالث: أنه إذا كان معلوما في اللغة التي نزل بها القرآن كان معلوما في القرآن.

الرابع: أنه لو لم يكن معنى الاستواء في الآية معلوما لم يحتج أن يقول: الكيف مجهول؛ لأن نفي العلم بالكيف لا ينفي إلا ما قد علم أصله؛ كما نقول: إنا نقر بالله ونؤمن به ولا نعلم كيف هو.

الخامس: الاستيلاء سواء كان بمعنى القدرة أو القهر أو نحو ذلك هو عام في المخلوقات.

السادس: أنه أخبر بخلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، وأخبر أن عرشه كان على الماء قبل خلقها، وثبت ذلك في صحيح البخاري عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال «**كان الله ولا شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق السموات والأرض**»(٤) مع أن العرش كان مخلوقا قبل ذلك، فمعلوم أنه ما زال

(١) فتاوى نور على الدرب للعثيمين(٢/٤).

(٢)سورة طه الآية (٥).

(٣) سبق تخريجه ص(٣٧٣).

(٤) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: {وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه}، (٤/١٠٥)، الحديث رقم(٣١٩١).

مستوليًا عليه قبل وبعد، فامتنع أن يكون الاستيلاء العام هذا الاستيلاء الخاص بزمان كما كان مختصا بالعرش.

السابع: أنه لم يثبت أن لفظ استوى في اللغة بمعنى استولى؛ إذ الذين قالوا ذلك عمدتهم البيت المشهور:

ثم استوى بشر على العراق * من غير سيف ودم مهراق**

ولم يثبت نقل صحيح أنه شعر عربي، وكان غير واحد من أئمة اللغة أنكروه؛ وقالوا: إنه بيت مصنوع لا يعرف في اللغة.

الثامن: أنه روي عن جماعة من أهل اللغة أنهم قالوا: لا يجوز استوى بمعنى استولى إلا في حق من كان عاجزا ثم ظهر، والله سبحانه لا يعجزه شيء، والعرش لا يغالبه في حال، فامتنع أن يكون بمعنى استولى.

التاسع: أنه لو ثبت أنه من اللغة العربية لم يجب أن يكون من لغة العرب العرباء، ولو كان من لفظ بعض العرب العرباء لم يجب أن يكون من لغة رسول الله ﷺ وقوله؛ ولو كان من لغته لكان بالمعنى المعروف في الكتاب والسنة وهو الذي يراد به، ولا يجوز أن يراد معنى آخر.

العاشر: أنه لو حمل على هذا المعنى لأدَّى إلى محذور يجب تنزيه بعض الأئمة عنه؛ فضلا عن الصحابة؛ فضلا عن الله ورسوله؛ فلو كان الكلام في الكتاب والسنة كلامًا نفهم منه معنًى ويريدون به آخر لكان في ذلك تدليسٌ وتلبيسٌ ومعاذ الله أن يكون ذلك، فيجب أن يكون استعمال هذا الشاعر هذا اللفظ في هذا المعنى ليس حقيقة بالاتفاق؛ بل حقيقة في غيره.

الحادي عشر: أن هذا اللفظ الذي تكرر في الكتاب والسنة، -والدواعي متوفرة على فهم معناه من الخاصة والعامة عادة ودينا- إن جعل الطريق إلى فهمه بيت شعر أحدثَ فيؤدي إلى محذور؛ فلو حمل على معنى هذا البيت للزم تخطئة الأئمة الذين لهم مصنفات في الرد على من تأول ذلك؛ ولكان يؤدي إلى الكذب على الله ورسوله ﷺ والصحابة والأئمة، وللزم أن الله امتحن عباده بفهم هذا دون هذا، مع ما تقرر في نفوسهم، وما ورد به نص الكتاب والسنة؛ والله سبحانه لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وهذا مستحيل على الله ورسوله ﷺ والصحابة والأئمة.

الثاني عشر: أن معنى الاستواء معلوم علمًا ظاهرا بين الصحابة والتابعين وتابعيهم، فيكون التفسير المحدث بعده باطلا قطعًا، وهذا قول يزيد بن هارون الواسطي[(١)]، فإنه قال: «إن من قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[(٢)] خلاف ما تقرر في نفوس العامة فهو جهمي»[(٣)]"[(٤)].

٦- صفة مجيء الله

ذكر المراغي رحمه الله بعد قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾[(٥)]: "وقوله: ﴿يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾[(٦)] أي يأتيهم عذابه"، ثم قال في إيضاحه للآية: "أي هاهي ذي قد قامت الحجج، ودلت البراهين على صدق محمد ﷺ، فهل ينتظر المكذبون إلا أن يأتيهم الله بما وعدهم به من الساعة والعذاب في ظلل من الغمام عند خراب العالم وقيام الساعة، وتأتي الملائكة وتنفذ ما قضاه الله يومئذ؟.

والحكمة في نزول العذاب في الغمام إنزاله فجأة من غير تمهيد ينذر به، ولا توطئة توطن النفوس على احتماله، إلى أن الغمام مظنة الرحمة، فإذا نزل منه العذاب كان أفظع وأشد هولا، والخوف إذا جاء من موضع الأمن كان خطبه أعظم"[(٧)].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾[(١)]: "المراد بإتيان الله إتيان ما وعد به من النصر لأحبابه وأوعد به أعداءه من العذاب في الدنيا"[(٢)].

---

(١) يزيد ابن هارون ابن زاذان السلمي مولاهم أبو خالد الواسطي الإمام القدوة، شيخ الاسلام، مولده في سنة ١١٨هـ، متقن عابد وكان رأسا في العلم والعمل، ثقة حجة، كبير الشأن وقد كان يزيد رأسا في السنة معاديا للجهمية، منكرا تأويلهم في مسألة الاستواء. مات سنة ٢٠٦هـ وقد قارب التسعين، انظر: سير علام النبلاء(٩/٣٥٨).

(٢)سورة طه الآية (٥).

(٣) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد ص(٣٦)، وعبد الله في السنة(١/١٢٣)، وابن بطه في الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة(٣/١٦٥).

(٤) مجموع الفتاوى(٥/١٤٤-١٤٩) مختصرًا.

(٥) سورة البقرة الآية (٢١٠).

(٦) سورة البقرة الآية (٢١٠).

(٧) تفسير المراغي(١/٢٨٢-٢٨٤).

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[٣]: "أي وتجلت لأهل الموقف السطوة الإلهية، كما تتجلى أبهة الملك للأعين إذا جاء الملك في جيوشه ومواكبه، ولله المثل الأعلى"[٤].

المراغي رحمه الله في تأويله صفة المجيء لله جل وعلا لم يوفق للصواب، فهذه الصفة ثابتة لله ﷻ في الكتاب والسنة والإجماع، فأدلة الكتاب ماذكره المراغي رحمه الله، ومن السنة حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ في ذكر الموقف يوم القيامة، وفي آخره «**حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر أو فاجر أتاهم رب العالمين في أدنى صورة من التي رأوه فيها، فيقال: ماذا تنتظرون تتبع كل أمة ما كانت تعبد، قالوا: فارقنا الناس في الدنيا على أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم، ونحن ننتظر ربنا الذي كنا نعبد، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: لا نشرك بالله شيئا مرتين أو ثلاثا**»[٥].

أما الإجماع فقال أبو عمرو الطلمنكي[٦] رحمه الله: "أجمعوا -يعني: أهل السنة والجماعة- على أن الله يأتي يوم القيامة، والملائكة صفًّا صفًّا؛ لحساب الأمم وعرضها، كما يشاء وكيف يشاء، قال تعالى ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾[٧] وقال تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[٨]"[٩].

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٥٨).

(٢) تفسير المراغي(٣/٢٤٤).

(٣) سورة الفجر الآية (٢٢).

(٤) تفسير المراغي(١٠/٤٢٠).

(٥) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {إن الله لا يظلم مثقال ذرة} (٦/٤٤)، الحديث رقم(٤٥٨١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١/١٦٧)، الحديث رقم(١٨٣).

(٦) أبو عمر الطلمنكي أحمد بن محمد المعافرى الأندلسي المقرى المحدث الحافظ عالم أهل قرطبة صاحب التصانيف صنف كتبا كثيرة في السنة يلوح فيها فضله وحفظه وإمامته واتباعه للأثر، ومنها كتاب في السنة، وكتاب في الرد على الباطنية، توفي سنة ٤٢٩هـ وكان خبيرا في علوم القرآن تفسيره وقراءاته وإعرابه وأحكامه ومعانيه، قال ابن بشكوال: كان سيفا مجردا على أهل الأهواء والبدع قامعا لهم غيورا على الشريعة شديدا في ذات الله تعالى وكان ثقة صاحب سنة واتباع ومعرفة بأصول الديانة، انظر: العبر في خبر من غبر (٣/١٧٠) وسير أعلام النبلاء (١٧/٥٦٧).

(٧) سورة البقرة الآية (٢١٠).

(٨) سورة الفجر الآية (٢٢).

(٩) ذكره ابن تيمية في المجموع(٥/٥٧٧).

فصفة المجيء ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع، وأهل السنة يوضحون هذه الصفة ويقررونها في كتبهم ودروسهم، ومن هؤلاء العلماء الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله، فقد قرر هذه الصفة ورد على شبه المخالفين بتقريرٍ فيه كمال البيان والإيضاح مع اختصاره ووضوحه فقال: "وأهل السنة والجماعة يثبتون أن الله يأتي بنفسه هو، لأن الله تعالى ذكر ذلك عن نفسه، وهو سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا من غيره وأحسن حديثا، فكلامه مشتمل على أكمل العلم والصدق والبيان والإرادة، فالله عز وجل يريد أن يبين لنا الحق وهو أعلم وأصدق وأحسن حديثا.

لكن يبقى السؤال: هل نعلم كيفية هذا المجيء؟

الجواب: لا نعلمه، لأن الله ﷻ أخبرنا أنه يجيء، ولم يخبرنا كيف يجيء، ولأن الكيفية لا تعلم إلا بالمشاهدة أو مشاهدة النظير أو الخبر الصادق عنها، وكل هذا لا يوجد في صفات الله تعالى، ولأنه إذا جهلت الذات، جهلت الصفات، أي: كيفيتها، فالذات موجودة وحقيقية ونعرفها ونعرف ما معنى الذات ... وما معنى النفس، وكذلك نعرف ما معنى المجيء، لكن كيفية الذات أو النفس وكيفية المجيء غير معلوم لنا، فنؤمن بأن الله يأتي حقيقة وعلى كيفية تليق به مجهولة لنا.

مخالفو أهل السنة والجماعة والرد عليهم:

وخالف أهل السنة والجماعة في هذه الصفة أهل التحريف والتعطيل، فقالوا: إن الله لا يأتي، لأنك إذا أثبت أن الله يأتي، ثبت أنه جسم، والأجسام متماثلة.

فنقول: هذه دعوى وقياس باطل، لأنه في مقابلة النص، وكل شيء يعود إلى النص بالإبطال، فهو باطل، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾(1).

فإذا قالت: إن هذا الذي عاد النص بالإبطال هو الحق، صار النص باطلا ولا بد، وبطلان النص مستحيل، وإن قلت: إن النص هو الحق، صار هذا باطلا ولابد.

ثم نقول: ما المانع من أن يأتي الله تعالى بنفسه على الكيفية التي يريدها؟ يقولون: المانع أنك إذا أثبت ذلك، فأنت ممثل.

---

(١) سورة سبأ الآية (٢٤).

نقول: هذا خطأ، فإننا نعلم أن المجيء والإتيان يختلف حتى بالنسبة للمخلوق، فالإنسان النشيط الذي يأتي كأنما ينحدر من مرتفع من نشاطه، لكنه لا يمشي مرحًا وإن شئت فقل: إنه يمشي مرحا: هل هذا كالإنسان الذي يمشي على عصا ولا ينقل رجلا من مكانها إلا بعد تعب.

والإتيان يختلف من وجه لآخر، فإتيان إنسان مثلا من كبراء البلد أو من ولاة الأمور ليس كإتيان شخص لا يحتفى به.

ماذا يقول المعطل في قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ (١) ونحوها؟ الجواب: يقول: المعنى: جاء أمر ربك، وأتى أمر ربك؟ لأن الله تعالى قال: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ (٢) فيجب أن نفسر كل إتيان أضافة الله إلى نفسه بهذه الآية، ونقول: المراد: أتى أمر الله.

فيقال: إن هذا الدليل الذي استدللت به هو دليل عليك وليس لك، لو كان الله تعالى يريد إتيان أمره في الآيات الأخرى، فما الذي يمنعه أن يقول: أمره؟ فلما أراد الأمر، عبر بالأمر، ولما لم يرده، لم يعبر به.

وهذا في الواقع دليل عليك، لأن الآيات الأخرى ليس فيها إجمال حتى نقول: إنها بينت بهذه الآية. فالآيات الأخرى واضحة...

فإذا قال قائل: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ (٣) فالجواب: أن المراد بذلك إتيان الفتح أو الأمر، لكن أضاف الله الإتيان به إلا نفسه، لأنه من عنده، وهذا أسلوب معروف في اللغة العربية، فالإتيان إذا قيد بحرف جر مثلا، فالمراد به ذلك المجرور، وإذا أطلق وأضيف إلى الله بدون قيد، فالمراد به إتيان الله حقيقة.

الآداب المسلكية المستفادة من الإيمان بصفة المجيء والإتيان لله تعالى: الثمرة هي الخوف من هذا المقام، وهذا المشهد العظيم؛ الذي يأتي فيه الرب عز وجل للفصل بين عباده وتنزل الملائكة، ولا يبقى أمامك إلا الرب عز وجل والمخلوقات كلها، فإن عملت خيرا، جوزيت به، وإن عملت سوى ذلك، فإنك ستجزى به، كما قال النبي عليها الصلاة والسلام:

---

(١) سورة الفجر الآية (٢٢).

(٢) سورة النحل الآية (١).

(٣) سورة المائدة الآية (٥٢).

"إن الإنسان يخلو به الله عز وجل، فينظر أيمن منه، فلا يرى إلا ما قدَّم، وينظر أشأم منه، فلا يرى إلا ما قدَّم، وينظر تلقاء وجهه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، «**فاتقوا النار، ولو بشق تمرة**»(١)، فالإيمان بمثل هذه الأشياء العظيمة لا شك أنه يولد للإنسان رهبة وخوفا من الله ﷻ واستقامة على دينه"(٢).

٧-المعية

ذكر المراغي رحمه الله صفة المعية بعد قول الحق ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ﴾(٣): "أي وقال الله هذا لموسى، وهو بلغه عنه، ومعنى كونه معهم أنه ناصرهم ومعينهم ما داموا محافظين على الميثاق، وهو راء لأفعالهم، سميع لأقوالهم عليم بضمائرهم، وقادر على مجازاتهم"(٤).

وقال بعد قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ﴾(٥): "أي يثبت الله الأقدام بالمطر وقت الكفاح الذي يوحي فيه ربك إلى الملائكة آمرا لهم أن يثبتوا به قلوب المؤمنين ويقووا عزائمهم، فيلهموها تذكر وعد الله لرسوله وأنه لا يخلف الميعاد، فالمراد بالمعية في قوله: (أني معكم) معية الإعانة والنصر والتأييد في مواطن الجد ومقاساة شدائد القتال، وهذه منة خفية أظهرها الله تعالى ليشكروه عليها، أخرج البيهقي في الدلائل أن الملك كان يأتي الرجل في صورة الرجل يعرفه فيقول: أبشروا فإنهم ليسوا بشيء والله معكم، كروا عليهم(٦).

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب: اتقوا النار ولو بشق تمرة والقليل من الصدقة (١٠٩/٢)، الحديث رقم(١٤١٧)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار (٧٠٣/٢)، الحديث رقم(١٠١٦).

(٢) شرح الواسطية ص(٢٨٢-٢٨٣).

(٣) سورة المائدة الآية (١٢).

(٤) تفسير المراغي(٤٠٠/٢)

(٥) سورة الأنفال الآية (١٢).

(٦) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة(٥٣/٣).

وقال الزجاج: "كان ذلك بأشياء يلقونها في قلوبهم تصح بها عزائمهم ويتأكد جدهم"(١)، وللملك قوة إلقاء الخير ويقال له إلهام، كما أن للشيطان قوة إلقاء الشر ويقال لها وسوسة" (٢).

وقال بعد قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٣): "بنصرهم ومعونتهم وتوفيقهم لما فيه خيرهم وصلاحهم، فمن يتق الظلم والعدوان في الأرض وأسباب الفشل والخذلان في القتال من تفرق الكلمة واختلاف الأهواء، ومخالفة سنن الله في الاجتماع -يكن الله معه، ومن كان الله معه فلا يغلبه أحد"(٤).

وقال بعد قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(٥): "أي وهو مطلع على أعمالكم أينما كنتم ويعلم متقلبكم ومثواكم"(٦).

المراغي رحمه الله أثبت المعية؛ لكنه لم يفرق بين المعية العامة والخاصة، كما هو فعل غالب أهل العلم حيث أنهم يقررون بوضوح النوعين حتى يزول الاشتباه ويكتمل الإيضاح وتفهم الأدلة الفهم الصحيح.

فمن أجل الوضوح والبيان أورد كلام صاحب البيان والقلم السيال، فارس هذا الميدان الإمام ابن القيم عليه من الله الرحمة والرضوان فقد قال: "المعية نوعان: عامَّةٌ؛ وهي معية العلم والإحاطة ...، وخاصَّة؛ وهي معية القرب ... فهذه معيَّة قُرب تتضمن الموالاة والنصر والحفظ. وكلا المعنيين مصاحبةٌ منه للعبد، لكن هذه مصاحبة اطِّلاع وإحاطة، وهذه مصاحبة موالاة ونصر وإعانة، فـ ((مع)) في لغة العرب تفيد الصحبة اللائقة، لا تشعر بامتزاج ولا اختلاط ولا مجاورة ولا مجانبة؛ فمن ظن منها شيئا من هذا فمن سوء فهمه أتي"(٧).

---

(١) معاني القرآن وإعرابه(٢/٤٠٤).
(٢) تفسير المراغي(٢/٤٩٣).
(٣) سورة التوبة الآية (٣٦).
(٤) تفسير المراغي(٤/٩٥).
(٥) سورة الحديد الآية (٤).
(٦) تفسير المراغي(٩/٤٢٢).
(٧) مدارج السالكين(٢/٢٦٥) مختصرا.

وذكر الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله من فوائد قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[(١)] فقال: "إثبات المعية لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ فإن قلت: هذه الآية ظاهرها تخصيص معية الله بالصابرين مع أنه في آياتٍ أخرى أثبت معيَّته لعموم الناس؛ فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[(٢)] هذا عامٌّ، وقال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ﴾[(٣)]؛ فالجواب: أن هذه المعية خاصة تقتضي الإثابة، والنصر، والتأييد؛ وتلك معية عامة تقتضي الإحاطة بالخلق عِلمًا، وسمعًا، وبصرًا، وسُلطانًا، وغير ذلك من معاني ربوبيته؛ والمعية التي أضافها الله إلى نفسه منها ما يقتضي التهديد؛ ومنها ما يقتضي التأييد؛ ومنها ما هو لبيان الإحاطة، والشمول؛ فمثال الذي يقتضي التأييد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[(٤)]، وقوله تعالى لموسى وهارون: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[(٥)]، وقوله تعالى عن نبيه محمد ﷺ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ﴾[(٦)]، ومثال الذي يقتضي التهديد قوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾[(٧)]؛ ومثال ما يقتضي الإحاطة قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ﴾[(٨)].

فإن قلت: ما الجمع بين إثبات المعية لله عز وجل، وإثبات العلو له؟.

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٤٩).

(٢) سورة البقرة الآية (٤).

(٣) سورة المجادلة الآية (٧).

(٤) سورة النحل الآية (١٢٨).

(٥) سورة طه الآية (٤٦).

(٦) سورة التوبة الآية (٤٠).

(٧) سورة النساء الآية (١٠٨).

(٨) سورة الحديد الآية (٤).

فالجواب: أنه لا تناقض بينهما؛ إذ لا يلزم من كونه معنا أن يكون حالًّا في الأمكنة التي نحن فيها؛ بل هو معنا وهو في السماء، كما نقول: القمر معنا، والقطب معنا، والثريا معنا، وما أشبه ذلك مع أنها في السماء"[١].

٨- صفة اليد لله

ذكر المراغي رحمه الله صفة اليد بعد قول الحق ﷻ: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ ﴾[٢]، فقال: "لليد لغة معان عدة: الجارحة، والنعمة، تقول لفلان عندي يد أشكره عليها، والقدرة كما قال تعالى: ﴿ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾[٣] أي ذوي القوة والعقول والملك، كما تقول هذه الضيعة في يد فلان أي ملكه، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ ﴾[٤] أي في ملكه، وغُلَّتْ أيديهم أي أمسكت وانقبضت عن العطاء، وهو دعاء عليهم بالبخل، يداه مبسوطتان أي هو كثير العطاء.

ثم قال في إيضاح قوله تعالى: ﴿ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ ﴾[٥]: "أي بل هو الجواد المتصرف وفق حكمته وسننه في الاجتماع، وتقتيرُ الرزق على بعض العباد لا ينافي سعة الجود، وسريانه في كل الوجود، فإن له سبحانه الإرادة والمشيئة في تفضيل بعض الناس على بعض في الرزق بحسب السنن التي أقام بها نظام الخلق، وعبر عن سعة الجود ببسط اليدين، لأن الجواد السخي إذا أراد أن يبالغ في العطاء جهد استطاعته، يعطي بكلتا يديه كما قال الأعشى يمدح جوادا:

يداك يدا جود فكف مفيدة　　　وكف إذا ما ضن بالزاد تنفق[٦]"[٧]

---

(١) تفسير ابن عثيمين الفاتحة والبقرة(٣/٢٢٦-٢٢٧).

(٢) سورة المائدة الآية (٦٤).

(٣) سورة ص الآية (٤٥).

(٤) سورة البقرة الآية (٢٣٧).

(٥) سورة المائدة الآية (٦٤).

(٦) ديوان الأعشى (٣٣/٢٢٥) بلفظ (يداكَ يدا صدقٍ فكفٌّ مفيدةٌ *** وأخرى إذا ما ضنّ بالزّادِ تنفقُ).

(٧) تفسير المراغي(٢/٤٦٤- ٤٦٦).

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[(١)] فقال: "بيدك الخير: أي بقدرتك التي لا يقدر قدرها الخير كله، تتصرف فيه أنت وحدك.

ثم قال في إيضاح الآية قوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ﴾ أي بقدرتك الخير كله تتصرف فيه أنت وحدك بحسب مشيئتك، ولا يملكه أحد سواك، وخص الخير بالذكر مع أن كلا من الخير والشر بيده وقدرته كما يدل على ذلك قوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[(٢)] لأن المناسب للمقام ذكر الخير فقط، فإنه ما أغرى أولئك الجاحدين وجعلهم يستهينون بالدعوة إلا فقر الداعي، وضعف أتباعه وقلة عددهم، فأمره الله أن يلجأ إلى مالك الملك الذي بيده الإعزاز، وأن يذكره بأن الخير كله بيده، فلا يعجزه أن يعطي نبيه والمؤمنين من السيادة وبسطة السلطان ما وعدهم، وأن يؤتيهم من الخير ما لا يدور بخلد أولئك الذين استضعفوهم كما قال: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾[(٣)]، فليس بالمنكر بعد هذا أن تؤتي النبوة والملك من تشاء كمحمد وأمته من العرب وتنزعهما ممن تشاء كبني إسرائيل، فما مثل تصرفك في شؤون الناس إلا مثل تصرفك في الليل والنهار"[(٤)].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾[(٥)] فقال: "أي وكان الإنسان بخيلا منوعا بطبعه كما قال: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾[(٦)] أي لو أن لهم نصيبا في ملك الله لما أعطوا أحدا شيئا ولا مقدار نقير، وقد روى البخاري ومسلم «**يد الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء**[(٧)] **الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم يغض ما في يمينه**»[(١)]"[(٢)].

---

(١) سورة آل عمران الآية (٢٦).

(٢) سورة آل عمران الآية (٢٦).

(٣) سورة القصص الآية (٥).

(٤) تفسير المراغي(٢/٤٨٠-٤٨٢).

(٥) سورة الإسراء الآية (١٠٠).

(٦) سورة النساء الآية (٥٣).

(٧) قال ابن الأثير في النهاية(٢/٣٤٥): "أي دائمة الصب والهطل بالعطاء يقال سح يسح سحا فهو ساح، والمؤنثة

وقال: "وجاء في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**وما تصدق أحد بعدل تمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه؛ فيربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله حتى تصير التمرة أعظم من أحد (جبل)**»[٣]"[٤].

وذكر بعد قوله تعالى في سورة ص: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ ﴾[٥] فقال: "واليد: القدرة قال:

تحملت من عفراء ما ليس لي به ولا للجبال الراسيات يدان[٦]"[٧]

وقال بعد قول الحق ﷻ: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾[٨]: "وما قدروا الله حق قدره: أي ما عظموه حق التعظيم على الوجه الذي يليق به، والقبضة: المرة من القبض، وتطلق على المقدار المقبوض، بيمينه: أي بقدرته"[٩].

ثم قال: "وقوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ ﴾[١٠] أي ما عظموه حق التعظيم إذ عبدوا غيره معه، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدرته.

سحاء".

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {لما خلقت بيدي} (١٢١/٩)، الحديث رقم(٧٤١١)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف (٦٩١/٢)، الحديث رقم(٩٩٣).

(٢) تفسير المراغي(٣٦١/٥).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الزكاة،اب الصدقة من كسب طيب لقوله: {ويربي الصدقات، والله لا يحب كل كفار أثيم} الآية (١٠٨/٢)، الحديث رقم(١٤١٠)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها (٧٠٢/٢)، الحديث رقم(١٠١٤).

(٤) تفسير المراغي(٢٨٢/٧).

(٥) سورة ص الآية (٧٥).

(٦) ديوان عروة بن حزام ص(١٣).

(٧) تفسير المراغي(٢٣٦/٨).

(٨) سورة الزمر الآية (٦٧).

(٩) تفسير المراغي(٢٨/٢٤).

(١٠) سورة الزمر الآية (٦٧).

روى البخاري عن ابن مسعود قال: «**جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد! إنا نجد إن الله عز وجل يجعل السماوات على أصبع، والأرضين على أصبع، والشجر على أصبع، والماء والثرى على أصبع، وسائر الخلق على أصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، تصديقا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ**: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[1]»[2].

وأخرج الشيخان والنسائي وابن ماجه في جماعة آخرين عن ابن عمر: «**أن رسول الله ﷺ قرأ الآية ذات يوم على المنبر**: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾[3] **وهو يقول: هكذا بيده يحركها يقبل بها ويدبر، يمجد الرب نفسه أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم، فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا: لَيَخِرَّنَّ به**»[4].

﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾[5] أي إن الأرض جميعا تحت ملكه يوم القيامة يتصرف فيها كيف يشاء، ولا يتصرف فيها سواه، والسموات مطويات طي السجل للكتب، بقدرته التي لا يتعاصى معها شيء، وفي هذا رمز إلى أن ما يشركونه معه في الأرض أو في السماء مقهور تحت سلطانه جل شأنه.

روى البخاري عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يقبض الله الأرض، ويطوى السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟**»[6].

---

(١) سورة الزمر الآية (٦٧).

(٢) سبق تخريجه ص(٢٩).

(٣) سورة الزمر الآية (٦٧).

(٤) أخرجه أحمد في المسند(٣٠٤/٩)، الحديث رقم(٥٤١٤)، وابن أبي عاصم في السنة(٢٤٠/١)، الحديث رقم(٥٤٦)، والنسائي في الكبرى(١٣٩/٧)، الحديث رقم(٧٦٤٨)، وصححه الألباني في تعليقه على ابن حبان(٣٢٢/١٦) ولم أجده بهذا التمام في الصحيحين وقد سبق أن أصله فيهما.

(٥) سورة الزمر الآية (٦٧).

(٦) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {والأرض جميعا قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه} (١٢٦/٦)، الحديث رقم(٤٨١٢)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢١٤٨/٤)، الحديث رقم(٢٧٨٧).

و قد علمت أن السلف يجرون المتشابه على ما هو عليه، وأن الخلف يؤولونه، والأول أسلم، والثاني أحكم.

قال سفيان بن عيينة: «كل ما وصف الله تعالى به نفسه في كتابه، فتفسيره تلاوته والسكوت عليه»[(١)].

وقال صاحب الكشاف: "والغرض من هذا الكلام إذا أخذته بجملته ومجموعه تصوير عظمته، والتوقيف على كنه جلاله لا غير، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز"[(٢)]"[(٣)].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ ﴾[(٤)] فقال: "يد الله فوق أيديهم: أي نصرته إياهم أعلى وأقوى من نصرتهم إياه، كما يقال اليد لفلان: أي الغلبة والنصرة له"[(٥)].

ثم قال: "وقوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ ﴾[(٦)] أي نعمة الله عليهم بالهداية فوق ما صنعوا من البيعة"[(٧)].

المراغي رحمه الله في إثبات صفة اليد لله لم يوفق للصواب، فوقع في التأويل المذموم؛ لأن اليد لله ثابتة بالكتاب والسنة، والأدلة ذكرها المراغي لكنه أولها، فنذكر كلام أهل السنة والجماعة في إثبات صفة اليد لله:

قال الإمام ابن خزيمة رحمه الله: "باب ذكر إثبات اليد للخالق البارئ جل وعلا، والبيان أن الله تعالى له يدان كما أعلمنا في محكم تنزيله أنه خلق آدم بيديه.

---

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات(١٥٨/٢).

(٢) الكشاف للزمخشري(١٤٥/٤).

(٣) تفسير المراغي(٢٧٩/٨-٢٨٢).

(٤) سورة الفتح الآية (١٠).

(٥) تفسير المراغي(٢١١/٩-٢١٣).

(٦) سورة الفتح الآية (١٠).

(٧) تفسير المراغي(٢١١/٩-٢١٣).

قال عز وجل لإبليس ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ ﴾[(١)]، وقال جل وعلا تكذيبا لليهود حين قالوا: يد الله مغلولة، فكذبهم في مقالتهم وقال: ﴿ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ ﴾[(٢)].

وأعلمنا أن الأرض ﴿ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ ﴾[(٣)]، و﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ ﴾[(٤)]، وقال: ﴿ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾[(٥)]، وقال: ﴿ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[(٦)]، وقال: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا ﴾[(٧)]"[(٨)].

وقال شيخ الإسلام -قدس الله روحه- في رسالة وجّهها لبعض أصحابه، ناقش فيها بعض المخالفين في مسألة الحقيقة والمجاز، ثم تكلم على صفة اليد فقال بعد كلام سبق: "إذا وصف الله نفسه بصفة، أو وصفه بها رسوله، أو وصفه بها المؤمنون -الذين اتفق المسلمون على هدايتهم ودرايتهم- فصرفها عن ظاهرها اللائق بجلال الله سبحانه، وحقيقتها المفهومة منها: إلى باطن يخالف الظاهر، ومجاز ينافي الحقيقة، لا بد فيه من أربعة أشياء:

أحدها: أن ذلك اللفظ مستعمل بالمعنى المجازي؛ لأن الكتاب والسنة وكلام السلف جاء باللسان العربي، ولا يجوز أن يراد بشيء منه خلاف لسان العرب، أو خلاف الألسنة كلِّها؛ فلابد أن يكون ذلك المعنى المجازي ما يراد به اللفظ؛ وإلا فيمكن كل مبطلٍ أن يفسر أي لفظ بأي معنى سنح له؛ وإن لم يكن له أصل في اللغة.

الثاني: أن يكون معه دليل يوجب صرفَ اللفظ عن حقيقته إلى مجازه، وإلا فإذا كان يستعمل في معنى بطريق الحقيقة، وفي معنى بطريق المجاز لم يجز حمله على المجازي بغير دليل

---

(١) سورة ص الآية (٧٥).

(٢) سورة المائدة الآية (٦٤).

(٣) سورة الزمر الآية (٦٧).

(٤) سورة الفتح الآية (١٠).

(٥) سورة يس الآية (٨٣).

(٦) سورة آل عمران الآية (٢٦).

(٧) سورة يس الآية (٧١).

(٨) كتاب التوحيد الابن خزيمة(١/٨٠).

يوجب الصرف بإجماع العقلاء، ثمَّ إن ادعى وجوب صرفه عن الحقيقة فلا بد له من دليل قاطعٍ عقليٍّ أو سمعيٍّ يوجب الصرف، وإن ادَّعى ظهور صرفِه عن الحقيقة فلا بد من دليلٍ مرجحٍ للحمل على المجاز.

الثالث: أنه لا بد من أن يسلم ذلك الدليل -الصارف- عن معارض؛ وإلا فإذا قام دليلٌ قرآنيٌّ أو إيمانيٌّ يبين أن الحقيقة مرادةٌ امتنع تركُها، ثم إن كان هذا الدليل نصًّا قاطعًا لم يلتفت إلى نقيضِه، وإن كان ظاهرًا فلا بد من الترجيح.

الرابع: أن الرسول ﷺ إذا تكلم بكلام وأراد به خلاف ظاهره وضد حقيقته؛ فلا بد أن يبين للأمة أنه لم يرد حقيقته، وأنه أراد مجازه سواءٌ عيَّنه أو لم يعيِّنه، لاسيَّما في الخطاب العلميِّ الذي أريد منهم فيه الاعتقاد والعلم؛ دون عمل الجوارح؛ فإنه سبحانه وتعالى جعل القرآن نورا وهدى وبيانًا للناس وشفاءً لما في الصدور، وأرسل الرسل ليبين للناس ما نزل إليهم، وليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، ثم هذا الرسول الأميُّ العربيُّ بُعِثَ بأفصح اللغات، وأبين الألسنة والعبارات، ثم الأمة الذين أخذوا عنه كانوا أعمق الناس علمًا، وأنصحهم للأمة، وأبينهم للسنة، فلا يجوز أن يتكلم هو وهؤلاء بكلام يريدون به خلاف ظاهره؛ إلا وقد نصب دليلا يمنع من حمله على ظاهره؛ إما أن يكون عقليا ظاهرا مثل قوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾[1] فإن كل أحد يعلم بعقله أن المراد أوتيت من جنس ما يؤتاه مثلها، وكذلك: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[2] يعلم المستمع أن الخالق لا يدخل في هذا العموم. أو سمعيا ظاهرا مثل الدلالات في الكتاب والسنة التي تصرف بعض الظواهر، ولا يجوز أن يحيلهم على دليلٍ خفيٍّ لا يستنبطه إلا أفراد الناس سواء كان سمعيا أو عقليا؛ لأنه إذا تكلم بالكلام الذي يفهم منه معنى وأعاده مراتٍ كثيرةٍ؛ وخاطب به الخلق كلهم وفيهم الذكيُّ والبليدُ، والفقيه وغير الفقيه، وقد أوجب عليهم أن يتدبروا ذلك الخطاب ويعقلوه، ويتفكروا فيه ويعتقدوا موجِبَهُ، ثم أوجب أن لا يعتقدوا بهذا الخطاب شيئا من ظاهره؛ لأن هناك دليلًا خفيًّا يستنبطه أفراد الناس؛ يدل على أنه لم يرد ظاهرَه كان هذا تدليسًا وتلبيسًا، وكان نقيض البيان وضدَّ الهدى، وهو بالألغاز والأحاجي أشبه منه بالهدى والبيان؛ فكيف إذا كانت دلالة ذلك

(١) سورة النمل الآية (٢٣).

(٢) سورة الأنعام الآية (١٠٢).

الخطاب على ظاهره أقوى بدرجاتٍ كثيرةٍ من دلالة ذلك الدليل الخفيِّ؛ على أن الظاهر غيرُ مراد؟، أم كيف إذا كان ذلك الخفي شبهةً ليس لها حقيقة؟. فسلم لي ذلك الرجل هذه المقامات.

قلت: ونحن نتكلم على صفة من الصفات، ونجعل الكلام فيها أنموذجا يحتذى عليه، ونعبر بصفة (اليد) وقد قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ﴾(١)، وقال تعالى لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾(٤)، وقال: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾(٦)، وقد تواتر في السنة مجيء (اليد) في حديث النبي ﷺ، فالمفهوم من هذا الكلام: أن لله تعالى يدين مختصتين به، ذاتيتين له كما يليق بجلاله؛ وأنه سبحانه خلق آدم بيده دون الملائكة وإبليس، وأنه سبحانه يقبض الأرض ويطوي السموات بيده اليمنى، وأن يداه مبسوطتان، ومعنى بسطهما بذل الجود وسعة العطاء؛ لأن الإعطاء والجود في الغالب يكون ببسط اليد ومدها؛ وتركه يكون ضمًّا لليد إلى العنق؛ صار من الحقائق العرّفية، إذا قيل هو مبسوط اليد فُهم منه يدٌ حقيقةً وكان ظاهره الجودُ والبخلُ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾(٧)، ويقولون: فلان جعد البنان وسبط البنان، قلت له: فالقائل؛ إن زعم أنه ليس له يد من جنس أيدي المخلوقين: وأن يده ليست جارحة فهذا حق، وإن زعم أنه ليس له يد زائدة على الصفات السبع؛ فهو مبطل، فيحتاج إلى تلك المقامات الأربعة.

---

(١) سورة المائدة الآية (٦٤).

(٢) سورة ص الآية (٧٥).

(٣) سورة الزمر الآية (٦٧).

(٤) سورة الملك الآية (١).

(٥) سورة آل عمران الآية (٢٦).

(٦) سورة يس الآية (٧١).

(٧) سورة الإسراء الآية (٢٩).

أما الأول: فيقول: إن اليد تكون بمعنى النعمة والعطية؛ تسميةً للشيء باسم سببه؛ كما يسمى المطر والنبات سماءً، ومنه قولهم: لفلان عنده أياد، وقول أبي طالب لما فقد النبي ﷺ:

يا ربِّ رُدَّ رَاكِبِي مُحَمَّدَا [ارُدُدْهُ ربِّي] واصطَنِع عندِي يدَا(١)

وقول عروة بن مسعود لأبي بكر يوم الحديبية: «**لولا يدٌ لك عندي لم أَجزِك بها لأجبتك**»(٢)، وقد تكون اليد بمعنى القدرة تسمية للشيء باسم مسببه؛ لأن القدرة هي تحرك اليد؛ يقولون: فلان له يد في كذا وكذا؛ ومنه قول زياد(٣) لمعاوية: "إني قد أمسكت العراق بإحدى يدي ويدي الأخرى فارغة"(٤)، يريد نصف قدرتي ضبط أمر العراق، ومنه قوله: ﴿بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾(٥)، والنكاح كلامٌ يقال، وإنما معناه أنه مقتدر عليه، وقد يجعلون إضافة الفعل إليها إضافة الفعل إلى الشخص نفسِه؛ لأن غالب الأفعال لما كانت باليد جعل ذكر اليد إشارة إلى أنه فعل بنفسِه، قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾(٦) أي: بما قدمتم؛ فإن بعض ما قدموه كلام تكلموا به، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾(٧)، والعرب تقول: يداك أوكتا وفوك نفخ؛ توبيخا لكل من جرَّ على نفسه جريرة؛ لأن أول ما قيل هذا لمن فعل بيديه وفمه.

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة(١/١٥١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٣/١٩٣)، الحديث رقم(٢٧٣١).

(٣) زياد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس وأمه سمية جارية الحارث ابن كلدة الثقفي وكان بعضهم يقول: زياد ابن أبيه، وبعضهم يقول: زياد الأمير، وولي البصرة لمعاوية حين ادعاه وضم إليه الكوفة، ولم يكن زياد من القراء ولا الفقهاء، ولكنه كان معروفا وكان كاتبا لأبي موسى الأشعري، وقد روى عن عمر ورويت عنه أحاديث، وتوفي سنة ٥٣هـ. انظر: الطبقات الكبرى(٧/٩٩).

(٤) بحثت عنه ولم أجده.

(٥) سورة البقرة الآية (٢٣٧).

(٦) سورة آل عمران الآية (١٨١-١٨٢).

(٧) سورة الأنفال الآية (٥٠-٥١).

قلت له: ونحن لا ننكر لغة العرب التي نزل بها القرآن في هذا كلِّه، والمتأولون للصفات الذين حرفوا الكلم عن مواضعه، وألحدوا في أسمائه وآياته تأولوا قوله: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾[1]، وقوله: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾[2] على هذا كلِّه فقالوا: إن المراد نعمتهن أي: نعمة الدنيا ونعمة الآخرة، وقالوا: بقدرته، وقالوا: اللفظ كنايةٌ عن نفس الجود؛ من غير أن يكون هناك يدٌ حقيقة؛ بل هذه اللفظة قد صارت حقيقةً في العطاء والجود، وقوله: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾[3] أي: خلقته أنا وإن لم يكن هناك يد حقيقيةً، قلت له: فهذه تأويلاتهم؟ قال: نعم، قلت له: فننظر فيما قدمنا: المقام الأول: أن لفظ (اليدين) بصيغة التثنية لم يستعمل في النعمة ولا في القدرة؛ لأن من لغة القوم استعمال الواحد في الجمع كقوله ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾[4]، ولفظ الجمع في الواحد كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾[5]، ولفظ الجمع في الاثنين كقوله: ﴿صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾[6]، أما استعمال لفظ الواحد في الاثنين، أو الاثنين في الواحد فلا أصل له؛ لأن هذه الألفاظ عدد وهي نصوص في معناها لا يتجوز بها، ولا يجوز أن يقال: عندي رجلٌ ويعني رجلين، ولا عندي رجلان ويعني به الجنس؛ لأن اسم الواحد يدل على الجنس، والجنس فيه شياع وكذلك اسم الجمع فيه معنى الجنس، والجنس يحصل بحصول الواحد، فقوله: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾[7] لا يجوز أن يراد به القدرة؛ لأن القدرة صفة واحدة، ولا يجوز أن يعبر بالاثنين عن الواحد، ولا يجوز أن يراد به النعمة لأن نعم الله لا تحصى؛ فلا يجوز أن يعبر عن النعم التي لا تحصى بصيغة التثنية، ولا يجوز أن يكون (لما خلقت أنا)؛ لأنهم إذا أرادوا ذلك أضافوا الفعل إلى اليد، فتكون إضافته إلى اليد إضافة له إلى الفعل؛ كقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾[8] ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ

(١) سورة المائدة الآية (٦٤).

(٢) سورة ص الآية (٧٥).

(٣) سورة ص الآية (٧٥).

(٤) سورة العصر الآية (٢).

(٥) سورة آل عمران الآية (١٨٣).

(٦) سورة التحريم الآية (٤).

(٧) سورة ص الآية (٧٥).

(٨) سور الحج الآية (١٠).

﴿أَيۡدِيكُمۡ﴾[(١)]، ومنه قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا﴾[(٢)]، أما إذا أضاف الفعل إلى الفاعل وعدَّى الفعل إلى اليد بحرف الباء؛ كقوله: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾[(٣)] فإنه نصٌّ في أنه فعَلَ الفعل بيديه، ولهذا لا يجوز لمن تكلَّم أو مشى: أن يقال فعلت هذا بيديك، ويقال: هذا فعلته يداك؛ لأن مجرد قوله: فعلت كاف في الإضافة إلى الفاعل، فلو لم يرد أنه فعله باليد حقيقة كان ذلك زيادة محضة من غير فائدة، ولست تجد في كلام العرب ولا العجم -إن شاء الله تعالى- أن فصيحا يقول: فعلت هذا بيدي، أو فلان فعل هذا بيديه إلا ويكون فعله بيديه حقيقة، ولا يجوز أن يكون لا يد له، أو أن يكون له يد والفعل وقع بغيرها، وبهذا الفرق المحقق تتبين مواضع المجاز ومواضع الحقيقة؛ ويتبين أن الآيات لا تقبل المجاز ألبتة من جهة نفس اللغة.

قال لي: فقد أوقعوا الاثنين موقع الواحد في قوله: ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾[(٤)]، وإنما هو خطاب للواحد، قلت له: هذا ممنوع؛ بل قوله: {ألقيا} قد قيل: تثنية الفاعل لتثنية الفعل، والمعنى ألق ألق، وقد قيل: إنه خطاب للسائق والشهيد، ومن قال: إنه خطاب للواحد قال: إن الإنسان يكون معه اثنان: أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله، فيقول: خليلي خليلي ثم إنه يوقع هذا الخطاب وإن لم يكونا موجودين كأنه يخاطب موجودين؛ فقوله: {ألقيا} عند هذا القائل إنما هو خطاب لاثنين يقدر وجودهما فلا حجة فيه ألبتة.

قلت له: المقام الثاني: أن يقال: هب أنه يجوز أن يعني باليد حقيقة اليد، وأن يعني بها القدرة أو النعمة، أو يجعل ذكرها كناية عن الفعل؛ لكن ما الموجب لصرفها عن الحقيقة؟. فإن قلت: لأن اليد هي الجارحة وذلك ممتنع على الله سبحانه، قلت لك: هذا ونحوه يوجب امتناع وصفه بأن له يدا من جنس أيدي المخلوقين وهذا لا ريب فيه؛ لكن لم لا يجوز أن يكون له (يد) تناسب ذاته تستحق من صفات الكمال ما تستحق الذات؟ قال: ليس في العقل والسمع ما يحيل هذا؛ قلت: فإذا كان هذا ممكنا، وهو حقيقة اللفظ فلِمَ يصرف عنه اللفظ إلى مجازه؟ وكل ما يذكره الخصم من دليلٍ يدلُّ على امتناع وصفه بما يسمَّى به -وصحت الدلالة- سلم

(١) سورة آل عمران الآية (١٨٢).

(٢) سورة يس الآية (٧١).

(٣) سورة ص الآية (٧٥).

(٤) سورة ق الآية (٢٥).

له أن المعنى الذي يستحقه المخلوق منتفٍ عنه، وإنما حقيقة اللفظ وظاهره (يد) يستحقها الخالق كالعلم والقدرة بل كالذات والوجود.

المقام الثالث: قلت له: بلغك أن في كتاب الله أو في سنة رسول الله ﷺ أو عن أحد من أئمة المسلمين: أنهم قالوا: المراد باليد خلاف ظاهره، أو الظاهر غير مراد، أو هل في كتاب الله آية تدل على انتفاء وصفه باليد دلالة ظاهرة؛ بل أو دلالة خفية؟ فإن أقصى ما يذكره المتكلف قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[(١)]، وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[(٣)] وهؤلاء الآيات إنما يدللن على انتفاء التجسيم والتشبيه، أما انتفاء يد تليق بجلاله فليس في الكلام ما يدل عليه بوجه من الوجوه، وكذلك هل في العقل ما يدل دلالة ظاهرة على أن الباري لا يَدَ له ألبتة؟ لا يدًا تليق بجلاله ولا يدًا تناسب المحدثات، وهل فيه ما يدل على ذلك أصلا؛ ولو بوجه خفي؟ فإذا لم يكن في السمع ولا في العقل ما ينفي حقيقة اليد ألبتة؛ وإن فرض ما ينافيها فإنما هو من الوجوه الخفية -عند من يدعيه- وإلا ففي الحقيقة إنما هو شبهة فاسدة، فهل يجوز أن يملأ الكتاب والسنة من ذكر اليد، وأن الله تعالى خلق بيده، وأن يداه مبسوطتان، وأن الملك بيده، وفي الحديث ما لا يحصى، ثم إن رسول الله ﷺ وأولي الأمر: لا يبينون للناس أن هذا الكلام لا يراد به حقيقته ولا ظاهره حتى ينشأ جهم بن صفوان[(٤)] بعد انقراض عصر الصحابة؛ فيبين للناس ما نُزِّلَ إليهم على نبيهم، ويتبعه عليه بشر بن غياث[(٥)] ومن سلك سبيلهم من كل مغموص عليه بالنفاق، وكيف يجوز أن يعلمنا نبينا ﷺ كل شيء حتى الخراءة، ويقول: «**ما تركت من شيء يقربكم إلى الجنة إلا وقد حدثتكم به، ولا من**

---

(١) سورة الإخلاص الآية (١).

(٢) سورة الشورى الآية (١١).

(٣) سورة مريم الآية (٦٥).

(٤) جهم بن صفوان، أبو محرز السمرقندى الضال المبتدع، رأس الجهمية، هلك في زمان صغار التابعين، وما علمته روى شيئا، لكنه زرع شرا عظيما، قتل جهم بن صفوان سنة ثمان وعشرين، انظر: ميزان الاعتدال للذهبي(١/٤٢٦) ولسان الميزان(٢/١٤٢).

(٥) بشر بن غياث المريسي مبتدع ضال لا ينبغي أن يروى عنه ولا كرامة، تفقه على أبي يوسف فبرع وأتقن علم الكلام، ثم جرد القول بخلق القرآن وصنف كتابا في التوحيد، "الارجاء"، وكتاب "الرد على الخوارج"، وكتاب "كفر المشبهة"، وكتاب "المعرفة"، وكتاب "الوعيد"، ومات في آخر سنة ٢١٨هـ، وقد قارب الثمانين. انظر: سير أعلام النبلاء(١٠/١٩٩)، ولسان الميزان (٢/٢٩).

شيء يبعدكم عن النار إلا وقد حدثتكم به»[(١)] «**تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»**[(٢)]، ثم يترك الكتاب المنزل عليه، وسنته الغراء مملوءة مما يزعم الخصم أن ظاهره تشبيه وتجسيم، وأن اعتقاد ظاهره ضلال، وهو لا يبين ذلك ولا يوضحه، وكيف يجوز للسلف أن يقولوا: "أَمِرُّوهَا كما جاءت" مع أن معناها المجازي هو المراد، وهو شيء لا يفهمه العرب، حتى يكون أبناء الفرس والروم أعلم بلغة العرب من أبناء المهاجرين والأنصار؟.

المقام الرابع: قلت له: أنا أذكر لك من الأدلة الجلية القاطعة والظاهرة ما يبين لك أن لله (يدين) حقيقة، فمن ذلك تفضيله لآدم: يستوجب سجود الملائكة وامتناعهم عن التكبر عليه؛ فلو كان المراد أنه خلقه بقدرته أو بنعمته أو مجرد إضافة خلقه إليه لشاركه في ذلك إبليس وجميع المخلوقات، قال لي: فقد يضاف الشيء إلى الله على سبيل التشريف كقوله: {ناقة الله} و{بيت الله}، قلت له: لا تكون الإضافة تشريفا حتى يكون في المضاف معنى أفرده به عن غيره، فلو لم يكن في الناقة والبيت من الآيات البينات ما تمتاز به على جميع النوق والبيوت لما استحقا هذه الإضافة، والأمر هنا كذلك، فإضافة خلق آدم إليه أنه خلقه بيديه، يوجب أن يكون خلقه بيديه أنه قد فعله بيديه، وخلق هؤلاء بقوله: كن فيكون كما جاءت به الآثار، ومن ذلك أنهم إذا قالوا: بيده الملك أو عملته يداك؛ فهما شيئان:

أحدهما: إثبات اليد.

والثاني: إضافة الملك والعمل إليها، والثاني يقع فيه التجوز كثيرا، أما الأول فإنهم لا يطلقون هذا الكلام إلا لجنس له (يد) حقيقة، ولا يقولون: (يد) الهوى ولا (يد) الماء، فهب أن

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف(١٢٩/٨)، الحديث رقم(٣٤٣٣٢)، والحاكم في المستدرك(٥/٢)، الحديث رقم(٢١٣٦)، والبيهقي في الشعب الحديث رقم(٩٨٩١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة الحديث رقم(٢٨٦٦).

(٢) أخرجه أحمد في المسند(٣٦٧/٢٨)، الحديث رقم(١٧١٤٢)، وابن ماجه في سننه، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين(١٦/١)، الحديث رقم(٤٣)، وقال أبو نعيم في المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم(٣٦/١): "وهذا حديث جيد من صحيح حديث الشاميين"، وقال المنذري في الترغيب(٤٧/١): "رواه ابن أبي عاصم في كتاب السنة بإسناد حسن".

قوله: بيده الملك قد علم منه أن المراد بقدرته لكن لا يتجوز بذلك إلا لمن له يد حقيقة، والفرق بين قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[(١)]، وقوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾[(٢)] من وجهين:

أحدهما: أنه هنا أضاف الفعل إليه وبين أنه خلقه بيديه، وهناك أضاف الفعل إلى الأيدي.

الثاني: أن من لغة العرب أنهم يضعون اسم الجمع موضع التثنية إذا أمن اللبس، كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾[(٣)] أي: يديهما، وقوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[(٤)] أي: قلباكما فكذلك قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾[(٥)]، وأما السنة فكثيرة جدًا مثل قوله ﷺ «**المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا**» رواه مسلم[(٦)]، وقوله ﷺ «**يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم يغض ما في يمينه والقسط بيده الأخرى يرفع ويخفض إلى يوم القيامة**» رواه مسلم في صحيحه[(٧)]؛ والبخاري فيما أظن، وفي الصحيح أيضا عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم بيده خبزته في السفر**»[(٨)]، وفي الصحيح أيضا عن ابن عمر يحكي رسول الله ﷺ قال: «**يأخذ الرب عز وجل سمواته وأرضه بيديه -وجعل يقبض يديه ويبسطهما- ويقول: أنا الرحمن حتى نظرت إلى المنبر يتحرك أسفل منه حتى إني أقول: أساقط هو برسول**

---

(١) سورة ص الآية (٧٥).

(٢) سورة يس الآية (٧١).

(٣) سورة المائدة الآية (٣٨).

(٤) سورة التحريم الآية (٤).

(٥) سورة يس الآية (٧١).

(٦) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم(١٤٥٨/٣)، الحديث رقم(١٨٢٧).

(٧) سبق تخريجه ص(٣٩٠).

(٨) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب يقبض الله الأرض يوم القيامة (١٠٨/٨)، الحديث رقم(٦٥٢٠)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب نزل أهل الجنة (٢١٥١/٤)، الحديث رقم(٢٧٩٢).

الله؟» -وفي رواية- «**أنه قرأ هذه الآية على المنبر:** ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[(١)] **قال: يقول: أنا الله أنا الجبار**»[(٢)] وذكره، وفي الصحيح أيضا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟**»[(٣)]، وما يوافق هذا من حديث الحبر، وفي حديث صحيح: «**إن الله لما خلق آدم قال له ويداه مقبوضتان: اختر أيهما شئت، قال: اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة، ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته**»[(٤)] وفي الصحيح: «**أن الله كتب بيده على نفسه لما خلق الخلق: إن رحمتي تغلب غضبي**»[(٥)]، وفي الصحيح: «**أنه لما تحاجَّ آدم وموسى، قال آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده؛ وقد قال له موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه**»[(٦)].

ثم قال رحمه الله بعد ذلك: "فذكرت له هذه الأحاديث وغيرها؛ ثم قلت له: هل تقبل هذه الأحاديث تأويلًا؛ أم هي نصوص قاطعةٌ؟ وهذه أحاديث تلقَّتها الأمة بالقبول والتصديق، ونقلتها من بحر غزير، فأظهر الرجل التوبة وتبين له الحق"[(٧)].

٩- صفة الوجه لله

---

(١) سورة الزمر الآية (٦٧).

(٢) سبق تخريجه ص(٣٩١).

(٣) سبق تخريجه ص(٣٩٢).

(٤) أخرجه الترمذي، ابواب تفسير القرآن، باب ومن سورة المعوذتين (٥/٤٥٣)، الحديث رقم(٣٣٦٨)، وابن أبي عاصم في السنة، باب ذكر أخذ ربنا الميثاق من عباده(١/٩١)، الحديث رقم(٢٠٦)، والحاكم في المستدرك(١/١٣٢)، الحديث رقم(٢١٤)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي في التعليق ونص على صحته الشيخ عبد العزيز بن باز في مجموع الفتاوى (٣/٨٦)، وصححه الألباني في المشكاة برقم(٤٦٦٢).

(٥) سبق تخريجه ص(٣٦٩).

(٦) أخرجه قريبا من هذا اللفظ البخاري، كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى(٨/١٢٦)، الحديث رقم(٦٦١٤)، ومسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٤/٢٠٤٣)، الحديث رقم(٢٦٥٢).

(٧) مجموع الفتاوى(٦/٣٦٠-٣٧٢).

المراغي رحمه تكلم على صفة الوجه من خلال الآيات الواردة في هذا الموضوع، فقال بعد قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[١]: "أي للذين أحسنوا أعمالهم في الدنيا المثوبة الحسنى، أي التي تزيد في الحسن على إحسانهم وهي مضاعفتها بعشرة أمثالها أو أكثر، وجاء هذا المعنى في قوله: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾[٢] أي ولهم زيادة على هذه الحسنى فوق ما يستحقون على أعمالهم بعد مضاعفتها، وقد ورد من طرق عدة أن هذه الزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم[٣]، وذلك هو أعلى مراتب الكمال الروحي الذي لا يصل إليه إلا المحسنون العارفون في الآخرة"[٤].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[٥] فقال: "ووصف الأجر بالكبير لما حواه من نعيم سرمديٍّ، وأمنٍ من العذاب، ورضا من الله عز وجل، ونظر إلى وجهه الكريم ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[٦]"[٧].

وذكر عند قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[٨] فقال: "وجهه: أي رضاه وطاعته، لأن من رضي عن شخص يقبل عليه، ومن غضب عليه يعرض عنه"[٩].

---

(١) سورة يونس الآية (٢٦).

(٢) سورة النجم الآية (٣١).

(٣) مثل حديث («جنتان من فضة آنيتهما، وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما، وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن». رواه مسلم(١٦٣/١) ووعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: " {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة}[يونس:٢٦]: قال: «النظر إلى وجه الله عز وجل» كتاب رؤية الله للدارقطني(٢٨٩).

(٤) تفسير المراغي(٢٢٨/٤).

(٥) سورة هود الآية (١١).

(٦) سورة التوبة الآية (٧٢).

(٧) تفسير المراغي(٢٩٥/٤).

(٨) سورة الكهف الآية (٢٨).

(٩) تفسير المراغي(٣٩٤/٥).

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[(١)] فقال: "قوله: هالك: أي معدوم، وجهه: أي ذاته...، ثم بين صفاته فقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[(٢)]: "أي هو الدائم الباقي الحي القيوم الذي لا يموت إذا ماتت الخلائق، كما قال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[(٣)]"[(٤)].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[(٥)] فقال: "وجه ربك: أي ذاته، ذو الجلال والإكرام: أي ذو العظمة والكبرياء..."[(٦)].

ثم قال: "وقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[(٧)] أي إن جميع أهل الأرض يذهبون ويموتون، وكذلك أهل السموات، ولا يبقى سوى وجه ربك الكريم، فإنه الحي الذي لا يموت أبدا"[(٨)].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[(٩)] فقال: "والوجه الجهة... أي أيُّ مكان تستقبلونه في صلاتكم، فهناك القبلة التي يرضاها الله لكم ويأمركم بالتوجه إليها، فأينما توجه المصلي في صلاته فهو متوجه إلى الله لا يقصد بصلاته غيره، والله تعالى راض عنه مقبل عليه.

والحكمة في استقبال القبلة -أنه لما كان من شأن العابد أن يستقبل وجه المعبود، وهو بهذه الطريقة محال على الله- شرع للناس مكانا مخصوصا يستقبلونه في عبادتهم إياه، وجعل استقباله كاستقبال وجهه تعالى.

---

(١) سورة القصص الآية (٨٨).

(٢) سورة القصص الآية (٨٨).

(٣) سورة الرحمن الآية (٢٦-٢٧).

(٤) تفسير المراغي(٧/٢٠٧- ٢٠٩).

(٥) سورة الرحمن الآية (٢٧).

(٦) تفسير المراغي(٩/٣٨٤).

(٧) سورة الرحمن الآية (٢٦-٢٧).

(٨) تفسير المراغي(٩/٣٨٤).

(٩) سورة البقرة الآية (١١٧).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[(١)] أي إنه تعالى لا يحصر ولا يتحدد، فيصح أن يتوجه إليه في كل مكان، وهو عليم بالمتوجه إليه أينما كان، فاعبدوه حيثما كنتم، وتوجهوا إليه أينما حللتم، ولا تتقيدوا بالأمكنة، والمعبود غير مقيد"[(٢)].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[(٣)] فقال: "والحكمة في ذلك أن الخلق في حاجة إلى التوجه إلى خالقهم لشكره والثناء عليه والتوسل إليه لاستمداد رحمته ومعونته، وهم يعجزون عن التوجه إلى موجود غيبي لا يتقيد بمكان ولا ينحصر في جهة، فعين لهم مكانا نسبه إليه رمزا إلى أن ذاته المقدسة تحضره، والحضور الحقيقي محال عليه، فالمراد أن رحمته الإلهية تحضره، ومن ثم كان التوجه إلى هذا المكان كالتوجه إلى تلك الذات العلية لو وجد العبد إلى ذلك سبيلا"[(٤)].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[(٥)] فقال: "أي لكنه يفعل ذلك قاصدًا رضا ربِّه، طالبًا مثوبتَه وحده، تقول: فعلت كذا أبتغي وجه فلان، أي لم يحملني على الفعل إلا إجلاله وقصد مرضاته، وخيفة الوقوع فيما يغضبه"[(٦)].

المراغي رحمه الله ظاهر كلامه أثبت الوجه لله، لكنه ذكر بعض الألفاظ المجملة في هذا الموضوع التي تحتاج إلى تفصيل؛ مثل قوله: (لا يتقيد بمكان ولا ينحصر في جهة)، وقوله: (إنه تعالى لا يحصر ولا يتحدد)، وكلام السلف في الألفاظ المجملة التفصيل، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "الواجب أن يجعل ما قاله الله ورسوله هو الأصل، ويتدبر معناه ويعقل ويعرف برهانه ودليله؛ إما العقلي وإما الخبري السمعي، ويعرف دلالة القرآن على هذا وهذا، وتجعل أقوال الناس التي قد توافقه وتخالفه متشابهة مجملة، فيقال لأصحاب هذه الألفاظ: يحتمل كذا وكذا ويحتمل كذا وكذا فإن أرادوا بها ما يوافق خبر الرسول قبل، وإن أرادوا بها ما يخالفه رد،

---

(١) سورة البقرة الآية (١١٥).

(٢) تفسير المراغي(١/١٦٥-١٦٧).

(٣) سورة البقرة الآية (١٢٥).

(٤) تفسير المراغي(١/١٧٧).

(٥) سورة الليل الآية (٢٠).

(٦) تفسير المراغي(١٠/٤٤١).

وهذا مثل لفظ "المركب" و"الجسم" و"المتحيز" و"الجوهر" و"الجهة" و" العرض" ونحو ذلك ولفظ "الحيز" ونحو ذلك، فإن هذه الألفاظ لا توجد في الكتاب والسنة بالمعنى الذي يريده أهل هذا الاصطلاح؛ بل ولا في اللغة أيضا، بل هم يختصون بالتعبير بها على معان لم يعبر غيرهم عن تلك المعاني بهذه الألفاظ فيفسر تلك المعاني بعبارات أخرى، ويبطل ما دل عليه القرآن بالأدلة العقلية والسمعية، وإذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق من الباطل، وعرف وجه الكلام على أدلتهم، فإنها ملفقة من مقدمات مشتركة، يأخذون اللفظ المشترك في إحدى المقدمتين بمعنًى، وفي المقدمة الأخرى بمعنًى آخرَ، فهو في صورة اللفظ دليل وفي المعنى ليس بدليل"[(١)].

والنصوص الشرعية واجب الإيمان بها وإن لم يظهر لنا معناها، وأما الألفاظ المجملة التي ترد عند بعض أهل العلم، فمذهب أهل السنة أنها لا تقبل ولا ترد حتى يعرف المراد منها؛ لأن "ما أخبر الله تعالى به في كتابه، أو أخبر به رسوله ﷺ وجب علينا الإيمان به، سواء عرفنا معناه، أم لم نعرفه لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾[(٣)]، ولأن خبر الله تعالى صادر عن علم تام، فهو أعلم بنفسه وبغيره كما قال الله تعالى: ﴿ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ ﴾[(٤)]، ولأن خبر الله تعالى أصدق الأخبار كما قال تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴾[(٥)]، ولأن كلام الله تعالى أفصح الكلام، وأبلغه، وأبينه كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴾[(٦)]، وقال: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ ﴾[(٧)] متشابها يشبه بعضه بعضا في

(١) مجموع الفتاوى(١٣/١٤٥).

(٢) سورة النساء الآية (١٣٦).

(٣) سورة النساء الآية (١٧٠).

(٤) سورة البقرة الآية (١٤٠).

(٥) سورة النساء الآية (٨٧).

(٦) سورة الفرقان الآية (٣٣).

(٧)سورة الزمر الآية (٢٣).

الكمال والبيان، وقال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[(١)]، ولأن الله تعالى: يريد بما أنزل إلى عباده من الوحي أن يهتدوا ولا يضلوا كما قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾[(٢)] وقال: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[(٣)]، وهكذا خبر النبي ﷺ صادر عن علم، فإنه ﷺ أعلم الناس بربه، وأسمائه، وصفاته، وأحكامه.

وخبره أصدق أخبار البشر، وكلامه أفصح كلام البشر، وقصده أفضل مقصود البشر، فهو أنصح الخلق للخلق.

فقد اجتمع في خبر الله تعالى: وخبر رسوله كمال العلم، وكمال الصدق وكمال البيان، وكمال القصد والإرادة، وهذه هي مقومات قبول الخبر، ولهذا لو صدر الخبر عن جاهل أو كاذب، أو عيي، أو سيئ قصد لم يكن مقبولا لفقده مقومات القبول أو أحدها.

فإذا كانت مقومات قبول الخبر تامة على أكمل وجه في خبر الله ورسوله وجب الإيمان به، وقبوله سواء كان نفيا، أم إثباتا، ولم يبق عذر لمعتذر في رده، أو تحريفه، أو الشك في مدلوله، لا سيما في أسماء الله تعالى وصفاته.

وكذلك ما ثبت باتفاق سلف الأمة وأئمتها وجب قبوله وعامة هذا الباب "باب الأسماء والصفات" منصوص عليه في الكتاب والسنة، متفق عليه بين سلف الأمة.

وأما ما تنازع فيه المتأخرون مما ليس في الكتاب والسنة ولا عند سلف الأمة، فليس على أحد، بل وليس لأحد أن يثبت لفظه، أو ينفيه لعدم ورود السمع به، وليس له أن يقبل معناه أو يرده حتى يعلم المراد منه، فإن كان حقًّا وجبَ قَبُوله، وإن كان باطلا وجب ردُّه، ولذلك أمثلة، منها:

المثال الأول: الجهة:

أي لو قال قائل: إن الله في جهة، أو هل لله جهة؟

---

(١) سورة الشعراء الآية (١٩٣-١٩٥).

(٢) سورة النساء الآية (٢٦).

(٣) سورة النساء الآية (١٧٦).

فيقال له: لفظ "الجهة" ليس في الكتاب والسنة إثباته ولا نفيه، فليس فيهما أنه في جهة، أو له جهة، ولا أنه ليس في جهة، أو ليس له جهة، وفي النصوص ما يغني عنه كالعلو، والفوقية، والاستواء على العرش، وصعود الأشياء إليه ونزولها منه.

وقد اضطرب المتأخرون في إثباته ونفيه، فإذا أجريناه على القاعدة قلنا: أما اللفظ فلا نثبته ولا ننفيه لعدم ورود ذلك، وأما المعنى فينظر ماذا يراد بالجهة: أيراد بالجهة شيء مخلوق محيط بالله عز وجل، فهذا معنى باطل لا يليق بالله سبحانه، فإن الله لا يحيط به شيء من مخلوقاته، فقد وسع كرسيه السموات والأرض، ولا يؤوده حفظهما، ولا يمكن أن يكون داخل شيء من مخلوقاته.

أم يراد بالجهة ما فوق العالم، فهذا حق ثابت لله عز وجل فإن الله تعالى: فوق خلقه عال عليهم، كما دل على ذلك الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة، وفي صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي «**أن النبي ﷺ قال لجارية كانت له: أين الله؟ قالت: في السماء. قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله، قال: أعتقها فإنها مؤمنة**»(١).

المثال الثاني: الحيز أو المتحيز:

فإذا قال قائل: هل نصف الله تعالى: بأنه متحيز أو في حيز؟

قلنا: لفظ "التحيز" أو "الحيز" ليس في الكتاب والسنة إثباته ولا نفيه عن الله تعالى، فليس فيهما أنه في حيز، أو متحيز، ولا أنه ليس كذلك، وفي النصوص ما يغني عنه مثل الكبير المتعال، وقد اضطرب المتأخرون في إثبات ذلك لله تعالى أو نفيه عنه، فإذا أجريناه على القاعدة قلنا: أما اللفظ فلا نثبته ولا ننفيه لعدم ورود السمع به، وأما المعنى فينظر ماذا يراد بالحيز أو المتحيز؛ أيراد به أن الله تعالى تحوزه المخلوقات وتحيط به، فهذا معنى باطل منفي عن الله تعالى، لا يليق به فإن الله أكبر، وأعظم، وأجل من أن تحيط به المخلوقات وتحوزه، كيف وقد وسع كرسيه السموات والأرض، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه؟! وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**يقبض الله تبارك**

---

(١) صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ما كان من إباحته(١/٣٨١)، الحديث رقم(٥٣٧).

وتعالى: الأرض يوم القيامة ويطوي السموات بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض»[(١)]؟.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «**ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم**»[(٢)].

أم يراد بالحيز أو المتحيز: أن الله منحاز عن المخلوقات، أي مباين لها منفصل عنها ليس حالًّا فيها، ولا هي حالَّةٌ فيه، فهذا حق ثابت لله عز وجل كما قال أئمة أهل السنة: هو فوق سمواته على عرشه، بائن من خلقه"[(٣)].

أما ما ذكره المراغي في إيضاحه للآيات التي فسرها، فهي تدل على ما ذكر، وتدل كذلك على إثبات صفة الوجه لله، ومن ذلك الآية الأولى، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[(٤)].

ففي هذه الآية وغيرها من الأدلة إثبات صفة الوجه لله كما هو مذهب أهل السنة والجماعة فقد قال الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله معلقا على قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ﴾[(٥)] وفي هذه الآية إثبات الوجه لله تعالى، وقد أجمع علماء أهل السنة على ثبوت الوجه لله تعالى بدلالة الكتاب والسنة على ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[(٦)]، وقال النبي ﷺ: «**أعوذ بوجهك**»[(٧)]، وأجمع سلف الأمة وأئمتها على ثبوت الوجه لله"[(٨)].

وذكر المراغي الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[(٩)].

---

(١) سبق تخريجه ص(٣٩٢).

(٢) أخرجه عبد الله في السنة(٢/٤٧٦)، وابن جرير في تفسيره(٢١/٣٢٤).

(٣) تقريب التدمرية ص(٣٤).

(٤) سورة الكهف الآية (٢٨).

(٥) سورة الكهف الآية (٢٨).

(٦) سورة الرحمن الآية (٢٧).

(٧) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام:٦٥] (٦/٥٦)، الحديث رقم(٤٦٢٨).

(٨) تفسير القرآن سورة الكهف(١/٥٨).

(٩) سورة القصص الآية (٨٨).

فهذه الآية مما وقع فيه الخلاف عند بعض المفسرين فبعضهم قال: المراد بالوجه الذات وبعضهم قال: المراد بالوجه نفس الصفة، فأوضح الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله ذلك بكلام فيه إجمال في العبارة مع وضوحه وبيانه فقال: "فإن قيل: ما المراد بالوجه في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾(١) إن قلت: المراد بالوجه الذات، فيخشى أن تكون حرفت، وإن أردت بالوجه نفس الصفة أيضا، وقعت في محظور، وهو ما ذهب إليه بعض من لا يقدرون الله حق قدره، حيث قالوا: إن الله يفنى إلا وجهه، فماذا تصنع؟!

فالجواب: إن أردت بقولك: إلا ذاته، يعني: أن الله تعالى يبقى هو نفسه مع إثبات الوجه لله، فهذا صحيح، ويكون هنا عبر بالوجه عن الذات لمن له وجه.

وإن أردت بقولك: الذات: أن الوجه عبارة عن الذات بدون إثبات الوجه، فهذا تحريف وغير مقبول.

وعليه فنقول: ﴿إِلَّا وَجْهَهُ ﴾، أي: إلا ذاته المتصفة بالوجه، وهذا ليس فيه شيء، لأن الفرق بين هذا وبين قول أهل التحريف أن هؤلاء يقولون: إن المراد بالوجه الذات، لأن له وجها، فعبر به عن الذات"(٢).

وذكر المراغي الآية الثالثة وهي قوله تعالى: (﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾(٣)، ولزيادة البيان والإيضاح على هذه الآية التي فيها إثبات صفة الوجه لله نذكر ما قاله الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله في تفسيره للآية: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾(٤): "أي: يبقى الله عز وجل ذو الوجه الكريم، وكان بعض السلف إذا قرأ هاتين الآيتين وصل بعضهما ببعض، قال: ليتبين بذلك كمال الخالق ونقص المخلوق؛ لأن المخلوق فان والرب باق، وهذه الملاحظة جيدة أن تصل فتقول: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾(٥)، وهذا هو محط الثناء والحمد على الله عز وجل أن تفنى الخلائق ويبقى الله عز وجل وقوله تعالى: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو

(١) سورة القصص الآية (٨٨).

(٢) شرح العقيدة الواسطية ص(٢٩٠-٢٩١).

(٣) سورة الرحمن الآية (٢٧).

(٤) سورة الرحمن الآية (٢٧).

(٥) سورة الرحمن الآية (٢٦-٢٧).

ﭐلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾[(١)] فيه إثبات الوجه لله ﷻ ولكنه وجه لا يشبه أوجه المخلوقين، لقوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾[(٢)] يعني أنت تؤمن بأن لله وجها، لكن يجب أن تؤمن بأنه لا يماثل أوجه المخلوقين بأي حال من الأحوال"[(٣)].

وأوضح رحمه بعد ما سئل عن قول بعض الناس: (يا وجه الله) فقال: "يريد الله عز وجل؛ لأن الله يعبر بوجهه عن ذاته، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾[(٤)] فالمهم أن الوجه لما كان يعبر به عن الذات مع ثبوت الوجه حقيقة صح أن يقول: يا وجه الله! يدعو الله عز وجل"[(٥)].

وذكر المراغي الآية الرابعة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾[(٦)]

فهذه الآية الراجح فيها إثبات صفة الوجه لله مع وجود الخلاف الظاهر بين المفسرين بالمقصود بالوجه في هذه الآية، لكن العلامة محمد بن عثيمين رحمه الله حرر هذه المسألة بتحرير موجز مفيد فقال: "اختلف المفسرون فيها، وهي قوله: تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ ﴾[(٧)] ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ ﴾ يعني: إلى أي مكان تُوَلُّوا وجوهكم عند الصلاة ﴿فَثَمَّ ﴾ أي: فهناك وجه الله.

فمنهم من قال: إن الوجه بمعنى الجهة، لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾[(٨)]، فالمراد بالوجه الجهة، أي: فثم جهة الله، أي: فثم الجهة التي يقبل الله صلاتكم إليها، قالوا: لأنها

---

(١) سورة الرحمن الآية (٢٧).

(٢) سورة الشورى الآية (١١).

(٣) تفسير القرآن الحجرات-الحديد ص(٣١٢).

(٤) سورة الرحمن الآية (٢٧).

(٥) سلسلة لقاءات الباب المفتوح(٢١/٥).

(٦) سورة البقرة الآية (١١٥).

(٧) سورة البقرة الآية (١١٥).

(٨) سورة البقرة الآية (١٤٨).

نزلت في حال السفر، إذا صلى الإنسان النافلة، فإنه يصلي حيث كان وجهه، أو إذا اشتبهت القبلة، فإنه يتحرّى ويُصَلِّي حيث كان وجهه.

ولكنَّ الصحيح أن المراد بالوجه هنا وجه الله الحقيقي، أي: إلى أي جهة تتوجهون، فثم وجه الله ﷻ، لأن الله محيط بكل شيء، ولأنه ثبت عن النبي ﷺ أن المصلي إذا قام يصلي، فإن الله قبل وجهه، ولهذا نهى أن يبصق أمام وجهه، لأن الله قبل وجهه(١).

فإذا صليت في مكان لا تدري أين القبلة، واجتهدت وتحريت، وصليت، وصارت القبلة في الواقع خلفك، فالله يكون قبل وجهك، حتى في هذه الحال، وهذا معنى صحيح موافق لظاهر الآية، والمعنى الأول لا يخالفه في الواقع، إذا قلنا: فثم جهة الله، وكان هناك دليل، سواء كان هذا الدليل تفسير الآية الثانية في الوجه الثاني، أو كان الدليل ما جاءت به السنة، فإنك إذا توجهت إلى الله في صلاتك، فهي جهة الله التي يقبل الله صلاتك إليها، فثم أيضا وجه الله حقا، وحينئذ يكون المعنيان لا يتنافيان"(٢).

وأخيرا فالمراغي رحمه الله أثبت الوجه من خلال كلامه السابق لما ذكر قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾(٣) فقال: "وقد ورد من طرق عدة أن هذه الزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم وذلك هو أعلى مراتب الكمال الروحي الذي لا يصل إليه إلا المحسنون العارفون في الآخرة".

وقال عند قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾(٤): "أي إنكم لا تنفقون لأجل جاه ولا مكانة عند المنفق عليه، وإنما تنفقون لوجه الله، فلا فرق بين فقير وفقير"(٥).

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب حك البزاق باليد من المسجد(١/٩٠)، الحديث رقم(٤٠٦)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها(١/٣٨٨)، الحديث رقم(٥٤٧).

(٢) شرح العقيدة الواسطية ص(٢٨٩-٢٩٠).

(٣) سورة يونس الآية (٢٦).

(٤) سورة البقرة الآية (٢٧٢).

(٥) تفسير المراغي(١/٤١٢).

وذكر حديث عثمان رضي الله عنه أنه لما بنى مسجد رسول الله ﷺ ولامه الناس قال إنكم أكثرتم، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من بنى لله مسجدا يبتغي به وجه الله بنى الله له بيتا في الجنة**»[(١)]"[(٢)].

وقال بعد قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾[(٣)]: "أي ومن أعطوا صدقة يبتغون بها وجه الله تعالى خالصًا، فأولئك من الذين يضاعف لهم الثواب والجزاء"[(٤)].

وذكر حديث أبي هريرة «**أن رجلا قال: يا رسول الله إني أتصدق بالشيء، وأصنع الشيء أريد به وجه الله وثناء الناس، فقال رسول الله ﷺ: والذي نفس محمد بيده، لا يقبل الله شيئا شورك فيه، ثم تلا:** ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾[(٥)]»[(٦)]"[(٧)].

١٠- صفة العين

المراغي رحمه الله تطرق إلى العينين الوارد في الآيات من خلال تفسيره، فذكر بعد قول الحق جل وعلا: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾[(٨)] فقال: "والمراد بالأعين هنا: شدة الحفظ والحراسة"[(٩)].

ثم قال: "وقوله ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾[(١)] أي واصنع الفلك الذي سننجيك ومن آمن معك فيه، وأنت محروس ومراقب برعايتنا، أي إننا حافظوك في كل آن، فلا يمنعك من

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب من بنى مسجدا(١/٩٧)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب فضل بناء المساجد(٤/٢٢٨٧)، الحديث رقم(٥٣٣).

(٢) تفسير المراغي(٤/٦١).

(٣) سورة الروم الآية (٣٩).

(٤) تفسير المراغي(٧/٢٨٢).

(٥) سورة الزمر الآية (٣).

(٦) سبق تخريجه ص(٣٠٨).

(٧) تفسير المراغي(٨/٢٤١).

(٨) سورة هود الآية (٣٧).

(٩) تفسير المراغي(١٢/٣٣).

حفظنا مانع، وملهموك ومعلموك بوحينا كيف تصنعه، فلا يعرضن لك خطأ في صنعته ولا في وصفه، ونحو الآية قوله لموسى ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾[2]، وقوله لمحمد ﷺ: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾[3]"[4].

وقال بعد قوله تعالى: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾[5]: "ولتصنع على عيني: أي ولتربى وتغذى بمرأى مني، وأنا مراعيك ومراقبك كما يرعى الرجل الشيء بعينيه دلالة على عنايته به"[6].

ثم قال: "وقوله ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾[7]: "أي ولتربى برعايتي، فأنا مراقبك وحافظك، كما يراعي الرجل الشيء بعينيه إذا أراد شدة العناية به، يقول الرجل للصانع: اصنع هذا على عيني، أنظر إليه حتى يأتي وفق ما أحب وأبغي"[8].

وقال: "وقوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾[9] أي قال الله لهما: لا تخافا فرعون، إنني معكما بالنصرة والتأييد، والحفظ من غوائله، وإنني أسمع وأرى ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل، وأحدث في كل حال ما يصرف شره عنكما، والخلاصة: لست بغافل عنكما، وإني سأفعل ما يؤدي إلى حفظكما ونصركما عليه، فلا تأبها به، ولا تهتما بأمره"[10].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾[11]: "أي إنه سينبئهم بما عملوا في حياتهم الأولى، لأنه ذو علم بكل شيء وإحاطة به، وهو مُوَفٍّ كل عامل أجر عمله، يوم يرجعون إلى حكمه، إذ لا حكم يومئذ إلا هو، عن عقبة بن عامر قال: «**رأيت رسول الله ﷺ وهو يقرأ**

---

(١) سورة هود الآية (٣٧).

(٢) سورة طه الآية (٣٩).

(٣) سورة الطور الآية (٤٨).

(٤) تفسير المراغي(٣١٤/٤).

(٥) سورة طه الآية (٣٩).

(٦) تفسير المراغي(١٠٨/١٦).

(٧) سورة طه الآية (٣٩).

(٨) تفسير المراغي(١١٠/١٦).

(٩) سورة طه الآية (٤٦).

(١٠) تفسير المراغي(٩١/٦- ٩٦).

(١١) سورة النور الآية (٦٤).

هذه الآية في خاتمة النور، وهو جاعل أصبعيه تحت عينيه يقول بكل شيء بصير» أخرجه الطبراني وغيره، قال السيوطي بسند حسن[(١)]"[(٢)].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾[(٣)] فقال: "بأعيننا: أي في حفظنا وحراستنا، وقوله﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ ﴾[(٤)] أي واصبر على أذاهم ولا تبال بهم، وامض لأمر الله ونهيه، وبلغ ما أرسلت به، فإنك بمرأى منا نراك ونرى أعمالك، ونحوطك ونحفظك، فلا يصل إليك منهم أذى"[(٥)].

المراغي رحمه الله لم يخرج عن تفسير السلف للآيات في صفة العينين، وخصوصا بعد ذكره حديث عقبة بن عامر رضي الله والأدلة على إثبات عينين حقيقيتين لله من الكتاب والسنة متواترة في ذلك، ومنها ما ذكره الإمام البخاري في صحيحه قال رحمه الله: (باب قول الله تعالى﴿ وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴾[(٦)] تُغذَّى، وقوله جل ذكره ﴿ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا ﴾[(٧)]، ثم ذكر حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «**ذكر الدجال عند النبي ﷺ فقال إن الله لا يخفى عليكم، إن الله ليس بأعور وأشار بيده إلى عينه وإن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية**»[(٨)]، وكذلك حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ما بعث الله من نبي**

---

(١) أخرجه الروياني في مسنده(١/١٥٧)، الحديث رقم(١٨٧)، والطبراني في الكبير(١٧/٢٨٢)، وابن بطة في الإبانة(٧/١٢٥)، وقال ابن حجر في الفتح(١٣/٣٧٣): سنده حسن.

(٢) تفسير المراغي(٦/٣٨٢).

(٣) سورة الطور الآية (٤٨).

(٤) سورة الطور الآية (٤٨).

(٥) تفسير المراغي(٩/٣١٩- ٣٢٠).

(٦) سورة طه الآية (٣٩).

(٧) سورة القمر الآية (١٤).

(٨) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {ولتصنع على عيني}...، (٩/١٢١)، الحديث رقم(٧٤٠٧)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وفته وما معه (٤/٢٢٤٧)، الحديث رقم(١٦٩).

إلا أنذر قومه الأعور الكذاب، إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور مكتوب بين عينيه كافر»(١).

فإثبات صفة العينين لله مما تواترت فيه الأدلة من الكتاب والسنة، وقد أشار إلى بعضها المراغي رحمه الله وما قرره البخاري في صحيحه، ونزيد الأمر وضوحا بتوضيح الإمام ابن باز رحمه الله حيث قال بعد قوله تعالى في هذه الآيات: "﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾(٢) و﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾(٣) ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾(٤) فلا يدور بخلد أحد أن السفينة بعين الله سبحانه، ولا أن محمدا عليه الصلاة والسلام في عين الله، وإنما المراد بذلك أن السفينة تجري برعاية الله وعنايته وتسخيره لها وحفظه لها، وأن محمدا ﷺ تحت رعاية مولاه وعنايته وحفظه وكلاءته، وهكذا قوله في حق موسى: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾(٥) أي تحت رعايتي وحفظي، وهكذا حديث: «**كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به**»(٦) يفسره قوله في الرواية الأخرى: «**فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي**»(٧)، ولا يظن من له أدنى بصيرة ممن يعرف اللغة العربية أن المراد بذلك: أن الله سبحانه هو سمع الإنسان وبصره، وهو يده ورجله، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، وإنما أراد من ذلك سبحانه بيان توفيقه لأوليائه وتسديده لهم في حواسهم وحركاتهم بسبب طاعاتهم له وقيامهم بحقه"(٨).

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {ولتصنع على عيني}...(١٢١/٩)، الحديث رقم(٧٤٠٨)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وفته وما معه (٢٢٤٧/٤)، الحديث رقم(٢٩٣٣).

(٢) سورة القمر الآية (١٤).

(٣) سورة طه الآية (٣٩).

(٤) سورة الطور الآية (٤٨).

(٥) سورة طه الآية (٣٩).

(٦) سبق تخريجه ص(٣٦٤).

(٧) ذكره ابن حجر في الفتح(٣٤٤/١١)، وصححه الألباني في تحقيق الاحتجاج بالقدر لابن تيمية ص(٦٤).

(٨) مجموع فتاوى العلامة عبد العزيز بن باز رحمه الله(٦٦/٣).

ونختم هذا الموضوع بمسائل مهمة في هذا المبحث قد تسبب بعض الإشكال لكن أزال إشكالها فارس هذا الميدان فبينها أتم بيان في شرحه للعقيدة السفارينية لما تكلم على إثبات العين لله عز وجل فقال: "المبحث الأول: هل هي عين حقيقية أو هي كناية عن الرؤية؟

الجواب: أنها عين حقيقية، ودليل ذلك: أن الله أثبتها لنفسه في غير موضع وأثبت الرؤية في غير موضع، وإثبات هذا تارة وهذا تارة، يدل على التغاير بينهما، فالرؤية شيء والعين شيء آخر، فقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾(١)، وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾(٢) فهاتان في الرؤية، لكن قوله: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾(٣)، ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾(٤) فهاتان الآيتان ليستا في الرؤية بل أثبتتا عينا مخالفة للرؤية، ولهذا نقول: إن العين صفة حقيقية نظير مسماها بالنسبة لنا أبعاض وأجزاء، لكننا لا نقول: إن العين بعض من الله أو جزء منه، لأن ذلك ممتنع على الله حسب فهم البعض والجزء، فإن البعض والجزء: هو ما جاز أن ينفصل عن الكل، وهذا بالنسبة لصفات الله ممتنع.

المبحث الثاني: هل عين الله تعالى تماثل أعين الخلق؟

الجواب: لا أبدا، ولا نقول بهذا، بل نقول: هذا ممتنع، لأن الله يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(٥) وإن كان أهل التحريف والتعطيل يشنعون على الذين يثبتون لله العين حقيقة، ويقول: لمن أثبتها: لا بد أن تقول: هل هي مستديرة أو مستطيلة؟ هل هي بيضاء أو سوداء؟ هل فيها بياض وسواد أم ليس فيها؟

الجواب: نقول: هذا لا يلزمنا نحن نثبت لله العين، ولكن لا نقول: إن لها مثيلا حتى نلزم بذلك، فكما أننا نقول في ذات الله أنها ليست كذات المخلوقين، ولا نقول في ذاته سبحانه هل هو طويل أو قصير، أسود أو أبيض، سمين أو هزيل، أو غير ذلك، إذا لم يجز لنا أن نقول ذلك في الذات ولم نلتزمه، فكذلك لا نلتزم في قول ذلك في العين، إذن لا نعلم حقيقة هذه

---

(١) سورة التوبة الآية (١٠٥).

(٢) سورة العلق الآية (١٤).

(٣) سورة القمر الآية (١٤).

(٤) سورة طه الآية (٣٩).

(٥) سورة الشورى الآية (١١).

العين ولا كيفية هذه العين، لكن نعلم أنها حقيقة إلا أنها لا تماثل أي حقيقة من حقائق أعين المخلوقات، لأن الله تعالى مباين للخلق غاية المباينة في ذاته وصفاته عز وجل.

المبحث الثالث: هل هي واحدة أو متعددة؟ وإذا قلنا متعددة فهل هي اثنتان أو أكثر؟

الجواب: أنها ليست واحدة، بل أكثر، وهي قد جاءت بلفظ الإفراد، وجاءت بلفظ الجمع، ولم تأت في القرآن بلفظ التثنية كما جاء في اليد، فمن مجيئها بلفظ الإفراد: قوله تعالى لموسى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾(١) فعيني هذه مفرد، ومن مجيئها بلفظ الجمع: قوله تعالى عن سفينة نوح: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾(٢) وقوله تعالى لنبينا محمد ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾(٣) هذا لفظ الجمع.

أما التثنية: فلم تأت في القرآن، ولكنها جاءت في حديث ذكره ابن القيم رحمه الله في مختصر الصواعق(٤) ولم يعزه أن النبي ﷺ قال: «**إذا قام أحدكم يصلي فإنه بين عيني الرحمن**»(٥)، ولكن جاءت في السنة بما يدل دلالةً واضحةً على أنَّ العينَ اثنتان، وذلك في قول النبي ﷺ في صفة الدجال: «**أنه أعور العين اليمنى وأن ربكم ليس بأعور**»(٦)، فإن هذا كالنص الصريح على أنهما اثنتان، ووجهه أنَّ النبيَّ ﷺ ذكر علامةً فارقةً بين الدجال وبين الرب عز وجل، بأن الدجال أعور العين اليمنى والرب ليس بأعور، ولا عور إلا لذي عينين.

ولو كان لله أكثر من اثنتين لكان الزائد عن اثنتين كمالا قطعا؛ لأنه لا يمكن أن يتصف بنقص، يعني لكان الزائد عن ثنتين كمال، والزائد على ثنتين هل يحصل به الفرق بين الدجال وبين الرب؟

---

(١) سورة طه الآية (٣٩).

(٢) سورة القمر الآية (١٤).

(٣) سورة الطور الآية (٤٨).

(٤) مختصر الصواعق (١/٦٥- ٦٦).

(٥) أخرجه محمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة(١/١٨٠)، والعقيلي في الضعفاء الكبير(١/٧٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد(٢/٨٠): فيه إبراهيم بن يزيد الخوزي، وهو ضعيف، وقال ابن جماعة في إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل(١/٢١٢): "هذا حديث ضعيف لا يحتج به، ولا يثبت مثله"، وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة(٣/٩٣): ضعيف جدا.

(٦) سبق تخريجه ص(٤١٦).

الجواب: يحصل؛ لأن الدجال من بني آدم وليس له إلا ثنتين، وذكر الفارق الدال على الكمال أولى من ذكر الفارق الذي هو النقص في الدجال.

فإذا لو كان له أكثر من ثنتين لقال الرسول ﷺ: وإن لربكم أكثر من عينين، لأجل أن يثبت الكمال لله عز وجل مع الفارق بينه وبين الدجال، لكن لما قال: أعور، صار الفرق بينهما العور، وهو نقص الدجال في عينه، إذا تعين أن تكون العينان الثابتتان لله اثنتين، وهذا واضح جدا.

وادعى بعض المجادلين قال: إن المراد بالعور: العيب، فنقول له: هذا تحريف لأن لفظ الحديث «**أعور العين اليمنى**»، وهذا صريح بأن المراد عور العين، لا العور الذي هو العيب العام، الذي ينزه الله عنه على سبيل العموم، وهذا القول تحريف.

ويبقى النظر، في مجيء العينين بصيغة الجمع﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾[1] ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾[2] فكيف نجمع بين الجمع وبين المثنى؟

نقول: الجمع بينهما سهل؛ هو نظير الجمع بين اليدين الوارد مجيئهما بصيغة التثنية وبصيغة الجمع، فإما أن يراد بالجمع ما دون الثلاثة لأن اللغة العربية قد جاءت بالجمع مرادا به ما دون الثلاثة، فيكون قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا ﴾ كقوله بعينينا، لأن أقل الجمع اثنان، وإما أن يقال أقل الجمع ثلاثة كما هو الأكثر، ولكن الجمع هنا لا يراد به مدلوله التعدُّدِي، وإنما يراد به مدلوله المعنوي؛ وهو التعظيم، فيكون الله عز وجل جمع العينين، فقال: ﴿بِأَعْيُنِنَا ﴾ تعظيما لهما، وأيضا يضاف إلى التعظيم المناسبة؛ لأن ((نا)) دالة على الجمع في أصل الوضع، فناسب أن يكون المضاف إليها مجموعا للتعظيم كما هي في قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا ﴾ للتعظيم، فيتناسب هنا المضاف والمضاف إليه، وهذه المناسبة لفظية.

المبحث الرابع: هل الله تعالى يبصر بهما، أو بصره بغير العين؟

الجواب: يبصر بهما، ودليل ذلك قوله ﷺ: «**حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»[3]، فقال: (بصره)، وهذا يدل على أن لله بصرا، كما

---

(١) سورة الطور الآية (٤٨).

(٢) سورة القمر الآية (١٤).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله عليه السلام: إن الله لا ينام، وفي قوله: حجابه النور لو كشفه لأحرق

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[(١)]، والبصر حسب مقتضى اللغة العربية يكون بالعين، وقد سبق أنه لولا أن الله أثبت له عينا لقلنا: يمكن أن يكون البصر بغير العين، كما أن الأرض تحدث أخبارها مع أنها ليس لها أعين.

وعلى كل حال فالله تعالى يبصر بعينيه كما قال ذلك السلف رحمهم الله في كتبهم، فله عينان يبصر بهما، لكنه ليس كبصر المخلوق، فالله ﷻ يبصر دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء -السوداء أيضا- في الليلة الظلماء؛ يعني لو كانت أخفى ما يكون فإن الله تعالى يبصرها.

أما نحن فبصرنا محدود، ولا يمكن أن يكون كبصر الله ﷻ.

فإذا قال قائل: قد ورد في تفسير بعض السلف لقوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾[(٢)] قال: تجري بمرأى منا، فهل يعتبر هذا تحريفا أم ماذا؟

فالجواب: ليس هذا تحريفا؛ لأنهم يقولون: تجري بمرأى منا مع إقرارهم بالعين، ولو أن هذا القول كان من شخص ينكر العين لقلنا: هذا تحريف، والذين قالوا: إن المعنى بمرأى منا، فإن معنى كلامهم أنها تجري ونحن نراها بأعيننا، وكأنهم يريدون بذلك الرد على من زعم أن ظاهر الآية أن السفينة تجري في نفس العين، وحاشا لله، أما من يتخذ من ذلك مأخذا على مذهب أهل السنة والجماعة، ويرى أن ذلك خلاف مذهبهم في إجراء نصوص الصفات على ظاهرها، وأن ظاهر الآية أن السفينة في نفس عين الله، فهذا لا شك أنه إلزام باطل، وأن السلف لايلتزمون بهذا، بل يقولون إن هذا ليس مدلول اللفظ، وفي اللغة العربية إذا قال الإنسان: اذهب فأنت بعيني، يعني أراك وألاحظك ولا تغيب عن عيني، ولا أحد يقول: إن الرجل إذا قال لصحابه: أنت بعيني، يعني أنك في نفس العين أبدا، وليس هذا مقتضى لفظ اللغة العربية.

ثم إن في الآية ما يدل على منع ذلك، ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي السفينة، فهي تجري في الأرض على الماء الذي خلقه الله عز وجل من الأرض والسماء، فكيف يقال: إن ظاهر الآية أنها تجري في عين الله؟ ، لكنهم يتشبثون بكل شيء من أجل التشنيع على أهل السنة"[(٣)].

سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه (١٦١/١) الحديث رقم(٢٩٣).

(١) سورة الشورى الآية (١١).

(٢) سورة القمر الآية (١٤).

(٣) شرح العقيدة السفارينية لابن عثيمين(٢٦٨- ٢٧٢).

١١- صفة العلم لله

ذكر المراغي رحمه الله في صفة العلم بعد قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾[١].

فقال: "قد جاء في الكتاب الكريم (لنعلم – وليعلم) وعلم الله تعالى قديم لا يتجدد، ومن ثم قال العلماء: المراد بالعلم في مثل هذا علم الظهور والوقوع، ذاك أنه تعالى يعلم الأشياء قبل وقوعها أنها ستقع، ويعلمها بعد وقوعها أنها وقعت، ويترتب على ذلك الجزاء من ثواب وعقاب"[٢].

وذكر بعد قول الحق ﷻ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[٣]، فقال: "والمراد من قوله (وليعلم الله) أي وليظهر علمه بذلك للناس بظهور ما يعلم لهم، إذ علم الله بالأشياء ثابت في الأزل، فإذا وقعت حصل تغير في ذلك المعلوم، فصار حالا بعد أن كان مستقبلا، فهو كقوله ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[٤] أي ليعلم الناس ذلك ويميزوه.

الخلاصة: إن المراد من مثل هذه العبارة (ليعلم): ليثبت ويتحقق صدق إيمان الذين آمنوا، لأنه متى ثبت وتحقق كان الله عالما به على أنه حقيقة ثابتة، إذ علم الله لا يكون إلا مطابقا للواقع، فما لا يعلمه الله تعالى لا يكون له حقيقة ثابتة"[٥].

ونزيد الأمر وضوحا بنقل كلام الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله بقوله: "فإن قال قائل: لدينا إشكال: مثل قول الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾[٦]، وقال الله عز وجل: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾[٧]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ

---

(١) سورة البقرة الآية (١٤٣).

(٢) تفسير المراغي(١/١٩٥).

(٣) سورة آل عمران الآية (١٤٠).

(٤) سورة الأنفال الآية (٣٧).

(٥) تفسير المراغي(٢/٦٧).

(٦) سورة محمد الآية (٣١).

(٧) سورة المائدة الآية (٩٤).

﴿ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(١) وأمثال هذه الآيات مشكلة، لأن ظاهرها تجدد علم الله عز وجل بعد وقوع الفعل؟

والجواب عن هذا الإشكال من أحد وجهين:

الوجه الأول: إن علم الله عز وجل بعد وقوعه غير علمه به قبل وقوعه، لأن علمه به قبل وقوعه علم بأنه سيقع، وعلمه به بعد وقوعه علم بأنه واقع، نظير هذا من بعض الوجوه: الله عز وجل مريد لكل شيء حتى المستقبل الذي لا نهاية له، مريد له لاشك، لكن الإرادة المقارنة تكون عند الفعل: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(٢) فهاهنا إرادتان: إرادة سابقة، وإرادة مقارنة للفعل، فإذا أراد الله تعالى أن يخلق شيئا فإنه يريده عند خلقه، لكن كونه أراد أن يخلق في المستقبل فهذا غير الإرادة المقارنة، كذلك العلم.

الوجه الثاني: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾(٣) أي علما يترتب عليه الثواب والعقاب، لأن علم الله الأزلي السابق لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، فالثواب والعقاب يكون بعد الامتحان والابتلاء، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾(٤)، وحينئذ قد زال الإشكال ولله الحمد"(٥).

وفسر المراغي الكرسي بالعلم بعد قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾(٦) فقال: "والكرسي: هو العلم الإلهي"(٧).

ثم قال: "وقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ﴾(٨) أي إن علمه تعالى محيط بما يعملون مما عبر عنه بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ﴾(١)، وبما لا يعلمون من شؤون سائر الكائنات،

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٤٢).

(٢) سورة يس الآية (٨٢).

(٣) سورة محمد الآية (٣١).

(٤) سورة محمد الآية (٣١).

(٥) شرح الأربعين النووية(٣/٤٩).

(٦) سورة البقرة الآية (٢٥٥).

(٧) تفسير المراغي(١/٣٨٢).

(٨) سورة البقرة الآية (٢٥٥).

ويرى جمع من المفسرين منهم القفال والزمخشري أن الكلام تصوير لعظمته وتمثيل لكبريائه، ولا كرسي ولا قيام ولا قعود، وقد خاطب سبحانه عباده في تعريف ذاته وصفاته بما اعتادوه في ملوكهم وعظمائهم.

والخلاصة: إن الكرسي شيء يضبط السموات والأرض، نسلم به بدون بحث في تعينه، ولا كشف عن حقيقته، ولا كلام فيه بالرأي دون نص عن المعصوم"[٢].

المراغي بين أن المقصود بالكرسي العلم وهذا القول رواية ضعيفة عن ابن عباس رضي الله عنه[٣]، وروي أيضا عن سعيد بن جبير[٤]، والراجح أنه موضع القدمين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله لما سئل: هل العرش والكرسي موجودان أم مجاز؟

فقال: "الحمد لله، بل العرش موجود بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها، وكذلك الكرسي ثابت بالكتاب والسنة وإجماع جمهور السلف، وقد نقل عن بعضهم: أن كرسيه علمه، وهو قول ضعيف؛ فإن علم الله وسع كل شيء كما قال: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾[٥]، والله يعلم نفسه ويعلم ما كان وما لم يكن، فلو قيل وسع علمه السموات والأرض لم يكن هذا المعنى مناسبا؛ لا سيما وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾[٦] أي لا يثقله ولا يكرثه، وهذا يناسب القدرة لا العلم، والآثار المأثورة تقتضي ذلك؛ لكن الآيات والأحاديث في العرش أكثر من ذلك؛ صريحة متواترة وقد قال بعضهم: إن الكرسي هو العرش؛ لكن الأكثرون على أنهما شيئان"[٧].

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٥٥).

(٢) تفسير المراغي(١/٣٨٢-٣٨٤).

(٣) أخرجها ابن جرير في تفسيره(٥/٣٩٧)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى(٦/٥٨٤): "وقد نقل عن بعضهم: أنّ "كرسيَّهُ " علمه، وَهو قول ضعيف".

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/٢٦٠)، وقال البخاري في صحيحه(١١/٧٨): (قال ابن جبيْرٍ كرسيّهُ عِلْمُهُ)، وقال ابن حجر في الفتح(٨/١٩٩) معلقا على هذا القول: "وقال ابن جبير: كرسيُّه علمُه وصله سفيان الثوري في تفسيره في رواية أبي حذيفة عنه بإسناد صحيح".

(٥) سورة غافر الآية (٧).

(٦) سورة البقرة الآية (٢٥٥).

(٧) مجموع الفتاوى(٦/٥٨٤).

فالراجح خلاف ما ذهب إليه المراغي رحمه الله وممن قرر ذلك وبينه ورد على المخالفين ابن عثيمين رحمه الله حيث قال بعد قوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[1]:

"وقوله: (العرش) فسره بعض الناس بالكرسي، ثم فسروا الكرسي بالعلم، وحينئذ لا يكون هناك كرسي ولا عرش، وهذا التفسير باطل، والصحيح أن العرش غير الكرسي، وأن الكرسي غير العلم، ولا يصح تفسيره بالعلم، بل الكرسي من مخلوقات الله العظيمة الذي وسع السموات والأرض، والعرش أعظم وأعظم، ولهذا وصفه بأنه عظيم بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[2]، وبأنه مجيد بقوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴾[3]، على قراءة كسر الدال، وبأنه كريم في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾[4] لأنه أعظم المخلوقات التي بلغنا علمها وأعلاها لأن الله استوى عليه، وفيه دليل على أن كلمة العظيم يوصف بها المخلوق؛ لأن العرش مخلوق، وكذلك الرحيم، والرءوف، والحكيم.

ولا يلزم من اتفاق الاسمين اتفاق المسميين، فإذا كان الإنسان رءوفا؛ فلا يلزم أن يكون مثل الخالق، فلا تقل: إذا كان الإنسان سميعا بصيرا عليما لزم أن يكون مثل الخالق؛ لأن الله سميع بصير عليم، كما أن وجود الباري سبحانه لا يستلزم أن تكون ذاته كذوات الخلق؛ فإن أسماءه كذلك لا يستلزم أن تكون كأسماء الخلق، وهناك فرق عظيم بين هذا وهذا"[5].

وصح عن ابن عباس رضي الله عنه أن الكرسي موضع القدمين، فعن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر قدره»[6].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «الكرسي موضع القدمين وله أطيط كأطيط الرحل»[7].

---

(١) سورة التوبة الآية (١٢٩).

(٢) سورة التوبة الآية (١٢٩).

(٣) سورة البروج الآية (١٥).

(٤) سورة المؤمنون الآية (١١٦).

(٥) القول المفيد على كتاب التوحيد(٤٤٣/١).

(٦) أخرجه ابن خزيمة في كتاب التوحيد(١٥٦/١)، والدارمي في الرد على بشر المريسي ص(٧١)، والحاكم في المستدرك(٣١٠/٢)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في مختصر العلو ص(١٠٢).

(٧) أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة(٤٥٤/٢)، وأبو الشيخ في العظمة(٦٢٧/٢) وصححه ابن حجر في الفتح

وأما ما نقله المراغي عن القفال والزمخشري فهو كلام باطل؛ لأنه ردٌّ صريحٌ لنصوص الشريعة، قال الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله في كتابه فتح رب البرية في تلخيص الحموية لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "الباب الثالث والعشرون في أقسام المنحرفين عن الاستقامة في باب الإيمان بالله واليوم الآخر، قال: "طريقة النبي ﷺ وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان على الصراط المستقيم علما، وعملا يعرف ذلك من تتبَّعها بعلم وعدل، فقد حققوا الإيمان بالله واليوم الآخر، وأقروا بأن ذلك حق على حقيقته، وهم في عملهم مخلصون لله، متبعون لشرعه، فلا شرك، ولا ابتداع، ولا تحريف، ولا تكذيب، وأما المنحرفون عن طريقتهم فهم ثلاث طوائف[1]: -وذكر منهم أهل التخييل- ثم عرَّفهم بقوله: "فأما أهل التخييل: فهم الفلاسفة، والباطنية ومن سلك سبيلهم من المتكلمين وغيرهم، وحقيقة مذهبهم أن ما جاءت به الأنبياء مما يتعلق بالإيمان بالله واليوم الآخر أمثال وتخييلات لا حقيقة لها في الواقع، وإنما المقصود بها انتفاع العامة وجمهور الناس، لأن الناس إذا قيل لهم: إن لكم ربا عظيما، قادرا، رحيما، قاهرا، وأمامكم يوم عظيم تبعثون فيه، وتجازون بأعمالكم ونحو ذلك استقاموا على الطريقة المطلوبة منهم، وإن كان هذا لا حقيقة له على زعم هؤلاء.

ثم إن هؤلاء على قسمين: غلاة، وغير غلاة، فأما الغلاة فيزعمون أن الأنبياء لا يعلمون حقائق هذه الأمور وأن من المتفلسفة الإلهية ومن يزعمونهم أولياء من يعلم هذه الحقائق، فزعموا أن من الفلاسفة من هو أعلم بالله واليوم الآخر من النبيين الذين هم أعلم الناس بذلك.

وأما غير الغلاة فيزعمون أن الأنبياء يعلمون حقائق هذه الأمور، ولكنهم ذكروا للناس أمورا تخييلية لا تطابق الحق لتقوم مصلحة الناس، فزعموا أن مصلحة العباد لا تقوم إلا بهذه الطريقة التي تتضمن كذب الأنبياء في أعظم الأمور وأهمها.

فالطائفة الأولى حكمت على الرسل بالجهل، والطائفة الثانية حكمت عليهم بالخيانة والكذب.

(١٩٩/٨)،، وقال الذهبي في مختصر العلو ص(١٢٤): "ولفظ الأطيط لم يأت من نص ثابت"، وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (٣٠٧/٢): "وإسناده صحيح إن كان عمارة بن عمير سمع من أبي موسى، فإنه يروي عنه بواسطة ابنه إبراهيم بن أبي موسى الأشعري، ولكنه موقوف، ولا يصح في الأطيط حديث مرفوع".

(١) وهم أهل التخييل، وأهل التأويل، وأهل التجهيل.

هذا هو قول أهل التخييل فيما يتعلق بالإيمان بالله واليوم الآخر.

... وفساد قول هؤلاء معلوم بضرورة الحس، والعقل، والشرع فإننا نشاهد من الآيات الدالة على وجود الله وكمال صفاته ما لا يمكن حصره:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فإن هذه الحوادث المنتظمة لا يمكن أن تحدث إلا بمدبر حكيم قادر على كل شيء.

والإيمان باليوم الآخر دلت عليه جميع الشرائع واقتضته حكمة الله البالغة، ولا ينكره إلا مكابر، أو مجنون، وأهل التخييل لا يحتاجون في الرد عليهم إلى شيء كثير، لأن نفور الناس عنهم معلوم ظاهر"[(١)].

وفسر المراغي أم الكتاب بأنه علم الله فذكر بعد قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[(٢)] فقال: "وأم الكتاب: أصله وهو علم الله تعالى".

ثم قال: "وقوله ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[(٣)] هو علم الله، وجميع ما يكتب في صحف الملائكة لا يقع حيثما يقع إلا موافقا لما يثبت فيه فهو أم لذلك، فكأنه قيل: يمحو ما يشاء محوه ويثبت ما يشاء، وهو ثابت عنده في علمه الأزلى الذي لا يكون شيء إلا وفق ما فيه"[(٤)].

المراغي رحمه الله فسر أم الكتاب بأنه علم الله، فما أقوال أهل العلم في ذلك؟

١ — أنه علم الله، روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه سأل كعبا عن أم الكتاب قال: «علم الله ما هو خالق وما خلقه عاملون، فقال لعلمه: كن كتابا، فكان كتابا»[(٥)].

٢- أن عنده الحلال والحرام[(٦)].

٣- أن عنده جملة الكتاب وأصله[(٧)].

٤- أنه هو الذكر[(١)].

---

(١) فتح رب البرية في تلخيص الحموية ص(٩٧-٩٩).

(٢) سورة الرعد الآية (٣٩).

(٣) سورة الرعد الآية (٣٩).

(٤) تفسير المراغي(٥/٩١- ٩٦).

(٥) تفسير ابن جرير(١٦/٤٩١).

(٦) المصدر السابق(١٦/٤٩٠).

(٧) المصدر السابق(١٦/٤٩٠).

ساق هذه الأقوال الإمام ابن جرير رحمه الله ثم قال: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: "وعنده أصل الكتاب وجملته، وذلك أنه تعالى ذكره أخبر أنه يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء، ثم عقب ذلك بقوله: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٢] فكان بينا أن معناه: وعنده أصل المثبت منه والممحو، وجملته في كتاب لديه"[٣].

وقال الشوكاني رحمه الله: "وقوله ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٤] أي أصله، وهو اللوح المحفوظ، فالمراد من الآية أنه يمحو ما يشاء مما في اللوح المحفوظ فيكون كالعدم، ويثبت ما يشاء مما فيه، فيجري فيه قضاؤه وقدره على حسب ما تقتضيه مشيئته،... وقيل إن أم الكتاب هو علم الله تعالى بما خلق وما هو خالق"[٥].

وقال الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله معلقا على قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٦]: "أي: أصل أم الكتاب هو: اللوح المحفوظ، مكتوب فيه ما يستقر عليه العبد، لكن ما كان قابلا للمحو والإثبات فهو الذي في أيدي الملائكة، قال الله عز وجل: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾[٧]؛ انظر! حسنة تذهب السيئة، تمحوها بعد أن كتبت، وهذا باعتبار ما في أيدي الملائكة، أما أم الكتاب الأصل فمكتوب فيها ما يستقر عليه العبد، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن يستقر على الإيمان والثبات في الدنيا والآخرة"[٨].

---

(١) المصدر السابق(١٦/٤٩١).

(٢) سورة الرعد الآية (٣٩).

(٣) تفسير ابن جرير(١٦/٤٩١).

(٤) سورة الرعد الآية (٣٩).

(٥) فتح القدير (٢/١٢٦).

(٦) سورة الرعد الآية (٣٩).

(٧) سورة هود الآية (١١٤).

(٨) سلسلة لقاءات الباب المفتوح، اللقاء(١٣٤).

١٢- صفة الرؤية

ذكر المراغي رحمه الله في مسألة رؤية الله بعد قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[(١)]؛ فقال: "وحسنة الآخرة هي الجنة أو رؤية الله تعالى يوم القيامة، والأولى التعميم في كل هذا"[(٢)].

وقال بعد قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[(٣)]: "أي لا تراه الأبصار رؤية إحاطة تعرف كنهه عز وجل، ونحو الآية قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ ﴾[(٤)]، ونفي إحاطة العلم لا يستلزم نفي أصل العلم وكذلك نفي إدراك البصر للشيء والإحاطة به لا يستلزم نفي رؤيته مطلقا، وبهذا يعلم أنه لا تنافي بين هذه الآية وبين الأحاديث الصحيحة الدالة على رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة، فقد روي أنه ﷺ قال: «**إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر، وكما ترون الشمس ليس دونها سحاب**»[(٥)]، فالمؤمنون يرونه، والكافرون عنه يؤمئذ محجوبون كما قال جل ثناؤه ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[(٦)]، ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ ﴾[(٧)] أي إنه تعالى يرى العيون الباصرة رؤية إدراك وإحاطة فلا يخفى عليه من حقيقتها ولا من علمها شيء.

و قد عرف علماء التشريح تركيب العين وأجزاءها ووظيفة كل منها في ارتسام المرئيات فيها، كما عرفوا كثيرا من سنن الله في النور ووظيفته في رسم صور الأشياء في العينين، ولكنهم لم يصلوا بعد إلى معرفة كنه الرؤية، ولا كنه قوة الإبصار ولا حقيقة النور.

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٠١).

(٢) تفسير المراغي(١/ ٢٧٤).

(٣) سورة الأنعام الآية (١٠٣).

(٤) سورة البقرة الآية (٢٥٥).

(٥) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة}(٩/١٢٧)، الحديث رقم(٧٤٣٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية(١/١٦٣)، الحديث رقم(٢٩٩).

(٦) سورة المطففين الآية (١٥).

(٧) سورة الأنعام الآية (١٠٣).

قال صاحب اللسان(١): قال أبو إسحق في الآية: "أعلم الله أنه يدرك الأبصار، وفي هذا الإعلام دليل على أن خلقه لا يدركون الأبصار أي لا يعرفون حقيقة البصر، وما الشيء الذي صار به الإنسان يبصر من عينيه دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه، فأعلَمَ أن خلقا من خلقه لا يدرك المخلوقون كنهه ولا يحيطون بعلمه، فكيف به تعالى، والأبصار لا تحيط به وهو اللطيف الخبير؟

فأما ما جاء من الأخبار في الرؤية وصح عن رسول الله ﷺ فغير مدفوع، وليس في الآية دليل على دفعها، لأن معنى هذه الآية إدراك الشيء والإحاطة بحقيقته، وهذا مذهب أهل السنة والعلم بالحديث"(٢)"(٣).

وقال رحمه الله: "وأما الرؤية ففيها آيات متعارضة كقوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾(٤)، وقوله ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾(٥) وهما أصرح في النفي من دلالة قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾(٦) على الإثبات، فإن استعمال النظر بمعنى الانتظار كثير في القرآن وكلام العرب؛ كقوله ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ﴾(٧)، وقوله ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾(٨)، وفي الأحاديث الصحيحة تصريح بإثبات الرؤية بحيث لا تحتمل تأويلا، والمرفوع منها مروي عن أكثر من عشرين صحابيا، ولم يرد في معارضتها شيء أصرح من حديث عائشة عن مسروق(٩) قال: «**قلت لعائشة رضي الله عنها يا أماه هل رأى محمد ﷺ ربه ليلة المعراج؟ فقالت: لقد**

---

(١) لسان العرب(٤/٦٤) مادة بصر.

(٢) معاني القرآن وإعرابه(٢/٢٧٨-٢٧٩).

(٣) تفسير المراغي(٣/١٧٢).

(٤) سورة الأنعام الآية (١٠٣).

(٥) سورة الأعراف الآية (١٤٣).

(٦) سورة القيامة الآية (٢٢-٢٣).

(٧) سورة الأعراف الآية (٥٣).

(٨) سورة يس الآية (٤٩).

(٩) هو: مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية بن عبد الله الهمداني الوادعي، أبو عائشة الكوفي، ثقة فقيه عابد مخضرم، قال الشعبي: ما علمت أن أحدا كان أطلب للعلم في أفق من الآفاق من مسروق، مات سنة اثنتين ويقال سنة ثلاث وستين، الطبقات الكبرى(٦/٧٦)، والسير(٤/٦٣).

قفَّ شعري مما قلت، أين أنت من ثلاث؛ من حدثكهن فقد كذب: من حدثك أن محمدا ﷺ رأى ربه فقد كذب، وفي رواية فقد أعظم الفرية ثم قرأت: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[(١)] ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ ﴾[(٢)]، **ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت:** ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾[(٣)]، **ومن حدثك أنه كتم شيئا من الدين فقد كذب ثم قرأت** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾[(٤)]؛ **قال مسروق: وكنت متكئا فجلست، وقلت: ألم يقل الله:** ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾[(٥)]، **فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «إنما هو جبريل»**[(٦)]، ومن هذا تعلم أن عائشة تنفي دلالة سورة النجم على رؤية النبي ﷺ لربه بالحديث المرفوع، وتنفي جواز الرؤية مطلقا أو في هذه الحياة الدنيا بالاستدلال بقوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[(٧)]، وقوله ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ ﴾[(٨)] وهذا الاستدلال ليس نصًّا في النفي حتى يرجح على الأحاديث الصريحة في الرؤية، وقد قال بها بعض علماء الصحابة، والمثبتون للرؤية يقولون: إن استنباط عائشة إنما هو لنفي الرؤية في الدنيا فقط كما قال بذلك الجمهور، ولا تقاس شؤون البشر في الآخرة على شؤونهم في الدنيا، لأن لذلك العالم سننا ونواميس تخالف سنن هذا العالم ونواميسه، حتى في الأمور المادية كالأكل والشرب، والمأكول والمشروب، فماء الجنة غير آسن فلا يتغير كماء الدنيا بما يخالطه أو يجاوره

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٠٣).

(٢) سورة الشورى الآية (٥١).

(٣) سورة لقمان الآية (٣٤).

(٤) سورة المائدة الآية (٦٧).

(٥) سورة النجم الآية (١٣).

(٦) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب}(٦/١٤٠)، الحديث رقم(٤٨٥٥) مسلم، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل: {ولقد رآه نزلة أخرى}، وهل رأى النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء (١/١٥٩)، الحديث رقم(٢٨٧) بألفاظ متقاربة.

(٧) سورة الأنعام الآية (١٠٣).

(٨) سورة الشورى الآية (٥١).

في مقره أو جوه، قال ابن عباس: «ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء»[(١)]، وجمهرة المسلمين أن رؤية العباد لربهم في الآخرة حق وأنها أعلى وأكمل للنعيم الروحاني الذي يرتقي إليه البشر في دار الكرامة، وأنها أحق ما يصدق عليه قوله ﷺ: «**قال الله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»[(٢)]، وهي المعبر عنها بقولهم: إنها رؤية بلا كيف"[(٣)].

وقال: "وفي الصحيحين وغيرهما من حديث جرير قال: قال رسول الله ﷺ «**إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا وقرأ هذه الآية**»[(٤)]"[(٥)].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[(٦)] فقال: "ناضرة: أي متهللة بشرا بما ترى من النعيم، ناظرة: أي تنظر إلى ربها عيانا بلا حجاب، ثم بين ما يكون من أحوال المؤمنين وأحوال الكافرين فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾[(٧)] أي فوجوه المؤمنين المخلصين حين تقوم القيامة مضيئة مشرقة، تشاهد عليها نضرة النعيم، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[(٨)] أي تنظر إلى ربها عيانا بلا حجاب، قال جمهور أهل العلم: المراد بذلك ما تواترت به الأحاديث الصحيحة من أن العباد ينظرون إلى ربهم يوم القيامة كما ينظرون إلى القمر ليلة البدر.

---

(١) أخرجه هناد بن السري في الزهد(٥١/١)، وابن جرير في تفسيره(٣٩٢/١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (١١٨/٤)، الحديث رقم(٣٢٤٤)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢١٧٤/٤)، الحديث رقم(٢٨٢٤).

(٣) تفسير المراغي(٣٩٧/٣- ٣٩٨).

(٤) صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر (١١٥/١)، الحديث رقم(٥٥٤)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، والمحافظة عليهما (٤٣٩/١)، الحديث رقم(٦٣٣).

(٥) تفسير المراغي(٦٠/٩).

(٦) سورة القيامة الآية (٢٢-٢٣).

(٧) سورة القيامة الآية (٢٢).

(٨) سورة القيامة الآية (٢٣).

قال ابن كثير: "وهذا بحمد الله مجمع عليه من الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام وهداة الأنام اه"[١].

روى البخاري في صحيحه: «إنكم سترون ربكم عيانا»، وروى الشيخان عن أبي سعيد وأبي هريرة «**أن ناسا قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب؟ قالوا لا، قال: فإنكم ترون ربكم كذلك**»[٢]، وروى ابن جرير عن مجاهد أنه قال: «**إن النظر هنا انتظار ما لهم عند الله من الثواب**»[٣]، قال الأزهري[٤]: "قد أخطأ مجاهد، لأنه لا يقال نظر إلى كذا بمعنى انتظر، فإن قول القائل: نظرت إلى فلان ليس إلا رؤية عين، فإذا أرادوا الانتظار قالوا: نظرته، وأشعار العرب وكلماتهم في هذا كثيرة جدا"[٥]"[٦].

المراغي رحمه الله وافق السلف في إثبات رؤية الله وذكر الأدلة من الكتاب والسنة والإجماع، ولكن زيادة في الإيضاح ننقل بعض كلام أهل السنة في ذلك:

قال إمام المفسرين ابن جرير رحمه الله: "القول في رؤية الله عز و جل:

وأما الصواب من القول في رؤية المؤمنين ربهم عز و جل يوم القيامة، وهو ديننا الذي ندين الله به وأدركنا عليه أهل السنة والجماعة؛ فهو أن أهل الجنة يرونه على ما صحت به الأخبار عن رسول الله"[٧].

وقال ابن بطة العكبري[١] رحمه الله: "رؤية الله تعالى: ويعلم بعد ذلك أنه يتجلى لعباده المؤمنين يوم القيامة فيرونه ويراهم، ويكلمهم ويكلمونه، ويسلم عليهم ويضحك إليهم، لا

---

(١) تفسير ابن كثير(٤/٥٤٢).

(٢) سبق تخرجه ص(٤٢٩).

(٣) تفسير ابن جرير(٢٤/٧٢).

(٤) هو: محمد بن أحمد بن طلحة بن نوح بن الأزهر الأزهري أبو منصور اللغوي الأديب الهروي، كان فقيها شافعي المذهب غلبت عليه اللغة فاشتهر بها، وكان متفقا على فضله وثقته ودرايته وورعه، وصنف كتبا منها: التهذيب في اللغة، ومعرفة الصبح، والتقريب في التفسير، وتفسير ألفاظ كتاب المزني، وعلل القراءات وغيرها، توفي سنة٣٧٠هـ. انظر: معجم الأدباء للحموي(٥/٢٣٢١)، ووفيات الأعيان(٤/٣٣٤).

(٥) تهذيب اللغة، مادة نظر(٤/٢٦٥).

(٦) تفسير المراغي(١٠/٢٦٧-٢٦٨).

(٧) صريح السنة ص(٢٠).

يضامون في ذلك ولا يرتابون ولا يشكون، فمن كذب بهذا أو ردَّه، أو شك فيه أو طعن على رواية فقد أعظم الفرية على الله عز وجل، وقد برئ من الله ورسوله والله ورسوله منه بريئان، كذلك قالت العلماء وحلف عليه بعضهم"[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "الذي يجب على كل مسلم اعتقاده: أن المؤمنين يرون ربهم في الدار الآخرة في عرصة القيامة، وبعد ما يدخلون الجنة على ما تواترت به الأحاديث عن النبي ﷺ عند العلماء بالحديث؛ فإنه أخبر ﷺ أنا نرى ربنا كما نرى القمر ليلة البدر والشمس عند الظهيرة لا نضام في رؤيته، ورؤيته سبحانه هي أعلى مراتب نعيم الجنة، وغاية مطلوب الذين عبدوا الله مخلصين له الدين؛ وإن كانوا في الرؤية على درجات على حسب قربهم من الله ومعرفتهم به، والذي عليه جمهور السلف أن من جحد رؤية الله في الدار الآخرة فهو كافر؛ فإن كان ممن لم يبلغه العلم في ذلك عُرِّف ذلك كما يُعرَّفُ من لم تبلغه شرائع الإسلام، فإن أصر على الجحود بعد بلوغ العلم له فهو كافر، والأحاديث والآثار في هذا كثيرة مشهورة"[٣].

وقال الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله في تفسير قول الحق جل وعلا: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴾[٤] : "أي حقا إنهم عن ربهم لمحجوبون، وذلك في يوم القيامة فإنهم يحجبون عن رؤية الله عز وجل، كما حجبوا عن رؤية شريعته وآياته فرأوا أنها أساطير الأولين، وبهذه الآية استدل أهل السنة والجماعة على ثبوت رؤية الله عز وجل، ووجه الدلالة ظاهر فإنه ما حجب هؤلاء في حال السخط إلا وقد مكن للأبرار من رؤيته تعالى في حال الرضا، فإذا كان هؤلاء محجوبون فإن الأبرار غير محجوبين، ولو كان الحجب لكلٍّ منهم لم يكن لتخصيصه بالفجار فائدة إطلاقا، ورؤية الله عز وجل ثابتة بالكتاب، ومتواتر السنة، وإجماع الصحابة والأئمة، لا

---

(١) هو: الإمام القدوة، العابد الفقيه المحدث، شيخ العراق، أبو عبد الله، عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العكبري الحنبلي، ابن بطة، وكان أمارا بالمعروف لم يبلغه خبر منكر إلا غيره لزم بيته بعد الرحلة أربعين سنة لا يرى مفطرا إلا يوم عيده، صنف كتاب "الابانة الكبرى" في ثلاث مجلدات، قال العتيقي: توفي ابن بطة –وكان مستجاب الدعوة– في المحرم سنة سبع وثمانين وثلاث مئة، سير أعلام النبلاء(٥٢٩/١٦)، والوافي بالوفيات(٢٧١/١٩).

(٢) الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة لابن بطة العكبري ص(١٩١).

(٣) مجموع الفتاوى(٤٨٥/٦).

(٤) سورة المطففين الآية (١٥).

إشكال في هذا أنه تعالى يرى حقا بالعين كما قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[(٢)]، وقد فسر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم الزيادة بأنها النظر إلى وجه الله تعالى[(٣)]، وكما في قوله تعالى: ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾[(٤)]، والمزيد هنا هو بمعنى الزيادة في قوله﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[(٥)]، وكما قال تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾[(٦)]، فإن نفي الإدراك يدل على ثبوت أصل الرؤية، ولهذا كانت هذه الآية مما استدل به السلف على رؤية الله، واستدل به الخلف على عدم رؤية الله، ولا شك أن الآية دليل عليهم، لأن الله لم ينف بها الرؤية، وإنما نفى الإدراك، ونفي الإدارك يدل على ثبوت أصل الرؤية، فالحاصل أن القرآن دل على ثبوت رؤية الله عز وجل حقا بالعين، وكذلك جاءت السنة الصحيحة بذلك حيث قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون الشمس صحوًا ليس دونها سحاب**»[(٧)]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته**»[(٨)]، وقد آمن بذلك الصحابة رضي الله عنهم والتابعون لهم بإحسان من سلف هذه الأمة وأئمتها"[(٩)].

١٣- صفة الكلام لله

ذكر المراغي رحمه الله في صفة الكلام الحديث المتفق عليه فقال: "عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة؟ فيقولون، لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا**

(١)سورة القيامة الآية (٢٢-٢٣).
(٢) سورة يونس الآية (٢٦).
(٣) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى(١/١٦٣)، الحديث رقم(٢٩٨).
(٤) سورة ق الآية (٣٥).
(٥) سورة يونس الآية (٢٦).
(٦) سورة الأنعام الآية (١٠٣).
(٧) سبق تخريجه ص(٤٢٩).
(٨) سبق تخريجه ص(٤٢٩).
(٩) تفسير ابن عثيمين جزء عم ص(١٠١).

من خلقك؟ فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون ربنا وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا»[(١)]"[(٢)].

وذكر بعد قوله﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾[(٣)]: "أي منهم من فضله الله بأن كلمه من غير سفير وهو موسى عليه السلام، كما قال تعالى في سورة النساء: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾[(٤)]، وفي سورة الأعراف: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾[(٥)] وفي الآية بعدها ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى ﴾[(٦)]"[(٧)].

وقال بعد قوله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾[(٨)]: "خاصًّا له ميزة عن غيره من ضروب الوحي العام لأولئك النبيين، وليس لنا أن نخوض في معرفة حقيقته، لأنا لم نكن من أهله، على أنا لا نعرف حقيقة كلام بعضنا بعضا، وكيف تحمل ذرات الهواء الأصوات إلى الآذان فضلا عن أن نعرف حقيقة كلام الباري"[(٩)].

وذكر بعد قول الحق ﷻ ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴾[(١٠)] فقال: "نجِيًّا: أي مناجيا مكلما لله بلا واسطة، ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ ﴾ أي وكلمناه من الجانب الأيمن للطور، أي الذي عن يمين موسى حين أقبل من مدين متوجها إلى مصر، وأنبأناه بأنه رسولنا، ثم واعدناه إليه بعد إغراق آل فرعون، ورحمنا بني إسرائيل بإنزال الكتاب عليهم"[(١١)].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع أهل الجنة(٩/١٥١)، الحديث رقم(٧٥١٨)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبدا (٤/٢١٧٦) الحديث رقم(٢٨٢٩).

(٢) تفسير المراغي(٤/٦٥).

(٣) سورة البقرة الآية (٢٥٣).

(٤) سورة النساء الآية (١٦٤).

(٥) سورة الأعراف الآية (١٤٣).

(٦) سورة الأعراف الآية (١٤٤).

(٧) تفسير المراغي(١/٣٧٧).

(٨) سورة النساء الآية (١٦٤).

(٩) تفسير المراغي(٢/٣٥٨).

(١٠) سورة مريم الآية (٥٢).

(١١) تفسير المراغي(٦/٥١).

وذكـر عنـد توضيـح قولـه تعـالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[1]: "قولـه ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾ أي ومـا ينبغي لبشر من بني آدم أن يكلمه ربه إلا بإحدى طرق ثلاث:

(١) ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ أي إلا أن يوحي إليه وحيا؛ أي يكلمه كلاما خفيا بغير واسطة بأن يقذف في روع النبي شيئا لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل، كما روى ابن حبان في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن روح القدس نفث في روعي**[2]: **إن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب**»[3].

(٢) ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ أي أو إلا من طريق لا يرى السامع المتكلم جهرة مع سماعه للكلام كما كلم موسى عليه السلام ربه.

(٣) ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾ أي أو يرسل الله من ملائكته رسولًا إما جبريل أو غيره، فيوحي ذلك الرسول إلى المرسل إليه ما يشاء ربه أن يوحيه إليه من أمر ونهي كما كان جبريل عليه السلام ينزل على النبي ﷺ وعلى غيره من الأنبياء ...

﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ أي إنه علي عن صفات المخلوقين يفعل ما تقتضيه حكمته، فيكلمه تارة بواسطة، وتارة بغير واسطة إما إلهاما وإما خطابا من وراء حجاب"[4].

المراغي رحمه الله أثبت صفة الكلام لله من خلال كلامه على الآيات الواردة في الموضوع، ونزيد الأمر وضوحا بنقل كلام السلف عن صفة الكلام:

قال أبوسعيد الدارمي رحمه الله: "باب الإيمان بكلام الله تبارك وتعالى:

---

(١)سورة الشورى الآية (٥١).

(٢) رُوعي: معناه كقولك: في خلدي ونفسي ونحو ذلك فهذا بضم الراء، وأما الرَّوعُ بالفتح فالفزع وليس من هذا بشيء، انظر: غريب الحديث للقاسم بن سلام(٢٩٩/١).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الزهد، ما ذكر عن نبينا صلى الله عليه وسلم في الزهد(٧٩/٧) الحديث رقم(٣٤٣٣٢)، والقضاعي في مسند الشهاب(١٨٥/٢)، الحديث رقم(١١٥١)، والبيهقي في الشعب(١٩/١٣) الحديث رقم(٩٨٩١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته(٤١٩/١).

(٤) تفسير المراغي(٥٢/٩) .

قال أبو سعيد: فالله المتكلم أولا وآخرا، لم يزل له الكلام إذ لا متكلم غيره، ولا يزال له الكلام إذا لا يبقى متكلم غيره، فيقول: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾(١) أنا الملك أين ملوك الأرض؟ فلا ينكر كلام الله عز وجل إلا من يريد إبطال ما أنزل الله عز وجل، وكيف يعجز عن الكلام من علم العباد الكلام وأنطق الأنام، قال الله في كتابه: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾(٢) فهذا لا يحتمل تأويلا غير نفس الكلام"(٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في العقيدة الواسطية: "ومن الإيمان بالله وكتبه: الإيمان بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وأن الله تكلم به حقيقة، وأن هذا القرآن الذي أنزله على محمد ﷺ هو كلام الله حقيقة لا كلام غيره، ولا يجوز إطلاق القول بأنه حكاية عن كلام الله أو عبارة؛ بل إذا قرأه الناس أو كتبوه في المصاحف لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله تعالى حقيقة، فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئا لا إلى من قاله مبلغا مؤديا، وهو كلام الله حروفه ومعانيه ليس كلام الله الحروف دون المعاني ولا المعاني دون الحروف"(٤).

فمما سبق من كلام بعض السلف يتبين لنا المقصود من حقيقة هذه الصفة التي كثر الخوض فيها عند المتكلمين ونزيد الأمر توضيحا بتحرير وتوضيح ابن عثيمين لهذه الصفة فقد قال رحمه الله: "الكلام صفة من صفات الله الثابتة له بالكتاب، والسنة، وإجماع السلف، قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾(٥) ﴿مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾(٦)، وقال النبي ﷺ: «**إذا أراد الله أن يوحي بأمره تكلم بالوحي**»(٧) أخرجه ابن خزيمة وابن جرير وابن أبي حاتم.

---

(١) سورة غافر الآية (١٦).

(٢) سورة النساء الآية (١٦٤).

(٣) الرد على الجهمية ص(١٥٥).

(٤) العقيدة الواسطية ص(١٦).

(٥) سورة النساء الآية (١٦٤).

(٦) سورة البقرة الآية (٢٥٣).

(٧) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة، باب ذكر الكلام والصوت والشخص وغير ذلك(١/٢٢٦)، الحديث رقم(٥١٥)، وابن خزيمة في التوحيد، باب صفة تكلم الله بالوحي وشدة خوف السماوات منه، وذكر صعق أهل السماوات وسجودهم لله عز وجل(١/٣٤٨)، وضعف إسناده الألباني في ظلال الجنة في تخريج السنة(١/٢٢٧).

وأجمع السلف على ثبوت الكلام لله فيجب إثباته له من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل.

وهو كلام حقيقي يليق بالله، يتعلق بمشيئته بحروف وأصوات مسموعة.

والدليل على أنه بمشيئته قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾[(١)]، فالتكليم حصل بعد مجيء موسى فدل على أنه متعلق بمشيئته تعالى، والدليل على أنه حروف قوله تعالى: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾[(٢)] فإن هذه الكلمات حروف وهي كلام الله.

والدليل على أنه بصوت قوله تعالى: ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴾[(٣)]، والنداء والمناجاة لا تكون إلا بصوت، وروي عن عبدالله بن أنيس عن النبي ﷺ، أنه قال: «**يحشر الله الخلائق فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديان**»[(٤)] علقه البخاري بصيغة التمريض، قال في الفتح: "وأخرجه المصنف في الأدب المفرد وأحمد، وأبو يعلى في مسنديهما وذكر له طريقين آخرين.

وكلام الله تعالى قديم النوع، حادث الآحاد، ومعنى قديم النوع أن الله لم يزل، ولا يزال متكلما ليس الكلام حادثا منه بعد أن لم يكن. ومعنى حادث الآحاد: أن آحاد كلامه أي الكلام المعين المخصوص حادث لأنه متعلق بمشيئته متى شاء تكلم بما شاء كيف شاء"[(٥)].

١٤- صفة الحياة

تكلم المراغي رحمه الله على صفة الحياة لله بعد قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾[(١)] فقال: "والحي هو ذو الحياة، والحياة هي مبدأ الشعور والإدراك والحركة والنمو، وهي بهذا المعنى

---

(١) سورة الأعراف الآية (١٤٣).

(٢) سورة طه الآية (١١-١٢).

(٣) سورة مريم الآية (٥٢).

(٤) صحيح البخاري معلقا بصيغة التمريض(١٤١/٩)، وأخرجه في الأدب المفرد، باب المعانقة (٣٣٧/١) الحديث رقم(٩٧٠)، وأحمد في المسند (٤٣١/٢٥)، الحديث رقم(١٦٠٤٢)، وابن أبي عاصم في السنة، باب ذكر الكلام والصوت والشخص وغير ذلك(٢٢٥/١)، الحديث رقم(٥١٤)، والحاكم في المستدرك (٤٧٥/٢)، الحديث رقم(٣٦٣٨) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في التلخيص، وحسنه العراقي في المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار(١٩٠٩/١)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب(٢٣٠/٣): صحيح لغيره.

(٥) مجموع الفتاوى (٢٠/٥).

مما يتنزه عنها الله سبحانه، فالمراد بها بالنسبة إليه تعالى الوصف الذي يعقل معه الاتصاف بالعلم والإرادة والقدرة"[٢].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾[٣] فقال: "والحي ذو الحياة وهي صفة تستتبع الاتصاف بالعلم والإرادة"[٤].

وذكر في توضيح قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾[٥] فقال: "وعلماء المواليد يزعمون أن في أصول الأحياء حياة، فكل ما ينبت من الحب والنوى فهو ذو حياة كامنة، إذ إنه لو عقم بالصناعة لا ينبت، واصطلاحهم لا تسيغه اللغة، إذ إنها لا تجعل الحي إلا الجسم النامي المتغذي بالفعل، وهذه أقل مراتب الحياة عندهم، ويليها مراتب أخرى: أعلاها مرتبة الإحساس والقدرة والإرادة والعلم والعقل والحكمة والنظام، وفوق كل هذه المراتب حياة الخالق التي هي مصدر كل حياة وحكمة ونظام في الكون"[٦].

وقال بعد قوله تعالى: ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[٧]: "والخلاصة: إن علماء المواليد قالوا: الحي لا يخرج إلا من حي، ولكن الحياة الأولى هي من خلق الله الحي بذاته المحيي لغيره"[٨].

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٥٥).

(٢) تفسير المراغي(١/٣٨٢).

(٣) سورة آل عمران الآية (٢).

(٤) تفسير المراغي(١/٤٤٩).

(٥) سورة الأنعام الآية (٩٥).

(٦) تفسير المراغي(٣/١٦٣).

(٧) سورة يونس الآية (٣١).

(٨) تفسير المراغي(٤/٢٣٢).

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾[(١)] فقال: "أي هو الحي الذي لا يموت، وما سواه فمنقطع الحياة غير دائمها، لا معبود بحق غيره ولا تصلح الألوهة إلا له، فادعوه مخلصين له الطاعة، ولا تشركوا في عبادته شيئا سواه من وثن أو صنم، ولا تجعلوا له ندا ولا عدلا"[(٢)].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ خَبِيرًا ﴾[(٣)] فقال: "وفي قوله: (الحي) إيماء إلى أنه لا ينبغي أن يتوكل على من لم يتصف بالحياة من صنم أو وثن، ولا على من لا بقاء له ممن يموت، لأنه إذا مات ضاع من توكل عليه.

وحكي عن بعض السلف أنه قرأ هذه الآية فقال: لا ينبغي لذي لُبٍّ أن يثق بعدها بمخلوق"[(٤)].

المراغي رحمه الله قرر صفة الحياة، والحياة من الصفات الذاتية الثابتة في الكتاب والسنة، ودلالة الكتاب ذكرها المراغي، وأما دلالة السنة: فحديث ابن عباس رضي الله عنهما: «**اللهم لك أسلمت، وبك آمنت أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون**»[(٥)].

قال ابن جرير رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾[(٦)]: "وأما قوله: (الحي) فإنه يعني: الذي له الحياة الدائمة، والبقاء الذي لا أول له بحد، ولا آخر له بأمد، إذ كان كل ما سواه فإنه وإن كان حيا فلحياته أول محدود، وآخر ممدود، ينقطع بانقطاع أمدها، وينقضي بانقضاء غايتها"[(٧)].

---

(١) سورة غافر الآية (٦٥).

(٢) تفسير المراغي(٨/٣٣١).

(٣) سورة الفرقان الآية (٥٨).

(٤) تفسير المراغي(٧/٢٥).

(٥) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل (٤/٢٠٨٦)، الحديث رقم(٢٧١٧).

(٦) سورة البقرة الآية (٢٥٥).

(٧) تفسير ابن جرير(٥/٣٨٦).

وقال أيضا بعد قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾(١): "ومعنى ذلك عندي: أنه وصف نفسه بالحياة الدائمة التي لا فناء لها ولا انقطاع، ونفى عنها ما هو حال بكل ذي حياة من خلقه من الفناء، وانقطاع الحياة عند مجيء أجله، فأخبر عباده أنه المستوجب على خلقه العبادة والألوهة، والحي الذي لا يموت ولا يبيد، كما يموت كل من اتخذ من دونه ربا، ويبيد كل من ادعى من دونه إلها، واحتج على خلقه بأن من كان يبيد فيزول ويموت فيفنى، فلا يكون إلها يستوجب أن يعبد دون الإله الذي لا يبيد ولا يموت وأن الإله، هو الدائم الذي لا يموت ولا يبيد ولا يفنى، وذلك الله الذي لا إله إلا هو"(٢).

وقال الشيخ محمد الهراس رحمه الله في (شرحه للنونية): "ومعنى الحي: الموصوف بالحياة الكاملة الأبدية، التي لا يلحقها موت ولا فناء، لأنها ذاتية له سبحانه، وكما أن قيوميته مستلزمة لسائر صفات الكمال الفعلية؛ فكذلك حياته مستلزمة لسائر صفات الكمال الذاتية من العلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والعزة والكبرياء والعظمة ونحوها"(٣).

وممن قرر هذه الصفة وبينها في تفسيره ابن عثيمين رحمه الله حيث قال: "وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾(٤) هذان اسمان من أسمائه تعالى؛ وهما جامعان لكمال الأوصاف، والأفعال؛ فكمال الأوصاف في (الحي)؛ وكمال الأفعال في (القيوم)؛ لأن معنى (الحي) ذو الحياة الكاملة؛ ويدل على ذلك "أل" المفيدة للاستغراق؛ وكمال حياته تعالى: من حيث الوجود، والعدم؛ ومن حيث الكمال، والنقص؛ فحياته من حيث الوجود، والعدم؛ أزلية أبدية لم يزل، ولا يزال حيا؛ ومن حيث الكمال، والنقص: كاملة من جميع أوصاف الكمال؛ فعلمه كامل؛ وقدرته كاملة؛ وسمعه، وبصره، وسائر صفاته كاملة؛ و(القيوم): أصلها من القيام؛ ووزن قيوم فَيْعُول؛ وهي صيغة مبالغة؛ فهو القائم على نفسه فلا يحتاج إلى أحد من خلقه؛ والقائم على غيره فكل أحد محتاج إليه"(٥).

---

(١) سورة آل عمران الآية (٢).

(٢) تفسير ابن جرير(١٥٦/٦).

(٣) شرح النونية(١٠٣/٢).

(٤) سورة البقرة الآية (٢٥٥).

(٥) تفسير ابن عثيمين الفاتحة والبقرة(٢٥١/٣).

١٥- الغضب والسخط

المراغي رحمه الله أوضح صفتي الغضب والسخط من خلال كلامه على الآيات الواردة في ذلك فقال بعد قوله تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾(١) فقال: "أي واستحقوا غضب الله بما حل بهم من البلاء والنقم في الدنيا، والعذاب الأليم في الآخرة"(٢).

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٣): "قال في المفردات: ولا يكلمهم الله: أي يغضب عليهم، ولا ينظر إليهم: أي يسخط عليهم ويستهين بهم، ولا يزكيهم: أي لا يثني عليهم.

ثم قال في إيضاح الآية: "ويغضب عليهم ربهم ولا ينظر إليهم ولا يثني عليهم يوم القيامة، ولهم عذاب أليم هو الغاية في الألم.

قال القفال(٤): "هذه الكلمات يراد بها بيان شدة سخط الله عليهم، لأن من منع غيره كلامه في الدنيا فإنما ذلك لسخطه عليه، وقد يأمره بحجبه عنه، ويقول: لا أكلمك ولا أرى وجهك، وإذا جرى ذكره لم يذكره بالجميل"(٥).

و صفوة القول: إن الله توعد الناكثين للعهد، المخلفين للوعد بالحرمان من النعيم وبالعذاب الأليم، وبأنهم يكونون في غضب الله بحيث لا ترجى لهم رحمة، ولا يسمعون منه تعالى كلمة عفو ولا مغفرة"(٦).

---

(١) سورة البقرة الآية (٦١).

(٢) تفسير المراغي(١/١١٤).

(٣) سورة آل عمران الآية (٧٧).

(٤) هو: محمد بن علي بن إسماعيل، أبو بكر الشاشي القفال الكبير، علم من أعلام المذهب رفيع، تفقه على ابن سريج، وكان إمام عصره بما وراء النهر، واعلمهم بالأصول، ورحل في طلب الحديث، قال النووي: "له مصنفات من أجلِّ المصنفات، وهو أول مَن صَنَّف الجدل، وشرح رسالة الشافعي، ورأيت له كتابًا نفيسًا في دلائل النبوة، وكتابًا جليلاً في محاسن الشريعة" توفي بالشاش سنة ٣٣٦هـ. انظر: الشافعية الكبرى(١/٢٢٨)، وتهذيب الأسماء واللغات للنووي(٢/٢٨١).

(٥) انظر: غرائب القرآن ورغائب القرآن(٢/١٩٣).

(٦) تفسير المراغي(١/٥٢٨-٥٣١).

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[١] فقال: "والسخط بفتحتين وبضم فسكون: الغضب العظيم"[٢].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾[٣] فقال: "المراد بعدم الحب البغض والسخط: أي إن الله يبغض من اعتاد الخيانة وألفت نفسه اجتراح السيئات وضريت عليها، ولم يعد للعقاب الإلهي الرهبة والخشية التي ينبغي أن يفكر مثله فيها، وإنما يحب الله أهل الأمانة والاستقامة"[٤].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ ﴾[٥] قال: "والمقت: أشد الغضب"[٦].

ثم قال: "وقوله تعالى: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ ﴾[٧] أي كبر ذلك الجدل بغضا لدى الله والمؤمنين، فمقت الله إياهم يكون بما يستتبعه من سوء العذاب، ومقت المؤمنين تظهر آثاره في هجرهم إياهم، والاحتراس من التعامل معهم، وعدم الركون إليهم في الدين والدنيا"[٨].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[٩] قال: "آسفونا: أي أغضبونا وأسخطونا"[١٠].

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٦٢).

(٢) تفسير المراغي(٢/٩٨).

(٣) سورة النساء الآية (١٠٧).

(٤) تفسير المراغي(٢/٣٠٨).

(٥) سورة غافر الآية (٣٥).

(٦) تفسير المراغي(٢٤/٦٦).

(٧) سورة غافر الآية (٣٥).

(٨) تفسير المراغي(٨/٣١٢- ٣١٥).

(٩) سورة الزخرف الآية (٥٥).

(١٠) تفسير المراغي(٩/٧٩).

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[(١)] فقال: "والمقت: أشد البغض وأعظمه، ورجل مقيت وممقوت إذا كان يبغضه كل أحد،... ثم بين شدة قبح ذلك وأنه بلغ الغاية في بغض الله له فقال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[(٢)] أي عظم جرما عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون"[(٣)].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾[(٤)]: "أي وقال الكافرون بالله: إن للرحمن ولدا، لقد جئتم أيها القائلون بمقالكم هذا شيئا منكرا عظيما يدل على الجرأة على الله وكمال القحة عليه سبحانه، وإنه ليغضبه أشد الغضب، ويسخطه أعظم السخط"[(٥)].

المراغي رحمه الله أثبت صفة الغضب لله وهي من صفات الأفعال الثابتة بالكتاب والسنة والإجماع، ولكن نزيد الأمر وضوحا بنقل كلا م السلف على هذه الصفة فقد ذكر البخاري ومسلم حديث الشفاعة وفيه إثبات صفة الغضب لله فقالا: «**عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتي بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه، فنهش منها نهشة ثم قال: أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مم ذلك؟ يجمع الله الناس الأولين والآخرين في صعيد واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون؛ فيقول الناس: ألا ترون ما قد بلغكم، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم، فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم فيأتون آدم عليه السلام؛ فيقولون له: أنت أبو البشر خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى**

---

(١) سورة الصف الآية (٣).

(٢) سورة الصف الآية (٣).

(٣) تفسير المراغي(١٠/ ٦٧-٦٨).

(٤) سورة مريم الآية (٨٨-٨٩).

(٥) تفسير المراغي(٦/ ٧٢).

نوح، فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبدًا شكورًا، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي عز وجل قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوةٌ دعوتها على قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات، فذكرهن أبو حيان في الحديث، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى، فيأتون موسى فيقولون: يا موسى أنت رسول الله، فضَّلك الله برسالته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلت نفسا لم أومر بقتلها، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى عيسى ابن مريم، فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلمت الناس في المهد صبيًّا، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله قط، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنبا، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد، فيأتون محمدا فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجدا لربي عز وجل، ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تُشفَّعْ؛ فأرفع رأسي، فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا ربِّ، أمتي يا ربِّ؛ فيقال: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب»[1].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا} (٦/٨٤)، الحديث رقم(٤٧١٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١/١٨٠)، الحديث رقم(٣٢٢).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: "والقرآن مملوء بذكر سخطه وغضبه على أعدائه، وذلك صفة قائمة به يترتب عليها العذاب واللعنة، لا أن السخط هو نفس العذاب واللعنة، بل هما أثر السخط والغضب وموجبهما، ولهذا يفرق بينهما كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾[(١)] ففرق بين عذابه وغضبه ولعنته، وجعل كل واحد غير الآخر، وكان من دعاء النبي ﷺ: «**اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، أعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك**»[(٢)]، فتأمل ذكر استعاذته ﷺ بصفة الرضا من صفة الغضب، وبفعل المعافاة من فعل العقوبة، فالأول للصفة، والثاني لأثرها المترتب عليها، ثم ربط ذلك كله بذاته سبحانه، وأن ذلك كله راجع إليه وحده لا إلى غيره..."[(٣)].

وممن قرر حقيقة الغضب والسخط وبينهما أتم بيان العلامة محمد بن عثيمين رحمه الله حيث قال: "الغضب من صفات الله الثابتة له بالكتاب، والسنة، وإجماع السلف، قال الله تعالى فيمن قتل مؤمنا متعمدا: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ ﴾[(٤)]، وقال النبي ﷺ: «**إن الله كتب كتابا عنده فوق العرش إن رحمتي تغلب غضبي**»[(٥)] متفق عليه.

وأجمع السلف على ثبوت الغضب لله، فيجب إثباته من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل، وهو غضب حقيقي يليق بالله.

ثم قال رحمه الله عن صفة السخط: "السخط من صفات الله الثابتة بالكتاب، والسنة، وإجماع السلف؛ قال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ ﴾[(٦)] وكان من دعاء النبي، ﷺ: «**اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك**» الحديث رواه

(١) سورة النساء الآية (٩٣).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (١/٣٥٢)، الحديث رقم(٤٨٦).

(٣) مدارج السالكين(١/٢٥٤).

(٤) سورة النساء الآية (٩٣).

(٥) سبق تخريجه ص(٣٦٩).

(٦) سورة محمد الآية (٢٨).

مسلم[١]، وأجمع السلف على ثبوت السخط لله فيجب إثباته له من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل. وهو سخط حقيقي يليق بالله"[٢].

١٦- المكر والكيد والاستهزاء والنسيان

ذكر المراغي رحمه الله الصفات التي تكون كمالا في حال دون حال؛ مثل المكر والكيد والاستهزاء والخداع والنسيان؛ فذكر المكر بعد قوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[٣] فقال: "والمكر تدبيرٌ خفيٌّ يفضي بالممكور به إلى ما لم يكن يحتسب، وغلب استعماله في التدبير السيئ، وإن كان يستعمل في الحسن والسيئ معا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾[٤]، والداعي إلى المكر الحسن أن من الناس من إذا علم بما يدبر له أفسد على الفاعل تدبيره لجهله، فكانت حاجة المربي أو القوام على غيره ماسَّةٌ إلى الاحتيال عليه والمكر به ليوصله إلى ما لا يصح أن يعرفه قبل الوصول إليه.

ثم قال: "وقوله ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾[٥] أي: ومكر أولئك القوم الذين علم عيسى كفرهم من اليهود، بأن وَكَّلُوا به من يقتله غِيلَةً، ومكرَ الله فأبطل مكرَهم فلم ينجَحُوا فيه، ورفع عليه السلام إلى السماء، وألقى شبهه على من قصد اغتياله حتى قتل.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[٦] أي أقواهم مكرا وأنفذُهم كيدًا، وأقدرُهم على إيصال الضر إليهم من حيث لا يحتسبون، فتدبيرُه الذي يخفى على عباده إنما يكون لإقامة سننه، وإتمام حكمته وكلها خير في نفسها، وإن قصَّرَ كثير من الناس في الاستفادة منها بجهلهم وسوء اختيارهم"[٧].

---

(١) سبق تخريجه ص(٤٤٧) .

(٢) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين(٥/٣٠).

(٣) سورة آل عمران الآية (٥٤).

(٤) سورة فاطر الآية (٤٣).

(٥) سورة آل عمران الآية (٥٤).

(٦) سورة آل عمران الآية (٥٤).

(٧) تفسير المراغي(١/٥١٠- ٥١٢).

وقال: "المكر: صرف الإنسان عن مقصده بحيلة، وهو نوعان: محمود ويراد به الخير، ومذموم يقصد به الشر"(١).

وقال بعد قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾(٢): "والمكر: التدبير الخفي الذي يفضي بالممكور به إلى ما لا يتوقعه، ومكرُه تعالى تدبيرُه الذي يخفى على الناس بإقامة سننه وإتمام حكمه في نظام العالم، وكله عدلٌ وحقٌّ، فإن ساءَ الناسَ سموه شرًّا، وإن كان جزاءً عدلًا".

ثم قال: "وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾(٣): "أي قل لهم: إن الله أسرع منكم مكرا، فهو قد دبَّرَ عقابَكم، وهو موقِعُه بكم قبل أن تُدَبِّرُوا كيف تعملون في إطفاء نور الإسلام، وقد سبق في تدبيره لأمور العالم وتقديره للجزاء على الأعمال قبل وقوعها أن يعاقبكم على مكركم في الدنيا قبل الآخرة، وهو عليم بما تفعلون، لا تخفي عليه خافية".

وقوله: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾(٤): "أي إن الحفظة من الملائكة الذين وكَلَهم الله بإحصاء أعمال الناس، وكتبها للحساب عليها في الآخرة، يكتبون ما تمكرون به، وفي ذلك تنبيه إلى أن ما دبروا ليس بخافٍ عليه تعالى، وإلى أن انتقامه واقع بهم لا محالة"(٥).

وذكر ما يتعلق بالكيد بعد قوله تعالى: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾(٦) فقال: "والكيد كالمكر: هو التدبير الذي يقصد به غير ظاهره، بحيث ينخدع المكيد بمظهره فلا يفطن له حتى ينتهي إلى ما يسوءه، وأكثره احتيال مذموم، ومنه ما هو محمود يقصد به المصلحة: ككيد يوسف لأخذ أخيه الشقيق من إخوته لأبيه برضاهم ومقتضى شريعتهم".

---

(١) تفسير المراغي(٣/٣٧٦).

(٢) سورة يونس الآية (٢١).

(٣) سورة يونس الآية (٢١٩.

(٤) سورة يونس الآية (٢١).

(٥) تفسير المراغي(٤/٢٢١- ٢٢٣).

(٦) سورة الأعراف الآية (١٨٣).

ثم في إيضاح الآية: "وقوله تعالى: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾[١] أي: وأمهل هؤلاء المكذبين المستدرجين في العمر، وأمد لهم في أسباب المعيشة، والتدرب على الحرب بمقتضى سنني في نظام الاجتماع البشري كيدًا لهم ومكرًا بهم، لا حبًّا فيهم ونصرًا لهم؛ كما قال تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾[٢]، وروى الشيخان من حديث أبي موسى: «**إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**»[٣]"[٤].

وذكر الاستهزاء بعد قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[٥]: "أي الله يجازيهم بالعقاب على استهزائهم –وسمى هذا الجزاء استهزاء للمشاكلة في اللفظ كما سمى جزاء السيئة سيئة– ويزيدهم في عتوهم وكفرهم، ويجعلهم حائرين مترددين في الضلال عقوبة لهم على استهزائهم"[٦].

وذكر الخداع بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[٧] فقال: "الخداع: إيهام غيرك أن الشيء على ما يحب ويريد بتزيينك له، وهو على غير ذلك.

ثم قال: "وقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ ﴾[٨] أي يخادعون رسول الله فيظهرون له الإيمان ويبطنون الكفر، ونسب ذلك إلى الله من جهة أن معاملة الرسول بذلك كمعاملة الله به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾[٩]، وفي جعل ذلك خداعا لله تنبيه إلى شيئين،

---

(١) سورة الأعراف الآية (١٨٣).

(٢) سورة المؤمنون الآية (٥٤-٥٦).

(٣) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد} (٧٤/٦)، الحديث رقم(٤٦٨٦)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، (١٩٩٧/٤)، الحديث رقم(٢٥٨٣).

(٤) تفسير المراغي(٤٤٦/٣- ٤٤٨).

(٥) سورة البقرة الآية (١٥).

(٦) تفسير المراغي(٥٥/١).

(٧) سورة النساء الآية (١٤٢).

(٨) سورة النساء الآية (١٤٢).

(٩) سورة الفتح الآية (١٠).

فظاعة فعلهم فيما تحروه من الخديعة، إذ هم بمخادعتهم للرسول إنما يخادعون الله، وعظم شأن المقصود بالخداع، وهو الرسول ﷺ وأن معاملته بذلك كمعاملة الله به، ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾[(١)]: "أي مجازيهم على خداعهم، وسمى ذلك مخادعة مشاكلة للفظ الأول، ونظيره ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾[(٢)]، وإنما جعل كذلك لأنه قد استعمل في المعاني المذمومة التي تتضمن الكذب، أو تدل على ضعف صاحبها وعجزه غالبًا.

وخلاصة المعنى: إنه عبر عن سنة الله في عاقبة أمرهم في العاجل والآجل من حيث إنها جاءت على غير ما يحبون؛ بلفظ مأخوذ من المخادعة، إذ أنهم بمخادعتهم للرسول والمؤمنين يسيرون في طريق يضلون فيه، وينتهون إلى الخزي والوبال من حيث هم يطلبون السلامة والنجاة، فمخادعتهم لأنفسهم بسوء اختيارهم لها هو مخادعة الله لهم، إذ جرت سنته تعالى فيمن يعمل مثل عملهم أن يلاقي الخزي في الدنيا والنكال في الآخرة، وهكذا حال المنافقين في كل أمة وملة يخادعون ويكذبون، ويكيدون ويغشون، ويتولَّون أعداء أمتهم يبتغون بذلك يدا عندهم ،يمتون بها إليهم إذا دالت دولتهم، وكتب التاريخ ملأى بأخبار هؤلاء الأشرار، ويكثر عددهم في الأمم في أطوار الضعف وقوة الأعداء، إذ هم طلاب منافع يلتمسونها من كل فج، ويسلكون لها كل طريق، ولو فيما يضر أمتهم والناس أجمعين، وقد روي عن ابن عباس أنه قال: «خداعه تعالى لهم أن يعطيهم نورا يوم القيامة يمشون به مع المسلمين، فإذا وصلوا إلى الصراط انطفأ نورُهم وبَقوا في ظلمة»[(٣)]، ودليله قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾[(٤)]"[(٥)].

(١) سورة النساء الآية (١٤٢).

(٢) سورة آل عمران الآية (٥٤).

(٣) انظر: تفسير الماوردي(٥/٤٧٤)، وتفسير القرطبي(١٧/٢٤٥).

(٤) سورة البقرة الآية (١٧).

(٥) تفسير المراغي(٢/٣٣٨-٣٣٩).

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[١] فقال: "الخدع: أن توهم غيرك خلاف ما تخفيه لتحول بينه وبين ما يريد، وأصله من قولهم: خدع الضب إذا توارى في جحره، وضبٌّ خادعٌ إذا أوهم حارسه الإقبال عليه ثم خرج من باب آخر.

والخدع هنا من جانب المنافقين لله وللمؤمنين، والتعبير بصيغة المخادعة للدلالة على المبالغة في حصول الفعل وهو الخدع، أو للدلالة على حصوله مرة بعد أخرى، كما يقال: مارست الشيء وزاولته، إذ هم كانوا مداومين على الخدع، إذ أعمالهم الظاهرة لا تصدقها بواطنهم، وهذا لا يكون إلا من مخادع، لا من تائب خاشع.

وخداعهم للمؤمنين بإظهار الإيمان وإخفاء الكفر، للاطلاع على أسرارهم وإذاعتها إلى أعدائهم من المشركين واليهود، ودفع الأذى عن أنفسهم.

﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾[٢] إذ ضرر عملهم لا حق بهم، فهم يغرون أنفسهم بالأكاذيب ويلقونها في مهاوى الهلاك والردى"[٣].

وذكر ما يتعلق بالسخرية بعد قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٤] فقال: "وسخر منه: استهزأ به احتقارا".

ثم قال: "قوله ﴿ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ ﴾[٥] أي فجازاهم الله بمثل ذنبهم، فجعلهم سخرية للمؤمنين وللناس أجمعين بفضيحتهم في هذه السورة ببيان مخازيهم وعيوبهم"[٦].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[٧] فقال:

---

(١) سورة البقرة الآية (٩).

(٢) سورة البقرة الآية (٩).

(٣) تفسير المراغي(١/٥٠).

(٤) سورة التوبة الآية (٧٩).

(٥) سورة التوبة الآية (٧٩).

(٦) تفسير المراغي(٤/١٣٩- ١٤٠).

(٧) سورة التوبة الآية (٦٧).

"نسوا الله: أي تركوا أوامره حتى صارت بمنزلة المنسي، فنسيهم: أي فجازاهم على نسيانهم بحرمانهم من الثواب على ذلك في الآخرة.

ثم قال: "وقوله: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾[1]: أي نسوا أن يتقربوا إليه بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، ولم يعد يخطر ببالهم أن له عليهم حق الطاعة والشكر، واتبعوا أهواءهم ووساوس الشيطان، فجازاهم على ما فعلوا بحرمانهم من لطفه وتوفيقه في الدنيا، ومن الثواب في الآخرة"[2].

المراغي رحمه الله في هذه الصفات التي تكون كمالا في حال دون حال لم يخالف في تقريرها مذهب السلف، ومن ذلك ما ذكره إمام المفسرين ابن جرير رحمه الله من أقوال أهل العلم عند قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[3] ثم قال: "والصواب في ذلك من القول والتأويل عندنا: أن معنى الاستهزاء في كلام العرب: إظهار المستهزئ للمستهزَإِ به من القول والفعل ما يرضيه ظاهرا، وهو بذلك من قيله وفعله به مورثه مساءة باطنا، وكذلك معنى الخداع والسخرية والمكر.

فإذا كان ذلك كذلك، وكان الله جل ثناؤه قد جعل لأهل النفاق في الدنيا من الأحكام بما أظهروا بألسنتهم، من الإقرار بالله وبرسوله وبما جاء به من عند الله، المدخِلِهم في عداد من يشمله اسم الإسلام، وإن كانوا لغير ذلك مستبطنين أحكامَ المسلمين، المصدقين إقرارهم بألسنتهم بذلك، بضمائر قلوبهم، وصحائح عزائمهم، وحميد أفعالهم المحقِّقَةِ لهم صحةَ إيمانهم مع علم الله عز وجل بكذبهم، واطلاعه على خبث اعتقادهم، وشكهم فيما ادعوا بألسنتهم أنهم به مصدقون، حتى ظنوا في الآخرة إذ حشروا في عداد من كانوا في عدادهم في الدنيا، أنهم واردون موردهم، وداخلون مدخلهم، والله ﷻ -مع إظهاره ما قد أظهر لهم من الأحكام، الملحقَتِهم في عاجل الدنيا وآجل الآخرة إلى حال تمييزه بينهم وبين أوليائه، وتفريقه بينهم وبينهم- معدٌّ لهم من أليم عقابه ونكال عذابه، ما أعد منه لأعدى أعدائه وشر عباده، حتى ميز بينهم وبين أوليائه، فألحقهم من طبقات جحيمه بالدرك الأسفل، كان معلوما أنه جل

---

(١) سورة التوبة الآية (٦٧).

(٢) تفسير المراغي(٤/١٢٦- ١٢٧).

(٣) سورة البقرة الآية (١٥).

ثناؤه بذلك من فعله بهم، وإن كان جزاء لهم على أفعالهم، وعدلا ما فعل من ذلك بهم لاستحقاقهم إياه منه بعصيانهم له -كان بهم- بما أظهر لهم من الأمور التي أظهرها لهم: من إلحاقه أحكامهم في الدنيا بأحكام أوليائه وهم له أعداء، وحشره إياهم في الآخرة مع المؤمنين وهم به من المكذبين -إلى أن ميز بينهم وبينهم- مستهزئا، وبهم ساخرا، ولهم خادعا، وبهم ماكرا، إذ كان معنى الاستهزاء والسخرية والمكر والخديعة ما وصفنا قبل، دون أن يكون ذلك معناه في حال فيها المستهزئ بصاحبه له ظالم، أو عليه فيها غير عادل، بل ذلك معناه في كل أحواله، إذا وجدت الصفات التي قدمنا ذكرها في معنى الاستهزاء وما أشبهه من نظائره"[1].

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في سياق كلامه على مسألة المجاز فقال: "وكذلك ما ادعوا أنه مجاز في القرآن كلفظ "المكر" و "الاستهزاء" و "السخرية" المضاف إلى الله، وزعموا أنه مسمى باسم ما يقابله على طريق المجاز، وليس كذلك بل مسميات هذه الأسماء إذا فعلت بمن لا يستحق العقوبة كانت ظلما له، وأما إذا فعلت بمن فعلها بالمجني عليه عقوبة له بمثل فعله كانت عدلا؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾[2] فكاد له كما كادت إخوته لما قال له أبوه: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾[3] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾[4] وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾[6]، ولهذا كان الاستهزاء بهم فعلا يستحق هذا الاسم كما روي عن ابن عباس؛ «أنه يفتح لهم بابٌ من الجنة وهم في النار، فيسرعون إليه، فيغلق ثم يفتح لهم بابٌ آخر فيسرعون إليه، فيغلق فيضحك منهم المؤمنون»[7]، قال

---

(١) تفسير ابن جرير(١/٣٠٣).

(٢) سورة يوسف الآية (٧٦).

(٣) سورة يوسف الآية (٥).

(٤) سورة الطارق الآية (١٥-١٦).

(٥) سورة النمل الآية (٥٠-٥١).

(٦) سورة التوبة الآية (٧٩).

(٧) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات(٢/٤٣٧-٤٣٨)، الحديث رقم(١٠١٨).

تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ (١) وعن الحسن البصري: «إذا كان يوم القيامة؛ خمدت النار لهم كما تخمد الإهالة(٢) من القدر فيمشون فيخسف بهم»(٣)، وعن مقاتل: «إذا ضرب بينهم وبين المؤمنين بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب فيبقون في الظلمة فيقال لهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا»(٤)، وقال بعضهم: استهزاؤه: استدراجه لهم، وقيل: إيقاع استهزائهم ورد خداعهم ومكرهم عليهم، وقيل: إنه يظهر لهم في الدنيا خلاف ما أبطن في الآخرة، وقيل: هو تجهيلهم وتخطئتهم فيما فعلوه؛ وهذا كله حق، وهو استهزاء بهم حقيقة"(٥).

وقال ابن القيم رحمه الله: "إن الله تعالى لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع والاستهزاء مطلقا، ولا ذلك داخل في أسمائه الحسنى، ومن ظن من الجهال المصنفين في شرح الأسماء الحسنى أن من أسمائه الماكر المخادع المستهزئ الكائد فقد فاه بأمر عظيم تقشعر منه الجلود، وتكاد الأسماع تصم عند سماعه، وغرَّ هذا الجاهل أنه ﷻ أطلق على نفسه هذه الأفعال فاشتق له منها أسماء، وأسماؤه كلها حسنى فأدخلها في الأسماء الحسنى، وأدخلها وقرنها بالرحيم الودود الحكيم الكريم، وهذا جهل عظيم، فإن هذه الأفعال ليست ممدوحة مطلقا، بل تمدح في موضع وتذم في موضع، فلا يجوز إطلاق أفعالها على الله مطلقا، فلا يقال: إنه تعالى يمكر ويخادع ويستهزئ ويكيد.

فكذلك بطريق الأولى لا يشتق له منها أسماء يسمى بها، بل إذا كان لم يأت في أسمائه الحسنى المريد ولا المتكلم ولا الفاعل ولا الصانع، لأن مسمياتها تنقسم إلى ممدوح ومذموم، وإنما يوصف بالأنواع المحمودة منها، كالحليم والحكيم، والعزيز والفعال لما يريد، فكيف يكون منها

---

(١) سورة المطففين الآية (٣٤-٣٦).

(٢) الإهالة كل شيء من الأدهان مما يؤتدم به مثل الزيت ودهن السمسم، وقيل: الإهالة: ما أذيب من الألية والشحم أيضا، ومتن الإهالة ظهرها إذا سكنت في الإناء، غريب الحديث لابن سلام(٣٤٦/٤).

(٣) أخرجه في مصنف ابن أبي شيبة (٥٥/٧)، الحديث رقم(٣٤١٧٢)، وابن جرير في تفسيره(٢٣١/١٨)، والدينوري في المجالسة وجواهر العلم(٨٢/٣)، الحديث رقم(٧٠٢) لكنه عن كعب، ولم أقف عليه مسندا عن الحسن البصري، وإنما أورده ابن عطية في تفسيره(٩٧/١)، وابن الجوزي في زاد المسير(٣٤/١).

(٤) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات(٤٣٧/٢).

(٥) مجموع الفتاوى(١١١/٧-١١٢).

الماكر المخادع المستهزئ، ثم يلزم هذا الغالط أن يجعل من أسمائه الحسنى الداعي والآتي، والجائي والذاهب والقادم والرائد، والناسي والقاسم، والساخط والغضبان واللاعن، إلى أضعاف ذلك من الأسماء التي أطلق على نفسه أفعالها في القرآن، وهذا لا يقوله مسلم ولا عاقل، والمقصود أن الله سبحانه لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع إلا على وجه الجزاء لمن فعل ذلك بغير حق، وقد علم أن المجازاة على ذلك حسنة من المخلوق، فكيف من الخالق سبحانه"[(١)].

فتبين لنا من خلال كلام السلف معنى هذه الصفات الثابتة لله جل وعلا، ونختم هذا الموضوع بما بينه وفصله ابن عثيمين حيث علق الصفات التي تكون كمالا في حال دون حال فقال رحمه الله: "وما كان كمالا في حال دون حال؛ فإنه لا يجوز إطلاقه على الله، وإنما يوصف به مقيدا، مثل المكر، والخديعة، والاستهزاء، والكيد، فهذا يكون كمالا في حال ونقصا في حال، فلا يوصف الله به إلا على وجه الكمال.

فالمكر مثلا لا يجوز أن تصف الله بالمكر على سبيل الإطلاق فتقول: إن الله ماكر، فهذا حرام؛ لأنه يفهم من ذلك النقص والعيب، فإن المكر عند الإطلاق صفة قدح وذم، لكنه عند المقابلة يكون صفة مدح، فتقول: إن الله يمكر بمن يمكر به وبرسله، وهنا صار المكر صفة كمال ومدح، أي إنه أعلى من مكر أعدائه، كذلك إذا وصفت المكر بما يدل على الكمال فلا بأس، مثل أن تقول: الله خير الماكرين، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾[(٢)]، ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[(٣)].

وكذلك الخداع لا يجوز أن تصف الله بأنه خادع، أو من صفاته الخداع على سبيل الإطلاق، لكن يجوز أن تصفه به على سبيل المقابلة، فتقول: إن الله تعالى يخدع المنافقين، أو خادع المنافقين، أو خادع من يخدعه، أو ما أشبه ذلك؛ لأنها في هذه الحال تكون صفة كمال، ولا يجوز أن تصفه بها على سبيل الإطلاق لأنها تحتمل معنى صحيحا ومعنى فاسدا"[(٤)].

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة ص(٣٠٦).

(٢) سورة الأنفال الآية (٣٠).

(٣) سورة الأنفال الآية (٣٠).

(٤) شرح العقيدة السفارينية ص(١٦٠).

الباب الثاني: آراء المراغي الاعتقادية في بقية أركان الايمان

وفيه خمسة فصول:

الفصل الأول: آراء المراغي الاعتقادية في الإيمان بالملائكة.

الفصل الثاني: آراء المراغي الاعتقادية في الإيمان بالكتب.

الفصل الثالث: آراء المراغي الاعتقادية في الإيمان بالرسل.

الفصل الرابع: آراء المراغي الاعتقادية في الإيمان باليوم الآخر.

الفصل الخامس: آراء المراغي الاعتقادية في الإيمان بالقضاء والقدر.

الفصل الأول آراء المراغي الاعتقادية في الإيمان بالملائكة

وفيه تمهيد ومبحثان:

التمهيد: وفيه تعريف الملائكة.

المبحث الأول: معنى الإيمان بالملائكة وما يتضمنه.

المبحث الثاني: المفاضلة بين الملائكة وعصمتهم.

التمهيد: في تعريف الملائكة

الملائكة: جمع ملك، والراجح أنه مشتق من ((ألك)) مهموز الأصل فلفظ الملائكة أصله من ((الألوك)) وهو الرسالة، فسميت الملائكة ملائكة بالرسالة، لأنها رسل الله بينه وبين أنبيائه، ومن أرسلت إليه من عباده[١].

"وهم نوع من خلق الله عز وجل، أسكنهم سماواته، ووكلهم بشؤون خلقه، ووصفهم في كتابه بأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وأنهم يسبحون له بالليل والنهار لا يفترون.

فيجب علينا الإيمان بما ورد في حقهم من صفات وأعمال في الكتاب والسنة، والإمساك عما وراء ذلك، فإن هذا من شؤون الغيب التي لا نعلم منها إلا ما علمنا الله ورسوله"[٢].

"وأشمل وأوضح تعريف للملائكة أن يقال: هم عالم غيبي خلقهم الله عز وجل من نور: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾[٣] يقومون بأمر الله ﴿ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾[٤]"[٥].

وقال المراغي رحمه الله في تعريفهم: "الملائكة عالم من العوالم الغيبية لا نعرف حقيقتهم، والقرآن الكريم يرشد إلى أنهم أصناف، لكل صنف عمل"[٦].

وقال: "والملائكة مخلوقات غيَّبها الله عنا، ولم يجعل لنا قدرة على رؤيتها، فعلينا أن نؤمن بها وإن لم نرها، ونصدق بما جاء في كتابه من أوصافها غير باحثين عن حقيقتها"[٧].

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير(٤٤٧/١)، والاشتقاق لابن دريد(٢٦)، ولسان العرب(٣٩٢/١٠)، مادة "ألك"، والنهاية في غريب الحديث والأثر(١٥٣/١)، ومجموع الفتاوى لابن تيمية(٥٢٧/١٧).

(٢) شرح العقيدة الواسطية لمحمد خليل هراس ص(٢٨).

(٣) سورة الأنبياء الآية (٢٠).

(٤) سورة التحريم الآية (٦).

(٥) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين(١٦٠/٣).

(٦) تفسير المراغي(٤١٠/٥) .

(٧) تفسير المراغي(٣١٢/١٠).

المبحث الأول: معنى الإيمان بالملائكة وما يتضمنه.

ويتضمن مطلبين:

المطلب الأول: الإيمان بالملائكة.

المطلب الثاني: ماذا يتضمن الإيمان بالملائكة.

المطلب الأول: الإيمان بالملائكة

ذكر المراغي رحمه الله بعد قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾(١).

فقال: "والإيمان بالملائكة أصل للإيمان بالوحي والنبوة واليوم الآخر، فمن أنكرها أنكر كل ذلك، لأن ملك الوحي هو الذي يفيض العلم بإذن الله على النبي بأمور الدين كما قال تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾(٢)، وقال: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾(٣)، وقال بعد قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾(٤): "أي كل منهم آمن بوجود الله ووحدانيته، وتمام حكمته في نظام خليقته، وبوجود الملائكة وسفارتهم بين الله والرسل، ينزلون بوحيه على قلوب أنبيائه، أما البحث عن ذواتهم وصفاتهم وأعمالهم فمما لم يأذن به الله"(٥).

وقال: "واعلم أن عالم الملائكة وعالم الجن لا يقوم عليهما دليل من العقل فهما بمعزل عن ذلك، وإنما دليلهما السمع وإخبار الأنبياء بذلك فقط، فعلينا أن نؤمن بما جاء به فحسب ولا نزيد على ذلك شيئا، ولا نتوسع في بحثه وتأويله وتفصيله، فإن ذلك من عالم الغيب الذي لم نؤت من علمه كثيرا ولا قليلا، فعلينا أن نؤمن بأن اتصالا قد تم بين النبي ﷺ وعالم الملائكة، وبه تلقى الوحي على أيديهم"(٦).

عرف المراغي رحمه الله الإيمان بالملائكة، وأزيد الأمر توضيحا فأقول:

الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان التي لا يصح إيمان العبد إلا بها، ويتضمن أربعة أمور:

١- الإيمان بوجودهم.

٢- الإيمان بما علمنا من أسمائهم.

---

(١) سورة البقرة الآية (١٧٧).

(٢) سورة القدر الآية (٤).

(٣) سورة الشعراء الآية (١٩٣-١٩٥).

(٤) سورة البقرة الآية (٢٨٥).

(٥) تفسير المراغي(١/٤٤٢).

(٦) تفسير المراغي(٩/١٦٦).

٣- الإيمان بما علمنا من صفاتهم.

٤- الإيمان بما علمنا من أعمالهم[١].

والأدلة على الإيمان بالملائكة من الكتاب والسنة كثيرة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾[٣]، ومن السنة حديث جبريل المشهور عندما سأل النبي ﷺ ما الإيمان فقال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله**» الحديث[٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فالمسلمون: سنيهم وبدعيُّهم متفقون على وجوب الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر"[٥].

وذكر ابن القيم رحمه الله في سياق كلامه على العلم فقال: "فطلب العلم فريضة على كل مسلم، وهل تمكن عبادة الله التي هي حقه على العباد كلهم إلا بالعلم، وهل ينال العلم إلا بطلبه، ثم إن العلم بالمفروض تعلُّمُه ضربان: ضربٌ منه فرض عين لا يسع مسلمًا جهلُه؛ وهو أنواع: النوع الأول: علم أصول الإيمان الخمسة؛ الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فإن من لم يؤمن بهذه الخمسة لم يدخل في باب الإيمان، ولا يستحق اسم المؤمن"[٦].

---

(١) انظر: مجموع فتاوى ورسائل العثيمين(١١٦/٥)، وكتاب طريق الإسلام لمحمد بن إبراهيم الحمد، دار ابن خزيمة، ط٢، ص(٥٩).

(٢) سورة البقرة الآية (٢٨٥).

(٣) سورة النساء الآية (١٣٦).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان وعلم الساعة (١٩/١)، الحديث رقم(٥٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر وعلامات الساعة (٣٨/١) الحديث رقم(٨).

(٥) مجموع الفتاوى(٣٥٧/٧).

(٦) مفتاح دار السعادة(١٥٦/١).

المطلب الثاني: الإيمان بالملائكة يتضمن أمورا؛ منها:

الأول: أعمال الملائكة

أ - من أعمال الملائكة: الوحي

قال المراغي: "إن الملائكة عالم من العوالم الغيبية لا نعرف حقيقتهم، والقرآن الكريم يرشد إلى أنهم أصناف، لكل صنف عمل"(١).

وقال رحمه الله: "جاء في صحيح الأحاديث «**أن النبي ﷺ كان يأتي غار حراء (حراء جبل بمكة) يتعبد فيه الليالي ذوات العدد، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى فجأه الوحي وهو في الغار؛ إذ جاءه الملك فقال له: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذه ثانية فغطه حتى بلغ منه الجهد، ثم أرسله فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال فأخذه ثالثة فغطه حتى بلغ منه الجهد فقال:** ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۞ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۞ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۞ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾(٢)، **قال الرواة: فرجع ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع فأخبر خديجة الخبر، ثم قال: قد خشيت على نفسي، فقالت له: كلَّا، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا، إنَّك لتصل الرحم، وتصدُقُ الحديث، وتحمِلُ الكلَّ، وتقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق، ثم انطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى (ابن عم خديجة) وكان امرَأً قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، وكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرا قد عمِيَ، فقالت خديجة: أي ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال ورقة: ابن أخي ما ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، ليتني فيها جذعا، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أَوَمُخْرِجِيَّ هم؟ فقال ورقة: نعم، لم يأت أحد قط**

---

(١) تفسير المراغي(٥/٤١٠).

(٢) سورة العلق الآية (١-٥).

بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا، ثم لم ينشب أن توفي»، رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم(١)"(٢).

ب – حفظ الاعمال

ذكر بعد قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ (٣) فقال: "ويرسل عليكم حفظة من الملائكة يتعاقبونكم ليلا ونهارا يحفظون أعمالكم ويحصونها، ولا يفرطون في حفظها وإحصائها، ولا يضيعون شيئا منها، وإرسال الحفظة عليهم مراقبهم لهم وإحصاء أعمالهم وكتابتها وحفظها في الصحف التي تنشر يوم الحساب، وهي المرادة بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ (٤)، وهؤلاء الحفظة الملائكة الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٥)، ونحن نؤمن بهذه الكتابة ولا نعرف صفتها ولا نتحكم فيها بآرائنا...

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة مرفوعا «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، يجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون**»(٦).

والحكمة في كتابة الأعمال وحفظها على العالمين أن المكلف إذا علم أن أعماله تحفظ عليه، وتعرض على رءوس الأشهاد، كان ذلك أزجر له عن الفواحش والمنكرات وأبعث له على

---

(١) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {ما ودعك ربك وما قلى} (١٧٣/٦)، الحديث رقم(٤٩٥٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١٣٩/١)، الحديث رقم(٢٥٢)، وأحمد في المسند(١١٣/٤٣) الحديث رقم(٢٥٩٥٩).

(٢) تفسير المراغي(٤٥٥/١٠).

(٣) سورة الأنعام الآية (٦١).

(٤) سورة التكوير الآية (١٠).

(٥) سورة الانفطار الآية (١٠-١٢).

(٦) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب {تعرج الملائكة والروح إليه}... (١٢٦/٩)، الحديث رقم(٧٤٢٩)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، والمحافظة عليهما (٤٣٩/١)، الحديث رقم(٦٣٢).

عمل الصالحات، فإن المرء إن لم يصل إلى مقام العلم الراسخ الذي يثمر الخشية لله والمعرفة الكاملة التي تثمر الحياء، ربما غلب عليه الغرور بالكرم الإلهي، والرجاء في المغفرة والرحمة فلا يكون لديه من الخشية والحياء، ما يزجره عن المعصية، كما يزجره توقع الفضيحة في موقف الحساب على أعين الخلائق وأسماعهم، كما قال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾(١)"(٢).

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾(٣) فقال: "أي إن الحفظة من الملائكة الذين وكلهم الله بإحصاء أعمال الناس وكتبها للحساب عليها في الآخرة يكتبون ما تمكرون به، وفي ذلك تنبيه إلى أن ما دبروا ليس بخاف عليه تعالى، وإلى أن انتقامه واقع بهم لا محالة، وعلينا أن نعتقد بأن الملائكة تكتب الأعمال كتابة غيبية لم يكلفنا الله تعالى بمعرفة صفتها، وإنما كلفنا أن نؤمن بأن له نظاما حكيما في إحصاء أعمالنا لأجل أن نراقبه فيها فنلتزم الحق والعدل والخير ونجتنب أضدادها"(٤).

وقال بعد قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ ﴾(٥): "أي للإنسان ملائكة يتعاقبون عليه: حرسٌ بالليل وحرسٌ بالنهار يحفظونه من المضار ويراقبون أحواله، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ أعماله من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحد من ورائه وآخر من قدامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار وأربعة آخرين بالليل"(٦).

---

(١) سورة الكهف الآية (٤٩).

(٢) تفسير المراغي(١٢٢/٣-١٢٣) .

(٣) سورة يونس الآية (٢١).

(٤) تفسير المراغي(٢٢٢/٤- ٢٢٣).

(٥) سورة الرعد الآية (١١).

(٦) تفسير المراغي(٦٣/٥-٦٤).

ج – قبض الأرواح

ذكر المراغي بعد قول الحق ﷻ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾(١) فقال: "الخطاب للرسول ﷺ ثم لكل من سمعه أو قرأه، أي: ولو تُبصِرُ إذ يكون الظالمون –سواء منهم من ذكروا في الآية أو غيرهم– في غمرات الموت وهي سكراته، وما يتقدمها من شدائد وآلام تحيط بهم كما تحيط غمرات الماء بالغرقى؛ لرأيت ما لا سبيل إلى وصفه، ولا قدرة للبيان على تجلِّي كنهه وحقيقته، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾(٢) لقبض أرواحهم الخبيثة بالعنف والضرب كما قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾(٣)، ثم حكى سبحانه أمر الملائكة لهم على سبيل التهكم والتوبيخ حين بسط أيديهم لقبض أرواحهم، ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ﴾(٤) أي أخرجوا أنفسكم مما هي فيه إن استطعتم، أو أخرجوها من أبدانكم"(٥).

هـ - تعذيب أهل النار

ذكر من أعمال الملائكة تعذيب العصاة في النار فذكر بعد قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(٦): أي موكل عليها ويلي أمرها وتعذيب أهلها تسعة عشر ملكا هم زبانيتها...

وقوله ﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾(٧): "أي غلاظ على أهل النار أشداء عليهم.

ثم بين عظيم طاعتهم لربهم فقال: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(١) أي لا يخالفون أمره، بل يؤدون ما يؤمرون به في وقته بلا تراخ، فلا يقدمونه عنه، ولا يؤخرونه، وقد

---

(١) سورة الأنعام الآية (٩٣).

(٢) سورة الأنعام الآية (٩٣).

(٣) سورة محمد الآية (٢٧).

(٤) سورة الأنعام الآية (٩٣).

(٥) تفسير المراغي(٣/١٦٠).

(٦) سورة التحريم الآية (٦).

(٧) سورة التحريم الآية (٦).

أفادت الجملة الأولى نفي العناد والاستكبار عنهم فهي كقوله ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾[٢]: وأفادت الجملة الثانية نفي الكسل عنهم فهي كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾[٣] وخلاصة ذلك: إنهم يمتثلون الأمر ولا يمتنعون عن تنفيذه، بل يؤدونه من غير تثاقل ولا توان"[٤].

الثاني: خلق الملائكة

ذكر المراغي في خلق الملائكة الحديث الذي رواه مسلم فقال: "وقد ورد في الصحيح: «**خلقت الملائكة من نور، وخلقت الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**»[٥].

ثم ذكر الخيرية بين المادة التي خلق منها إبليس والملائكة فقال: "أن الملائكة خلقوا من النور وهو قد خلق من النار، والنور خير من النار"[٦].

الثالث: قدرة الملائكة على التشكل

قال المراغي رحمه الله: "وقد ثبت أن جبريل عليه السلام جاء في صورة دحية الكلبي مرارا عدة[٧]، فقد صح «**أن أعرابيا جاء وعليه وعثاء السفر، فسأله رسول الله ﷺ عن الإسلام والإيمان، فأجابه عليه السلام بما أجابه ثم انصرف، ولم يعرفه أحد من الصحابة رضوان الله عليهم فقال عليه السلام: هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم**»[٨]"[١].

---

(١) سورة التحريم الآية (٦).

(٢) سورة الأنبياء الآية (١٩).

(٣) سورة الأنبياء الآية (١٩).

(٤) تفسير المراغي(١٠/١٣٧).

(٥) صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة (٤/٢٢٩٤)، الحديث رقم(٢٩٩٦).

(٦) تفسير المراغي(٥/١٥٩- ١٦٠).

(٧) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل (٦/١٨٢)، الحديث رقم(٤٩٨٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات(١/١٥٣) الحديث رقم(٢٧١) ولفظ مسلم: "ورأيت جبريل عليه السلام فإذا أقرب من رأيت به شبها دحية".

(٨) سبق تخريجه ص(٤٦٢) وهو جزء من حديث جبريل المشهور.

وقال: "وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود «**أن النبي ﷺ رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح**»(٢) وفي هذا رمز إلى قوة استعداده الروحي وقربه من الملأ الأعلى، وسرعة تنفيذه ما يؤمر به"(٣).

الرابع: لمة الملك

قال المراغي رحمه الله: "ورد في الحديث: «**إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإبعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإبعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، وليحمد الله على ذلك، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ** ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ ﴾(٤)"(٥).

الملائكة والشياطين أرواح لها اتصال بأرواح الناس على وجه لا نعرف حقيقته، بل نؤمن به كما ورد، ولا نزيد عليه شيئا، وكلنا نشعر بأنا إذا هممنا بأمر فيه وجه للحق أو الخير، ووجه للباطل أو الشر؛ بأن في نفوسنا تنازعا وكأن هاجسا يقول افعل، وآخر يقول: لا تفعل، حتى ينتصر أحد الطرفين على الآخر، فهذا الذي أودع في النفوس ونسميه قوة وفكرا؛ لا يبعد أن نسميه ملكا إن كان يميل إلى الخير، وشيطانا إن كان يميل إلى الشر"(٦).

---

(١) تفسير المراغي(٥/٣٥٧- ٣٥٨).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى (١/١٥٧) الحديث رقم(٢٨٠).

(٣) تفسير المراغي(٨/٨٦).

(٤) سورة البقرة الآية (٢٦٨).

(٥) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة (٥/٢١٩)، الحديث رقم(٢٩٨٨)، والنسائي في الكبرى، كتاب التفسير، باب قوله تعالى:{الشيطان يعدكم الفقر} (١٠/٣٧)، الحديث رقم(١٠٩٨٥)، وابن حبان في صحيحه(٣/٢٧٨) الحديث رقم(٩٩٧)، وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان(٢/٣١٤)، وقد كان ضعفه في ضعيف الترمذي رقم(٢٩٨٨)، وضعيف الجامع الحديث رقم(١٩٦٣)، و ثم تراجع عن تضعيفه، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى(٤/٣١ وهذا الكلام الذي قاله ابن مسعود هو محفوظ عنه وربما رفعه بعضهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم. وهو كلام جامع لأصول ما يكون من العبد من علم وعمل من شعور وإرادة. وذلك: أن العبد له قوة الشعور والإحساس والإدراك وقوة الإرادة والحركة وإحداهما أصل الثانية مستلزمة لها. والثانية مستلزمة للأولى ومكملة لها. فهو بالأولى يصدق بالحق ويكذب بالباطل وبالثانية يحب النافع الملائم له؛ ويبغض الضار المنافي له"، وقال الشيخ ابن باز رحمه الله: "إذا صح عن ابن مسعود فهو من قبيل المرفوع لأن هذا لا يقال بالرأي" الدرر البازية على زاد المعاد ص(٧٦).

(٦) تفسير المراغي(٥/٤١٠) .

ذكر المراغي رحمه الله بعضا من أعمال الملائكة مع الإنسان، وأزيد الأمر بما ذكره ابن كثير رحمه الله معلقا على قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾[(١)]: " أي: للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حرس بالليل وحرس بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فاثنان عن اليمين وعن الشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحدا من ورائه وآخر من قدامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل بدلا حافظان وكاتبان"[(٢)].

وأختم موضوع ما تضمنه الإيمان بالملائكة بكلام جامع عن الملائكة من درر الشيخ محمد ابن عثيمين رحمه الله؛ حيث سئل عن الملائكة.

فكان جواب الشيخ: "نعم الملائكة عالم غيبي خلقهم الله ﷻ من نور، وكلفهم بما شاء من العبادات والأوامر، واصطفى منهم رسلًا كما قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ ﴾[(٣)] فمنهم الرسل الموكلون بالوحي كجبريل عليه الصلاة والسلام، ومنهم الرسل الموكلون بقبض أراوح بني آدم كما قال الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾[(٤)]، ومنهم الكتبة الذين يكتبون أعمال بني آدم، ومنهم الحفظة الذين يحفظونهم من أمر الله[(٥)]، ومنهم السياحون الذين يسيحون في الأرض يتلمسون حلق الذكر[(٦)]، إلى غير ذلك مما جاء في الكتاب والسنة من أعمالهم ووظائفهم، وأما أوصافهم فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه رأى جبريل وله ستمائة جناح قد سد الأفق[(٧)]، ولكن مع هذا له قدرة بإذن الله عز وجل أن يكون على صورة إنسان، كما جاء جبريل إلى النبي عليه الصلاة والسلام على

---

(١) سورة الرعد الآية (١١).

(٢) تفسير ابن كثير(٤/٤٣٧).

(٣) سورة الحج الآية (٧٥).

(٤) سورة الأنعام الآية (٦١).

(٥) سبقت الأدلة على ذلك ضمن كلام المراغي رحمه الله ص(٤٦٢).

(٦) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عز وجل(٨/٨٦)، الحديث رقم(٦٤٠٨)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل مجالس الذكر (٤/٢٠٦٩)، الحديث رقم(٢٦٨٩).

(٧) سبق تخريجه ص(٤٦٨).

صورة رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه أحد من الصحابة، فجلس إلى النبي ﷺ وأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وسأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان وأشراط الساعة وعن الساعة وأشراطها[(١)]، وكما جاء إليه بصورة دحية الكلبي[(٢)]، وكما أخبرنا النبي عليه الصلاة والسلام في قصة الثلاثة من بني إسرائيل الأبرص والأقرع والأعمى، وأن الملك جاء إلى كل واحد منهم، وسأله عن أحب ما يكون إليه، ثم بعد أن أنعم الله عليهم بإزالة العيوب وبالمال عاد إليهم الملك بصورة كل واحد منهم، قبل أن يزول عنه العيب ويحصل له الغنى، والقصة معروفة مشهورة[(٣)]، ثم إن الملائكة عليهم الصلاة والسلام لهم قدرة عظيمة، وسرعة عظيمة في الطيران، والوصول إلى الغايات، ألم ترى إلى قول سليمان عليه الصلاة والسلام ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴾[(٤)] أي عرش بلقيس وهو السرير الذي تجلس عليه، وهو عرش عظيم: ﴿ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ٣٩ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ ﴾[(٥)].

قال أهل العلم إن هذا الرجل دعا الله عز وجل فحملت الملائكة العرش حتى وضعته عند سليمان عليه الصلاة والسلام.

ثم ألم ترى إلى الإنسان يموت؟! فتقبض الملائكة روحه وتصعد بها إلى الله عز وجل إذا كان مؤمنا إلى ما فوق السماوات، وتعاد إليه روحه إذا دفن في قبره[(٦)]، وكل هذا يدل على أن الملائكة عليهم الصلاة والسلام لهم قوة عظيمة وسرعة عظيمة"[(١)].

---

(١) سبق تخريجه ص(٤٦٢).

(٢) سبق تخريجه ص(٤٦٧).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (١٧١/٤)، الحديث رقم(٣٤٦٤)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق (٢٢٧٥/٤)، الحديث رقم(٢٩٦٤).

(٤) سورة النمل الآية (٣٨).

(٥) سورة النمل الآية (٣٩-٤٠).

(٦) أخرجه أحمد في المسند(٤٩٩/٣٠)، الحديث رقم(١٨٥٤٣)، وابن أبي شيبة في المصنف(٥٤/٣) الحديث رقم(١٢٠٥٩)، وابن منده في الإيمان(٩٦٢/٢) الحديث رقم(١٠٦٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد(٥٠/٣): "هو في الصحيح وغيره باختصار، رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح"، وصححه العراقي في تخريج أحاديث

الإحياء(٦/٢٦٣٣)، والألباني في صحيح الترغيب والترهيب(٣/٢١٩).

(١) فتاوى نور على الدرب(٣/٢١٨-٢٢٠).

المبحث الثاني: المفاضلة بين الملائكة وعصمتهم

ويتضمن ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المفاضلة بين الملائكة وغيرهم.

المطلب الثاني: تفاضل الملائكة.

المطلب الثالث: عصمة الملائكة.

المطلب الأول: المفاضلة بين الملائكة وغيرهم

المراغي رحمه الله في مسألة المفاضلة بين الملائكة وعصمتهم؛ ذكر كلامًا مجملًا ولم يفصِّل، فأذكر كلامه ثم أفصل في الموضوع.

ذكر بعد قوله تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾[(١)] فقال: "أي لن يأنف المسيح ولن يترفع عن أن يكون عبد الله؛ لعلمه بعظمة الله وما يجب له من العبودية والشكر، ولا الملائكة المقربون يستنكف أحد منهم أن يكون عبدا له، ومن هذه الآية يفهم أن الملائكة أعظم من المسيح خلقًا وأفعالًا، ومنهم روح القدس الذي بنفخة منه خلق المسيح، ومن ثم استدل بها كثير من العلماء على تفضيل الملائكة المقربين على الأنبياء، إذ السياق في رد غلو النصارى في المسيح باتخاذه إلها، ورفعه عن مقام العبودية، فالرد عليهم يقتضي الترقي من الرفيع إلى الأرفع؛ كما تقول: إن فلانا التقى لا يستنكف من تقبيل يد الوزير ولا الأمير، فإذا بدأت بذكر الأمير لم يعد لذكر الوزير فائدة، بل يكون لغوا لأنه يندمج في الأول بالطريق الأولى، وقال آخرون: إن الآية لا تدل على ذلك؛ لأنها في معرض تفضيل هؤلاء الملائكة في عظم الخلق والقدرة على الأعمال العظيمة، وهو المناسب للردِّ على من استكبروا خلق المسيح من غير أبٍ، وصدور بعض الآيات عنه فجعلوه إلها، مع أن الملائكة خلقوا من غير أبٍ ولا أمٍّ، ويعملون ما هو أعظم من آيات المسيح؛ فهم بهذا أفضل منه وأعظم، وأيا كان فالتفاضل في هذا من الرجم بالغيب، إذ لا يعلم إلا بنص، مع أنه ليس له فائدة في إيمان ولا عمل"[(٢)].

وذكر في سياق توضيح قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾[(٣)] فقال: "وفي الآية إيماء إلى تفضيل الملائكة على آدم، وخصَّصه بعضهم بملائكة السماء"[(٤)].

---

(١) سورة النساء الآية (١٧٢).

(٢) تفسير المراغي(٢/٣٦٨).

(٣) سورة الأعراف الآية (٢٠).

(٤) تفسير المراغي(٣/٢٧٦).

قال المراغي رحمه الله بعد توضيح هذه الآيات: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾[1]: "وفي هذه الآيات دلالة على شرف الإنسان على غيره من المخلوقات، وعلى فضل العلم على العبادة، فإن الملائكة أكثر عبادة من آدم، ولم يكونوا أهلا لاستحقاق الخلافة، وعلى أن شرط الخلافة العلم بل هو العمدة فيها، وعلى أن آدم أفضل من هؤلاء الملائكة لأنه أعلم منهم، والأفضل هو الأعلم بدليل قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ ﴾[2]"[3].

المراغي رحمه الله ساق بعض الأقوال في المفاضلة بين الملائكة وغيرهم ولم يرجح بعضها على بعض، وأزيد الأمر وضوحا بأقوال أهل العلم:

قال شيخ الإسلام: "فصل في المسألة المشهورة بين الناس في التفضيل بين الملائكة والناس.

قال: الكلام إما أن يكون في التفضيل بين الجنس: الملك والبشر؛ أو بين صالحي الملك والبشر؛ أما الأول وهو أن يقال: أيما أفضل: الملائكة أو البشر؟ فهذه كلمة تحتمل أربعة أنواع:

النوع الأول: أن يقال: هل كل واحد من آحاد الناس أفضل من كل واحد من آحاد الملائكة؟ فهذا لا يقوله عاقل فإن في الناس: الكفار والفجار والجاهلين والمستكبرين والمؤمنين، وفيهم من هو مثل البهائم والأنعام السائمة، بل الأنعام أحسن حالا من هؤلاء كما نطق بذلك القرآن في مواضع، مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[5]...

---

(١) سورة البقرة الآية (٣١-٣٣).

(٢) سورة الزمر الآية (٩).

(٣) تفسير المراغي(٧٧/١).

(٤) سورة الأنفال الآية (٢٢).

(٥) سورة الأنفال الآية (٥٥).

النوع الثاني: أنه يقال: مجموع الناس أفضل من مجموع الملائكة من غير توزيع الأفراد، وهذا على القول بتفضيل صالحي البشر على الملائكة، فيه نظر؛ لا علم لي بحقيقته، فإنا نفضل مجموع القرن الثاني على القرن الثالث مع علمنا أن كثيرا من أهل القرن الثالث أفضل من كثير من أهل القرن الثاني.

النوع الثالث: أنا إذا قابلنا الفاضل بالفاضل، والذي يلي الفاضل بمن يليه من الجنس الآخر فأي القبيلين أفضل؟ فهذا مع القول بتفضيل صالحي البشر يقال: لا شك أن المفضولين من الملائكة أفضل من كثير من البشر، وفاضل البشر أفضل من فاضليهم، لكن التفاوت الذي بين "فاضل الطائفتين" أكثر والتفاوت بين "مفضولهم" هذا غير معلوم، والله أعلم بخلقه.

النوع الرابع: أن يقال: حقيقة الملَك والطبيعة الملَكية أفضل أم حقيقة البشر والطبيعة البشرية؟ وهذا كما أنا نعلم أن حقيقة الحي إذ هو حي أفضل من الميت، وحقيقة القوة والعلم من حيث هي كذلك أفضل من حقيقة الضعف والجهل، وحقيقة الذكر أفضل من حقيقة الأنثى، وحقيقة الفرس أفضل من حقيقة الحمار، وكان في نوع المفضول ما هو خير من كثير من أعيان النوع الفاضل: كالحمار والفأرة والفرس الزمن، والمرأة الصالحة مع الرجل الفاجر، والقوي الفاجر مع الضعيف الزمن، والوجه في انحصار القسمة في هذه الأنواع؛ فإن كثيرا من الكلمات المهمة تقع الفتيا فيها مختلفة والرأي مشتبها، لفقد التمييز والتفضيل؛ أن كل شيء إما أن نقيده من جهة الخصوص أو العموم أو الإطلاق؛ فإذا قلت: بشر وملك، إما أن تريد هذا البشر الواحد فيكون خاصا، أو جميع جنس البشر فيكون عاما، أو تريد البشر مطلقا مجردا عن قيد العموم والخصوص، وضبطه القليل والكثير، والنوع الأول في التفضيل عموما وخصوصا، والثاني عموما، والثالث خصوصا، والرابع في الحقيقة المطلقة المجردة، فنقول حينئذ: المسألة على هذا الوجه لست أعلم فيها مقالة سابقة مفسرة، وربما ناظر بعض الناس على تفضيل الملك، وبعضهم على تفضيل البشر، وربما اشتبهت هذه المسألة بمسألة التفضيل بين الصالح وغيره، لكن الذي سنح لي -والله أعلم بالصواب- أن حقيقة الملك أكمل وأرفع، وحقيقة الإنسان أسهل وأجمع، وتفسير ذلك: أنا إذا اعتبرنا الحقيقتين وصفاتهما النفسية والتبعية، اللازمة الغالبة: الحياة والعلم والقدرة: في اللَّذات والشهوات؛ وجدنا أولا خلق الملك أعظم صورة، ومحله أرفع، وحياته أشد، وعلمه أكثر، وقواه أشد، وطهارته ونزاهته أتم، ونيل مطالبه أيسر وأتم، وهو عن المنافي والمضاد أبعد، لكن تجد هذه الصفات للإنسان -بحسب حقيقته- منها أوفر حظا

ونصيبا من الحياة والخلق والعلم والقدرة والطهارة وغير ذلك، وله أشياء ليست للملك من إدراكه دقيق الأشياء: حسًّا وعقلًا، وتمتعه بما يدركه ببدنه وقلبه، وهو يأكل ويشرب وينكح، ويتمنى ويتغذى ويتفكر، إلى غير ذلك من الأحوال التي لا يشاركه فيها الملك، لكن حظ الملك من القدر المشترك الذي بينهما أكثر، وما اشتركا فيه من الأمور أفضل بكثير مما اختص به الإنسان... وإن أردت الإطلاق: فالحقيقة الملكية بلوازمها أفضل من الحقيقة الإنسانية بلوازمها، هذا لا شك فيه، فإنما يلزم حقيقة الإنسان من حياة وحس وعلم وعمل ونيل لذة وإدراك شهوة ليست بشيء، وإنما تعددت أصنافه إلى ما يشبه حقيقة الملك؛ كحال من علم من كل شيء طرفًا ليس بالكثير إلى حال من أتقن العلم بالله وبأسمائه وآياته، ولا يشبه حال من معه درهم إلى حال من معه درة، ولا يشبه حال من يسوس الناس كلهم إلى حال من يسوس إنسانا وفرسا"(١).

وقال أيضا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "صالحي البشر أفضل باعتبار كمال النهاية، والملائكة أفضل باعتبار البداية؛ فإن الملائكة الآن في الرفيق الأعلى منزهون عما يلابسه بنو آدم، مستغرقون في عبادة الرب، ولا ريب أن هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر، وأما يوم القيامة بعد دخول الجنة، فيصير صالحو البشر أكمل من حال الملائكة"(٢).

قال ابن القيم رحمه الله معلقا على ذلك: "وبهذا التفصيل يتبين سر التفضيل، وتتفق أدلة الفريقين، ويصالح كل منهم على حقه.

فعلى المتكلم في هذا الباب أن يعرف أسباب الفضل أولا.

ثم درجاتها ونسبة بعضها إلى بعض والموازنة بينها ثانيا.

ثم نسبتها إلى من قامت به. ثالثا كثرة وقوة.

ثم اعتبار تفاوتها بتفاوت محلها رابعا.

فرب صفة هي كمال لشخص، وليست كمالًا لغيره، بل كمال غيره بسواها فكمال خالد بن الوليد بشجاعته وحروبه، وكمال ابن عباس بفقهه وعلمه، وكمال أبي ذر بزهده وتجرده عن الدنيا.

---

(١) مجموع الفتاوى مختصرا(٤/٣٥٠-٣٥٥).

(٢) مجموع الفتاوى(٤/٣٤٣).

فهـذه أربـع مقامـات يضـطر إليهـا المـتكلم في درجـات التفضـيل، وتفضـيل الأنـواع علـى الأنواع، أسهل من تفضيل الأشخاص على الأشخاص، وأبعد من الهوى والغرض، وههنا نكتة خفية لا ينتبه لها إلا من بصره الله، وهي أن كثيرا ممن يتكلم في التفضيل يستشعر نسيته وتعلقه بمن يفضله، ولو على بعد، ثم يأخذ في تقريظه وتفضيله، وتكون تلك النسبة والتعلق مهيجة له على التفضيل والمبالغة فيه، واستقصاء محاسن المفضل، والإغضاء عما سواها، ويكون نظره في المفضل عليه بالعكس.

ومـن تأمـل كـلام أكثـر النـاس في هـذا البـاب رأى غالبـه غـير سـالم مـن هـذا، وهـذا منـافٍ لطريقـة العلـم والعـدل الـتي لا يقبـل الله سـواها، ولا يرضـى غيرهـا، ومـن هـذا تفضـيل كثـير مـن أصـحاب المـذاهب والطرائـق، واتبـاع الشـيوخ كـل مـنهم لمذهبـه وطريقتـه أو شـيخه، وكـذلك الأنساب والقبائل والمدائن والحرف والصناعات، فإن كان الرجل ممن لا يشك في علمه وورعه خيف عليه من جهة أخرى، وهو أنه يشهد حظه نفعه المتعلق بتلك الجهة، ويغيب عن نفع غيره بسواها؛ لأن نفعه مشاهد له أقرب إليه من علمه بنفع غيره، فيفضل ما كان نفعه وحظه من جهته باعتبار شهوده ذلك وغيبته عن سواه، فهذه نكتٌ جامعةٌ مختصرةٌ إذا تأملها المنصف عظم انتفاعه بها، واستقام له نظره ومناظرته والله الموفق"(١).

وسـئل فضـيلة الشـيخ محمـد عثيمـين رحمـه الله: "أيهمـا أفضـل الملائكـة أم الصـالحون مـن البشر؟

فأجاب بقوله: "هـذه المسألة، وهي المفاضلة بين الملائكة وبين الصالحين من البشر محلٌّ خلاف بين أهل العلم، وكل منهم أدلى بدلوه فيما يحتج به من النصوص، ولكن القول الراجح أن يقال: إن الصالحين من البشر أفضل من الملائكة باعتبار النهاية، فإن الله ﷻ يعد لهم من الثواب ما لا يحصل مثله للملائكة فيما نعلم، بل إن الملائكة في مقرهم أي في مقر الصالحين وهـو الجنـة يـدخلون علـيهم مـن كـل بـاب ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾(٢)، أمـا باعتبـار البداية فإن الملائكة أفضل، لأنهم خلقوا من نور، وجبلوا على طاعة الله عز وجل والقوة عليها؛ كمـا قـال الله تعـالى في ملائكـة النـار: ﴿ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا

(١) بدائع الفوائد(٤/٢٤٤).

(٢) سورة الرعد الآية (٢٤).

﴿يُؤْمَرُونَ ﴾[1]، وقال عز وجل: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾[2] هذا هو القول الفصل في هذه المسألة.

وبعد فإن الخوض فيها وطلب المفاضلة بين صالحي البشر والملائكة من فضول العلم الذي لا يضطر الإنسان إلى فهمه والعلم به، والله المستعان"[3].

(١) سورة التحريم الآية (٦).

(٢) سورة الأنبياء الآية (١٩-٢٠).

(٣) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين(١/٢٨١-٢٨٢).

المطلب الثاني: تفاضل الملائكة

ذكر المراغي رحمه الله بعد قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[(١)]: "أي جاعل الملائكة وسائط بينه وبين أنبيائه يبلغون إليهم رسالاته، ذوي أجنحة إما اثنين اثنين، وإما ثلاثة ثلاثة، وإما أربعة أربعة.

والأجنحة في العالم المادي تساعد على الطيران، وكثرتها تومئ إلى السرعة، وهي في عالم الأرواح ترشد إلى القدرة على السرعة في تنفيذ أوامر الله وتبليغ رسالات ربهم إلى أنبيائه، وفي هذا إيماء إلى أن الملائكة تتفاوت أقدارهم وقواهم عند الله تعالى بحسب استعدادهم الروحي.

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود: «**أن النبي ﷺ رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح**»[(٢)] وفي هذا رمز إلى قوة استعداده الروحي وقربه من الملأ الأعلى، وسرعة تنفيذه ما يؤمر به.

﴿ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ ﴾[(٣)] أي يزيد في خلق الأجنحة ما يشاء، كما يزيد في أرجل الحيوان ما يشاء، حتى لقد تبلغ فوق العشرين أحيانا، وهكذا يزيد في تفاوت العقول والنفوس والقوى المادية والمعنوية كما قيل:

و الناسُ ألفٌ منهمُ كواحدٍ   وواحدٌ كالألفِ إن أمرٌ عنَّا[(٤)]

ثم ذكر ما هو كالدليل لما سبق بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[(٥)] فيزيد كل ما هو أهل للزيادة وما هو مستعد لها، حسية كانت أو معنوية، فلا يمتنع عليه فعل شيء أراده، لما له من القدرة والسلطان على كل شيء"[(٦)].

---

(١) سورة فاطر الآية (١).

(٢) سبق تخريجه ص(٤٦٨).

(٣) سورة فاطر الآية (١).

(٤) من قول أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، انظر: الأمالي للمرزوقي ص(٥٨).

(٥) سورة فاطر الآية (١).

(٦) تفسير المراغي(٨/ ٨٦).

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾[(١)] : "الصافات: هم جماعة الملائكة يقفون صفوفا لكل واحد منهم مرتبة معينة في الشرف والفضيلة...

ثم قال: "وإجمال ذلك أنه أقسم بملائكته الذين كملت أرواحهم وتجردوا لعبادته، يسبحونه الليل والنهار لا يفترون، ويحضون الناس على فعل الخير، ويدفعون عنهم وسوسة الشيطان، ويتلون آياته على أنبيائه حين نزولهم بالوحي، إن ربكم لواحد وهو رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق والمغارب"[(٢)].

وقال بعد قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ﴾[(٣)]: "أي وإن لكل منا مرتبة لا يتجاوزها في العبادة، والانتهاء إلى أمر الله تعالى خضوعا لعظمته، وخشوعا لهيبته، وتواضعا لجلاله كما روي في الخبر «فمنهم راكع لا يقيم صلبه، وساجد لا يرفع رأسه»[(٤)].

﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾[(٥)] أي وإنا لنقف صفوفا في أداء الطاعات، ومنازل الكرامات، لكل منا منزلة لا يعدوها، ومرتبة لا يتخطاها، وفي صحيح مسلم عن جابر بن سمرة قال: «**خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في المسجد فقال: ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها، فقلنا: يا رسول الله كيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: يتمون الصفوف الأول ويتراصون في الصف**»[(٦)].

وكان عمر يقول إذا قام للصلاة: أقيموا صفوفكم واستووا، إنما يريد الله بكم هدى الملائكة عند ربها ويقرأ: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾[(٧)] تأخر يا فلان، تقدم يا فلان، ثم يتقدم فيكبر[(٨)].

---

(١) سورة الصافات الآية (١).

(٢) تفسير المراغي(٨/١٥٩).

(٣) سورة الصافات الآية (١٦٤).

(٤) تفسير أبي السعود(٧/٢١٠) غير معزو لأحد، وأخرج ابن جرير(٢١/١٢٧) أثر ابن مسعود رضي الله عنه: "إن من السموات لسماء ما فيها موضع شبر إلا وعليه جبهة ملك ساجد أو قائم".

(٥) سورة الصافات الآية (١٦٥).

(٦) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب الأمر بالسكون في الصلاة،.. (١/٣٢٢) الحديث رقم(٤٣٠).

(٧) سورة الصافات الآية (١٦٥).

(٨) أخرجه الطبري في تفسيره(٢١/١٢٨)، وابن أبي حاتم في تفسيره(١٢/١٢٣).

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾[(١)] أي وإنا لننزه الله تعالى عما لا يليق به، فنحن عبيد له، فقراء إليه، خاضعون لأوامره"[(٢)].

المراغي رحمه الله نص على التفاضل بين الملائكة في كلام مجمل، ولم يفصل في ذلك، وأوضح المسألة فأقول:

روى مسلم رحمه الله في صحيحه من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «**كان نبي الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل بقوله: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»[(٣)].

قال ابن القيم رحمه الله معلقا على هذا الحديث: "فذكر هؤلاء الثلاثة من الملائكة لكمال اختصاصهم واصطفائهم وقربهم من الله، وكم من ملك غيرهم في السموات فلم يسم إلا هؤلاء الثلاثة، فجبريل صاحب الوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، وميكائيل صاحب القطر الذي به حياة الأرض والحيوان والنبات، وإسرافيل صاحب الصور الذي إذا نفخ فيه أحيت نفخته بإذن الله الأموات وأخرجتهم من قبورهم"[(٤)].

وقال ابن كثير رحمه الله عند ذكره للملائكة: "ثم الملائكة عليهم السلام بالنسبة إلى ما هيأهم الله له أقسام، فمنهم حملة العرش... ومنهم الكروبيون الذين هم حول العرش وهم أشرف الملائكة، مع حملة العرش وهم الملائكة المقربون، كما قال تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾[(٥)] ومنهم جبريل وميكائيل عليهما السلام"[(٦)].

---

(١) سورة الصافات الآية (١٦٦).

(٢) تفسير المراغي(١٩٦/٨- ١٩٧).

(٣) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه(٥٣٤/١) الحديث رقم(٧٧٠).

(٤) زاد المعاد(٤٣/١).

(٥) سورة النساء الآية (١٧٢).

(٦) البداية والنهاية(٤٩/١).

المطلب الثالث: عصمة الملائكة

ذكر رحمه الله في سياق توضيح قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾[(١)].

فقال: "ويرى كثير من العلماء أن القصة بيان لغرائز البشر والملائكة والشيطان، إذ جعل الملائكة وهم المدبرون لأمور الأرض بإذن رهم مسخرون لآدم وذريته، وجعل هذا النوع مستعدا للانتفاع بالأرض كلها لعلمه بسنن الله فيها وعمله بهذا السنن، فانتفع بمائها وهوائها ومعادنها ونباتها وحيوانها وكهربائها ونورها، وبذا أظهر حكمة الله في خلقها، واصطفى بعض أفراده وخصهم بوحيه ورسالته، وجعلهم مبشرين ومنذرين، وجعل الشيطان عاصيًا متمرِّدًا على الإنسان وعدوًّا له، وجعل النفوس البشرية وسطا بين النفوس الملكية المفطورة على طاعة الله وإقامة سننه في صلاح الخلق، وبين أرواح الجن الذين يغلب على شرارهم–الشياطي– التمرد والعصيان"[(٢)].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوُّۢۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾[(٣)] فقال: "أي إن الذي منعه من السجود أنه كان جِنيًّا واحِدًا بين أظهر الألوف من الملائكة، مغمورا بينهم، متصفا بصفاتهم، بدليل أنه قال: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾[(٤)]، ولأنه تعالى أثبت له في هذه الآية ذريةً ونسلًا، والملائكة لا ينسلون، ولأن الملائكة لا يستكبرون وهو قد استكبر.

ويرى قوم أنه كان من الملائكة بدليل أن خطاب السجود كان معهم، ولأن وصف الملائكة بأنهم لا يعصون الله ما أمرهم، دليلٌ على أنه يتصور منهم العصيان، ولولا ذلك ما

---

(١) سورة الحجر الآية (٢٨-٣١).

(٢) تفسير المراغي(١٥٩/٥).

(٣) سورة الكهف الآية (٥٠).

(٤) سورة ص الآية (٧٦).

مدحوا به، لكن طاعتهم طبع، وعصيانهم تكلف، وطاعة البشر تكلف، ومتابعة الهوى منهم طبع، ولأنه تعالى ذكر من هاروت وماروت ما ذكر، وهما ملكان"[١].

وذكر بعد توضيح قوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾[٢] فقال: أي وقد أودعت هذه التذكرة في الكتب الإلهية ذات الشرف والرفعة، المطهرة من النقائص ولا تشوبها شوائب الضلالات، تنزل بوساطة الملائكة على الأنبياء، وهم يبلغونها للناس، وكلٌّ من الملَك والنبيّ سفير، وكل منهما رسول، والملائكة كرام على الله كما قال: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾[٣] وأبرار أطهار لا يقارفون ذنبًا، ولا يجترحون إثمًا، كما قال سبحانه: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[٤]"[٥].

المراغي رحمه الله في مسألة عصمة الملائكة ذكر أنهم مفطورين على الطاعة، وذكر قول من قال: يتصور منهم العصيان لكن طاعتهم طبع وعصيانهم تكلف، وذكر أنهم لا يقارفون ذنبا، ولا يجترحون إثما، وهذا كلام مجمل، فما موقف أهل السنة والجماعة من عصمة الملائكة.

قال القاضي عياض في كتاب الشفا: "فصل في القول في عصمة الملائكة: أجمع المسلمون على أن الملائكة مؤمنون فضلاء، واتفق أئمة المسلمين أن حكم المرسلين منهم حكم النبيين؛ سواء في العصمة مما ذكرنا عصمتهم منه، وأنهم في حقوق الأنبياء والتبليغ إليهم كالأنبياء مع الأمم، واختلفوا في غير المرسلين منهم، فذهبت طائفة إلى عصمة جميعهم عن المعاصي، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[٦]، وبقوله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾[٧]، وبقوله: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[٨]، وبقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ

---

(١) تفسير المراغي(٥/٤١١).

(٢) سورة عبس الآية (١٣-١٦).

(٣) سورة الأنبياء الآية (٢٦).

(٤) سورة التحريم الآية (٦).

(٥) تفسير المراغي(١٠/٣٣١).

(٦) سورة التحريم الآية (٦).

(٧) سورة الصافات الآية (١٦٤-١٦٦).

(٨) سورة الأنبياء الآية (١٩-٢٠).

﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾[(١)]، وبقوله: ﴿كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾[(٢)]، وبقوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[(٣)] ونحوه من السمعيات، وذهبت طائفة إلى أن هذا خصوص للمرسلين منهم والمقربين،... والصواب عصمة جميعهم، وتنزيه نصابهم الرفيع عن جميع ما يحط من رتبتهم ومنزلتهم عن جليل مقدارهم"[(٤)].

فعلمنا من الأدلة وكلام أهل العلم أن الملائكة مجبولون على الطاعة وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم كما أخبر الله بذلك عنهم، وأنهم خلقوا من نور كما أخبر بذلك الرسول ﷺ؛ قال الشيخ محمد ابن عثيمين رحمه الله عن الملائكة: "خلقوا من نور، وجبلوا على طاعة الله عز وجل، والقوة عليها؛ كما قال الله تعالى في ملائكة النار: ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[(٥)]، وقال عز وجل: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[(٦)]"[(٧)].

وسئل أيضا رحمه الله فقال السائل: هل إبليس من الملائكة؟

فأجاب بقوله: "إبليس ليس من الملائكة؛ لأن إبليس خلق من نار والملائكة خلقت من نور، ولأن طبيعة إبليس غير طبيعة الملائكة، فالملائكة وصفهم الله تعالى بأنهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[(٨)]، ووصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[(٩)]، أما الشيطان فإنه على العكس من ذلك فإنه كان مستكبرا كما قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[(١٠)]، ولكن لما وجه الخطاب إلى الملائكة بالسجود لآدم، وكان إبليس من بينهم أي معهم، مشاركا لهم في العبادة،

---

(١) سورة الأعراف الآية (٢٠٦).

(٢) سورة عبس الآية (١٦).

(٣) سورة الواقعة الآية (٧٩).

(٤) الشفا بتعريف حقوق المصطفى(٢/٢٧٤).

(٥) سورة التحريم الآية (٦).

(٦) سورة الأنبياء الآية (١٩-٢٠).

(٧) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين(١/٢٨١).

(٨) سورة التحريم الآية (٦).

(٩) سورة الأنبياء الآية (١٩-٢٠).

(١٠) سورة البقرة الآية (٣٤).

وإن كان قلبه والعياذ بالله منطويا على الكفر والاستكبار، صار الخطاب متوجها إلى الجميع، فلهذا صح استثناؤه منهم فقال تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾[(١)]، وإلا فأصله ليس منهم بلا شك كما قال تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾[(٢)] والله أعلم"[(٣)].

دل كلام أهل العلم على أن الملائكة عليهم السلام عصمهم الله، وجبلهم على الطاعة فلا يختاروا المعصية لعصمة الله لهم، وهذا ظاهر الأدلة، أما المراغي رحمه الله فلم ينص على عصمة الملائكة، وذكر في ذلك كلاما مجملا قد يحمل أنه يقول بالعصمة مثل قوله: "أنهم مفطورين على الطاعة"[(٤)].

---

(١) سورة البقرة الآية (٣٤).

(٢) سورة الكهف الآية (٥٠).

(٣) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (١/٢٨٦-٢٨٧).

(٤) انظر: ص(٤٨٣).

الفصل الثاني: آراء المراغي الاعتقادية في الإيمان بالكتب

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

التمهيد: وفيه تعريف الكتب.

المبحث الأول: معنى الإيمان بالكتب وما يتضمنه.

المبحث الثاني: نزول القرآن.

المبحث الثالث: إعجاز القرآن.

التمهيد: تعريف الكتب

الكتب في اللغة: جمع كتاب بمعنى مكتوب.

قال ابن فارس: "(كتب) الكاف والتاء والباء أصل صحيح واحد يدل على جمع شيء إلى شيء، من ذلك الكتاب والكتابة، يقال: كتبت الكتاب أكتبه كتبا"[(١)].

وقال في لسان العرب: "(كتب) الكتاب معروف، والجمع كُتُبٌ وكُتْبٌ، كتب الشيء يكتبه كَتْبًا وكِتَابًا وكِتَابَةً وكَتَبَه خطَّه"[(٢)].

والمقصود بالكتب هي: "التي أنزلها تعالى على رسله رحمة للخلق، وهداية لهم، ليصلوا بها إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة"[(٣)].

(١) معجم مقاييس اللغة، مادة: كتب(٥/١٢٨).

(٢) لسان العرب، مادة: كتب(١/٦٩٨).

(٣) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين(٥/١٢٠).

المبحث الأول: معنى الإيمان بالكتب وما يتضمنه

وتحته مطلبان:

المطلب الأول: الإيمان بالكتب.

المطلب الثاني: ما يتضمنه الإيمان بالكتب.

المطلب الأول: الإيمان بالكتب

ذكر المراغي رحمه الله في موضوع الإيمان بالكتب قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾[(١)] فقال: "والإيمان بالكتب السماوية التي جاء بها الأنبياء يستدعى امتثال ما فيها من أوامر ونواه، إذ من أيقن أن هذا الشيء حسن نافع توجهت نفسه لعمله، ومن اعتقد أنه ضار ابتعد عنه ونفرت نفسه منه"[(٢)].

وذكر في سياق توضيح قوله تعالى: (﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[(٣)].

فقال: "وآمن كل منهم إجمالًا فيما أجمله القرآن وتفصيلا فيما فصله: بأن الله أنزل على رسله كتبًا فيها هدايةٌ للبشر بحسب ما فُصِّل في قوله: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[(٤)]"[(٥)].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[(٦)] فقال: "أي قولوا آمنا بنبوة جميع الأنبياء والمرسلين، مع الخضوع والطاعة لرب العالمين، فلا نكذبُ أحدًا منهم فيما ادَّعاه ودعا إليه في عصره، بل نصدق بذلك تصديقًا جمليا، ولا يضيرنا تحريف بعضٍ وضياع بعضٍ، فإنَّ التصديقَ التفصيليَّ إنما يكون لما أنزل إلينا فحسب.

---

(١) سورة البقرة الآية (١٧٧).

(٢) تفسير المراغي(٢٣٣/١).

(٣) سورة البقرة الآية (٢٨٥).

(٤) سورة البقرة الآية (١٣٦).

(٥) تفسير المراغي(٤٤٢/١).

(٦) سورة البقرة الآية (١٣٦).

روى البخاري بسنده عن أبي هريرة أن أهل الكتاب كانوا يقرءون التوراة بالعبرية، ويفسرونها بالعربية للمسلمين، فقال النبي ﷺ: «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا {آمنا بالله}. الآية**»[(١)].

وروى ابن أبي حاتم عن معقل مرفوعا: «**آمنوا بالتوراة والإنجيل وليسعكم القرآن**»[(٢)]"[(٣)].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[(٤)] فقال: "إن الله أخذ الميثاق من النبيين المتقدمين منهم والمتأخرين على الإيمان بالله والكتب المنزلة على أنبيائه.

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أي قل آمنت أنا ومن معي بوجود الله ووحدانيته وتصرُّفه في الأكوان.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ وهو القرآن المنزل عليه صلوات الله عليه أولا، وعلى أمته بتبليغه إليهم.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾[(٥)] أي وصدقنا بأن الله أنزل على هؤلاء وحيا لهداية أقوامهم، وأنه موافق في جوهره والمقصود منه لما أنزل علينا كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾[(٦)].

﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ من التوراة والإنجيل وسائر المعجزات، وخص هذين النبيين بالذكر، لأن الكلام مع اليهود والنصارى.

---

(١) سبق تخريجه ص(٣٠).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٦٢/١) والبيهقي في السنن الكبرى(٩/١٠) والحاكم في المستدرك(٧٥٧/١)، وقال: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، فتعقبه الذهبي بقوله: "عبيد الله، قال أحمد: تركوا حديثه"، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد(١٧٠/١): "وله إسنادان في إحداهما عبد الله ابن أبي حميد، وقد أجمعوا على ضعفه"، وسكت عليه البوصيري كما في الإتحاف(١٨٧/٣) مختصرا، وضعفه جدًا محققو المطالب العالية(٣٢٠/١٤).

(٣) تفسير المراغي(١٨٧/١).

(٤) سورة آل عمران الآية (٨٤).

(٥) سورة آل عمران الآية (٨٤).

(٦) سورة النساء الآية (١٦٣).

﴿ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ أي وما أوتي النبيون من ربهم كداود وسليمان وأيوب وغيرهم ممن لم يقص الله سبحانه علينا قصصهم.

وقدم الإيمان بما أنزل علينا على الإيمان بما أنزل على من قبلنا، مع كونه أنزل قبله؛ لأن ما أنزل علينا هو الأصل في معرفة ما أنزل عليهم والمثبت له، ولا طريق لإثباته سواه، فما أثبته القرآن الكريم من نبوة كثير من الأنبياء نؤمن به إجمالا فيما أجمل، وتفصيلا فيما فصل وكذلك كتبهم، مع العلم بأن جوهر الدين واحد لدى الجميع، وهو الإيمان بالله وإسلام القلب له مع العمل الصالح، والإيمان باليوم الآخر.

﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ فنصدق ببعض ونكفر ببعض كما فعل اليهود والنصارى، فما مثل الأنبياء إلا مثل الأمراء الأمناء الصادقين يرسلهم السلطان على التعاقب للقيام بشؤون ولاية من ولاياته"(١).

(١) تفسير المراغي(١/٥٤٠).

المطلب الثاني: ماذا يتضمن الإيمان بالكتب

ذكر المراغي ما يتضمنه الإيمان بالكتب، من ذلك:

١- قال: "أجمع المسلمون على أن ما بين الدفتين كلام الله تعالى، والبسملة بينهما فوجب جعلها منه"[(١)].

٢- ذكر عند قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾[(٢)] فقال: "هو التوراة والإنجيل وسائر الكتب السالفة، فيؤمنون بها إيمانا إجماليا لا تفصيليا"[(٣)].

٣- ذكر بعد قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[(٤)] فقال: "مدح الله سبحانه كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله ﷺ ووصفه بصفات ثلاث:

(أ) أنه يرشد من اهتدى به للسبيل التي هي أقوم السبل، وهي ذلك الدين القيم والملة الحنيفية السمحاء، التي أهم دعائمها الإخبات لله والإنابة إليه واعتقاد أنه واحد لا شريك له، وأنه صاحب الملك والملكوت، وهو الحي الذي لا يموت، وهو الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد.

(ب) أنه يبشر المؤمنين بالله ورسوله الذين يعملون صالح الأعمال فيأتمرون بما أمر به، وينتهون عما نهاهم عنه، بالأجر العظيم يوم القيامة كفاء ما قدموا لأنفسهم من عمل صالح.

(ج) أنه ينذر الذين لا يصدقون بالمعاد، ولا يقرون بالثواب والعقاب في الدنيا، فلا يتحاشون ركوب المعاصي بالعذاب الأليم الموجع جزاء ما دنسوا به أنفسهم من الكفر واجتراح الآثام"[(٥)].

ذكر المراغي الإيمان بالكتب وما يتضمنه، وأزيد الأمر توضيحا؛ فأقول: الإيمان بالكتب هو أحد أركان الإيمان الستة، الواردة في حديث جبريل عليه السلام حين سأل النبي ﷺ «**فقال**

---

(١) تفسير المراغي(١/٢٨).

(٢) سورة البقرة الآية (٤).

(٣) تفسير المراغي(١/٤٥).

(٤) سورة الإسراء الآية (٩-١٠).

(٥) تفسير المراغي(٥/٢٩٠).

يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه وتؤمن بالبعث الآخر»[(١)]، والأدلة على الإيمان بالكتب كثيرة، وسبقت الإشارة إليها في كلام المراغي رحمه الله.

يعلم من الأدلة الواردة في الإيمان بالكتب أنه لابد أن يتضمن ذلك أمور أربعة وهي:

"الأول: الإيمان بأن نزولها من عند الله حقا.

الثاني: الإيمان بما علمنا اسمه منها باسمه كالقرآن الذي نزل على محمد ﷺ، (والتوراة) التي أنزلت على موسى ﷺ، (والإنجيل) الذي أنزل على عيسى ﷺ، (والزبور) الذي أوتيه داود ﷺ، وأما ما لم نعلم اسمه فنؤمن به إجمالا.

الثالث: تصديق ما صح من أخبارها، كأخبار القرآن، وأخبار ما لم يبدل أو يحرف من الكتب السابقة.

الرابع: العمل بأحكام ما لم ينسخ منها، والرضا والتسليم به سواء فهمنا حكمته أم لم نفهمها، وجميع الكتب السابقة منسوخة بالقرآن العظيم قال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[(٢)] أي (حاكما عليه)، وعلى هذا فلا يجوز العمل بأي حكم من أحكام الكتب السابقة إلا ما صح منها وأقره القرآن.

والإيمان بالكتب يثمر ثمرات جليلة منها: الأولى: العلم بعناية الله تعالى بعباده حيث أنزل لكل قوم كتابا يهديهم به.

الثانية: العلم بحكمة الله تعالى في شرعه؛ حيث شرع لكل قوم ما يناسب أحوالهم، كما قال الله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[(٣)].

الثالثة: شكر نعمة الله في ذلك"[(٤)].

---

(١) سبق تخريجه ص(٤٦٢).

(٢) سورة المائدة الآية (٤٨).

(٣) سورة المائدة الآية (٤٨).

(٤) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين(٥/٨٠).

المبحث الثاني: نزول القرآن

ذكر المراغي رحمه الله في مبحث نزول القرآن تعريف الوحي وأقسامه، وما يتعلق بإنزال القرآن.

قال في تعريف الوحي: "الوحي في اللغة: الإشارة السريعة الخفية، والإعلام بالشيء بسرعة وخفاء"(١).

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾(٢) فقال: "والوحي جاء في القرآن لمعان:

(١) لكلام جبريل للأنبياء كما قال تعالى: ﴿ نُّوحِىٓ إِلَيْهِم ﴾(٣).

(٢) وللإلهام كما قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ ﴾(٤).

(٣) ولإلقاء المعنى المراد في النفس كما قال تعالى: ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾(٥).

(٤) وللإشارة كما قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾(٦).

فالوحي تعريف الموحى إليه بأمر خفي من إشارة أو كتابة أو غيرهما"(٧).

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ ﴾(٨) فقال: "الوحي لغة: الإيماء والإشارة كما قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾(٩)، والإلهام الذي يقع في النفس كما قال: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ ﴾(١٠)، وما يكون غريزة دائمة كما قال:

---

(١) تفسير المراغي(٣/٤٦).
(٢) سورة آل عمران الآية (٤٤).
(٣) سورة يوسف الآية (١٠٩).
(٤) سورة القصص الآية (٧).
(٥) سورة الزلزلة الآية (٥).
(٦) سورة مريم الآية (١١).
(٧) تفسير المراغي(١/٤٩٧).
(٨) سورة النساء الآية (١٦٣).
(٩) سورة مريم الآية (١١).
(١٠) سورة القصص الآية (٧).

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾[١]، والإعلام في خفاء بأن تعلم إنسانا بأمر تخفيه على غيره كما قال: ﴿ شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾[٢]، ووحي الله إلى أنبيائه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت، ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى؟ وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور.

والمعنى: إنا قد أوحينا إليك هذا القرآن كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ممن يؤمن بهم، والله لم ينزل على أحد منهم كتابا من السماء كما سألوك للتعجيز والعناد، لأن الوحي ضرب من الإعلام السريع الخفي، وليس هو بالأمر المشاهد الحسي"[٣].

وقال موضحا قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾[٤]: "أي وما ينبغي لبشر من بني آدم أن يكلمه ربه إلا بإحدى طرق ثلاث:

(١) ﴿ إِلَّا وَحْيًا ﴾ أي إلا أن يوحي إليه وحيًا أي يكلمه كلامًا خفيًا بغير واسطة؛ بأن يقذف في روع النبي شيئا لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل، كما روى ابن حبان في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن روح القدس نفث في روعي: إن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب**»[٥].

(٢) ﴿ أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ أي أو إلا من طريق لا يرى السامع المتكلم جهرة مع سماعه للكلام كما كلم موسى عليه السلام ربه.

---

(١) سورة النحل الآية (٦٨).

(٢) سورة الأنعام الآية (١١٢).

(٣) تفسير المراغي(٢/٣٥٧).

(٤) سورة الشورى الآية (٥١).

(٥) سبق تخريجه ص(٤٣٧).

(٣) ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾ أي أو يرسل الله من ملائكته رسولا إمَّا جبريل أو غيره، فيوحي ذلك الرسول إلى المرسل إليه ما يشاء ربه أن يوحيه إليه من أمر ونهي، كما كان جبريل عليه السلام ينزل على النبي ﷺ وعلى غيره من الأنبياء.

روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أن الحرث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال: «**يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليَّ، فيفصم عنِّي وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول**»، **قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصَّدُ (يسيل) عرقًا**»[(١)].

﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾ أي إنه على عن صفات المخلوقين يفعل ما تقتضيه حكمته، فيكلمه تارة بواسطة، وتارة بغير واسطة إما إلهاما وإما خطابا من وراء حجاب"[(٢)].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا﴾[(٣)] فقال: "أي إنا أنزلنا عليك القرآن مفرقًا منجمًا في مدى ثلاث وعشرين سنة، ليكون أسهل لحفظه وتفهمه ودراسته، ولتكون الأحكام آتية وفق الحوادث التي تجد في الكون، فتكون تثبيتا لإيمان المؤمنين، وزيادة في تقوى المتقين.

وقد يكون المعنى: نزلنا عليك ولم تأت به من عندك كما يدعيه المشركون، ويراد من ذلك تثبيت قلب رسوله ﷺ وشرح صدره، وأن الذي أنزل عليه وحي لا كهانة ولا سحر، وبذا تزول الوحشة من قول الكفار: إنه كهانة أو سحر"[(٤)].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾[(٥)]: "هو القرآن الذي يتلى، والوحي الذي لا يتلى، وهو ما بينه النبي ﷺ من أعداد الركعات في

---

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٦/١) الحديث رقم(٢)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي (١٨١٦/٤) الحديث رقم(٢٣٣٣).

(٢) تفسير المراغي(٥٢/٩).

(٣) سورة الإنسان الآية (٢٣).

(٤) تفسير المراغي(٢٨٥/١٠).

(٥) سورة البقرة الآية (٤).

الصلاة، ومقادير الزكاة، وحدود الجنايات، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾(١) وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾(٢) ولا بد من معرفة ذلك تفصيلا، فلا يسع المؤمن جهل ما علم من الدين بالضرورة.

والإنزال هنا بمعنى الوحي، وسمي إنزالا لما في جانب الألوهية من علو الخالق على المخلوق، أو لإنزال جبريل له على النبي ﷺ لتبليغه للخلق كما قال: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾(٣)"(٤).

وذك بعد قوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾(٥): "أي إنه أوحى إليك هذا القرآن بالتدريج متصفا بالحق الذي لا شبهة فيه.

﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾(٦) أي مبينا صدق ما تقدمه من الكتب المنزلة على الأنبياء السالفين، فإنه أثبت الوحي، وذكر أنه أرسل رسلا أوحى إليهم، وهذا تصديق جملي لأصل الوحي إليهم، لا تصديق تفصيلي لتلك الكتب التي عند الأمم التي تنمى إلى أولئك الأنبياء بمسائلها جميعا، ألا ترى أن تصديقنا لمحمد ﷺ في جميع ما أخبر به، لا يلزم منه التصديق بكل ما في كتب الحديث المروية عنه، بل ما ثبت منها صحته فقط"(٧).

وقال بعد قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٨): "أي هذا القرآن كتاب أنزل إليك من عند ربك، ووصفه بالإنزال من عنده تعالى دالٌ على عظيم قدره وقدر من أنزل إليه"(٩).

وساق هذا الحديث في نزول الوحي فقال: "روي عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال: «**كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يسمع عند وجهه دويٌّ كدويِّ النحل،**

---

(١) سورة النحل الآية (٤٤).

(٢) سورة النجم الآية (٣-٤).

(٣) سورة الشعراء الآية (١٩٣).

(٤) تفسير المراغي(٤٥/١).

(٥) سورة آل عمران الآية (٣).

(٦) سورة آل عمران الآية (٣).

(٧) تفسير المراغي(٤٥٢/١).

(٨) سورة الأعراف الآية (٢).

(٩) تفسير المراغي(٢٥٩/٣).

فأنزل عليه يوما، فمكث ساعة ثم سُرِّيَ عنه، فاستقبل القبلة فقال: اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارض عنا، ثم قال: لقد أنزل علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ: قد أفلح المؤمنون حتى ختم العشر»(١)"(٢).

وأوضح بعد قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾(٣) فقال: "أي وما كنت من قبل إنزال الكتاب إليك تقدر أن تتلو كتابًا ولا تخطه بيمينك: أي ليس من دأبك وعادتك ذلك، إذ لو كنت ممن يقدر على التلاوة والخط أو ممن يعتادهما لارتاب المشركون، وقالوا: لعله التقط ذلك من كتب الأوائل، ولما لم يكن أمرك هكذا لم يكن لارتيابهم وجه.

قال مجاهد: «كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمدا ﷺ لا يخط ولا يقرأ، فنزلت هذه الآية»(٤).

وخلاصة ما سلف: إنك قد لبثت في قومك عمرا طويلا قبل أن تأتي بهذا القرآن، لا تقرأ ولا تكتب، وكل واحد من قومك يعرف أنك أمي لا تقرأ ولا تكتب، وهذه صفتك في الكتب المتقدمة كما قال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾(٥) فلا وجه إذًا للشك في أن هذا القرآن منزل من عند الله، وليس مفتعلا من صنع يدك تعلمته من الكتب المأثورة عمن قبلك، كما

---

(١) أخرجه أحمد في المسند(١/٣٥٠)، الحديث رقم(٢٢٣)، والترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة المؤمنون (٥/٣٢٦)، الحديث رقم(٣١٧٣)، والنسائي في الكبرى(٢/١٧٠)، الحديث رقم(١٤٤٣)، والحاكم في المستدرك (٢/٣٩٢)، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، وتعقبه الذهبي بقوله: سئل عبد الرزاق عن شيخه ذا (يعني ابن سليم) فقال: أظنه لا شيء، وحسنه البغوي في شرح السنة(١٣٧٦)، وقال النسائي: "هذا حديث منكر، لا نعلم أحداً رواه غير يونس بن سُليم، ويونس بن سُليم لا نعرفه، والله أعلم"، وقال العقيلي في الضعفاء(٤/٤٦٠): "يونس بن سليم لا يتابع على حديثه ولا يعرف إلا به"، وقال الألباني في السلسلة الضعيفة برقم(١٢٤٢): منكر

(٢) تفسير المراغي(٦/٢٦٩).

(٣) سورة العنكبوت الآية (٤٨).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره(٢٠/٥١)، وابن أبي حاتم في تفسيره(١١/٤٥٢).

(٥) سورة الأعراف الآية (١٥٧).

حكى سبحانه عنهم من نحو قولهم: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ﴾[(١)].

ثم أكد ما سلف، وبين أنه منزل من عند الله حقًا؛ فقال: ﴿ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ ﴾[(٢)] أي بل هذا القرآن آيات واضحات الدلالة على الحق، يسر الله حفظها وتفسيرها للعلماء كما قال: ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[(٣)].

روى البخاري أن النبي ﷺ قال: «**ما من نبي إلا وقد أعطي ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا**»[(٤)]"[(٥)].

وذكر بعد قوله تعالى:﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[(٦)]: "أي هذا القرآن منزل من الله الرحمن الرحيم على نبيه محمد ﷺ، وخص هذين الوصفين (الرحمن الرحيم) بالذكر لأن الخلق في هذا العالم كالمرضى المحتاجين إلى الدواء، والقرآن مشتمل على كل ما يحتاج إليه المرضى من الأدوية، وعلى ما يحتاج إليه الأصحاء من الأغذية، فكان رحمة لهم ولطفا بهم كما قال: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[(٧)]، ونحو الآية قوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴾[(٨)].

﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ﴾[(٩)]: "أي هو كتاب بينت آياته، وميزت لفظا بفواصل ومقاطع، ومبادئ

---

(١) سورة الفرقان الآية (٥).

(٢) سورة العنكبوت الآية (٤٩).

(٣) سورة القمر الآية (١٧).

(٤) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل (١٨٢/٦) الحديث رقم(٤٩٨١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته (١٣٤/١)، الحديث رقم(٢٣٤).

(٥) تفسير المراغي(٢٤٣/٧).

(٦) سورة فصلت الآية (٢).

(٧) سورة الأنبياء الآية (١٠٧).

(٨) سورة الشعراء الآية (١٩٢-١٩٥).

(٩) سورة فصلت الآية (٣).

للسور وخواتم لها، وميزت معنى بكونها وعدا ووعيدا، ومواعظ ونصائح وتهذيب أخلاق ورياضة نفس، وقصص الأولين، وتواريخ الماضين.

ونحو الآية قوله: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾(١) ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾(٢) أي أنزلناه بلغة العرب، ليسهل عليهم فهمه كما قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾(٣) وفي هذا امتنان من الله عليهم، ليسهل عليهم قراءته وفهمه.

﴿لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾(٤) معانيه، لكونه جاء بلسانهم، فهم أهل اللسان فيفهمونه بلا واسطة، وغيرهم لا يفهمه إلا بوساطتهم"(٥).

وقال بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾(٦): "أي إن هذا القرآن كلام الله ووحيه أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ"(٧).

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾(٨) فقال: "جاء في حديث البخاري ومسلم: «**إن الوحي كان يأتيه ﷺ أحيانا في مثل صلصلة الجرس، وهذا أشده عليه، فيفصم عنه (يفارقه) وقد وعى ما قال، وأحيانا يتمثل له الملك رجلا فيكلمه فيعي ما يقول، وكان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقا**»(٩) يجري عرقه كما يجرى الدم من الفاصد.

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ﴾(١٠) فقال: "أي لا تحرك أيها الرسول الكريم بالقرءان لسانك وشفتيك، لتأخذه على عجلة مخافة أن يتفلت منك،

---

(١) سورة هود الآية (١).

(٢)سورة فصلت الآية (٣).

(٣) سورة إبراهيم الآية (٤).

(٤)سورة فصلت الآية (٣).

(٥) تفسير المراغي(٣٤٤/٨).

(٦) سورة الحاقة الآية (٤٠).

(٧) تفسير المراغي(١٩٢/١٠).

(٨) سورة المزمل الآية (٥).

(٩) سبق تخريجه ص(٤٩٦).

(١٠) سورة القيامة الآية (١٦-١٧).

فإن علينا أن نجمعه لك حتى تثبته في قلبك، وقد كان النبي ﷺ إذا نزل عليه الوحي يحرك به لسانه وشفتيه، فيشتد عليه ويعرف ذلك في تحريكه شفتيه حتى نزلت الآية، فكان رسول الله ﷺ إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه كما أمره الله...عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «**كان النبي ﷺ يعالج من التنزيل شدة بتحريك شفتيه**، فقال لي ابن عباس: أنا أحركهما كما كان رسول الله ﷺ يحركهما، فحرك شفتيه، **فأنزل الله عز وجل**: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾[1]» رواه مسلم[2]"[3].

وقال: "جاء في صحيح الأحاديث «**أن النبي ﷺ كان يأتي غار حراء (حراء جبل بمكة) يتعبد فيه الليالي ذوات العدد، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى فجأه الوحي وهو في الغار؛ إذ جاءه الملك فقال له: اقرأ، قال ما أنا بقارئ، قال: فأخذه ثانية فغطه حتى بلغ منه الجهد، ثم أرسله فقال: اقرأ، قال ما أنا بقارئ، قال فأخذه ثالثة فغطه حتى بلغ منه الجهد فقال:** ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[4]

قال الرواة: فرجع ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع فأخبر خديجة الخبر، ثم قال: قد خشيت على نفسي، فقالت له: كلا، أبشر، فو الله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، ثم انطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى (ابن عم خديجة) وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، وكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخا كبيرا قد عَمِيَ، فقالت خديجة: أي ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال ورقة: ابن أخي ما ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على

---

(١) سورة القيامة الآية (١٦).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {لا تحرك به لسانك} (٩/١٥٣)، الحديث رقم(٧٥٢٤)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب الاستماع للقراءة (١/٣٣٠) الحديث رقم(٤٤٨).

(٣) تفسير المراغي(١٠/ ٢٦٦).

(٤) سورة العلق الآية (١-٥).

موسى، ليتني فيها جذعا، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أو مُخْرِجِيَّ هم؟ فقال ورقة: نعم، لم يأت أحد قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا، ثم لم ينشب أن توفي»، رواه البخاري ومسلم(١)"(٢).

وقال عند تفسير سورة القدر: "فآية القدر صريحة في أن إنزال القرآن كان في ليلة القدر(٣)، وآية الدخان تؤكد ذلك وتبين أن النزول كان في ليلة مباركة(٤)، وآية البقرة ترشد إلى أن نزول القرآن كان في شهر رمضان(٥)، وآية الأنفال تدل على أن إنزال القرآن على رسوله كان في ليلة اليوم المماثل ليوم التقاء الجمعين في غزوة بدر(٦)، التي فرق الله فيها بين الحق والباطل، ونصر حزب الرحمن على حزب الشيطان، ومن ذلك يتضح أن هذه الليلة هي ليلة الجمعة لسبع عشرة خلت من شهر رمضان"(٧).

وذكر عند قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾(٨) فقال: "أي والله لئن شئنا لنمحون القرآن من الصدور والمصاحف ولا نترك له أثرا، وتصيرن كما كنت لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان، أخرج سعيد بن منصور والحاكم وصححه، والطبراني والبيهقي في جماعة آخرين، عن ابن مسعود قال: «إن هذا القرآن سيرفع، قيل كيف يرفع وقد أثبته الله في قلوبنا وأثبتناه في المصاحف؟ قال يُسْرَى عليه في ليلة واحدة فلا تترك منه آية في قلب ولا مصحف إلا رفعت، فتصبحون وليس فيكم منه شيء، ثم قرأ هذه الآية»(٩)، وعنه أنه قال: «ذهاب القرآن رفعه من صدور قارئيه»(١).

---

(١) سبق تخريجه ص(٤٦٣).

(٢) تفسير المراغي(١٠/٤٥٥).

(٣) وهي قوله تعالى:﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر: ١].

(٤) وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ [الدخان: ٣].

(٥) وهي قوله تعالى:﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

(٦) وهي قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٤١].

(٧) تفسير المراغي(١٠/٤٦٤).

(٨) سورة الإسراء الآية (٨٦).

(٩) أخرجه سعيد ابن منصور في التفسير من سننه(٢/٣٣٥)، والبيهقي في شعب الإيمان(٢/٣٥٦)، والحاكم في

المراغي رحمه الله بين في هذا المبحث ما يتعلق بإنزال القرآن ولكن أزيد الموضوع بيانًا بما ذكره الإمام ابن القيم رحمه الله حيث قال: "**نبوته ﷺ**: فلما كمل له أربعون أشرق عليه نور النبوة، وأكرمه الله تعالى برسالته، وبعثه إلى خلقه، واختصه بكرامته، وجعله أمينه بينه وبين عباده، ولا خلاف أن مبعثه ﷺ كان يوم الاثنين، واختلف في شهر المبعث، فقيل لثمان مضين من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من عام الفيل، هذا قول الأكثرين، وقيل بل كان ذلك في رمضان، واحتج هؤلاء بقوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾(٢) قالوا: أول ما أكرمه الله أنزل عليه القرآن، وإلى هذا ذهب جماعة منهم يحيى الصرصري(٣) حيث يقول في نونيته:

وأتت عليه أربعون فأشرقت ... شمس النبوة منه في رمضان(٤)

المستدرك (٥٤٩/٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي في التلخيص: صحيح، وقال الهيثمي في المجمع(٢٧٩/٧)، رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير شداد بن معقل وهو ثقة.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره(٥٤٥/١٧).

(٢) سورة البقرة الآية (١٨٥).

(٣) يحيى الصرصري: يحيى بن يوسف بن يحيى الأنصاري، أبو زكريا، شاعر من أهل صرصر، سكن بغداد، وكان ضريراً، توفي سنة ٦٥٦هـ. انظر: البداية والنهاية لابن كثير(٢١١/١٣)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى(٧٠/١): " ولهذا أنكرنا على الشيخ يحيى الصرصري: ما يقوله في قصائده في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم من الاستغاثة به"، وقال ابن رجب رحمه الله في ترجمته: "الفقيه، الأديب اللغوي الشاعر الزاهد جمال الدين، أبو زكريا، شاعر العصر، وصاحب الديوان السائر في الناس في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، كان حسان وقته: ولد في سنة ثمان وثماني وخمسمائة. وقرأ القرآن بالروايات، وسمع الحديث، وحفظ الفقه واللغة. ويقال: إنه كان يحفظ "صحاح الجوهري" بكماله. وكان يتوقد ذكاء، ونظمه في الغاية، ويقال: إن مدائحه في النبي صلى الله عليه وسلم تبلغ عشرين مجلداً. وقد نظم في الفقه "مختصر الخرقي" ونظم "زوائد الكافي" على الخرقي، ونظم في العربية، وفي فنون شتى. وكان صالحاً قدوة، عظيم الاجتهاد، كثير التلاوة، عفيفاً صبوراً قنوعاً، محباً لطريقة الفقراء ومخالطتهم. وكان يحضر معهم السماع، ويرخص في ذلك. وكان شديداً في السنة، منحرفاً على المخالفين لها. وشعره مملوء بذكر أصول السنة، ومدح أهلها، وذم مخالفيها. وله قصيدة طويلة لامية في مدح الإمام أحمد وأصحابه. وقد ذكرنا بعضها مفرقاً في تراجم بعض الأصحاب الذين ذكرهم فيها. وكان قد رأى النبي صلى الله عليه وسلم في منامه وبشره بالموت على السنة، ونظم في ذلك قصيدة طويلة معروفة.

ولما دخل هولاكو وجنده الكفار إلى بغداد كان الشيخ يحمى بها. فلما دخلوا عليه قاتلهم. ويقال: إنه قتل منهم بعكازه. ثم قتلوه شهيداً رضي الله عنه، انظر: ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي(١٩٧/٢) مختصرا.

(٤) من قصيدة بلغت ثماني مئة وخمسين بيتا، والتي قال في مقدمتها:

والأولون قالوا: إنما كان إنزال القرآن في رمضان جملة واحدة في ليلة القدر إلى بيت العزة، ثم أنزل مُنَجَّمًا بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة، وقالت طائفة: أنزل فيه القرآن أي في شأنه وتعظيمه وفرض صومه، وقيل كان ابتداء المبعث في شهر رجب.

مراتب الوحي

وكمل الله له من مراتب الوحي مراتب عديدة

إحداها: الرؤيا الصادقة وكانت مبدأ وحيه ﷺ، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

الثانية: ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه، من غير أن يراه ،كما قال النبي ﷺ: «**إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته**»(١).

الثالثة: أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلًا فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانا.

الرابعة: أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه فيتلبس به الملك حتى إن جبينه ليتفصد عرقا في اليوم الشديد البرد، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها، ولقد جاء الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذٍ فثقلت عليه حتى كادت ترُضُّها(٢).

الخامسة: أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها؛ فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله ذلك في النجم.

السادسة: ما أوحاه الله وهو فوق السموات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها.

السابعة: كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك، كما كلم الله موسى بن عمران، وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعًا بنص القرآن، وثبوتها لنبينا ﷺ هو في حديث الإسراء.

أصبحت أنظم مدح أكرم مرسل. . . لهجا به في رائق الأوزان (ديوان الصرصري، مخطوط في ظاهرية، رقم (٣٣٣٢) انظر: المدائح النبوية حتى نهاية العصر الملوكي (٥٤٥) تأليف: محمود سالم محمد.

(١) سبق تخريجه ص(٤٣٧).

(٢) سبق تخريجه ص(٤٩٦).

وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة، وهي تكليم الله له كفاحًا من غير حجاب، وهذا على مذهب من يقول: إنه ﷺ رأى ربه تبارك وتعالى، وهي مسألة خلافٍ بين السلف والخلف، وإن كان جمهور الصحابة بل كلهم مع عائشة كما حكاه عثمان بن سعيد الدارمي إجماعا للصحابة"[١].

(١) زاد المعاد(١/٧٦).

المبحث الثالث: إعجاز القرآن

ذكر المراغي رحمه الله في مسألة إعجاز القرآن أنه معجز "من جهة اللفظ والمعنى والإخبار بالغيب"(١).

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾(٢) فقال: "أي ولو كان من عندك لا من عند الله الذي أرسله به لوجدوا فيه اختلافا كثيرا لأسباب كثيرة:

(١) أن أي مخلوق لا يستطيع تصوير الحقائق كما صورها القرآن بلا اختلاف ولا تفاوت في شيء منها.

(٢) أنه حكى عن الماضي الذي لم يشاهده محمد ﷺ ولم يقف على تاريخه، وعن الآتي فوقع كما أنبأ به، وعن الحاضر فأخبر عن خبايا الأنفس ومكنونات الضمائر، كما أخبر عما بيتته هذه الطائفة مخالفا لما تقول للرسول أو ما يقوله لها فتقبله في حضرته وترفضه في غيبته.

(٣) أن أحدا لا يستطيع أن يأتي بمثله في بيان أصول العقائد وقواعد الشرائع، وسياسة الشعوب والقبائل مع عدم الاختلاف والتفاوت في شيء من ذلك.

(٤) أن أحدا لا يستطيع أن يأتي بمثله في سنن الاجتماع، ونواميس العمران، وطبائع الملل والأقوام، مع إيراد الشواهد وضرب الأمثال، وتكرار القصة الواحدة بالعبارات البليغة تنويعا للعبرة وتلوينا للموعظة، واتفاق كل ذلك وتواطئه على الصدق، وبراءته من الاختلاف والتناقض.

(٥) أن أحدا لا يستطيع أن يأتي بمثله فيما جاء به من فنون القول وألوان العبر في أنواع المخلوقات في الأرض أو في السموات، فقد تكلم على الخلق والتكوين ووصف جميع الكائنات كالكواكب ونظامها، والرياح والبحار والحيوان والنبات وما فيها من الحكم والآيات، وكان في كل ذلك يؤيد بعضه بعضا لا تفاوت فيه، ولا اختلاف بين معانيه.

(٦) أنه أخبر عن عالم الغيب والدار الآخرة، وما فيها من الحساب على الأعمال والجزاء العادل، وكان في كل ذلك جاريا على سنة الله تعالى في تأثير الأعمال الاختيارية في الأرواح،

---

(١) تفسير المراغي(٤/٢٣٩).

(٢) سورة النساء الآية (٨٢).

مع الالتئام بين الآيات الكثيرة، وهو غاية الغايات في ذلك عند من أوتي الحكمة وفصل الخطاب.

هذا إلى أنه نزل منجما بحسب الوقائع والأحوال، وكان النبي ﷺ عند نزول الآية أو الآيات يأمر بأن توضع في محلها من سورة كذا، وهو يحفظه حفظا، وقد جرت العادة بأن من يأتي بكلام من عنده في مناسبات مختلفة، لا يتذكر جميع ما سبق له في السنين الطوال، ولا يستحضره حتى يجعل الآخر موافقا للأول، مع أن بعض الآيات كان ينزل في أيام المحن والكروب، وبعضها عند تنازع الأقوام حين الخصام.

إلا أنَّ كر الغداة ومرَّ العشيِّ لا يزيده إلا جِدةً، ولا يزيد أحكامه إلا ثباتا ورسوخا، وكلما اتسعت دائرة العلوم والمعارف ونمت أحوال العمران زاد إيمان الناس به، إذ تتوثق روابط الصلة بين الدين والعلم وتتظاهر أحكامه مع نواميس الاجتماع وشؤون الكون.

والخلاصة: إن تدبر القرآن وتأمل ما امتاز به هو طريق الهداية القويم، وصراط الحق المستقيم، فإنه يرشد إلى كونه من عند الله، وإلى وجوب الاهتداء به، وإلى أنه معقول في نفسه موافق للفطرة ملائم للمصلحة، وفيه سعادة الخلق في الدنيا والآخرة.

ولو تدبر المسلمون القرآن واهتدوا به في كل زمان لما فسدت أخلاقهم وآدابهم، ولما ظلم واستبد حكامهم، ولما زال ملكهم وسلطانهم، ولما صاروا عالة في معايشهم على سواهم. وهذا التدبر لا يمنع أن يستنبط أولو الأمر الأحكام العامة في السياسة والقضاء والإدارة، وتتبعهم فيها سائر الأمة"[١].

وأوضح بعد قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾[٢] فقال: "أي إنه ملتقط من كلام غيره، وليس من كلام الله كما يدعي، ولو صح ما قال لأمكن غيره أن يقول مثله أو يعارضه بأحسن منه، ففي العرب ذوو فصاحة وذرابة لسان، وفيهم الخطباء والمقاويل الذين لا يجارون ولا يبارون، ولم يعلم أن أحدا من أهل الزكانة[٣] والمعرفة سولت له نفسه أن يعارضه، بل التجئوا إلى السيف والسنان، دون المعارضة بالحجة والبرهان"[٤].

---

(١) تفسير المراغي(٢/٢٦٨).

(٢) سورة المدثر الآية (٢٤-٢٥).

(٣) الزكانة الفراسة، وأن يظن الشخص فيصيب، انظر: لسان العرب(١٢/١٩٨).

(٤) تفسير المراغي(١٠/٢٤٩).

وذكـر بعـد قولـه تعـالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(١) فقـال: "بعـد أن ذكـر سـبحانه أن النـاس بـالنظر إلى القرآن أقسام ثلاثة: متقون يهتدون بهديه، وجاحدون معاندون عن سماع حججه وبراهينه، ومذبذبون بين ذلك؛ طلب هنا إلى الجاحدين المعاندين في نبوة محمد ﷺ، وفي أن القرآن معجزته أن يتعرَّفوا إن كان هو من عند الله كما يدَّعي، أو هو من عند نفسه كما يدَّعون، فيروزوا أنفسهم ويحاكوه، لعلهم يأتون بمثل سورة من أقصر سوره، وهم فرسان البلاغة، وعصرهم أرقى عصور الفصاحة، والكلام ديدنهم، وبه تفاخرهم، وكثير منهم حاز قصب السبق في هذا المضمار، ولم يكن محمد من بينهم فهو لم يمرن عليه، ولم يبار أهله ولم ينافسهم فيه، فإن عجزوا ولم يستطيعوا ذلك، وهم لا يستطيعون وإن تظاهر أنصارهم، وكثر أشياعهم، بل لو اجتمعت الإنس والجن جميعا، فليعلموا أن ما جاءهم به فأعجزهم لم يكن إلا بوحي سماويٍّ وإمداد إلهيٍّ لا يسمو إليه محمد بعقله، ولا يصل بيانه إلى مثل أسلوبه ونظمه، وإذا استبان عجزهم ولزمتهم الحجة، فقد صدق النبي ﷺ فيما ادعى، وكان من ارتاب في صدقه معاندا مكابرا، واستحق العقاب وكان جزاؤه النار التي وقودها العصاة الجاحدون وما عبدوه من أحجار وأصنام، أعدت لكل من جحد الرسل أو استحدث في الدين ما هو منه براء"(٢).

وأوضح بعد قول الحق ﷻ: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۗ ﴾(٣): "أي ألم يعلم الذين آمنوا أن الله تعالى لو شاء هداية الناس أجمعين لهداهم، فإنه ليس ثمة حجة ولا معجزة أنجع في العقول من هذا القرآن الذي لو أنزل على جبل لرأيته خاشعًا متصدِّعًا من خشية الله، لكنه لم يشأ ذلك.

(١) سورة البقرة الآية (٢٣).

(٢) تفسير المراغي(١/٦١).

(٣) سورة الرعد الآية (٣١).

روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من نبي إلا وقد أوتي ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة**»(١)

يريد أن كل نبيٍّ انقرضت معجزته بموته، وهذا القرآن حجةٌ باقيةٌ على وجه الدهر، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء"(٢).

وذكر بعض وجوه إعجاز القرآن بعد قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾(٣) فقال: "وكان من أعظم ذلك القرآن الكريم، لا جرم بيَّنَ الله تعالى إعجازَه من وجوه:

(١) إن ما فيه من القصص موافق لما في التوراة والإنجيل مع أنه ﷺ كان أميا ولم يخالط أحدا من العلماء للاستفادة والتعلم، فلا يكون ذلك إذا إلا من وحيٍ إلهيٍّ من لدن حكيم خبير.

(٢) إن ما فيه من دلائل عقلية على التوحيد والبعث والنبوة والتشريع العادل المطابق لحاجة البشر في دنياهم وآخرتهم لا يوجد له نظير في كتاب آخر، فلا بد أن يكون ذلك من عند الله.

(٣) إنه قد بلغ الغاية في الفصاحة والبلاغة حتى لم يستطع أحد أن يتصدَّى لمعارضته مع حرصهم عليها أشد الحرص، فدل ذلك على أنه خارج عن قوى البشر، وأنه من الملإ الأعلى، ومن لدن خالق القوى والقدر"(٤).

المراغي رحمه الله ذكر بعض وجوه الإعجاز في القرآن وهو موافق لما قرره أهل العلم، وأزيد الأمر وضوحا بأقوال أهل العلم، ومن ذلك قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وكون القرآن أنه معجزة ليس هو من جهة فصاحته وبلاغته فقط، أو نظمه وأسلوبه فقط، ولا من جهة إخباره بالغيب فقط، ولا من جهة صرف الدواعي عن معارضته فقط، ولا من جهة سلب

---

(١) سبق تخريجه ص(٤٩٩).

(٢) تفسير المراغي(٥/٨٧).

(٣) سورة النمل الآية (٧٦).

(٤) تفسير المراغي(٧/١٣٥).

قدرتهم على معارضته فقط، بل هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة، من جهة اللفظ، ومن جهة النظم، ومن جهة البلاغة في دلالة اللفظ على المعنى، ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وملائكته وغير ذلك.

ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الغيب الماضي، وعن الغيب المستقبل، ومن جهة ما أخبر به عن المعاد، ومن جهة ما بين فيه من الدلائل اليقينية والأقيسة العقلية التي هي الأمثال المضروبة كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾[٢].

وقال: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[٣].

وكل ما ذكره الناس من الوجوه في إعجاز القرآن هو حجة على إعجازه ولا تناقض في ذلك، بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له"[٤].

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله معلقا على قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[٥] فقال: "إن حصل لكم ريبٌ في القرآن الكريم وصدقِ من جاء به، وقلتم إنه مفتعل فأتوا بسورة واحدة تشبهه، وهذا خطاب لأهل الأرض أجمعِهم، ومن المحال أن يأتي واحد منهم بكلام يفتعله ويختلقه من تلقاء نفسه، ثم يطالب أهل الأرض بجمعهم أن يعارضوه في أيسر جزء منه، يكون مقداره ثلاث آيات من عدة ألوف، ثم تعجز الخلائق كلهم عن ذلك، حتى أن الذين راموا معارضته كان ما عارضوه من أقوى الأدلة على صدقه، فإنهم أتوا بشيء يستحي العقلاء من سماعه، ويحكمون بسماجته

---

(١) سورة الإسراء الآية (٨٩).

(٢) سورة الكهف الآية (٥٤).

(٣) سورة الزمر الآية (٢٨-٢٩).

(٤) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لتقي الدين أبي العباس ابن تيمية، تحقيق: علي بن حسن - عبد العزيز بن إبراهيم - حمدان بن محمد، دار العاصمة، ط٢، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م (٦/٢٧٧).

(٥) سورة البقرة الآية (٢٣).

وقبح ركاكته وخسته، فهو كمن أظهر طيبا لم يشم أحد مثل ريحه قط، وتحدى الخلائق ملوكهم وسوقتهم بأن يأتوا بذرة طيب مثله، فاستحى العقلاء وعرفوا عجزهم، وجاء الحمقاء بعذرة منتنة خبيثة؛ وقالوا: قد جئنا بمثل ما جئت به، فهل يزيد هذا ما جاء به إلا قوة وبرهانا وعظمة وجلالة؟ وأكد تعالى هذا التوبيخ والتقريع والتعجيز بأن قال ﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾[١] كما يقول المعجز لمن يدَّعي مقاومته: اجهد علي بكل من تقدر عليه من أصحابك وأعوانك وأوليائك، ولا تبق منهم أحدًا حتى تستعين به فهذا لا يقدم عليه إلا أجهل العالم وأحمقه وأسخفه عقلًا، إن كان غير واثق بصحة ما يدَّعيه، أو أكملهم وأفضلهم وأصدقهم وأوثقهم بما يقوله، والنبي يقرأ هذه الآية وأمثالها على أصناف الخلائق أميِّهم وكتابيِّهم وعربِهم وعجمِهم، ويقول: لن تستطيعوا ذلك ولن تفعلوه أبدا، فيعدلون معه إلى الحرب والرضى بقتل الأحباب، فلو قدروا على الإتيان بسورة واحدة لم يعدلوا عنها إلى اختيار المحاربة، وايتام الأولاد وقتل النفوس، والإقرار بالعجز عن معارضته،

وتقرير النبوة بهذه الآية وجوه متعددة؛ هذا أحدها، وثانيها: إقدامه هذا الأمر وإسجاله على الخلائق إسجالًا عامًّا إلى يوم القيامة أنهم لن يفعلوا ذلك أبدًا ،فهذا لا يقدم عليه ويخبر به إلا عن علمٍ لا يخالجه شكٌّ مستندٌ إلى وحيٍ من الله تعالى، وإلا فعلم البشر وقدرته يضعفان عن ذلك.

وثالثها: النظر إلى نفس ما تحدَّى به، وما اشتمل عليه من الأمور التي تعجز قوى البشر على الإتيان بمثله الذي فصاحته ونظمه وبلاغته فرد من أفراد إعجازه.

وهذا الوجه يكون معجزةً لمن سمعه وتأمَّله وفهِمَه، وبالوجهين الأوَّلين يكون معجزة لكل من بلغه خبره، ولو لم يفهمه ولم يتأمَّله، فتأمَّل هذا الموضع من إعجاز القرآن تعرف فيه قصور كثيرٍ من المتكلمين وتقصيرَهم في بيان إعجازه وأنهم لن يوفوه عشر معشار حقه"[٢].

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٣).

(٢) بدائع الفوائد(٤/٩٤٥).

الفصل الثالث: آراء المراغي الاعتقادية في الإيمان بالرسل

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

التمهيد: في تعريف النبي والرسول والفرق بينهما.

المبحث الأول: آراء المراغي الاعتقادية في الإيمان بالأنبياء والرسل عموما.

المبحث الثاني: آراء المراغي الاعتقادية في الإيمان بنبينا محمد ﷺ.

المبحث الثالث: آراء المراغي الاعتقادية في ما يتعلق بالأنبياء والرسل.

التمهيد: تعريف النبي والرسل والفرق بينهما

النبي: مأخوذ من النباوة أو النَّبْوَةِ بمعنى العلو والرفعة، أو مأخوذ من النبأ بمعنى الخبر.

والرسول: مأخوذ من الإرسال بمعنى التوجه، أو الرسل بمعنى التتابع(١).

وقال المراغي رحمه الله في التعريف: "والنبي من النبأ: وهو الخبر المهم العظيم الشأن، وفي لسان الشرع من أوحى الله إليه وأنبأه بما لم يكن يعلم بكسبه، من خبر أو حكم به، يعلم علمًا ضروريا أنه من الله عز وجل، والرسول: نبي أمره الله بتبليغ شرع ودعوة دين، وبإقامته والعمل به، ولا يشترط أن يكون كتابًا يُقرَأُ وينشَرُ، ولا شرعًا جديدًا يعمل به ويحكم بين الناس، بل قد يكون تابعًا لشرع غيره كلِّهن كالرسل من بني إسرائيل الذين كانوا يتبعون التوراة عملا وحكما"(٢).

وقال أيضا: "الرسول: من جاء بشرع جديد، والنبيُّ يشمل هذا، ويشمل من جاء لتقرير شرعٍ سابقٍ كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهما السلام"(٣).

اختلف أهل العلم في الفرق بين النبي والرسول على قولين:

الأول: قول من قال: لا فرق بينهما(٤).

الثاني: قول من قال: إنهما متغايران، ومن ذلك قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فالنبي هو الذي ينبئه الله، وهو ينبئ بما أنبأ الله به، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله، ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالةً فهو نبيٌّ وليس برسول، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾(٥)، وقوله: ﴿مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ فذكر إرسالا يعمُّ النَّوعين، وقد خصَّ أحدَهما بأنه رسولٌ فإن هذا هو الرسول المطلق الذي أمره بتبليغ رسالته إلى

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة، مادة نبأ(٥/٣٨٥)، ولسان العرب، مادة نبأ(١/١٦٢)، والنهاية في غريب الحديث للجزري(٥/٨).

(٢) تفسير المراغي(٣/٤١١).

(٣) تفسير المراغي(٦/٢٤٦).

(٤) أعلام النبوة لأبي الحسن الماوردي، دار ومكتبة الهلال، ط١، ١٤٠٩هـ، (١/٥٠-٥١).

(٥) سورة الحج الآية (٥٢).

من خالف الله كنوح، وقد ثبت في الصحيح أنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض، وقد كان قبله أنبياء كشيت وإدريس وقبلهما آدم كان نبيا مكلما"[١].

وقال القرطبي رحمه الله في الفرق بينهما: "فكل رسول نبي، وليس كل نبيٍّ رسولًا، لأن الرسول والنبي قد اشتركا في أمر عام وهو النبأ، وافترقا في أمر خاص وهي الرسالة"[٢].

وأوضح الشيخ الشنقيطي رحمه الله بتعلقه على قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ ﴾[٣] فقال: "وآية الحج هذه تبين أن ما أشهر على ألسنة أهل العلم، من أن النبي هو من أوحي إليه وحي، ولم يؤمر بتبليغه، وأن الرسول هو النبي الذي أوحي إليه، وأمر بتبليغ ما أوحى إليه غير صحيح، لأن قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ ﴾[٤] يدل على أن كلًّا منهما مرسل، وأنهما مع ذلك بينهما تغايرٌ، واستظهر بعضُهم أنَّ النبيَّ الذي هو رسولٌ أنزل إليه كتابٌ وشرعٌ مستقلٌّ مع المعجزة التي ثبتت بها نبوَّتُه، وأنَّ النبيَّ المرسلَ الذي هو غيرُ الرسول، هو من لم ينزل عليه كتابٌ وإنما أوحى إليه أن يدعوَ الناسَ إلى شريعةِ رسولٍ قبله، كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا يرسلون ويؤمرون بالعمل بما في التوراة، كما بينه تعالى بقوله: ﴿ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ ﴾[٥]"[٦].

---

(١) النبوات ص(١٨٤).

(٢) تفسير القرطبي(٧/٢٩٨).

(٣) سورة الحج الآية (٥٢).

(٤) سورة الحج الآية (٥٢).

(٥) سورة المائدة الآية (٤٤).

(٦) أضواء البيان(٥/٢٩٠).

المبحث الأول: آراء المراغي الاعتقادية في الإيمان بالأنبياء وبالرسل عموما

الإيمان بالرسل أحد أركان الإيمان، ولذلك ذكر المراغي رحمه الله بعد قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[(١)] فقال: "أي فآمنوا بالله ورسله الذين ذكرهم الله في كتابه وقص علينا قصصهم، وعمم الأمر بالإيمان بالرسل جميعا مع أن سوق الكلام في الإيمان بالنبي ﷺ، للإيماء إلى أن الإيمان به يقتضي الإيمان بهم، لأنه ﷺ مصدق لما بين يديه من الرسل، وهم شهداء على صحة نبوته"[(٢)].

وقال: "والإيمان بالنبيين يستدعي الاهتداء بهديهم والتخلق بأخلاقهم والتأدب بآدابهم"[(٣)].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾[(٤)] فقال: "بيَّن سبحانه في هذه الآيات أن للإيمان ركنين يبنى عليهما ما عداهما، ولا يقبل الإيمان بدونهما، وهما الإيمان به وبجميع رسله بدون تفرقة بين رسول وآخر، ومن أنكرهما أو أحدَهما فقد كفر وعاقبته العذاب الأليم في جهنم وبئس القرار.

ثم قال: "والخلاصة: إن الكافرين بالرسل فريقان: فريق لا يؤمن بأحد منهم، لإنكارهم النبوات وزعمهم أن ما أتى به الأنبياء من الهدى والشرائع هو من عند أنفسهم لا من عند الله، وأكثر الملحدين في هذا العصر من ذلك الفريق، وفريق آخر يؤمن ببعض الرسل دون بعض كقول اليهود نؤمن بموسى ونكفر بعيسى ومحمد فهما ليسا برسولين، وقول النصارى نؤمن

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٧٩).

(٢) تفسير المراغي(١١٨/٢).

(٣) تفسير المراغي(٢٣٣/١).

(٤) سورة النساء الآية (١٥٠).

بموسى وعيسى ونكفر بمحمد، والفريقان كافرون مستحقون للعذاب، ولا عبرة بما يدعونه إيمانا"[١].

وأوضح بعد قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾[٢] فقال: "أي والذين آمنوا بالله وجميع الرسل وعملوا بشريعة آخرهم، علمًا منهم بأن جميعهم مرسل من عند الله"[٣].

المراغي رحمه الله ذكر الأدلة على وجوب الإيمان بالرسل، وأنه لا يقبل إيمان العبد إلا بإيمانه بجميع الرسل، وأزيد الأمر بذكر بأقوال أهل العلم في ذلك:

قال محمد ابن نصر المروزي[٤] رحمه الله في شرح حديث جبريل عليه السلام في أركان الإيمان: "وأما قوله: ورسله: فأن تؤمن بمن سمى الله في كتابه من رسله، وتؤمن بأن لله سواهم رسلا وأنبياء لا يعلم أسماءهم إلا الذي أرسلهم، وتؤمن بمحمد ﷺ، وإيمانك به غير إيمانك بسائر الرسل، إيمانك بسائر الرسل إقرارك بهم، وإيمانك بمحمد ﷺ إقرارك به وتصديقك إياه واتباعك ما جاء به، فإذا اتبعت ما جاء به، أديت الفرائض وأحللت الحلال وحرمت الحرام ووقفت عند الشبهات وسارعت في الخيرات"[٥].

ومما يوضح الإيمان بالرسل عليهم السلام أنه لابد من الإيمان بهم من أمور أربعة دلت عليها الأدلة الواردة في الكتاب والسنة وهي:

"الأول: الإيمان بأن رسالتهم حق من الله تعالى، فمن كفر برسالة واحد منهم فقد كفر بالجميع.

---

(١) تفسير المراغي(٢/٣٤٥).

(٢) سورة النساء الآية (١٥٢).

(٣) تفسير المراغي(٢/٣٤٦).

(٤) محمد بن نصر أبو عبد الله المروزي الفقيه صاحب التصانيف الكثيرة والكتب الجمة، ولد ببغداد ونشأ بنيسابور، ورحل إلى سائر الأمصار في طلب العلم، واستوطن سمرقند، وكان من أعلم الناس باختلاف الصحابة، ومن بعدهم في الأحكام، من مؤلفاته: تعظيم قدر الصلاة، وقيام الليل، ولد سنة (٢٠٢) وتوفي سنة (٢٩٤) انظر: تاريخ بغداد(٤/٥٠٨)، وسير أعلام النبلاء(١٤/٣٣).

(٥) تعظيم قدر الصلاة(١/٣٩٣).

الثاني: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم باسمه مثل: محمد وإبراهيم، وموسى، وعيسى ونوح عليهم الصلاة والسلام، وهؤلاء الخمسة هم أولو العزم من الرسل، وأما من لم نعلم اسمه منهم فنؤمن به إجمالا.

الثالث: تصديق ما صح عنهم من أخبارهم.

الرابع: العمل بشريعة من أرسل إلينا منهم، وهو خاتمهم محمد ﷺ المرسل إلى جميع الناس قال الله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[1].

وللإيمان بالرسل ثمراتٌ جليلةٌ منها:

الأولى: العلم برحمة الله تعالى وعنايته بعباده؛ حيث أرسل إليهم الرسل ليهدوهم إلى صراط الله تعالى، ويبينوا لهم كيف يعبدون الله، لأن العقل البشري لا يستقل بمعرفة ذلك.

الثانية: شكره تعالى على هذه النعمة الكبرى.

الثالثة: محبة الرسل عليهم الصلاة والسلام وتعظيمهم، والثناء عليهم بما يليق بهم، لأنهم رسل الله تعالى، ولأنهم قاموا بعبادته، وتبليغ رسالته، والنصح لعباده"[2].

---

(١) سورة النساء الآية (٦٥).

(٢) الفوائد المستفادة من شرح ثلاثة الأصول ص(١٤).

المبحث الثاني: آراء المراغي الاعتقادية في الإيمان بنبينا محمد ﷺ

المراغي رحمه الله عرض بعض المسائل المتعلقة بالنبي ﷺ على وجه الخصوص، ومن تلك المسائل:

الأولى: أنه بشر عليه الصلاة والسلام

فقال بعد قوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾(١): "أي قل أيها الرسول الذي بعث كما بعث غيره من الرسل مبشرا من أجاب دعوته بحسن الثواب، ومنذرا من لم يقبلها بسوء العقاب، لهؤلاء المكذبين لك بغير علم يميزون به بين شؤون الألوهية وحقيقة النبوة، فيقترحون عليك من الآيات الكونية ما يعلمون أنه ليس في مقدور البشر، فهم إما أن يقولوه تعجيزا، وإما أن يظنوا أن الإنسان لا يكون رسولا إلا إذا خرج من حقيقة البشرية وصار قادرا على ما لا يقدر عليه البشر، وعالما بكل ما يعجز عن علمه البشر: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾، أتصرف بما خزنه وحفظه فيها من أرزاق العباد وشؤون المخلوقات، فكل هذا لله وحده يتصرف فيه بما يشاء، فيعطي لعباده من خزائنه بحسب ما أوتي كل منهم من الاستعداد في دائرة ارتباط الأسباب بالمسببات، ولا يقدر أحد أن يتجاوز ذلك إلى ما لم يؤته ولم يصل إليه استعداده، فالتصرف المطلق إنما هو لله القادر على كل شيء، وليس من موضوع الرسالة أن يكون الرسول المبلغ عنه أمر الدين قادرًا على ما لا يقدر عليه البشر من التصرف في المخلوقات بالأسباب فضلا عن التصرف بغير سبب مما طلبه المشركون منه، وجعلوه شرطًا للإيمان به كتفجير الينابيع والأنهار في أرض مكة، وإيجاد الجنات والبساتين فيها، وإسقاط السماء عليهم كسفا، والإتيان بالله والملائكة قبيلا ...

والخلاصة: إن الأنبياء لم يعطوا علم الغيب بحيث يكون إدراكه من علومهم المكتسبة، كذلك لم يعطوا التصرف في خزائن ملك الله، فلم يمكنهم ما لم يمكن البشر من أسبابه حتى يكون من كسبهم وعملهم، ولا هو أعطاهم ذلك على سبيل الخصوصية.

---

(١) سورة الأنعام الآية (٥٠).

ونفي الدعاء الرسول من الأمرين يتضمن التبرؤ من ادعاء الألوهية أو ادعاء شيء من صفات الإله القادر على كل شيء، العليم بكل شيء، ويتضمن جهل المشركين حقيقة الألوهية وحقيقة الرسالة، فقد اقترحوا عليه من الأعمال ما لا يقدر عليه إلا من له التصرف فيما وراء الأسباب، وطلبوا منه الإخبار بما يكون في الزمان المستقبل ولا يعلمه إلا من كان علم الغيب صفة له كسائر الصفات، فقد سألوه عن وقت الساعة، وعن وقت نزول العذاب بهم، وعن وقت نصر الله تعالى له عليهم.

وإذا علمت أن الأنبياء لم يؤتوا ذلك فأحر بمن دونهم منزلة عند الله من القديسين والأولياء المقربين ألا يكون لهم ذلك، فادعاؤه لهم جهل عظيم وإثم كبير، ولا ينبغي التحدث به لا بين العامة ولا بين الخاصة، كما يجب محوه من الأذهان لدى الجاهلين بسنن الله في الأكوان"[١].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾[٢] فقال: "كان لكفار مكة اقتراحان تقدموا بهما إلى النبي ﷺ في مواطن مختلفة:

(١) أن ينزل على الرسول ملك من السماء يكون معه نذيرا يرونه ويسمعون كلامه، وإلى هذا تشير الآية.

(٢) ينزل الملك عليهم بالرسالة من ربهم.

الاقتراح الأول مبني على اعتقاد أن أرقى البشر عقلا وأخلاقا وآدابا وهم الرسل عليهم السلام ليسوا بأهل لأن يكونوا رسلا بين الله وبين عباده، لأنهم بشر يأكلون ويشربون كما جاء في سورة المؤمنون ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾[٣]

وقد رد الله تعالى الاقتراحين من وجهين:

(١) بقوله: ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾[٤]: أي ولو أنزلنا ملكا كما اقترحوا لقضى الأمر بإهلاكهم ثم لا يؤخرون ولا يمهلون ليؤمنوا، بل يأخذهم العذاب عاجلا كما

---

(١) تفسير المراغي(٣/٣٠٧- ٣٠٨).

(٢) سورة الأنعام الآية (٨).

(٣) سورة المؤمنون الآية (٣٣-٣٤).

(٤) سورة الأنعام الآية (٨).

مضت به سنة الله فيمن قبلهم، قال ابن عباس: «ولو أتاهم ملك في صورته لأهلكناهم ثم لا يؤخرون».

(٢) بقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[(١)] أي ولو جعل الرسول ملكا لجعل متمثلا في صورة بشر ليمكنهم رؤيته وسماع كلامه الذي يبلغه عن ربه، ولو جعله ملكا في صورة بشر لاعتقدوا أنه بشر لأنهم لا يدركون منه إلا صورته وصفاته البشرية التي تمثل بها، وحينئذ يقعون في نفس اللبس والاشتباه الذي يلبسون على أنفسهم باستنكار جعل الرسول بشرا، ولا ينفكون يقترحون جعله ملكا وهم قد كانوا في غنى عن ذلك، وهذا شأن كثير من الناس يوقعون أنفسهم في المشكلات بسوء صنيعهم ثم يحارون في المخلص منها"[(٢)].

ذكر المراغي الشكوك والطعون التي يطرحها الكفار على نبوة النبي ﷺ ورد الله عليها؛ فقال بعد قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣)﴾[(٣)]: "وقد ذكر منها شبهتين:

(١) إنه قد تنزل آية من آيات الكتاب تنسخ شريعة ماضيةً فيعيرون محمدا بذلك.

(٢) إنهم قالوا: إن ما جاء به إنما هو تعليم من البشر من بعض أهل الكتاب لا من الله، فأبطل هذه الشبهة بأنه كلام عربي مبين، وما نسبتم إليه تعليمه أعجمي، فكيف به يعلمه الكلام العربي الفصيح الذي أعجز العرب قاطبة أن يأتوا بمثله؟ ...

ثم قال في إيضاح قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾[(٤)] أي وإنا لنعلم أن هؤلاء المشركين يقولون

---

(١) سورة الأنعام الآية (٩).

(٢) تفسير المراغي(٣/٦٥ -٦٦).

(٣) سورة النحل الآية (١٠١-١٠٣).

(٤) سورة النحل الآية (١٠٣).

جهلا: إنما يعلِّمُ محمدًا هذا الذي يتلوه بشر من بني آدم وليس بالوحي من عند الله، فرد الله عليهم وكذبهم في قيلهم فقال: ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾(١) أي إن لسان الذي تميلون إليه بأنه يعلم محمدا أعجمي فهو عبد روميٌّ فيما تزعمون، والقرآن لسان عربيٌّ مبين، فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه الشاملة من رجل أعجمي؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من عقل.

وخلاصة هذا: إن ما يسمعه من ذلك البشر كلام أعجمي لا يفهمه هو ولا أنتم، والقرآن كلام عربي تفهمونه بأدنى تأمل، فكيف يكون هو ما تلقفه منه؟ هبه تعلم منه المعنى باستماع كلامه، فهو لم يلقف منه اللفظ، لأن ذلك أعجمي وهذا عربي، والقرآن كما هو معجز باعتبار المعنى هو معجز من حيث اللفظ، إلى أن العلوم الكثيرة التي في القرآن لا يمكن تعلمها إلا بالدرس والتلقين من أخصائيين مع الاختلاف إليهم مددا متطاولة، فليس من الميسور ولا مما يجد العقل اطمئنانا إليه أن يتعلم مثل هذا من غلام سوقي سمع منه أخبارا بلغة أعجمية لعله لم يكن يعرف معناها، وعلى نحو آخر كأنه قيل لهم: أنتم أفصح الناس بيانا، وأقواهم حجة وبرهانا، وأقدرهم على الكلام نظما ونثرا، وقد عجزتم وعجز جميع العرب أن يأتوا بمثله، فكيف تنسبونه إلى أعجمي ألكَنَ.

وفي التشبث بأمثال هذه المطاعن الركيكة، والخرافات الساذجة، أبلغ دليل على أنهم بلغوا غاية العجز، ونهاية السخف.

فدعهم يزعمون الصبح ليلًا   أيَعْمَى النَّاظرون عن الضياء(٢)"(٣)

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾(٤) فقال: وقوله: "على عبده: أي على رسوله ﷺ، ووصفه بذلك تشريفا له بكونه في أقصى مراتب العبودية، وتنبيها إلى أن الرسول لا يكون إلا عبدا للمرسل"(٥).

---

(١) سورة النحل الآية (١٠٣).

(٢) لم أجد من قاله، ولعله من نظم المراغي رحمه الله.

(٣) تفسير المراغي(٥/٢٥٨-٢٦٠).

(٤) سورة الفرقان الآية (١).

(٥) تفسير المراغي(٦/٣٨٦).

الثانية: أصناف الناس تجاه بعثته عليه الصلاة والسلام

ذكر المراغي عن "الإمام الغزالي رحمه الله أنه قال: إن الناس في شأن بعثة النبي ﷺ أصناف ثلاثة:

(١) من لم يعلم بها بالمرة، وهذا ناجٍ حتمًا[١].

(٢) من بلغته الدعوة على وجهها ولم ينظر في أدلتها إهمالا أو عنادا واستكبارا، وهذا مؤاخذٌ حتما.

(٣) صنفٌ ثالثٌ بين الدرجتين، بلغهم اسم محمد ﷺ ولم يبلغهم نعته ووصفه، بل سمعوا منذ الصبا أن كذابا مدلِّسًا اسمه محمد ادَّعى النبوَّةَ كما سمع صبيانُنا أن كذابًا يقال له المقفَّع تحدَّى بالنبوة كاذبا، فهؤلاء عندي في معنى الصنف الأول، فإن أولئك مع أنهم لم يسمعوا اسمه لم يسمعوا ضد أوصافه، وهؤلاء سمعوا ضد أوصافه وهذا لا يحرك داعية النظر في الطلب"[٢].

وذكر الحديث فقال: "وفي الصحيحين عن أبي موسى أن النبي ﷺ قال: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه؛ فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق»[٣]"[٤].

وقال رحمه الله: "روى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنه قال: «**لما أنزل الله:** ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾[٥] **أتى النبي ﷺ الصفا فصعد عليه ثم نادى يا صباحاه، فاجتمع**

---

(١) قال ابن باز: "وأما من لم يبلغه خبر النبي ﷺ من أهل الفترات الذين لم يسمعوا بالرسول ولا بالقرآن فهؤلاء يقال لهم: أهل الفترة، وهؤلاء أمرهم إلى الله يوم القيامة، يمتحنهم جل وعلا، فمن نجح في الامتحان دخل الجنة ومن لم ينجح دخل النار، نسأل الله السلامة". دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية الدرس ١٧. www.islamweb.net/.

(٢) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة لأبي حامد الغزالي، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ص(٥٦).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (٩/٩٣) الحديث رقم(٧٢٨٣)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب شفقته صلى الله عليه وسلم على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم (٤/١٧٨٨) الحديث رقم(٢٢٨٣).

(٤) تفسير المراغي(٥/١٦٨).

(٥) سورة الشعراء الآية (٢١٤).

الناس إليه، بين رجل يجيء إليه ورجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟ قالوا: نعم، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم، أما دعوتنا إلا لهذا؟ » وأنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ﴾[1]»[2].

الثالث: تقدير قتله لا يوجب ضعفًا في دينه

قال المراغي: "إن قتل محمد ﷺ لا يوجب ضعفًا في دينه لأمرين:

(ا) إن محمدًا بشرٌ كسائر الأنبياء، وهؤلاء قد ماتوا أو قتلوا.

(ب) إن الحاجة إلى الرسول هي تبليغ الدين فإذا تم له ذلك فقد حصل الغرض ولا يلزم من قتله فساد دينه"[3].

الرابع: منصب النبوة

ذكر المراغي بعد قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾[4]: "أي ما كان من شأن أي نبي ولا من سيرته أن يغل، لأن الله عصم أنبياءه منه، فهو لا يليق بمقامهم ولا يقع منهم، لأن النبوة أعلى المناصب الإنسانية، فصاحبها لا يرغب فيما فيه دناءة وخسة ...

---

(١) سورة المسد الآية (١).

(٢) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك} ألن جانبك (١١١/٦)، الحديث رقم(٤٧٧٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: {وأنذر عشيرتك الأقربين} (١٩٣/١) الحديث رقم(٣٥٥).

(٣) تفسير المراغي(٧٣/٢).

(٤) سورة آل عمران الآية (١٦١).

ثم ذكـر بعـد قولـه تعـالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1] فقـال: "أي إن هـذا الرسـول ولـد في بلـدهم، ونشـأ بـين ظهـرانيهم، ولم يـروا منـه طـوال حياتـه إلا الصـدق والأمانة والدعوة إلى الله والإعراض عن الدنيا، فكيف يظن بمن هذه حاله خيانة وغلول؟.

وقد وصفه الله بأوصاف كل منها يقتضي عظيم المنة:

(١) إنه من أنفسهم أي إنه عربي من جنسهم، وبذا يكونون أسرع الناس إلى فهم دعوته والاهتداء بهديه، وأقرب إلى الثقة به من غيرهم، إلى أنهم إذا كانوا على كثب منه وقفوا على أحواله من الصدق والأمانة، إلى ما لهم بذلك من شرف وجليل خطر كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[2] وقال:

وكـم أب قـد عـلا بـابن ذرا شـرف كمـا علـت برسـول الله عـدنان[3] ...

ثم قال: وتخصيص هذه المنة بالعرب مع أنه بعث للناس كافة لمزيد انتفاعهم به، على أن هذه النعمة الكبرى ذكرت في آيات أخرى كقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[4].

(٢) إنه يتلو عليهم آياته الدالة على قدرة الله ووحدانيته وعلمه، ويوجه النفوس إلى الاستفادة منها، والاعتبار بها كما جاء في قوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[5]، وقوله: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾[6]، وقوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[7].

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٦٤).

(٢) سورة الزخرف الآية (٤٤).

(٣) من قول: عليّ بن العبَّاس الرُّوميّ ديوان ابن الرومي (٣/٣٦٩) ومطلعها:
أجنت لك الوجد أغصان وكُثبانُ ** فيهنَّ نوعان تفاحٌ ورمَّانُ.

(٤) سورة الأنبياء الآية (١٠٧).

(٥) سورة آل عمران الآية (١٩٠).

(٦) سورة الشمس الآية (١-٢).

(٧) سورة الغاشية الآية (١٧-٢٠).

(٣) إنه يزكيهم ويطهرهم من العقائد الزائفة، ووساوس الوثنية وأدرانها؛ إذ أن العرب وغيرهم قبل الإسلام كانوا فوضى في أخلاقهم وعقائدهم وآدابهم، فكان محمد ﷺ يقتلع منهم جذور الوثنية، ويدفع عنهم العقائد الباطلة كاعتقادهم أن وراء الأسباب الطبيعية التي ارتبطت بها المسببات منافع ترجى، ومضار تخشى من بعض المخلوقات، فيجب تعظيمها والالتجاء إليها، دفعا لشرها، وجلبا لخيرها، وتقربا إلى خالقها، ولا شك أن من يعتقد مثل هذا يكون أسير الأوهام، وعبد الخرافات، يخاف في موضع الأمن، ويرجو حيث يجب الحذر والخوف.

(٤) إنه يعلمهم الكتاب والحكمة، فتعليم الكتاب اضطرهم إلى تعلم الكتابة، وأخرجهم من الأمية إلى نور العلم والعرفان، فقد طلب إليهم كتابة القرآن، واتخذ كتبه للوحي، وكتب كتبا دعا بها الملوك والرؤساء إلى الإسلام في سائر الأصقاع المعروفة، فانتشرت الكتابة بينهم، وعظمت مدنيتهم، وامتدت سلطتهم فملكوا الأمم التي كان لها السلطان والصولة والنفوذ في تلك الحقبة.

كذلك علمهم الحكمة وأرشدهم إلى البصر بفهم الأشياء، ومعرفة أسرارها، وفقه أحكامها، وبيان ما فيها من المصالح والحكم، وهداهم إلى طرق الاستدلال، ومعرفة الحقائق، ببراهينها، فكان ذلك من أكبر البواعث على العمل بها، والتمسك بأهدابها، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا"[(١)].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ﴾[(٢)] فقال: هو وصفٌ خاصٌ بمحمد ﷺ لا يشاركه فيه غيره من النبيين، فالأمية آية من آيات نبوته، فهو مع أميته قد جاء بأعلى العلوم النافعة التي بها يصلح ما فسد من عقائد البشر وأخلاقهم وآدابهم وأعمالهم، فغير نظم البشر في تلك الحقبة الطويلة وأثر في حياة الأمم التي حوله أكبر الأثر بما شهد له المنصفون في كل الأديان"[(٣)].

---

(١) تفسير المراغي(٢/٩٨- ١٠٢).

(٢) سورة الأعراف الآية (١٥٧).

(٣) تفسير المراغي(٣/٤١٥).

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾[(١)] فقال: "والتعبير عنه ﷺ (بصاحبهم) لتذكيرهم بأنهم يعرفونه من أول نشأته إلى أن تجاوز الأربعين من عمره، فما عليهم إلا أن يتفكروا في سيرته ليعلموا أنه ليس من دأبه الكذب، ولا هو مما عهد عنه كما شهد بذلك بعض زعمائهم[(٢)] فقال: إن محمدا لم يكذب قط على أحد من الناس، أفيكذب على الله؟ ومن ثم قال تعالى في أولئك الزعماء: ﴿ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾[(٣)]، ولو تأمل مشركو مكة في نشأته ﷺ وما جربوا من أمانته وصدقه إلى أن اكتهل، ثم تفكروا فيما قام يدعوهم إليه من توحيد الله وعبادته وحده، وما دعاهم إليه من إصلاحٍ في حالهم الدينية والمدنية والاجتماعية لعلموا أن هذا كلَّه لا يصدر من مجنون، بل الذي يقتضيه العقل ويسرع إليه الفكر أن هذا ليس من رأي ذلك النبي الأمي الناشئ بين الأميين، وأن ما أقامه من الحجج والبراهين العقلية والكونية على ما يدَّعي لا يصدر ممن لم يناظر ولم يفاخر ولم يجادل أحدًا فيما مضى، إن هو إلا وحي من الله ألقاه في روعه ونزل من لدنه على روح القدس، والله يختص بفضله ورحمته من يشاء، وهو ذو الفضل العظيم"[(٤)].

ذكر بعد قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾[(٥)] فقال: "حكى الله هنا أن المشركين ذكروا خمس صفات للنبي تمنع النبوة في زعمهم:

(١) ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ؟ ﴾[(١)]: أي أيُّ شيء ميزه عنا وجعله يدعي النبوة مع أنه يأكل كما نأكل ويشرب كما نشرب؟

---

(١) سورة الأعراف الآية (١٨٤).

(٢) هو أبو سفيان بن حرب رضي الله عنه، أخرج حديثه البخاري، كتاب الجهاد والسير، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١/٨)، الحديث رقم(٧)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (١٣٩٣/٣) الحديث رقم(١٧٧٣).

(٣) سورة الأنعام الآية (٣٣).

(٤) تفسير المراغي(٤٤٩/٣- ٤٥٠).

(٥) سورة الفرقان الآية (٧).

(٢) ﴿وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾(٢) لابتغاء الرزق كما نفعل فهو مثلنا، فمن أين له الفضل علينا؟ وهم يقصدون بذلك استبعاد الرسالة عنه، لمنافاتها للأكل والشرب وطلب المعاش، وكأنهم قالوا: إن صح ما يدَّعيه، فما باله لم يخالف حاله حالنا ولم يؤت ميزة دوننا؟

وما هذا منهم إلا لضعف عقولهم وقصور إدراكهم، فإن الرسل لم يمتازوا بأمور حسية، بل بصفات روحية، وفضائل نفسية، فطرهم الله عليها توجب صفاء عقولهم وطهارة نفوسهم، يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾(٣).

(٣) ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾(٤) أي فهلا أنزل إليه ملك من عند الله يكون شاهدا على صدق ما يدعيه، ويرد على من يخالفه، وشبيه بهذا ما قال فرعون عن موسى ﴿فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ﴾(٥).

(٤) ﴿أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ﴾(٦) أي وهلا أنزل عليه كنزٌ من السماء ينفق منه حتى لا يحتاج إلى المشي في الأسواق لطلب المعاش.

(٥) ﴿أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَا﴾(٧) أي وهلا كان له بستان يعيش من غلته كما يعيش المياسير من الناس"(٨).

الخامس: عصمته

ذكر بعد قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾(١) فقال: "أقسم سبحانه بربوبيته لرسوله بأن أولئك

(١) سورة الفرقان الآية (٧).
(٢) سورة الفرقان الآية (٧).
(٣) سورة الكهف الآية (١١٠).
(٤) سورة الفرقان الآية (٧).
(٥) سورة الزخرف الآية (٥٣).
(٦) سورة الفرقان الآية (٨).
(٧) سورة الفرقان الآية (٨).
(٨) تفسير المراغي(٦/٣٩٢).

الذين رغبوا عن التحاكم إليك هم ومن ماثلهم من المنافقين، لا يؤمنون إيمانًا حقًّا، وهو إيمان الإذعان والانقياد إلا إذا كملت لهم ثلاث خصال:

(١) أن يحكموا الرسول في القضايا التي يختصمون فيها ويشتجرون ولا يتبين لهم وجه الحق فيها.

(٢) ألا يجدوا حرجًا وضيقًا فيما يحكم به: أي أن تذعن نفوسهم لقضائه وحكمه فيما شجر بينهم بلا امتعاض من قبوله والعمل به، إذ المؤمن الكامل ينشرح صدره لحكم الرسول لأول وهلة، لأنه الحق، وأن الخير والسعادة في الإذعان له.

(٣) الانقياد والتسليم لذلك الحكم، فكثيرا ما يعرف الشخص أن الحكم حق، لكنه يتمرد عن قبوله عنادًا أو يتردد في ذلك؛ وفي هذه الآية إشارة إلى شيئين:

(١) عصمة النبي ﷺ بمعنى أنه لا يحكم إلا بالحق المطابق لصورة الدعوى وظاهرها لا بحسب الواقع في نفسه، إذ الحكم في شريعته على الظاهر، والله يتولى السرائر ...

(٢) أنهم لا يكونون مؤمنين إيمانا صحيحا مستحقا للفوز بالثواب والنجاة من العقاب إلا إذا كانوا موقنين بقلوبهم، مذعنين في بواطنهم بصدق الرسول في كل ما جاء به الدين.

ومن أمارة ذلك أن يحكموه فيما شجر بينهم من خلاف، وألا يجدوا ضيقا وحرجا في حكمه، إذ الضيق إنما يلازم قلب من لم يخضع، وأن ينقادوا انقيادا كاملا بلا تمرد ولا عناد في قبوله"[٢].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ ﴾[٣] فقال: "أمر الله رسوله ﷺ أن يسأل كفار قريش: أي شيء شهادته أكبر شهادة وأعظمها، وأجدر أن تكون أصحَّها وأصدقَها؟ ثم أمره بأن يجيب عن هذا السؤال بأن أكبر الأشياء شهادة هو من لا يجوز أن يقع في شهادته كذبٌ ولا زورٌ ولا خطأٌ، وذلك هو الله تعالى، وهو الشهيد بيني وبينكم، وقد أوحى إليَّ هذا القرآن من لدنه لأنذركم به عقابه على

(١) سورة النساء الآية (٦٥).

(٢) تفسير المراغي(٢/٢٥١).

(٣) سورة الأنعام الآية (١٩).

تكذيبي فيما جئت به مؤيدا بشهادته سبحانه، وأنذر من بلغه هذا القرآن، إذ كل من بلغه فهو مدعو إلى اتباعه حتى تقوم القيامة.

وشهادة الله بين الرسول وقومه ضربان: شهادته برسالة الرسول، وشهادته بصدق ما جاء به، والأولُ أنواعٌ ثلاثة:

(١) إخباره بها في كتابه بنحو قوله ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾[(١)]، وقوله: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾[(٢)].

(٢) تأييده بالآيات الكثيرة التي من أعظمها القرآن، فهو المعجزة الدائمة بما ثبت من عجز البشر عن الإتيان بسورة من مثله، وبما اشتمل عليه من أخبار الغيب ووعد الرسول والمؤمنين بنصر الله وإظهارهم على أعدائهم.

(٣) شهادة كتبه السابقة له، وبشارة الرسل السابقين به، ولا نزال هذه الشهادة في كتب اليهود والنصارى، والثاني –أي صدق ما جاء به– ثلاثة أنواع أيضا:

(١) شهادة كتبه بذلك كقوله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾[(٣)].

(٢) ما أقامه من الآيات في الأنفس والآفاق مما يدل على توحيده واتصافه بصفات الكمال.

(٣) ما أودعه جل شأنه في الفطرة البشرية من الإيمان بإله واحد له صفات الكمال وببقاء النفس.

والخلاصة: إن شهادته تعالى هي شهادة آياته في القرآن، وآياته في الأكوان، وآياته في العقل والوجدان، اللذين أودعهما في نفس الإنسان"[(٤)].

---

(١) سورة الفتح الآية (٢٩).

(٢) سورة البقرة الآية (١١٩).

(٣) سورة آل عمران الآية (١٨-١٩).

(٤) تفسير المراغي(٣/٧٥-٧٦).

السادس: عموم رسالته

ذكر بعد قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[(١)]: "أي قل لجميع البشر من عرب وعجم: إني رسول الله إليكم كافة، لا إلى قومي خاصة، فهو بمعنى قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾[(٢)] وقوله: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾[(٣)] أي وأنذر به كل من بلغه من الثقلين، وقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾[(٤)]. وجاءت أحاديث صحيحة ناطقة باختصاصه ﷺ بالرسالة العامة كحديثٍ جاء في الصحيحين وغيرهما من قوله ﷺ: «**أعطيت خمسا لم يعطهنَّ أحدٌ من الأنبياء قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت لي الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة**»[(٥)]"[(٦)].

وقال: "وروى مسلم قوله ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار**»[(٧)]"[(٨)].

السابعة: معجزة انشقاق القمر في عهد النبي ﷺ

ذكر المراغي رحمه الله قوله تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾[(١)] فقال: "أي وسينشق القمر

---

(١) سورة الأعراف الآية (١٥٨).

(٢) سورة سبا الآية (٢٨).

(٣) سورة الأنعام الآية (١٩).

(٤) سورة الأنبياء الآية (١٠٧).

(٥) صحيح البخاري، كتاب التيمم، (١/٧٤) الحديث رقم(٣٣٥)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا (١/٣٧٠) الحديث رقم(٥٢١).

(٦) تفسير المراغي(٣/٤١٧).

(٧) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته (١/١٣٤)، الحديث رقم(٢٤٠).

(٨) تفسير المراغي(٧/٩١).

وينفصل بعضه من بعض، حين يختل نظام هذا العالم وتبدل الأرض غير الأرض، ونحو هذا قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾[٢]، وقوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾[٣] وكثيرٌ غيرهما من الآيات الدالة على الأحداث الكبرى التي تكون حين خراب هذا العالم وقرب قيام الساعة.

ويرى جمع من المفسرين أن هذا حدث قد حصل، وأن القمر صار فرقتين على عهد رسول الله ﷺ قبل الهجرة بنحو خمس سنين، فقد صح من رواية الشيخين وابن جرير عن أنس «**أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء (جبل بمكة) بينهما**»[٤]، وفي الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود: «**انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين، فرقة على الجبل وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: اشهدوا**»[٥]...

والذي يدل على أن هذا إخبار عن حدث مستقبل لا عن انشقاق ماض أمورٌ:

(١) إن الإخبار بالانشقاق أتى إثر الكلام على قرب مجيء الساعة، والظاهر تجانس الخبرين وأنهما خبران عن مستقبل لا عن ماض.

(٢) إن انشقاق القمر من الأحداث الكونية الهامة التي لو حصلت لرآها من الناس من لا يحصى كثرة من العرب وغيرهم، ولبلغ حدا لا يمكن أحدا أن ينكره، وصار من المحسوسات التي لا تدفع، ولصار من المعجزات التي لا يسع مسلما ولا غيره إنكارها.

(٣) ما ادَّعى أحد من المسلمين إلا من شذ أن هذه معجزة بلغت حد التواتر، ولو كان قد حصل ذلك ما كان رواته آحادا، بل كانوا لا يعدون كثرة.

(٤) إن حذيفة بن اليمان وهو ذلكم الصحابي الجليل خطب الناس يوم الجمعة في المدائن حين فتح الله فارس فقال: «ألا إن لله تبارك وتعالى يقول: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾[٦]،

---

(١) سورة القمر الآية (١).

(٢) سورة الانشقاق الآية (١).

(٣) سورة التكوير الآية (١-٢).

(٤) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب انشقاق القمر (٤٩/٥)، الحديث رقم(٣٨٦٨)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب انشقاق القمر (٢١٥٩/٤) الحديث رقم(٢٨٠٢).

(٥) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية، فأراهم انشقاق القمر (٢٠٦/٤)، الحديث رقم(٣٦٣٦)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب انشقاق القمر (٢١٥٨/٤) الحديث رقم(٢٨٠٠).

(٦) سورة القمر الآية (١).

ألا وإن الساعة قد اقتربت، ألا وإن القمر قد انشق، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق، ألا وإن اليوم المضمار وغدا السباق، ألا وإن الغاية النار، والسابق من سبق إلى الجنة»[(١)].

فهذا الكلام من حذيفة في معرض قرب مجيء الساعة وتوقع أحداثها، لا في كلام عن أحداث قد حصلت تأييدا للرسول وإثباتا لنبوته، لأن ذلك كان في معرض العظة والاعتبار. وبعد أن ذكر قرب مجيء الساعة، وكان ذلك مما يستدعي انتباههم من غفلتهم، والتفكير في مصيرهم، والنظر فيما جاءهم به الرسول من الأدلة المثبتة لنبوته، والمؤيدة لصدقه، لكنهم مع كل هذا ما التفتوا إلى الداعي لهم إلى الرشاد، والهادي لهم إلى سواء السبيل، بل أعرضوا وتولوا مستكبرين كما قال: ﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾[(٢)] أي وإن ير المشركون علامةً تدلهم على حقيقة نُبُوَّتِك، وتُرشدهم إلى صدق ما جئت به من عند ربك، يعرضوا عنها ويولوا مكذبين بها، منكرين أن يكون ذلك حقا، ويقولوا تكذيبًا منهم بها:

هذا سحر سحرنا به محمد، وهو يفعل ذلك على مر الأيام، وفي هذا إيماءٌ إلى ترادُفِ الآيات، وتتابع المعجزات"[(٣)].

المراغي رحمه الله في مسألة انشقاق القمر في مكة خالف مذهب أهل السنة والجماعة ووافق المتكلمين في إنكاره لهذه الحادثة الثابتة في الأحاديث الصحيحة التي ساقها هو بنفسه، وأما استدلاله بأثر حذيفة رضي الله عنه فهو عليه لا له، فظاهر كلام حذيفة رضي الله عنه عن ماضٍ لا مستقبل؟

قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله: "وقوله﴿ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾[(٤)] يقول جل ثناؤه: وانفلق القمر، وكان ذلك فيما ذكر على عهد رسول الله ﷺ وهو بمكة، قبل هجرته إلى المدينة، وذلك أن كفار أهل مكة سألوه آية، فأراهم ﷺ انشقاق القمر، آية حجة على صدق قوله، وحقيقة نبوته؛ فلما أراهم أعرضوا وكذبوا، وقالوا: هذا سحر مستمر، سحرنا محمد، فقال الله جل

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف(٨/٢٠٠) الحديث رقم(٣٤٧٩٨)، وأبي داود في الزهد(١/٢٤٦) الحديث رقم(٢٧٤)، والحاكم في المستدرك (٤/٦٥١) وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: صحيح.

(٢) سورة القمر الآية (٢).

(٣) تفسير المراغي(٩/٣٥٢).

(٤) سورة القمر الآية (١).

ثناؤه: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾[(١)] وبنحو الذي قلنا في ذلك جاءت الآثار، وقال به أهل التأويل"[(٢)]، فابن جرير رحمه الله ذكر الأحاديث والأثار الواردة في ذلك، ومنها أثر حذيفة رضي الله عنه.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: "وقوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾[(٣)] قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ، كما ورد ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة... وهذا أمرٌ متفقٌ عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات"[(٤)].

وممن قرر الأدلة وحكى الإجماع ورد على بعض المخالفين في هذا الباب الشيخ ابن عثيمين حيث قال رحمه الله: "ومن آيات النبي ﷺ ما أظهره الله شاهدًا على صدقه من الآيات الأفقية كما قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[(٥)] ولذلك أمثلة: -أذكر منها الأول لأنه محل الشاهد-:

المثال الأول: انشقاق القمر، فقد انشق القمر وصار فرقتين وشاهد الناس ذلك، وقد أشار الله إلى ذلك في القرآن، قال الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾[(٦)]، وقد أجمع العلماء على وقوع ذلك في عهد النبي ﷺ قبل الهجرة، وقد رآه الناس بمكة، وقال النبي ﷺ حين رآه: «**اشهدوا اشهدوا**»[(٧)]، وقدم المسافرون من كل وجه فأخبروا أنهم رأوه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وجعل الآية في انشقاق القمر دون الشمس وسائر الكواكب لأنه أقرب إلى الأرض من الشمس والنجوم، وكان الانشقاق فيه دون سائر أجزاء الفلك؛ إذ هو الجسم المستنير الذي يظهر الانشقاق فيه لكل من يراه ظهورا لا يتمارى فيه، وأنه إذا قبل الانشقاق فقبول محله أولى بذلك، وقد عاينه الناس وشاهدوه، وكان

---

(١) سورة القمر الآية (٢).

(٢) تفسير ابن جرير(٢٢/٥٦٥).

(٣) سورة القمر الآية (١).

(٤) تفسير ابن كثير(٥/٣١٥).

(٥) سورة فصلت الآية (٥٣).

(٦) سورة القمر الآية (١-٢).

(٧) سبق تخريجه ص(٥٣١).

النبي ﷺ يقرأ هذه السورة في المجامع الكبار مثل صلاة العيدين، وكل الناس يقر بذلك ولا ينكره، ولو لم يكن قد انشق لأسرع الناس إلى تكذيب ذلك"(١) ا.هـ كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، وقد استبعد أناس وقوع انشقاق القمر، وحاولوا تحريف معنى القرآن في ذلك، وقد أخطأوا خطأ كبيرا في هذا الإنكار، فالقرآن لا يتحمل المعنى الذي حرفوه إليه، والنصوص الثابتة الكثيرة من الأحاديث صريحة في انشقاقه انشقاقًا حسِّيًا مشهودًا، ولا يقدح في ذلك ما زعمه بعضهم من كونه لم ينقل في تاريخٍ غير التاريخ الإسلامي؛ فإنَّ نقله في التاريخ الإسلامي كافٍ في ذلك، وقد جاء به القرآن الكريم ولعلَّ الناسَ الذين لم ينقلوه لم يشاهدوه، لعله وقع وهم نيام أو كانوا في النهار ولم يشعروا به، أو كان في تلك الساعة مانعٌ من سحاب أو غيره، وقد أخبر المسافرون الذين قدموا مكة بمشاهدته، وهو لم يستمر فيما يظهر وإنما كان آية شاهدها الناس ثم عاد إلى حاله الأولى"(٢).

---

(١) الجواب الصحيح(٦/١٦٠).

(٢) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين(٥/٣١٢).

المبحث الثالث: آراء المراغي الاعتقادية في ما يتعلق في الأنبياء والرسل

أتطرق في هذا المبحث لبعض المسائل المتعلقة في عدد الأنبياء والرسل وفضائلهم.

ذكر المراغي رحمه الله بعد قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1] فقال: "(تنبيه) ذكر بعض العلماء أن الأنبياء المرسلين الذين ذكروا في القرآن، ويجب الإيمان بهم تفصيلًا خمسةٌ وعشرون؛ هم الثمانية عشر الذين ذكرت أسماؤهم في هذه الآيات، والسبعة الآخرون هم آدم أبو البشر، وإدريس ولوط وصالح وشعيب وخاتم الجميع محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام[2]"[3].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[4] فقال: "أي إن الله اختار هؤلاء، وجعلهم صفوة العالمين بجعل النبوة والرسالة فيهم، فأولهم آدم وهو أبو البشر اصطفاه ربه واجتباه كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾[5]، وكان من ذريته النبيون والمرسلون، وثانيهم نوحٌ وهو الأب الثاني للبشر، فقد حدث على عهده ذلك الطوفان العظيم، فانقرض من السلائل البشرية من انقرض، ونجا هو وأهله في الفلك العظيم،

---

(١) سورة الأنعام الآية (٨٣-٨٦).

(٢) لم يذكر السابع من الرسل وهو هود عليه السلام فقد قال في سورة هود: (وقد جاء في بعض الروايات أن هودا أول من تكلم بالعربية، فهو أول رسول عربي من ذرية نوح، وآخر رسول هو محمد ﷺ وهو عربي أيضا) تفسير المراغي(٤/٣٢٤).

(٣) تفسير المراغي(٣/١٥٤).

(٤) سورة آل عمران الآية (٣٣).

(٥) سورة طه الآية (١٢٢).

وجاء من ذريته كثير من النبيين والمرسلين، ثم تفرقت ذريته وانتشرت في البلاد وفشت فيهم الوثنية.

فظهر إبراهيم صلوات الله عليه نبيًا مرسلًا، ثم تتابع من بعده النبيون والمرسلون من ذريته وآله كإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط، وكان من أرفع أولاده قدرا وأنبههم ذكرا آل عمران، وهم عيسى وأمه مريم ابنة عمران، وينتهي نسبها إلى يعقوب صلوات الله عليه، وختمت النبوة بولد إسماعيل محمد صلوات الله وسلامه عليه.

﴿ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ ﴾ (١) أي إن الآلَيْنِ ذريةٌ واحدة متشعب بعضها من بعض، فآل إبراهيم وهم إسماعيل وإسحق وأولادهما من نسل إبراهيم، وإبراهيم من نسل نوحٍ ونوح من آدم. وآل عمران وهم موسى وهرون وعيسى وأمه من ذرية إبراهيم ونوح وآدم، وقد يكون المراد بكون بعضها من بعض أنهم أشباه وأمثال في الخير والفضيلة التي كانت سببا في اصطفائهم، على نحو قوله تعالى: ﴿ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖ ﴾(٢)، وهؤلاء الذرية هم الذين ذكرهم الله في سياق الكلام في إبراهيم بقوله: ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾(٣)"(٤).

وتكلم رحمه الله على فضائل الرسل بعد قوله تعالى: ﴿ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا

(١) سورة آل عمران الآية (٣٤).

(٢) سورة التوبة الآية (٦٧).

(٣) سورة الأنعام الآية (٨٤-٨٧).

(٤) تفسير المراغي(١/٤٩١).

﴿ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[1] فقال: "وهنا ذكر أن أولئك المرسلين قد ميز الله بعضهم على بعض، فآتى بعضا مزايا ومناقب ليست لغيره، كما فصل ذلك في الآية الكريمة، وقد خص بالذكر من بقي لهم أتباع، وذكر ما كان من أمر أتباعهم من بعدهم في الاختلاف والاقتتال.

ثم قال: وقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾[2] أي هؤلاء الرسل المشار إليهم بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[3] فضلنا بعضهم على بعض في مراتب الكمال، فخصصناه بمآثر جليلة خلا عنها غيره، مع استوائهم جميعا في اختياره تعالى لهم للتبليغ عنه وهداية خلقه إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

وخلاصة هذا: إنهم كلهم رسل الله، فهم جديرون أن يقتدى بهم ويهتدى بهديهم، وإن امتاز بعضهم عن بعض بخصائص في أنفسهم وفي شرائعهم وأممهم.

ثم بين هذا التفضيل في بعض المفضلين فقال: ﴿مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾[4] أي منهم من فضله الله بأن كلمه من غير سفير وهو موسى عليه السلام، كما قال تعالى في سورة النساء: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾[5]، وفي سورة الأعراف: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾[6]، وفي الآية بعدها: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾[7].

﴿وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ﴾[8] أي ومنهم من رفعه الله على غيره من الرسل بمراتب متباعدة في الكمال والشرف، والمراد به محمد ﷺ كما رواه ابن جرير عن مجاهد[9]، ويؤيده السياق أيضا، فإن الكلام في بيان العبرة للأمم التي تتبع الرسل، والتشنيع عليهم في اختلافهم واقتتالهم، مع أن دينهم واحد في جوهره، والموجود من هذه الأمم اليهود والنصارى والمسلمون، فالمناسب

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٥٣).

(٢) سورة البقرة الآية (٢٥٣).

(٣) سورة البقرة الآية (٢٥٢).

(٤) سورة البقرة الآية (٢٥٣).

(٥) سورة النساء الآية (١٦٢).

(٦) سورة الأعراف الآية (١٤٣).

(٧) سورة الأعراف الآية (١٤٤).

(٨) سورة البقرة الآية (٢٥٣).

(٩) تفسير ابن جرير(٥/٢٧٨).

تخصيص رسلهم بالذكر وقد ذكر موسى أولا وعيسى آخرا ومحمدا في الوسط، إشعارا بأن شريعته وأمته وسط"(١).

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾(٢) فقال: "أي ويقولون: إن الرسل في الرسالة والتشريع سواء كثر قوم الرسول أو قلوا، والتفضيل الذي جاء في قوله تعالى: ﴿ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ ﴾(٣) إنما هو في مزايا أخرى فوق الرسالة"(٤).

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ ﴾(٥): "بما لهم من الفضائل النفسية، والمزايا القدسية، وإنزال الكتب السماوية، فخصصنا كلا منهم بفضيلة ومزية، ففضلنا إبراهيم باتخاذه خليلا، وموسى بالتكليم، ومحمدا بالقرآن الذي أعجز البشر والإسراء والمعراج.

ونحو الآية قوله: ﴿ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖ ﴾(٦) ولا خلاف في أن أولي العزم منهم وهم الخمسة الذين ذكروا في سورة الشورى في قوله: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾(٧) أفضل من بقيتهم، ولا خلاف في أن محمدا ﷺ أفضلُهم، ثم إبراهيم فموسى فعيسى عليهم السلام.

﴿ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴾(٨) أي إن تفضيل داود لم يكن بالملك، بل كان بما آتاه الله من الكتاب"(٩).

(١) تفسير المراغي(١/٣٧٦).
(٢) سورة البقرة الآية (٢٨٥).
(٣) سورة البقرة الآية (٢٥٣).
(٤) تفسير المراغي(١/٤٤٢).
(٥) سورة الإسراء الآية (٥٥).
(٦) سورة البقرة الآية (٢٥٣).
(٧) سورة الشورى الآية (١٣).
(٨) سورة الإسراء الآية (٥٥).
(٩) تفسير المراغي(٥/٣٢٧).

المراغي رحمه الله وافق ما ذكر في كتب العقائد من عدد الرسل المذكورين في القرآن، قال الشيخ حافظ حكمي رحمه الله لما تكلم على الرسل: "وقد ذكر الله تعالى في كتابه منهم آدم ونوحا وإدريس وهودا وصالحا وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف ولوطا وشعيبا ويونس وموسى وهارون وإلياس وزكريا ويحيى واليسع وذا الكفل وداود وسليمان وأيوب، وذكر الأسباط جملة، وعيسى ومحمدا، وقص علينا من أنبائهم ونبأنا من أخبارهم ما فيه كفاية وعبرة وموعظة، إجمالا وتفصيلا ثم قال: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾[(١)] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾[(٢)]، فنؤمن بجميعهم تفصيلا فيما فصل، وإجمالا فيما أجمل"[(٣)].

وممن نص على عدد الرسل وبينه ابن عثيمين حيث ذكر أن كل من ورد ذكره في القرآن فهو رسول وإن ذكر بوصف النبوة؛ فقال رحمه الله: "إنما الذين ذكروا في القرآن خمسة وعشرون رسولا، وكل من ذكر في القرآن فهو رسول وإن ذكر بوصف النبوة، وذلك لأن كلَّ رسولٍ نبيٌّ ولا عكس، والدليل على أن كل من ذكر في القرآن رسول قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ ﴾[(٤)] فعلم بهذا أن كل من قص الله علينا نبأه فهو رسول.

أما الذين لم يقصوا علينا فهم كثيرون ولكننا نؤمن بهم إجمالا، ومعنى إجمالا: أي أنه لا يلزمنا التعيين؛ لأننا لا نعلم عنهم، لكن نقول: آمنا بكل رسول أرسله الله تعالى"[(٥)].

وأما التفاضل بينهم عليهم الصلاة والسلام:

فقد أوضح شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كلامه على تفضيل الله العباد بعضهم على بعض في الأعمال، ثم ذكر تفاضل الأنبياء فقال: "وقد بين تفاضل أنبيائه عليهم السلام كتفاضل سائر عباده المؤمنين فقال تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ

---

(١) سورة النساء الآية (١٦٤).

(٢) سورة غافر الآية (٧٨).

(٣) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول(٢/٦٧٨).

(٤) سورة غافر الآية (٧٨).

(٥) شرح العقيدة السفارينية ص(٥٦٩).

بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴾[2]"[3].

فالتفضيل بين الرسل عليهم السلام جاءت به النصوص الشرعية وأيدته الأدلة العقلية وقرره علماء الشريعة حيث قال السفاريني رحمه الله: "التفاضل بين الأنبياء، ثابت شرعا، فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ ﴾[4] هذا في الرسل، وقال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴾[5] فالله ﷻ فضل الرسل بعضهم على بعض، وفضل النبيين بعضهم على بعض، وفضل الناس بعضهم على بعض، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ ﴾[6] فالله عز وجل فضل بعض الناس على بعض؛ الرسل والأنبياء وغيرهم.

والعقل يدل على أن البعض أفضل من البعض، لأن من قام بمهمات عظيمة جليلة يقتضي العقل أنه أفضل ممن دونه، فالتفاضل إذًا ثابت.

والتفضيل يقتضي أن بعضهم أفضل من بعض في الإيمان وفي الأعمال الصالحة أيضا، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾[7] فدلَّ هذا على أن الكرم عند الله بالتقوى، ولا شك أنه قد جرى لبعض الأنبياء من المحن ما لم يجر لغيرهم، فأي محنة حصلت لإنسان مثل ما حصل لإبراهيم عليه الصلاة والسلام في إلقائه في النار إزاء توحيده وما يدعو إليه من التوحيد، فيلقى في النار وهو يراها أمامه تضطرم.

وكذلك ما حصل في الأمر بذبح ولده، فإن هذه محنة عظيمة؛ ويصبر على ذلك، وهذا شيء عظيم، ودليل على الإخلاص لله تعالى، يقال له: اذبح ولدك فيمتثل ويستسلم، وليس

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٥٣).

(٢) سورة الإسراء الآية (٥٥).

(٣) مجموع الفتاوى(١١/١٨٨).

(٤) سورة البقرة الآية (٢٥٣).

(٥) سورة الإسراء الآية (٥٥).

(٦) سورة النساء الآية (٣٢).

(٧) سورة الحجرات الآية (١٣).

عنده غيره، والولد قد بلغ معه السعي؛ فليس صغيرا لا يلتفت له، وليس كبيرا قد بان من أبيه، بل صار يافعا، وأكبر ما تتعلق به النفس في مثل هذا السن، ثم يقال: اذبح ولدك، فإن هذه محنة عظيمة.

ثم إنه قد يفضل النبي غيره بكثرة أتباعه؛ لأن أتباعه كلما عملوا عملا صالحا فله مثل أجورهم"(١).

ولكن هذه النصوص الدالة على التفضيل بين الأنبياء كيف نجمع بينها وبين النصوص الآمرة ألا نفرق بين أحد منهم أذكر في ذلك جواب ابن عثيمين رحمه الله حيث قال: "نجمع بين قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾(٢)، وقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾(٣) فأجاب حفظه الله بقوله: "قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾(٤) كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾(٥)؛ فالأنبياء والرسل لا شك أن بعضهم أفضل من بعض، فالرسل أفضل من الأنبياء، وأولو العزم من الرسل أفضل ممن سواهم، وأولو العزم من الرسل هم الخمسة الذين ذكرهم الله تعالى في آيتين من القرآن؛ إحداهما في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾(٦) محمد عليه الصلاة والسلام، ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم.

والآية الثانية في سورة الشورى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾(٧) فهؤلاء خمسة وهم أفضل ممن سواهم.

وأما قوله تعالى: عن المؤمنين: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾(١) فالمعنى: لا نفرق بينهم في الإيمان بل نؤمن أن كلهم رسل من عند الله حقا، وأنهم

---

(١) شرح العقيدة السفارينية ص(٥٦٤).
(٢) سورة البقرة الآية (٢٥٣).
(٣) سورة البقرة الآية (١٣٦).
(٤) سورة البقرة الآية (٢٥٣).
(٥) سورة الإسراء الآية (٥٥).
(٦) سورة الأحزاب الآية (٧).
(٧) سورة الشورى الآية (١٣).

ما كذبوا فهم صادقون مصدقون، وهذا معنى قوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾[٢] أي في الإيمان بل نؤمن أن كلهم، عليهم الصلاة والسلام، رسل من عند الله حقا"[٣].

فالمراغي رحمه الله وافق السلف في المسائل التي ذكرها مثل عدد الرسل، وتفاضلهم، وصفاتهم، وغير ذلك في ما يتعلق في هذا المبحث كما سبقت الإشارة إلى ذلك في كلام أهل العلم.

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٨٥).

(٢) سورة البقرة الآية (٢٨٥).

(٣) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين(١/٣٣٠-٣٣١).

الفصل الرابع: آراء المراغي الاعتقادية في الإيمان باليوم الآخر

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

التمهيد وفيه تعريف اليوم الآخر.

المبحث الأول: آراء المراغي الاعتقادية في الحياة البرزخية.

المبحث الثاني: آراء المراغي الاعتقادية في أشراط الساعة.

المبحث الثالث: آراء المراغي الاعتقادية في الحياة الآخرة.

التمهيد: تعريف اليوم الآخر

اليوم: واحد الأيام، يقول ابن فارس: "الياء والواو والميم كلمة واحدة، وهي اليوم الواحد من الأيام"[(١)].

والآخر: نقيض المتقدم، قال ابن فارس: "الهمزة والخاء والراء أصل واحد صحيح إليه ترجع فروعه، وهو خلاف التقدم"[(٢)].

فالإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان الستة، والله أثنى على المؤمنين بإيمانهم باليوم الآخر فقال تعالى: ﴿ طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾[(٣)]، وهدد الذين لا يؤمنون باليوم الآخر بالعذاب فقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾[(٤)].

واليوم الآخر يشمل كل ما أخبر به الشارع مما يكون بعد الموت من أحوال البرزخ، والنفخ في الصور، والبعث والنشور، والثواب والعقاب، والجنة والنار، وما يكون قبل ذلك من أشراط الساعة، وعلاماتها، كل ذلك داخل في الإيمان باليوم الآخر[(٥)].

قال المراغي رحمه الله: "وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه**»[(٦)]"[(٧)].

وعرّفه المراغي رحمه الله فقال: "الدار الآخرة هي دار الجزاء على الأعمال، والإيمان بها يتضمن الإيمان بكل ما ورد فيها بالنصوص المتواترة[(١)] كالحساب والميزان والصراط والجنة والنار"[(٢)].

---

(١) معجم مقاييس اللغة، مادة يوم (١٥٩/٦).

(٢) معجم مقاييس اللغة، مادة أخر (٧٠/١).

(٣) سورة النمل الآية (١-٣).

(٤) سورة الإسراء الآية (١٠).

(٥) انظر: تفسير ابن جرير الطبري(٢٤٦/١)، ومجموع الفتاوى(١٤٥/٣)، ومعارج القبول(٧٠٣/٢).

(٦) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء، الأول فالأول (١٤٧٢/٣) الحديث رقم(١٨٤٤).

(٧) تفسير المراغي(١٥٢/٤).

وقال أيضا: "واليوم الآخر هو من وقت الحشر إلى ما لا يتناهى، أو إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وخصوا بالذكر الإيمان بهما -أي الإيمان بالله واليوم الآخر-، إشارة إلى أنهم أحاطوا بجانبي الإيمان أوله وآخره"[٣].

وقال: "عالم الآخرة: ويتضمن ذلك البعث والإعادة في الآخرة كما قال: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[٤]، ووزن الأعمال يوم القيامة، وترتيب الجزاء على ثقل الموازين وخفتها، وأن الجزاء بالعمل، وإقامة أهل الجنة الحجة على أهل النار، والحجاب بين أهل الجنة وأهل النار، ونداء أصحاب النار أصحاب الجنة، واعتراف أهل النار في الآخرة بصدق الرسل، وصفة أهل النار، وقيام الساعة وكونها تأتي بغتة"[٥].

وقال عند قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾[٦]: "الإيمان تصديق جازم يقترن بإذعان النفس واستسلامها، وأمارته العمل بما يقتضيه الإيمان، وهو يختلف باختلاف مراتب المؤمنين في اليقين، والغيب ما غاب عنهم علمه كذات الله وملائكته، والدار الآخرة، وما فيها من البعث والنشور والحساب، والإيمان بالغيب هو اعتقاد بموجود وراء المحسات، متى أرشد إليه الدليل أو الوجدان السليم"[٧][٨].

وقال عند قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[٩]: "الدار الآخرة هي دار الجزاء على الأعمال، والإيمان بها يتضمن الإيمان بكل ما ورد فيها بالنصوص المتواترة[١٠] كالحساب والميزان

(١) الصحيح أن المسائل الاعتقادية تقبل سواء وردت في أحاديث متواترة أو آحاد صحيحة. انظر: المقدمة ص().

(٢) تفسير المراغي(١/٤٥).

(٣) تفسير المراغي(١/٤٩).

(٤) سورة الأعراف الآية (٢٩).

(٥) تفسير المراغي(٣/٤٧٨).

(٦) سورة البقرة الآية (٣).

(٧) تفسير المراغي(١/٤٣).

(٨) الإيمان بالغيب يكون بما ورد به الدليل الشرعي فقط.

(٩) سورة البقرة الآية (٤).

(١٠) لا يلزم التواتر وإنما يلزم صحة الحديث، انظر: المقدمة.

والصراط، والجنة والنار، واليقين: هو التصديق الجازم الذي لا شبهة فيه ولا تردد، ويعرف اليقين بالله واليوم الآخر بآثاره في الأعمال"[١].

وقال بعد قوله جل وعلا ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾[٢]: "أي ولكن البر هو الإيمان وما يتبعه من الأعمال ... والإيمان باليوم الآخر: يعلم الإنسان أن له حياة أخرى في عالم غيبي غير هذا العالم، فلا يقصر سعيه وعمله على ما يصلح الجسد، ولا يجعل أكبر همه لذات الدنيا وشهواتها فحسب"[٣].

وقال رحمه الله: "وعقاب الآخرة يتقى بالإيمان الخالص، والتوحيد والعمل الصالح، واجتناب ما يضاد ذلك من الشرك، واجتناب المعاصي والآثام التي تضر المرء أو تضر المجتمع"[٤].

وهو بهذا التعريف وافق إمام المفسرين ابن جرير الطبري رحمه الله فقد قال عند قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾[٥]: "وأما الذي وصف الله جل ثناؤه به المؤمنين بما أنزل إلى نبيه محمد ﷺ وما أنزل إلى من قبله من المرسلين من إيقانهم به من أمر الآخرة، فهو إيقانهم بما كان المشركون به جاحدين: من البعث والنشور والثواب والعقاب والحساب والميزان، وغير ذلك مما أعد الله لخلقه يوم القيامة، ثم ذكر رواية ابن عباس ﴿ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾[٦] أي بالبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان، أي: لا هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما كان قبلك، ويكفرون بما جاءك من ربك"[٧].

---

(١) تفسير المراغي(١/٤٥).
(٢) سورة البقرة الآية (١٧٧).
(٣) تفسير المراغي(١/٢٣٣).
(٤) تفسير المراغي(١/٤٣).
(٥) سورة البقرة الآية (٤).
(٦) سورة البقرة الآية (٤).
(٧) تفسير الطبري(١/٢٤٦).

المبحث الأول: آراء المراغي الاعتقادية في الحياة البرزخية

وتحته أربع مطالب:

المطلب الأول: الموت وما يتعلق به.

المطلب الثاني: القبر وما يتبعه.

المطلب الثالث: البعث من القبور.

المطلب الرابع: الروح.

توطئة

تعريف البرزخ: "هو ما بين كل شيئين، وفي الصحاح الحاجز بين الشيئين والبرزخ ما بين الدنيا والآخرة قبل الحشر، من وقت الموت إلى البعث فمن مات فقد دخل البرزخ"[(١)].

"وقيل: البرزخ: الحاجز ما بين الدنيا والآخرة

وقيل: البرزخ ما بين الدنيا والآخرة، ليسوا مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون، ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم.

وقيل: البرزخ المقابر، لا هم في الدنيا، ولا هم في الآخرة، فهم مقيمون إلى يوم يبعثون"[(٢)].

قال المراغي رحمه الله في تعريف البرزخ: "أي حاجز بينهم وبين الرجعة"[(٣)].

وبعد هذه التوطئة أقسم هذا المبحث إلى أربع مطالب.

(١) لسان العرب، مادة برزخ (٣/٨).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير(٥/٤٩٤).

(٣) تفسير المراغي(٦/٣٠٧).

المطلب الأول: الموت وما يتعلق به

قال المراغي رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾[(١)]: "أي كل نفس تذوق طعم مفارقة البدن وتحس به، وفي هذا إيماء إلى أن النفس لا تموت بموت البدن، لأن الذي يذوق هو الموجود، والميت لا يذوق، فالذوق شعور لا يحس به إلا الحي"[(٢)].

وقال عن تمني الموت عند القتال: "وقد روي عن كثير من الصحابة رضوان الله عليهم تمني الموت عند القتال، معبرين بألسنتهم عما يجول في صدورهم من صدق الإيمان بما أعد الله للمؤمنين في الدار الآخرة، فقد جاء في الأخبار أن عبد الله بن رواحة كان ينشد وهو يقاتل الروم:

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها[(٣)]

وأن عمار بن ياسر في حرب صفين قال:

غدا نلقى الأحبه محمدا وصحبه[(٤)]"[(٥)]

وقال: "روى البخاري عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ «**إن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته، وإن الكافر إذا حضر (حضره الموت) بشر بعذاب الله وعقوبته**»[(٦)].

وروى ابن مردويه عن ابن عباس «**ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة أو النار**»[(٧)]"[(١)].

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٨٥).

(٢) تفسير المراغي(٢/١٢٥).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى(٩/١٥٤) لكنه من قول جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، أما عبدالله بن رواحه فقال:
(هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت
يا نفس لا بد من أجل موقوت يا نفس إن لم تقتلي تموتي) أخرجه سعيد بن منصور في سننه(١/٤٢٤).

(٤) تاريخ الطبري(٣/٩٩).

(٥) تفسير المراغي(١/١٤٦).

(٦) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه (٨/١٠٦) الحديث رقم(٦٥٠٧).

(٧) قال السيوطي في الدر المنثور(٣/٣١٨): "أخرجه ابن مردويه بسند ضعيف"، وقال العراقي في تخريج الإحياء(٦/٢٥٠٨): وروى ابن مردويه وابن منده بسند ضعيف من حديث ابن عباس ما من نفس تفارق الدنيا

وقال عند قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾(٢) أي يرسل عليكم حفظة من الملائكة يراقبونكم ويحصون عليكم أعمالكم مدة حياتكم، حتى إذا جاء أحدكم الموت وانتهى عمله، توفته وقبضت روحه رسلُنا الموكلون بذلك من الملائكة، وهؤلاء الرسل هم أعوان ملك الموت الذين يتولَّون ذلك بأمره كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾(٣).

روى ابن جرير وأبو الشيخ(٤) عن الربيع بن أنس(٥) أنه سئل عن ملك الموت؛ أهو وحده الذي يقبض الأرواح؟ قال: هو الذي يلي أمر الأرواح، وله أعوان على ذلك، وقرأ الآية، ثم قال: غير أن ملك الموت هو الرئيس(٦).

وروي عن إبراهيم النخعي ومجاهد وقتادة، أن الأعوان يقبضون الأرواح من الأبدان ثم يدفعونها إلى ملك الموت(٧)، وعن الكلبي(٨): أن ملك الموت هو الذي يتولى القبض بنفسه

حتى ترى مقعدها من الجنة والنار الحديث، وقال ابن السبكي: (٦/ ٣٨٢) لم أجد له إسناداً".

(١) تفسير المراغي(٢/٣٥٣).

(٢) سورة الأنعام الآية (٦١).

(٣) سورة السجدة الآية (١١).

(٤) أبو الشيخ الإمام الحافظ الصادق، محدث أصبهان، أبو محمد، عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان، المعروف بأبي الشيخ، صاحب التصانيف ومنها كتاب السنة والعظمة والسنن، ولد سنة أربع وسبعين ومئتين، قال أبو نعيم: توفي في سلخ المحرم سنة تسع وستين وثلاث مئة. انظر: سير أعلام النبلاء(١٦/٢٧٦).

(٥) الربيع بن أنس البكري الحنفي البصري، نزل مرو هاربا من الحجاج، ثم تحول فسكن ببعض القرى فلما ظهرت دعوة بني العباس تغيب فوقع به عبد الله بن المبارك فسمع منه، بقي الربيع إلى سنة ثلاثين ومائة، وروى كثيرا من التفسير والمقاطيع وهو ما جاء عن التابعين موقوفا عليهم من أقوالهم أو أفعالهم، انظر: تاريخ الإسلام للذهبي(٣/٦٤٦)، ومقدمة ابن الصلاح ص(٢٨).

(٦) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره(١١/٤١٢)، وأبو الشيخ في العظمة(٣/٨٩١) الحديث رقم(٤٣١).

(٧) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره(١١/٤١١).

(٨) هو: محمد بن السائب بن بشر الكلبيّ أبو النّضر الكوفي، النسابة المفسر، روى عن الشعبي، وجماعة، وعنه ابنه، وأبو معاوية، ويزيد، ويعلى بن عبيد، وخلق، متهم بالكذب، ورمي بالرفض، قال البخاري: تركه القطان وابن مهدي، له تفسير مشهور وناسخ القرآن ومنسوخه، توفي سنة ١٤٦هـ. انظر: طبقات المفسرين للداوودي(٢/١٤٩).

ويدفعها إلى الأعوان، فإن كان الميت مؤمنا دفعها إلى ملائكة الرحمة، وإن كان كافرا دفعها إلى ملائكة العذاب[١].

أي وهم يتوجهون بالأرواح إلى حيث يوجههم الله بأمره، وعلينا أن نؤمن بذلك ولا نبحث عن كيفيته.

وجاء إسناد التَّوَفِّي إلى الله في قوله: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾[٢] إمَّا لأنَّه هو الآمر لملك الموت ولأعوانه جميعا بذلك، وإما لأنه هو الفاعل الحقيقيُّ والمسخر لملك الموت وأعوانه، فهم لا يعملون إلا بأمره ولا يتصرفون إلا بتسخيره"[٣].

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره(٤١١/١١).

(٢) سورة الزمر الآية (٤٢).

(٣) تفسير المراغي(١٢٢/٣).

المطلب الثاني: القبر وما يتبعه

تكلم المراغي رحمه الله عن القبر وما يتبعه من المسائل؛ فقال عند قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾(١): "قال العلماء: إن زيارة القبور من أعظم الدواء للقلب القاسي، لأنها تذكر بالموت والآخرة، وذلك يحمل على قصر الأمل والزهد في الدنيا وترك الرغبة فيها، و من ثم قال ﷺ: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها؛ فإنها تزهد في الدنيا وتذكركم الآخرة**»(٢).

كما لا خلاف في منع زيارتها إذا حدث في ذلك منكرات وأشياء مما نهى عنه الدين؛ كاختلاط الرجال بالنساء(٣)، وحدوث فتن لا تحمد عقباها"(٤).

توضيح قوله تعالى: "﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾(٥) أي وإنما تعطون جزاء أعمالكم كاملًا وافيًا يوم القيامة، وفي ذكر التوفية إشارة إلى أن بعض الأجور من خير أوشر قد تصل إليهم في الدنيا جزاءَ أعمالهم، ويؤيِّدُه ما أخرجه الترمذيُّ والطبرانيُّ مرفوعا «**القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران**»(٦)"(٧).

---

(١) سورة التكاثر الآية (٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في زيارة القبور (٥٠١/١)، الحديث رقم(١٥٧١)، والشاشي في مسنده الحديث رقم(٣٩٧)، والحاكم في المستدرك(٥٣١/١) الحديث رقم(١٣٨٧)، وضعفه ابن الملقن في البدر المنير(٣٤٢/٥)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير برقم(٤٢٧٩)، وأصله في مسلم(١٥٦٣/٣) بلفظ: "كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها".

(٣) زيارة النساء للقبور الراجح النهي عنها لظاهر الأدلة. انظر: الفتاوى لابن تيمية(٣٤٤/٢٤).

(٤) تفسير المراغي(٤٨٤/١٠).

(٥) سورة آل عمران الآية (١٨٥).

(٦) أخرجه الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع (٦٣٩/٤)، الحديث رقم(٢٤٦٠)، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٢٧٢/٨) الحديث رقم(٨٦١٣)، واشار غلى ضعفه العراقي في تخريج الإحياء(٣٥٨/١)، وضعفه السخاوي في المقاصد الحسنة(٤٨٤/١)، وقال الألباني رحمه الله كما في موسوعة الألباني في العقيدة(١٦٠/٩): "حديث ضعيف، لكن معناه مأخوذ من أحاديث صحيحة".

(٧) تفسير المراغي(١٢٥/٢).

وقال عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾[١]: "أي ولا تتحدثوا في شأنهم، فتقولوا: إنهم أموات، بل هم أحياء في عالم غير عالمكم، ولكن لا تشعرون بحياتهم، إذ ليست في عالم الحس الذي يدرك بالمشاعر، بل هي حياة غيبية تمتاز بها أرواح الشهداء على سائر أرواح الناس وبها يرزقون وينعمون، ولا نعرف حقيقة هذه الحياة ولا الرزق الذي يكون فيها، ولا نبحث عن ذلك لأنه من عالم الغيب، فنفوض أمره إلى الله، وقيل إنها حياة روحانية محضة لا ندرك سرها"[٢].

وذكر رحمه الله ما يتعلق بزيارة القبور فقال: "أخرج مسلم عن أبي هريرة قال: «**أتى رسول الله ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله، ثم قال: استأذنت ربي أن أستغفر لها فلم يأذن لي، وأستأذنت أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت**»[٣]"[٤].

وقال عند قوله تعالى: ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[٥]: "أي فنعم عاقبة الدنيا الجنة، أخرج ابن جرير: «**أن النبي ﷺ كان يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار، وكذا كان يفعل أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم**»[٦]"[٧].

وقال عند قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ﴾[٨]: "أي يثبتهم بالكلمة الطيبة التي ذكرت صفاتها العجيبة فيما سلف[٩] مدة حياتهم، إذا وجد من يفتنهم عن دينهم ويحاول زللهم كما جرى لبلال وغيره من أصحاب

---

(١) سورة البقرة (١٥٤).

(٢) تفسير المراغي(١/٢٠٨).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب استئذان النبي صلى الله عليه وسلم ربه عز وجل في زيارة قبر أمه (٢/٦٧١) الحديث رقم(٩٧٦).

(٤) تفسير المراغي(٤/١٧٩).

(٥) سورة الرعد الآية (٢٤).

(٦) أخرجه ابن جرير في تفسيره(١٦/٤٢٦)، وعبدالرزاق في مصنفه(٣/٥٧٣)، وقال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف(٢/١٩٠): "معضل"، وقال الألباني في السلسلة الضعيفة الحديث رقم(٦٦٢٩): "منكر".

(٧) تفسير المراغي(٥/٧٩).

(٨) سورة إبراهيم الآية (٢٧).

(٩) تفسير المراغي(٥/١٢٣).

رسول الله ﷺ، وبعد الموت في القبر الذي هو أول منزل من منازل الآخرة، وفي مواقف القيامة فلا يتلعثمون ولا يضطربون إذا سئلوا عن معتقدهم ولا تدهشهم الأهوال.

أخرج ابن أبي شيبة عن البراء بن عازب أنه قال في الآية: «التثبيت في الحياة الدنيا إذا جاء الملكان إلى الرجل في القبر فقالا له: من ربك؟ قال ربي الله، وقالا: و ما دينك؟ قال ديني الإسلام، وقالا: وما نبيك؟ قال: نبي محمد ﷺ»[(١)].

وعن عثمان بن عفان قال: «**كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال: استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يسأل**» أخرجه أبو داود[(٢)].

وقد وردت أحاديث كثيرة في سؤال الملائكة للميت في قبره وفي جوابه لهم، وفي عذاب القبر وفتنته وليس هذا موضعها، نسأل الله التثبيت في القبر وحسن الجواب بمنه وكرمه، إنه على ما يشاء قدير...

ثم قال: أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «إن الكافر إذا حضره الموت تنزل عليه الملائكة عليهم السلام يضربون وجهه ودبره، فإذا دخل قبره أقعد فقيل له: من ربك؟ لم يرجع إليهم شيئا وأنساه الله تعالى ذكر ذلك، وإذا قيل له: من الرسول الذي بعث إليك؟ لم يهتد له ولم يرجع إليه شيئا، فذلك قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(٣)]»[(٤)]"[(٥)].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف(٣/٢٥٤) الحديث رقم(١٢٠٤٨)، وهناد بن السري في الزهد(١/٢٠٨)، والبيهقي في إثبات عذاب القبر(١/٢٨) ويشهد له حديث مسلم في صحيحه(٨/١٦٢) عن البراء بن عازب، عن النبي ﷺ، قال: " {يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت}" قال: " نزلت في عذاب القبر، فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، ونبيي محمد ﷺ، فذلك قوله عز وجل: {يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا، وفي الآخرة}".

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الجنائز، باب الاستغفار عند القبر للميت في وقت الانصراف (٣/٢١٥) الحديث رقم(٣٢٢١)، وابن السني في عمل اليوم والليلة، باب ما يقول إذا فرغ من دفن الميت(١/٥٣٧) الحديث رقم(٥٨٥)، والحاكم في المستدرك(١/٥٢٦) الحديث رقم(١٣٧٢) وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه"، وصححه ابن الملقن في البدر المنير(٥/٣٣٠)، وكذا الألباني في صحيح الترغيب والترهيب(٣/٢٠٧).

(٣) سورة إبراهيم الآية (٢٧).

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره(١٦/٦٠٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره(٩/٣٣).

(٥) تفسير المراغي(٥/١٢٥).

وقال عند قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(١)]: "أي تقول لهم الملائكة: سلام عليكم، لا يحيق بكم مكروه بعد، ادخلوا الجنة التي أعدها لكم ربكم، ووعدكموها بما قدمتم من عمل، وبما دأبتم على تقواه وطاعته، والمراد من قوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ البشارة بالدخول فيها بعد البعث إذا أريد الدخول بالأرواح والأبدان، فإن أريد الدخول بالأرواح فحسب؛ كان ذلك حين التَّوَفِّي كما يشير إليه قوله ﷺ «**القبر إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار**»[(٢)]"[(٣)].

قال بعد قوله جل علا: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾[(٤)]: "أي وهكذا نعاقب من أسرف، فعصى ربه ولم يؤمن برسله وكتبه، فنجعل له معيشة ضنكا.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال في الآية: «يقول كل مال أعطيته عبدا من عبادي قلَّ أو كثر، لا يتقيني فيه فلا خير فيه، وهو الضنك في المعيشة»[(٥)].

وعن عكرمة ومالك بن دينار نحوه، وقيل: إن تلك المعيشة له في القبر بأن يعذب فيه، وقد روى ذلك عن جماعة منهم ابن مسعود وأبو سعيد الخدري ومجاهد، وروي ذلك مرفوعا أيضا[(٦)].

فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن حبان وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن في قبره في روضة خضراء، ويرحب له قبره سبعين ذراعا، ويضيء حتى يكون كالقمر ليلة البدر، وهل تدرون فيم أنزلت: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[(٧)]؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: عذاب الكافر في قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تنينا، هل تدرون ما**

---

(١) سورة النحل الآية (٣٢).

(٢) سبق تخريجه ص(٥٥٢).

(٣) تفسير المراغي(٥/٢٠٥).

(٤) سورة طه الآية (١٢٧).

(٥) تفسير ابن أبي حاتم (٩/٣٠٥).

(٦) انظر: تفسير ابن جرير(١٨/٣٩٢)، وتفسير ابن أبي حاتم(٩/٣٠٦).

(٧) سورة طه الآية (١٢٤).

التنين؟ تسعة وتسعون حية لكل حية سبعة رءوس يخدشونه ويلسعونه وينفخون في جسمه إلى يوم يبعثون»[(١)]"[(٢)].

وقال رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾[(٣)]: "أي إنك لا تقدر أن تُفْهِمَ الحقَّ من طبع الله على قلوبهم فأماتها، ولا أن تُسمعَه من أصمَّهم عن سماعه، ولا سيَّما أنهم مع ذلك معرضون عن الداعي، مُوَلُّون على أدبارهم، وإنما شبههم بالموتى لعدم تأثرهم بما يتلى عليهم، وشبههم بالصُّمِّ البُكْمِ ليبين أنه لا أمل في استجابتهم للدعوة، لأن الأصم الأبكم لا يسمع الداعي بحال، وظاهر نفي سماع الموتى العموم، فلا يخص منه إلا ما ورد بدليل، كما ثبت في الصحيح: «**أنه ﷺ خاطب القتلى في قليب (بئر) بدر فقيل له: يا رسول الله إنما تكلم أجسادا لا أرواح لها، فقال النبي ﷺ: والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**» أخرجه مسلم[(٤)]، وكما ثبت «**أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له إذا انصرفوا عنه**»[(٥)]"[(٦)].

وقال رحمه الله بعد قوله تعالى: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾[(٧)]: "أي تعرض أرواحهم من حين موتهم إلى قيام الساعة على النار بالغداة والعشي، وينفس عنهم فيما بين ذلك، ويدوم هذا إلى يوم القيامة، وحينئذ يقال لخزنة جهنم: أدخلوا آل فرعون النار.

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره(٣٩٤/١٨)، وابن حبان في صحيحه(٣٩٢/٧) الحديث رقم(٣١٢٢)، والبيهقي في إثبات عذاب القبر(٦٢/١) الحديث رقم(٦٨)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب رقم(٣٥٥٢).

(٢) تفسير المراغي(١٣٤/٦).

(٣) سورة النمل الآية (٨٠).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل (٧٧/٥) الحديث رقم(٣٩٨٠)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (٢٢٠٣/٤) الحديث رقم(٢٨٧٤).

(٥) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب الميت يسمع خفق النعال (٩٠/٢) الحديث رقم(١٣٣٨)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (٢٢٠٠/٤) الحديث رقم(٢٨٧٠).

(٦) تفسير المراغي(١٣٧/٧).

(٧) سورة غافر الآية (٤٦).

قال بعض العلماء: وفي هذه الآية دليل على عذاب القبر، ويؤيده ما روى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، ويقال: هذا مقعدك حين يبعثك الله تعالى إليه يوم القيامة، ثم قرأ:** ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾»[1] ... وقد أثبت علماء الأرواح حديثا، نعيم الروح وعذابها، وشبهوا ذلك بما يراه النائم حين نومه، فقد نرى نائمين في سرير واحد يقوم أحدهما مذعورا كئيبًا وَجِلًا مما شاهد في نومه، بينما نرى الثاني مستبشرا فرحا بما لاقى من المسرة والنعيم، فيروي أنه كان في حديقة غناء وشاهد كذا وكذا مما فيها من بهجة وبهاء، وجمال ورواء"[2].

وقال عند قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾[3]: "أي من أجل معاصيهم وذنوبهم أغرقهم الله بالطوفان، وسيعذبهم في قبورهم، ولا يجدون من آلهتهم أنصارا ولا أعوانا يدفعون عنهم ما كتب عليهم، وبذا ضل سعيهم، وخاب فألهم"[4].

فالمراغي رحمه الله من خلال تفسيره نراه وافق أهل السنة والجماعة في ما يتعلق بالقبر من نعيم أو عذاب؛ فقد قال شيخ الإسلام رحمه الله في العقيدة الواسطية: "(فصل): ومن الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت: فيؤمنون بفتنة القبر وبعذاب القبر وبنعيمه فأما الفتنة: فإن الناس يفتنون في قبورهم، «**فيقال للرجل: من ربك وما دينك ومن نبيك؟ فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة؛ فيقول المؤمن: الله ربي والإسلام ديني ومحمد ﷺ نبيي، وأما المرتاب فيقول: هاه هاه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئا فقلته، فيضرب بمرزبة من حديد فيصيح صيحة يسمعها**

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي (٩٩/٢) الحديث رقم(١٣٧٩)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (٢١٩٩/٤) الحديث رقم(٢٨٦٦) بدون زيادة: "ثم قرأ: {النار يعرضون عليها غدوا}" وأما الزيادة فقد أخرجها ابن مردويه كما ذكر الشوكاني في فتح القدير(٥٦٨/٤).

(٢) تفسير المراغي(٣١٨/٨).

(٣) سورة نوح الآية (٢٥).

(٤) تفسير المراغي(٢١٥/١٠).

كل شيء إلا الإنسان، ولو سمعها الإنسان لصعق»[(١)]، ثم بعد هذه الفتنة: إما نعيم وإما عذاب إلى أن تقوم القيامة الكبرى"[(٢)].

---

(١) يشير لما رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب: ما جاء في عذاب القبر (٢/٩٨)، الحديث رقم(١٣٧٤)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة والنار (٤/٢٢٠)، الحديث رقم(٢٨٧٠) ولفظه: « عن أنس بن مالك، قال: قال نبي الله ﷺ: «إن العبد، إذا وضع في قبره، وتولى عنه أصحابه، إنه ليسمع قرع نعالهم» قال: " يأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ " قال: " فأما المؤمن، فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله " قال: " فيقال له: انظر: إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة " قال نبي الله ﷺ: «فيراهما جميعا» قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعا، ويملأ عليه خضرا، إلى يوم يبعثون».

(٢) العقيدة الواسطية ص(٨).

المطلب الثالث: البعث من القبور

أوضح المراغي رحمه الله أن من أركان الإيمان "عقيدة البعث بعد الموت وهي تتضمن الإحياء والإماتة وتصرف الرب في خلقه"(١).

قال المراغي رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾(٢) أي على أي حال تكفرون بالله؟، وعلى أي شبهة تعتمدون؟ وحالكم في موتتيكم وحياتيكم لا تدع لكم عذرا في الكفران به، والاستهزاء بما ضربه من المثل وإنكار نبوة نبيه.

﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ (٣) أي والحال أنكم كنتم قبل هذه النشأة في الحياة الدنيا أمواتا، أجزاؤكم متفرقة في الأرض، بعض منها في الطبقات الجامدة، وأخرى في الطبقات السائلة، وقسم في الطبقات الغازية، تشركون سائر أجزاء الحيوان والنبات في ذلك، ثم خلقكم في أحسن تقويم وفضلكم على غيركم بنعمة العقل والإدراك والفهم، وتسخير جميع الكائنات الأرضية لكم.

﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾(٤) حين انقضاء آجالكم بقبض الأرواح التي بها نظام حياتكم، وحينئذ تنحل أبدانكم وتعود سيرتها الأولى، وتنبث في طبقات الأرض وينعدم هذا الوجود الخاص الذي لها.

﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾(٥) حياة أخرى أرقى من هذه الحياة، وأكمل لمن زكى نفسه وعمل صالحا، ودونها لمن أفسد فطرته، وأهمل التدبر في سنن الكون، وأنكر الإله والرسل وفسق عن أمر ربه.

﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(٦) للحساب والجزاء على ما قدمتم من عمل، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر"(٧).

وقال: "الصور واحدها صورة نحو بسر وبسرة: أي نفخت في الأجساد أرواحها ..."(١).

---

(١) تفسير المراغي(٣/٤١٧).

(٢) سورة البقرة الآية (٢٨).

(٣) سورة البقرة الآية (٢٨).

(٤) سورة البقرة الآية (٢٨).

(٥) سورة البقرة الآية (٢٨).

(٦) سورة البقرة الآية (٢٨).

(٧) تفسير المراغي(١/٦٩).

وقوله: "﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾[٢] أي فإذا أعيدت الأرواح إلى الأجساد حين البعث والنشور، لا تنفعهم الأنساب، لأن التعاطف يزول، والود يختفي، لاستيلاء الدهشة والحيرة عليهم، واشتغال كل امرئ بنفسه"[٣].

وقال عند قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ ﴾[٤] أي وله الملك يوم الحشر يوم يبعث من في القبور وينفخ في الصور، والأمر حينئذ له وحده، ولا تملك نفس لنفس شيئا من خير أو شر، أو نفع أو ضر، فكيف يرضى لنفسه من يعرف هذه الحقائق أن يدعو سواه، ويتخذ له إلها غير الله، ويُرَدَّ على عقبيه، ويرجع إلى أسوإ حاليه.

روي عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ سئل عن الصور فقال: «**هو قرن ينفخ فيه**»[٥]، وروي عن ابن مسعود أنه قال: «**الصور كهيئة القرن ينفخ فيه**»[٦]"[٧].

وذكر النفخ في الصور عند قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾[٨]: "أي قال رب أمهلني إلى يوم يبعث آدم وذريته فأكون أنا وذريتي أحياء ما داموا أحياء، وأشهد انقراضهم وبعثهم، وقد أراد بذلك أن يجد فسحة في الإغواء فيأخذ بالثأر، ثم هو مع ذلك ينجو من الموت إذ لا موت بعد البعث.

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴾[٩] أي قال سبحانه: إني أجبتك إلى ما طلبت، لما في ذلك من الحكمة التي أنا بها عليم.

---

(١) تفسير المراغي(٥٧/١٨).

(٢) سورة المؤمنون الآية (١٠١).

(٣) تفسير المراغي(٣١١/٦).

(٤) سورة الأنعام الآية (٧٣).

(٥) أخرجه أحمد في المسند(٥٣/١١) الحديث رقم(٦٥٠٧)، وأبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في ذكر البعث والصور (٢٣٦/٤) الحديث رقم(٤٧٤٢)، والحاكم في المستدرك (٤٧٣/٢)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في التلخيص، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة(١٥٤/٣) الحديث رقم(١٠٨٠).

(٦) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير(٣٠٠/٨)، وقال في المطالب العالية(٤/ ٣٦٧): صحيح موقوف.

(٧) تفسير المراغي(١٣٨/٣).

(٨) سورة الأعراف الآية (١٤).

(٩) سورة الأعراف الآية (١٥).

وظاهر الآية يدل على أنه تعالى جعله من المنظرين إلى يوم يبعثون، لكن جاء في سورة الحجر: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾[١] فهذا يدل على أن النظرة إلى وقت النفخة الأولى بالصور، وهي النفخة التي يموت فيها أهل الأرض جميعا دفعة واحدة، لا إلى وقت النفخة الثانية وهي التي بها يبعثون، وورد أن بينهما أربعين سنة.

والنفخة الأولى تسمى نفخة الفزع لقوله تعالى في سورة النمل: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾[٢]،ونفخة الصعق لقوله في سورة الزمر: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾[٣].

روى أبو هريرة «**أن النبي ﷺ سأل جبريل عن هذه الآية: من الذين لم يشأ الله أن يصعقوا؟ قال: هم شهداء الله عز وجل**»[٤]، أي هم حججه على خلقه بحسن سيرتهم واستقامتهم في الدنيا، وهم يشهدون في الآخرة بضلال كل من خالف هديهم وسنتهم، ويدخل في هؤلاء النبيون والصديقون، فكل نبي شهيد على قومه كما قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾[٥] وكذلك كل صديق شهيد.

والخلاصة: إن إبليس يموت عقب النفخة الأولى التي يتلوها خراب هذه الأرض كما قال في سورة الحاقة: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴾[٦]، ولا يبقى إلى يوم البعث، إلا إذا قلنا إن يوم البعث ويوم القيامة يطلقان تارة على ما يشمل زمن مقدماتهما، وتارة أخرى على زمن الغاية وحدها"[٧].

---

(١) سورة الحجر الآية (٣٦-٣٨).

(٢) سورة النمل الآية (٨٧).

(٣) سورة الزمر الآية (٦٨).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٢٧٧) الحديث رقم(٣٠٠٠) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه الحافظ في الفتح(١١/٣٧١)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب(٢/٦٩) الحديث رقم (١٣٨٧).

(٥) سورة النساء الآية (٤١).

(٦) سورة الحاقة الآية (١٣-١٤).

(٧) تفسير المراغي(٣/٢٧١).

وقال عند قوله جل وعلا: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾[(١)]: "أي واذكر أيها الرسول لهم هول يوم النفخ في الصور، إذ يفزع من في السموات ومن في الأرض، لما يعتريهم من الرعب حين البعث والنشور، بمشاهدة الأهوال الخارقة للعادة في الأنفس والآفاق، إلا من ثبت الله قلبه.

ويرى أكثر أهل العلم أن هناك نفختين، نفخة الفزع المذكورة في هذه الآية وهي نفخة الصعق المذكورة في قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[(٢)] لأن كلا الأمرين الفزع والخوف، والصعق وهو الموت يحصلان بها، ونفخة البعث المذكورة في قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾[(٣)]، وقوله ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾[(٤)] أي وكل هؤلاء الفزعين المبعوثين، حين النفخة يحضرون الموقف بين يدي رب العزة للسؤال والجواب، والمناقشة والحساب، أذلاء صاغرين، لا يتخلف أحد عن أمره"[(٥)].

روى أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «**كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم قرنه، وحنى الجبهة وأصغى الأذن متى يؤمر أن ينفخ؟ ولو أن أهل منى اجتمعوا على القرن أن يقلوه من الأرض ما قدروا عليه، قال: فأبلس (بئس وتحير) أصحاب رسول الله ﷺ وشق عليهم، قال فقال رسول الله ﷺ: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا**»[(٦)]، والحديث يشير إلى قرب الساعة وأنها أوشكت تجيء.

وذكر رحمه الله بعد قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ

---

(١) سورة النمل الآية (٨٧).

(٢) سورة الزمر الآية (٦٨).

(٣) سورة يس الآية (٥١).

(٤) سورة النمل الآية (٨٧).

(٥) تفسير المراغي(١٣٧/٧).

(٦) أخرجه ابن جرير في تفسيره(١٢٢/١٨)، وأحمد في مسنده(٩١/٣٢) الحديث رقم(١٩٣٤٥)، والترمذي مختصرا، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في شأن الصور (٦٢٠/٤) الحديث رقم(٢٤٣١)، وقال: هذا حديث حسن، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب(٢٢٢/٢).

تَذَكَّرُونَ ﴾[١] أي ومثل هذا الإخراج لأنواع النبات من الأرض الميتة بإحيائها بالماء نخرج الموتى من الناس وغيرهم، إذ القادر على هذا قادر على ذلك.

﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[٢] هذا الشبه فيزول استبعادكم للبعث بنحو قولكم: ﴿ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾[٣]، وقولكم: ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾[٤] فأمثال هذه المقالات الدالة على إنكار خروج الحي من الميت تزول إذا أنتم تذكرتم خروج النبات الحي من الأرض الميتة، إذ لا فارق بين حياة النبات وحياة الحيوان، فكل منهما خاضع لقدرة الإله القادر على كل شيء، والحياة في عُرف المخاطبين كانت تعرف بالتغذي والنمو في النبات والحس والحركة في الحيوان"[٥].

وقال رحمه الله: "لما حكى سبحانه عن المشركين الجدل بغير علم في البعث والحشر وذمهم على ذلك قفَّى على هذا بإثباته من وجهين:

(١) الاستدلال بخلق الحيوان وهو ما أشار إليه في الآية الأخرى ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[٦]، وقوله: ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[٧].

(٢) الاستدلال بحال خلق النبات في قوله: ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾[٨] أي إن كنتم في شك من مجيء البعث فانظروا إلى مبدإ خلقكم؛ ليزول ريبكم وتعلموا أن القادر على خلقكم أول مرة قادر على إعادة خلقكم ثانيا.

---

(١) سورة الأعراف الآية (٥٧).

(٢) سورة الأعراف الآية (٥٧).

(٣) سورة يس الآية (٧٨).

(٤) سورة الواقعة الآية (٤٧).

(٥) تفسير المراغي(٣/٣٢٧).

(٦) سورة يس الآية (٧٩).

(٧) سورة الإسراء الآية (٥١).

(٨) سورة الحج الآية (٥).

وعبر سبحانه بالريب مع أنهم موقنون بعدم حصوله، إيذانا بأن أقصى ما يمكن صدوره منهم وإن بلغوا غاية المكابرة والعناد هو الارتياب في شأنه، أما الجزم بعدم إمكانه فلا يدور بخلد عاقل على حال"(١).

وذكر رحمه الله سهولة البعث فقال بعد قوله تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾(٢): "أي وأحيينا بذلك الماء الأرض المجدبة التي لا نبات فيها فتربو وتنبت من كل زوج بهيج، ثم جعل ما سلف كالدليل على البعث لأنه شبيه به فقال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾(٣) أي ومثل هذه الحياة البديعة حياتكم بالبعث من القبور، وفي التعبير عن إخراج النبات من الأرض بالإحياء، وعن إحياء الموتى بالخروج تفخيم لشأن الإنبات وتهوين لأمر البعث: وتحقيق للمماثلة بين إخراج النبات وإحياء الموتى لتوضيح منهاج القياس، وتقريبه لأفهام الناس..." (٤).

ثم ذكر ما يؤكد صحة البعث فقال: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾(٥): "أي أفأعجزنا ابتداء الخلق حتى يَشُكُّوا في الإعادة؟ أي إن ابتداء الخلق لم يعجزنا والإعادة أسهل من الابتداء، فلا حق لهم في تطرق الشبهة إليهم والشك فيه، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾(٦)، وقال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾(٧) وجاء في الحديث القدسي: «**يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم يقول لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته**»(٨)"(٩).

---

(١) تفسير المراغي(٦/٢١٤).

(٢) سورة ق الآية (١١).

(٣) سورة ق الآية (١١).

(٤) تفسير المراغي(٢٦/١٥٦).

(٥) سورة ق الآية (١٥).

(٦) سورة الروم الآية (٢٧).

(٧) سورة يس الآية (٧٨-٧٩).

(٨) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله {وامرأته حمالة الحطب} (٦/١٨٠) الحديث رقم(٤٩٧٤).

(٩) تفسير المراغي(٩/٢٦٧).

وذكر رحمه الله في سورة القيامة أن الكفار أنكروا البعث لوجهين:

(١) شبهة تعترض الخاطر: كقولهم إن أجزاء الجسم إذا تفرقت واختلطت بالتراب، وسارت في مشارق الأرض ومغاربها، كيف يمكن تمييزها وإعادتها على النحو الذي كانت عليه أولا، ولهؤلاء جاء الرد بقوله: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾[١].

(٢) حب الاسترسال في اللذات، والاستكثار من الشهوات، فلا يود أن يقر بحشر ولا بعث حتى لا تتنغص عليه لذاته، ولمثل هؤلاء قال ﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴾[٢] ...

ثم أقام الدليل على البعث من وجهين:

(١) ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾[٣] أي لا يترك الإنسان في الدنيا مهملا لا يؤمر ولا ينهى، ولا يترك في قبره مهملا لا يحاسب، بل هو مأمور منهي محشور إلى ربه، فخالق الخلق لا يساوي الصالح المزكي نفسه بصالح الأعمال، والطالح المدسي نفسه باجتراح السيئات والآثام كما قال: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾[٤]، وقال: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾[٥]، وإذا فلا بد من دار للثواب والعقاب والبعث والقيامة.

(٢) ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾[٦] أي أما كان هذا المنكر قدرة الله على إحيائه بعد مماته وإيجاده بعد فنائه نطفة في صلب أبيه، ثم كان علقة ثم سواه بشرا ناطقا سميعا بصيرا، ثم جعل منه أولادا ذكورا وإناثا بإذنه وتقديره؟ وقوله: ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾[٧] أي أليس الذي أنشأ هذا الخلق السَّوِيَّ من هذه النطفة المذرة[٨]

(١) سورة القيامة الآية (٣-٤).

(٢) سورة القيامة الآية (٥).

(٣) سورة القيامة الآية (٣٦).

(٤) سورة طه الآية (١٥).

(٥) سورة ص الآية (٢٨).

(٦) سورة القيامة الآية (٣٧-٣٩).

(٧) سورة القيامة الآية (٤٠).

(٨) المذرة: الفساد والرائحة الكريهة. انظر: لسان العرب(١٦٤/٥).

بقادر على أن يعيده كما بدأه؟ فذلك أهون من البدء في قياس العقل كما قال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ ﴾[1]"[2].

فالمراغي رحمه الله لم يخالف السلف فيما يتعلق بالبعث من القبور، وممن علق وأوضح بعض هذه الآيات التي تكلم عليها المراغي شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه في الفتاوى الكبرى فقال: "وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾[3]، وقوله: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[4]، وقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[5]، وقوله: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾[6].

فإنه من المعلوم ببداهة العقول أن خلق السماوات والأرض أعظم من خلق بني آدم، والقدرة عليه أبلغ وأن هذا الأيسر أولى بالإمكان والقدرة من ذلك.

وكذلك استدلاله على ذلك بالنشأة الأولى في مثل قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾[7]، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾[8]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾[9] الآية.

---

(١) سورة الروم الآية (٢٧).
(٢) تفسير المراغي(١٠/٢٦٤—٢٧٢).
(٣) سورة الإسراء الآية (٩٩).
(٤) سورة يس الآية (٨١).
(٥) سورة الأحقاف الآية (٣٣).
(٦) سورة غافر الآية (٥٧).
(٧) سورة الروم الآية (٢٧).
(٨)سورة الروم الآية (٢٧).
(٩) سورة الحج الآية (٥).

وكـذلك مـا ذكـره في قولـه: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[1] الآيات، فإن قوله تعالى: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ قياسٌ حُذِفَتْ إحدى مقدمتيه لظهورها، والأخرى سالبة كلية قرن معها دليلُها، وهو المثل المضروب الذي ذكره بقوله: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾، وهذا استفهام إنكار متضمن للنفي، أي لا أحد يحيي العظام وهي رميم؛ فإن كونها رميما يمنع عنده إحياءها لمصيرها إلى حال اليبس والبرودة المنافية للحياة التي مبناها على الحرارة والرطوبة، ولتفرق أجزائها واختلاطها بغيرها، ولنحو ذلك من الشبهات.

والتقدير: هذه العظام رميم ولا أحد يحيي العظام وهي رميم فلا أحد يحييها، ولكن هذه السالبة كاذبة ومضمونها امتناع الإحياء، وبين سبحانه إمكانه من وجوه ببيان إمكان ما هو أبعد من ذلك وقدرته عليه فقال: ﴿ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[2] وقد أنشأها من التراب ثم قال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [3] ليبين علمه بما تفرق من الأجزاء واستحال.

ثم قال: ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا ﴾ [4] فبين أنه أخرج النار الحارة اليابسة من البارد الرطب، وذلك أبلغ في المنافاة؛ لأن اجتماع الحرارة والرطوبة أيسر من اجتماع الحرارة واليبوسة، فالرطوبة تقبل من الانفعال مالا تقبله اليبوسة.

ثم قال: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[5]، وهذه مقدمة معلومة بالبديهة، ولهذا جاء باستفهام التقرير الدال على أن ذلك مستقر معلوم عند المخاطب كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾[6]، ثم بين

---

(١) سورة يس الآية (٧٨-٧٩).

(٢) سورة يس الآية (٧٩).

(٣) سورة يس الآية (٧٩).

(٤) سورة يس الآية (٨٠).

(٥) سورة يس الآية (٨١).

(٦) سورة الفرقان الآية (٣٣).

قدرتــــــه العامــــــة بقولــــــه: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[(١)]"[(٢)].

المطلب الرابع: الروح

أوضح المراغي رحمه الله حقيقة الروح فقال: "بحث في حقيقة النفس أو الروح: اختلف المسلمون في حقيقة النفس أو الروح الذي يحيا به الإنسان، وتتحقق وحدة جنسه على اختلاف أصنافه، وأشهر آرائهم في ذلك: الرأي القائل: إنها جسم نورانيٌّ علويٌّ خفيفٌ حيٌّ متحركٌ ينفذ في جوهر الأعضاء، ويسري فيها سريان الماء في الورد والنار في الفحم، فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار التي تفيض عليها من هذا الجسم اللطيف، وجد الحس والحركة الإرادية والفكر وغيرها، وإذا فسدت هذه الأعضاء، وعجزت عن قبول تلك الآثار فارق الروح البدن، وانفصل إلى عالم الأرواح.

ومما يثبت ذلك أن العقل والحفظ والتذكر وهي أمور ثابتة قطعا ليست من صفات هذا الجسد، فلابد لها من منشأ وجودي عبر عنه الأقدمون بالنفس أو الروح، وما مثلها إلا مثل الكهرباء، فالماديون الذين يقولون: لا روح إلا هذه الحياة، يكون مثل الجسد عندهم مثل المستودع الكهربائي، فهو بوضعه الخاص، وبما يودع فيه من المواد تتولد فيه الكهرباء، فإذا زال شيء مما أودع فيه، أو أزيل تركيبه الخاص فقد الكهرباء، وهكذا حال الجسم تتولد فيه الحياة بتركيب مزاجه بكيفية خاصة، وبزوالها تزول الحياة، والذين يقولون إن للأرواح استقلالا عن الجسد، يكون مثل الجسد مثل الآلة التي تدار بكهرباء تأتي إليها من المولد الكهربائي، فإذا كانت الآلة على وضع خاص في أجزائها وأدواتها كانت مستعدة لقبول الكهرباء التي توجه إليها حتى تؤدي وظيفتها، وإن فقدت منها بعض الأجزاء الرئيسية، أو اختل وضعها الخاص تصبح غير قابلة للكهرباء، ومن ثم لا تؤدي وظيفتها الخاصة بها"[(٣)].

---

(١) سورة يس الآية (٨٢).

(٢) الفتاوى الكبرى(١/١٢٧).

(٣) تفسير المراغي(٢/١٢٥).

وقال عن الروح عند قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾[1]: فقال: "المراد من الروح في هذه الآية ثلاثة آراء:

(١) القرآن...

(٢) جبريل عليه السلام...

(٣) الروح الذي يحيا به بدن الإنسان -وهذا قول الجمهور- ويكون ذكر الآية بين ما قبلها وما بعدها اعتراضا للدلالة على خسارة الظالمين وضلالهم، وأنهم مشتغلون عن تدبر الكتاب والانتفاع به إلى التعنت بسؤالهم عما اقتضت الحكمة سد الطريق على معرفته، ويؤيد هذا ما روى عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «**مر رسول الله ﷺ بنفر من اليهود، فقال بعضهم: سلوه عن الروح، وقال بعضهم لا تسألوه يسمعكم ما تكرهون، فقاموا إليه وقالوا: يا أبا القاسم حدثنا عن الروح، فقام ساعة ينظر، فعرفت أنه يوحى إليه، ثم قال:** ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ ﴾ **الآية**»[2].

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ ﴾[3] الذي يحيا به البدن، أقديم هو أم حادث؟ ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ﴾[4] الأمر واحد الأمور: أي الروح شأن من شؤونه تعالى، حدث بتكوينه وإبداعه من غير مادة، وقد استأثر بعلمه، لا يعلمه إلا هو، لأنكم لا تعلمون إلا ما تراه حواسكم وتتصرف فيه عقولكم، ولا تعلمون من المادة إلا بعض أوصافها كالألوان والحركات للبصر، والأصوات للسمع، والطعوم للذوق، والمشمومات للشم، والحرارة والبرودة للمس، فلا يتسنى لكم إدراك ما هو غير مادي كالروح.

وللعلماء في حقيقة الروح أقوال كثيرة أولاها بالاعتبار قولان:

---

(١) سورة الإسراء الآية (٨٥).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب قول الله تعالى: {وما أوتيتم من العلم إلا قليلا} (٣٧/١) الحديث رقم(١٢٥)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب سؤال اليهود النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح وقوله تعالى: {يسألونك عن الروح} (٢١٥٢/٤) الحديث رقم(٢٧٩٤).

(٣)سورة الإسراء الآية (٨٥).

(٤)سورة الإسراء الآية (٨٥).

(١) إن الروح جسم نوراني حي متحرك من العالم العلوي، مخالف بطبعه لهذا الجسم المحسوس، سار فيه سريان الماء في الورد، والدهن في الزيتون، والنار في الفحم، لا يقبل التبدل والتفرق والتمزق، يفيد الجسم المحسوس الحياة وتوابعها ما دام صالحا لقبول الفيض وعدم حدوث ما يمنع السريان، وإلا حدث الموت، واختاره الرازي(١) وابن القيم في كتاب الروح(٢).

(٢) إنه ليس بجسم ولا جسماني، متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف، وإلى هذا ذهب حجة الإسلام الغزالي(٣) وأبو القاسم الراغب الأصفهاني(٤).

ثم أكد عدم علم أحد بها بقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾(٥) أي وما أوتيتم من العلم إلا علما قليلا تستفيدونه من طرق الحس، فعلومنا ومعارفنا النظرية طريق حصولها الحواس، ومن ثم قالوا: من فقد حسا فقد علما.

روي أنه لما نزلت الآية قالت اليهود(٦): أوتينا علما كثيرا، أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيرا كثيرا، فنزل قوله: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾(٧) وخلاصة ذلك: إنه ما أطلعكم من علمه إلا على القليل، والذي تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر بعلمه تبارك وتعالى ولم يطلعكم عليه"(٨).

---

(١) تفسير الرازي(٢١/٣٩١).

(٢) الروح لابن القيم ص(١٤٤) وما بعدها.

(٣) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي الطوسي، دار المعرفة، بيروت (٣/٣).

(٤) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصبهاني، تحقيق: أبو اليزيد أبو زيد العجمي، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م، ص(٧٢).

(٥)سورة الإسراء الآية (٨٥).

(٦) أخرجه أحمد في المسند(٤/١٥٤) الحديث رقم(٢٣٠٩)، والترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة بني إسرائيل(٥/٣٠٤) الحديث رقم(٣١٤٠)، بلفظ: «عن ابن عباس قال: قالت قريش ليهود: أعطونا شيئا نسأل هذا الرجل، فقال: سلوه عن الروح، قال: فسألوه عن الروح فأنزل الله: {ويسألونك عن الروح الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا} قالوا: أوتينا علما كثيرا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيرا كثيرا، فأنزلت: {قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر} إلى آخر الآية» وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وقال الألباني في تعليقه على الترمذي: صحيح الإسناد.

(٧) سورة الكهف الآية (١٩٠).

(٨) تفسير المراغي(٥/٣٥٠).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الحموية: "وهذه الروح التي في بني آدم قد علم العاقل اضطراب الناس فيها، وإمساك النصوص عن بيان كيفيتها؛ أفلا يعتبر العاقل بها عن الكلام في كيفية الله تعالى؟ مع أنا نقطع بأن الروح في البدن وأنها تخرج منه وتعرج إلى السماء؛ وأنها تسل منه وقت النزع كما نطقت بذلك النصوص الصحيحة، لا نغالي في تجريدها غلو المتفلسفة ومن وافقهم، حيث نفوا عنها الصعود والنزول والاتصال بالبدن والانفصال عنه، وتخبطوا فيها حيث رأوها من غير جنس البدن وصفاته، فعدم مماثلتها للبدن لا ينفي أن تكون هذه الصفات ثابتةً لها بحسبها إلا أن يفسروا كلامهم بما يوافق النصوص؛ فيكونون قد أخطئوا في اللفظ وأنى لهم بذلك، ولا نقول إنها مجرد جزء من أجزاء البدن كالدم والبخار مثلا؛ أو صفة من صفات البدن والحياة، وأنها مختلفة الأجساد ومساوية لسائر الأجساد في الحد والحقيقة كما يقول طوائف من أهل الكلام، بل نتيقن أن الروح عين موجودة غير البدن؛ وأنها ليست مماثلة له؛ وهي موصوفة بما نطقت به النصوص حقيقة لا مجازا؛ فإذا كان مذهبنا في حقيقة "الروح" وصفاتها بين المعطلة والممثلة: فكيف الظن بصفات رب العالمين؟"[(١)].

(١) الفتوى الحموية الكبرى ص(٥٥).

المبحث الثاني: آراء المراغي الاعتقادية في أشراط الساعة

وتحته ستة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الساعة ومتى وقتها.

المطلب الثاني: أشراط الساعة وأماراتها.

المطلب الثالث: المهدي.

المطلب الرابع: من أشراط الساعة الدابة.

المطلب الخامس: طلوع الشمس من مغربها.

المطلب السادس: يأجوج ومأجوج.

المطلب الأول: تعريف الساعة ومتى وقتها

تكلم المراغي رحمه الله على مجموعة من أشراط الساعة من خلال تفسيره للآيات التي ورد فيها بعض أشراط الساعة، وقد تكلم رحمه الله عن الساعة وعن وقتها.

قال المراغي رحمه الله في تعريف الساعة عند قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(١): "الساعة لغة: جزء قليل غير معين من الزمن، وعند الفلكيين: جزء من أربع وعشرين جزءا متساوية يضبط بآلة تسمى (الساعة)، وقد كان ذلك معروفًا عند العرب، فقد جاء في الحديث «**يوم الجمعة اثنتا عشرة ساعة**»(٢).

وقد تطلق بمعنى الوقت الحاضر، وبمعنى الوقت الذي تقوم فيه القيامة، وأكثر استعمال (ساعة) بدون أل في الكتاب الكريم بمعنى الساعة الزمانية، وبأل بمعنى الساعة الشرعية، وهي ساعة خراب العالم وموت أهل الأرض جميعا، وجاء المعنيان في قوله تعالى:﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ ﴾(٣)، والغالب التعبير بيوم القيامة عن يوم البعث والحشر الذي يكون فيه الحساب والجزاء، والتعبير بالساعة عن الوقت الذي يموت فيه الأحياء في هذا العالم ويضطرب نظامه، فالساعة مبدأ، والقيامة غاية، وأيان: بمعنى متى، فهي للسؤال عن الزمان، ومرساها: أي إرساؤها وحصولها واستقرارها، ويقال رسا الشيء يرسو: إذا ثبت وأرساه غيره، ومنه إرساء السفينة وإيقافها بالمرساة التي تلقى في البحر فتمنعها من الجريان، كما قال تعالى: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ ﴾(٤) وجلى فلان الأمر تجلية: أظهره أتم الإظهار، ولوقتها: أي في

---

(١) سورة الأعراف الآية (١٨٧).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، تفريع أبواب الجمعة، باب الإجابة أية ساعة في يوم الجمعة هي (٢٧٥/١) الحديث رقم(١٠٤٨)، والنسائي في سننه، كتاب الجمعة، باب وقت الجمعة (٩٩/٣) الحديث رقم(١٣٨٩)، قال الحاكم في السمتدرك(٤١٤/١): هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب(١٧١/١) الحديث رقم(٧٠٣).

(٣) سورة الروم الآية (٥٥).

(٤) سورة هود الآية (٤١).

وقتها كما يقال كتبت هذا لغرة رمضان: أي في غرته، وبغتة فجأة من غير توقع ولا انتظار، وحفي من قولهم: أحفى في السؤال ألحف، وهو حفي عن الأمر: بليغ في السؤال عنه واستحفيته عن كذا: استخبرته على وجه المبالغة، وتحفى بك فلان: إذا تلطف بك وبالغ في إكرامك...

والخلاصة إن هذا كلام في الساعة العامة بعد الكلام في الساعة الخاصة بكل فرد وهي انتهاء أجله.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾(1) أي يسألونك أيها الرسول عن الساعة يقولون متى إرساؤها واستقرارها، والسائلون هم قريش، لأن السورة مكية ولم يكن في مكة أحد من اليهود، وسؤالهم عن هذا الوقت استبعاد منهم لوقوعه وتكذيب بوجوده كما جاء حكاية عنهم: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾(2)، وقال تعالى: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾(3)، وفي التعبير عن زمن وقوعها بالإرساء الدال على استقرار ما شأنه الحركة والاضطراب إيماء إلى أن قيام الساعة هو انتهاء أمر هذا العالم، وانقضاء عمر هذه الأرض التي تدور بما فيها من العوالم المتحركة المضطربة.

﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾(4) أي قل لهم إن علم الساعة عند ربي وحده، لا عندي ولا عند غيري من الخلق، وقد جاء بمعنى الآية قوله: ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا ﴾(5)، وقوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴾(6).

(١) سورة الأعراف الآية (١٨٧).

(٢) سورة يونس الآية (٤٨).

(٣) سورة الشورى الآية (١٨).

(٤) سورة الأعراف الآية (١٨٧).

(٥) سورة فصلت الآية (٤٧).

(٦) سورة النازعات الآية (٤٢-٤٤).

وفي قوله: عند ربي إشارة إلى أن ما هو من شأن الرب لا يكون للعبد، فالله قد أعد نبيه ليكون منذرا ومبشرا، والإنذار إنما يكون بالساعة وأهوالها، لا للإخبار عن الغيوب بأعيانها وأوقاتها، إذ تحديد ذلك ينافي هذه الفائدة بل فيه مفاسد، إذ لو وقت الرسول ميعاد الساعة بتاريخ معين لاستهزأ به المكذبون، ولألحوا في تكذيبه وازدادوا ارتيابا، حتى إذا ما وقع الأجل وقع المؤمنون في رعب عظيم ينغص عليهم حياتهم ويشنج أعصابهم، فلا يستطيعون عملا ولا يسيغون طعاما ولا شرابا، وسخر الكافرون من المؤمنين، وقد حدث أن أخبر بعض رجال الكنيسة في أوربة أن القيامة ستكون في سنة كذا فهلعت القلوب، واختلت الأعمال، وأهمل أمر العيال، ولم تهدأ النفوس إلا بعد أن ظهر كذب النبأ.

والخلاصة إن هناك حكمة بالغة في إبهام أمر الساعة للعالم، والساعة الخاصة بالأفراد والأمم والأجيال، يجعلها من الغيب الذي استأثر الله تعالى به.

﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾[1] أي لا يكشف حجاب الخفاء عنها، ولا يظهرها في وقتها المحدود عند الله تعالى إلا هو؛ إذ لا وساطة بينه وبين عباده في إظهارها، ولا الإعلام بميقاتها، وإنما وساطة الرسل في الإنذار بها.

﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾[2] أي ثقل وقتها وعظم أمرها في السموات والأرض على أهلهما من الملائكة والإنس والجن، لأن الله أنبأهم بأهوالها ولم يشعرهم بميقاتها، فهم دائما يتوقعون أمرا عظيما لا يدرون متى يفجؤهم وقوعه.

وقال السدي: «خفيت في السموات والأرض فلا يعلم قيامها ملك مقرب، ولا نبي مرسل»[3]. وقال ابن عباس: «ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة»[4]...

﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ﴾[5] أي لا تأتيكم إلا فجأة وعلى حين غفلة بلا إشعار ولا إنذار، وقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة «**ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما**

---

(١)سورة الأعراف الآية (١٨٧).

(٢)سورة الأعراف الآية (١٨٧).

(٣) تفسير ابن جرير(١٣/٢٩٥).

(٤) تفسير ابن أبي حاتم(٦/٢٩٩).

(٥)سورة الأعراف الآية (١٨٧).

يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وهو يليط -يطلي حجارته بجص ونحوه ليمسك الماء- حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها»[١]، والمراد من كل هذا أنها تبغت الناس وهم منهمكون في أمور معايشهم، فيجب على المؤمنين أن يخافوا ذلك اليوم، وأن يحملهم ذلك على مراقبة الله تعالى في أعمالهم بأن يلتزموا فيها الحق ويتحروا الخير، ويتقوا الشر والمعاصي ولا يجعلوا حظهم من أمر الساعة، الجدل فيها وكثرة القيل والقال في شأنها وفي تعيين ميقاتها.

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ﴾[٢] أي يسألونك كأنك حفي مبالغ في سؤال ربك عنها.

وقد يكون المعنى: يسألونك عنها كأنك حفي بهم، وبينك وبينهم مودة وكأنك صديق لهم، ويؤيد هذا ما روي عن ابن عباس قال: لما سأل الناس النبي ﷺ عن الساعة، سألوه سؤال قوم كأن محمدا حفي بهم، فأوحى الله إليه: إنما علمها عنده استأثر به فلا يطلع عليه ملكا مقربا ولا رسولا[٣].

وما روي عن قتادة قال: قالت قريش لمحمد ﷺ: «**إن بيننا وبينك قرابة، فأشر إلينا متى الساعة؟ فقال الله عز وجل يسئلونك كأنك حفي عنها**»[٤].

﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[٥] هذا تكرار للجواب إثر تكرير السؤال مبالغة في التأكيد، وإيئاس لهم من العلم بوقت مجيئها وتخطئة لمن يسألون عنه، وعبر هنا بلفظ الجلالة (الله) إشارة إلى أنه استأثر بعلم هذا لذاته، كما أشعر ما قبله بأنه من شؤون ربوبيته، وكلاهما مستحيل على خلقه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[٦] أي لا يعلمون اختصاص علمها به تعالى ولا حكمة ذلك، ولا أدب السؤال ولا نحو ذلك مما ينبغي أن يعلم في هذا الباب، وإنما يعلم ذلك القليلون، وهم المؤمنون بما جاء في كتاب الله من أخبارها وبما سمع من رسوله ﷺ، كمن حضروا تمثل جبريل

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب طلوع الشمس من مغربها (١٠٦/٨) الحديث رقم(٦٥٠٦)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة (٢٢٧٠/٤) الحديث رقم(٢٩٥٤) واللفظ للبخاري.

(٢) سورة الأعراف الآية (١٨٧).

(٣) تفسير ابن جرير(٢٩٨/١٣).

(٤) تفسير ابن جرير(٢٩٨/١٣).

(٥) سورة الأعراف الآية (١٨٧).

(٦) سورة الأعراف الآية (١٨٧).

عليه السلام بصورة رجل وسؤاله النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، ثم عن الساعة، وإجابة النبي ﷺ له عن سؤاله الأخير بقوله: «**ما المسئول عنها بأعلم من السائل**»[1] أي إنا سواء في جهل هذا الأمر، فلا يعلم أحد منا متى تقوم الساعة.

قال الآلوسي: "وإنما أخفى سبحانه أمر الساعة لاقتضاء الحكمة التشريعية ذلك، فإنه أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية، كما أن إخفاء الأجل الخاص للإنسان كذلك، وظاهر الآيات أنه عليه السلام لم يعلم وقتها، نعم علم عليه الصلاة والسلام قربها على الإجمال وأخبر به، فقد أخرج الترمذي وصححه عن أنس مرفوعا «**بعثت أنا والساعة كهاتين، و أشار بالسبابة والوسطى**»[2]، وفي الصحيحين عن ابن عمر مرفوعا أيضا «**إنما أجلكم فيمن مضى قبلكم من الأمم من صلاة العصر إلى غروب الشمس**»[3]"[4].

روى البخاري عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «**مفاتيح الغيب خمس** ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴾[5]»[6]"[7].

وقال المراغي رحمه الله عند قوله جل وعلا: ﴿ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[8]: "الساعة: الوقت الذي تقوم فيه القيامة،

---

(١) سبق تخريجه ص(٤٦٢).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الطلاق، باب اللعان (٥٣/٧) الحديث رقم(٥٣٠١)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة (٢٢٦٨/٤) الحديث رقم(٢٩٥١).

(٣) صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب من أدرك ركعة من العصر قبل الغروب (١١٦/١) الحديث رقم(٥٥٧) ولم أجده في مسلم.

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني(١٣٤/٩).

(٥) سورة لقمان الآية (٣٤).

(٦) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {إن الله عنده علم الساعة} (١١٥/٦) الحديث رقم(٤٧٧٨).

(٧) تفسير المراغي(١١٩/٣).

(٨) سورة النحل الآية (٧٧).

سميت بذلك لأنها تفجأ الإنسان في ساعة ما فيموت الخلق بصيحة واحدة، ولمح البصر: رجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها،...

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾(١) أي ولله علم ما غاب عن أبصاركم في السموات والأرض مما لا اطلاع لأحد عليه إلا أن يطلعه الله، والمراد به جميع الأمور الغائبة عن علوم المخلوقين التي لا سبيل إلى إدراكها حسًّا ولا إلى فهمها عقلًا.

﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾(٢) أي وما شأنها في سرعة المجيء إلا كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها، أو هو أقرب من هذا وأسرع، لأنه إنما يكون بقول (كن فيكون).

ونحو الآية قوله: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾(٣) أي فيكون ما يريد كطرف العين.

وقريب من هذا قوله: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾(٤)، والخلاصة: إن قيام القيامة ومجيء الساعة التي ينتشر فيها الخلق للوقوف في موقف الحساب كنظرة من البصر، وطرفة من العين في السرعة، وخص قيام الساعة من بين الغيوب، لأنه قد كثرت فيه المماراة في جميع الأزمنة والعصور، ولدى كثير من الأمم، فأنكره كثير من البشر وجعلوه مما لا يدخل في باب الممكنات"(٥).

---

(١) سورة النحل الآية (٧٧).

(٢) سورة النحل الآية (٧٧).

(٣)سورة القمر الآية (٥٠).

(٤) سورة لقمان الآية (٢٨).

(٥) تفسير المراغي(٥/٢٣٧).

المطلب الثاني: أشراط الساعة وأماراتها

قال المراغي رحمه الله: "الأشراط: واحدها شرط كأسباب وسبب، وهي العلامات والأمارات الدالة على قربها، وقد ثبت في الكتاب والسنة أن للساعة أشراطا كما قال تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾(١)، ومن أعظم أشراطها بعثة خاتم النبيين بآخر هداية الوحي الإلهي للناس أجمعين، فبعثته قد كمل بها الدين وبكماله تكمل الحياة البشرية الروحية، ويتلوها كمال الحياة المادية، وما بعد الكمال إلا الزوال.

وقد وردت أحاديث في أشراط الساعة يدل بعضها على أن الشهوات المادية تتنازع مع الهداية الروحية، فيكون لها الغلب زمنا ثم تنتصر الهداية الروحية، ثم يغلب الضلال والشر والفجور والكفر حتى تقوم الساعة على شرار الخلق.

وقد قسموا أشراطها ثلاثة أقسام:

(١) ما وقع بالفعل منذ قرون خلت كقتال اليهود، وفتح بيت المقدس والقسطنطينية.

(٢) ما وقع بعضه وهو لا يزال في ازدياد كالفتن والفسوق وكثرة الزنا وكثرة الدجالين، وكثرة النساء وتشبههن بالرجال، والكفر والشرك حتى في بلاد العرب.

(٣) ما سيقع بين يدى الساعة من العلامات الصغرى والكبرى"(٢).

---

(١) سورة محمد الآية (١٨).

(٢) تفسير المراغي(٣/٤٥٦).

المطلب الثالث: المهدي

قال المراغي رحمه الله: "المهدي المنتظر أشهر الروايات أن اسمه محمد بن عبد الله، والشيعة يقولون إنه محمد بن الحسن العسكري، ويلقبونه بالحجة والقائم والمنتظر، ويقولون إنه دخل السرداب في دار أبيه في مدينة (سر من رأى) التي تسمى الآن (سامرا)[1] سنة ٢٦٥ وله من العمر تسع سنين وأنه لا يزال في السرداب حيا، وزعمت الكيسانية[2] أنه محمد بن الحنفية، وأنه حي مقيم بجبل رُضوى[3] (جبل بالمدينة) بين أسدين يحفظانه، وعنده عينان نضاحتان تفيضان عسلا ولبنا، ومعه أربعون من أصحابه.

والمشهور في نسبه أنه علوي فاطمي من ولد الحسن، وهناك رواية مصرحة بأنه من ولد العباس...

وأكثر العلماء ينكرون هذه الأحاديث، ويقولون إنها موضوعة لا نصيب لها من الصحة، ومن ثم لم يعتد بها الشيخان، ومن هؤلاء ابن خلدون فقد ذكر الأحاديث التي وردت في المهدي وضعفها وضعف أسانيدها، وانتهت به خاتمة المطاف إلى أنه لم يصح فيه شيء يوثق به إلى أن قال: "إن لله سننا في الأمم والدول والعمران، مطردة في كل زمان ومكان، كما ثبت في مصحف القرآن وصحف الأكوان، ومنها أن الدول لا تقوم إلا بعصبية، وأن الأعاجم قد سلبوا العصبية من قريش والعترة النبوية، فإن صحت أخبار هذا المهدي فلا يظهر إلا بعد تجديد عصبية هاشمية علوية، ولو سمعوا وعقلوا لسعوا وعملوا ولكان استعدادهم لظهور المهدي بالاهتداء بسنن الله رحمة لهم تجاه ما كانوا في أخباره من الفتن والنقم فيهم، وربما أغناهم عن بعض ما يروجون من زعامته إن لم يغنهم عنه كله.

---

(١) هي: لغة في سرَّ من رأى: مدينة كانت بين بغداد وتكريت على شرقي دجلة وقد خربت. معجم البلدان للحموي(١٧٣/٣).

(٢) الكيسانية: هم أصحاب كيسان، مولى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وقيل تلميذ للسيد محمد بن الحنفية رضي الله عنه، يعتقدون فيه اعتقادا فوق حده ودرجته، من إحاطته بالعلوم كلها، واقتباسه من السيدين الأسرار بجملتها من علم التأويل والباطن، وعلم الآفاق والأنفس. انظر: الملل والنحل(١٤٧/١).

(٣) جبل رضوى: بفتح أوله وسكون ثانيه من جبال تهامةوهو من ينبع على مسيرة يوم ومن المدينة على سبع مراحل، وهو قريب من ينبع. انظر: معجم البلدان(٥١/٣).

هذا، والمسلمون لا يزالون يتكلون على ظهور المهدي، ويزعم دهماؤهم أنه سينقض لهم سنن الله أو يبدلها تبديلًا، وهم يتلون قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[1] فإذا كان من أشراط الساعة آيات، وكان في زمانها خوارق عادات فهل يضرهم أن تأتيهم وهم على هدى من ربهم، وإقامة لشرعهم، في عزة وسلطان في أرضهم؟... وكان لكعب الأحبار جولة واسعة في تلفيق تلك الأخبار اهـ"[2].

وقد كانت هذه المسألة أكبر مثارات الفساد والفتن في الشعوب الإسلامية، إذ تصدى كثير من محبي الملك والسلطان، ومن أدعياء الولاية لدعوى المهدوية في الشرق والغرب، وتأييد دعواهم بالقتال والحرب، وبالبدع والإفساد في الأرض، حتى خرج ألوف الألوف من هداة الدين ومرقوا من الإسلام.

وقد كان من حصافة الرأي أن يكون خروج المهدي باعثا لهم على الاستعداد لظهوره بتأليف عصبة قوية بزعامته، تجدد الإسلام وتنشر العدل في الأنام، لكنهم لم يفعلوا بل تركوا ما يجب من حفظ سلطان الملة يجمع كلمة الأمة، وبإعداد ما استطاعوا من حول وقوة، واتكلوا على قرب ظهور المهدي، وأنه هو الذي سيرد إليهم ملكهم بالكرامات وخوارق العادات لا بالمدافع والدبابات، والطيارات والقاذفات، والأساطيل والغواصات، وقد فاتهم أن الحرب كانت بين النبي ﷺ وبين المشركين سجالا، وكان المؤمنون ينفرون منه خفافا وثقالا، فهل يكون المهدي أهدى منه أعمالا، وأحسن منه حالا ومآلا"[3].

المراغي رحمه الله لم يصرح بإنكار أحاديث المهدي، لكن سياقه لكلام ابن خلدون يوحي بذلك، فما موقف أهل الحديث من أحاديث المهدي؟!

قال في تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: "اعلم أن المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على ممر الأعصار، أنه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت، يؤيد الدين ويظهر العدل، ويتبعه المسلمون ويستولي على الممالك الإسلامية، ويسمى بالمهدي، ويكون خروج الدجال وما بعده من أشراط الساعة الثابتة في الصحيح على أثره، وأن عيسى

---

(١) سورة فاطر الآية (٤٣).

(٢) لم أجده في تاريخه ولكن نقله عنه محمد رشيد رضا في تفسير المنار(٩/٤١٧).

(٣) تفسير المراغي(٣/٤٥١).

عليه السلام ينزل من بعده فيقتل الدجال، أو ينزل من بعده فيساعده على قتله، ويأتم بالمهدي في صلاته.

وخرج أحاديث المهدي جماعة من الأئمة منهم أبو داود والترمذي وابن ماجة والبزار والحاكم والطبراني وأبو يعلي الموصلي، وأسندوها إلى جماعة من الصحابة؛ مثل: علي وابن عباس، وابن عمر، وطلحة، وعبد الله بن مسعود، وأبي هريرة، وأنس، وأبي سعيد الخدري، وأم حبيبة، وأم سلمة، وثوبان، وقرة بن إياس، وعلي الهلالي، وعبد الله بن الحارث بن جزء رضي الله عنهم، وإسناد أحاديث هؤلاء بين صحيح وحسن وضعيف.

وقد بالغ الإمام المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون المغربي في تاريخه في تضعيف أحاديث المهدي كلِّها، فلم يصب بل أخطأ، وما روي من رواية محمد بن المنكدر عن جابر: «من كذب بالمهدي فقد كفر» فموضوع، والمتهم فيه أبو بكر الإسكاف، وربما تمسك المنكرون لشأن المهدي بما روي مرفوعا أنه قال: «**لا مهدي إلا عيسى بن مريم**»، والحديث ضعفه البيهقي والحاكم وفيه أبان بن صالح وهو متروك الحديث والله أعلم، كذا في عون المعبود[(١)]

قلت: الأحاديث الواردة في خروج الإمام المهدي كثيرة جدا، ولكن أكثرها ضعاف، ولا شك في أن حديث عبد الله بن مسعود الذي رواه الترمذي في هذا الباب لا ينحط عن درجة الحسن وله شواهد كثيرة من بين حسان وضعاف، فحديث عبد الله بن مسعود هذا مع شواهده وتوابعه صالح للاحتجاج بلا مرية، فالقول بخروج الإمام المهدي وظهوره هو القول الحق والصواب، والله تعالى أعلم.

وقال القاضي الشوكاني في الفتح الرباني: "الذي أمكن الوقوف عليه من الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر خمسون حديثا، وثمانية وعشرون أثرا، ثم سردها مع الكلام عليها، ثم قال: وجميع ما سقناه بالغ حد التواتر كما لا يخفى على من له فضل اطلاع"[(٢)] انتهى"[(٣)].

وقال ابن القيم رحمه الله عن أحاديث المهدي: "هذه الأحاديث أربعة أقسام صحاح وحسان وغرائب وموضوعة وقد اختلف الناس في المهدي على أربعة أقوال:

---

(١) انظر عون المعبود(٢٤٣/١١).

(٢) لم أجده في الفتح الرباني للشوكاني.

(٣) تحفة الاحوذي(٤٠١/٦).

أحدها: أنه المسيح ابن مريم وهو المهدي على الحقيقة.

القول الثاني: أنه المهدي الذي ولي من بني العباس وقد انتهى زمانه.

القول الثالث: أنه رجل من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم من ولد الحسن بن علي يخرج في آخر الزمان وقد امتلأت الأرض جورا وظلما فيملأها قسطا وعدلا وأكثر الأحاديث على هذا تدل.

وفي كونه من ولد الحسن سر لطيف وهو أن الحسن رضي الله تعالى عنه ترك الخلافة لله فجعل الله من ولده من يقوم بالخلافة الحق المتضمن للعدل الذي يملأ الأرض وهذه سنة الله في عباده أنه من ترك لأجله شيئا أعطاه الله أو أعطى ذريته أفضل منه وهذا بخلاف الحسين رضي الله عنه فإنه حرص عليها وقاتل عليها فلم يظفر بها والله أعلم

وهذه الأحاديث وإن كان في إسنادها بعض الضعف والغرابة فهي مما يقوي بعضها بعضا ويشد بعضها ببعض فهذه أقوال أهل السنة.

وأما الرافضة الإمامية: فلهم قول رابع: وهو أن المهدي هو محمد بن الحسن العسكري المنتظر من ولد الحسين بن علي لا من ولد الحسن الحاضر في الأمصار الغائب عن الأبصار الذي يورث العصا ويختم الفضا دخل سرداب سامراء طفلا صغيرا من أكثر من خمس مئة سنة فلم تره بعد ذلك عين ولم يحس فيه بخبر ولا أثر وهم ينتظرونه كل يوم يقفون بالخيل على باب السرداب ويصيحون به أن يخرج إليهم أخرج يا مولانا لآحتج يا مولانا ثم يرجعون بالخيبة والحرمان فهذا دأبهم ودأبه.

ولقد أحسن من قال:

ما آن للسرداب أن يلد الذي ... كلمتموه بجهلكم ما آنا

فعلى عقولكم العفاء فإنكم ... ثلثتم العنقاء والغيلانا

ولقد أصبح هؤلاء عارا على بني آدم وضحكة يسخر منها كل عاقل"[(١)].

---

(١) المنار المنيف في الصحيح والضعيف ص(١٤٨-١٥٣).

المطلب الرابع: من أشراط الساعة الدابة

قال المراغي رحمه الله بعد قول الله جل وعلا عن الدابة: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾(١) يخبر سبحانه بأنه حين فساد الناس وتركهم أوامره، وتبديلهم الدين الحق قرب مجيء الساعة تخرج دابة من الأرض تحدِّثُ الناس بأنهم كانوا لا يوقنون بآياته الدالة على مجيء الساعة ومقدماتها.

والمقصود من هذا التحديث: التشنيع عليهم بهذه المقالة، وفي التعبير بكلمة (الناس) الإشارة إلى كثرتهم وأنهم جمٌّ غفير منهم.

وما جاء في وصف الدابة والمبالغة في طولها وعرضها، وزمان خروجها ومكانه مما لا يركن إليه، فإن أمور الغيب لا يجب التصديق بها إلا إذا ثبتت بالدليل القاطع عن الرسول المعصوم"(٢).

قلت: ومن الأحاديث الثابتة في الدابة ما رواه مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**بادروا بالأعمال ستا طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان، أو الدجال، أو الدابة، أو خاصة أحدكم أو أمر العامة**»(٣).

وعن عبد الله بن عمرو قال حفظت من رسول الله ﷺ حديثا لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول الآيات خروجًا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريبا**»(٤).

وهذه الأحاديث تكفي هي واضحة في إثبات الدابة.

---

(١) سورة النمل الآية (٨٢).

(٢) تفسير المراغي(١٣٩/٧).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في بقية من أحاديث الدجال (٢٢٦٧/٤) الحديث رقم(٢٩٤٧).

(٤) صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض... (٢٢٦٠/٤) الحديث رقم(٢٩٤١).

المطلب الخامس: طلوع الشمس من مغربها

قال المراغي رحمه الله عند توضيح قول الحق سبحانه: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾(١): "أي يوم يأتي بعض آيات ربك الموجبة للإيمان الاضطراري، لا ينفع نفسا لم تكن آمنت من قبل أن تؤمن حينئذ، ولا نفسا لم تكن كسبت في إيمانها خيرا وعملا صالحا أن تفعل ذلك بعد مجيئها، لبطلان التكليف الذي يترتب عليه ثواب الأعمال، إذ التكليف يستدعي الإرادة والاختيار بالتمكن من الإيمان والكفر، وعمل الخير والشر، وبذا يكون الثواب والعقاب.

وبعض هذه الآيات قد يطلع عليه الأفراد عند الغرغرة قبل خروج الروح، وبعضها لا يطلعون عليه إلا قبيل يوم القيامة حين مجيء أشراط الساعة.

وقد وردت أحاديث منها الصحيح ومنها الضعيف الذي لا يصلح وحده أن يكون حجة، أن المراد ببعض الآيات هو طلوع الشمس من مغربها قبيل تلك القارعة التي ترج الأرض رجا وتبس الجبال بسا، ويبطل هذا النظام الشمسي بحدوث حادث تتحول فيه حركة الأرض اليومية، فيكون الشرق غربا والغرب شرقا...

وروى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا**»(٢).

وأخرج مسلم عن أبي هريرة مرفوعا «**ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض**»(٣)"(٤).

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٥٨).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب طلوع الشمس من مغربها (١٠٦/٨) الحديث رقم(٦٥٠٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١٣٧/١) الحديث رقم(٢٤٨).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١٣٧/١) الحديث رقم(٢٤٩).

(٤) تفسير المراغي(٢٤٣/٣) بتصرف يسير.

وأزيد على ما ذكره المراغي في هذا الموضوع ما أخرجه مسلم عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «**إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها**»(١).

وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه**»(٢).

قال إمام المفسرين ابن جرير الطبري رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: "﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾(٣).

يقول جل ثناؤه: هل ينتظر هؤلاء العادلون بربهم الأوثان والأصنام إلا أن تأتيهم الملائكة، بالموت فتقبض أرواحهم أو أن يأتيهم ربك، يا محمد، بين خلقه في موقف القيامة أو يأتي بعض آيات ربك، يقول: أو أن يأتيهم بعضُ آيات ربك. وذلك فيما قال أهل التأويل: طلوعُ الشمس من مغربها"(٤).

---

(١) صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة (٢١١٣/٤) الحديث رقم(٢٧٥٩).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه (٢٠٧٦/٤) الحديث رقم(٢٧٠٣).

(٣) سورة الأنعام الآية (١٥٨).

(٤) تفسير الطبري(٢٤٥/١٢).

المطلب السادس: يأجوج ومأ جوج

قال المراغي رحمه الله عند قوله ﷻ: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾[1]

يأجوج ومأجوج:

يأجوج: هم التتر، ومأجوج: هم المغول، وأصلهما من أب واحد يسمى (ترك)، وكانوا يسكنون الجزء الشمالي من آسيا، وتمتد بلادهم من التبت والصين إلى المحيط المتجمد الشمالي، وتنتهي غربا بما يلى بلاد التركستان.

وقوله ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾[2] أي وكان كل ما وعد به سبحانه حقًّا ثابتًا لا ريب في تحققه، وقد جاء وعده تعالى بخروج جنكيزخان[3] وسلائله[4]، فعاثوا في الأرض فسادا من الشرق والغرب، وفعلوا الأفاعيل بالدولة الإسلامية، وأزالوا معالم الخلافة من بغداد ...

روى البخاري عن أم حبيبة بنت أبي سفيان عن زينب بنت جحش أن رسول الله ﷺ دخل عليها يوما فزعا يقول: «**لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا، وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب: فقلت: يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ فقال: نعم إذا كثر الخبث**»[5].

ولقد اتسع ذلك الفتح من هذا التاريخ شيئا فشيئا حتى فتح عن آخره في القرن السابع الهجري، وخرج هؤلاء القوم كما قدمنا، وقد عثر على آثاره كما علمت فيما سلف.

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ﴾[6] أي ويوم يُدَكُّ السدُّ يخرج هؤلاء من ورائه يموجون في الناس، ويفسدون عليهم زروعهم ويتلفون أموالهم، وهذا بمعنى قوله في سورة الأنبياء: ﴿ حَتَّىٰٓ

---

(١) سورة الكهف الآية (٩٤).

(٢) سورة الكهف الآية (٩٨).

(٣) جنكيزخان السلطان الأعظم عند التتار والد ملوكهم اليوم ينتسبون إليه.

(٤) انظر: البداية والنهاية لابن كثير(١٣/١١٧-١١٨).

(٥) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج (٤/١٣٨) الحديث رقم(٣٣٤٦)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج (٤/٢٢٠٧) الحديث رقم(٢٨٨٠).

(٦) سورة الكهف الآية (٩٩).

﴿إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾[(١)] أي وهم من كل مرتفع من الأرض يسرعون في النزول من الآكام والمرتفعات، وتلك حال تنطبق على قوم جنكيزخان، فقد كان خروجهم من هضبات آسيا الوسطى، كما تقدم نقلا عن مؤرخي العرب والإفرنج.

كل هذا قبل النفخ في الصور بزمن مجهول غير معلوم.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾[(٢)] أي فإذا دنا ميقات الساعة نفخ في الصور وجمعنا الناس جمعا، وأحضرناهم للحساب"[(٣)].

المراغي رحمه الله نصن في هذا الموضوع على مسألتين:

الأولى: أن يأجوج ومأجوج هم التتر والمغول.

والثانية: أنهم خرجوا في القرن السابع الهجري.

فأما المسألة الأولى وهي أن يأجوج ومأجوج هم التتر والمغول؛ فأقول مستعينًا بالله متوكلًا عليه: ذكر السفاريني رحمه الله في كتابه (لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية) مجموعة من الآحايث والآثار في هذا الموضوع، بعضها صحيح وبعضها ضعيف، فقال: "قال أهل التاريخ: أولاد نوح ثلاثة: سام وحام ويافث، فسام أبو العرب والعجم والروم، وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة، ويافث أبو الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج[(٤)]...

ثم ذكر الأدلة على خروجهم؛ فقال: أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾[(٥)]، وأما السنة ففي صحيح مسلم من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله تعالى يوحي إلى عيسى ابن مريم عليه السلام بعد قتله الدجال أني قد أخرجت عبادًا لي، لا يَدَانِ لأحدٍ بقتالهم فحرِّزْ عبادي**

(١) سورة الأنبياء الآية (٩٦).

(٢) سورة الكهف الآية (٩٩).

(٣) تفسير المراغي(١١/٦).

(٤) انظر: تاريخ الطبري(١/١٢٥)، وأخبار الزمان للمسعودي(١/٩١)، وتاريخ ابن خلدون(٢/١٠).

(٥) سورة الأنبياء الآية (٩٦).

إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوَّلُهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها»[١] ...

فللنص القرآنيِّ والأحاديث الواردة عن النبي ﷺ مما ذكرنا ومما لم نذكر قال (فإنه) أي يأجوج ومأجوج، يعني خروجهم من وراء السد على الناس (حق) ثابت لوروده في الذكر وثبوته عن سيد البشر، ولم يحله عقل فوجب اعتقاده، فقد روى الجماعة إلا أبا داود من حديث زينب بنت جحش رضي الله عنهما قالت: «**خرج رسول الله ﷺ فزِعًا محمرًّا وجهه يقول: لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها، قالت: قلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث**»[٢]، إشارة بذلك إلى أن الذي فتحوا من السد قليلا، وهم مع ذلك لم يلهمهم الله تعالى أن يقولوا عند نقبه وحفره غدًا نفتحه إن شاء الله، فإذا قالوها خرجوا.

وقد روى عبد الرزاق عن أبي قتادة قال: «يأجوج ومأجوج ثنتان وعشرون قبيلة بنى ذو القرنين السد على إحدى وعشرين، وكانت قبيلة منهم غائبة في الغزو وهم الترك، فبقوا دون السد»[٣].

وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق السدي من أثر قوي: «الترك سرية من سرايا يأجوج ومأجوج، خرجت فجاء ذو القرنين فبنى السد فبقوا خارجا عنه»[٤].

وسئل علي رضوان الله عليه عن الترك فقال: «هم سيارة ليس لهم أصل، هم من يأجوج ومأجوج خرجوا يغيرون على الناس فجاء ذو القرنين فسد بينهم وبين قومهم، فذهبوا سيارة في الأرض» رواه ابن المنذر[٥].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٢٥٠/٤) الحديث رقم(٢٩٣٧).

(٢) سبق تخريجه ص(٥٨٥).

(٣) انظر: التفسير الوسيط للواحدي(١٦٧/٣)، والبغوي في تفسيره(٢١٤/٣).

(٤) انظر: المقاصد الحسنة(٥٦/١).

(٥) انظر: الدر المنثور للسيوطي(٤٥٦/٥).

وأخرج الإمام أحمد والطبراني عن خالد بن عبد الله بن حرملة عن خالته مرفوعا: «**إنكم لتقولون لا عدو، وإنكم لا تزالون تقاتلون عدوا حتى تقاتلون يأجوج ومأجوج، عراض الوجوه صغار العيون، صهب الشعور من كل حدب ينسلون، كأن وجوههم المجان المطرقة**»[١]، قوله: صهب الشعور أي شعرهم بين الحمار والسواد.

وقال الزهري[٢]: «يأجوج ومأجوج ثلاث أمم: منسك وتاويل وتاريس».

وأخرج الطبراني وابن مردويه والبيهقي وعبد بن حميد عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن يأجوج ومأجوج من ذرية آدم وراءهم ثلاث أمم: تاويل وتاريس ومنسك»[٣].

وأخرج عبد بن حميد بسند صحيح عن عبد الله بن سلام نحوه[٤]"[٥].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا خوزا وكرمان**[٦] **من الأعاجم، حمر الوجوه، فطس الأنوف، صغار الأعين، وجوههم المجان المطرقة، نعالهم الشعر**»[٧].

ومن الأحاديث الواردة أيضا في صفات يأجوج ومأجوج ما حدث به أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما نعالهم الشعر، وحتى تقاتلوا الترك، صغار الأعين، حمر الوجوه، ذلف الأنوف، كأن وجوههم المجان المطرقة**»[٨].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند(١٩/٣٧) الحديث رقم(٢٢٣٣١)، وقال البوصيري في اتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة (٥١/٨) رواته ثقات، وضعف إسناده الأرناؤوط في تعليقه على المسند.

(٢) هو: أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله القرشي الزهري، الفقيه الحافظ، متفق على جلالته وإتقانه، توفي سنة ١٢٥هـ. انظر: تقريب التهذيب(٥٠٦/٢).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره(٣٦٠/٤)، وابن جرير(٥٢٨/١٨) كلاهما من طريق عبدالله بن عمرو.

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره(٥٢٨/١٨).

(٥) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية(١١٤/٢).

(٦) قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر(٨٧/٢): فيه ذكر "خُوزِ كِرْمَان"، وروي "خُوز وكِرْمان" والخُوز: جِيل معروفٌ وكِرْمان: صُقْع معروفٌ في العَجَم. ويروى بالراء المهملة وهو من أرض فارس وصوّبه الدَّار قُطْنى، وقيل إذا أضفْتَ فبالراء وإذا عَطفتَ فبالزاي.

(٧) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (١٩٦/٤) الحديث رقم(٣٥٩٠).

(٨) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (١٩٦/٤) الحديث رقم(٣٥٨٧)، ومسلم بمعناه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٢٢٣٤/٤) الحديث رقم(٢٩١٢).

وسئل سماحة الوالد الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز رحمه الله عن يأجوج ومأجوج، هل هناك عشيرتان في الصين باسم يأجوج ومأجوج، وهل هم الذين ذكرهم الرسول ﷺ في حديثه، وإن لم يكونوا فمن هم؟

فأجاب: "يأجوج ومأجوج طائفتان من بني آدم في الشرق الأقصى، يخرجون في آخر الزمان، وأغلب الظن أنهم من سكان الصين وما حولها؛ لأنهم من الشرق الأقصى، وقد أقام ذو القرنين سدا بينهم وبين الناس، كما ذكر الله في القرآن في سورة الكهف، فهم من بني آدم ويخرجون في آخر الزمان بعد الدجال، ثم ينزل الله عليهم مرضًا في رقابهم فيموتون، وهذا في زمن عيسى عليه الصلاة والسلام؛ لأن الدجال إذا خرج ينزل الله عيسى عليه السلام فيقتل الدجال، ويخرج يأجوج ومأجوج في زمن عيسى ثم يميتهم الله ويقضي عليهم، وأغلب الظن وظاهر القرآن الكريم وظاهر أخبار ذي القرنين أنهم في جهة الشرق، جهة الصين وما حولها"(١).

وكذلك سئل فضيلة الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله؛ فقال السائل: "استفاض عن الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمة الله عليه أنه قال بظهور يأجوج ومأجوج، وأنهم أهل الصين. وبعد الرجوع إلى تفسيره تبين أن يأجوج ومأجوج سيخرجون في آخر الزمان، وأنهم سيفسدون في الأرض، وأن خروجهم من علامات الساعة الكبرى، فهل رجع الشيخ عن قوله الأول أم أن له قولين في هذه المسألة؟ وأنتم ماذا ترجحون في هذا جزاكم الله خيرا؟

فقال: "الجواب الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله هو شيخنا، وقد أثيرت ضجة حول ما نسب إليه من أن يأجوج ومأجوج هم أهل الصين وما وراء جبال القوقاز، والحقيقة أنه رحمه الله لم يقل شيئا إلا بدليل مبني على الكتاب والسنة، وبقول قاله من قبله، لكن أهل الأهواء يتشبثون بخيط العنكبوت في تشويه سمعة من آتاه الله من فضله، فأرادوا أن يحسدوه. فشيخنا رحمه الله لم يقل: إن يأجوج ومأجوج الذين يخرجون في آخر الزمان هم الموجودون الآن، ولا يمكن أن يقول به عاقل فضلا عن عالم يعتبر علامة زمانه رحمه الله، وإنما قال: إن يأجوج ومأجوج موجودون، والقرآن يدل على ذلك، قال الله تعالى في ذي القرنين: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ

(١) نور على الدرب- موقع الشيخ ابن باز الرسمي.

مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴾[١] يعني: سار.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ﴾[٢] إذا هم موجودون.

وقوله تعالى: ﴿ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا ﴾[٣] يعني: مالًا.

﴿ عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ﴾[٤]، فاستجاب لذلك؛ قال: ﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ ﴾[٥] فآتوه بزبر الحديد، وركم بعضها على بعض.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ ﴾[٦] يعني: بين الجبلين.

﴿ قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ﴾[٧] يعني: آتوني قطرا، أي آتوني حديدا مذابا أفرغه عليه فأتوه بذلك، فصار هذا السد مثل الجبل، وهو سد من حديد،.

﴿ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ ﴾[٨] يعني: يعلو عليه.

﴿ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ﴾[٩] أي: ما استطاعوا أن ينقبوه؛ لأنه من حديد.

﴿ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي ﴾[١٠] يعني في آخر الزمان.

﴿ جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ ﴾[١١].

---

(١) سورة الكهف الآية (٩٠-٩٢).

(٢) سورة الكهف الآية (٩٣-٩٤).

(٣) سورة الكهف الآية (٩٤).

(٤) سورة الكهف الآية (٩٤).

(٥) سورة الكهف الآية (٩٦).

(٦) سورة الكهف الآية (٩٦).

(٧) سورة الكهف الآية (٩٦).

(٨) سورة الكهف الآية (٩٧).

(٩) سورة الكهف الآية (٩٧).

(١٠) سورة الكهف الآية (٩٨).

(١١) سورة الكهف الآية (٩٨-٩٩).

فالحاصل أن شيخنا رحمه الله لم ير رأيين في هذه المسألة، بل هو رأي واحدٌ دل عليه كتاب الله عز وجل، وكذلك أقوال أهل العلم، بل إن الرسول ﷺ ثبت عنه أنه قال: «**يقول الله تعالى: يا آدم -يعني: يوم القيامة- فيقول: لبيك وسعديك، فيقول: أخرج من ذريتك بعثا إلى النار، قال: يا رب وما بعث النار؟ قال: تسعمائة وتسعة وتسعون من كل ألف**»، يعني: تسعمائة وتسعة وتسعين من بني آدم كلهم في النار وواحد في الجنة، «**فكبر ذلك على الصحابة وعظم عليهم وقالوا: يا رسول الله! أين ذلك الواحد؟ قال: أبشروا فإنكم في أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج**»[1]، وهذا صريح أن يأجوج ومأجوج من بني آدم، وأنهم يدخلون النار.

فعلى كل حال نحن نرى ما يدل عليه الكتاب والسنة من أن يأجوج ومأجوج موجودون، لكن هؤلاء الموجودين ليسوا هم الذين يخرجون في آخر الزمان، بل سيأتي أقوام آخرون من نسلهم، فيخرجون في آخر الزمان، ويفسدون في الأرض كما أفسد آباؤهم"[2].

أما المسألة الثانية التي ذكرها المراغي رحمه الله عن يأجوج ومأجوج وهي أنهم خرجوا في القرن السابع الهجري.

فأقول: ظاهر النصوص أن خروجهم يكون وقت خروج الدجال وعيسى ابن مريم، ففي حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه في ذكر الدجال قال في آخره: «**إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مهرودتين، واضعا كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله، ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى إني قد أخرجت عبادا لي لا يدان لأحد بقتالهم فحرز عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل**

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {وترى الناس سكارى} (٩٧/٦) الحديث رقم(٤٧٤١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب قوله يقول الله لآدم أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين (٢٠١/١) الحديث رقم(٣٧٩) بمعناه.

(٢) لقاء الباب المفتوح رقم اللقاء(٦٠).

حدب ينسلون، فيمرُّ أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء، ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرا من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم، فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيرا كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطرا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة، ثم يقال للأرض أنبتي ثمرتك وردي بركتك»[(١)].

عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: «**كنا قعودا نتحدث في ظل غرفة لرسول الله ﷺ فذكرنا الساعة فارتفعت أصواتنا، فقال رسول الله ﷺ: لن تكون أو لن تقوم الساعة حتى يكون قبلها عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، والدجال، وعيسى ابن مريم، والدخان، وثلاثة خسوف؛ خسف بالمغرب، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك تخرج نار من اليمن من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر**»[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**إن يأجوج مأجوج ليحفرون السد كل يوم حتى إذا كادوا يخرقونه، قال الذي عليهم: ارجعوا فتخرقونه غدا، فيعيده الله أشد ما كان، حتى إذا بلغ مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس، قال الذي عليهم: ارجعوا فتخرقونه غدا إن شاء الله تعالى، واستثنى، قال: فيرجعون فيجدونه كهيئته حين تركوه، فيخرقونه فيخرجون على الناس**»[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٢٥٠/٤) الحديث رقم(٢٩٣٧).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب أمارات الساعة (١١٤/٤) الحديث رقم(٤٣١١)، وأحمد في المسند(٦٧/٢٦) الحديث رقم(١٦١٤٤) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود رقم(٤٣١١).

(٣) أخرجه أحمد في المسند(٣٦٩/١٦)، والترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الكهف (٣١٣/٥) الحديث رقم(٣١٥٣)، والحاكم في المستدرك (٥٣٤/٤) الحديث رقم(٨٥٠١)، وقال: "حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه" ووافقه الذهبي في التلخيص، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم(٢٢٧٦).

قال ابن قدامة المقدسي رحمه الله: "ويجب الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ وصح به النقل عنه فيما شاهدناه، أو غاب عنا، نعلم أنه حق، وصدق، وسواء في ذلك ما عقلناه وجهلناه، ولم نطلع على حقيقة معناه.... -إلى أن قال-: ومن ذلك أشراط الساعة، مثل خروج الدجال ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام فيقتله، وخروج يأجوج ومأجوج ..." [(١)].

وقال السفاريني رحمه الله: "إن خروجهم من وراء السد على الناس حق ثابت لوروده في الذكر وثبوته عن سيد البشر، ولم يحله عقل فوجب اعتقاده"[(٢)].

---

(١) لمعة الاعتقاد لابن قدامة ص(٢٩-٣٠).

(٢) لوامع الأنوار(١١٦/٢).

المبحث الثالث: آراء المراغي الاعتقادية في الحياة الآخرة

وتحته أربعة مطالب:

المطلب الأول: الحساب والميزان.

المطلب الثاني: الجنة.

المطلب الثالث: الجنة التي سكنها آدم.

المطلب الرابع: العذاب.

المطلب الأول: الحساب والميزان

ذكر المراغي رحمه الله في تفسيره ما يكون في حياة الآخرة من الحساب والجنة والنار.

فأما ما يتعلق بالحساب فقد قال رحمه الله: "روى البخاري عن أنس رضي الله عنه «**أن رسول الله ﷺ عاد رجلا من المسلمين قد صار مثل الفرخ المنتوف، فقال له: هل كنت تدعو الله بشيء؟ قال: نعم كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: سبحان الله! إذًا لا تطيق ذلك ولا تستطيعه، فهلا قلت:** ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾(١) **ودعا له فشفاه الله**»(٢).

وقال: "وسرعة الحساب في الآخرة تكون بإطلاع كلّ عاملٍ على عمله، ويتم ذلك في لحظة، وقد روي: «**أن الله يحاسب الخلائق كلهم في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا**»، وروي: «**بمقدار لمحة البصر**» ...، ومن علم بأنه محاسب على أعماله مجازى عليها؛ كان ذلك باعثا له على العمل، وداعيا له إلى ملازمة التقوى، أما من كان على شك أو ظن فإنه يعمل تارة ويترك أخرى"(٣).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾(٤): "فهو يحاسب الناس جميعهم في وقت قصير، فيتمثل لهم ما كسبته أيديهم، وانطوت عليه جوانحهم، وهو مكتوب في صحائف أعمالهم"(٥).

وقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾(٦): "أي إنه تعالى هو الغالب خلقه العالي عليهم بقدرته وسلطانه، لا المقهورون من الأوثان والأصنام، المغلوبون على أمرهم، ويرسل عليكم حفظة من الملائكة يتعاقبونكم ليلا ونهارا يحفظون أعمالكم ويحصونها، ولا يفرطون في حفظها وإحصائها، ولا يضيعون شيئا منها.

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٠١).

(٢) أخرجه ابن جرير بهذا اللفظ(٤/٢٠٤)، وأخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب كراهة الدعاء بتعجيل العقوبة في الدنيا (٤/٢٠٦٨) الحديث رقم(٢٦٨٨) ولم أجده عند البخاري.

(٣) تفسير المراغي(١/٢٧٦).

(٤) سورة آل عمران الآية (١٩٩).

(٥) تفسير المراغي(٢/١٢٥).

(٦) سورة الأنعام الآية (٦١).

وإرسال الحفظة عليهم مراقبهم لهم وإحصاء أعمالهم وكتابتها وحفظها في الصحف التي تنشر يوم الحساب، وهي المرادة بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾[١]، وهؤلاء الحفظة الملائكة الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[٢]، ونحن نؤمن بهذه الكتابة ولا نعرف صفتها ولا نتحكم فيها بآرائنا...

روى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الآية: «الملوك يتخذون الحرس يحفظونهم من أمامهم ومن خلفهم وعن يمينهم وعن شمالهم، يحفظونهم من القتل، ألم تسمع أن الله تعالى يقول ﴿ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ ﴾[٣] لم يغن الحرس عنهم شيئا»[٤].

وفي معنى الآية قوله: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾[٥].

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة مرفوعا: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، يجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون**»[٦].

والحكمة في كتابة الأعمال وحفظها على العالمين أن المكلف إذا علم أن أعماله تحفظ عليه وتعرض على رءوس الأشهاد؛ كان ذلك أزجر له عن الفواحش والمنكرات وأبعث له على عمل الصالحات، فإن المرء إن لم يصل إلى مقام العلم الراسخ الذي يثمر الخشية لله والمعرفة الكاملة التي تثمر الحياء، ربما غلب عليه الغرور بالكرم الإلهي والرجاء في المغفرة والرحمة، فلا يكون لديه من الخشية والحياء، ما يزجره عن المعصية، كما يزجره توقع الفضيحة في موقف

---

(١) سورة التكوير الآية (١٠).

(٢) سورة الانفطار الآية (١٠-١٢).

(٣) سورة الرعد الآية (١١).

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره(٣٧٧/١٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره(١٣/٩).

(٥) سورة الرعد الآية (١٠-١١).

(٦) صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر،(١١٥/١) الحديث رقم(٥٥٥)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، (٤٣٩/١) الحديث رقم(٦٣٢).

الحساب على أعين الخلائق وأسماعهم، كما قال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[1]....

وقوله: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ ﴾[2]: "القصُّ تتبع الأثر إما بالعمل كما في قوله –حكاية عن أم موسى–: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ ﴾[3]، وإما بالقول كما في قوله: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾[4].

أي فلنقصن على الرسل وعلى أقوامهم الذين أرسلوا إليهم كل ما وقع من الفريقين قصصًا بعلم منا محيط بكل ما كان منهم، فلا يعزب عنا مثقال ذرة، وقد روي عن ابن عباس: «أنه يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون».

﴿ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾[5]: "عنهم في وقت من الأوقات ولا حال من الأحوال، بل كنا معهم نسمع ما يقولون ونبصر ما يعملون، ونحيط علما بما يسرون وما يعلنون، كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾[6].

وفي هذا إيماء إلى أن السؤال لم يكن للاستعلام والاستبانة لشيء مجهول عنه تعالى، بل للإعلام والإخبار بما حدث منهم توبيخا لهم وتأنيبًا على إهمالهم.

وهذا القصص هو الذي يكون به الحساب ويتلوه الجزاء، وقد دل عليه الكتاب الكريم في مواضع عدة، ودلت عليه السنة، فمن ذلك ما رواه ابن عمر قال: قال النبي ﷺ: «**كلكم**

---

(١) سورة الكهف الآية (٤٩).

(٢) سورة الأعراف الآية (٧).

(٣) سورة القصص الآية (١١).

(٤) سورة يوسف الآية (٣).

(٥) سورة الأعراف الآية (٧).

(٦) سورة النساء الآية (١٠٨).

راع، وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راع يسأل عن الناس، والرجل راع يسأل عن أهله، والمرأة تسأل عن بيت زوجها، والعبد يسأل عن مال سيده»(١).

وما رواه المقدام قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يكون رجل على قوم إلا جاء يقدمهم يوم القيامة، بين يديه راية يحملها وهم يتبعونه، فيسأل عنهم ويسألون عنه**»(٢).

ومارواه الترمذي عن أبي برزة الأسلمي مرفوعا: «**لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه ؟**»(٣).

وروى الحاكم وابن ماجه حديث شداد بن أوس مرفوعا: «**الكيس من دان -حاسب- نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني**»(٤).

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ﴾(٥) الوزن عمل يراد به تعرف مقدار الشيء بالميزان والقسطاس، وقد يطلق كل من الميزان والقسطاس على العدل كقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾(٦)، وقوله في الرسل: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾(٧) أي والوزن في ذلك

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن (٥/٢) الحديث رقم(٨٩٣)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل،... (١٤٥٩/٣) الحديث رقم(١٨٢٩).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير(٢٧٥/٢٠)، وقال الهيثمي في المجمع(٢٥٠/٥): فيه محمد بن إسماعيل بن عياش وهو ضعيف.

(٣) أخرجه الترمذي، ابواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب في القيامة (٦١٢/٤) الحديث رقم(٢٤١٧) وقال حديث حسن صحيح، والدارمي في سننه، باب من كره الشهرة والمعرفة(٤٥٢/١) الحديث رقم(٥٥٤)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب(٣٠/١) الحديث رقم(٣٥٩٢).

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، (٦٣٨/٤) الحديث رقم(٢٤٥٩) وقال: هذا حديث حسن، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد (١٤٢٣/٢) الحديث رقم(٤٢٦٠)، والحاكم (٢٨٠/٤) الحديث رقم(٧٦٣٩) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير برقم(٤٣٠٥).

(٥) سورة الأعراف الآية (٨).

(٦) سورة التوبة الآية (١٧).

(٧) سورة الحديد الآية (٢٥).

اليوم الذي يسأل الله فيه الرسل والأمم، ويقص عليهم كل ما كان منهم هو الحق أي الذي تعرف به حقائق الأمور وما يستحقه كل أحد من ثواب وعقاب.

﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[(١)] أي فمن رجحت موازين أعماله بالإيمان وكثرة الحسنات فأولئك هم الفائزون بالنجاة من العذاب، والحائزون للنعيم في دار الثواب.

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾[(٢)] أي ومن خفت موازين أعماله بسبب كفره وكثرة ما اجترح من السيئات، فأولئك الذين خسروا أنفسهم، إذ حرموها السعادة التي كانت مستعدة لها لو لم يفسدوا فطرتها بالكفر والمعاصي وإصرارهم على ذلك إلى نهاية أعمارهم.

والخلاصة: إن المؤمنين على تفاوت درجاتهم في الأعمال هم المفلحون، فمن مات مؤمنا فهو مفلح وإن عذب على بعض ذنوبه بمقدارها، وإن الكافرين على تفاوت دركاتهم هم في خسران عظيم.

وهناك فريق ثالث استوت حسناتهم وسيئاتهم، وهم أصحاب الأعراف، وسيأتي ذكرهم بعد.

وقد اختلف العلماء في الوزن والموازين، هل المراد بها ظهور العدل التام في تقدير الجزاء على الأعمال، التي تصلح الأنفس وتزكيها أو تفسدها وتدسيها، بذلك قال مجاهد والضحاك والأعمش[(٣)]، أو أن هناك وزنا حقيقيا حكمته إظهار علم الله تعالى بأعمال عباده، وعدله في جزائهم عليها، وبهذا قال الجمهور، قال أبو إسحاق الزجاج: "أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان وأن أعمال العباد توزن يوم القيامة، وأن الميزان له لسان وكفتان ويميل بالأعمال"[(٤)].

وقال القرطبي: "التي توزن هي الصحائف التي تكتب فيها الأعمال"[(٥)].

والحق أن التي توزن هي الأعمال، فقد أخرج أبو داود والترمذي عن جابر مرفوعا: «**توضع الموازين يوم القيامة فتوزن الحسنات والسيئات، فمن رجحت حسناته على**

---

(١)سورة الأعراف الآية (٨).

(٢) سورة الأعراف الآية (٩).

(٣) انظر: تفسير ابن جرير(١٨/٤٥١).

(٤) انظر: فتح الباري(١٣/٥٣٨).

(٥) أحكام القرآن للقرطبي(٧/١٦٥).

سيئاته مثقال حبة دخل الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال حبة دخل النار، قيل ومن استوت حسناته وسيئاته؟ قال: أولئك أصحاب الأعراف»(١).

والذي عليه المعول في الإيمان بعالم الغيب: أن كل ما ثبت من أخباره في الكتاب والسنة فهو حق لا ريب فيه، فنؤمن به ولا نحكم رأينا في كيفيته، فنؤمن بأن في الآخرة وزنا للأعمال بميزان يليق بعالم الآخرة توزن به الأعمال والإيمان والأخلاق، ولا نبحث عن صورته وكيفيته.

وإذا كان العلم الحديث كشف موازين للحر والبرد واتجاه الرياح والأمطار، أفيعجز القادر على كل شيء عن وضع موازين للأعمال النفسية والبدنية التي سماها الدين الحسنات والسيئات، بما تحدثه في الأنفس من الأخلاق والصفات الثابتة فيها؟"(٢).

وعن سعيد بن جبير أن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «يحاسب الله الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار، ثم قرأ قول الله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾(٣) ثم قال: إن الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح، ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف، فوقفوا على الصراط، ثم عرض أهل الجنة وأهل النار، فإذا نظروا إلى أهل الجنة قالوا: سلام عليكم، وإذا صرفت أبصارهم إلى يسارهم رأوا أهل النار فقالوا: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٤) تعوذوا بالله من منازلهم قال: «فأما أصحاب الحسنات فإنهم يعطون نورا يمشون به بين أيديهم وبأيمانهم، ويعطى كل عبد يومئذ نورا وكل أمة نورا، فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة، فلما رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾(٥)، وأما أصحاب الأعراف فإن النور كان في أيديهم فلم ينزع من أيديهم، فهنالك يقول الله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق(٣١٣/١٤) ولم أجده في السنن، وعزاه ابن حجر في الفتح(٥٣٩/١٣) إلى خَيْثَمَة فِي فَوَائِده(١٦٣/٢١)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة(٦٦/١٣-٦٧).

(٢) تفسير المراغي(٢٦٣/٣).

(٣) سورة المؤمنون الآية (١٠٢-١٠٣).

(٤) سورة الأعراف الآية (٤٧).

(٥) سورة التحريم الآية (٨).

وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴾[(١)]».

قال سعيد: فقال ابن مسعود: «على أن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشر، وإذا عمل سيئة لم تكتب إلا واحدة ثم قال: هلك من غلب وحدانه أعشاره»[(٢)]"[(٣)].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾[(٤)]: "أي وألزمنا كل امرئ عمله الذي يصدر منه باختياره بحسب ما قدر له من خير أو شر، لا ينفك عنه بحال، والعرب تضرب المثل للشيء الذي يلزم بالشيء الذي يوضع في العنق، فيقولون: جعلت هذا في عنقك، أي قلدتك هذا العمل وألزمتك الاحتفاظ به، وخصوا العنق لأنه يظهر عليه ما يزين المرء كالقلائد والأطواق، أو ما يشينه كالأغلال والأوهاق (الحبال تجر بها الدواب).

و خلاصة هذا: إن كل إنسان منكم معشر بني آدم ألزمناه نحسه وسعده، وشقاءه وسعادته، بما سبق في علمنا أنه صائر إليه، ونحن نخرج له حين الحساب كتابا يراه منشورا، وفيه أعماله التي كسبها في الدنيا، وقد أحصى عليه ربه فيه كل ما أسلف في تلك الحياة.

أخرج ابن جرير عن الحسن أنه قال: «قال الله يا بن آدم بسطنا لك صحيفة، ووكل بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك، والآخر عن يسارك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر، حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة كتابا تلقاه منشورا، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا، قد عدل والله من جعلك حسيب نفسك»[(٥)].

وقوله: ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴾[(٦)]: أي ونخرج له يوم القيامة حين البعث والحساب كتابا يلقاه منشورا، فيقال له اقرأ كتاب عملك الذي عملته في الدنيا، وكان الملكان

---

(١) سورة الأعراف الآية (٤٦).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره(١٢/٤٥٤).

(٣) تفسير المراغي(٣/٣٠٩).

(٤) سورة الإسراء الآية (١٣).

(٥) تفسير ابن جرير(١٧/٤٠٠).

(٦) سورة الإسراء الآية (١٤).

يكتبانه ويحصيانه عليك، وحسبك اليوم نفسك عليك حاسبا تحسب عليك أعمالك فتحصيها، لا نبتغي عليك شاهدا غيرها، ولا نطلب محصيا سواها"[(١)].

وقال رحمه الله بعد قوله تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾[(٢)]: "أي ووضع كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير في يد صاحب اليمين والشمال، فترى المجرمين جميعا نادمين على ما فيه من قبائح أعمالهم، وسيء أفعالهم وأقوالهم، وظهور ذلك لأهل الموقف، خائفين من عقاب الحق، والفضيحة عند الخلق.

وقوله: ﴿ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾[(٣)] أي ويقولون حين وقوفهم على ما في تضاعيفه: يا حسرتنا على ما فرطنا في جنب الله، ما لهذا الكتاب لا يترك هنة صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وعدها، فهو محيط بجميع ما كسبته يد الإنسان.

ونحو الآية قوله: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[(٤)]، وقوله: ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[(٥)].

ثم أكد ما سلف بقوله: ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ﴾[(٦)] مثبتا في كتابهم، خيرا كان أو شرا كما قال: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[(٧)]، وقال: ﴿ يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾[(٨)].

﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[(١)] من خلقه، بل يعفو ويصفح، ويغفر ويرحم، ويعذب من يشاء بحكمته وعدله، فإنه سبحانه وعد بإثابة المطيع، وتعذيب العاصي، بمقدار جرمه من غير زيادة،

---

(١) تفسير المراغي(٥/٢٩٥).

(٢) سورة الكهف الآية (٤٩).

(٣) سورة الكهف الآية (٤٩).

(٤) سورة الانفطار الآية (١٠-١٢).

(٥) سورة الجاثية الآية (٢٩).

(٦) سورة الكهف الآية (٤٩).

(٧) سورة آل عمران الآية (٣٠).

(٨) سورة القيامة الآية (١٣).

وإنه قد يغفر له ما سوى الكفر، ومن ثم لا يعذب أحدا بما لم يعمله ولا ينقص ثواب ما عمله مما أمر به وارتضاه، ولا يزيد في عقابه الملائم لعمله الذي نهى عنه ولم يرتضه.

ونحو الآية قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾(٢)، وقوله: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾(٣).

وخلاصة ذلك: إن الجزاء نتيجة العمل، والعمل مرسوم في قوالب حافظة له، فليس يمكن رفعه ولا دفعه، ولا يكون الجزاء عليه ظلما، كما لا تعد التخمة بعد الأكل الكثير ظلما، ولا المرض بعد الشرب من الماء الآسن المملوء بالجراثيم والأدران ظلما، وإنما تلك مسببات لأسباب كل عاقل يعلم أنها نتيجة حتمية لها"(٤).

و قال بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾(٥): "أي إن الله سريع حسابه لعباده على أعمالهم التي عملوها في الدنيا، فيحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفسا نفسا واحدة، لإحاطة علمه بكل شيء، فلا يعزب عنه مثقال ذرة"(٦).

وقوله تعالى: ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ﴾(٧): "أي ولتنذر الخلائق كافة عقاب الله يوم جمعهم للعرض والحساب، وهو يوم لا شك فيه، لتظاهر الأدلة على تحققه عقلا ونقلا، فالحكمة قاضية بجزاء المحسن على إحسانه، ومعاقبة المسيء على إساءته، ولما فيه من نصوص قاطعة على وجوده لا تحتمل تأويلا ولا تفسيرا"(٨).

---

(١) سورة الكهف الآية (٤٩).

(٢) سورة النساء الآية (٤٠).

(٣) سورة الأنبياء الآية (٤٧).

(٤) تفسير المراغي(٣٩٦/٥).

(٥) سورة غافر الآية (١٧).

(٦) تفسير المراغي(٣٠٢/٨).

(٧) سورة الشورى الآية (٧).

(٨) تفسير المراغي(١٨/٢٥).

ثم ذكر عاقبة العرض والحساب فقال ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾[(١)]: "أي إنهم بعد جمعهم وعرضهم للحساب يفرقون، ففريق منهم يدخل الجنة لإيمانه بالله ورسوله، وبما أحسن من عمل في دنياه استحق به الكرامة عند ربه، والنعيم المقيم في جنته، وفريق منهم في نار الله الموقدة المسعورة على أهلها، وهم الذين كفروا بالله وخالفوا ما جاءهم به رسوله، فدسوا أنفسهم بما أساءوا إليها من شرور وآثام، وبما عبدوه من أوثان وأصنام"[(٢)].

وقال عند قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[(٣)]: "أي فيومئذ تحاسبون وتسألون، لا يخفى على الله شيء من أموركم، فإنه تعالى عليم بكل شيء، لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، كما جاء في آية أخرى: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ﴾[(٤)].

أخرج الإمام أحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن ماجة وابن مردويه عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «**يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما الثالثة فعند ذلك تطاير الصحف في الأيدي، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله**»[(٥)]"[(٦)].

وقال عند قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾[(٧)]: "يقال: ثقل ميزان فلان إذا كان له قدر ومنزلة رفيعة، كأنه إذا وضع في ميزان كان له به رجحان، وإنما يكون المقدار والقيمة لأهل الأعمال الصالحة، والفضائل الراجحة، فهؤلاء يجزون النعيم الدائم ويكونون في عيشة راضية، تقر بها أعينهم، وتسر بها نفوسهم.

---

(١) سورة الشورى الآية (٧).

(٢) تفسير المراغي(١٤/٩).

(٣) سورة الحاقة الآية (١٨).

(٤) سورة غافر الآية (١٦).

(٥) أخرجه الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع (٦١٧/٤)، الحديث رقم(٢٤٢٥) وقال: ولايصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي موسى، وأخرجه ابن ماجة، كتاب الزهد، باب ذكر البعث (١٤٣٠/٢) الحديث رقم(٤٢٧٧)، وأحمد في مسنده(٤٨٦/٣٢) الحديث رقم(١٩٧١٥)، وقال ابن حجر في الفتح(٣٨٥/١٨): وأخرجه البيهقي في البعث بسند عن عبد الله بن مسعود موقوفا، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير برقم(٦٤٣٢).

(٦) تفسير المراغي(٥٥/٢٩).

(٧) سورة القارعة الآية (٦-٧).

ويرى بعض المفسرين أن الذي يوزن هو الصحف التي تكتب فيها الحسنات والسيئات. ولما ذكر نعيم أهل الخير أردفه عقاب أهل الشر فقال: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾[1] يقال خف ميزانه: أي سقطت قيمته فكأنه ليس بشيء حتى لو وضع في كفة ميزان لم يرجح بها على أختها، ومن كان في الدنيا كثير الشر، قليل فعل الخير، فدسى نفسه بالشرك واجتراح المعاصي وعاث في الأرض فسادا، لم يكن شيئا، فلا ترجح له كفة ميزان لو وضع فيها.

وعلى الجملة فعلينا أن نؤمن بما ذكره الله من الميزان في هذه الآية، وفي قوله: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَازِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[2] ومن وزن الأعمال، وتمييز مقدار لكل عمل، وليس علينا أن نبحث وراء ذلك، فلا نسأل كيف يزن، ولا كيف يقدر؟ فهو أعلم بغيبه، ونحن لا نعلم.

أما أن الميزان له لسان وكفتان فهذان لم يرد به نص عن المعصوم يلزمنا التصديق به، وكيف يوزن بهذا الميزان الذي تعلمه الإنسان في مهد البداوة الأولى، ويترك ما هو أدق منه مما اخترع فيما بعد وهدى إليه الناس، على أن جميع ما عمله البشر، فهو ميزان للأثقال الجسمانية لا ميزان للمعاني المعقولة كالحسنات والسيئات، فلنفوض أمر ذلك إلى عالم الغيب"[3].

"وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾[4] أي وإذا صحف الأعمال ظهرت للعاملين في موقف الحساب حتى لا يرتابوا فيها، ولا ينبغي أن نبحث عن تلك الصحف، لنعلم أهي على مثال الأوراق التي نكتب فيها في الدنيا، أم تشبه الألواح أو نحو ذلك مما جرى استعماله في الكتابة، فإن ذلك مما لا يصل إليه علمنا، ولم يجئ نص قاطع عن المعصوم ﷺ يفسر ذلك"[5].

ونزيد الأمر وضوحا بقول البخاري في صحيحه: "باب قول الله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَازِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[6] وأن أعمال بني آدم وقولهم يوزن، وقال مجاهد: القسطاس العدل بالرومية، ويقال: القسط مصدر المقسط وهو العادل، وأما القاسط فهو الجائر.

---

(١) سورة القارعة الآية (٨-٩).

(٢) سورة الأنبياء الآية (٤٧).

(٣) تفسير المراغي(٣٨١/١٠).

(٤) سورة التكوير الآية (١٠).

(٥) تفسير المراغي(١٠/ ٣٤١).

(٦) سورة الأنبياء الآية (٤٧).

ثم ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ: «**كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم**»(١).

وقال ابن جرير رحمه الله: "وإنما وصف جل ثناؤه نفسه بسرعة الحساب، لأنه جل ذكره يحصي ما يحصي من أعمال عباده بغير عقد أصابع، ولا فكر ولا روية، فعل العجزة الضعفة من الخلق، ولكنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فيهما، ثم هو مجاز عباده على كل ذلك، فلذلك امتدح نفسه جل ذكره بسرعة الحساب"(٢).

قال البخاري رحمه الله في صحيحه(١٦٧/٦): باب {فسوف يحاسب حسابا يسيرا}، ثم ساق حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ليس أحد يحاسب إلا هلك» قالت: قلت: يا رسول الله جعلني الله فداءك، أليس يقول الله عز وجل: {فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا} قال: «ذاك العرض يعرضون ومن نوقش الحساب هلك».

وقال الإمام مسلم رحمه الله(٢٢٠٤/٤): "عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «من حوسب يوم القيامة، عذب» فقلت: أليس قد قال الله عز وجل: {فسوف يحاسب حسابا يسيرا} فقال: ليس ذاك الحساب، إنما ذاك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب".

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح (٨٦/٨) الحديث رقم(٦٤٠٦).

(٢) تفسير ابن جرير(٢٠٧/٤).

المطلب الثاني: الجنة

تطرق المراغي رحمه الله لذكر الجنة وما يتعلق بها في مواضع كثيرة في تفسيره؛ فقال: "بعد أن ذكر -أي الله- الكافرين وما أعد لهم من العقاب، قفَّى على ذلك ببشارة الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وما أعد لهم من نعيم مقيم في الدار الآخرة، وقد جرت سنة القرآن أن يقرن الترهيب بالترغيب تنشيطا لاكتساب ما يوجب الزلفى عند الله، وتثبيطا عن اقتراف ما يوجب البعد من رضوانه تعالى، والمأمور بهذا التبشير كل من يسمع الأمر من أهله، وقد وعد الله الذين آمنوا بهذه الجنات، وما فيها من لذات، وإنا لنفوض علم ذلك إلى الله تعالى، ونكتفي بما ورد من أن لذات الآخرة أعلى من لذات الدنيا، فقد روي عن ابن عباس أنه قال: «ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسامي»[١].

وجاء في الصحيحين مرفوعا عن الله عز وجل: «**أعددت لعبادي ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[٢]، وهو في المعنى مفسر لقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[٤] البشارة: الإخبار بما يسر، وآمنوا: أي بالله وصفاته التي جاء بها النقل وأيدها العقل، وبالنبي وبما جاء به، وبالبعث والجزاء، ولا يتحقق الإيمان إلا باطمئنان القلب وقيام البرهان الذي لا يقبل الشك والارتياب، وأفضل البراهين ما أرشد إليه القرآن من النظر في آيات الله في الآفاق والأنفس، فقد يبلغ الإنسان علم اليقين بنظرة صادقة في هذا الكون الذي بين يديه، أو في نفسه إذا تجلت له بغرائب خلقها وبدائع صنعها...

﴿ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾[٥] قال الفراء[٦]: الجنة البستان فيه النخيل، والفردوس البستان فيه الكرم[١]، والمراد بها هنا دار الخلود في الحياة الآخرة أعدها الله للمتقين كما أعد

---

(١) سبق تخريجه ص(٤٣٢).

(٢) سبق تخريجه ص(٤٣٢).

(٣) سورة السجدة الآية (١٧).

(٤) سورة البقرة الآية (٢٥).

(٥) سورة البقرة الآية (٢٥).

(٦) الفراء: يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور أبو زكريا الفراء مولى بني أسد من أهل الكوفة، نزل بغداد، وأملى بها كتبه في معاني القرآن، وعلومه، وكان ثقة إماما، ويحكى عن أبي العباس ثعلب، أنه قال: لولا الفراء لما كانت عربية؛

النار للكافرين، ونحن نؤمن بهما ولا نبحث عن حقيقتهما[٢]، والأنهار واحدها نهر (بفتح الهاء وسكونها) وهو المجرى الواسع، فوق الجدول ودون البحر كنيل مصر، وجري الأنهار من تحتها هو كما نشاهد في الأشجار التي على شواطئ الأنهار الجارية.

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾[٣] أي كلّما رزقوا من الجنة رزقا من بعض ثمارها؛ قالوا: هذا الذي وعدنا به في الدنيا جزاء على الإيمان وصالح العمل، فهو من وادي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾[٤].

﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ أي إن رزق الجنة وثمرها يتشابه على أهلها في صورته ويختلف في طعمه ولذته.

﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي ولهم في الجنات أزواج تطهرن غاية التطهر، فليس فيهن ما يعبن عليه من خبث جسدي مما عليه النساء في الدنيا كالحيض والنفاس، أو نفسي كالكيد والمكر وسائر مساوىء الأخلاق، وصحبة الأزواج في الآخرة من الأمور الغيبية التي نؤمن بها كما أخبر الله، ولا نبحث فيما وراء ذلك، فأطوار الآخرة أعلى مما في حياتنا الدنيا، فهي سالمة من المنغصات في الطعام والشراب والمباشرة الزوجية، روى مسلم أن النبي ﷺ قال: «**إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون ولا يبولون، ولا يتغوطون ولا يتمخطون، قالوا: فما بال الطعام، قال جشاء ورشح كرشح المسك، ويلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس**»[٥].

لأنه خلصها وضبطها، توفي سنة ٢٠٧هـ، تاريخ بغداد(٢٢٤/١٦).

(١) الكرم بفتح الكاف وإسكان الراء هو العنب انظر: القاموس المحيط، مادة كرم(١١٥٣/١).

(٢) أي الحقيقة التي لم ترد في الشرع لأن ذلك من الغيب.

(٣) سورة البقرة الآية (٢٥).

(٤) سورة الزمر الآية (٧٤).

(٥) صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب في صفات الجنة وأهلها وتسبيحهم فيها بكرة وعشيا (٢١٨٠/٤) الحديث رقم(٢٨٣٥).

﴿ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ الخلود لغة: المكث الطويل، قال في الأساس[١]: "ومن كلامهم خلد فلان في السجن، أي أقام طويلا"، ويراد به في لسان الشرع الدوام الأبدي أي وهم لا يخرجون منها ولا هي تفنى وتزول، بل هي حياة أبدية لا تنتهي"[٢].

وقال رحمه الله بعد قوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾[٣]: "أي للذين أخبتوا إلى ربهم وأنابوا إليه نوعان من الجزاء: أحدهما: جسماني، وهو الجنات وما فيها من النعيم والخيرات، والأزواج المبرأة من العيوب التي في نساء الدنيا خَلْقًا وخُلُقًا.

وثانيهما: روحاني عقلي، وهو رضوان الله الذي لا يشوبه سخط ولا يعقبه غضب، وهو أعظم اللذات كلها في الآخرة عند المتقين.

وفي الآية إيماء إلى أن أهل الجنة مراتب وطبقات كما نرى ذلك في الدنيا، فمنهم من لا يفقه لرضوان الله معنى ولا يكون ذلك باعثا له على فعل الخير وترك الشر، وإنما يفقه اللذات الحسية التي جرَّبها في الدنيا، ففي مثلها يرغب، ومنهم من ارتقى إدراكه، وعظم قربه من ربه، فيتمنى رضاه ويجعله الغاية القصوى والسعادة التي ليس وراءها سعادة"[٤].

وقال عند قوله تعالى عن الجنة: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[٥]: "أي هيئت لهم، وفي الآية دليل على أن الجنة مخلوقة الآن، وأنها خارجة عن هذا العالم، إذ إنها تدل على أن الجنة أعظم منه، فلا يمكن أن يكون محيطا بها"[٦].

وذكر رحمه الله عند قول الله جل وعلا: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[٧]: "أي والذين صدقوا الله ورسوله وأقروا بما جاءهم به

---

(١) انظر: أساس البلاغة لجار الله الزمخشري، محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م (٢٦١/١).

(٢) تفسير المراغي(٦٣/١).

(٣) سورة آل عمران الآية (١٥).

(٤) تفسير المراغي(٤٦٨/١).

(٥) سورة آل عمران الآية (١٣٣).

(٦) تفسير المراغي(٥٧/٢).

(٧) سورة الأعراف الآية (٤٢).

من وحيه وتنزيله وشرائع دينه، وعملوا ما أمرهم به واجتنبوا ما نهاهم عنه هم أهل الجنة دون سواهم، وهم يخلدون فيها أبدا لا يخرجون منها ولا يسلبون نعيمها.

ومعنى قوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[(١)] أننا لا نفرض على المكلف إلا ما يكون في وسعه، وما لا يشق عليه أداؤه، ولا يضيق به ذرعا، وقد جاءت هذه الجملة أثناء الكلام للتنبيه إلى أن العمل الصالح الذي يوصل إلى الجنة سهل غير صعب، وميسور لا عسر فيه ولا مشقة.

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾[(٢)] أي وأذهبنا ما كان في قلوب هؤلاء الذين ذكرت صفتهم من حقد وضغن مما يكون عادة في الدنيا، فهم لا يدخلون الجنة وفي قلوبهم أدنى عداوة أو بغضاء مما يكون من أسباب تنغيص النعيم فيها، حال كون الأنهار تجري من تحتهم، فيرونها وهم في غرفات قصورهم تتدفق في جنانها وبساتينها، فيزدادون حبورا وسرورا لا تشوب صفاءهم شائبة كدر.

روى ابن أبي حاتم عن الحسن البصري قال: بلغني أن النبي ﷺ قال: «**يحبس أهل الجنة بعد ما يجوزون الصراط حتى يؤخذ لبعض من بعض ظلاماتهم في الدنيا، فيدخلون الجنة وليس في قلوب بعضهم على بعض غل**»[(٣)].

وروي عن قتادة أن عليا كرم الله وجهه[(٤)] قال: «إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا﴾[(٥)]»[(٦)].

---

(١)سورة الأعراف الآية (٤٢).

(٢)سورة الأعراف الآية (٤٣).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره(٦/٣٦)، وقال ابن حجر في الفتح(١٨/٣٨٢): قُلْت: وَلِأَصْلِ الْحَدِيث شَاهِدٌ مِنْ مُرْسَل الْحَسَن أخرجه اِبْن أَبِي حَاتِم بِسَنَدٍ صَحِيح.

(٤) قال ابن كثير رحمه الله: "وقد غلب هذا في عبارة كثير من النساخ للكتب، أن يفرد علي، رضي الله عنه، بأن يقال: "عليه السلام"، من دون سائر الصحابة، أو: "كرم الله وجهه" وهذا وإن كان معناه صحيحا، لكن ينبغي أن يساوى بين الصحابة في ذلك؛ فإن هذا من باب التعظيم والتكريم، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان بن عفان أولى بذلك منه، رضي الله عنهم أجمعين" تفسير ابن كثير(٦/٤٧٨-٤٧٩).

(٥) سورة الحجر الآية (٤٧).

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره(٦/٣٥)، والحاكم في المستدرك(٣/٤٢٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي في التلخيص: صحيح.

وقولــه تعــالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾[١] أي وقــالوا شاكرين لله بألسنتهم، معبرين عن غبطتهم وبهجتهم: الحمد لله الذي هدانا في الدنيا للإيمان الصحيح والعمل الصالح الذي كان جزاؤه هذا النعيم، وما كان من شأننا ولا مقتضى فكرنا أن نهتدي إليه بأنفسنا لولا أن هدانا الله إليه بتوفيقه إيانا لاتباع رسله، ومعونته لنا عليها، ورحمته الخاصة بنا إلى هدايته التي فطرنا عليها، وهداية ما خلق لنا من المشاعر والعقل.

﴿ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾[٢] أي إنهم قالوا حين رأوا ما وعدهم به الرسل عيانا: لقد جاءت رسل ربنا بالحق، وهذا مصداق ما وعدنا به في الدنيا على التوحيد وصالح العمل.

﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[٣] أي ونادتهم الملائكة قائلين لهم: تلكم هي الجنة التي وعدتم بوراثتها جزاء صالح أعمالكم.

أخرج ابن جرير عن السدي قال: «ليس من مؤمن ولا كافر إلا وله في الجنة والنار منزل مبين، فإذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ودخلوا منازلهم رفعت الجنة لأهل النار فنظروا إلى منازلهم فيها فقيل هذه منازلكم لو عملتم بطاعة الله، ثم يقال: يا أهل الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون، فيقتسم أهل الجنة منازلهم»[٤].

وأخرج سعيد بن منصور والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا وله منزلان؛ منزل في الجنة ومنزل في النار، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله** ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾[٥]»[٦].

وفي الآية دلالة واضحة على أن الجنة تنال بالعمل، وفي معناها آيات وأحاديث كثيرة.

(١)سورة الأعراف الآية (٤٣).

(٢)سورة الأعراف الآية (٤٣).

(٣)سورة الأعراف الآية (٤٣).

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره(٤٤٣/١٢).

(٥) سورة المؤمنون الآية (١٠).

(٦) أخرجه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب صفة الجنة (١٤٥٣/٢) الحديث رقم(٤٣٤١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٤١/١) الحديث رقم(٣٧٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة(٣٤٨/٥)، وذكر أن له شاهدًا في البخاري بلفظ: "لا أحد يدخل الجنة إلا أري مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرا، ولا يدخل النار أحد إلا أري مقعده من الجنة لو أحسن ليكون عليه حسرة" أخرجه البخاري في صحيحه(٤١٤/١٦).

أما حديث أبي هريرة الذي رواه الشيخان «**لن يدخل أحدًا عمله الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضله ورحمته**»[(١)]، فيراد منه أن عمل الإنسان مهما كان عظيما فلا يستحق به الجنة لذاته لولا رحمة الله وفضله، حين جعل هذا الجزاء العظيم على ذلك العمل القليل، فدخول الجنة بالعمل دخول بفضل الله ورحمته، ومن ثم قال بعده: «**فسددوا وقاربوا**» أي لا تبالغوا ولا تغلوا في دينكم، ولا تتكلفوا من العمل ما لا طاقة لكم به"[(٢)].

المراغي رحمه الله في مسألة هل تنال الجنة بالعمل أم بفضل الله ورحمته قرر مذهب السلف؛ وهو أن العمل سبب في دخول الجنة وليس لذات العمل كان دخول الجنة، قال شيخ الإسلام: "ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لن يدخل الجنة أحد بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل» وهذا لا ينافي قوله: {كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية} ، فإن الرسول ﷺ نفى باء المقابلة والمعادلة، والقرآن أثبت باء السبب"[(٣)].

وقال ابن عثيمين رحمه الله: "فإن قال قائل: هناك نصوص من الكتاب والسنة تدل على أن العمل الصالح ينجي من النار ويدخل الجنة، مثل قوله تعالى: {من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون}، فكيف يجمع بين هذا وبين الحديث السابق؟

والجواب عن ذلك: أن يقال: يجمع بينهما بأن المنفي دخول الإنسان الجنة بالعمل في المقابلة، أما المثبت: فهو أن العمل سبب وليس عوضا، فالعمل -لا شك- أنه سبب لدخول الجنة والنجاة من النار، لكنه ليس هو العوض، وليس وحده الذي يدخل به الإنسان الجنة، ولكن فضل الله ورحمته هما السبب في دخول الجنة والنجاة من النار"[(٤)].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت (١٢١/٧) الحديث رقم(٥٦٧٣)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى (٢١٧٠/٤) الحديث رقم(٢٨١٦).

(٢) تفسير المراغي(٣٠٣/٣).

(٣) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص(١٠٢).

(٤) شرح رياض الصالحين(١٠٠/١).

وقال رحمه الله بعد قول الحق سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾[(١)]: "الجنات: البساتين الملتفة الأشجار التي تجن ما تحتها: أي تغطيه وتستره، وجريان الأنهار من تحت أشجارها مما يزيد جمالها، والمساكن الطيبة في جنات عدن هي الدور والخيام التي يطيب لساكنيها المقام فيها لاحتوائها على ما يطلبون من الأثاث والرياش والزينة التي بها تتم راحة المقيم فيها وسروره، والعدن: الإقامة والاستقرار، يقال عدن في مكان كذا إذا أقام فيه وثبت، فجنات عدن هي جنات الإقامة والخلود كقوله: «جنة الخلد – جنة المأوى» وقيل: إنه منزل من منازل دار النعيم كالفردوس الذي هو أوسط الجنة أو أعلاها.

روي عن أبي هريرة «**إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن**»[(٢)].

﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[(٣)] رضوان الله هو مقام رؤيته تعالى التي تكمل بها معرفته والإنسان جسد وروح، ففي الجنات ومساكنها أعلى النعيم الجسماني، ورضوان الله هو أعلى النعيم الروحاني.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[(٤)] أي ذلك الوعد بالنعيم الجسماني والروحاني هو الفوز العظيم الذي يجزى به المؤمنون المخلصون، لا غيره من حظوظ الدنيا الفانية التي يتكالب عليها الكفار والمنافقون.

وقد ورد في وصف الجنة ودرجاتها أحاديث بعضها موضوع، وبعضها منكر، ومن ذلك ما روي عن أبي هريرة وعمران بن حصين أنهما قالا لمن سألهما: على الخبير سقطت، وأنهما سألا عنها رسول الله ﷺ وذكرا وصفًا طويلا، منه أنه يوجد هناك ألوف من البيوت في كل منها

---

(١) سورة التوبة الآية (٧٢).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب {وكان عرشه على الماء} ، {وهو رب العرش العظيم} (١٢٥/٩) الحديث رقم(٧٤٢٣).

(٣)سورة التوبة الآية (٧٢).

(٤)سورة التوبة الآية (٧٢).

ألوف من الحور العين، وهو حديث منكر من دسائس الوضاعين ككعب الأحبار وغيره[١]، قال ابن القيم: لم يثبت في نساء الجنة حديث صحيح بأكثر من زوجين لكل رجل[٢]"[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾[٤] أي ولتفاوتهم في الدار الآخرة وتفاضلهم فيها أكبر من تفاضلهم في الدار الدنيا، فإن منهم من يكون في الدركات السفلى في جهنم مصفدا بالسلاسل والأغلال، ومنهم من يكون في الدرجات العليا في نعيم وحبور، وكل فريق يتفاوتون فيما بينهم، ففي الصحيحين «**إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الغابر في السماء**»[٥].

وفيهما: «**إن الله تعالى أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[٦]"[٧].

وذكر رحمه الله حديث عمر رضي الله عنه في الوضوء فقال: "روي عن عمر بن الخطاب أنه قال: «**ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء**»[٨] أخرجه مسلم وغيره.

وروي عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة**»[٩].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد الحديث رقم(٥٥٠)، وأبو نعيم الأصبهاني في صفة الجنة(٤٧٨).

(٢) انظر: حادي الأرواح ص(١٦٠) فقد أشار إلى الخلاف في ذلك.

(٣) تفسير المراغي(١٣٢/٤).

(٤) سورة الإسراء الآية (٢١).

(٥) أخرجه بهذا اللفظ الحميدي في مسنده(٢٠/٢) الحديث رقم(٧٧٢)، وأخرجه البخاري (١١٩/٤) الحديث رقم(٣٢٥٦)، ومسلم (٢١٧٧/٤) الحديث رقم(٢٨٣١) بلفظ «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق، من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم» قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: «بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين».

(٦) سبق تخريجه ص(٤٣٢).

(٧) تفسير المراغي(٣٠٠/٥).

(٨) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب الذكر المستحب عقب الوضوء (٢٠٩/١) الحديث رقم(٢٣٤).

(٩) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته (١٣٢/٤) الحديث

وأخرج الشيخان وغيرهما عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «**في الجنة ثمانية أبواب، منها باب يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون**»[(١)].

ثم أخبر سبحانه أن خزنة الجنة يسلمون على المؤمنين فقال: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾[(٢)] أي وقال لهم الخزنة: سلام عليكم من جميع المكاره والآلام، فلا يعتريكم مكروه بعد ذلك.

﴿ طِبْتُمْ ﴾ نفسا بما أتيح لكم من النعيم المقيم، وقد يكون المعنى: طبتم في الدنيا فلم تدنسوا أنفسكم بالشرك والمعاصي، وطاب سعيكم، وطاب جزاؤكم.

﴿ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ أي فادخلوها ماكثين فيها أبدا، لا زوال ولا فناء، ولا تحول عنها"[(٣)]

وقال رحمه الله بعد قوله جل وعلا: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[(٤)]: "أي وفي الجنة ما تشتهيه أنفس أهلها من صنوف الأطعمة والأشربة، والأشياء المعقولة والمسموعة، ونحوها مما تطلبه النفوس وتهواه كائنا ما كان، جزاء لهم على ما منعوا أنفسهم من الشهوات، وفيها ما تقر أعينهم بمشاهدته، وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم، وأنتم لا تخرجون منها ولا تبغون عنها حولا.

أخرج ابن أبي شيبة والترمذي عن عبد الرحمن بن سابط قال: «**قال رجل يا رسول الله هل في الجنة خيل فإني أحب الخيل؟ قال: إن يدخلك الله الجنة فلا تشاء أن تركب فرسا من ياقوتة حمراء فتطير بك في أي الجنة شئت إلا فعلت، وسأله آخر فقال: يا رسول الله هل في الجنة من إبل فإني أحب الإبل؟ فقال إن يدخلك الله الجنة يكن لك ما اشتهت نفسك ولذت عينك**»[(٥)]"[(١)].

رقم(٣٣٢٧)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر وصفاتهم وأزواجهم (٢١٧٩/٤) الحديث رقم(٢٨٣٤).

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة أبواب الجنة (١١٩/٤) الحديث رقم(٣٢٥٧) ومسلم، كتاب الصيام، باب فضل الصيام (٨٠٨/٢) الحديث رقم(١١٥٢).

(٢) سورة الزمر الآية (٧٣).

(٣) تفسير المراغي(٢٨٨/٨).

(٤) سورة الزخرف الآية (٧١).

(٥) أخرجه أحمد في المسند(٨٥/٣٨) الحديث رقم(٢٢٩٨٢) بتمامه، وأخرجه الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب صفة

وقال بعد قوله تعالى: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾(٢): "أي لا يخشون في الجنة موتا ولا فناء أبدا.

وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**يؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار ثم يذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت**»(٣)...

وروى أبو هريرة وأبو سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «**يقال لأهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا**»(٤) رواه مسلم"(٥).

وقال رحمه الله عند تفسير قول الحق ﷻ: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾(٦): "أي صفة الجنة التي وعدها الله من اتقى عقابه، فأدى فرائضه واجتنب نواهيه ما ستسمعونه بعد.

ثم فسر هذه الصفة بقوله:

(١) ﴿ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ ﴾(١) أي فيها أنهار جارية من مياه غير متغيرة الطعم والريح، لطول مكثها وركودها.

خيل الجنة (٦٨٢/٤) الحديث رقم(٢٥٤٣)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٣/٧) الحديث رقم(٣٣٩٩١) مختصرا، وتكلم على إسناده ابن القيم في كتابه القيم حادي الأرواح ص(١٧٨)، وقال المنذري في الترغيب(٣٠٥/٤): "رواه الترمذي من طريق المسعودي عن علقمة عن عبد الرحمن بن سابط عن النبي ﷺ قال نحوه بمعناه وهذا أصح من حديث المسعودي يعني المرسل، وانظر: الإصابة لابن حجر(٢٢٨/٥) ترجمة عبد الرحمن بن سابط"، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير برقم(١٣٠٢).

(١) تفسير المراغي(٨٩/٩).

(٢) سورة الدخان الآية (٥٦).

(٣) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {وأنذرهم يوم الحسرة} (٩٣/٦) الحديث رقم(٤٧٣٠)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢١٨٨/٤) الحديث رقم(٢٨٤٩).

(٤) صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الجنة وقوله تعالى: {ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون} (٢١٨٢/٤) الحديث رقم(٢٨٣٧).

(٥) تفسير المراغي(١٠٩/٩).

(٦) سورة محمد الآية (١٥).

(٢) ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ ﴾[٢] أي لم يحمض ولم يصر قارصا ولا حازرا كألبان الدنيا، وتغير الريح لا يفارق تغير الطعم.

(٣) ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾[٣] أي وفيها أنهار من خمر لذيذة لهم، إذ لم تدنسها الأرجل، ولم ترنقها (تكدرها) الأيدي كخمر الدنيا، وليس فيها كراهة طعم وريح، ولا غائلة سكر وخمار كخمور الدنيا، فلا يتكرهها الشاربون.

(٤) ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾[٤] أي وفيها أنهار من عسل قد صفي من القذى، وما يكون في عسل أهل الدنيا قبل التصفية من الشمع وفضالات النحل وغيرها.

وبدىء بالماء لأنه لا يستغنى عنه في الدنيا، ثم باللبن لأنه يجري مجرى المطعوم لكثير من العرب في غالب أوقاتهم، ثم بالخمر لأنه إذا حصل الري والشبع تشوفت النفس لما يستلذ به، ثم بالعسل لأن فيه الشفاء في الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم.

أخرج أحمد والترمذي وصححه وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي عن معاوية ابن حيدة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**في الجنة بحر اللبن، وبحر الماء، وبحر العسل، وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار منها بعد**»[٥].

(٥) ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾[٦] أي ولهم فيها أنواع من الثمار المختلفة الطعوم والروائح والأشكال.

(٦) ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾[٧] فهو يرضى عنهم بما أسلفوا من عمل، ويتجاوز عن هفواتهم التي اقترفوها في الدنيا"[٨]

---

(١) سورة محمد الآية (١٥).

(٢) سورة محمد الآية (١٥).

(٣) سورة محمد الآية (١٥).

(٤) سورة محمد الآية (١٥).

(٥) أخرجه أحمد في المسند(٢٤٦/٣٣) الحديث رقم(٢٠٠٥٢)، والترمذي في سننه، أبواب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة أنهار الجنة (٦٩٩/٤) الحديث رقم(٢٥٧١)، وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم(٢١٢٢).

(٦)سورة محمد الآية (١٥).

(٧) سورة محمد الآية (١٥).

(٨) تفسير المراغي(١٦٩/٩).

وقال رحمه الله بعد قول الله جل وعلا: "﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾[(١)] جنتان: أي جنة روحية لقلبه، وجنة جسمانية على شاكلة ما عمل في الدنيا، وقيل إنهما منزلان ينتقل بينهما لتتوافر دواعي لذته، وتظهر آثار كرامته... ثم جنتان: جنة روحية تصل به إلى حظيرة القدس، وجمال الملكوت ورضا الله عنه، ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾[(٢)]، وجنة جسمانية بمقدار ما عمل في الدنيا من خير، وقدم من صالح عمل...

وإنما ذكر الاتكاء، لأنه هيئة تدل على صحة الجسم، وفراغ القلب، إذ العليل لا يستطيع أن يستلقي أو يستند إلى شيء، وهو مشغول القلب يتحرك تحرك المحضر للعقاب[(٣)].

وأخيرا فقد قال المراغي رحمه الله عمَّا ذكره الله عن نعيم أهل الجنة: "ذكر سبحانه كل ما سلف تصويرا لترف أهل الجنة تصويرا يقربه من عقولهم، ويستطيعون به إدراكه وفهمه، وإلا فإن نعيم الجنة مما يسمو على الفكر ويعلو فوق متناول الإدراك فالأشياء التي عددها سبحانه تتشابه مع نظائرها التي في هذه الحياة بأسمائها، فأما حقائقها وذواتها فليست مثلها ولا قريبا منها، كما أثر عن ابن عباس أنه قال: «ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء»[(٤)]"[(٥)].

قال ابن جرير: "والجنات: جمع جنة، والجنة: البستان.

وإنما عَنى جلّ ذكره بذكر الجنة: ما في الجنة من أشجارها وثمارها وغروسها، دون أرضها – ولذلك قال عز ذكره: {تجري من تحتها الأنهار} لأنّه معلومٌ أنه إنما أراد جل ثناؤه الخبرَ عن ماء أنهارها أنه جارٍ تحت أشجارها وغروسها وثمارها، لا أنه جارٍ تحت أرضها. لأن الماء إذا كان جاريًا تحت الأرض، فلا حظَّ فيها لعيون منْ فَوقها إلا بكشف الساتر بينها وبينه. على أنّ الذي تُوصف به أنهارُ الجنة، أنها جارية في غير أخاديد"[(٦)].

وقال ابن القيم: "قال تعالى: {وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم

---

(١) سورة الرحمن الآية (٤٦).

(٢) سورة التوبة الآية (٧٢).

(٣) تفسير المراغي(٩/٤١٦).

(٤) سبق تخريجه ص(٤٣٢).

(٥) تفسير المراغي(٣٠/١٣٥).

(٦) تفسير ابن جرير(١/٣٨٤).

فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون} فتأمل جلالة المبشر ومنزلته وصدقه وعظمة من أرسله إليك بهذه البشارة وقدر ما بشرك به وضمنه لك على أسهل شيء عليك وأيسره وجمع سبحانه في هذه البشارة بين نعيم البدن بالجنات وما فيها من الأنهار والثمار ونعيم النفس بالأزواج المطهرة ونعيم القلب وقرة العين بمعرفة دوام هذا العيش أبد الآباد وعدم انقطاعه.

والأزواج جمع زوج والمرأة زوج للرجل وهو زوجها هذا هو الأفصح وهو لغة قريش وبها نزل القرآن كقوله: {اسكن أنت وزوجك الجنة} ومن العرب من يقول زوجة وهو نادر لا يكادون يقولونه وأما المطهرة فإن جرت صفة على الواحد فيجرى صفة على جمع التكسير إجراء له مجرى جماعة كقوله تعالى: {ومساكن طيبة} وقرى ظاهرة ونظائره والمطهرة من طهرت من الحيض والبول والنفاس والغائط والمخاط والبصاق وكل قذر وكل أذى يكون من نساء الدنيا فطهر مع ذلك باطنها من الأخلاق السيئة والصفات المذمومة وطهر لسانها من الفحش والبذاء وطهر طرفها من أن تطمح به إلى غير زوجها وطهرت أثوابها من أن يعرض لها دنس أو وسخ"[١].

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص(١٤٩).

المطلب الثالث: الجنة التي سكنها آدم

ذكر المراغي رحمه الله بعد قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾[(١)] أي وقلنا له: اتخذ الجنة مسكنا لك ولزوجك، واختلفت آراء العلماء في الجنة المرادة هنا، فمن قائل إنها دار الثواب التي أعدها الله للمؤمنين يوم القيامة، لسبق ذكرها في هذه السورة، وفي ظواهر السنة ما يدل عليه، فهي إذا في السماء حيث شاء الله منها.

ومن قائل إنها جنة أخرى خلقها الله تعالى امتحانا لآدم عليه السلام، وكانت بستانا في الأرض بين فارس وكرمان، وقيل بفلسطين وليست هي الجنة المعروفة، وعلى هذا جرى أبو حنيفة وتبعه أبو منصور الماتريدى في تفسيره المسمى بالتأويلات، فقال: "نحن نعتقد أن هذه الجنة بستان من البساتين، أو غيضة من الغياض كان آدم وزوجه منعمين فيها، وليس علينا تعيينها ولا البحث عن مكانها، وهذا هو مذهب السلف ولا دليل لمن خاض في تعيين مكانها من أهل السنة وغيرهم"[(٢)].

قال الآلوسى في تفسيره روح المعاني: ومما يؤيد هذا الرأى:

(١) أن الله خلق آدم في الأرض ليكون خليفة فيها هو وذريته، فالخلافة منهم مقصودة بالذات، فلا يصح أن يكون وجودهم فيها عقوبة عارضة.

(٢) أنه تعالى لم يذكر أنه بعد خلق آدم في الأرض عرج به إلى السماء، ولو حصل لذكر لأنه أمر عظيم.

(٣) أن الجنة الموعود بها لا يدخلها إلا المتقون المؤمنون، فكيف دخلها الشيطان الكافر للوسوسة.

(٤) أنها دار للنعيم والراحة، لا دار للتكليف، وقد كلف آدم وزوجه ألا يأكلا من الشجرة.

(٥) أنه لا يمنع من فيها من التمتع بما يريد منها.

(٦) أنه لا يقع فيها العصيان والمخالفة لأنها دار طهر، لا دار رجس.

---

(١) سورة البقرة الآية (٣٥).

(٢) تأويلات أهل السنة(١/٦٠).

وعلى الجملة فالأوصاف التي وصفت بها الجنة الموعود بها، ومنها أن عطاءها غير مجذوذ ولا مقطوع لا تنطبق على جنة آدم"(١)"(٢).

وقال عند قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾(٣) أي اهبط من الجنة التي خلقك الله فيها وكانت على مرتفع من الأرض، حين كانت قريبة العهد بالظهور في وسط الماء، فخير ما يصلح منها لسكنى الإنسان مرتفعاتها.

وقيل هي جنة الجزاء التي أسكنه الله فيها بعد خلقه في الأرض، ويرشد إلى هذا ما جاء في سورتي البقرة وطه من أمره بالهبوط وأمر آدم وزوجه بذلك بعد قوله: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾(٤)...

وقوله تعالى: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾(٥) الجنة: هي التي خلق فيها آدم، فآدم خلق من الأرض في الأرض.

وقد تكررت هذه القصة في سبعة مواضع من الكتاب العزيز، ولم يرد في موضع منها أن الله رفعه إلى الجنة التي هي دار الجزاء، وإن كان الجمهور على أنها جنة الجزاء على الأعمال، ويرده أنه كلف فيها ألا يأكل من تلك الشجرة، ولا تكليف في دار الجزاء، ولأنه نام فيها، وأخرج منها، ودخل عليه إبليس، ولا نوم في الجنة، ولا خروج بعد الدخول، ولا يمكن دخول الشيطان فيها بعد الطرد والإخراج"(٦).

قال شيخ الإسلام رحمه الله: "والجنة التي أسكنها آدم وزوجته عند سلف الأمة، وأهل السنة والجماعة هي: جنة الخلد، ومن قال: إنها جنة في الأرض بأرض الهند، أو بأرض جدة، أو غير ذلك، فهو من المتفلسفة والملحدين، أو من إخوانهم المتكلمين المبتدعين، فإن هذا يقوله من يقوله من المتفلسفة والمعتزلة، والكتاب والسنة يردان هذا القول، وسلف الأمة وأئمتها متفقون على بطلان هذا القول؛ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني(٢٣٣/١).

(٢) تفسير المراغي(٨١/١).

(٣) سورة الأعراف الآية (١٣).

(٤) سورة البقرة الآية (٣٥).

(٥) سورة الأعراف الآية (١٩).

(٦) تفسير المراغي(٢٧١/٣-٢٧٥).

وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[1] فقد أخبر أنه سبحانه أمرهم بالهبوط وأن بعضهم عدو لبعض ثم قال: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[2]، وهذا يبين أنهم لم يكونوا في الأرض، وإنما أهبطوا إلى الأرض؛ فإنهم لو كانوا في الأرض وانتقلوا إلى أرض أخرى كانتقال قوم موسى من أرض إلى أرض لكان مستقرهم ومتاعهم إلى حين في الأرض قبل الهبوط وبعده؛ وكذلك قال في الأعراف لما قال إبليس: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾[3]"[4].

وممن نص على أنها جنة الخلد من العلماء المعاصرين ابن عثيمين حيث قال رحمه الله: "الصواب أن الجنة التي أسكنها الله تعالى آدم وزوجه هي الجنة التي وعد المتقون؛ لأن الله تعالى يقول لآدم: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾[5]، والجنة عند الإطلاق هي جنة الخلد التي في السماء، ولهذا ثبت في الحديث عن النبي ﷺ أن آدم وموسى تحاجا فقال له موسى: «**لم أخرجتنا ونفسك من الجنة؟**»[6] والله أعلم"[7].

ونزيد الأمر وضوحا بذكر بعض الأدلة الدالة على ذلك، فعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**احتج آدم وموسى فقال موسى أنت آدم الذي أخرجت ذريتك من الجنة قال آدم أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وكلامه ثم تلومني على أمر قد قدر علي قبل أن أخلق فحج آدم موسى**»[8].

---

(١) سورة البقرة الآية (٣٤-٣٦).

(٢) سورة البقرة الآية (٣٤-٣٦).

(٣) سورة الأعراف الآية (١٢-١٣).

(٤) الفتاوى (٤/٦٣).

(٥) سورة البقرة الآية (٣٥).

(٦) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب في القدر (٤/٢٢٦) الحديث رقم(٤٧٠٢)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة الحديث رقم(١٧٠٢)، وأصله في البخاري(١٨/٥٥٧).

(٧) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين(٢/٥١).

(٨) سبق تخريجه ص(٤٠٣).

عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «**يجمع الله تبارك وتعالى الناس فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة، فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم، لست بصاحب ذلك**»[١].

وابن القيم رحمه الله ذكر أقوال الناس في ذلك في كتابه حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح فقال: "الباب الثاني في اختلاف الناس في الجنة التي أسكنها آدم عليه الصلاة، ثم قال: الباب الثالث: في سياق حجج من اختار أنها جنة الخلد التي يدخلها الناس، ثم قال: الباب الرابع: في سياق حجج الطائفة التي قالت ليست جنة الخلد، ثم ذكر رد كل طائفة على الأخرى"[٢].

وهذا يدل على وجود الخلاف في هذه المسألة قديما، والله ﷻ أعلم أن الراجح قول من قال أنها جنة الخلد لظهور الأدلة على ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٨٦/١) الحديث رقم(٣٢٩).

(٢) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لأبي بكر ابن قيم الجوزية، طبعة المدني-القاهرة، ص(٢٢-٢٦).

المطلب الرابع: العذاب

ذكر المراغي رحمه الله في تفسيره النار وما يتعلق بأهلها أجارنا الله منها فقال بعد قول الحق سبحانه: ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾(١): "أي وأنذر قومك يوم نقول لجهنم: هل امتلأت بما ألقي إليك فوجا بعد فوج؟ فتقول: لا مزيد بعد ذلك.

وفي هذا بيان لأنها مع اتساعها وتباعد أقطارها، يطرح فيها من الجنة والناس جماعات بعد جماعات حتى تمتلىء ولا تقبل الزيادة.

وهذا السؤال والجواب جيء بهما للتمثيل وتصوير المعنى بإبرازه في لباس المحسوس ليتضح أمره.

روي عن ابن عباس أنه قال: «سبقت كلمته لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين، فلما سيق أعداء الله إليها صارت لا يلقى فيها فوج إلا ذهب فيها، ولا يملؤها شيء فتقول: ألست قد أقسمت لتملأني؟ فيضع قدمه عليها فيقول: هل امتلأت؟ فتقول: قط قط (كفى كفى) قد امتلأت لا مزيد»(٢)"(٣).

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾(٤) فقال: "ذكر -أي الله- من جزاء فريق الكافرين أمورا ثلاثة:

(١) ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾(٥) أي فالكافرون أعدت لهم نيران تحيط بهم كأنها ثياب قدرت على قدر أجسامهم، ولا يخفى ما في هذا الأسلوب من التهكم بهم واحتقار شأنهم.

---

(١) سورة ق الآية (٣٠).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره(٣٦٠/١٢)، ويشهد له ما أخرجه البخاري في صحيحه(١٣٨/٦) الحديث رقم(٤٨٤٨) عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يلقى في النار وتقول: هل من مزيد، حتى يضع قدمه، فتقول قط قط».

(٣) تفسير المراغي(٢٧٤/٩).

(٤) سورة الحج الآية (١٩).

(٥) سورة الحج الآية (١٩).

والتعبير بثياب، للإشارة إلى تراكم طبقات النار المحيط بهم وكون بعضها فوق بعض، وشبيه بالآية قوله: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾(١).

(٢) ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴾(٢) أي يصب من فوق رءوسهم الماء الحار الذي يذيب أمعاءهم وأحشاءهم كما يحرق جلودهم، فله أثر في الباطن والظاهر.

أخرج الترمذي في جماعة عن أبي هريرة أنه تلا هذه الآية فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الحميم ليصب على رءوسهم فينفذ من الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما في جوفه حتى يبلغ قدميه وهو الصهر، ثم يعاد كما كان**»(٣).

(٣) ﴿ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾(٤) أي ولتعذيبهم سياط من حديد، تضرب بها رءوسهم ووجوههم، يقمعون بها ويردون ردًا عنيفا إذا أرادوا الهرب من النار، وإلى هذا أشار بقوله: ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾(٥) أي إنهم كلما حاولوا الهرب من جهنم والخروج منها حين يلحقهم عظيمُ عذابها أعيدوا فيها وضربوا بسياط من حديد، وقيل لهم: ذوقوا عذاب هذه النار التي تحرق الأمعاء والأحشاء"(٦).

وقال بعد قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾(٧): "أي كلما فقدت التماسك الحيوي وبعدت عن الحس والحياة بدَّلها جلودا أخرى، حية تشعر بالألم وتحس بالعذاب.

---

(١) سورة الأعراف الآية (٤١).

(٢) سورة الحج الآية (١٩-٢٠).

(٣) أخرجه الترمذي، أبواب صفة جهنم، باب ما جاء في صفة شراب أهل النار (٧٠٥/٤) الحديث رقم(٢٥٨٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وصححه الألباني في الصحيحة الحديث رقم(٣٤٧٠).

(٤) سورة الحج الآية (٢١).

(٥) سورة الحج الآية (٢٢).

(٦) تفسير المراغي(٢٢٥/٦).

(٧) سورة النساء الآية (٥٦).

قال الدكتور عبد العزيز إسماعيل باشا عليه سحائب الرحمة في كتابه "الإسلام والطب الحديث": "والحكمة في تبديل جلود الكفار، أن أعصاب الألم هي في الطبقة الجلدية، وأما الأنسجة والعضلات والأعضاء الداخلية فالإحساس فيها ضعيف، ولذلك يعلم الطبيب أن الحرق البسيط الذي لا يتجاوز الجلد يحدث ألما شديدا، بخلاف الحرق الشديد الذي يتجاوز الجلد إلى الأنسجة، لأنه مع شدته وخطره لا يحدث ألما كثيرا، فالله يقول لنا: إن النار كلما أكلت الجلد الذي فيه الأعصاب نجدده كي يستمر الألم بلا انقطاع، ويذوقوا العذاب الأليم، وهنا تظهر حكمة الله قبل أن يعرفها الإنسان، وكان الله عزيزا حكيما".

ثم ذكر السبب فيما تقدم فقال: ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ ليدوم لهم ذوق العذاب، لأن الإحساس يصل إلى النفس بواسطة الحياة في الجلد، وفي هذا إزالة لوهم ربما يعرض لبعض الناس قياسا على ما يعهدون في أنفسهم في الدنيا؛ من أن الذي يتعود الألم يقل شعوره به ويصير عاديا عنده، كما يشاهد في كثير من الآلام والأمراض التي يطول أمدها.

وفي التعبير بـ"يذوقوا" إيماء إلى أن إحساسهم بذلك العذاب يكون كإحساس الذائق المذوق لا يدخل فيه نقصان ولا زوال بسبب ذلك الاحتراق"[١].

وقال بعد قوله جل وعلا: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾[٢]: "قوله: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ أي لها سبع طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم في الغواية والضلالة.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها: «جهنم والسعير ولظى والحطمة وسقر والجحيم والهاوية وهى أسفلها»[٣].

وقوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾[٤] أي كتب لكل باب منها فريق معين من أتباع إبليس يدخلونه ولا محيد لهم عنه بحسب أعمالهم واختلاف مراتبهم في النار.

قال ابن جريج: «النار سبع دركات وهى جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية[١] فأعلاها للعصاة الموحدين، والثانية لليهود، والثالثة للنصارى، والرابعة

---

(١) تفسير المراغي(٢/٢٤٠).

(٢) سورة الحجر الآية (٤٤).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره(٧/٢٢٦٥).

(٤) سورة الحجر الآية (٤٤).

للصابئين، والخامسة للمجوس، والسادسة للمشركين، والسابعة للمنافقين، فجهنم أعلى الطبقات ثم ما بعدها تحتها وهكذا»(٢)... وليس في هذا أثر مرفوع يمكن أن يركن إليه ويجعل حجة فيه"(٣).

وقال رحمه الله عند قوله تعالى:﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴾(٤): "أي إنها النار التي لا تنسب إلا إليه سبحانه، إذ هو الذي أنشأها وأعدها لعقاب العصاة والمذنبين، وفي وصفها بالموقدة إيماء إلى أنها لا تخمد أبدا بل هي ملتهبة التهابا لا يدرك حقيقته إلا من أوجدها"(٥).

وقال بعد قوله جل وعلا: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾(٦): "أي على النار تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها، عن البراء «**أن رهطا من اليهود سألوا بعض أصحاب النبي ﷺ عن خزنة جهنم، فقال: الله ورسوله أعلم، فجاء جبريل فأخبر النبي ﷺ فنزل عليه ساعتئذ عليها تسعة عشر**» رواه البيهقي وابن أبي حاتم وابن مردويه(٧)...

وقوله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ﴾(٨) أي وما جعلنا المدبرين لأمر النار القائمين بعذاب من فيها إلا ملائكة، فمن يطيق الملائكة ومن يغلبهم؟

وهؤلاء: هم النقباء والمدبرون لأمرها، وإنما كانوا ملائكة لأنهم أقوى الخلق وأشدهم بأسا، وأقومهم بحق الله والغضب له سبحانه، وليكونوا من غير جنس المعذبين حتى لا يرقوا لهم ويرحموهم.

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره(١٠٧/١٧).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره(٦١/٩).

(٣) تفسير المراغي(١٥٨/٥).

(٤) سورة الهمزة الآية (٦).

(٥) تفسير المراغي(١٠/ ٤٩١).

(٦) سورة المدثر الآية (٣٠).

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره(٣٤٩/١٢) عن البراء، والترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة المدثر (٤٢٩/٥)، الحديث رقم(٣٣٢٧) من طريق جابر بن عبدالله وقال: حديث غريب إنما نعرفه من هذا الوجه من حديث مجالد، وقال ابن كثير في تفسيره(٢٦٨/٨): "هكذا وقع عند ابن أبي حاتم عن البراء، والمشهور عن جابر بن عبد الله" وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي الحديث رقم(٦٥٨).

(٨) سورة المدثر الآية (٣١).

ثم ذكر الحكمة في اختيار هذا العدد القليل فقال: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[(١)]: أي وما جعلنا عددهم هذا العدد إلا محنة وضلالة للكافرين، حتى قالوا ما قالوا ليتضاعف عذابهم، ويكثر غضب الله عليهم، وفتنتهم به أنهم استقلوه واستهزءوا به واستبعدوه وقالوا: كيف يتولى هذا العدد القليل تعذيب الثقلين؟"[(٢)].

وقال المراغي رحمه الله عن ذبح الموت بعد ذهاب الفريقين إلى منازلهم، فريق في الجنة وفريق في النار؛ فقال معلقا على قول الحق سبحانه: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[(٣)] أي وأنذر الناس جميعا يوم يتحسر الظالمون على ما فرطوا في جنب الله حين فرغ من الحساب، وذهب أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار، ونودي كل من الفريقين: لا خروج من هنا بعد اليوم، ولا موت بعد اليوم.

روى الشيخان والترمذي عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بالموت بهيئة كبش أملح (يخالط بياضه سواد) فينادي منادٍ: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رأوه، ثم ينادي مناد: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، فيقول هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت وكلهم قد رأوه، فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ:** ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[(٤)]»[(٥)].

وقوله: ﴿ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ أي إذ فرغ من الحكم لأهل النار بالخلود فيها، ولأهل الجنة بمقام الأبد فيها بذبح الموت، وذبحه تصويرٌ لأنَّ كُلًّا من الفريقين يفهم فهما لا لبس فيه أنه لا موت بعد ذلك"[(٦)].

قلت: قال ابن القيم رحمه الله: "وهذا الكبش والإضجاع والذبح ومعاينة الفريقين، ذلك حقيقة لا خيال ولا تمثيل، كما أخطأ فيه بعض الناس خطأً قبيحًا، وقال: الموت عرض والعرض

---

(١) سورة المدثر الآية (٣١).
(٢) تفسير المراغي(١٠/٢٥٣- ٢٥٥).
(٣) سورة مريم الآية (٣٩).
(٤) سورة مريم الآية (٣٩).
(٥) سبق تخريجه ص(٦١٤).
(٦) تفسير المراغي(٦/٤٤).

لا يتجسم، فضلًا عن أن يذبح وهذا لا يصح، فإن الله ينشىء من الموت صورة كبش يذبح، كما ينشيء من الأعمال صورا معاينة يثاب بها ويعاقب، والله تعالى ينشىء من الأعراض أجساما تكون الأعراض أعراضا مادة لها، وينشىء من الأجسام أعراضا كما ينشىء سبحانه من الأعراض أعراضا ومن الأجسام أجساما، فالأقسام الأربعة ممكنة مقدورة للرب تعالى"[١].

وممن نص على أنه حقيقي لا تصويريٌّ ابن عثيمين رحمه الله حيث قال: "الموت زوال الحياة، وكل نفس ذائقة الموت، وهو أمر معنوي غير محسوس بالرؤية، ولكن الله تعالى يجعله شيئا مرئيا مجسما، ويذبح بين الجنة والنار لحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه"[٢]، وقد ذكر سابقا.

(١) حادي الأرواح(٢٨٣).

(٢) الفتاوى (٤٦/٥).

الفصل الخامس: آراء المراغي الاعتقادية في القضاء والقدر

وفيه تمهيد ومبحثان:

التمهيد: تعريف القضاء والقدر والفرق بينهما.

المبحث الأول: معنى الإيمان بالقضاء والقدر وما يتضمنه.

المبحث الثاني: آراء المراغي الاعتقادية في أفعال العباد.

التمهيد: تعريف القضاء والقدر والفرق بينهما

وفيه مطالب:

المطلب الأول: القضاء.

المطلب الثاني: القدر.

المطلب الثالث: القضاء والقدر في الاصطلاح الشرعي.

المطلب الرابع: الفروق بين القضاء والقدر.

المطلب الأول: القضاء

تعريف القضاء لغة: "القضاء في اللغة مصدر الفعل قضى يقضي قضاءً، فالقاف والضاد والحرف المعتل أصل صحيح يدل على إحكام أمر، وإتقانه، وإنفاذه لجهته.

والقضاء: هو الحكم، والصنع، والحتم، والبيان.

وأصله القطع، والفصل، وقضاء الشيء، وإحكامه، وإمضاؤه، والفراغ منه؛ فيكون بمعنى الخلق[1].

---

(١) انظر: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص(٤٤١)، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس، مادة قضى(٥/٩٩)، والمفردات للراغب الأصفهاني ص(٤٢٣)، ولسان العرب لابن منظور، مادة قضى(١٥/ ١٨٦)، والقاموس المحيط للفيروزآبادي مادة قضى، ص(١٧٠٨).

المطلب الثاني: القدر

القدر في اللغة: "مصدر الفعل قدر يقدر قدرا، فالقاف والدال والراء أصل صحيح يدل على مبلغ الشيء وكنهه، ونهايته، فالقدْرُ مبلغ كل شيء، يقال: قدْرُه كذا أي مبلغه، وكذلك القدَرُ، وقدَرْتُ الشيء أقدِرُه وأقدُرُه من التقدير.

والقدَرُ محركة: القضاء، والحكم، وهو ما يقدره الله عز وجل من القضاء، ويحكم به من الأمور"(١).

فمن خلال ما سبق من تعريف القضاء والقدر في اللغة يتبين مدى العلاقة بينهما، فكل من القضاء والقدر يأتي بمعنى الآخر؛ فمعاني القضاء ترجع إلى إحكام الشيء، وإتقانه، ونحو ذلك من معاني القضاء، ومعاني القدر تدور حول ذلك، وتعود إلى التقدير، والحكم، والخلق، ونحو ذلك.

---

(١) انظر: النهاية لابن الأثير(٢٢/٤)، ومعجم مقاييس اللغة، مادة قدر (٦٢/٥)، ولسان العرب، مادة قدر (٧٢/٥)، والقاموس المحيط ص(٥٩١).

المطلب الثالث: القضاء والقدر في الاصطلاح الشرعي

عرّف المراغي القدر بعد هذا الحديث فقال: "عن عائشة «**لا يغني حذر من قدر**»[(١)] لا يناقض أخذ الحذر، لأن الأمر بالحذر داخل في القدر، فالأمر به لندفع عنا شر الأعداء، لا لندفع القدر ونبطله، إذ القدر هو جريان الأمور بنظام تأتي فيه الأسباب على قدر المسببات، والحذر من جملة الأسباب فهو عمل بمقتضى القدر لا بما يضاده"[(٢)].

وقال: "والتقدير: جعل الشيء أو الأشياء على مقادير مخصوصة في الذات أو الصفات أو الزمان أو المكان؛ كما قال: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾[(٣)]، وقال: ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾[(٤)]"[(٥)].

أما غيره من أهل العلم فقد تعددت تعريفاتهم للقضاء والقدر، لكن من أجمعها:

١- "القدر قدرة الله على العباد"[(٦)].

٢- "مذهب أهل الحق إثبات القدر، ومعناه أن الله تبارك وتعالى قدر الأشياء في القدم وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها سبحانه وتعالى"[(٧)].

٣- "هو تقدير الله تعالى للأشياء في القدم، وعلمه سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة وعلى صفات مخصوصة، وكتابته لذلك، ومشيئته له، ووقوعها على حسب ما قدرها، وخلقه لها"[(٨)].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند(٣٦/٣٧٠) الحديث رقم(٢٢٠٤٤)، والحاكم في المستدرك(١/٦٦٩) الحديث رقم(١٨١٣) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة رقم(٦٧٦٤)، وصححه موقوفا على ابن عباس، انظر: السلسلة الضعيفة(١٤/٥٩٦).

(٢) تفسير المراغي(٢/٢٥٦).

(٣) سورة الفرقان الآية (٢).

(٤) سورة يس الآية (٣٩).

(٥) تفسير المراغي(٣/٢٠٥).

(٦) مسائل الإمام أحمد لابن هانئ(٢/١٥٥).

(٧) شرح صحيح مسلم للنووي(١/١٥٤).

(٨) هذا تعريف الشيخ د. عبدالرحمن المحمود. انظر: كتابه القضاء والقدر ص(٣٩).

المطلب الرابع: الفروق بين القضاء والقدر

اختلف العلماء في ذلك على أقوال:

١- المراد بالقدر: التقدير، وبالقضاء: الخلق، فالقضاء والقدر أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء؛ فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه"[(١)].

٢- "القضاء من الله أخص من القدر؛ لأنه الفصل بين التقدير؛ فالقدر هو التقدير، والقضاء هو الفصل والقطع"[(٢)].

٣- "الفرق بين القدر والقضاء هو أن القضاء وجود جميع الموجودات في اللوح المحفوظ مجتمعة، والقدر وجودها متفرقة في الأعيان بعد حصول شرائطها"[(٣)].

٥- "لا فرق بين القضاء والقدر؛ فكل واحد منهما بمعنى الآخر"[(٤)].

٦- "أنهما إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا"[(٥)].

وبعد ذكر تعاريف أهل العلم للفرق بين القضاء والقدر هل نقول بينهما عموم وخصوص؟ يأتي الجواب الشافي من العالم الرباني بقوله: القضاء إذا أطلق شمل القدر، والقدر إذا أطلق شمل القضاء، ولكن إذا قيل: القضاء والقدر صار بينهما فرق، وهذا كثير في اللغة العربية تكون الكلمة لها معنى شامل عند الانفراد ومعنى خاص عند الاجتماع، ويقال في مثل ذلك: "إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا" فالقضاء والقدر الصحيح أنهما من هذا النوع، يعني أن القضاء إذا أفرد شمل القدر، والقدر إذا أفرد شمل القضاء، لكن إذا اجتمعا فالقضاء: "ما يقضيه الله في خلقه من إيجاد، أو إعدام، أو تغيير"، والقدر: "ما قدره الله تعال في الأزل"، هذا هو الفرق بينهما فيكون القدر سابقا والقضاء لاحقا"[(٦)].

---

(١) انظر: معالم السنن للخطابي(٣٢٣/٤)، ولسان العرب، مادة قدر(١٨٦/٥)، والنهاية لابن الأثير(٧٨/٤)، وانظر: الفروق في اللغة لأبي هلال العسكري ص(٣٢٨).

(٢) المفردات للراغب ص(٤٢٣).

(٣) التعريفات ص(١٧٤، ١٧٧).

(٤) القضاء والقدر د. عبدالرحمن المحمود ص(٤١).

(٥) الدرر السنية في الأجوبة النجدية، جمع عبد الرحمن بن القاسم، ط٦، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، (١/٥١٢-٥١٣).

(٦) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين(٢/٧٩-٨٠).

المبحث الأول: معنى الإيمان بالقضاء والقدر وما يتضمنه.

وتحته مطلبان:

المطلب الأول: معنى الإيمان بالقضاء والقدر.

المطلب الثاني: مراتب القدر.

المطلب الأول: معنى الإيمان بالقضاء والقدر.

ذكر المراغي رحمه الله معنى الإيمان بالقضاء والقدر عند توضيحه لبعض الآيات؛ فمن ذلك:

١- قال بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[(١)]: "أي إنه ما شاء كان، إذ لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء"[(٢)].

٢- قال بعد قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[(٣)]: "أي وبشر الصابرين الذين يقولون هذه المقالة المعبرة عن الإيمان بالقضاء والقدر"[(٤)].

٣- قال بعد قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[(٥)]: "أي وأن فاعل ذلك قادر على كل شيء، ولا يمتنع عليه شيء أراده، فهو قادر على إيجاد جميع الممكنات"[(٦)].

٤- قال بعد قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[(٧)]: "أي وأوجد كل شيء بحسب ما اقتضته إرادته المبنية على الحكم البالغة، وهيأه لما أراد به من الخصائص والأفعال التي تليق به، فأعد الإنسان للإدراك والفهم، والتدبر في أمور المعاش والمعاد، واستنباط الصناعات المختلفة، والانتفاع بما في ظاهر الأرض وباطنها، وأعد صنوف الحيوان للقيام بأعمال مختلفة تليق بها وبإدراكها.

والخلاصة: إن كل شيء مما سواه مخلوق مربوب، وهو خالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه، وكل شيء تحت قهره، وتسخيره وتقديره"[(٨)].

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٠).

(٢) تفسير المراغي(٥٩/١).

(٣) سورة البقرة الآية (١٥٥-١٥٦).

(٤) تفسير المراغي(٢٠٨/١).

(٥) سورة الحج الآية (٦).

(٦) تفسير المراغي(٢١٦/٦).

(٧) سورة الفرقان الآية (٢).

(٨) تفسير المراغي(٣٨٧/٦).

٥- قال بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[(١)]: "أي إن في ذلك الذي حل بهؤلاء من النقمة والعذاب، بعد النعمة والعافية، عقوبة لهم على ما اجترحوه من الآثام لَعبرةً لكل عبد صبار على المصائب، شكور على النعم.

روى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**عجبت من قضاء الله تعالى للمؤمن إن أصابه خير حمد ربه وشكر، وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر، يؤجر المؤمن في كل شيء حتى اللقمة يرفعها إلى في امرأته**»[(٢)].

وكان مطرف بن الشخير[(٣)] يقول: «نعم العبد الصبار الشكور الذي إذا أعطى شكر، وإذا ابتلي صبر»[(٤)]"[(٥)].

٧- قال بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾[(٦)]: "ثم أعقبه ببيان أن كل شيء فهو بقضاء الله وقدره، وإذا أراد الله أمرا فإنما يقول له كن فيكون...

ثم بين أن كل ما يوجد في هذه الحياة فهو لا يحدث اتفاقا، وإنما يحصل بقضاء الله وقدره فقال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[(٧)] أي إن كل كائن في هذه الحياة، فهو بتقدير الله وتكوينه على مقتضى الحكمة البالغة والنظام الشامل، وبحسب السنن التي وضعها في الخليقة.

ونحو الآية قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[(٨)]، وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[(١)].

---

(١) سورة لقمان الآية (٣١).

(٢) أخرجه أحمد (٨٢/٣) الحديث رقم(١٤٨٧)، وعبد بن حميد في مسنده(٧٧/١) الحديث رقم(١٣٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد(٢٠٩/٧): رواه أحمد بأسانيد، ورجالها كلها رجال الصحيح. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند: إسناده حسن، وصححه الألباني في صحيح الجامع الحديث رقم(٣٩٨٦).

(٣) هو: مطرف بن عبد الله بن الشخير بكسر الشين المعجمة وتشديد الخاء المعجمة المكسورة بعدها تحتانية ساكنة ثم راء، العامري الحرشي بمهملتين مفتوحتين ثم معجمة أبو عبد الله البصري، وكان ثقة له فضل وورع ورواية وعقل وأدب. مات سنة خمس وتسعين. انظر: الطبقات الكبرى(١٤١/٧)، وسير أعلام النبلاء(١٨٧/٤).

(٤) أخرجه أحمد في الزهد ص(٢٤٠).

(٥) تفسير المراغي(٦١/٨).

(٦) سورة القمر الآية (٤٩-٥٠).

(٧) سورة القمر الآية (٤٩).

(٨) سورة الفرقان الآية (٢).

وفي الحديث الصحيح: «**استعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك أمر فقل: قدر الله وما شاء فعل، ولا تقل لو أني فعلت لكان كذا، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان**»[٢].

وفي حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال له: «... **واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك، جفت الأقلام، وطويت الصحف**»[٣].

وبعد أن بين نفاذ قدره في خلقه بين نفاذ مشيئته فيهم؛ فقال: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾[٤] أي إنا إذا أردنا أمرا قلنا له كن فإذا هو كائن، ولا يحتاج إلى تأكيد الأمر بثانية ولا ثالثة، ولله در القائل:

إذا أراد الله أمرا فإنما يقول له (كن) قولة فيكون[٥].

وهذا تمثيل لسرعة نفاذ المشيئة في إيجاد الخلق، فهي كلمح البصر أو هي أقرب.

وجماع القول: ما أمرنا للشيء إذا أردنا إيجاده إلا قولة واحدة (كن) فيكون لا مراجعة فيها ولا رد، فهي في السرعة كلمح البصر لا إبطاء ولا تأخير.

ثم ذكر في خلاصة الموضوع:

(ا) بيان أن كل ما في الوجود فهو بقضاء الله وقدره.

(ب) نفاذ مشيئة الله وسلطانه في الكون"[٦].

٧- قال بعد قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[٧]: "فيفعل ما يشاء كما يشاء، تارة على ما يعهد من السنن، وأخرى على غير ما يعهد منها، كما جرى لبني النضير من استسلامهم بلا قتال

(١) سورة الأعلى الآية (١-٣).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله (٤/٢٠٥٢) الحديث رقم(٢٦٦٤).

(٣) سبق تخريجه ص(٣١٤).

(٤) سورة القمر الآية (٥٠).

(٥) من قول محمد بن عبد الأعلى بن كناسة الأسدي انظر: نور القبس لأبي المحاسن اليغموري(١١١).

(٦) تفسير المراغي(٩/٣٧١- ٣٧٤).

(٧) سورة الحشر الآية (٦).

على مناعة حصونهم وكثرة عددهم وعددهم من سلاح وكراع، وما كان المسلمون يظنون أن هذا سيكون"(١).

٨- قال بعد قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢): "فما أراد كان بلا ممانع ولا مدافع، وما لم يشأ لم يكن"(٣).

٩- قال بعد قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(٤): "أي إذا أراد شيئا فإنما يأمر به فيصير كما يشاء كما قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(٥) فمن كان هذا شأنه فكيف يتوهم أن يكون له ولد لأن ذلك من أمارات النقص والاحتجاج؟"(٦).

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(٧): "أي إذا أردنا أن نبعث من يموت فلا تعب علينا ولا نصب في أحيائه ولا بعثه، لأنا إذا أردنا فإنما نقول: كن فيكون، ولا معاناة فيه، ولا كلفة علينا"(٨).

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(٩): "أي إنما شأنه تعالى في إيجاد الأشياء أن يقول لما يريد إيجاده: تكوَّن فيتكوَّنُ ويحدث فورا بلا تأخير، وهذا ولا شك تمثيل لتأثير قدرته فيما يريد، بأمر المطاع لمن يطيعه في حصول المأمور به بلا توقف ولا افتقار إلى مزولة عمل ولا استعمال آلة"(١٠).

---

(١) تفسير المراغي(١٠/٣٤).
(٢) سورة التغابن الآية (١).
(٣) تفسير المراغي(١٠/١٠٠).
(٤) سورة مريم الآية (٣٥).
(٥) سورة آل عمران الآية (٥٩).
(٦) تفسير المراغي(٦/٤٣).
(٧) سورة النحل الآية (٤٠).
(٨) تفسير المراغي(٥/٢١٢).
(٩) سورة يس الآية (٨٢).
(١٠) تفسير المراغي(٨/١٥٧).

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾(١): "أي قل لهم أيها الرسول: هو الذي يحيي من يشاء بعد مماته، ويميت من يشاء من الأحياء، وإذا أراد كون أمر من الأمور التي يريد تكوينها، فإنما يقول له كن فيكون بلا معاناة ولا كلفة.

وهذا تمثيل لتأثير قدرته في المقدورات حين تعلق إرادته بوجودها، وتصوير سرعة ترتب المكونات على تكوينه من غير أن يكون هناك آمر ومأمور"(٢).

في هذه الآية ذهب المراغي رحمه الله إلى أن ذلك من باب التمثيل، وليس هناك آمر ومأمور، وهذا خلاف ما سبق من كلامه، وخلاف ما رجحه جمع من المفسرين.

أقوال بعض المفسرين على قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾(٣)، وعلى أمثالها.

١- قال ابن جرير رحمه الله: "وأولى الأقوال بالصواب في قوله: ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾(٤): "أن يقال: هو عام في كل ما قضاه الله وبرأه، لأن ظاهر ذلك ظاهر عموم، وغير جائزة إحالة الظاهر إلى الباطن من التأويل بغير برهان... وإذ كان ذلك كذلك، فأمر الله جل وعز لشيء إذا أراد تكوينه موجودا بقوله: (كن) في حال إرادته إياه مكونا، لا يتقدم وجود الذي أراد إيجاده وتكوينه، إرادته إياه، ولا أمره بالكون والوجود، ولا يتأخر عنه، فغير جائز أن يكون الشيء مأمورا بالوجود مرادا كذلك إلا وهو موجود، ولا أن يكون موجودا إلا وهو مأمور بالوجود مراد كذلك، ونظير قوله: ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾(٥) قوله: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ﴾(٦): بأن خروج القوم من قبورهم لا يتقدم دعاء الله، ولا يتأخر عنه"(٧).

---

(١) سورة غافر الآية (٦٨).

(٢) تفسير المراغي(٣٣٣/٨).

(٣) سورة البقرة الآية (١١٧).

(٤) سورة البقرة الآية (١١٧).

(٥) سورة البقرة الآية (١١٧).

(٦) سورة الروم الآية (٢٥).

(٧) تفسير ابن جرير(٥٤٦/٢).

وقال الشنقيطي رحمه الله: "وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[(١)] ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه لا يتعاصى على قدرته شيء، وإذ يقول للشيء: {كن}، فيكون بلا تأخير. وذلك أن الكفار لما ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾[(٢)]، ورد الله عليهم كذبهم بقوله: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾[(٣)] بين أنه قادر على كل شيء، وأنه كلما قال لشيء {كن} كان.

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر؛ كقوله في الرد على من قال: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾[(٤)] ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[(٥)].

وبين أنه لا يحتاج أن يكرر قوله: {كن}، بل إذا قال للشيء "كن" مرة واحدة، كان في أسرع من لمح البصر، في قوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾[(٦)]، ونظيره قوله: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[(٧)]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[(٨)]، وقال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[(٩)] إلى غير ذلك من الآيات"[(١٠)].

وممن وضح تفسير هذه الآية وبينه أتم بيان المفسر ابن عثيمين حيث قال رحمه الله: "وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[(١١)] أي إذا أراد أن يقضي أمرا؛ والفعل يأتي بمعنى

---

(١) سورة النحل الآية (٤٠).
(٢) سورة النحل الآية (٣٨).
(٣) سورة النحل الآية (٣٨).
(٤) سورة يس الآية (٧٨).
(٥) سورة يس الآية (٨٢).
(٦) سورة القمر الآية (٥٠).
(٧) سورة النحل الآية (٧٧).
(٨) سورة آل عمران الآية (٥٩).
(٩) سورة لقمان الآية (٢٩).
(١٠) أضواء البيان(٢/٣٧٧).
(١١) سورة البقرة الآية (١١٧).

إرادته المقارنة له، مثل قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[1]: أي إذا أردت قراءته؛ والدليل على تأويل {قضى} بمعنى: "أراد أن يقضي" هو قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[2] على أنه يصلح أن يكون {إذا قضى أمرا...} بمعنى إذا فعل شيئا فإنما يقول تعالى له عند فعله: {كن فيكون}؛ يعني أن فعله ﷻ للشيء يكون بعد قوله عز وجل: {كن} من غير تأخر؛ لأنه ليس أمرا شاقا عليه؛ و{أمرا} واحد الأمور؛ يعني الشؤون؛ أي إذا قضى شأنا من شؤونه ﷻ فإن ذلك لا يصعب عليه: {فإنما يقول له كن}؛ أي لا يقول له إلا «كن» مرة واحدة بدون تكرار؛ و{ كن } هنا تامة من «كان» بمعنى حدث؛ { فيكون } أي فيحدث كما أمره الله ﷻ على ما أراد الله عز وجل"[3].

(١) سورة النحل الآية (٩٨).

(٢) سورة يس الآية (٨٢).

(٣) تفسير ابن عثيمين الفاتحة والبقرة(١٧/٢).

المطلب الثاني: مراتب القدر.

أوضح المراغي رحمه الله مراتب القدر من خلال الآيات الواردة، وسنقسمها الى قسمين وهما:

القسم الأول: العلم والكتابة

فقال بعد توضيح قوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ [1] "أي إن خزائن الغيب عند الله وهو المتصرف فيها وحده، وكذلك المفاتيح أي الوسائل التي يتوصل بها إلى علم الغيب هي عنده أيضا لا يعلمها علما ذاتيا إلا هو، فهو الذي يحيط بها علما...

روى البخاري عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «**مفاتيح الغيب خمس** ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴾[2]»[3]...

وروى البخاري عن عمران بن حصين مرفوعا «**كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض**»[4].

لهذا الحديث والآثار المروية اتفق علماء التفسير بالمأثور على تفسير الكتاب المبين وأم الكتاب والذكر في نحو ما تقدم من الآيات باللوح المحفوظ، وهو شيء أخبر الله به وأنه أودعه كتابه ولم يعرفنا حقيقته، فعلينا أن نؤمن بأنه شيء موجود وأن الله قد حفظ فيه كتابه، وأما دعوى أنه جرم مخصوص في سماء معينة فمما لم يثبت عن المعصوم ﷺ بالتواتر، فلا ينبغي أن يدخل في باب العقائد لدى المؤمنين[5]"[6].

---

(١) سورة الأنعام الآية (٥٩).

(٢) سورة لقمان الآية (٣٤).

(٣) سبق تخريجه ص(٥٧٦).

(٤) سبق تخريجه ص(٣٨٠).

(٥) دعوى أنه لا يقبل في باب العقيدة من الأحاديث إلا المتواتر دعوى باطلة. انظر: تفصيل ذلك في المقدمة.

(٦) تفسير المراغي(٣/١١٩- ١٢٠).

قول المراغي رحمه الله أنه لم يثبت مكان الكتاب في سماء معينة هذا خلاف ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لما قضى الله الخلق كتب كتابا عنده غلبت أو قال سبقت رحمتي غضبي فهو عنده فوق العرش**»[١].

ثم قال المراغي: "وروي عن الحسن أن حكمة كتابة الله لمقادير الخلق تنبيه المكلفين إلى عدم إهمال أحوالهم المشتملة على الثواب والعقاب، وزاد بعضهم حكمتين أخريين:

(١) اعتبار الملائكة عليهم السلام بموافقة المحدثات للمعلومات الإلهية.

(٢) عدم تغيير الموجودات عن الترتيب السابق في الكتاب، ويؤيده ما روى البخاري عن أبي هريرة «**جف القلم بما أنت لاق**»[٢].

وقال وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[٣] أي وعنده علم ما لم يغب عنكم، لأن ما فيهما ظاهر للعين يعلمه العباد وعلمه تعالى بما فيهما علم شهادة مقابل لعلم الغيب.

والخلاصة: إن عنده علم ما غاب عنكم مما لا تعلمونه ولن تعلموه مما استأثر بعلمه، وعنده علم ما يعلمه جميعكم لا يخفى عليه شيء منه، فعنده علم ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة.

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾[٤] أي وما تسقط ورقة من نجم أو شجر في الصحاري والبراري، أو في الأمصار والقرى إلا والله عليم بها.

﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[٥] أي وما تسقط من حبة بفعل الإنسان باختياره كالحب الذي يلقيه الزراع في بطون الأرض يسترونه بالتراب فيحتجب عن نور النهار، أو تذهب به النمل في قراها وجحورها، أو بغير فعل الإنسان كالذي يسقط من النبات في الشقوق والأخاديد، وما يسقط من الثمار رطبا ويابسا إلا وهو في كتاب مبين، وهو اللوح

---

(١) سبق تخريجه ص().

(٢) صحيح البخاري معلقا بصيغة الجزم، كتاب النكاح، باب ما يكره من التبتل والخصاء (٤٤٤/١٦) الحديث رقم(٥٠٧٦)، ووصله ابن أبي عاصم في السنة (٥١/١) الحديث رقم(١١٠)، وصححه الألباني في ظلال الجنة في تخريج السنة.

(٣) سورة الأنعام الآية (٥٩).

(٤) سورة الأنعام الآية (٥٩).

(٥) سورة الأنعام الآية (٥٩).

المحفوظ الذي كتب ذلك فيه، وكتب عدده، والوقت الذي يوجد فيه والذي يفنى فيه، وجعل الكتاب مبينا لأنه يبين عن صحة ما هو فيه بوجود ما رسم فيه على ما رسم"[١]، هذا هو الذي اختاره الزجاج[٢] لقوله في الآية الأخرى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾[٣]"[٤].

وقال رحمه الله بعد قول الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[٥]: "أي ما أصابكم أيها الناس من مصائب في آفاق الأرض كقحط وجدب وفساد زرع، أو في أنفسكم من أوصاب وأسقام إلا في أم الكتاب من قبل أن نبرأ هذه الخليقة.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[٦] أي إن علمه بالأشياء قبل وجودها، وكتابته لها طبق ما توجد في حينها يسيرٌ عليه، لأنه يعلم ما كان وما سيكون وما لا يكون، أخرج الحاكم وصححه عن أبي حسان[٧]: «**أن رجلين دخلا على عائشة رضى الله عنها فقالا: إن أبا هريرة يحدث أن النبي ﷺ كان يقول: إنما الطيرة في المرأة والدابة والدار، فقالت: والذي أنزل القرآن على أبي القاسم ﷺ ما هكذا كان يقول، كان يقول «كان أهل الجاهلية يقولون: إنما الطيرة في المرأة والدابة والدار ثم قرأ:** ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾[٨]»[٩].

(١) انظر: تفسير ابن جرير(١١/٤٠٣).
(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج(٢/٢٥٧).
(٣) سورة الحديد الآية (٢٢).
(٤) تفسير المراغي(٣/١٢٠).
(٥) سورة الحديد الآية (٢٢).
(٦) سورة الحديد الآية (٢٢).
(٧) أبو حسان الأعرج الأحرد البصري مشهور بكنيته واسمه مسلم ابن عبدالله صدوق رمي برأي الخوارج قتل سنة ثلاثين ومائة. انظر: الجرح والتعديل(٨/٢٠١)، وتهذيب الكمال(٣٣/٢٤٢).
(٨) سورة الحديد الآية (٢٢).
(٩) سبق تخريجه ص(٣١٨).

﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾(١) أي أعلمناكم بتقدم علمنا وسبق كتابتنا للأشياء قبل وجودها، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم، فلا تحزنوا على فائت، ولا تفرحوا بآت.

والخلاصة: إن كل شيء قدر في الكتاب، فكيف نفرح أو نحزن؟"(٢).

وقال بعد قوله جل وعلا: ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾(٣): "أي كان ذلك مثبتا في علم الله أو في اللوح المحفوظ.

عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول ما خلق الله القلم، فقال له اكتب، فقال ما أكتب؟ قال اكتب المقدر وما هو كائن إلى يوم القيامة**» أخرجه الترمذي(٤)"(٥).

وقال بعد قوله جل وعلا: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾(٦): "أي كل الدواب وأرزاقها ومستقرها ومستودعها ثابت مرقوم في كتاب مبين أي في لوح محفوظ كتب الله فيه مقادير الخلق كلها"(٧).

---

(١) سورة الحديد الآية (٢٣).

(٢) تفسير المراغي(٩/٤٣٨).

(٣) سورة الإسراء الآية (٥٨).

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في القدر (٤/٢٢٥) الحديث رقم(٤٧٠٠)، والترمذي، أبواب القدر (٤/٤٥٧) الحديث رقم(٢١٥٥) وقال: وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي(٥/١٥٥).

(٥) تفسير المراغي(٢٧/١٨١).

(٦) سورة هود الآية (٦).

(٧) تفسير المراغي(٤/٢٩١).

القسم الثاني: الإرادة والخلق

أوضح المراغي رحمه الله الإرادة والخلق بعد تعليقه على الآيات الواردة في هذا الموضوع فقال بعد قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾(١): "ومعنى كفالته تعالى لرزقها أنه سخره لها، وهداها إلى طلبه وتحصيله كما قال: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾(٢) وقد علم بنصوص القرآن وسنن الله في الخلق وأسباب الرزق أن مشيئته تعالى لا تكون إلا بمقتضى سننه في ارتباط الأسباب بالمسببات مع الحكمة في ذلك، لا أنه يأتيها بمحض قدرته سواء طلبته أم لا"(٣).

وقال بعد قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾(٤): "مكروها عند ربك أي مبغوضا عنده، وإن كان مرادا له تعالى بالإرادة التكوينية كما قال ﷺ: «**ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن**»(٥)، وهذه الإرادة لا تستدعي الرضا منه سبحانه، وفي وصف هذه الأشياء بالكراهة مع أن أكثرها من الكبائر إيماء إلى أن الكراهة عنده تعالى تكفي في وجوب الكف عن ذلك"(٦).

وقال بعد قول الحق: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٧): "أي الله ينشىء جميع الخلق بقدرته، وهو منفرد بإنشائه من غير شريك ولا ظهير، ثم يعيده خلقا جديدا بعد إفنائه وإعدامه كما بدأه خلقا سويا ولم يك شيئا، ثم إليه يردون فيحشرون لفصل القضاء بينهم، فيجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى"(٨).

---

(١) سورة هود الآية (٦).

(٢) سورة طه الآية (٥٠).

(٣) تفسير المراغي(٢٩١/٤).

(٤) سورة الإسراء الآية (٣٨).

(٥) أخرجه أبو داود، أبواب النوم، باب ما يقول إذا أصبح (٣١٩/٤) الحديث رقم(٥٠٧٥) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير برقم(٤١٢١).

(٦) تفسير المراغي(٣١٦/٥).

(٧) سورة الروم الآية (١١).

(٨) تفسير المراغي(٢٦٦/٧).

وقال بعد قول الحق سبحانه: ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾[1]: "أي فمن شاء من عباده أن يذكره ولا ينساه ويجعله نصب عينيه فعل، فإن نفع ذلك راجع إليه، وبه سعادته في الدارين.

ثم رد سبحانه المشيئة إلى نفسه فقال: ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[2] أي وما يذكرون هذا القرآن ولا يتعظون بعظاته ويعملون بما فيه إلا أن يشاء الله أن يذكروه، فلا يستطيع أحد أن يفعل شيئا إلا أن يعطيه الله القدرة على فعله، إذ لا يقع في ملكه سبحانه إلا ما يشاء كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[3]"[4].

وقال بعد قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾[5]: "فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ومشيئته تعالى إنما تتعلق بما سبق به علمه واقتضته حكمته"[6].

وقال بعد قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[7]: "أي له السلطان القاهر عليهما، فله القدرة التامة فيهما وفيما حوياه إيجادا وإعداما، وأمرا ونهيا، بحسب ما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح"[8].

من خلال ما سبق من كلام المراغي رحمه الله في مبحث الإيمان بالقضاء والقدر وما يتضمنه من المراتب يتضح أنه لم يخالف مذهب أهل السنة والجماعة في ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وأما أهل الإيمان: فيؤمنون بالقضاء والقدر والأمر والنهي، ويفعلون المأمور ويتركون المحظور، ويصبرون على المقدور، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[9] فالتقوى تتناول فعل المأمور وترك المحظور، والصبر يتضمن الصبر على المقدور، وهؤلاء إذا أصابتهم مصيبة في الأرض أو في أنفسهم علموا أن

(١) سورة المدثر الآية (٥٥).
(٢) سورة المدثر الآية (٥٥-٥٦).
(٣) سورة التكوير الآية (٢٩).
(٤) تفسير المراغي(٢٥٩/١٠).
(٥) سورة هود الآية (١٠٧).
(٦) تفسير المراغي(٣٥٧/٤).
(٧) سورة الفرقان الآية (٢).
(٨) تفسير المراغي(٣٨٧/٦).
(٩) سورة يوسف الآية (٩٠).

ذلك في كتاب، وأن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم، فسلموا الأمر لله وصبروا على ما ابتلاهم به، وأما إذا جاء أمر الله فإنهم يسارعون في الخيرات ويسابقون إلى الطاعات، ويدعون ربهم رغبا ورهبا، ويجتنبون محارمه ويحفظون حدوده، ويستغفرون الله ويتوبون إليه من تقصيرهم فيما أمر وتعديهم لحدوده؛ علما منهم بأن التوبة فرض على العباد دائما، واقتداء بنبيهم حيث يقول في الحديث الصحيح: «**أيها الناس توبوا إلى ربكم فوالذي نفسي بيده إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة**»[(١)]، وفي رواية: «**أكثر من سبعين مرة**»[(٢)]، وآخر سورة نزلت عليه ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾[(٣)]"[(٤)].

وباب القضاء والقدر من الأبواب التي خاض بعض الناس فيها بالباطل؛ لكن الله بحكمته وفضله قيض لهذه الأمة من يبين الحق ويفصل في المسائل حتى يثبت الحق ويندحر الباطل، وهذا ما حرره العالم الرباني بقوله: "الإيمان بالقضاء والقدر واجب، ومنزلته من الدين أنه أحد أركان الإيمان الستة؛ لقول النبي ﷺ: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره**»[(٥)].

ومعنى الإيمان بالقضاء والقدر أن تؤمن بأن كل ما في الكون من موجودات ومعدومات، عامة وخاصة فإنه بمشيئة الله وخلقه، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

درجات الإيمان بالقضاء والقدر: للإيمان بالقدر درجتان كل درجة تتضمن شيئين:

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه (٢٠٧٥/٤) الحديث رقم(٢٧٠٢).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة (٦٧/٨) الحديث رقم(٦٣٠٧).

(٣) سورة النصر الآية (١-٣).

(٤) مجموع الفتاوى(٣٠٤/٢).

(٥) سبق تخريجه ص(٤٦٢).

فالدرجة الأولى: تتضمن العلم والكتابة، ودليلها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[(١)]

فالعلم أن تؤمن بعلم الله المحيط بكل شيء جملةً وتفصيلًا.

والكتابة هي أن تؤمن بأن الله كتب مقادير كل شيء في اللوح المحفوظ بحسب علمه وهي أنواع:

النوع الأول: الكتابة في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، ودليلها قوله ﷺ: «**إن الله لما خلق القلم قال له: اكتب قال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة**»[(٢)].

النوع الثاني: الكتابة العمرية، وهي ما يكتبه الملك الموكل بالأرحام على الجنين في بطن أمه إذا تم له أربعة أشهر، فيؤمر الملك بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد، ودليله حديث ابن مسعود رضي الله عنه الثابت في الصحيحين[(٣)] وهذه الدرجة ينكرها غلاة القدرية قديما.

وأما الدرجة الثانية فتتضمن شيئين: المشيئة والخلق، ودليل المشيئة قوله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[(٤)]، ودليل الخلق قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[(٥)].

فأما المشيئة فهي أن تؤمن بمشيئة الله العامة، وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، سواء في ذلك أفعاله أو أفعال الخلق، كما قال تعالى في أفعاله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾[(٦)]، وقال في أفعال خلقه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾[(٧)].

---

(١) سورة الحج الآية (٧٠).

(٢) سبق تخريجه ص(٦٤٤).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: {ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين} (١٣٥/٩) الحديث رقم(٧٤٥٤)، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٢٠٣٦/٤) الحديث رقم(٢٦٤٣).

(٤) سورة إبراهيم الآية (٢٧).

(٥) سورة الزمر الآية (٦٢).

(٦) سورة السجدة الآية (١٣).

(٧) سورة الأنعام الآية (١١٢).

وأما الخلق فهو أن تؤمن أن الله خالق كل شيء، سواء من فعله أو أفعال عباده، دليل الخلق في فعله قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[١]، ودليل الخلق في أفعال العباد قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[٢].

ووجه كونه خالقا لأفعال العباد أن فعل العبد لا يصدر إلا عن إرادة وقدرة، وخالق إرادة العبد وقدرته هو الله.

مشيئة العبد وقدرته:

للعبد مشيئة وقدرة لقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾[٣]، وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[٤]، فأثبت الله للعبد مشيئة واستطاعة وهي القدرة، إلا أنهما تابعتان لمشيئة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[٥]"[٦].

---

(١) سورة الأعراف الآية (٥٤).

(٢) سورة الصافات الآية (٩٦).

(٣) سورة البقرة الآية (٢٢٣).

(٤) سورة التغابن الآية (١٦).

(٥) سورة التكوير الآية (٢٩).

(٦) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين(٤/٢٩٩-٣٠٠).

المبحث الثاني: آراء المراغي الاعتقادية في أفعال العباد

وتحته خمسة مطالب:

المطلب الأول: خلق أفعال العباد.

المطلب الثاني: الأمر الكوني والأمر الشرعي.

المطلب الثالث: الاحتجاج بالقدر.

المطلب الرابع: فعل الأسباب.

المطلب الخامس: الإيمان بالغيب.

المطلب الأول: خلق أفعال العباد.

قال المراغي رحمه الله في مسألة أفعال العباد: "إن الناس عاملون بالإرادة والاختيار، ولكنهم خاضعون للسنن والأقدار، فلا جبر ولا اضطرار، ولا تعارض بين عملهم باختيارهم ومشيئة الخالق سبحانه، إذ المراد من خلقه الأشياء بقدر وتقدير أنه تعالى خلقها على وجه جعل فيه المسببات على قدر الأسباب بناء على علم وحكمة، فهو لم يخلق شيئا جزافا بغير تقدير ولا نظام يجري عليه"[١].

وقال بعد قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[٢]: "أي وما تشاءون اتخاذ السبيل الموصلة إلى النجاة، ولا تقدرون على تحصيلها إلا إذا وفقكم الله لاكتسابها، وأعدكم لنيلها، إذ لا دخل لمشيئة العبد إلا في الكسب، وإنما التأثير والخلق لمشيئة الله عز وجل، فمشيئة العبد وحدها لا تأتي بخير، ولا تدفع شرا، وإن كان يثاب على المشيئة الصالحة، ويؤجر على قصد الخير كما في حديث: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى**»[٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[٤] أي إن الله عليم بمن يستحق الهداية فييسرها له، ويقيض له أسبابها، ومن هو أهل للغواية، فيصرفه عن الهدى، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة.

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾[٥] فيهديه ويوفقه للطاعة بحسب استعداده"[٦].

وقال رحمه الله معلقا على قول الحق سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٧]: "أي هو الذي أوجدكم كما شاء على ما شاء، ثم قسم هذا المخلوق فقال: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ﴾[٨] أي فبعضكم مختار للكفر كاسب له على خلاف ما تقتضيه

(١) تفسير المراغي(٣/٢٥٦).
(٢) سورة البقرة الآية (٣٠).
(٣) سبق تخريجه ص(٢٧).
(٤) سورة الإنسان الآية (٣٠).
(٥) سورة الإنسان الآية (٣١).
(٦) تفسير المراغي(١٠/٢٨٧).
(٧) سورة التغابن الآية (٢).
(٨) سورة التغابن الآية (٢).

فطرته، وبعضكم مختار للإيمان كاسب له بحسب ما تدعو إليه الفطرة، كما جاء في الحديث: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»[(١)]، وقد كانت الأدلة الكونية في الأنفس والآفاق كفيلة أن تردكم إلى الحق، فتختاروا الإيمان شاكرين لنعمة الخلق والإيجاد وما يتبعهما من سائر النعم، ولكنكم ما فعلتم ذلك، بل تفرقتم شيعا، وجحدتم الخالق، وكفرتم بأنعمه عليكم، بعد أن أفصح الصبح لذي عينين"[(٢)].

وعلق رحمه الله على قول الحق سبحانه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾[(٣)] فقال: "إن على مشيئة المكلف تتوقف الهداية، وقد فرض عليه أن يوجه فكره نحو الحق ويطلبه، ويجد في كسب الخير ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

ثم دفع توهم أن إرادة الإنسان مستقلة في فعل ما يريد، وله الاختيار التام فيما يفعل، وهو منقطع العلاقة في إرادته من سلطان ربه فقال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[(٤)] أي إن إرادتكم الخير لا تحصل لديكم إلا بعد أن يخلقها الله فيكم بقدرته، الموافقة لإرادته، فهو الذي يودع فيكم إرادة فعل الخير فتنصرف هممكم إليه، ولو شاء لسلبكم هذه الإرادة وجعلكم كالحيوانات لا إرادة لها.

وفي قوله ﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بيان لعلة هذا، فإنه لما كان رب العالمين، وهو الذي منحكم كل ما تتمتعون به من القوى كالإرادة وغيرها، وهو صاحب السلطان عليكم كانت إرادتكم مستندة إلى إرادته، وخاضعة لسلطانه، فلو شاء أن يوجهها إلى غير ما وجهت له توجهت، ولو شاء أن يمحوها محيت، فله الأمر وله الحكم وهو على كل شيء قدير"[(٥)].

ثم قال: "مشيئة العبد تابعة لمشيئة الرب سبحانه، وليس لها استقلال بالعمل"[(٦)].

وذكر رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾[(١)]، فقال: "وقد جعلت الآية الإنسان هو الميسر للفعل، وليس الفعل هو الميسر للإنسان، من قبل أن الفعل لا يحصل إلا إذا وجدت

---

(١) سبق تخريجه ص(٥٧).

(٢) تفسير المراغي(١٠/١٠٠).

(٣) سورة التكوير الآية (٢٨).

(٤) سورة التكوير الآية (٢٨-٢٩).

(٥) تفسير المراغي(١٠/٣٤٥).

(٦) تفسير المراغي(١٠/٣٤٥).

العزيمة الصادقة، والإرادة النافذة لإيجاده، مع التوفيق لسلوك أقوم الطرق التي توصل إليه، كما جاء في الحديث: «**اعملوا، فكل ميسر لما خلق له**»[٢]"[٣].

وقال رحمه الله بعد قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾[٤]: "أي إننا عاقبناهم على تكذيبهم بالآيات، والغفلة عن النظر إلى الأدلة الموصلة إلى الحق فيما أمرنا به ونهينا عنه بالختم على قلوبهم، والغشاوة على أعينهم حتى لا يجد الحق منفذا في الوصول إليها.

والخلاصة: إن الله لم يخلق هؤلاء مطبوعين على الغي والضلال طبعا، ولم يجبرهم إجبارا ويكرههم عليه إكراها، بل كان ذلك بكسبهم واختيارهم، إذ هم آثروا التكذيب بالآيات والصد عن السبل الموصلة إلى الرشاد، وغفلوا عن النظر في أدلتها، لشغلهم بأهوائهم واتباع شهواتهم، وبذا لجوا في الطغيان، وتمادوا في العصيان، واحتقروا ما سوى ذلك مما يهدي عقولهم إلى صوب الحق وسلوك طريقه"[٥].

وذكر رحمه الله بعد قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[٦] فقال: "ذاك أن أعمال البشر التي تقع باختيارهم، لها آثار وغايات اضطرارية تنتهي بهم إليها، وتكون نتيجة لها بحسب ما وضعه الله في نظام الكون من وجود المسببات عقب وجود أسبابها، فالإسراف في الشهوات يفضي إلى بعض الأمراض في الدنيا، كذلك الكفار والفساق مختارون في كفرهم وفسوقهم، وستكون نتيجة ذلك سوقهم إلى عذاب النار بمقتضى السنن الموضوعة.

وكل أعمال الإنسان النفسية والبدنية لها الأثر الذي يفضي بصاحبها إلى السعادة أو الشقاء، وهي أعمال كسبية اختيارية، فالإنسان متمكن من اختيار الحق وترك الباطل، وترك

---

(١) سورة الأعلى الآية (٨).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {فسنيسره للعسرى} (١٧١/٦) الحديث رقم(٤٩٤٩)، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٢٠٤٠/٤) الحديث رقم(٢٦٤٧).

(٣) تفسير المراغي(٣٩٨/١٠).

(٤) سورة الأعراف الآية (١٤٦).

(٥) تفسير المراغي(٤٠٢/٣).

(٦) سورة البقرة الآية (١٢٦).

الخبيث وفعل الطيب بما أعطاه الله من العقل وبما نزل عليه من الوحي، فإذا حاد عن ذلك يكون قد ظلم نفسه وعرضها للعذاب والشقاء بأعماله التي مبدؤها كسبي وأثرها اضطراري.

وهذه السنن بقضاء الله وتقديره، ومن ثم يصح أن يقال إن الله قد اضطر الكافر إلى العذاب وألجأه إليه، وجعل الأرواح المدنسة بالأخلاق الذميمة أو بالعقائد الفاسدة محل سخطه وموضع انتقامه في الآخرة، كما جعل أصحاب الأمراض القذرة عرضة للأمراض في الدنيا"[(١)].

وأوضح رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾[(٢)] فقال: "وفي هذا بيان لسنة الله في عمل الإنسان، وإيضاح لما أوتيه من الإرادة والاستقلال والعمل بالاختيار، فالوجهة التي يتولاها ويختارها لنفسه يوليه الله إياها: أي يجعله واليا لها وسائرا على طريقها، فلا يجد من القدرة الإلهية ما يجبره على ترك ما اختار لنفسه بحسب الاستعداد والإدراك، وعمل ما يرى أنه خير له وأنفع في عاجله أو آجله أو فيهما معا، ثم ندخله جهنم ونعذبه أشد العذاب، لأنه استحب العمى على الهدى وعاند الحق واتبع الهوى، وما أقبحها عاقبة لمن تفكر وتدبر!"[(٣)].

وقال بعد قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ﴾[(٤)]: "أي مثل ذلك التزيين الذي يحمل المشركين على ما ذكر حمية لمن يدعون من دون الله، زينا لكل أمة عملهم من كفر وإيمان وشر وخير.

والخلاصة: إن سنننا في أخلاق البشر قد جرت بأن يستحسنوا ما يجرون عليه ويتعودونه، سواء كان مما عليه آباؤهم أو مما استحدثوه بأنفسهم إذ صار ينسب إليهم، وسواء أكان ذلك عن تقليد وجهل أم عن بينة وعلم.

ومن هذا يعلم أن التزيين أثر لأعمالهم الاختيارية بدون جبر ولا إكراه، لا أن الله خلق في قلوب بعض الأمم تزيينا للكفر والشر، وفي قلوب بعضها تزيينا للإيمان والخير من غير أن يكون لهم عمل اختياري نشأ عنه ذلك، وإلا كان الإيمان والكفر والخير والشر من الغرائز الخلقية التي

---

(١) تفسير المراغي(١/١٧٨).

(٢) سورة النساء الآية (١١٥).

(٣) تفسير المراغي(٢/٣١٣).

(٤) سورة الأنعام الآية (١٠٨).

تعد الدعوة إليها من العبث الذي يتنزه الله تعالى عن إرسال الرسل وإنزال الكتب لأجله، وكان عمل الرسل والحكماء والمؤدبين الذين يؤدبون الناس عملا لا فائدة فيه. والخلاصة: إن تزيين الأعمال للأمم سنة من سنن الله جل شأنه سواء في ذلك أعمالها وعاداتها وأخلاقها الموروثة والمكتسبة"(١).

وقال رحمه الله: "وقد قضت سنة الله في الإنسان أن يجعله مختارا في عمله المستعد له بحسب فطرته، ليكون جزاؤه كفاء ما قدمت يداه من خير أو شر، وأن يمتحنه بما خلق في هذه الأرض من زينة ومتعة كما قال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾(٢) ثم يولي كل امرئ منهم وجهة هو موليها فيختار منها ناحية بحسب استعداده وميله الفطري كما قال: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾(٣)، كما مضت سنته أيضا بأن جعل ميل الإنسان مع شهواته في جميع أعماله دون رعاية للفائدة يضله عن السبيل الموصلة إلى السعادة الأخروية، وينحرف به إلى سبل الغواية المردية في التهلكة، كما قال تعالى مخاطبا داود عليه السلام: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾(٤)، وقال مخاطبا خاتم أنبيائه: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾(٥).

وخلاصة ذلك: إن من شأن من يؤتى الآيات أن تسمو نفسه وتصعد في سلم الكمال؛ لما فيها من الهداية إلى سبيل الخير الحاضة على عمل النافع، وما فيه فائدة روحية له، على شريطة أن يتلقاها بعزيمة ونية صادقة، كما جاء في الحديث: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما**

---

(١) تفسير المراغي(١٧٧/٣).

(٢) سورة الكهف الآية (٧).

(٣) سورة الإسراء الآية (١٧-٢٠).

(٤) سورة ص الآية (٢٦).

(٥) سورة الفرقان الآية (٤٣).

لكل امرئ ما نوى»[١]، أما من تلقاها بغير قصد أو بنية كسب المال والجاه وفي نفسه ما يصرفه عنها فلن يستفيد منها شيئا وسرعان ما ينسلخ منها"[٢].

وذكر بعد قول الحق سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[٣]: "أي ولو شاء ربك أن يؤمن أهل الأرض كلهم جميعا لآمنوا بأن يلجئهم إلى الإيمان قسرا، أو يخلقهم مؤمنين طائعين كالملائكة لا استعداد في فطرتهم لغير الإيمان.

وجاء في معنى الآية قوله﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾[٤]، وقوله﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[٥].

وخلاصة ذلك: أنه لو شاء ربك ألا يخلق الإنسان مستعدا بفطرته للخير والشر والإيمان والكفر، ومرجحا باختياره لأحد الأمور الممكنة على ما يقابله بإرادته ومشيئته لفعل ذلك، ولكن اقتضت حكمته أن يخلقه هكذا يوازن باختياره بين الإيمان والكفر، فيؤمن بعض ويكفر آخرون.

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[٦] أي إن هذا ليس بمستطاع لك ولا من وظائف الرسالة التي بعثت بها أنت وسائر الرسل الكرام كما قال تعالى:﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾[٧] وقال: ﴿أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾[٨]، وقال: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾[٩]، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي وما كان لنفس بمقتضى ما أعطاها الله من الاختيار والاستقلال في الأفعال، أن تؤمن إلا

---

(١) سبق تخريجه ص(٢٧).

(٢) تفسير المراغي(٤٣٦/٣).

(٣) سورة يونس الآية (٩٩).

(٤) سورة الأنعام الآية (١٠٧).

(٥) سورة هود الآية (١١٨).

(٦) سورة يونس الآية (٩٩).

(٧) سورة الشورى الآية (٤٨).

(٨) سورة ق الآية (٤٥).

(٩) سورة البقرة الآية (٥٦).

بإرادة الله ومقتضى سننه في الترجيح بين المتقابلين، فالنفس مختارة في دائرة الأسباب والمسببات، ولكنها غير مستقلة في اختيارها استقلالا تاما، بل مقيدة بنظام السنن والأقدار الإلهية.

﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾(١) أي وإذا كان كل شيء بإذنه وتيسيره ومشيئته التي تجري بقدره فهو يجعل الإذن وتيسير الإيمان للذين يعقلون آياته ويوازنون بين الأمور، فيختارون خير الأعمال ويتقون شرها، ويرجحون أنفعها على أضرها بإذنه تعالى وتيسيره، ويجعل الخذلان والخزي المرجح للكفر والفجور على الذين لا يعقلون ولا يتدبرون، إذ هم لخطل رأيهم وسلوك سبيل الهوى يرجحون الكفر على الإيمان والفجور على التقوى"(٢).

وذكر رحمه الله في توضيح قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾(٣) فقال: "أي وأودعنا في فطرة الإنسان التمييز بين الخير والشر، وجعلنا له من العقل والفكر ما يكون مذكرا ومنبها، ونصبنا له الدلائل على حسن الخير وأرشدناه إلى ما في الشر من هنوات وعيوب، ثم أقدرناه على أن يسلك أي الطريقين شاء، بعد أن آتيناه قوة التمييز، والقدرة على الاختيار والترجيح، ليسلك الطريق التي أراد منهما.

فليكن نجد الخير أحب إلى أحدكم من نجد الشر فمن نازعته نفسه واتجهت إلى نجد الشر فليقمعها بالنظر في آيات الله، والتدبر في دلائله، ليعلم أن ذلك الطريق مظلم معوج يهوي بصاحبه إلى طريق الردى، ويوقعه في المهالك.

وإنما سماهما الله نجدين، للإشارة إلى أنهما واضحان كطريقين عاليين يراهما ذوو الأبصار، وإلى أن في كل منهما وعورة يشق معها السلوك، ولا يصبر عليها إلا من جاهد نفسه وراضها.

وفي ذلك إيماء إلى أن طريق الشر ليست بأهون من طريق الخير، بل الغالب أن طريق الشر أصعب وأشق وأحوج إلى بذل الجهد حتى تقطع إلى النهاية وتوصل إلى الغاية"(٤).

وذكر عند توضيح قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾(٥) فقال: "والله أرحم الراحمين واسع المغفرة لم يكن ليحرم أحدا

---

(١) سورة يونس الآية (١٠٠).

(٢) تفسير المراغي(٤/٢٧٨).

(٣) سورة البلد الآية (١٠).

(٤) تفسير المراغي(١٠/٤٢٦).

(٥) سورة النساء الآية (١٣٧).

المغفرة والهداية بمحض الخلق والمشيئة، وإنما مشيئته مقترنة بحكمته، وقد جرت سنة الله وحكمته الأزلية بأن يكون كسب البشر لعلومهم وأعمالهم مؤثرا في نفوسهم، فمن طال عليه أمد التقليد حجب عن عقله نور الدليل، ومن طال عليه عهد الفسوق والعصيان حرم من أسباب الغفران التي ذكرها سبحانه في قوله: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾[(١)]، ولا شك أن المغفرة وهي محو أثر الذنب من النفس إنما تكون بتأثير التوبة والعمل الصالح الذي يزيل ما علق في النفس من تلك الآثام كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾[(٢)]"[(٣)].

وقال عند تفسير قوله ﷻ: ﴿ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾[(٤)]: "أي قل أيها الرسول لهؤلاء الجاهلين بعد تعجيزك إياهم عن أن يأتوا بأدنى دليل أو قول يرقى إلى أضعف درجة من العلم: إن لم يكن عندكم علم في أمر دينكم، فإن لله وحده أعلى درجات العلم وله الحجة البالغة على ما أراد من إحقاق الحق وإزهاق الباطل بما بينه في هذه السورة وغيرها من الآيات البينات، على أصول العقائد وقواعد التشريع الموافقة للعقول الحكيمة والفطر السليمة، وسننه في الاجتماع البشري، ولكن لا يهتدي بهذه الآيات إلا المستعد للهداية، المحب للحق، الحريص على طلبه، الذي يستمع القول فيتبع أحسنه، دون من أعرض عن النظر فيها استكبارا عنها وحسدا للمبلغ الذي جاء بها، وجمودا على تقليد الآباء واتباع الرؤساء، ولو شاء سبحانه أن يهديكم بغير هذه الطريق التي أقام أمر البشر عليها، وهي التعليم والإرشاد بطريق النظر والاستدلال لهداكم أجمعين، فجعلكم تؤمنون بالفطرة كالملائكة المفطورين على الحق والخير جل شأنه، كما قال سبحانه عنهم: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾[(٥)] ويجعل الطاعة فيكم بغير شعور منكم ولا إرادة كما يجري الدم في أبدانكم، أو مع الشعور بأنها ليست من أفعالكم، وحينئذ لا تكونون من نوع الإنسان الذي قضت الحكمة وسبق العلم بخلقه مستعدا

---

(١) سورة طه الآية (٨٢).

(٢) سورة هود الآية (١١٤).

(٣) تفسير المراغي(٢/٣٣٥).

(٤) سورة الأنعام الآية (١٤٩).

(٥) سورة التحريم الآية (٦).

لعمل الخير والشر والحق والباطل، ويرجح أحدهما على الآخر بالاختيار، والاختيار لأحدهما بمشيئته لا ينفي مشيئة الله تعالى ولا يعارضها، فإنه هو الذي شاء أن يجعله فاعلا باختياره"[(١)].

وقال بعد قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾[(٢)]: "أي ولو شاء ربك أيها الرسول الكريم، الشديد الحرص على إيمان قومك، الحزين من أجل إعراض أكثرهم عن إجابة دعوتك واتباع هديك لجعل الناس على دين واحد بمقتضى الغريزة والفطرة لا اختيار لهم فيما يفعلون، فكانوا في حياتهم الاجتماعية أشبه بالنمل والنحل، وفي حياتهم الروحية أشبه بالملائكة مفطورين على طاعة الله واعتقاد الحق وعدم الميل إلى الزيغ والجور، لكنه تعالى خلقهم كاسبين لا ملهمين، وعاملين بالاختيار لا مجبورين ولا مضطرين وجعلهم متفاوتين في الاستعداد وكسب العلم"[(٣)].

وقال: "فللإنسان اختيار أوتيه بحسب استعداده الأزلي وهو مجبور فيه، والثواب والعقاب يترتبان على هذا الاختيار الذي يشاهد، وتكون عاقبته الجنة أو النار"[(٤)].

ومن ذلك قوله بعد قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[(٥)] أي ذلك الذي تقدم من الصفات فضل الله يعطيه من يشاء من عباده وبه يمتازون عن غيرهم، وهذه المشيئة وفق السنن التي أقام بها أمر النظام في خلقه فجعل من الناس الكسب والعمل نفسيا كان أو بدنيا، ومنه سبحانه آلات الكسب والقوى ما بين بدنية وعقلية، حسية ومعنوية، كما أن منه التوفيق والهداية واللطف والمعونة"[(٦)].

المراغي رحمه الله في مسألة أفعال العباد وافق أهل السنة والجماعة في عموم كلامه، إلا في موضعين ذكر فيهما ما يفهم منهما أنه يميل الى القول بالجبر مثل قوله: (يصح أن يقال إن الله قد اضطر الكافر إلى العذاب وألجأه إليه)، وقوله: (فللإنسان اختيار أوتيه بحسب استعداده الأزلي وهو مجبور فيه، والثواب والعقاب يترتبان على هذا الاختيار الذي يشاهد، وتكون عاقبته

---

(١) تفسير المراغي(٣/٢٢٩).

(٢) سورة هود الآية (١١٨).

(٣) تفسير المراغي(٤/٣٦٦).

(٤) تفسير المراغي(٥/٢٥٣).

(٥) سورة المائدة الآية (٥٤).

(٦) تفسير المراغي(٢/٤٥٧).

الجنة أو النار) لكن هذين القولين داخلان في المتشابه فيردان الى المحكم من قوله حتى يزول الإشكال.

ونزيد الإيضاح في هذا الباب بنقل كلام أولي الألباب، ومن ذلك ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن أفعال العباد: "جمهور المسلمين يقولون بالحق الذي دل عليه المنقول والمعقول فيقولون أن أفعال العباد مخلوقة لله مفعولة له، وهي فعل للعباد حقيقة لا مجازا، وهم يثبتون ما لله في خلقه وأمره من الأسباب والحكم، وما جعله الله في الأجسام من القوى والطبائع في الحيوان وفي الجماد، لكنهم مع إثباتهم للأسباب والحكم لا يقولون بقول الطبائعية من الفلاسفة وغيرهم، بل يقولون أن الله خالق كل شيء وربه ومليكه، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حول ولا قوة إلا به، ويعلمون أن الاسباب هي مخلوقة لله بمشيئته وقدرته، ولا تزال مفتقرة إلى الله، لا يقولون أنها معلولة له أو متولدة عنه كما يقوله الفلاسفة، ولا أنها مستغنية عنه بعد الأحداث كما يقوله من يقوله من أهل الكلام، بل كل ما سوى الله تعالى دائم الفقر والاحتياج إليه لا يحدث ولا يبقى إلا بمشيئته القديمة، فما كان بالأسباب فالله خالقه وخالق سببه جميعا، ويقولون مع هذا أن الأسباب التي خلقها ليس فيها ما يستقل بالتأثير في شيء من الأشياء، بل لا بد له من أسباب أخر تعاونه وتشاركه، وهو مع ذلك له معارضات وموانع تعارضه وتدافعه، كما في الشعاع الحادث عن الشمس، والاحتراق الحادث عن النار ونحو ذلك، فإنه لا بد مع الشمس من محل قابل لانعكاس الشعاع عليه، وهو مع ذلك يمتنع بحصول الحائل كالسحاب والسقف وغير ذلك من الموانع"[(١)].

وقال ابن القيم رحمه الله بعد أن ساق المذاهب المخالفة في هذا الباب: "فإن قيل: فما تقولون أنتم في هذا المقام؟، قلنا: لا نقول بواحد من القولين، بل نقول: هي أفعال للعباد حقيقة ومفعولة للرب، فالفعل عندنا غير المفعول، وهو إجماع من أهل السنة...

فالعبد فعلها حقيقة والله خالقه وخالق ما فعل به من القدرة والإرادة وخالق فاعليته، وسر المسألة أن العبد فاعل منفعل باعتبارين، هل هو منفعل في فاعليته فربه تعالى هو الذي جعله فاعلا بقدرته ومشيئته، وأقدره على الفعل وأحدث له المشيئة التي يفعل بها"[(٢)].

---

(١) الصفدية(١/١٥٤).

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لأبي بكر بن قيم الجوزية، دار المعرفة، ١٣٩٨هـ-

غالب الذين ضلوا واضطربوا في هذا الباب أنهم لم يعملوا جميع النصوص فكانت النتيجة وقوعهم في الحيرة والاضطراب، لكن الله يسر لهذه الأمة من يهدم بنيان الباطل بتقرير الحق وتوضيحه فقال في مسألة أفعال العباد: "أهل السنة والجماعة، الطائفة الوسط، الذين جمعوا بين الأدلة وسلكوا في طريقهم خير ملة؛ فآمنوا بقضاء الله وقدره، وبأن للعبد اختيارا وقدرة؛ فكل ما كان في الكون من حركة أو سكون أو وجود أو عدم؛ فإنه كائن بعلم الله تعالى ومشيئته، وكل ما كان في الكون فمخلوق لله تعالى، لا خالق إلا الله، ولا مدبر للخلق إلا الله عز وجل، وآمنوا بأن للعبد مشيئة وقدرة، لكن مشيئته مربوطة بمشيئة الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[(١)] فإذا شاء العبد شيئا وفعله؛ علمنا أن مشيئة الله تعالى قد سبقت تلك المشيئة، وهؤلاء هم الذين جمعوا بين الدليل المنقول والمعقول؛ فأدلتهم على إثبات القدر هي أدلة المثبتين له من الجبرية، لكنهم استدلوا بها على وجه العدل، والجمع بينها وبين الأدلة التي استدل بها نفاة القدر، وأدلتهم على إثبات مشيئة العبد وقدرته هي أدلة المثبتين لذلك من القدرية، لكنهم استدلوا بها على وجه العدل والجمع بينها وبين الأدلة التي استدل بها نفاة مشيئة العبد وقدرته.

وبهذا نعرف أن كلا من الجبرية والقدرية نظروا إلى النصوص بعين الأعور الذي لا يبصر إلا من جانب واحد؛ فهدى الله أهل السنة والجماعة لما اختلف فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم"[(٢)].

١٩٧٨م، ص(١٣١).

(١) سورة التكوير الآية (٢٨-٢٩).

(٢) القول المفيد شرح كتاب التوحيد(٢/٤٠١).

المطلب الثاني: الأمر الكوني والأمر الشرعي.

ذكر المراغي رحمه الله في تفسيره الأمر الكوني والأمر الشرعي، فقال بعد قول الله جل وعلا: ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾(١): "أمر الله ضربان، أمر تكوين وهو ما عليه الكون من بديع الصنع ودقيق النظام كإفضاء الأسباب إلى مسبباتها والمقدمات إلى نتائجها، ومعرفة المنافع والمضار بغاياتها، وأمر تشريع وهو ما جاء به الأنبياء من الشرائع لتبليغه للناس ليعملوا به، فمن أنكر الإله وصفاته بعد أن شهدت بوجوده الآثار المنبثة في الكون، أو أنكر نبوة نبي بعد أن أقام الدليل على صدقه فقد قطع ما أمر الله به أن يوصل بمقتضى العهد الفطري، لأنه قطع الصلة بين الدليل والمدلول، ومن أنكر شيئا مما علم أن الرسول قد جاء به من الأوامر والنواهي، فقد قطع ما أمر الله به في كتبه أمر تشريع وتكليف، وهو لا يأمر إلا بما أثبتت التجربة منفعته، ولا ينهى إلا عما ثبتت مضرته.

ومشركو العرب بتكذيبهم النبي ﷺ نقضوا عهد الفطرة، وأهل الكتاب نقضوا العهدين معا، فإن الله بشرهم في الكتب المنزلة على أنبيائهم بالنبي ﷺ بذكر صفاته، فحرفوا وأولوا متعمدين كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾(٢)"(٣).

وقال بعد قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾(٤): "المراد من الأمر الأمر التكويني المعبر عنه بقوله عز من قائل: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾(٥) أي إنما أمره بإيقاع شيء ما نافذ لا محالة، ومن هذا ما أوعدتم به، قال ابن عباس: «يريد: لا راد لحكمه ولا ناقض لأمره، فلا يتعذر عليه شيء يريد أن يفعله، كما تقول في الشيء الذي لا شك في حصوله: هذا الأمر مفعول وإن لم يفعل بعد»"(٦).

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٧).

(٢) سورة البقرة الآية (١٤٦).

(٣) تفسير المراغي(١/٦٨).

(٤) سورة النساء الآية (٤٧).

(٥) سورة يس الآية (٨٢).

(٦) تفسير المراغي(٢/٢٣١).

وقال بعد قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ﴾[(١)] : "أي وقوله هو الحق الذي لا شك فيه، يوم يقول للشيء كن فيكون وهو وقت إيجاد العالم وتكوينه، فلا مرد لأمره ولا تخلف لقضائه وحكمه، ومن كان أمره التكويني مطاعا يكن أمره التكليفي كذلك واجب الطاعة بلا حرج في النفس ولا ضيق منه، فالخلق حق والأمر حق: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾[(٢)]"[(٣)].

المراغي رحمه الله ذكر الأمر الكوني والأمر الشرعي إجمالا، ولم يوضح بالتفصيل الفرق بينهما فيجدر بنا التأصيل حتى يتضح الأمر بالتفصيل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مقررا وموضحا هذا الموضوع: "فصل وقد ذكر الله في كتابه الفرق بين "الإرادة" و"الأمر" و"القضاء" و"الإذن" و"التحريم" و"البعث" و"الإرسال" و"الكلام" و"الجعل": بين الكوني الذي خلقه وقدره وقضاه؛ وإن كان لم يأمر به ولا يحبه ولا يثيب أصحابه ولا يجعلهم من أوليائه المتقين، وبين الديني الذي أمر به وشرعه وأثاب عليه وأكرمهم وجعلهم من أوليائه المتقين وحزبه المفلحين وجنده الغالبين؛ وهذا من أعظم الفروق التي يفرق بها بين أولياء الله وأعدائه فمن استعمله الرب سبحانه وتعالى فيما يحبه ويرضاه ومات على ذلك كان من أوليائه، ومن كان عمله فيما يبغضه الرب ويكرهه ومات على ذلك كان من أعدائه، فـ "الإرادة الكونية" هي مشيئته لما خلقه، وجميع المخلوقات داخلة في مشيئته وإرادته الكونية، والإرادة الدينية هي المتضمنة لمحبته ورضاه المتناولة لما أمر به وجعله شرعا ودينا، وهذه مختصة بالإيمان والعمل الصالح؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[(٤)]، وقال نوح عليه السلام لقومه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾[(٥)]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا

---

(١) سورة الأنعام الآية (٧٣).

(٢) سورة الأعراف الآية (٥٤).

(٣) تفسير المراغي(١٣٨/٣).

(٤) سورة الأنعام الآية (١٢٥).

(٥) سورة هود الآية (٣٤).

فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾(١) وقال تعالى في الثانية: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾(٢)، وقال في آية الطهارة: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(٣)، ولما ذكر ما أحله وما حرمه من النكاح قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾(٤)، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾(٥)، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾(٦)، وقال لما ذكر ما أمر به أزواج النبي ﷺ وما نهاهم عنه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾(٧)، والمعنى أنه أمركم بما يذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا، فمن أطاع أمره كان مطهرا قد أذهب عنه الرجس بخلاف من عصاه.

وأما "الأمر" فقال في الأمر الكوني: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾(٨) وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾(٩)، وقال تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾(١٠)، وأما الأمر الديني، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾(١١) وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ

---

(١) سورة الرعد الآية (١١).

(٢) سورة البقرة الآية (١٨٥).

(٣) سورة المائدة الآية (٦).

(٤) سورة النساء الآية (٢٦).

(٥) سورة النساء الآية (٢٧).

(٦) سورة النساء الآية (٢٨).

(٧) سورة الأحزاب الآية (٣٣).

(٨) سورة النحل الآية (٤٠).

(٩) سورة القمر الآية (٥٠).

(١٠) سورة يونس الآية (٢٤).

(١١) سورة النحل الآية (٩٠).

ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾[(١)]، وأما "الإذن" فقال في الكوني لما ذكر السحر: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴾[(٢)] أي بمشيئته وقدرته؛ وإلا فالسحر لم يبحه الله عز وجل، وقال في "الإذن الديني": ﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ ﴾[(٤)]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴾[(٥)]، وقال تعالى: ﴿ مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾[(٦)]، وأما "القضاء" فقال في الكوني: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ ﴾[(٧)]، وقال سبحانه: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[(٨)]، وقال في الديني: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾[(٩)] أي أمر وليس المراد به قدر ذلك فإنه قد عبد غيره كما أخبر في غير موضع كقوله تعالى: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ ﴾[(١٠)]، وقول الخليل عليه السلام لقومه: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[(١١)]، وقال تعالى: ﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ ﴾[(١٢)] وقال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ

---

(١) سورة النساء الآية (٥٨).
(٢) سورة البقرة الآية (١٠٢).
(٣) سورة الشورى الآية (٢١).
(٤) سورة الأحزاب الآية (٤٥-٤٦).
(٥) سورة النساء الآية (٦٤).
(٦) سورة الحشر الآية (٥).
(٧) سورة فصلت الآية (١٢).
(٨) سورة مريم الآية (٣٥).
(٩) سورة الإسراء الآية (٢٣).
(١٠) سورة يونس الآية (١٨).
(١١) سورة الشعراء الآية (٧٥-٧٧).
(١٢) سورة الممتحنة الآية (٤).

﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾[(١)]، وهـذه كلمـة تقتضـي براءته من دينهم ولا تقتضي رضاه بذلك؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾[(٢)]، ومن ظن من الملاحدة أن هذا رضا منه بدين الكفار فهو من أكذب الناس وأكفرهم، كمن ظن أن قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ بمعنى قدر، وأن الله سبحانه ما قضى بشيء إلا وقع وجعل عباد الأصنام ما عبدوا إلا الله؛ فإن هذا من أعظم الناس كفرا بالكتب.

وأما لفظ "البعث" فقال تعالى في البعث الكوني: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا﴾[(٣)]، وقال في البعث الديني: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾[(٤)] قـال تعـالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾[(٥)].

وأما لفظ "الإرسال" فقال في الإرسال الكوني: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا﴾[(٦)]، وقـال تعـالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾[(٧)]، وقـال في الـديني: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾[(٨)]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾[(٩)]، وقال تعالى:

---

(١) سورة الكافرون الآية (١-٦).

(٢) سورة يونس الآية (٤١).

(٣) سورة الإسراء الآية (٥).

(٤) سورة الجمعة الآية (٢).

(٥) سورة النحل الآية (٣٦).

(٦) سورة مريم الآية (٨٣).

(٧) سورة الأعراف الآية (٥٧).

(٨) سورة الأحزاب الآية (٤٥).

(٩) سورة نوح الآية (١).

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ ﴾ (٢).

وأما لفظ "الجعل" فقال في الكوني: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ (٣)، وقال في الديني: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (٤)، وقال تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ﴾ (٥).

وأما لفظ "التحريم" فقال في الكوني ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ (٦)، وقال تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ (٧)، وقال في الديني: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ (٨)، وقال تعالى ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ ﴾ الآية (٩).

وأما لفظ "الكلمات" فقال في الكلمات الكونية: ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ ﴾ (١٠)، وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «**أعوذ بكلمات الله التامة كلها من شر ما خلق، ومن غضبه وعقابه وشر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون**» (١١)، وقال ﷺ: «**من نزل منزلا فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء**

---

(١) سورة المزمل الآية (١٥).

(٢) سورة الحج الآية (٧٥).

(٣) سورة القصص الآية (٤١).

(٤) سورة المائدة الآية (٤٨).

(٥) سورة المائدة الآية (١٠٣).

(٦) سورة القصص الآية (١٣).

(٧) سورة المائدة الآية (٢٦).

(٨) سورة المائدة الآية (٣).

(٩) سورة النساء الآية (٢٣).

(١٠) سورة التحريم الآية (١٢).

(١١) أخرجه أحمد في المسند(١٠٨/٢٧) الحديث رقم(١٦٥٧٣)، والترمذي في سننه، أبواب الدعوات(٥٤١/٥) الحديث رقم(٣٥٢٨) وقال حسن غريب، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم(٢٦٤).

حتى يرتحل من منزله ذلك»[1]، وكان يقول: «**أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ذرأ في الأرض ،ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن**»[2].

و"كلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر" هي التي كون بها الكائنات، فلا يخرج بر ولا فاجر عن تكوينه ومشيئته وقدرته، وأما "كلماته الدينية" وهي كتبه المنزلة، وما فيها من أمره ونهيه فأطاعها الأبرار وعصاها الفجار، وأولياء الله المتقون هم المطيعون لكلماته الدينية، وجعله الديني، وإذنه الديني، وإرادته الدينية، وأما كلماته الكونية التي لا يجاوزها بر ولا فاجر؛ فإنه يدخل تحتها جميع الخلق حتى إبليس وجنوده، وجميع الكفار وسائر من يدخل النار، فالخلق وإن اجتمعوا في شمول الخلق والمشيئة والقدرة والقدر لهم، فقد افترقوا في الأمر والنهي والمحبة والرضا والغضب، وأولياء الله المتقون هم الذين فعلوا المأمور وتركوا المحظور وصبروا على المقدور فأحبهم وأحبوه ورضي عنهم ورضوا عنه، وأعداؤه أولياء الشياطين وإن كانوا تحت قدرته فهو يبغضهم ويغضب عليهم ويلعنهم ويعاديهم"[3].

ويجب على المسلم أن يفرق بين الحكم الكوني والحكم الشرعي حتى لا يقع في شبهة أو اضطراب في هذا الموضوع وممن أوضح ذلك ابن عثيمين رحمه الله حيث قرر كلام أهل العلم فقال: "قال العلماء: والحكم حكمان:

(١) حكم كوني (٢) وحكم شرعي

مثال الحكم الكوني: قوله ﷻ عن أحد إخوة يوسف: ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي ﴾[4] هذا حكم كوني، ليس حكما شرعيا: لأنه من حيث الحكم الشرعي قد حكم الله له، لكن من حيث الحكم الكوني، فهذا حكم يتعين أن يكون حكما كونيا.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره (٢٠٨٠/٤) الحديث رقم(٢٧٠٨).

(٢) أخرجه أحمد في المسند(٢٠٢/٢٤) الحديث رقم(١٥٤٦١)، وابن السني في عمل اليوم والليلة(٥٩٢/١) الحديث رقم(٦٣٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم(٢٩٩٥).

(٣) الفرقان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن ص(٥٢).

(٤) سورة يوسف الآية (٨٠).

مثال الحكم الشرعي قوله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾(١) هذا حكم شرعي، ولا يتضمن حكما كونيا.

ومثال الذي يشمل الكوني والشرعي: ﴿ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(٢)، ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾(٣) يشمل الحكم الكوني والشرعي.

إذن أحكام الله عز وجل كونية وشرعية.

فإذا قال قائل: نحن لا نشك بأن أحكام الله تعالى كونية وشرعية، فما الفرق بينهما؟ الفرق بينهما من وجهين:

أولا: الحكم الكوني واقع لا محالة وشامل لكل أحد.

الحكم الكوني يكون فيما يرضاه وما لا يرضاه.

قد يحكم الله عز وجل بأن يقع الكفر والشرك والزنا والفواحش لكنه لا يرضاها شرعا.

والحكم الشرعي قد يقع وقد لا يقع، بمعنى أنه قد ينفذ وقد لا ينفذ.

أما من حيث أن الله حكم به فهو واقع لا شك، لكن هل ينفذ أو لا ينفذ؟

إذا قضى الله عز وجل بأن هذا واجب على العباد فقد يفعلونه وقد لا يفعلونه، لكن إذا حكم كونا بأن هذا واجب على العباد واقع عليهم فلا بد أن يقع.

الثاني: أن الحكم الشرعي لا يكون إلا فيما يرضاه الله عز وجل، إما أن يرضى وجوده وإما أن يرضى عدمه.

الحكم الكوني والشرعي، قلنا: إن الحكيم بمعنى الحاكم وبمعنى المحكم.

كل أحكام الله سبحانه الكونية والشرعية كلها محكمة مبنية على الحكمة.

فما من حكم كوني حكم الله به إلا وهو مطابق للحكمة.

وما من حكم شرعي حكم الله به إلا وهو مطابق للحكمة"(٤).

---

(١) سورة المائدة الآية (٥٠).

(٢) سورة القصص الآية (٨٨).

(٣) سورة التين الآية (٨).

(٤) شرح العقيدة السفارينية(١/٣٦).

المطلب الثالث: الاحتجاج بالقدر

أوضح المراغي رحمه الله مسألة الاحتجاج بالقدر وما يقع فيه بعض الذين لم يفقهوا معنى الإيمان بالقضاء والقدر؛ فقال عنهم: "وكلما حلت بهم كارثة أو أصابتهم جائحة أحالوا الأمر فيها على القضاء والقدر، دون أن يتعرفوا أسبابها ويبادروا إلى علاجها، ويكونوا يدا واحدة على رفع ما يحل بهم من النكبات ويدهمهم من الويلات"(١).

وقال: "روى الترمذي وأبو يعلى وغيرهما عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: «لما نزلت﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾(٢) قلت: يا رسول الله فعلام نعمل؟ على شيء قد فرغ منه أو على شيء لم يفرغ منه؟ قال: «بل على شيء قد فرغ منه وجرت به الأقلام يا عمر، ولكن كل ميسر لما خلق له»(٣).

وروي عن علي كرم الله وجهه عن النبي ﷺ «**أنه كان في جنازة فأخذ عودا فجعل ينكت في الأرض فقال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» وقرأ:** ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾(٤)»(٥)"(٦).

وقال في التعليق على احتجاج المشركين بالقدر بعد قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾(٧) فقال: "أنهم طعنوا في إرسال الأنبياء جملة وقالوا إنا مجبورون على أعمالنا، فلا فائدة من إرسالهم، فلو شاء الله أن نؤمن به ولا نشرك به شيئا، ونحل ما أحله ولا

---

(١) تفسير المراغي(١/١٠٠).

(٢) سورة هود الآية (١٠٥).

(٣) أخرجه الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة هود (٥/٢٨٩) الحديث رقم(٣١١١) وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وابن أبي عاصم في السنة(١/٧٤) الحديث رقم(١٧٠)، وصححه الألباني في تعليقه على الترمذي.

(٤) سورة الليل الآية (٥-١٠).

(٥) سبق تخريجه ص(٦٥٣).

(٦) تفسير المراغي(٤/٣٥٦).

(٧) سورة النحل الآية (٣٥).

نحرم شيئا مما حرمنا لكان الأمر كما أراد، لكنه لم يشأ إلا ما نحن عليه، فما يقوله الرسل إنما هو من تلقاء أنفسهم لا من عند الله.

وقد رد الله عليهم مقالهم بأنه كلام قد سبق بمثله المكذبون من الأمم السالفة، وما على الرسل إلا التبليغ وليس عليهم الهداية، ولم يترك الله أمة دون أن يرسل إليها هاديا يأمر بعبادته، وينهاهم عن الضلال والشرك، فمنهم من استجاب دعوته، ومنهم من أضله الله على علم، فحقت عليهم كلمة ربك، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، ثم أمرهم بالضرب في الأرض ليروا آثار أولئك المكذبين الذين أخذوا بذنوبهم، ثم ذكر رسوله بأن الحرص على إيمانهم لا ينفعك شيئا، فإن الله لا يخلق الهداية جبرا وقسرا فيمن يختار الضلالة لنفسه، كما لا يجد أحدا يدفع عنه بأس الله ونقمته.

ثم ذكر في الإيضاح للآية فقال: "وقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ﴾[(١)] أي وقال الذين أشركوا بالله فعبدوا الأصنام والأوثان من دونه تعالى معتذرين عما هم عليه من الشرك محتجين بالقدر: ما نعبد هذه الأصنام إلا لأنه قد رضي عبادتنا لها، ولا حرمنا ما حرمنا من البحائر والسوائب والوصائل ونحو ذلك إلا لأنه قد رضي ذلك منا، ولو كان كارها لما فعلنا لهدانا إلى سواء السبيل، أو لعجل لنا العقوبة وما مكننا من عبادتها.

وقد رد الله عليهم شبهتهم بقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾[(٢)] أي ومثل ذلك الفعل الشنيع فعلَ الذين من قبلهم من الأمم، واستن هؤلاء سنتهم وسلكوا سبيلهم في تكذيب الرسول واتباع أفعال آبائهم الضلال، ثم بين خطأهم فيما يقولون ويفعلون فقال: ﴿ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾[(٣)] أي فهل على الرسل الذين أمروا بتبليغ رسالات ربهم من أمره ونهيه إلا إبلاغ الرسالة، وإيضاح طريق الحق، وإظهار أحكام الوحي التي منها أن مشيئته تعالى تتعلق بهداية من وجه همته إلى تحصيل الحق؛ كما قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[(٤)]، وليس

---

(١) سورة النحل الآية (٣٥).

(٢) سورة النحل الآية (٣٥).

(٣) سورة النحل الآية (٣٥).

(٤) سورة العنكبوت الآية (٦٩).

من وظيفتهم إلجاء الناس إلى الإيمان شاءوا أو أبوا، فإن ذلك ليس من شأنهم، ولا من الحكمة التي عليها مدار التكليف حتى يستدل بعدم ظهور آثارها على عدم حقية الرسل، أو على عدم تعلق مشيئة الله بذلك، وقصارى هذا: إن الثواب والعقاب لا بد فيهما من أمرين: تعلق مشيئته تعالى بوقوع أحدهما، وتوجيه همة العبد إلى تحصيل أسبابه وصرف اختياره إلى الدأب على إيجاده، وإلا كان كل من الثواب والعقاب اضطراريا لا اختياريا، والرسل ليس من شأنهم إلا تبليغ الأوامر والنواهي، أما العمل بها إلجاءً وقسرًا فليس من وظيفتهم لا في كثير ولا قليل.

ثم بين سبحانه أن بعثة الرسل أمر جرت به السنة الإلهية في الأمم كلِّها وجعلت سببا لهدي من أراد الله هدايته، وزيادة ضلال من أراد ضلاله كالغذاء الصالح ينفع المزاج السري ويقويه، ويضر المزاج المنحرف ويفنيه؛ فقال: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[1]: "أي ولقد أرسلنا في كل أمة سلفت قبلكم رسولا كما بعثنا فيكم رسولا، فقال لهم: اعبدوا الله وحده لا شريك له، واحذروا أن يغويكم الشيطان ويصدكم عن سبيل الله فتضلوا.

ونحو الآية قوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[2]، وقوله: ﴿ وَسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾[3].

وإجمال القول: إن المشيئة الشرعية للكفر منتفية، لأنه تعالى نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله، والمشيئة الكونية وهي تمكين عباده من الكفر وتقديره لهم بحسب اختيارهم وصرف همتهم إلى تحصيل أسبابه، لا حجة لهم فيها، لأنه تعالى خلق النار وجعل أهلها من الشياطين وأهل الكفر، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة ناصعة وحكمة بالغة.

ثم بين سبحانه أنه أنكر على عباده المكذبين كفرهم بإنزال العقوبة بهم في الدنيا بعد إنذار الرسل فقال: ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾[4]: "أي فممَّنْ بعثنا فيهم رسلنا من هداه الله، ووفقه لتصديقهم، وقبول إرشادهم، والعمل بما جاءوا به، ففازوا وأفلحوا

---

(١) سورة النحل الآية (٣٦).

(٢) سورة الأنبياء الآية (٢٥).

(٣) سورة الزخرف الآية (٤٥).

(٤) سورة النحل الآية (٣٦).

ونجوا من عذابه، ومنهم من جاروا عن قصد السبيل، فكفروا بالله وكذبوا رسله واتبعوا الطاغوت، فأهلكهم بعقابه، وأنزل بهم شديد بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين.

﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾(١) أي فسيروا في الأرض التي كان يسكنها القوم الظالمون، والبلاد التي كانوا يعمرونها كديار عاد وثمود ومن سار سيرتهم ممن حقت عليه الضلالة، وانظروا إلى آثار سخطنا عليهم، لعلكم تعتبرون بما حل بهم.

ثم خاطب سبحانه رسوله ﷺ مسليا له على ما يراه من جحود قومه وشديد إعراضهم ومبالغتهم في عنادهم، مع حدبه عليهم وعظيم رغبته في إيمانهم، ومبينا له أن الأمر بيد الله وليس له من الأمر شيء، فقال: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾(٢) أي إن تحرص أيها الرسول على هداية قومك لا ينفعهم حرصك إذا كان الله يريد إضلالهم بسوء اختيارهم وتوجيه عزائمهم، إلى عمل المعاصي والإشراك بربهم.

ونحو الآية قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾(٣)، وقوله حكاية عن مقالة نوح لقومه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ﴾(٤)، ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾(٥).

و مجمل القول: إن من اختار الضلالة ووجه همته إلى تحصيل أسبابها فالله سبحانه لا يخلق فيه الهداية قسرا وإلجاء، لأن مدار الإيمان والكفر الاختيار لا الإلجاء والاضطرار.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾(٦) أي وما لهم ناصر ينصرهم من الله إن أراد عقوبتهم كما قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾(٧)"(٨).

---

(١) سورة النحل الآية (٣٦).

(٢) سورة النحل الآية (٣٧).

(٣) سورة القصص الآية (٥٦).

(٤) سورة هود الآية (٣٤).

(٥) سورة الأعراف الآية (١٨٦).

(٦) سورة النحل الآية (٣٧).

(٧) سورة الأعراف الآية (٥٤).

(٨) تفسير المراغي(٥/٢٠٧-٢١٠).

وقال بعد قول الحق جل وعلا: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾(١).

قوله: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ ﴾ أي إن كل أمر يجري، فهو بحسب سننه تعالى في الخليقة، ووفق النظم التي وضعها، وربط فيها الأسباب بالمسببات.

والخلاصة: إن الحذر لا يدفع القدر، والتدبير لا يقاوم التقدير فالذين قدر عليهم القتل لا بد أن يقتلوا على كل حال، وإلا انقلب علم الله جهلًا، فقتل من قتل إنما جاء لانتهاء آجالهم كما قدر ذلك في اللوح المحفوظ، وكتب مع ذلك أنهم هم الغالبون، وأن العاقبة لهم، وأن دين الإسلام سيظهر على الدين كله.

ثم ذكر عند إيضاح قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(٢) فقال: "وعقيدة القضاء والقدر لا تجعل المسلم مجبورا على أفعاله التي تصدر منه، فإن القضاء تعلق العلم الإلهي بالشيء، والعلم انكشاف لا يفيد الإلزام، والقدر وقوع الشيء بحسب العلم، والعلم لا يكون إلا مطابقا للواقع وإلا كان جهلا، والله تعالى قد جعل للإنسان اختيارا في أعماله، لكنه خلقه مع ذلك ناقص القدرة والإرادة والعلم، فقد يعزم على العمل ثم تنفسخ عزيمته لتغير علمه بالمصلحة أو لعجزه عن تنفيذ ما عزم عليه، مع اعتقاده بأنه هو الموافق للمصلحة لمرض يلم به، أو مانع يحول بينه وبين تنفيذ ما عزم عليه، وإنا لنرى هذا يحدث كل يوم، فليس الإنسان بقادر على أن يفعل كل ما يشاء كما يخيل إلى الناس اغترارا بما ينفذونه من عزائمهم، فاختياره في أعماله وقدرته عليها ومعرفته الأسباب، كل ذلك

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٥٤).

(٢) سورة آل عمران الآية (١٥٦).

له حدود لا يتعداها، فهو لا يحيط علما بأسباب الموت، ولا يقدر على اجتناب كل ما يعلم من أسبابه، وما كل ما يتعرض له يقع، فالذين يعرضون أنفسهم لنار الحرب قد يسلم أكثرهم ويقتل أقلهم.

ومن هذا تعلم أن الشيء متى وقع علم أن وقوعه لم يكن منه بد، وأن الإنسان إذا كان يؤمن بمعونة الله وتأييده، وأنه يوفقه إلى علم ما يجهل من أسباب سعادته، يكون مع أخذه بالأسباب أنشط في العمل، وأبعد عن اليأس والكسل... فلا يكون لكم ميزة عنهم بالعقل الراجح الذي يهدي صاحبه إلى أن الذي وقع كان لا بد أن يقع، فلا يتحسر عليه، ولا بالإيمان الصادق الذي يزيد صاحبه إيقانا وتسليما بكل ما يجري به القضاء"[(١)].

فالمراغي رحمه الله في هذا الموضوع قرر مذهب السلف ومن ذلك ما ذكره ابن القيم رحمه الله في سياق رده على المحتجين بالقدر في كتابه شفاء العليل بعد كلام سابق، قال: "وتلخيص ما ذكره شيخنا رحمه الله أن للفعل وجهين، وجه قائم بالرب تعالى، وهو قضاؤه وقدره له، وعلمه به، والعبد له ملاحظتان: ملاحظة للوجه الأول، وملاحظة للوجه الثاني، والكمال أن لا يغيب بأحد الملاحظتين عن الأخرى، بل يشهد قضاء الرب وقدره ومشيئته، ويشهد مع ذلك فعله وجنايته، وطاعته ومعصيته، فيشهد الربوبية والعبودية، فيجتمع في قلبه معنى قوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾[(٢)]، مع قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[(٣)]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾[(٤)]، فمن الناس من يتسع قلبه لهذين الشهودين، ومنهم من يضيق قلبه عن اجتماعهما بقوة الوارد عليه، وضعف المحل فيغيب بشهود العبودية والكسب وجهة الطاعة والمعصية عن شهود الحكم القائم بالرب تعالى، من غير إنكار له فلا يظهر عليه إلا أثر الفعل وحكمه الشرعي، وهذا لا يضره إذا كان الإيمان بالحكم قائما في قلبه، ومنهم من يغيب بشهود الحكم وسبقه وأولية الرب تعالى، وسبقه للأشياء عن جهة عبوديته، وكسبه وطاعته ومعصيته، فيغيب بشهود الحكم عن المحكوم به فضلا عن صفته، فإذا لم يشهد له فعلًا

(١) تفسير المراغي(٢/٨٦- ٩٠).

(٢) سورة التكوير الآية (٢٨).

(٣) سورة التكوير الآية (٢٩).

(٤) سورة المدثر الآية (٥٤-٥٦).

فكيف يشهد كونه حسنا أو قبيحا، وهذا أيضا لا يضره إذا كان علمه بحسن الفعل وقبحه قائما في قلبه، وإنما توارى عنه لاستيلاء شهود الحكم على قلبه، وبالله التوفيق، فأين هذا من احتجاج أعداء الله بمشيئته وقدره على إبطال أمره ونهيه، وعباد هؤلاء الكفرة يشهدون أفعالهم كلها طاعات لموافقتها المشيئة السابقة، ولو أغضبهم غيرهم وقصر في حقوقهم لم يشهدوا فعله طاعة، مع أنه وافق فيه المشيئة فما احتج بالقدر على إبطال الأمر والنهي الآمن هو من أجهل الناس وأظلمهم وأتبعهم لهواه، وتأمل قوله سبحانه بعد حكايته عن أعدائه واحتجاجهم بمشيئته وقدره على إبطال ما أمرهم به رسوله، وأنه لولا محبته ورضاه به لما شاءه منهم: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾(١)، فأخبر سبحانه أن الحجة له عليهم برسله وكتبه، وبيان ما ينفعهم ويضرهم، وتمكنهم من الإيمان بمعرفة أوامره ونواهيه، وأعطاهم الأسماع والأبصار والعقول فثبتت حجته البالغة عليهم بذلك، واضمحلت حجتهم الباطلة عليه بمشيئته وقضائه، ثم قرر تمام الحجة بقوله: ﴿ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾(٢)، فإن هذا يتضمن أنه المتفرد بالربوبية والملك والتصرف في خلقه، وأنه لا رب غيره ولا إله سواه، فكيف يعبدون معه إلها غيره؟ فإثبات القدر والمشيئة من تمام حجته البالغة عليهم، وأن الأمر كله لله، وأن كل شيء ما خلا الله باطل، فالقضاء والقدر والمشيئة النافذة من أعظم أدلة التوحيد، فجعلها الظالمون الجاحدون حجة لهم على الشرك، فكانت حجة الله هي البالغة، وحجتهم هي الداحضة وبالله التوفيق، إذا عرفت هذا فموسى أعرف بالله وأسمائه وصفاته من أن يلوم على ذنب قد تاب منه فاعله، فاجتباه ربه بعده وهداه واصطفاه، وآدم أعرف بربه من أن يحتج بقضائه وقدره على معصيته، بل إنما لام موسى آدم على المعصية التي نالت الذرية، بخروجهم من الجنة ونزولهم إلى دار الابتلاء والمحنة بسبب خطيئة أبيهم، فذكر الخطيئة تنبيها على سبب المصيبة، المحنة التي نالت الذرية، ولهذا قال له: أخرجتنا ونفسك من الجنة، وفي لفظ: خيبتنا فاحتج آدم بالقدر على المصيبة، وقال: أن هذه المصيبة التي نالت الذرية بسبب خطيئتي كانت مكتوبة بقدره قبل خلقي، والقدر يحتج به في المصائب دون المعائب، أي أتلومني على مصيبة قدرت علي وعليكم قبل خلقي بكذا وكذا سنة، هذا جواب شيخنا رحمه الله، وقد يتوجه جواب آخر؛ وهو أن الاحتجاج بالقدر

(١) سورة الأنعام الآية (١٤٩).

(٢) سورة الأنعام الآية (١٤٩).

على الذنب ينفع في موضع ويضر في موضع، فينفع إذا احتج به بعد وقوعه والتوبة منه وترك معاودته كما فعل آدم، فيكون في ذكر القدر إذ ذاك من التوحيد ومعرفة أسماء الرب وصفاته، وذكرها ما ينتفع به الذاكر والسامع؛ لأنه لا يدفع بالقدر أمرًا ولا نهيًا، ولا يبطل به شريعة بل يخبر بالحق المحض على وجه التوحيد والبراءة من الحول والقوة، يوضحه أن آدم قال لموسى: أتلومني على أن عملت عملًا كان مكتوبا علي قبل أن أخلق، فإذا أذنب الرجل ذنبا ثم تاب منه توبة، وزال أمره حتى كأن لم يكن، فأنبه مؤنب عليه ولامه حسن منه أن يحتج بالقدر بعد ذلك، ويقول: هذا أمر كان قد قدر علي قبل أن أخلق؛ فإنه لم يدفع بالقدر حقا، ولا ذكره حجة له على باطل، ولا محذور في الاحتجاج به، وأما الموضع الذي يضر الاحتجاج به؛ ففي الحال والمستقبل، بأن يرتكب فعلا محرمًا، أو يترك واجبا فيلومه عليه لائم فيحتج بالقدر على إقامته عليه وإصراره، فيبطل بالاحتجاج به حقا، ويرتكب باطلا، كما احتج به المصرون على شركهم وعبادتهم غير الله؛ فقالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾[1]، ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾[2]، فاحتجوا به مصوبين لما هم عليه، وأنهم لم يندموا على فعله ولم يعزموا على تركه ولم يقروا بفساده، فهذا ضد احتجاج من تبين له خطأ نفسه، وندم وعزم كل العزم على أن لا يعود، فإذا لامه لائم بعد ذلك قال: كان ما كان بقدر الله، ونكتة المسألة أن اللوم إذا ارتفع صح الاحتجاج بالقدر، وإذا كان اللوم واقعا فالاحتجاج بالقدر باطل"[3].

ووضح الشيخ محمد ابن عثيمين رحمه الله مسألة الاحتجاج بالقدر على مخالفة الشرع في تقريب التدمرية فقال: "الاحتجاج بالقدر على مخالفة الشرع لا يصح، كما دل على ذلك الكتاب والسنة والنظر.

أما الكتاب: فمن أدلته قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾[4]، فأبطل الله حجتهم هذه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٤٨).

(٢) سورة الزخرف الآية (٢٠).

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل(١/١٧-١٨).

(٤) سورة الأنعام الآية (١٤٨).

بَأْسَنَا ﴾[١]، ومنها قوله: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾[٢]، فبين الله تعالى أن الحجة قامت على الناس بإرسال الرسل، ولا حجة لهم على الله بعد ذلك، ولو كان القدر حجة ما انتفت بإرسال الرسل.

وأما السنة: فمن أدلتها ما ثبت في الصحيحين عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة، قالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فييسر لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ:** ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾[٣]»[٤].

وأما النظر فمن أدلته:

١- أن تارك الواجب وفاعل المحرم يقدم على ذلك باختياره، لا يشعر أن أحدا أكرهه عليه، ولا يعلم أن ذلك مقدر؛ لأن القدر سر مكتوم فلا يعلم أحد أن شيئا ما قدره الله تعالى إلا بعد وقوعه، فكيف يصح أن يحتج بحجة لا يعلمها قبل إقدامه على ما اعتذر بها عنه؟! !

ولماذا لم يقدر أن الله تعالى كتبه من أهل السعادة، فيعمل بعملهم، دون أن يقدر أن الله كتبه من أهل الشقاوة، ويعمل بعملهم؟!

٢- أن إقحام النفس في مآثم ترك الواجب وفعل المحرم ظلم لها وعدوان عليها، كما قال الله تعالى عن المكذبين للرسل: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾[٥]، ولو أن أحدا ظلم المحتج بالقدر على مخالفته، ثم قال له: ظلمي إياك كان بقدر الله، لم يقبل منه هذه الحجة، فكيف لا يقبل هذه الحجة بظلم غيره له، ثم يحتج بها بظلمه هو لنفسه؟!

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٤٨).

(٢) سورة النساء الآية (١٦٥).

(٣) سورة الليل الآية (٥-١٠).

(٤) سبق تخريجه ص(٦٥٣).

(٥) سورة هود الآية (١٠١).

٣- أن هذا المحتج لو خير في السفر بين بلدين أحدهما: بلد آمن مطمئن فيه أنواع المآكل، والمشارب، والتنعم، والثاني: بلد خائف قلق، فيه أنواع البؤس، والشقاء، لاختار السفر إلى البلد الأول ولا يمكن أن يختار الثاني محتجا بالقدر، فلماذا يختار الأفضل في مقر الدنيا، ولا يختاره في مقر الآخرة؟!

فإن قال قائل: ما الجواب عن قوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ﴾[1] فأخبر أن شركهم واقع بمشيئة الله تعالى!.

قيل له: الجواب عنه: أن الله تعالى أخبر أن شركهم واقع بمشيئته تسلية لرسوله ﷺ لا دفاعا عنهم، وإقامة للعذر لهم، بخلاف احتجاج المشركين على شركهم بمشيئة الله، فإنما قصدوا به دفع اللوم عنهم وإقامة العذر على استمرارهم على الشرك؛ ولهذا أبطل الله احتجاجهم ولم يبطل أن شركهم واقع بمشيئته.

فإن قال قائل: ما الجواب عما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**احتج آدم وموسى -وفي لفظ: تحاج آدم وموسى- فقال موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا، وأخرجتنا من الجنة، فقال له آدم: أنت موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة، فحج آدم موسى، فحج آدم موسى ثلاثا**»[2]، وعند أحمد: «**فحجه آدم**»[3]، أي غلبه في الحجة؟.

قيل له: الجواب من وجهين:

أحدهما: أن احتجاج آدم بالقدر كان على المصيبة التي حصلت عليه، وهي إخراجه وزوجه من الجنة، فإن موسى عليه الصلاة والسلام لم يكن ليعتب على آدم في معصية تاب منها إلى الله تعالى فاجتباه ربه وتاب عليه وهدى، فإن هذا بعيد جدا أن يقع من موسى عليه

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٠٦-١٠٧).

(٢) سبق تخريجه ص(٤٠٣).

(٣) أخرجه أحمد في المسند(٧٥/١٣)، قال ابن حجر في الفتح(٥٠٩/١١): "وقد أخرجه أحمد من رواية الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة بلفظ: "فحجه آدم" وهذا يرفع الاشكال فإن رواته أئمة حفاظ، والزهري من كبار الفقهاء الحفاظ فروايته هي المعتمدة في ذلك".

الصلاة والسلام، وهو أجلُّ قدرًا من أن يلوم أباه ويعتب عليه في هذا، وإنما عنى بذلك المصيبة التي حصلت لآدم وبنيه، وهي الإخراج من الجنة الذي قدره الله عليه بسبب المعصية، فاحتج آدم على ذلك بالقدر من باب الاحتجاج بالقدر على المصائب، لا على المعايب فهو كقوله ﷺ: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء الله فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان**» رواه مسلم(١).

فقد أرشد النبي ﷺ إلى تفويض الأمر إلى قدر الله بعد فعل الأسباب التي يحصل بها المطلوب ثم يتخلف.

ونظير هذا أن يسافر شخص فيصاب بحادث في سفره فيقال له: لماذا تسافر؟ فيقول: هذا أمر مقدر والمقدر لا مفر منه، فإنه لا يحتج هنا بالقدر على السفر، لأنه يعلم أنه لا مكره له وأنه لم يسافر ليصيبه الحادث، وإنما يحتج بالقدر على المصيبة التي ارتبطت به، وهذا هو الوجه الذي اختاره الشيخ المؤلف في هذه العقيدة.

الوجه الثاني: أن الاحتجاج بالقدر على ترك الواجب، أو فعل المحرم بعد التوبة جائز مقبول، لأن الأثر المترتب على ذلك قد زال بالتوبة فانمحى به توجه اللوم على المخالفة، فلم يبق إلا محض القدر الذي احتج به لا ليستمر على ترك الواجب، أو فعل المحظور ولكن تفويضا إلى قدر الله تعالى الذي لابد من وقوعه"(٢).

---

(١) سبق تخريجه ص(٦٣٦).

(٢) تقريب التدمرية ص(٨٢).

المطلب الرابع: فعل الأسباب

النَّاس في فعل الأسباب طرفان ووسط، فالبعض أهمل فعل الأسباب والآخر اعتمد على الأسباب بالكلية، فهدى الله أهل الحق إلى الطريق الوسط فأعملوا الأسباب مع توكلهم على مسبب الأسباب، والمراغي رحمه الله في تفسيره ذكر الأسباب المشروعة والممنوعة، فقال عند قول الحق سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾(١) قال: "وقد عظمت فتنة متخذي الأنداد بهم، حتى كان حبهم إياهم من نوع حبهم لله، إذ أنهم لا يرجون منه شيئا إلا وقد جعلوا لأندادهم مثله، فهم يلتجئون إليهم عند الحاجة كما يلتجئون إلى الخالق سبحانه.

وليس من اتخاذ الأنداد طلب المسببات من أسبابها، وقد تخفى علينا أحيانا ويعمى علينا طريق معرفتها، فعلينا بإرشاد الدين والفطرة أن نلجأ إلى الله، لعله برحمته يلهمنا إلى طريقها، مع بذل الجهد والطاقة في العمل بما نستطيع من الأسباب، حتى لا يبقى في الإمكان شيء بعد ذلك.

فالدين يحظر علينا أن ننفر إلى الحرب والدفاع عن الأوطان ونحن عُزَّلٌ أو حاملُو سلاحٍ دون سلاح العَدُوِّ المعتدي اتكالًا على الله واعتمادا على أن النصر بيده، بل يأمرنا بإعداد العدة، ثم الاتكال بعد ذلك في الهجوم والإقدام على عناية الله، فمن قصر في اتخاذ الأسباب اعتمادًا على الله فهو جاهل بالله، كما أن من التجأ إلى ما ليس بسبب كإنسان مكرم أو ملك مقرب، أو ما دون ذلك كصنم أو تمثال فهو مشرك بالله ولا يرغب عن الأسباب إلى التعلق بالأنداد والشفعاء إلا من كان قليل الثقة بالسبب، أو طالبا ما هو أعجل منه، كالمريض يعالجه الأطباء فيتراءى لأحد أقاربه أن يلجأ إلى من يعتقد تأثيرهم في السلطة الغيبية طلبا للتعجيل بالشفاء"(٢).

---

(١) سورة البقرة الآية (١٦٥).

(٢) تفسير المراغي(١/٢٢٠).

وقال بعد قوله تعالى: ﴿ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾[(١)] أي فهو يغفر بفضله لمن يشاء أن يغفر له، ويعذب بعدله من يشاء أن يعذبه، والله إنما يشاء ما فيه الرحمة والعدل، ومن العدل أن يجازي المسيء بقدر إساءته، والمحسن على قدر إحسانه، ومن الفضل أن يضاعف جزاء الحسنة عشرة أضعافها أو يزيد، ولا يضاعف السيئة.

والذنب المغفور هو الذي يوفق الله صاحبه لعمل صالح يغلب أثره في النفس، وليس كما يزعم الجاهلون أن الأمور فوضى والكيل جزاف، فيقيمون على الذنوب ويصرون عليها ويمنون أنفسهم بالمغفرة؛ اقرأ قوله تعالى: في دعاء الملائكة للمؤمنين: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[(٢)]"[(٣)].

وقال بعد قوله جل وعلا: ﴿ فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾[(٤)]: "وما علمنا الله هذا الدعاء لتلوكه ألسنتنا وتتحرك به شفاهنا فحسب، بل لندعوه مخلصين له لاجئين إليه بعد استعمال ما يصل إليه كسبنا من الأسباب والوسائل التي هي طريق الاستجابة، فمن فعل ذلك فإن الله يستجيب دعاءه، ومن لم يعرف من الدعاء إلا حركة اللسان، مع مخالفة أحكام الشريعة، وتجافي السنن التي سنها الله، فهو بدعائه كالساخر من ربه، فهو لا يستحق منه إلا المقت والخذلان.

ونحن الآن قد أعرضنا عن هدايته، وتنكبنا سنته في خليقته، ثم طلبنا منه النصر بألسنتنا دون قلوبنا فلم يستجب لنا دعاء، وكنا نحن الجانين على أنفسنا، المستحقين لهذا الخذلان.

فإذا اتخذ المسلمون العدة وقاموا ببذل الوسع في استكمال الوسائل التي أرشد إليها المولى سبحانه، وساروا على السنن التي هدى إليها البشر، فإنه يستجيب دعوتهم وينصرهم على

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٨٤).

(٢) سورة غافر الآية (٧-٩).

(٣) تفسير المراغي(١/٤٤٠).

(٤) سورة البقرة الآية (٢٨٦).

أعدائهم، فقد ورد في الأثر: «إن هذه الأمة لا تغلب من قلة» وفقنا الله إلى العمل بسنته، والسير وفق شريعته، إنه نعم المولى ونعم النصير"[١].

وقال بعد قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[٢]: "يجب على العبد ألا يتوكل على الأسباب فقط، بل يقبل على مسبب الأسباب، إذ هو لا يعجز عن إجابة الدعوات فعليكم ألا تتوقعوا النصر إلا من رحمته، وإلا المعونة إلا من فضله وكرمه...

ثم ذكر الحكمة من الهزيمة يوم أحد فقال: "وحكمة ما حصل تمحيص المؤمنين... وتربيتهم بالفعل على إقامة سنن الله تعالى في ارتباط الأسباب بالمسببات، ومعرفة أن هذه السنن حاكمة حتى على الرسول، وأن قتل الرسول أو موته لا ينبغي أن يثبط الهمم، ولا يدعو إلى الانقلاب على الأعقاب، وأن كل ما يصيب العباد من مصايب فهو نتيجة عملهم، وعقوبة طبيعية على أفعالهم، إلى نحو ذلك من الأسرار"[٣].

وقال في توضيح قوله ﷻ: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٤]: "أي وكل ما أصابكم أيها المؤمنون يوم التقى جمعكم بجمع المشركين في أحد، فهو بإذن الله وإرادته وقضائه السابق بجعل المسببات نتائج لأسبابها، فكل عسكر يخطئ الرأي، ويعصي قائده، ويخلي بين العدو وبين ظهره، يصاب بمثل ما أصبتم به، أو بما هو أشد وأنكى منه"[٥].

وذكر في إيضاح قوله جل وعلا: ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[٦] فقال: "أي وما أدفع عنكم بتدبيري من قضاء الله شيئا، إذ لا يغني حذر من قدر، وهو لا يريد إلغاء الحذر

(١) تفسير المراغي(٤٤٦/١).
(٢) سورة آل عمران الآية (١٢٦).
(٣) تفسير المراغي(٤٨/٢- ٤٩).
(٤) سورة آل عمران الآية (١٦٦).
(٥) تفسير المراغي(١٠٥/٢).
(٦) سورة يوسف الآية (٦٧).

بتاتا، فإنه تعالى أمر به وقال: ﴿ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾[(١)] بل يريد أن هذا التدبير إنما هو تشبث بالأسباب العادية التي لا تؤثر إلا بإذن الله تعالى، وأن ذلك ليس بدافع للقدر بل هو استعانة بالله تعالى وهرب منه إليه.

﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ أي ما الحكم في تدبير العالم ونظم الأسباب والمسببات إلا لله وحده.

﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي عليه دون غيره، ودون حولي وقوتي اعتمدت في كل ما آتي وأذر.

وفي هذا إيماء إلى أن الأخذ في الأسباب ومراعاة اتباعها لا ينافي التوكل، وقد جاء في الخبر: «**اعقلها وتوكل**»[(٢)].

﴿ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ لا على أمثالهم من المخلوقين ولا على أنفسهم، فعلى كل مؤمن أن يتخذ لكل أمر يقدم على عمله العدة، ويهيئ من الأسباب ما يوصل إليه على قدر طاقته، ثم بعد ذلك يكل أمر النجاح فيه إلى الله ويطلب منه التوفيق والمعونة في إنجازه، فقد يكون من الأسباب ما يخفى عليه، أو ما لا تصل إليه يده...

ثم قال بعد قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[(٣)] أن الواجب الجمع بين أخذ العدة والسعي في تحقيق الأسباب الصحيحة الموصلة إلى المراد، وبين الاتكال على الله وهو ما فعله يعقوب عليه السلام، ولا يكفي تحقيق الأسباب وحدها للحصول عليه"[(٤)].

فالمراغي رحمه الله في موضوع الأسباب قرر قول أهل الحق الموافق للكتاب والسنة.

فهذا الإمام ابن القيم رحمه الله يقرر أن من جملة ما جاء النهي عنه في الشريعة التحسر بعد فوات الأوان والإخلال في فعل الأسباب؛ فقال: "ومن ذلك نهيه ﷺ عن قول القائل بعد فوات الأمر: لو أني فعلت كذا وكذا، وقال: «**إن لو تفتح عمل الشيطان**»، وأرشده إلى ما هو أنفع له من هذه الكلمة، وهو أن يقول: «**قدر الله وما شاء فعل**»[(٥)]، وذلك لأن قوله: لو كنت فعلت كذا وكذا، لم يفتني ما فاتني، أو لم أقع فيما وقعت فيه كلام لا يجدي عليه فائدة البتة، فإنه غير مستقبل لما استدبر من أمره وغير مستقيل عثرته ب "لو"، وفي ضمن "لو" ادعاء

(١) سورة النساء الآية (٧١).

(٢) سبق تخريجه ص(٣١٠).

(٣) سورة يوسف الآية (٦٨).

(٤) تفسير المراغي(٥/١٤- ١٥).

(٥) سبق تخريجه ص(٦٣٦).

أن الأمر لو كان كما قدره في نفسه لكان غير ما قضاه الله وقدره وشاءه، فإن ما وقع مما يتمنى خلافه إنما وقع بقضاء الله وقدره ومشيئته، فإذا قال: لو أني فعلت كذا، لكان خلاف ما وقع فهو محال؛ إذ خلاف المقدر المقضي محال، فقد تضمن كلامه كذبا وجهلًا ومحالًا، وإن سلم من التكذيب بالقدر لم يسلم من معارضته بقوله: لو أني فعلت كذا، لدفعت ما قدر الله علي، فإن قيل: ليس في هذا رد للقدر ولا جحد له؛ إذ تلك الأسباب التي تمناها أيضا من القدر فهو يقول: لو وقفت لهذا القدر لاندفع به عني ذلك القدر، فإن القدر يدفع بعضه ببعض كما يدفع قدر المرض بالدواء، وقدر الذنوب بالتوبة، وقدر العدو بالجهاد، فكلاهما من القدر، قيل: هذا حق، ولكن هذا ينفع قبل وقوع القدر المكروه، وأما إذا وقع فلا سبيل إلى دفعه، وإن كان له سبيل إلى دفعه أو تخفيفه بقدر آخر فهو أولى به من قوله: لو كنت فعلته، بل وظيفته في هذه الحالة أن يستقبل فعله الذي يدفع به أو يخفف أثر ما وقع، ولا يتمنى ما لا مطمع في وقوعه؛ فإنه عجز محض والله يلوم على العجز ويحب الكيس ويأمر به، والكيس هو مباشرة الأسباب التي ربط الله بها مسبباتها النافعة للعبد في معاشه ومعاده، فهذه تفتح عمل الخير، وأما العجز فإنه يفتح عمل الشيطان، فإنه إذا عجز عما ينفعه وصار إلى الأماني الباطلة بقوله: لو كان كذا وكذا، ولو فعلت كذا، يفتح عليه عمل الشيطان فإن بابه العجز والكسل، ولهذا استعاذ النبي ﷺ منهما، وهما مفتاح كل شر ويصدر عنهما الهم، والحزن والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال فمصدرها كلها عن العجز والكسل، وعنوانها "لو" فلذلك قال النبي ﷺ: فإن "لو" تفتح عمل الشيطان، فالمتمني من أعجز الناس وأفلسهم، فإن التمني رأس أموال المفاليس والعجز مفتاح كل شر، وأصل المعاصي كلِّها العجز؛ فإن العبد يعجز عن أسباب أعمال الطاعات، وعن الأسباب التي تبعده عن المعاصي، وتحول بينه وبينها، فيقع في المعاصي، فجمع هذا الحديث الشريف في استعاذته ﷺ أصول الشر وفروعه ومباديه وغاياته وموارده ومصادره، وهو مشتمل على ثماني خصال، كل خصلتين منها قرينتان، فقال: أعوذ بك من الهم والحزن، وهما قرينان، فإن المكروه الوارد يكون سببه أمرا ماضيا، فهو يحدث الحزن، وإما أن يكون توقع أمر مستقبل فهو يحدث الهم، وكلاهما من العجز، فإن ما مضى لا يدفع بالحزن بل بالرضى، والحمد والصبر والإيمان بالقدر، وقول العبد: قدر الله وما شاء فعل، وما يستقبل لا يدفع أيضا بالهم، بل إما أن يكون له حيلة في دفعه، فلا يعجز عنه، وإما أن لا تكون له حيلة في دفعه فلا يجزع منه، ويلبس له لباسه، ويأخذ له عدته، ويتأهب له أهبته اللائقة به، ويستجن

بجنة حصينة من التوحيد والتوكل والانطراح بين يدي الرب تعالى، والاستسلام له والرضى به ربًّا في كل شيء، ولا يرضى به ربًّا فيما يحب دون ما يكره فإذا كان هكذا، لم يرض به ربًّا على الإطلاق فلا يرضاه الربُّ له عبدًا على الإطلاق، فالهم والحزن لا ينفعان العبد البتة بل مضرتهما أكثر من منفعتهما، فإنهما يضعفان العزم ويوهنان القلب ويحولان بين العبد وبين الاجتهاد فيما ينفعه، ويقطعان عليه طريق السير أو ينكسانه إلى وراء، أو يعوقانه ويقفانه أو يحجبانه عن العلم الذي كلما رآه شمر إليه وجد في سيره، فهما حمل ثقيل على ظهر السائر، بل إن عاقه الهم والحزن عن شهواته وإراداته التي تضره في معاشه ومعاده انتفع به من هذا الوجه، وهذا من حكمة العزيز الحكيم أن سلط هذين الجندين على القلوب المعرضة عنه، الفارغة من محبته، أريد بها الخير كان حظها من سجن الجحيم في معادها، ولا تزال في هذا السجن حتى تتخلص إلى فضاء التوحيد والإقبال على الله والأنس به، وجعل محبته في محل دبيب خواطر القلب ووساوسه؛ بحيث يكون ذكره تعالى وحبه وخوفه ورجاؤه والفرح به والابتهاج بذكره هو المستولي على القلب، الغالب عليه الذي متى فقده فقد قوته الذي لا قوام له إلا به، ولا بقاء له بدونه ولا سبيل إلى خلاص القلب من هذه الآلام التي هي أعظم أمراضه وأفسدها له إلا بذلك، ولا بلاغ إلا بالله وحده فإنه لا يوصل إليه إلا هو، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يصرف السيئات إلا هو، ولا يدل عليه إلا هو، وإذا أراد عبده لأمر هيأه له، فمنه الإيجاد ومنه الإعدام ومنه الإمداد، وإذا أقامه في مقام أي مقام كان فبحمده أقامه فيه، وبحكمته أقامه فيه، ولا يليق به غيره، ولا يصلح له سواه، ولا مانع لما أعطى الله ولا معطي لما منع، ولا يمنع عبده حقا هو للعبد فيكون بمنعه ظالما له، بل إنما منعه ليتوسل إليه بمحابه ليعبده، وليتضرع إليه، ويتذلل بين يديه، ويتملقه ويعطي فقره إليه حقه؛ بحيث يشهد في كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة فاقة تامة إليه على تعاقب الأنفاس، وهذا هو الواقع في نفس الأمر، وإن لم يشهده العبد فلم يمنع الرب عبده ما العبد محتاج إليه بخلا منه، ولا نقصا من خزائنه، ولا استئثارا عليه بما هو حق للعبد، بل منعه ليرده إليه، وليعزه بالتذلل له، وليغنيه بالافتقار إليه، وليجبره بالانكسار بين يديه، وليذيقه بمرارة المنع حلاوة الخضوع له، ولذة الفقر إليه، وليلبسه خلعة العبودية، ويوليه بعزله أشرف الولايات، وليشهده حكمته في قدرته ورحمته في عزته وبره ولطفه في قهره، وأن منعه عطاء وعزله تولية، وعقوبته تأديب، وامتحانه محبة وعطية، وتسليط أعدائه عليه سائق يسوقه به إليه.

وبالجملة فلا يليق بالعبد غير ما أقيم فيه، وحكمته وحمده أقاماه في مقامه الذي لا يليق به سواه، ولا يحسن أن يتخطاه والله أعلم؛ حيث يجعل مواقع عطائه وفضله: و ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾(١)، ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾(٢)، فهو سبحانه أعلم بمواقع الفضل، ومحال التخصيص ومحال الحرمان فبحمده وحكمته أعطى، وبحمده وحكمته حرم، فمن رده المنع إلى الافتقار إليه والتذلل له وتملقه انقلب المنع في حقه عطاء، ومن شغله عطاؤه وقطعه عنه انقلب العطاء في حقه منعا، فكل ما شغل العبد عن الله فهو مشئوم عليه، وكل ما رده إليه فهو رحمة به، والرب تعالى يريد من عبده أن يفعل، ولا يقع الفعل حتى يريد سبحانه من نفسه أن يعينه، فهو سبحانه أراد منا الاستقامة دائما، واتخاذ السبيل إليه وأخبرنا أن هذا المراد لا يقع حتى يريد من نفسه إعانتنا عليها ومشيئته لنا، فهما إرادتان إرادة من عبده أن يفعل، وإرادة من نفسه أن يعينه، ولا سبيل له إلى الفعل إلا بهذه الإرادة، ولا يملك منها شيئا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾(٣)، فإن كان مع العبد روح أخرى، نسبتها إلى روحه كنسبة روحه إلى بدنه، يستدعي بها إرادة الله من نفسه أن يفعل به ما يكون به العبد فاعلا، وإلا فمحله غير قابل للعطاء، وليس معه إناء يوضع فيه العطاء فمن جاء بغير إناء رجع بالحرمان ولا يلومن إلا نفسه.

والمقصود أن النبي ﷺ استعاذ من الهم والحزن وهما قرينان، ومن العجز والكسل وهما قرينان، فإن تخلف كمال العبد وصلاحه عنه إما أن يكون لعدم قدرته عليه فهو عجز، أو يكون قادرا عليه لكن لا يريد فهو كسل، وينشأ عن هاتين الصفتين فوات كل خير وحصول كل شر، ومن ذلك الشر تعطيله عن النفع ببدنه وهو الجبن، وعن النفع بماله وهو البخل، ثم ينشأ له بذلك غلبتان، غلبة بحق وهي غلبة الدين، وغلبة بباطل وهي غلبة الرجال، وكل هذه المفاسد ثمرة العجز والكسل، ومن هذا قوله في الحديث الصحيح للرجل الذي قضى عليه فقال: حسبي الله ونعم الوكيل، فقال: «**إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس فإذا**

(١) سورة الأنعام الآية (١٢٤).

(٢) سورة الأنعام الآية (٥٣).

(٣) سورة التكوير الآية (٢٩).

غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل»[1]، فهذا قال: حسبي الله ونعم الوكيل بعد عجزه عن الكيس الذي لو قام به لقضي له على خصمه، فلو فعل الأسباب التي يكون بها كيسا، ثم غلب فقال: حسبي الله ونعم الوكيل لكانت الكلمة قد وقعت موقعها، كما أن إبراهيم الخليل، لما فعل الأسباب المأمور بها، ولم يعجز بتركها، ولا بترك شيء منها، ثم غلبه عدوه وألقوه في النار، قال في تلك الحال: حسبي الله ونعم الوكيل، فوقعت الكلمة موقعها، واستقرت في مظانها، فأثرت أثرها، وترتب عليها مقتضاها.

وكذلك رسول الله ﷺ وأصحابه يوم أحد لما قيل لهم بعد انصرافهم من أحد: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فتجهزوا وخرجوا للقاء عدوهم وأعطوهم الكيس من نفوسهم ثم قالوا: «حسبنا الله ونعم الوكيل»[2]، فأثرت الكلمة أثرها، واقتضت موجبها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾[3]، فجعل التوكل بعد التقوى الذي هو قيام الأسباب المأمور بها، فحينئذ إن توكل على الله فهو حسبه، وكما قال في موضع آخر: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾[4]، فالتوكل والحسب بدون قيام كان مشوبا بنوع من التوكل، فهو توكل عجز فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزا، ولا يجعل عجزه توكلا، بل يجعل توكله من جملة الأسباب المأمور بها التي لا يتم المقصود إلا بها كلها، ومن هاهنا غلط طائفتان من الناس؛ إحداهما: زعمت أن التوكل وحده سبب مستقل كاف في حصول المراد، فعطلت له الأسباب التي اقتضتها حكمة الله الموصلة إلى مسبباتها، فوقعوا في نوع تفريط وعجز بحسب ما عطلوا من الأسباب، وضعف توكلهم من حيث ظنوا قوته بانفراده عن الأسباب، فجمعوا الهم كله وصيروه هما واحدا، وهذا وإن كان فيه قوة من

---

(١) أخرجه احمد في المسند (٤٠٨/٣٩) الحديث رقم(٢٣٩٨٣)، وأبو داود في سننه، كتاب الأقضية، باب الرجل يحلق على حقه (٣١٣/٣) الحديث رقم(٣٦٢٧)، وضعفه ابن القطان في بيان الوهم والإيهام(١١٢/٥)، قال المناوي في التيسير بشرح الجامع الصغير(٥٦٠/١): "ضعيف للجهل بحال سيف الشامي"، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الضغير برقم(١٧٥٩).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم} (٣٩/٦) الحديث رقم(٤٥٦٣).

(٣) سورة الطلاق الآية (٢-٣).

(٤) سورة المائدة الآية (١١).

هذا الوجه ففيه ضعف من جهة أخرى، فكلما قوي جانب التوكل بإفراده أضعفه التفريط في السبب الذي هو محل التوكل، فإن التوكُّل محله الأسباب وكماله بالتوكل على الله فيها، وهذا كتوكل الحراث الذي شق الأرض وألقى فيها البذر، فتوكل على الله في زرعه وإنباته فهذا قد أعطى التوكل حقَّه ولم يضعف توكله بتعطيل الأرض وتخليتها بورا، وكذلك توكل المسافر في قطع المسافة مع جده في السير، وتوكل الأكياس من النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه مع اجتهادهم في طاعته، فهذا هو التوكل الذي يترتب عليه أثره ويكون الله حسب من قام به، وأما توكل العجز والتفريط فلا يترتب عليه أثره، وليس الله حسب صاحبه، فإن الله إنما يكون حسب المتوكل عليه إذا اتقاه، وتقواه فعل الأسباب المأمور بها، لا إضاعتها.

والطائفة الثانية التي قامت بالأسباب ورأت ارتباط المسببات بها شرعا وقدرا، وأعرضت عن جانب التوكل، وهذه الطائفة وإن نالت بما فعلته من الأسباب ما نالته فليس لها قوة أصحاب التوكل ولا عون الله لهم وكفايته إياهم ودفاعه عنهم، بل هي مخذولة عاجزة بحسب ما فاتها من التوكل، فالقوة كل القوة في التوكل على الله كما قال بعض السلف: «**من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله**»[1]، فالقوة مضمونة للمتوكل والكفاية والحسب والدفع عنه، وإنما ينقص عليه من ذلك بقدر ما ينقص من التقوى والتوكل وإلَّا فمع تحقُّقهما، لابُدَّ أن يجعل الله له مخرجا من كل ما ضاق على الناس، ويكون الله حسبه وكافيه.

والمقصود أن النبي ﷺ أرشد العبد إلى ما فيه غاية كماله ونيل مطلوبه؛ أن يحرص على ما ينفعه ويبذل فيه جهده، وحينئذ ينفعه التحسب، وقول: حسبي الله ونعم الوكيل بخلاف من عجز وفرَّط حتى فاتته مصلحته، ثم قال: حسبي الله ونعم الوكيل؛ فإن الله يلومه ولا يكون في هذا الحال حسْبَه، فإنما هو حسب من اتقاه وتوكل عليه"[2].

وأما ترك فعل الأسباب بحجة أن الأمور سبق بها القضاء والقدر فهذا مخالف للشرع وللعقل، وقد رد أهل العلم على من احتج بذلك، قال ابن عثيمين رحمه الله: "حكم ترك الأسباب والعمل سفه؛ لأن الله ﷻ يقدر الأشياء بأسبابها، فلحكمته جل وعلا صار لكل شيء سبب،

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد عن ابن عباس مرفوعا ص(٢٩٥)، وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة برقم(٤٦٠٢): ضعيف جدا.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد(٢/٣٢٥).

كل شيء يكون فإنه لابد له من سبب، إما معلوم لنا وإما مجهول لنا، وقد بين الله لنا أسباب السعادة وأسباب الشقاوة، وأمرنا بأن نعمل في أسباب السعادة، فقال جل وعلا: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾[(١)]، ولما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أصحابه «**أنه ما من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار، قالوا: أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب، فقال: اعملوا فكل ميسر له لما خلق له، ثم قرأ هذه الآية:** ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾[(٢)]»[(٣)]، فهذا ما دل عليه الشرع أنه لابد من الأخذ بالأسباب، وكذلك دل عليه العقل؛ فإن الإنسان لو قال: أنا لا أتزوج ولكن إن كان الله قد كتب لي أولادا فسيأتون؛ لعده الناس من أسفه السفهاء، وكذلك لو قال: لن أسعى لطلب الرزق ولو قدر الله سبحانه وتعالى لي أن أشبع وأن أروى لعد ذلك من أسف السفه، فلابد من فعل الأسباب، ولا يتم التوكل ولا الاعتماد إلا بامتثال أمر الله عز وجل لفعل الأسباب النافعة التي تؤدي إلى المقصود"[(٤)].

وقال في موضع آخر: "اعلم أن الإيمان بالقدر لا ينافي فعل الأسباب، بل إن فعل الأسباب مما أمر به الشرع، وهو حاصل بالقدر؛ لأن الأسباب تنتج عنها مسبباتها، ولهذا لما توجه أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه إلى الشام علم في أثناء الطريق أنه قد وقع فيها الطاعون، فاستشار الصحابة رضي الله عنهم هل يستمر ويمضي في سيره أو يرجع إلى المدينة؟ فاختلف الناس عليه، ثم استقر رأيهم على أن يرجع إلى المدينة، ولما عزم على ذلك جاءه أبو عبيدة عامر بن الجراح، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجله ويقدره؛ فقال: يا أمير المؤمنين "كيف ترجع إلى المدينة أفرارا من قدر الله"؟ فقال عمر رضي الله عنه: "نفر من قدر الله إلى قدر الله" وبعد ذلك جاء عبد الرحمن بن عوف" رضي الله عنه وكان غائبا في حاجة له فحدثهم أن النبي ﷺ قال عن الطاعون: «**إذا سمعتم به في أرض فلا تقدموا عليها**»[(٥)].

(١) سورة الليل الآية (٤-١٠).
(٢) سورة الليل الآية (٤-١٠).
(٣) سبق تخريجه ص(٦٥٣).
(٤) فتاوى نور على الدرب لابن عثيمين(١٣١/٣).
(٥) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون (١٣٠/٧) الحديث رقم(٥٧٢٨)، ومسلم، كتاب

والحاصل أن في قول عمر رضي الله عنه: "نفر من قدر الله إلى قدر الله" دليلا على أن اتخاذ الأسباب من قدر الله عز وجل ونحن نعلم أن الرجل لو قال: أنا مؤمن بقدر الله وسيرزقني الله ولدا بدون زوجة، لو قال هذا لَعُدَّ من المجانين، كما أنه لو قال: أنا أومن بقدر الله ولن أسعى في طلب الرزق، ولم يتخذ أي سبب للرزق لعد ذلك من السفه، فالإيمان بالقدر إذًا لا ينافي الأسباب الشرعية أو الحسية الصحيحة، أما الأسباب الوهمية التي يدَّعي أصحابها أنها أسباب وليست كذلك، فهذه لا عبرة بها ولا يلتفت إليها"[1].

السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها (١٧٣٧/٤) الحديث رقم(٢٢١٨).

(١) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين(٨٤/٢).

المطلب الخامس: الإيمان بالغيب

قال المراغي رحمه الله في موضوع الغيب: "والغيب ما غاب عنهم علمه كذات الله وملائكته والدار الآخرة وما فيها من البعث والنشور والحساب.

والإيمان بالغيب هو اعتقاد بموجود وراء المحسات، متى أرشد إليه الدليل أو الوجدان السليم، ومن يعتقد بهذا يسهل عليه التصديق بوجود خالق للسموات والأرض، منزه عن المادة وتوابعها[(١)]، وإذا وصف له الرسول العوالم التي استأثر الله بعلمها كعالم الملائكة، أو وصف له اليوم الآخر لم يصعب عليه التصديق به بعد أن يستيقن صدق النبي الذي جاء به، أما من لا يعرف إلا ما يدركه الحس فإنه يصعب إقناعه، وقلما تجد الدعوة إلى الحق من نفسه سبيلا"[(٢)].

وقال: "والغيب: ما غيب علمه عن الناس بعدم تمكينهم من أسباب العلم به، وهو قسمان:

(١) غيب حقيقي: وهو ما غاب عن جميع الخلق حتى الملائكة، وهو المعني بقوله عز اسمه: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[(٣)].

(٢) غيب إضافي: وهو ما غاب علمه عن بعض المخلوقين دون بعض ،كالذي يعلمه الملائكة من أمر عالمهم وغيره ولا يعلمه البشر.

أما ما يعلمه بعض البشر بتمكينهم من أسبابه واستعمالهم لها، ولا يعلمه غيرهم لجهلهم بتلك الأسباب أو عجزهم عن استعمالها فليس بداخل في عموم الغيب الوارد في كتاب الله.

وهذه الأسباب ضروب:

(١) ما هو علمي كالدلائل العقلية والعلمية، فعلماء الرياضة يستخرجون من دقائق المجهولات ما يعجز عنه أكثر الناس، ويضبطون ما يقع من الخسوف والكسوف بالدقائق والثواني قبل وقوعه بألوف الأعوام.

(٢) ما هو عملي كالبرق الأثيري (التلغراف اللاسلكي) الذي يعلم به المرء ما يقع في أقاصي البلاد من وراء البحار، وبينه وبينها ألوف الأميال.

---

(١) هذا من الكلام المجمل وسبق توضيحه في المبحث الثالث من الباب الأول.

(٢) تفسير المراغي(١/٤٣).

(٣) سورة النمل الآية (٦٥).

(٣) ما هو إدراكات نفسية خفية تصل إلى مرتبة العلم كالفراسة والإلهام، وأكثر هذا النوع هواجس تلوح للنفس ولا يجزم بها الإنسان إلا بعد وقوعها...

وقوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ ﴾[(١)]... فإن قال قائل: إن الله أثبت علم الغيب المتعلق بالرسالة للرسل عليهم السلام كقوله في سورة الجن: ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ ﴾[(٢)] فكيف أمره هنا أن يتنصل من ادعاء علم الغيب؟.

وجوابه: أن إظهار شيء خاص من عالم الغيب على يدي الرسل لا يجعل ذلك داخلا في علومهم الكسبية، فإن الوحي ضرب من العلم الضروري يجده النبي في نفسه حينما يظهره الله عليه، فإذا حبس عنه لم يكن له قدرة ولا وسيلة كسبية للوصول إليه، يؤيد ذلك ما جاء في فترات الوحي في السيرة النبوية، وقد يكون توجه قلب الرسول إلى الله تعالى في بعض الحوادث مقدمة لنزول الوحي في الحكم الذي طلب من ربه بيانه، يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَا ﴾[(٣)].

والخلاصة: إن الأنبياء لم يعطوا علم الغيب بحيث يكون إدراكه من علومهم المكتسبة، كذلك لم يعطوا التصرف في خزائن ملك الله، فلم يمكنهم ما لم يمكن البشر من أسبابه حتى يكون من كسبهم وعملهم، ولا هو أعطاهم ذلك على سبيل الخصوصية.

ونفي ادعاء الرسول من الأمرين يتضمن التبرؤ من ادعاء الألوهية أو ادعاء شيء من صفات الإله القادر على كل شيء، العليم بكل شيء، ويتضمن جهل المشركين حقيقة الألوهية وحقيقة الرسالة، فقد اقترحوا عليه من الأعمال ما لا يقدر عليه إلا من له التصرف فيما وراء الأسباب، وطلبوا منه الإخبار بما يكون في الزمان المستقبل ولا يعلمه إلا من كان علم الغيب صفة له كسائر الصفات، فقد سألوه عن وقت الساعة، وعن وقت نزول العذاب بهم، وعن وقت نصر الله تعالى له عليهم.

---

(١) سورة الأنعام الآية (٥٠).

(٢) سورة الجن الآية (٢٦-٢٧).

(٣) سورة البقرة الآية (١٤٤).

وإذا علمت أن الأنبياء لم يؤتوا ذلك فأحر بمن دونهم منزلة عند الله من القديسين والأولياء المقربين ألَّا يكون لهم ذلك، فادعاؤه لهم جهل عظيم وإثم كبير، ولا ينبغي التحدث به لا بين العامة ولا بين الخاصة، كما يجب محوه من الأذهان لدى الجاهلين بسنن الله في الأكوان"[١].

وذكر رحمه الله في موضوع الغيب؛ فقال: "روى البخاري عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «**مفاتيح الغيب خمس:** ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾[٢]»[٣]. ثم قال: "وما حكاه الله عن عيسى عليه السلام من قوله: ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ ﴾[٤]، وما قاله يوسف عليه السلام لصاحبي السجن: ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا ﴾[٥] داخل فيما يظهر الله عليه رسله من علم الغيب كما قال في سورة الجن: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾[٦].

ثم قال: والخلاصة: إن عنده علم ما غاب عنكم مما لا تعلمونه ولن تعلموه مما استأثر بعلمه وعنده علم ما يعلمه جميعكم لا يخفي عليه شيء منه، فعنده علم ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة[٧].

وقال: "و أنباء الغيب ضربان:

(ا) أنباء الغيب الماضية، وتشمل قصص الرسل مع أقوامهم، وأخبار التكوين كخلق السموات والأرض وما بينهما كخلق الإنسان والجان.

---

(١) تفسير المراغي(٣/١٠٦ – ١٠٩).

(٢) سورة لقمان الآية (٣٤).

(٣) سبق تخريجه ص(٥٧٦).

(٤) سورة آل عمران الآية (٤٩).

(٥) سورة يوسف الآية (٣٧).

(٦) سورة الجن الآية (٢٦-٢٧).

(٧) تفسير المراغي(٣/١١٩- ١٢٠).

(ب) أنباء الغيب الآتية، وتشمل وعد الله بنصره لرسله والمؤمنين، وجعل العاقبة لهم واستخلافهم في الأرض، وخذلان أعدائهم الكافرين، والقيامة والبعث والحساب والجزاء على العقائد والأعمال، وقد كانوا ينكرون ذلك ويستبعدونه"[١].

المراغي رحمه الله في هذا الموضوع عرَّف بعض أنواع الغيب، ووضح بعض المسائل التي قد تسبب بعض الإشكال، ولكن نزيد الموضوع إيضاحا في إيراد كلام السابقين من أهل الفضل والسبق في هذا الموضوع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وأصل الإيمان هو الإيمان بالغيب كما قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾[٢] والغيب الذي يؤمن به ما أخبرت به الرسل من الأمور العامة، ويدخل في ذلك الإيمان بالله وأسمائه وصفاته، وملائكته، والجنة والنار، فالإيمان بالله وبرسله وباليوم الآخر يتضمن الإيمان بالغيب؛ فإن وصف الرسالة هو من الغيب، وتفصيل ذلك هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، كما ذكر الله تعالى ذلك في قوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[٣]، وقال: ﴿ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾[٤]"[٥].

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسيره بعد قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾[٦]: "وأما الغيب المراد ههنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه، وكلها صحيحة ترجع إلى أن الجميع مراد، قال أبو جعفر الرازي: عن الربيع بن أنس عن أبي العالية[٧] قوله

---

(١) – تفسير المراغي(٤/٢٩٨).

(٢) سورة البقرة الآية (١-٣).

(٣) سورة البقرة الآية (١٧٧).

(٤) سورة النساء الآية (١٣٦).

(٥) الفتاوى (١٣/٢٣٢).

(٦) سورة البقرة الآية (٢).

(٧) أبو العالية: رفيع بن مهران، الإمام المقرئ الحافظ المفسر، أبو العالية الرياحي البصري، أحد الاعلام. أدرك زمان النبي صلى الله عليه وسلم وهو شاب، وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق، ودخل عليه. قال أبو خلدة: مات أبو العالية في شوال سنة تسعين. وقال البخاري وغيره: مات سنة ثلاث وتسعين. سير اعلام النبلاء(٤/٢٠٧).

تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾[(١)] قال: ويؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وجنته وناره، ولقائه، ويؤمنون بالحياة بعد الموت، وبالبعث، فهذا غيب كله[(٢)]...

وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: «أما الغيب فما غاب عن العباد من أمر الجنة وأمر النار وما ذكر في القرآن»[(٣)]....

وعن ابن عباس: «بالغيب، قال بما جاء منه -يعني من الله تعالى-»[(٤)] ...

وقال زيد بن أسلم[(٥)]: «الذين يؤمنون بالغيب، قال: بالقدر»[(٦)].

فكل هذه متقاربة في معنى واحد؛ لأن جميع المذكورات من الغيب الذي يجب الإيمان به"[(٧)].

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله في الغيب بعد قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[(٨)]: "حقيقة الإيمان: هو التصديق التام بما أخبرت به الرسل، المتضمن لانقياد الجوارح، وليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحس، فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر، إنما الشأن في الإيمان بالغيب، الذي لم نره ولم نشاهده، وإنما نؤمن به، لخبر الله وخبر رسوله، فهذا الإيمان الذي يميز به المسلم من الكافر، لأنه تصديق مجرد لله ورسله، فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله، سواء شاهده، أو لم يشاهده، وسواء فهمه وعقله، أو لم يهتد إليه عقله وفهمه، بخلاف الزنادقة والمكذبين بالأمور الغيبية، لأن عقولهم القاصرة المقصرة لم تهتد إليها فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ففسدت عقولهم، ومرجت أحلامهم، وزكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدى الله.

---

(١) سورة البقرة الآية (٣).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره(١/١٨).

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره(١/٢٣٦).

(٤) المصد السابق(١/٢٣٦).

(٥) زيد بن أسلم الإمام الحجة القدوة أبو عبد الله العدوي العمري المدني الفقيه، له تفسير رواه عنه ابنه عبدالرحمن، وكان من العلماء العاملين، أرخ ابنه وفاته في ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومئة. سير أعلام النبلاء(٥/٣١٦).

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره(١/١٩).

(٧) تفسير ابن كثير(١/٥٦) بتصرف.

(٨) سورة البقرة الآية (٣).

ويدخل في الإيمان بالغيب، الإيمان بجميع ما أخبر الله به من الغيوب الماضية والمستقبلة، وأحوال الآخرة، وحقائق أوصاف الله وكيفيتها، وما أخبرت به الرسل من ذلك فيؤمنون بصفات الله ووجودها، ويتيقنونها، وإن لم يفهموا كيفيتها"[(١)].

(١) تفسير السعدي ص(٤٠).

الباب الثالث

وتحته فصلان:

الفصل الأول: آراء المراغي الاعتقادية في الصحابة.

الفصل الثاني: آراء المراغي الاعتقادية في مسائل الأسماء والأحكام.

الفصل الأول: آراء المراغي الاعتقادية في الصحابة

وفيه تمهيد ومبحثان:

التمهيد: في تعريف الصحابة.

المبحث الأول: موقف المراغي فيما شجر بين الصحابة.

المبحث الثاني: في ذكر فضائل الصحابة.

التمهيد: في تعريف الصحابة

تعريف الصحابة لغة واصطلاحا:

أما لغة: فالصحابة: جمع صحابي، وهو في اللغة: مشتق من الصحبة، والصحبة مصدر صحب فهو صاحب(١).

قال ابن فارس: "الصاد والحاء والباء أصل واحد يدل على مقارنة الشيء ومقاربته، ومن ذلك الصاحب، والجمع صحب"(٢).

أما تعريفه اصطلاحا:

فللعلماء في تعريف الصحابي أقوال.

١- روي عن أبي عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله أنه "ذكر من أصحاب رسول الله ﷺ أهل بدر، فقال: ثم أفضل الناس بعد هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ، القرن الذي بعث فيهم، كل من صحبه سنة أو شهرا أو يوما أو ساعة أو رآه، فهو من أصحابه، له من الصحبة على قدر ما صحبه، وكانت سابقته معه وسمع منه ونظر إليه"(٣).

٢- قال البخاري رحمه الله في صحيحه: "باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، ومن صحب النبي ﷺ أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه"(٤).

٣- الذي اختاره الحافظ ابن حجر رحمه الله في شرح النخبة هو أن الصحابي: "من لقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم مؤمنا به ومات على إسلامه"(٥).

---

(١) انظر: تهذيب اللغة مادة صحب(١٩٧٨/٢)، والصحاح، مادة صحب (١٦١/١)، ولسان العرب، مادة صحب (٥١٩/١).

(٢) مقاييس اللغة، مادة صحب (٥٨٧).

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للّالكائي(١٨٠/١).

(٤) صحيح البخاري(١٧٩/٩).

(٥) نخبة الفكر شرح نزهة النظر ص(٥٥).

المبحث الأول: موقف المراغي في ما شجر بين الصحابة.

قال المراغي رحمه الله بعد قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً ﴾[(١)]: "الفتنة: البلاء والاختبار، أي اتقوا وقوع الفتن التي لا تختص إصابتها بمن يباشرها وحده، بل تعمه وغيره كالفتن القومية التي تقع بين الأمم في التنازع على المصالح العامة من الملك والسيادة أو التفرق في الدين والشريعة، والانقسام إلى الأحزاب الدينية والأحزاب السياسية، ونحو ذلك من ظهور البدع والتكاسل في الجهاد، وإقرار المنكر الذي يقع بين أظهرهم، والمداهنة في الأمر بالمعروف، ونحو ذلك من الذنوب التي جرت سنة الله بأن تعاقب عليها الأمم في الدنيا قبل الآخرة، أخرج ابن جرير عن: الزبير بن العوام: «لقد خوفنا بهذه الآية، ونحن مع رسول الله ﷺ وما ظننا أننا خصصنا بها»[(٢)].

وأخرج ابن جرير وابن المنذر في الآية قال: «نزلت في علي وعثمان وطلحة والزبير»[(٣)].

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة[(٤)] قال: «علم والله ذوو الألباب من أصحاب محمد حين نزلت هذه الآية أن سيكون فتن»[(٥)].

وروي عن ابن عباس قال: «أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب»[(٦)].

وقال عدي بن عميرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم، وهم قادرون على أن ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة**»[(٧)].

---

(١) سورة الأنفال الآية (٢٥).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره(١٣/٤٧٥).

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره(١٣/٥٧٤).

(٤) قتادة بن دعامة السدوسي من أهل البصرة كنيته أبو الخطاب وكان أعمى، وكان من علماء الناس بالقرآن والفقه، وكان من حفاظ أهل زمانه، مات سنة سبع عشرة ومائة وهو ابن ست وخمسين سنة وكان مدلسا، انظر: الثقات لابن حبان(٥/٣٢١).

(٥) انظر: الدر المنثور(٤/٤٦).

(٦) أخرجه ابن جرير في تفسيره(١٣/٤٧٤).

(٧) أخرجه أحمد في المسند(٢٩/٢٥٨) الحديث رقم(١٧٧٢٠)، وحسنه ابن حجر في الفتح(١٣/٤).

وروى أحمد عن مطرف قال: «قلنا للزبير: يا أبا عبد الله ضيعتم الخليفة (عثمان) حتى قتل ثم جئتم تطلبون بدمه فقال: إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً ﴾[١]، ولم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت فينا حيث وقعت»[٢].

وعلى الجملة ففتنة عثمان كانت أول الفتن التي اختلفت فيها الآراء، فاختلفت أعمال أهل الحل والعقد، وخلا الجوُّ للمفسدين من زنادقة اليهود والمجوس[٣] وغيرهم، ثم أعقبتها فتنة الجمل[٤] بصفين[٥]، ثم فتنة ابن الزبير مع بني أمية، ثم قتل الحسين بكربلاء[٦]، إلى نحو ذلك من الفتن التي كان لها آثارها في الإسلام، ولو تداركوها كما تدارك أبو بكر رضي الله عنه أهل الردة لما كانت فتنة تبعتها فتن كثيرة، أكبرها فتن الخلافة والملك، وفتن الآراء والمذاهب الدينية والسياسية"[٧].

---

(١) سورة الأنفال الآية (٢٥).

(٢) أخرجه أحمد في المسند(٣١/٣) الحديث رقم(١٤١٤)، وقال الهيثمي في المجمع(٣٩١/٦): رواه أحمد بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح، وقال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على المسند: إسناده صحيح، وجود إسناده الأرناؤوط في تعليقه على المسند.

(٣) المجوس هم قوم يدينون بالمجوسية وهي إحدى النحل الوثنية القديمة، يقولون بخالقين: خالق الخير وهو النور، وخالق الشر وهو الظلمة وكانوا يعبدون النار. انظر: الملل والنحل للشهرستاني(٢٣٣/١)، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص(١٣٤)، والتبصير في الدين ص(١٢٦).

(٤) وقعة الجمل: هي التي جرت بين علي بن أبي طالب – وعائشة أم المؤمنين رضي الله عن الجميع ومن قام معها، وكانت سنة (٣٦ هـ)، وانتهت بانتصار علي وجيشه. انظر: تاريخ ابن جرير الطبري(٣٩/٣)، والبداية والنهاية لابن كثير(٢٣٠/٧).

(٥) صِفَّين: بكسرتين وتشديد الفاء، موضع بقرب الرقة على شاطىء الفرات من الجانب الغربِي بين الرَقة وبالس، وكانت وقعة صِفِّين بين علي ومعاوية رضي الله عنهما في سنة ٣٧ في غرة صفر. انظر: معجم البلدان(٤١٤/٣).

(٦) كربلاء بالمد وهو الموضع الذي قتل فيه الحسين بن علي رضي الله عنه في طرف البرية عند الكوفة، معجم البلدان(٤٤٥/٤).

(٧) تفسير المراغي(٥٠٣/٣).

وقــال عنــد قولــه تعــالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[١]: "أي وأخرجنا ما في صدور هؤلاء المتقين الذين ذكرت صفتهم، من الحقد والضغينة من بعضهم لبعض...

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن علي كرم الله وجهه أنه قال لابن طلحة: «إني لأرجو أن أكــون أنــا وأبــوك مــن الــذين قــال الله تعــالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[٢] فقال رجل من همدان: إن الله سبحانه أعدل من ذلك، فصاح على صيحة تداعى لها القصر، وقال: فمن إذا إن لم نكن نحن أولئك»[٣]"[٤].

وساق هذه الرواية فقال: "عن قتادة أن عليا كرم الله وجهه قال: «إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[٥]»[٦]"[٧].

وذكر عند قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٨] فقال: "«جاء رجلان في فتنة ابن الزبير إلى عبد الله بن عمر فقالا: إن الناس قد صنعوا ما ترى، وأنت ابن عمر بن الخطاب وأنت صاحب رسول الله ﷺ، فما يمنعك أن تخرج؟ قال: يمنعني أن الله حرم عليَّ دم أخي المسلم، قالا: ولم يقل الله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ۚ﴾[٩] قال: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله»[١٠]"[١].

---

(١) سورة الحجر الآية (٤٧).

(٢) سورة الحجر الآية (٤٧).

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره(١٧/١٠٨).

(٤) تفسير المراغي(٥/١٦٣).

(٥) سورة الحجر الآية (٤٧).

(٦) أخرجه ابن جرير في تفسيره(١٧/١٠٨).

(٧) تفسير المراغي(٣/٣٠٣).

(٨) سورة الأنفال الآية (٣٩).

(٩) سورة الأنفال الآية (٣٩).

(١٠) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله {وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة....} (٦/٢٦) الحديث

المراغي رحمه الله في هذا الموضوع الذي تطرق فيه لما وقع فيه بعض الصحابة من خلاف مثل وقعة الجمل وصفين، وكذلك ما وقع لعبد الله بن الزبير رضي الله عن الجميع، وذكر في ذلك الروايات الواردة في كتب أهل السنة، وزيادة في إيضاح هذه المسألة نورد أقوال أهل السنة والجماعة فيما شجر بين الصحابة.

١- ذكر شيخ الإسلام أبو عثمان إسماعيل الصابوني رحمه الله في كتابه عقيدة السلف أصحاب الحديث حيث قال: "ويرون الكف عما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ، وتطهير الألسنة عن ذكر ما يتضمن عيبًا لهم ونقصًا فيهم، ويرون الترحم على جميعهم والموالاة لكافتهم، وكذلك يرون تعظيم قدر أزواجه رضي الله عنهن، والدعاء لهن ومعرفة فضلهن والإقرار بأنهن أمهات المؤمنين"[(٢)].

٢ – وذكر ابن بطة رحمه الله في الإبانة على أصول السنة: "ومن بعد ذلك نكف عما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ فقد شهدوا المشاهد معه، وسبقوا الناس بالفضل، فقد غفر الله لهم، وأمر بالاستغفار لهم والتقرب إليه بمحبتهم، وفرض ذلك على لسان نبيه، وهو يعلم ما سيكون منهم وأنهم سيقتتلون، وإنما فضلوا على سائر الخلق لأن الخطأ والعمد قد وضع عنهم، وكل ما شجر بينهم مغفور لهم"[(٣)].

٣- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في ذكر معتقد أهل السنة والجماعة: "ويمسكون عما شجر بين الصحابة، ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذب، ومنها ما قد زيد فيه ونقص، وغير عن وجهه والصحيح، ومنه ما هم فيه معذورون؛ إما مجتهدون مصيبون وإما مجتهدون مخطئون، وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره؛ بل تجوز عليهم الذنوب في الجملة، ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر، حتى إنه يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم، لأن لهم من الحسنات التي تمحو السيئات ما ليس لمن بعدهم، وقد ثبت

رقم(٤٥١٣).

(١) تفسير المراغي(٥١٩/٣).

(٢) عقيدة السلف أصحاب الحديث ص(٩٣).

(٣) الإبانة على أصول السنة ص(٢٦٨).

بقول رسول الله ﷺ **«إنهم خير القرون»**[(١)]، **«وإن المد من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أحد ذهبا ممن بعدهم»**[(٢)]، ثم إذا كان قد صدر من أحدهم ذنب فيكون قد تاب منه، أو أتى بحسنات تمحوه، أو غفر له بفضل سابقته، أو بشفاعة محمد ﷺ الذي هم أحق الناس بشفاعته، أو ابتلي ببلاء في الدنيا كفر به عنه، فإذا كان هذا في الذنوب المحققة فكيف بالأمور التي كانوا فيها مجتهدين؛ إن أصابوا فلهم أجران، وإن أخطئوا فلهم أجر واحد، والخطأ مغفور لهم؟ ثم القدر الذي ينكر من فعل بعضهم قليل نزر مغمور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم، من الإيمان بالله ورسوله، والجهاد في سبيله، والهجرة، والنصرة، والعلم النافع والعمل الصالح، ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة، وما من الله به عليهم من الفضائل علم يقينا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، وأنهم هم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله تعالى"[(٣)].

٤- قال الإمام الذهبي رحمه الله في السير: "تقرر الكف عن كثير مما شجر بين الصحابة، وقتالهم رضي الله عنهم أجمعين، وما زال يمر بنا ذلك في الدواوين، والكتب، والأجزاء، ولكن أكثر ذلك منقطع، وضعيف، وبعضه كذب، وهذا فيما بأيدينا وبين علمائنا، فينبغي طيُّه وإخفاؤه، بل إعدامه، لتصفو القلوب، وتتوفر على حب الصحابة، والترضي عنهم، وكتمان ذلك متعين عن العامة، وآحاد العلماء، وقد يرخص في مطالعة ذلك خلوة للعالم المنصف، العري من الهوى، بشرط أن يستغفر لهم، كما علمنا الله تعالى حيث يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[(٤)]

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها (٨/٩١) الحديث رقم(٦٤٢٩)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم (٤/١٩٦٣) الحديث رقم(٢٥٣٣).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي «لو كنت متخذا خليلا» (٥/٨) الحديث رقم(٣٦٧٣)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم (٤/١٩٦٧) الحديث رقم(٢٥٤٠).

(٣) العقيدة الواسطية ص(١٢٠-١٢٢).

(٤) سورة الحشر الآية (١٠).

فالقوم لهم سوابق وأعمال مكفرة لما وقع منهم، وجهاد محاء، وعبادة ممحصة، ولسنا ممن يغلو في أحد منهم، ولا ندعي فيهم العصمة، نقطع بأن بعضهم أفضل من بعض"[(١)].

(١) سير أعلام النبلاء(١٩/٧٤).

المبحث الثاني: في ذكر فضائل الصحابة

المراغي رحمه الله تعرض لبعض المسائل المتعلقة بفضائل الصحابة رضي الله عنهم أجمعين من خلال تفسيره للآيات التي كان لها تعلق بهذا المبحث.

فذكر رحمه الله بعد قول الحق ﷻ: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[١] فقال: "نقل البغوي[٢] عن ابن عباس في تفسير قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ «يعنى أصحاب محمد ﷺ كانوا على أحسن طريقة، وأقصد هداية، معدن العلم، وكنز الإيمان وجند الرحمن»، وعن ابن مسعود: «أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا أفضل هذه الأمة، وأبرها قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، اختارهم الله لصحبة نبيه، ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على إثرهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الصراط المستقيم»[٣]"[٤].

ذكر المراغي رحمه الله بعض الأحاديث في فضل الصحابة بعد قوله تعالى:﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[٥] فقال: "أخرج أحمد عن أنس قال: «كان بين خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف كلام، فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها؟ فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «**دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهبا ما بلغتم أعمالهم**»[٦].

---

(١) سورة يوسف الآية (١٠٨).

(٢) تفسير البغوي(٢٨٥/٤).

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء(٣٠٥/١).

(٤) تفسير المراغي(٤٣/٥).

(٥) سورة الحديد الآية (١٠).

(٦) أخرجه أحمد في المسند (٣١٩/٢١) الحديث رقم(١٣٨١٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد(٤٣٦/٩): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تسبوا أصحابي، فوالَّذي نفس محمد بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه»**[1] ...

ثم قال: ولأبي بكر الصديق الحظ الأوفر من هذه الآية، فإنه سيد من عمل بها، إذ أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله، ولم يكن لأحد عنده من نعمة يجزيه بها".

وقال: "وعن ابن مسعود قال: **«لما نزلت هذه الآية:** ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾[2] **قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله وإن الله ليريد منا القرض؟ قال: نعم يا أبا الدحداح، قال: أرني يدك يا رسول الله، قال: فناوله يده، قال: إني أقرضت ربي حائطي (بستاني) وكان له حائط فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها، قال أبو الدحداح فناداها يا أم الدحداح، قالت لبيك، قال اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل، قالت له: ربح بيعك يا أبا الدحداح، ونقلت منه متاعها وصبيانها، فقال رسول الله: كم من عذق رداح في الجنة لأبي الدحداح»**[3]"[4].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي «لو كنت متخذا خليلا» (٨/٥) الحديث رقم(٣٦٧٣)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم (١٩٦٧/٤) الحديث رقم(٢٥٤٠).

(٢) سورة الحديد الآية (١١).

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره(٢٨٥/٥)، وابن أبي حاتم في تفسيره(٢٨٦/١٢) وله أصل آخر صحيح من حديث أنس، رواه أحمد في المسند(٤٦٤/١٩) بإسناد صحيح "عن أنس: أن رجلا قال: يا رسول الله، إن لفلان نخلة، وأنا أقيم حائطي بها، فأمره أن يعطيني حتى أقيم حائطي بها، فقال له النبي ﷺ: أعطها إياه بنخلة في الجنة، فأبى، فأتاه أبو الدحداح، فقال: بعني نخلتك بحائطي! ففعل، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني قد ابتعت النخلة بحائطي، قال: فاجعلها له، فقد أعطيتكها. فقال رسول الله ﷺ: كم من عذق راح، لأبي الدحداح، في الجنة. قالها مرارا، قال: فأتى امرأته فقال: يا أم الدحداح، اخرجي من الحائط، فإني قد بعته بنخلة في الجنة. فقالت: ربح البيع، أو كلمة تشبهها".

وحديث أنس هذا في مجمع الزوائد (٩/ ٣٢٣-٣٢٤) وقال: "رواه أحمد، والطبراني، ورجالهما رجال الصحيح"

وله أصل ثان صحيح. فروى مسلم في صحيحه (٦٠/٣) عن جابر بن سمرة، قال: "صلى رسول الله ﷺ على ابن الدحداح، ثم أتى بفرس عري، فعقله رجل فركبه، فجعل يتوقص به، ونحن نتبعه نسعى خلفه، قال: فقال رجل من القوم: إن لنبي ﷺ قال: كم من عذق معلق أو مدلى في الجنة لابن الدحداح". "أو قال شعبة: لأبي الدحداح".

(٤) تفسير المراغي(٤٢٨/٩).

وذكـر عنـد قولـه تعـالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾[١] فقال: "قال: الحسن -أي البصري-: «كان الصحابة يتشاحون في مجالس القتال إذا اصطفوا للحرب، فلا يوسع بعضهم لبعض رغبة في الشهادة»[٢]، ومن الآية نعلم: أن الصحابة كانوا يتنافسون في القرب من مجلس رسول الله ﷺ لسماع حديثه، لما فيه من الخير العميم، والفضل العظيم، ومن ثم قال عليه الصلاة والسلام: «**ليلني منكم أولو الأحلام والنهى**»[٣]"[٤].

وذكر عند تفسير قوله جل وعلا: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[٥] فقال عن المهاجرين رضي الله عنهم: "تركوا الأموال، والمال شقيق الروح، وكثيرا ما يقتل المرء في سبيل الذود عنه، وانتزاعه من أيدي غاصبيه، وما فعلوا ذلك إلا لإعلاء منار الدين، ورفعة شأنه، وذيوع ذكره، فحق لهم من ربهم النعيم المقيم، وجزيل الثواب بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كفاء ما قاموا به من جليل الأعمال، وعظيم الخلال.

روي «أن الرجل منهم كان يعصب الحجر على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع، وكان الرجل يتخذ منهم الحفيرة في الشتاء ماله دثار غيرها»[٦].

وعن سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**بشروا صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة، يدخلون الجنة قبل الناس بنصف يوم، وذلك خمسمائة سنة**»[٧] أخرجه أبو داود.

---

(١) سورة المجادلة الآية (١١).

(٢) تفسير البغوي(٥٨/٨).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها... (٣٢٣/١) الحديث رقم(٤٣٢).

(٤) تفسير المراغي(١٤/١٠).

(٥) سورة الحشر الآية (٨-٩).

(٦) أخرجه ابن جرير في تفسيره(٢٨١/٢٣).

(٧) أخرجه أحمد في المسند(٤٠٧/١٨) الحديث رقم(١١٩١٥)، وأبو داود في سننه، كتاب العلم، باب في القصص

ثم مدح سبحانه الأنصار وأثنى عليهم حين طابت نفوسهم عن الفيء إذ جعل للمهاجرين دونهم فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ ﴾(١): "أي والذين سكنوا المدينة، وأشربت قلوبهم حب الإيمان من قبل هجرة أولئك المهاجرين، لهم صفات كريمة، وشيم جليلة تدل على كرم النفس، ونبل الطباع، فهم:

(١) يحبون المهاجرين ويتمنون لهم من الخير ما يتمنون لأنفسهم، وقد آخى رسول الله بينهم وبينهم، وأسكن المهاجرين في دور الأنصار معهم، ونزل بعض الأنصار عن بعض نسائهم للمهاجرين، طيبة بذلك نفوسهم، قريرة به أعينهم.

روى أحمد عن أنس قال: «**قال المهاجرون: يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم حسن مواساة في قليل، ولا حسن بذل في كثير، لقد كفونا المؤونة، وأشركونا في المهيأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله، قال: لا، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم**»(٢).

وقال عمر: «وأوصي الخليفة بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم، ويحفظ لهم كرامتهم، وأوصي بالأنصار خيرا، الذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبل، أن يقبل من محسنهم، وأن يعفو عن مسيئهم»(٣).

(٢) لا يطمحون إلى شيء مما أعطيه أولئك المهاجرون من الفيء وغيره، روي «**أن رسول الله ﷺ قال للأنصار: إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم، فقالوا:**

(٣٢٣/٣) الحديث رقم(٣٦٦٦) وقال المنذري: في إسناده المعلى بن زياد أبو الحسن وفيه مقال. انظر: عون المعبود(١٠ / ١٠١)، وضعفه الألباني في تعليقه على سنن أبي داود، ولكن روى مسلم (٢٢٨٥/٤) الحديث رقم(١٩٧٩) في فضل فقراء المهاجرين «إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة، بأربعين خريفا».

(١) سورة الحشر الآية (٩).

(٢) أخرجه أحمد في المسند(٣٦٠/٢٠) الحديث رقم(١٣٠٧٥)، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع (٦٥٣/٤) الحديث رقم(٢٤٨٧)، وقال هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وصححه الألباني في المشكاة برقم(٣٠٢٦).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما جاء في قبر النبي ﷺ، وأبي بكر، وعمر رضي الله عنهما (١٠٣/٢) الحديث رقم(١٣٩٢).

أموالنا بيننا قطائع، فقال رسول الله ﷺ: أو غير ذلك؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ فقال: هم قوم لا يعرفون العمل فتكفونهم وتقاسمونهم التمر، فقالوا: نعم يا رسول الله»[1].

(٣) يقدمون ذوي الحاجة على أنفسهم، ويبدؤون بسواهم قبلهم، حتى إن من كان عنده امرأتان ينزل عن إحداهما ويزوجها واحدا من المهاجرين.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: «**أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئا، فقال عليه الصلاة والسلام: ألا رجل يضيف هذا الرجل الليلة رحمه الله؟ فقال أبو طلحة: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله فقال لامرأته: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ، قالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية، قال: إذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وتعالي فأطفئي السراج ونطوي الليلة لضيف رسول الله ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام: لقد عجب الله الليلة من فلان وفلانة وأنزل فيهما:** ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[2]»[3].

ثم قال بعد قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[4]: "أي والتابعون للفريقين بالإحسان إلى يوم القيامة يقولون: ربنا اغفر لنا ذنوبنا، واغفر لإخواننا في الدين الذين سبقونا بالإيمان.

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره(٢٨٣/٢٣)، وروى البخاري (٣٥٩/٩) الحديث رقم(٣٧٩٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، حين خرج معه إلى الوليد قال: دعا النبي ﷺ الأنصار إلى أن يقطع لهم البحرين، فقالوا: لا إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها، قال: «إما لا، فاصبروا حتى تلقوني، فإنه سيصيبكم بعدي أثرة».

(٢) سورة الحشر الآية (٩).

(٣) صحيح البخاري، كتاب مناقب النصار، باب قول الله: {ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة} (٣٤/٥) الحديث رقم(٣٧٩٨)، ومسلم، كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره (١٦٢٤/٣) الحديث رقم(٢٠٥٤) واللفظ للبخاري.

(٤) سورة الحشر الآية (١٠).

قال ابن أبي ليلى[(١)]: «الناس على ثلاث منازل: المهاجرين، والذين تبوؤوا الدار والإيمان، والذين جاءوا من بعدهم، فاجتهد ألا تخرج من هذه المنازل»[(٢)].

وفي هذه الآية دليل على وجوب محبة الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، لأنه جعل لمن بعدهم حظا في الفيء ما أقاموا على محبتهم وموالاتهم والاستغفار لهم، ومن أبغضهم أو أبغض واحدا منهم أو اعتقد فيهم شرا فلا حق له في الفيء.

وإنما بدؤوا في الدعاء بأنفسهم لقوله ﷺ: «**ابدأ بنفسك ثم بمن تعول**»[(٣)].

﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[(٤)] أي ويدعون الله ألا يجعل في قلوبهم حسدا وحقدا للمؤمنين جميعا، والحقد والحسد هما رأس كل خطيئة، وينبوع كل معصية، فهما يوجبان سفك الدماء والبغي والظلم والسرقة، وسائر أنواع الفجور.

ونحو الآية قوله في سورة براءة: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾[(٥)].

وفي الآية إيماء إلى وجوب محبة من تقدمهم من المؤمنين، ومراعاة حقوقهم لإخوتهم في الدين والسبق بالإيمان.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾[(٦)] أي ربنا إنك عظيم الرأفة بعبادك، كثير الرحمة لهم، فأجب دعاءنا.

وفي الآية حث على الدعاء للصحابة، وصفاء القلوب من بغض أحد منهم.

---

(١) هو: محمد بن عبد الرحمن ابن أبي ليلى الأنصاري المدني ثم الكوفي، العلامة، الإمام، مفتي الكوفة، وقاضيها، أبو عبد الرحمن الأنصاري، مات بوقعة الجماجم سنة ثلاث وثمانين قيل إنه غرق، انظر: سير أعلام النبلاء(٦/ ٣١٠).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره(٢٣/ ٢٨٨).

(٣) قال ابن حجر في تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير (٢/ ٤٠٠) حَدِيثُ «أفضل الصدقة ما ترك غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول» [البخاري (٧/ ٦٣) ومسلم (٢/ ٧١٧)] وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ فِي قِصَّةِ الْمُدَبَّرِ فِي بَعْضِ الطُّرُقِ «ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك» مسلم (٢/ ٦٩٢) ذكر الألباني في إرواء الغليل(٧/ ٢٣١) لما ساق هذا الحديث فقال: (وهو مركب من حديثين).

(٤) سورة الحشر الآية (١٠).

(٥) سورة التوبة الآية (١٠٠).

(٦) سورة الحشر الآية (١٠).

وعن ابن عمر «أنه سمع رجلا وهو يتناول بعض المهاجرين فقرأ عليه: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾(١) ثم قال: هؤلاء المهاجرون، فمنهم أنت؟ قال: لا، ثم قرأ عليه: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(٢)، ثم قال: هؤلاء الأنصار فأنت منهم؟ قال: لا، ثم قرأ عليه: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(٣)، ثم قال: أفمن هؤلاء أنت؟ قال: أرجو، قال: ليس من هؤلاء من سب هؤلاء»(٤)"(٥).

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾(٦) فقال: "أي لا يلحقهم في تلك الجنات مشقة ولا أذى، لأنهم ليسوا في حاجة إلى ما يوجب ذلك من السعي في تحصيل ما لا بد لهم منه، لحصول كل ما يشتهون من غير مزاولة عمل، روى الشيخان أن النبي ﷺ قال: «**إن الله أمرني أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب**»(٧)"(٨).

وذكر عند قوله تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾(٩) فقال: "روى ابن عبد البر رحمه الله أنه قال: "حضر جماعة من الناس باب عمر

(١) سورة الحشر الآية (٨).
(٢) سورة الحشر الآية (٩).
(٣) سورة الحشر الآية (١٠).
(٤) أخرجه ابن مردويه ().
(٥) تفسير المراغي(٣٩/١٠).
(٦) سورة الحجر الآية (٤٨).
(٧) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها (٣٩/٥) الحديث رقم(٣٨٢٠)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها (١٨٨٧/٤) الحديث رقم(٢٤٣٢).
(٨) تفسير المراغي(١٦٣/٥).
(٩) سورة الإسراء الآية (٧١).

رضي الله عنه وفيهم سهيل بن عمرو القرشي -وكان أحد الأشراف في الجاهلية- وأبو سفيان ابن حرب ومشايخ من قريش، فأذن لصهيب وبلال وأهل بدر وكان يحبهم، فقال أبو سفيان: ما رأيت كاليوم قط إنه ليؤذن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس لا يلتفت إلينا، فقال سهيل وكان أعقلهم: أيها القوم إني والله قد أرى الذي في وجوهكم، فإن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم، إنهم دعوا ودعينا (يعني إلى الإسلام) فأسرعوا وأبطأنا، وهذا باب عمر، فكيف التفاوت في الآخرة، ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعد الله لهم في الجنة أكبر؟»[١].

وقال بعد قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾[٢]: "في الصحيحين: «**إن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر**[٣] **في أفق السماء لتفاضل ما بينهم، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء؟، قال: بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين**»[٤]، وفي السنن: «**إن أبا بكر وعمر لمنهم ونعما**»[٥]"[٦].

وذكر في هذا الباب قوله ﷺ: «**سيدة نساء أهل الجنة مريم بنت عمران، ثم فاطمة، ثم خديجة، ثم آسية امرأة فرعون**»[٧] أو المراد نساء زمانها، ويؤيده ما أخرجه ابن عساكر عن ابن عباس أنه ﷺ قال: «**كمل من نساء العالمين أربع: مريم وآسية امرأة فرعون وخديجة وفاطمة**»[٨]"[١].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الجهاد ص(٨٥)، وأحمد في الزهد ص(١٣٣)، وأبو بكر الدينوري المالكي في المجالسة وجواهر العلم(٢٢/٣)، وذكره ابن عبد البر في الاستيعاب معزوا الى رواية ابن المبارك(٢٠٣/١).

(٢) سورة طه الآية (٧٥).

(٣) الغابر هو الباقي ومنه قول الله جلّ وعزّ ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٧١] (إلاَّ عَجُوْزاً فِي الْغبَرين يعني ممن تخلّف فلم يمض مع لوط عليه السلام. انظر: غريب الحديث لابن سلام(٨٠/٤).

(٤) سبق تخريجه ص(٦١٢).

(٥) أخرجه أحمد في المسند(٤٧/١٨) الحديث رقم(١١٤٦٧)، وأبو داود في سننه، كتاب الحروف والقراءات (٣٤/٤) الحديث رقم(٣٩٨٧) وقال الإمام البغوي في شرح السنة(١٠٠/١٤): هذا حديث حسن.

(٦) تفسير المراغي(١١١/٦).

(٧) أخرجه الطبراني في الكبير(٤١٥/١١)، وابن حبان في صحيحه(٤٧٠/١٥) بلفظ «أفضل نساء أهل الجنة»، والحاكم في المستدرك(٢٠٥/٣) وقال: على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٨) أخرجه بهذا الفظ ابن جرير في تفسيره(٣٩٨/٦)، وأحمد في المسند(١٣٥/٣)، والترمذي(٧٠٣/٥) بلفظ (حسبك

وذكـر رحمـه الله بعـد قولـه تعـالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[٢]: فقـال: "أبـو بكـر هـو الـذي قاتـل جمـاهير المرتـدين بمـن معـه مـن المهـاجرين والأنصار، وقد وصف الله هؤلاء المؤمنين بست صفات.

(١) إنه تعالى يحبهم، وحبه تعالى وبغضه شأن من شؤونه لا نبحث عن كنهه ولا عن كيفيته[٣].

(٢) إنهـم يحبـون الله تعـالى، وحـب المـؤمنين لله جـاء في غـير موضـع مـن القـرآن، كقولـه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ ﴾[٤].

وفي حديث أنس في الصحيحين «**ثلاثة من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار**»[٥].

من نساء العالمين: مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون) قال الترمذي حديث حسن صحيح، وخرجه أيضا أحمد(٢٩٣/١) بلفظ: (أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون)، وقال ابن حجر في الفتح (٢٣٣/١٠) «وعند النسائي بإسناد صحيح عن بن عباس أفضل نساء أهل الجنة خديجة وفاطمة ومريم وآسية وعند الترمذي بإسناد صحيح عن أنس حسبك من نساء العالمين فذكرهن» وأصله في البخاري(٥٤٠/٨)، ومسلم(١٣٧/٧) بلفظ: "فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام، كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء: إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون ".

(١) تفسير المراغي(٤٩٨/١).

(٢) سورة المائدة الآية (٥٤).

(٣) تكلمنا على صفة المحبة في الباب الأول.

(٤) سورة البقرة الآية (١٦٥).

(٥) صحيح البخاري، كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر، (٢٠/٩)، الحديث رقم(٦٩٤١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، (٦٦/١)، الحديث رقم(٦٧).

(٣، ٤) الذلة على المؤمنين والعزة على الكافرين وهما بمعنى ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾(١).

(٥) الجهاد في سبيل الله، وسبيل الله هو طريق الحق والخير الموصلة إلى مرضاته تعالى، ومن أعظم الجهاد بذل النفس والمال في قتال أعداء الحق، وهو من أكبر آيات المؤمنين الصادقين.

(٦) كونهم لا يخافون لومة لائم، وفي ذلك تعريض بالمنافقين الذين يخافون لوم أوليائهم من اليهود لهم إذا هم قاتلوا مع المؤمنين، إذ هم لا يرغبون في جزاء أو ثناء من الناس، بل يعملون العمل لإحقاق الحق وإبطال الباطل.

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٢) أي ذلك الذي تقدم من الصفات فضل الله يعطيه من يشاء من عباده، وبه يمتازون عن غيرهم"(٣).

وذكر رحمه الله في فضل عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال: "وكان عثمان قد جهز عيرا إلى الشام للتجارة، فقال: يا رسول الله هذه مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها، ومائتا أوقية (من الفضة) فقال النبي ﷺ «**لا يضر عثمان ما عمل بعدها**»(٤)"(٥).

وأوضح بعد قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(١) فقال: "ذكر الله في هذه الآية ثلاث طبقات من الأمة هي خيرها:

---

(١) سورة الفتح الآية (٢٩).

(٢) سورة المائدة الآية (٥٤).

(٣) تفسير المراغي(٢/٤٥٧).

(٤) أخرجه أحمد في المسند(٣٤/٢٣٢) الحديث رقم(٢٠٦٢)، والترمذي، أبواب المناقب (٥/٦٢٦) الحديث رقم(٣٧٠١) وقال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وذكر البخاري(٧/١٨٣) في قصة عثمان حين حاصره الخوارج فقال: أن عثمان رضي الله عنه حين حوصر أشرف عليهم، وقال: أنشدكم الله، ولا أنشد إلا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ألستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من حفر رومة فله الجنة»؟ فحفرتها، ألستم تعلمون أنه قال: «من جهز جيش العسرة فله الجنة»؟ فجهزتهم، قال: فصدقوه بما قال وقال عمر في وقفه: «لا جناح على من وليه أن يأكل وقد يليه الواقف وغيره فهو واسع لكل».

(٥) تفسير المراغي(١٠/١١٨-١١٩).

(١) السابقون الأولون من المهاجرين، وهم الذين هاجروا قبل صلح الحديبية، وقد كان المشركون يضطهدون المؤمنين ويقاتلونهم في دار الهجرة وما حولها، ولا يمكنون أحدا من الهجرة متى كان ذلك في طاقتهم، ولا منجاة للمؤمنين من شرهم إلا بالفرار أو الجوار، فالذين هاجروا في ذلك الحين كانوا من المؤمنين الصادقين، وأفضل هؤلاء الخلفاء الأربعة ثم العشرة الذين بشرهم النبي ﷺ بالجنة.

(٢) السابقون الأولون من الأنصار، وهم الذين بايعوا النبي ﷺ عند العقبة في منى في المرة الأولى سنة إحدى عشرة من البعثة، وكانوا سبعة، وفي المرة الثانية، وكانوا سبعين رجلا وامرأتين.

(٣) الذين اتبعوا هؤلاء السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار في الهجرة والنصرة حال كونهم محسنين في أفعالهم وأقوالهم، فإذا اتبعوهم في ظاهر الإسلام كانوا منافقين مسيئين غير محسنين في هذا الاتباع، وإذا اتبعوهم محسنين في بعض أعمالهم ومسيئين في بعض كانوا مذنبين"(٢).

وذكر في فضل أبي بكر رضي الله عنه فقال: "أخرج البخاري وغيره من طريق عروة بن الزبير قال: «**قيل لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرنا بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقا شديدا، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبيه ودفعه عن النبي ﷺ ثم قال:** ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾(٣)»(٤).

وأخرج البزار وأبو نعيم في فضائل الصحابة عن علي بن أبي طالب أنه قال: «أيها الناس أخبروني من أشجع الناس؟ قالوا أنت، قال أما إني ما بارزت أحدا إلا انتصفت منه، ولكن أخبروني عن أشجع الناس؟ قالوا: لا نعلم، فمن؟ قال: أبو بكر، رأيت رسول الله ﷺ وأخذته

---

(١) سورة التوبة الآية (١٠٠).

(٢) تفسير المراغي(١٥٧/٤).

(٣) سورة غافر الآية (٢٨).

(٤) صحيح البخاري، كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذا خليلا» (١٠/٥) الحديث رقم(٣٦٧٨).

قريش فهذا يجؤه[١]، وهذا يتلتله[٢]، وهم يقولون: أنت الذي جعلت الآلهة إلها واحدا، قال: فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب هذا، ويجأ هذا ويتلتل هذا، وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله؟ ثم رفع بردة كانت عليه فبكى حتى اخضلت لحيته، ثم قال: أنشدكم: أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر؟ فسكت القوم، فقال: ألا تجيبون؟ فو الله لساعة من أبي بكر خير من مثل مؤمن آل فرعون، ذاك رجل يكتم إيمانه، فأثنى الله عليه في كتابه، وهذا رجل أعلن إيمانه وبذل ماله ودمه»[٣]"[٤].

وذكر في فضائل الصحابة رضي الله عنهم فقال: "عن سلمة بن الأكوع قال: «**بينا نحن قائلون، إذ نادى منادى رسول الله ﷺ، أيها الناس: البيعة البيعة، نزل روح القدس، فثرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه، فذلك قوله تعالى:** ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[٥] **فبايع لعثمان بإحدى يديه على الأخرى، فقال الناس: هنيئا لابن عفان، يطوف بالبيت ونحن هنا، فقال رسول الله ﷺ: لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف**»[٦] أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه.

---

(١) قال في لسان العرب(١/١٩٠): (وجأ) الوَجْءُ اللَّكْزُ، ووَجَأَه باليد والسِّكِّينِ وَجْأً مقصور ضَربَه، وَوَجَأَ في عُنُقِه كذلك، وقد تَوَجَّأْتُه بيَدي ووَجِئَ فهو مَوْجُوءٌ ووَجَأْتُ عُنُقَه وَجْأً ضَرَبْتُهُ.

(٢) قال في مختار الصحاح ص(٨٣): التَّلُّ وأحد التِّلالِ و التَّلِيلُ العنق و تَلْتَلَهُ زعزعه وأقلقه وزلزله وتَلَّهُ للجبين صرعه كما تقول كبه لوجهه.

(٣) أخرجه البزار في مسنده(١/١٤٥).

(٤) تفسير المراغي(٨/٣١٠).

(٥) سورة الفتح الآية (١٨).

(٦) أخرجه ابن جرير في تفسيره(٢٢/٢٢٥)، وابن أبي حاتم في تفسيره(١٢/٢٣١)، وقال الهيثمي في المجمع(٩/٨٤): "فيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف"، ولكن له أصل في صحيح البخاري(١٠/١٠٣) الحديث رقم(٣٦٩٨) وهو قول عبد الله بن عمر رضي الله عنه لما سئل عن عثمان رضي الله عنه فقال: وأما تغيبه عن بيعة الرضوان، فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده اليمنى: «هذه يد عثمان». فضرب بها على يده، فقال: «هذه لعثمان» فقال له ابن عمر اذهب بها الآن معك.

وأخرج البخاري عن سلمة أيضا قال: «**بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قيل على أي شيء كنتم تبايعون يومئذ؟ قال: على الموت**»(١).

وعن جابر أن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة**»(٢) أخرجه مسلم.

وقال رحمه الله: "روى أحمد في مسنده: «**سيدة نساء أهل الجنة مريم ثم فاطمة ثم خديجة ثم عائشة**»(٣)، وفي الصحيح: «**كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع: آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم بنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وفضل عائشة كفضل الثريد على سائر الطعام**»(٤)، وإنما فضل الثريد لأنه مع اللحم غذاء جامع بين اللذة وسهولة التناول وقلة المئونة في المضغ وسرعة المرور في المريء، فضربه مثلا ليؤذن بأنها رضي الله عنها أعطيت مع حسن الخلق حلاوة المنطق، وفصاحة الكلام، وجودة القريحة، ورزانة الرأي، ورصانة العقل، والتحبب للبعل، وبحسبك أنها عقلت من النبي ﷺ ما لم يعقل غيرها من النساء، وروت ما لم يرو مثله الرجال"(٥).

ذكر المراغي رحمه الله في ما يتعلق في فضائل الصحابة رضي الله عنهم حديثين ضعيفين هما:

الحديث الأول: "قوله ﷺ: «**أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم**»(٦)"(١).

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب البيعة في الحرب أن لا يفروا، وقال بعضهم: على الموت (٥٠/٤) الحديث رقم(٢٩٦٠)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة (١٤٨٦/٣) الحديث رقم(١٨٦٠).

(٢) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم،باب من فضائل أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان رضي الله عنهم (١٩٤٢/٤) الحديث رقم(٢٤٩٦).

(٣) أخرجه أحمد في المسند(٤٠٩/٤) بلفظ (أَفْضَلُ نِسَاءِ أهل الْجَنَّةِ)، والنسائي في الكبرى(٩٣/٥)، وقال ابن حجر في الفتح (٢٢٣/١٠) وَعِنْد النَّسَائِيّ بِإِسْنَادِ صَحِيح عَنْ اِبْن عَبَّاس "أَفْضَل نِسَاء أهل الْجَنَّة خَدِيجَة وَفَاطِمَة وَمَرْيَم وَآسِيَة".

(٤) سبق تخريجه ص(٧١٣).

(٥) تفسير المراغي(١٤٣/١٠).

(٦) أخرجه عبد بن حميد في مسنده الحديث رقم(٢٥٠) والقضاعي في مسند الشهاب(٢٧٥/٢)، وقال ابن حزم في الإحكام(٦٤٢/٥): باطل مكذوب، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة (٣٦٤/٨): (هذا الحديث

الحديث الثاني: "روي «**أن النبي ﷺ قال لعلي: إني دعوت الله أن يجعلها أذنك يا علي، قال علي كرم الله وجهه: فما سمعت شيئا فنسيته، وما كان لي أن أنسى**»[(٢)]"[(٣)].

فالمراغي رحمه الله في موضوع فضائل الصحابة ذكر الآيات والأحاديث والآثار الواردة في هذا الباب وفق منهج أهل السنة في ذلك، وزيادة على ما قرره ننقل بعض أقوال أهل السنة والجماعة في فضائل الصحابة، فمن ذلك:

١- قال الإمام مالك بن أنس رحمه الله: "من يبغض أحدا من أصحاب النبي ﷺ وكان في قلبه عليهم غل، فليس له حق في فيء المسلمين، ثم قرأ قول الله ﷻ: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ ﴾[(٤)] إلى قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[(٥)]، وذكر بين يديه رجل ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ فقرأ هذه الآية: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾[(٦)] إلى قوله: ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾[(٧)] ثم قال: من أصبح من الناس في قلبه غل على أحد من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام فقد أصابته الآية"[(٨)].

٢- قال الإمام محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله: "وقد أثنى الله تبارك وتعالى على أصحاب رسول الله ﷺ في القرآن والتوراة والإنجيل، وسبق لهم على لسان رسول الله ﷺ من

ضعيف ضعفه أهل الحديث)، وقال الشنقيطي في أضواء البيان (٣٣١/٧): (الحديث لا يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم فهو حديث ضعيف لا يصح الاحتجاج به).

(١) تفسير المراغي(٥٦١).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره(٥٧٩/٢٣)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة (١٧١/٧): (هذا موضوع باتفاق أهل العلم)، وحكم عليه محمد طاهر الهندي في تذكرة الموضوعات (بالوضع) ص(٨٤).

(٣) تفسير المراغي(١٨٦/١٠).

(٤) سورة الحشر الآية (٧).

(٥) سورة الحشر الآية (١٠).

(٦) سورة الفتح الآية (٢٩).

(٧) سورة الفتح الآية (٢٩).

(٨) شرح السنة للبغوي(٢٢٩/١).

الفضل ما ليس لأحد بعدهم، فرحمهم الله وهنأهم بما آتاهم من ذلك ببلوغ أعلى منازل الصديقين والشهداء والصالحين، أدوا إلينا سنن رسول الله ﷺ عاما وخاصا وعزما وإرشادا، وعرفوا من سننه ما عرفنا وجهلنا، وهم فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل، وأمر استدرك به علم واستنبط به، وآراؤهم لنا أحمد وأولى بنا من رأينا عند أنفسنا، ومن أدركنا ممن يرضى أو حكي لنا عنه ببلدنا صاروا فيما لم يعلموا لرسول الله ﷺ فيه سنة إلى قولهم إن اجتمعوا، أو قول بعضهم إن تفرقوا، وهكذا نقول ولم نخرج من أقاويلهم، وإن قال أحدهم ولم يخالفه غيره أخذنا بقوله"[(١)].

٣- قال الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل رحمه الله: "ومن السنة الواضحة الثابتة البينة المعروفة ذكر محاسن أصحاب رسول الله ﷺ أجمعين، والكف عن ذكر ما شجر بيهم، فمن سب أصحاب رسول الله ﷺ أو أحدا منهم أو تنقصه أو طعن عليهم، أو عرض بعيبهم أو عاب أحدا منهم فهو مبتدع رافضي خبيث مخالف، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا، بل حبهم سنة والدعاء لهم قربة، والاقتداء بهم وسيلة، والأخذ بآثارهم فضيلة، وخير هذه الأمة بعد النبي ﷺ أبو بكر، وعمر بعد أبي بكر وعثمان بعد عمر وعلي بعد عثمان، ووقف قوم على عثمان، وهم خلفاء راشدون مهديون، ثم أصحاب رسول الله ﷺ بعد هؤلاء الأربعة خير الناس لا يجوز لأحد أن يذكر شيئا من مساويهم، ولا يطعن على أحد منهم بعيب ولا ينقص، فمن فعل ذلك فقد وجب على السلطان تأديبه وعقوبته، ليس له أن يعفوا عنه بل يعاقبه ويستتيبه، فإن تاب قبل منه وإن ثبت أعاد عليه العقوبة وخلده في الحبس حتى يموت أو يراجع"[(٢)].

٤- قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "(فصل): ومن أصول أهل السنة والجماعة: سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ كما وصفهم الله به في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾[(٣)]، وطاعة النبي في قوله: «**لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي**

(١) مناقب الشافعي للبيهقي(١/٤٤٢- ٤٤٣).

(٢) كتاب السنة للإمام أحمد ص(١٧).

(٣) سورة الحشر الآية (١٠).

بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»[١]، ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع: من فضائلهم ومراتبهم، فيفضلون من أنفق من قبل الفتح -وهو صلح الحديبية- وقاتل على من أنفق من بعده وقاتل، ويقدمون المهاجرين على الأنصار، ويؤمنون «**بأن الله قال لأهل بدر -وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر-: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[٢]، وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة كما أخبر به النبي ﷺ، بل قد رضي الله عنهم ورضوا عنه وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة، ويشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله ﷺ بالجنة، كالعشرة وكثابت بن قيس بن شماس وغيرهم من الصحابة، ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعن غيره؛ من أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ويثلثون بعثمان ويربعون بعلي رضي الله عنهم، كما دلت عليه الآثار وكما أجمع الصحابة رضي الله عنهم على تقديم عثمان في البيعة"[٣].

---

(١) سبق تخريجه ص(٧٠٧).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المغازي (٥/٧٧) الحديث رقم(٣٩٨٣)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم وقصة حاطب بن أبي بلتعة (٤/١٩٤١) الحديث رقم(٢٤٩٤).

(٣) العقيدة الواسطية ص(١٢).

الفصل الثاني: آراء المراغي الاعتقادية في مسائل الأسماء والأحكام.

وفيه تمهيد ومبحثان:

التمهيد: تعريف مسائل الأسماء والأحكام وبيان أهميتها.

المبحث الأول: آراء المراغي الاعتقادية في الإسلام والإيمان.

المبحث الثاني: آراء المراغي الاعتقادية في الكفر والتكفير.

التمهيد: تعريف مسائل الأسماء والأحكام وبيان أهميتها

المقصود بالأسماء: أسماء الدين، مثل: المؤمن، والمسلم، والكافر والفاسق وغير ذلك من الأسماء.

والمقصود بالأحكام: أحكام أصحاب هذه الأسماء في الدنيا والآخرة.

فأقول لكل من يتكلم في هذه المواضيع: مما لا شك فيه، ومن المسلمات في الشريعة تحريم القول على الله بغير علم؛ كما في قول الحق سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[١].

وقول النبي ﷺ: «**بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار**»[٢].

وقوله النبي ﷺ في الحديث الآخر: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رءوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا**»[٣].

فيدخل في القول على الله بغير علم الخوض في باب الأسماء والاحكام، ممن ليس عنده فقه في الدين؛ لأن هذه المسائل من أصول الشريعة التي يجب على المتكلم فيها أن يكون عنده علم بأصول الدين حتى لا يَضِلَّ ولا يُضِلَّ.

قال ابن رجب رحمه الله في سياق كلامه على الإيمان: "وهذه المسائل -أعني مسائل الإسلام والإيمان والكفر والنفاق- مسائل عظيمة جدا، فإن الله عز و جل علق بهذه الأسماء السعادة والشقاوة واستحقاق الجنة والنار، والاختلاف في مسمياتها أول اختلاف وقع في هذه الأمة"[٤].

---

(١) سورة الأعراف الآية (٣٣).

(٢) سبق تخريجه ص(٣٠).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم (٣١/١) الحديث رقم(١٠٠)، ومسلم، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان (٢٠٥٨/٤) الحديث رقم(٢٦٧٣).

(٤) جامع العلوم والحكم ص(٣٠).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "اعلم أن مسائل التكفير والتفسيق هي من مسائل الأسماء والأحكام التي يتعلق بها الوعد والوعيد في الدار الآخرة، وتتعلق بها الموالاة والمعاداة والقتل والعصمة وغير ذلك في الدار الدنيا؛ فإن الله سبحانه أوجب الجنة للمؤمنين، وحرم الجنة على الكافرين، وهذا من الأحكام الكلية في كل وقت ومكان"(١).

وقال ابن القيم رحمه الله بعد ذكره قول الحق جل وعلا: "﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾(٢)، وقوله: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾(٣) والله تعالى قد بين في كتابه سبيل المؤمنين مفصلة، وسبيل المجرمين مفصلة، وعاقبة هؤلاء مفصلة، وعاقبة هؤلاء مفصلة، وأعمال هؤلاء وأعمال هؤلاء، وأولياء هؤلاء وأولياء هؤلاء، وخذلانه لهؤلاء وتوفيقه لهؤلاء، والاسباب التي وفق بها هؤلاء، والأسباب التي خذل بها هؤلاء، وجلا سبحانه الأمرين في كتابه وكشفهما وأوضحهما وبينهما غاية البيان حتى شاهدتهما البصائر كمشاهدة الأبصار للضياء والظلام.

فالعالمون بالله وكتابه ودينه عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية، وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية، فاستبانت لهم السبيلان كما يستبين للسالك الطريق الموصل إلى مقصوده، والطريق الموصل إلى الهلكة، فهؤلاء أعلم الخلق وأنفعهم للناس وأنصحهم لهم، وهم الأدلاء الهداة، برز الصحابة على جميع من أتى بعدهم إلى يوم القيامة، فإنهم نشأوا في سبيل الضلال والكفر والشرك، والسبل الموصلة إلى الهلاك، وعرفوها مفصلة، ثم جاءهم الرسول فأخرجهم من تلك الظلمات إلى سبيل الهدى وصراط الله المستقيم، فخرجوا من الظلمة الشديدة إلى النور التام، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغي إلى الرشاد، ومن الظلم إلى العدل، ومن الحيرة والعمى إلى الهدى والبصائر، فعرفوا مقدار ما نالوه وظفروا به، ومقدار ما كانوا فيه، فإن الضد يظهر حسنه الضد، وإنما تتبين الأشياء بأضدادها، فازدادوا رغبة ومحبة فيما انتقلوا إليه، ونفرة وبغضا لما انتقلوا عنه، وكانوا أحب الناس في التوحيد والإيمان والإسلام، وأبغض الناس في ضده عالمين بالسبيل على التفصيل.

---

(١) مجموع الفتاوى(١٢/٤٦٨).

(٢) سورة الأنعام الآية (٥٥).

(٣) سورة النساء الآية (١١٥).

وأما من جاء بعد الصحابة فمنهم من نشأ في الإسلام غير عالم تفصيل ضده، فالتبس عليه بعض تفاصيل سبيل المؤمنين بسبيل المجرمين، فإن اللبس إنما يقع إذا ضعف العلم بالسبيلين أو أحدهما؛ كما قال عمر بن الخطاب: «**إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية**»[1]، وهذا من كمال علم عمر رضي الله عنه، فإنه إذا لم يعرف الجاهلية وحكمها وهو كل ما خالف ما جاء به الرسول فإنه من الجاهلية، فإنها منسوبة الى الجهل، وكل ما خالف الرسول فهو من الجهل، فمن لم يعرف سبيل المجرمين ولم تستبن له أوشك أن يظن في بعض سبيلهم أنها من سبيل المؤمنين، كما وقع في هذه الأمة من أمور كثيرة في باب الاعتقاد والعلم والعمل هي من سبيل المجرمين والكفار وأعداء الرسل، أدخلها من لم يعرف أنها من سبيلهم في سبيل المؤمنين، ودعا إليها وكفَّر من خالفها واستحل منه ما حرمه الله ورسوله كما وقع لأكثر أهل البدع"[2].

فأصل الضلال الواقع في الأمة قديما وحديثا الخوض في هذه المسائل بغير علم، فكم من إنسان أخرج من الملة واستحل دمه، وكم من إنسان بُدِّعَ وفُسِّقَ بسبب الجهل بأحكام الشريعة.

---

(١) هذا الأثر لم أقف عليه بهذا اللفظ بعد طول بحث، لكن اخرج ابن أبي شيبة في المصنف(٤١٠/٦)، والبيهقي في الشعب(٦٩/٥)، والحاكم في المستدرك(٤٧٥/٤) وصححه عن المستظل بن حصين البارقي قال: خطبنا عمر بن الخطاب فقال: قد علمتُ وربِّ الكعبة متى تهلك العرب. فقام إليه رجلٌ من المسلمين فقال: متى يهلكون يا أمير المؤمنين؟ قال: حين يسوس أمرَهم من لم يعالج أمر الجاهلية ولم يصحب الرسول ﷺ. لكن ورد حديثا مرفوعا من رواية أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لتنتقضن عرى الإسلام عروة عروة فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها فأولهن نقضا: الحكم وآخرهن: الصلاة» رواه احمد في المسند(٤٨٥/٣٦) قال: البوصيري في اتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة(١٢/٨): رواه أحمد بسند صحيح.

(٢) الفوائد ص(١٠٨).

المبحث الأول: آراء المراغي الاعتقادية في الإسلام والإيمان

المراغي رحمه الله وضّح كثيرا من المسائل المتعلقة بالإيمان والإسلام، في مواضع متفرقة من تفسيره، فنذكرها ثم نعلق عليها في نهاية المبحث.

فقال بعد قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾(١): "الإيمان تصديق جازم يقترن بإذعان النفس واستسلامها، وأمارته العمل بما يقتضيه الإيمان، وهو يختلف باختلاف مراتب المؤمنين في اليقين"(٢).

وذكر تعريف الدين بعد قوله تعالى:﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴾(٣) فقال: "والدين: هو الخضوع لما وراء المحسوس من الشؤون الإلهية التي لا يمكن الإنسان أن يعرف حقيقتها، وإنما يجد آثارها في الكون باعثة على الإذعان والتصديق، كوجود الله ووحدانيته، وبعثه الرسل مبشرين ومنذرين، والتصديق بحياة أخرى يعرض الناس فيها على ربهم للجزاء"(٤).

وذكر طرق حصول الإيمان فقال: "والإيمان على الوجه الصحيح يحصل من أحد طريقين:

(١) البحث والتأمل فيما يحتاج إلى ذلك كالعلم بوجود الله ورسالة الرسل.

(٢) خبر الرسول بعد أن تقوم الدلائل على صدقه فيما يبلغ عن ربه، أو خبر من سمع منه بطريق لا تحتمل ريبًا ولا شكًّا وهي طريق التواتر، كالعلم بأخبار الآخرة وأحوالها، والعالم العلوي وأوصافه، وعلينا أن نقف عند ذلك فلا نزيد فيه شيئا ولا نخلطه بغيره مما جاء عن طريق أهل الكتاب"(٥).

وقال في تعريف الإسلام: "والإسلام: الإذعان والخضوع والانقياد"(٦).

وذكر عن تحقق الإيمان بالقلب فقال: "ولا يتحقق الإيمان إلا باطمئنان القلب وقيام البرهان الذي لا يقبل الشك والارتياب، وأفضل البراهين ما أرشد إليه القرآن من النظر في

---

(١) سورة البقرة الآية (٣).

(٢) تفسير المراغي(١/٤٣).

(٣) سورة الماعون الآية (١).

(٤) تفسير المراغي(١٠/٤٩٨).

(٥) تفسير المراغي(١/٤٦).

(٦) تفسير المراغي(٤/٢٩٥).

آيات الله في الآفاق والأنفس، فقد يبلغ الإنسان علم اليقين بنظرة صادقة في هذا الكون الذي بين يديه، أو في نفسه إذا تجلت له بغرائب خلقها وبدائع صنعها"[(١)].

وقال بعد قول الحق جل وعلا: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ﴾[(٢)]: "أفليس هذا إلا إيمانًا ببعض الكتاب وكفرًا ببعضه الآخر؟ وذلك منتهى ما يكون من الحماقة، فإن الإيمان لا يتجزأ، فالكفر ببعضه كالكفر بكله، قال الأستاذ الإمام: في التعبير عن المخالفة والمعصية بالكفر دليل على أن من يقدم على الذنب لا يتألم ولا يندم بعد وقوعه، بل يسترسل فيه بلا مبالاة بنهي الله عنه وتحريمه له فهو كافر به، وهذا هو الوجه في الأحاديث الصحيحة، نحو: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر وهو مؤمن**»[(٣)]"[(٤)].

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[(٥)] فقال: "أي ولكن البر هو الإيمان وما يتبعه من الأعمال باعتبار اتصاف البار بها وقيامه بعملها.

فالإيمان بالله أساس البر، ولن يكون كذلك إلا إذا كان متمكنا من النفس مصحوبا بالإذعان والخضوع واطمئنان القلب بحيث لا تبطره نعمة، ولا تؤيسه نقمة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[(٦)]"[(٧)].

وأوضح بأن الإيمان الصحيح هو ما صدر عن اعتقاد وقول وعمل، فذكر عند تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[(١)] فقال: "والخلاصة: إن

---

(١) تفسير المراغي(٦٣/١).

(٢) سورة البقرة الآية (٨٥).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب النهي بغير إذن صاحبه (١٣٦/٣) الحديث رقم(٢٤٧٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفي كماله (٧٦/١) الحديث رقم(١٠٠).

(٤) تفسير المراغي(١٣٨/١).

(٥) سورة البقرة الآية (١٧٧).

(٦) سورة الرعد الآية (٢٨).

(٧) تفسير المراغي(٢٣٣/١).

مرادهم بالإيمان الذي أقروا به هو الإيمان الصحيح الذي تصدر عنه آثاره من ترك المعاصي وفعل الصالحات، إذ الإيمان اعتقاد وقول وعمل كما أجمع على ذلك السلف، ويرشد إليه العقل والعلم بطبيعة البشر"[٢].

وعرَّف الدين والإسلام بعد قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[٣] فقال: "والدين له في اللغة عدة معان: منها الجزاء، والطاعة والخضوع، ومجموعة التكاليف التي بها يدين العباد لله، وما يكلف به العباد يسمى شرعا باعتبار وضعه وبيانه للناس، ودينا باعتبار الخضوع وطاعة الشارع، وملة باعتبار أنها أملت وكتبت، والإسلام يأتي بمعنى الخضوع والاستسلام، وبمعنى الأداء تقول أسلمت الشيء إلى فلان إذا أديته إليه، وبمعنى الدخول في السلم أي الصلح والسلامة، وتسمية الدين الحق إسلاما يناسب كل هذه المعاني، وأولها أوفقها بالتسمية، يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾[٤].

ثم ذكر في إيضاح الآية: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ ﴾[٥]: "أي إن جميع الملل والشرائع التي جاء بها الأنبياء روحها الإسلام والانقياد والخضوع، وإن اختلفت في بعض التكاليف وصور الأعمال، وبه كان الأنبياء يوصون، فالمسلم الحقيقي من كان خالصا من شوائب الشرك، مخلصا في أعماله مع الإيمان من أي ملة كان، وفي أي زمان وجد، وهذا هو المراد بقوله عز اسمه: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾[٦] ذاك أن الله شرع الدين لأمرين:

(١) تصفية الأرواح وتخليص العقول من شوائب الاعتقاد بسلطة غيبية للمخلوقات بها تستطيع التصرف في الكائنات، لتسلم من الخضوع والعبودية لمن هم من أمثالها.

(٢) إصلاح القلوب بحسن العمل وإخلاص النية لله وللناس.

---

(١) سورة الرعد الآية (١٦).

(٢) تفسير المراغي(١/٤٦٩).

(٣) سورة آل عمران الآية (١٩).

(٤) سورة النساء الآية (١٢٥).

(٥) سورة آل عمران الآية (١٩).

(٦) سورة آل عمران الآية (٨٥).

وأما العبادات فإنما شرعت لتربية هذا الروح الخلقي ليسهل على صاحبه القيام بسائر التكاليف الدينية.

أخرج ابن جرير عن قتادة قال: «**الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله والإقرار بما جاء من عند الله، وهو دين الله تعالى الذي شرع لنفسه وبعث به رسله، ودل عليه أولياءه لا يقبل غيره، ولا يجزى إلا به**»[(١)]"[(٢)].

وأوضح بعد قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[(٣)] فقال في المفردات: "آمن له: صدقه وسلم له ما يقول كما قال تعالى حكاية عن إخوة يوسف: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾[(٤)]"[(٥)].

وقال: "الإيمان اعتقاد وقول وعمل، وهو ذو شعب كثيرة"[(٦)].

وذكر تعريف الإيمان والإسلام بعد قول الحق ﷻ: ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[(٧)] فقال: "والإيمان لغة: التصديق إما بالقلب كأن يقول إنسان شيئا فتعتقد صدقه، وإما باللسان كأن تقول له: صدقت.

والإسلام: الانقياد والخضوع، وقد جعل لهما القرآن معنى خاصا، فأطلق الإيمان على الإيمان بالله واليوم الآخر، وإرسال الرسل مبشرين ومنذرين، بحيث يكون لهذا التصديق سلطان على الإرادة والوجدان، ويكون من ثمراته العمل الصالح الذي يصل بصاحبه إلى الفوز بالسعادة

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره(٦/٢٧٥).

(٢) تفسير المراغي(١/٤٧٠- ٤٧٢).

(٣) سورة آل عمران الآية (٧٣).

(٤) سورة يوسف الآية (١٧).

(٥) تفسير المراغي(١/٥٢٤).

(٦) تفسير المراغي(٢/٢٢).

(٧) سورة آل عمران الآية (٨٤-٨٥).

في الدنيا والآخرة، وأطلق الإسلام على توحيد الله والإخلاص له في العبادة، والانقياد لما أرشد إليه على ألسنة رسله.

والإيمان والإسلام بهذين المعنيين يتواردان على حقيقة واحدة يتناولها كل منهما بالاعتبار، ومن ثم عُدَّا شيئا واحدا في هذه الآيات، وبهما يكون الفوز بالنجاة في الآخرة.

وأما ما جاء في قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ ﴾(١) فقد أريد بالإيمان المعنى اللغوي وهو الثقة واطمئنان القلب، وهذا لم يحصل لهم بعد، بدليل أنهم امتنوا على الرسول ﷺ بالإسلام وترك القتال، ولكن دخلوا في السلم وترك الحرب والنطق بالشهادتين.

كذلك إطلاق الإسلام على هذا الدين المعروف الذي عليه المسلمون اليوم إطلاقٌ حادثٌ لا يعرفه القرآن ولم ينطق به، وإنما نطق بالإسلام وأراد به الاستسلام والانقياد كما علمت مما سبق، فمن اتبعه كان مرضيا عند الله، ومن خالفه كان باغيا لغير دين الله"(٢).

وقال عن زيادة الإيمان وقوته بعد قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾(٣): "أي وإذا تليت عليهم آياته المنزلة على خاتم أنبيائه ﷺ زادتهم يقينا في الإيمان، وقوة في الاطمئنان، ونشاطا في الأعمال؛ إذ إن تظاهر الأدلة وتعاضد الحجج يوجب زيادة اليقين، فإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه كان مؤمنا بإحياء الله الموتى حين دعا ربه أن يريه كيف يحييها؛ كما قال تعالى: ﴿ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي ﴾(٤) فمقام الطمأنينة في الإيمان يزيد على ما دونه من الإيمان المطلق قوة وكمالا، ويروى أن عليا المرتضى قال: «لو كشف عني الحجاب ما ازددت يقينا»(٥)، والعلم التفصيلي

(١) سورة الحجرات الآية (١٤).

(٢) تفسير المراغي(٥٣٩/١).

(٣) سورة الأنفال الآية (٢).

(٤) سورة البقرة الآية (٢٦٠).

(٥) أخرجه ابو نعيم في حلية الأولياء(٢٠٣/١٠) منسوبا إلى عبدالله بن سهل التستري، ونسب إلى أبي بكر الصديق في الآداب الشرعية لابن مفلح(٢٩٥/١)، وإلى علي بن أبي طالب في الوافي بالوفيات للصفدي(٦١/٣)، وإلى عامر بن عبد قيس في مدارج السالكين لابن قيم الجوزية(٤٠٠/٢)، ثم قال (وليس هذا من كلام رسول الله ولا من

في الإيمان أقوى من العلم الإجمالي، فمن آمن بأن لله علما محيطا بالمعلومات، وحكمة قام بها نظام الأرض والسموات، ورحمة وسعت جميع المخلوقات، ويعلم ذلك علما إجماليا، ولو سألته أن يبين لك شواهده في الخلق لعجز، لا يوزن إيمانه بإيمان صاحب العلم التفصيلي بسنن الله في الكائنات في كل نوع من أنواع المخلوقات، ولا سيما في العصور الحديثة التي اتسعت فيها معارف البشر بهذه السنن، فعرفوا منها ما لم يكن يخطر عشر معشاره لأحد من العلماء في القرون الخوالي، وفي معنى الآية قوله تعالى: في وصف الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح في غزوة أحد: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾[1]، وقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾[2].

ثم قال: وقوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾[3] أي أولئك الذين اتصفوا بتلك الصفات هم دون من سواهم هم المؤمنون حق الإيمان، وهو نتيجة لتصديق إذعاني له أثر في أعمال القلوب والجوارح وبذل المال في سبيل الله.

روى الطبراني عن الحارث بن مالك الأنصاري رضي الله عنه أنه مر برسول الله ﷺ فقال له: «**كيف أصبحت يا حارثة؟ قال أصبحت مؤمنا حقا: قال: انظر ماذا تقول فإن لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ فقال عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها، فقال: يا حارثة عرفت فالزم (ثلاثا)**»[4].

وروي عن الحسن «أن رجلا سأله: أمؤمن أنت؟ قال: الإيمان إيمانان، فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فأنا مؤمن،

قول علي كما يظنه من لا علم له بالمنقولات).

(١) سورة آل عمران الآية (١٧٣).

(٢) سورة الفتح الآية (٤).

(٣) سورة الأنفال الآية (٤).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير(٣/٢٦٦)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الاستقامة(١/١٩٤): "رواه ابن عساكر مرسلا، وروي مسندا من وجه ضعيف، وقال الهيثمي في المجمع(١/٦٥): رواه البزار وفيه يوسف بن عطية لا يحتج به.

وإن كنت تسألني عن قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[1] فوالله لا أدري أنا منهم أم لا؟»[2]"[3].

وذكر كمال الإيمان بعد قوله تعالى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[4]: "أي إن ما عند الله من الأجر على الإيمان وصالح العمل الذي من أشقه الهجرة والجهاد عظيم، لا يقدر قدره إلا الله الذي تفضل به ومنحه لعباده المكرمين، ولا سيما على الإيمان الكامل الباعث على هجر الوطن ومفارقة الأهل والسكن، وعلى إنفاق المال الذي هو أحب شيء إلى النفس، وعلى بذل النفس التي هي أعز شيء على الإنسان، فما أجدرهم أن يبشرهم بأنواع من الأجر والجزاء ما بين روحي وجسماني"[5].

وذكر زيادة الإيمان عند سماع القرآن بعد قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾[6] فقال: "أي وإذا أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ سورة من سور كتابه الكريم، فمن المنافقين من يقول لإخوانه على سبيل الاستهزاء هذه المقالة ليثبتوا على النفاق، أو يقول لمن يلقاه من المؤمنين مشككا لهم: (أيكم زادته هذه) السورة (إيمانا) أي يقينا بحقية القرآن والإسلام وصدق الرسول ﷺ، أي أيكم زادته تصديقا جازما مقترنا بإذعان النفس وخضوعها، وأشعرته بلزوم العمل بها لتيقنه بصدق الرسول الذي أنزلت عليه.

والإيمان على هذا النحو يزيد بنزول القرآن في عهد الرسول ولا سيما من يحضر نزوله ويسمعه منه، وكذا يزيد بسماعه من غيره في قلب المؤمن قوة إذعانٍ ورغبةً في العمل والقرب من الله.

---

(١) سورة الأنفال الآية (٢).

(٢) أخرجه البيهقي في الاعتقاد ص(١٨٢).

(٣) تفسير المراغي(٣/٤٨٣- ٤٨٥).

(٤) سورة التوبة الآية (٢٢).

(٥) تفسير المراغي(٤/٦٤).

(٦) سورة التوبة الآية (١٢٤).

قال تعالى مجيبا عن هذا السؤال مبينا حالهم وحال المؤمنين فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾[(١)] أي فأما المؤمنون فيزيدهم نزول القرآن زيادة اليقين واطمئنان القلب، ويزيدهم قوة في العمل به والتقرب إلى ربهم، وهم يستبشرون بنزولها لما يرجون من خير هذه الزيادة، بتزكية أنفسهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة"[(٢)].

وقال رحمه الله: "إن الإيمان لا يكون يقينا إلا إذا صدقه العمل أوضح ذلك بعد قول الحق سبحانه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾[(٣)]: "أي وقال موسى لمن آمن من قومه وقد رأى خوفهم من الفتنة والاضطهاد: إن كنتم آمنتم بالله حق الإيمان فعليه توكلوا، وبوعده فثقوا إن كنتم مستسلمين مذعنين، إذ لا يكون الإيمان يقينا إلا إذا صدقه العمل وهو الإسلام، وليس في الآية دلالة على إيمان جميع قومه، إذ الإيمان بالله غير الإيمان لموسى المتضمن معنى الإسلام والاتباع الذي أشير إليه بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ فهم قد طلبوا منه بعد ما نجاهم من الغرق أن يجعل لهم آلهة من الأصنام ثم اتخذوا العجل المصنوع وعبدوه"[(٤)].

وذكر رحمه الله الإسلام والإيمان بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾[(٥)] فقال: "الإسلام: الانقياد والخضوع لأمر الله، والإيمان: التصديق بما جاء عن الله من أمر ونهي....

ثم قال بعد ذلك: "ذكر الله سبحانه الأوصاف التي يستحق بها عباده أن يمحو عنهم زلاتهم، ويثيبهم بالنعيم المقيم عنده؛ وهي:

(١) إسلام الظاهر بالانقياد لأحكام الدين في القول والعمل.

(٢) إسلام الباطن بالتصديق التام والإذعان لما فرض الدين من الأحكام وهذا هو الإيمان.

---

(١) سورة التوبة الآية (١٢٤).

(٢) تفسير المراغي(١٩١/٤).

(٣) سورة يونس الآية (٨٤).

(٤) تفسير المراغي(٢٦٨/٤).

(٥) سورة الأحزاب الآية (٣٥).

(٣) القنوت وهو دوام العمل في هدوء وطمأنينة كما قال: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾[١]، وقال: ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾[٢]. فالإسلام والانقياد مرتبة تعقبها مرتبة الإذعان والتصديق وينشأ عن مجموعهما القنوت والخشوع.

(٤) الصدق في الأقوال والأعمال، وهو علامة الإيمان كما أن الكذب أمارة النفاق، فمن صدق نجا، وفي الحديث: «**عليكم بالصدق فإنه يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار**»[٣].

(٥) الصبر على المكاره وتحمل المشاق في أداء العبادات وترك الشهوات.

(٦) الخشوع والتواضع لله تعالى بالقلب والجوارح ابتغاء ثوابه وخوفا من عقابه؛ كما جاء في الحديث: «**اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[٤]، ثم ذكر بقية الصفات -الصدقة والصوم وحفظ الفروج وذكر الله كثيرا- ثم قال: هؤلاء الذين جمعوا هذه الأوصاف يمحو عنهم ذنوبهم ويؤتيهم الأجر العظيم"[٥].

وذكر تعريف الإيمان بعد قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾[٦] فقال: "إن الإيمان الكامل إقرار باللسان، وتصديق بالجنان وعمل بالأركان، فكراهة الكفر في مقابلة محبة الإيمان، وتزيينه في القلوب هو التصديق بالجنان، والفسوق وهو الكذب في مقابلة الإقرار باللسان، والعصيان في مقابلة العمل بالأركان"[٧].

---

(١) سورة الزمر الآية (٩).

(٢) سورة آل عمران الآية (٤٣).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين} وما ينهى عن الكذب (٢٥/٨) الحديث رقم(٦٠٩٤)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله (٢٠١٢/٤) الحديث رقم(٢٦٠٧).

(٤) سبق تخريجه ص(٤٦٢).

(٥) تفسير المراغي(٨/٧-٩).

(٦) سورة الحجرات الآية (٧).

(٧) تفسير المراغي(٩/٢٤٣).

وعرَّف الإيمان عند قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[(١)] فقال: "آمنا: أي صدقنا بما جئت به من الشرائع، وامتثلنا ما أمرنا به، فالإيمان هو التصديق بالقلب.

ثم قال بعد ذلك في المعنى الاجمالي للآية عن الأعراب: "فأطلع الله نبيه على مكنون ضمائرهم، وأنهم لم يؤمنوا إيمانا حقيقيا، وهو الذي وافق القلب فيه اللسان، وأمرهم أن يقولوا: استسلمنا وخضعنا، ثم أخبرهم بأنهم إن اتقوا الله حق تقاته وفاهم أجورهم كاملة غير منقوصة، ثم بين أن من علامة الإيمان الكامل التضحية بالنفس والمال في سبيل الله ببذلهما في تقوية دعائم الدين، وإعلاء شأنه، وخضد شوكة العدو بكل السبل الممكنة، ثم أعقب هذا بأن الله يعلم ما هم عليه من إيمان ضعيف أو قوي، إذ لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وأنه لا ينبغي للمؤمن أن يمتن على الرسول بإيمانه، بل من حق الرسول أن يمتن عليه بأن وفق للهداية على يديه إن كان صادق الإيمان.

ثم ذكر في إيضاح الآية فقال: "وقوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ أي قالت الأعراب: صدقنا بالله ورسوله ونحن له مؤمنون فرد الله عليهم مكذبا لهم مع عدم التصريح بذلك فقال: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ أي قل لهم: إن الإيمان هو التصديق مع طمأنينة القلب والوثوق بالله ولم يحصل لكم بعد، بدليل أنكم مننتم على الرسول بترك مقاتلته، ولكن قولوا: انقدنا لك واستسلمنا، ولا ندخل معك في حرب، ولا نكون عونا لعدوك عليك.

وجاءت الآية على هذا الأسلوب، ولم يقل لهم كذبتم، ولكن قولوا أسلمنا، حملا له عليه السلام على الأدب في التخاطب ليتأسى به أتباعه، فيلينوا لمن يخاطبونهم في القول. ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[(٢)] أي قولوا أسلمنا فحسب، لأنه لم يدخل الإيمان في قلوبكم بعد، إذ لم يوافق القلب ما جرى به اللسان، ولم يكن لشرائع الدين ولا آدابه أثر في أعمالكم، فلم تتغذ بها أرواحكم، ولم تصطبغ بهديها نفوسكم.

---

(١) سورة الحجرات الآية (١٤).

(٢) سورة الحجرات الآية (١٤).

قال الزجاج: "الإسلام إظهار الخضوع وقبول ما أتى به النبي ﷺ وبذلك يحقن الدم، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب فذلك هو الإيمان وصاحبه المؤمن"(١)...

ثم بين سبحانه حقيقة الإيمان بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾(٢): أي إنما المؤمنون حق الإيمان الذين صدقوا الله ورسوله، ثم لم يشكوا ولم يتزلزلوا، بل ثبتوا على حال واحدة، وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه؛ أولئك هم الصادقون في قولهم: آمنا، لا كبعض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة، وقد دخلوا الملة خوفا من السيف، ليحقنوا دماءهم ويحفظوا أموالهم"(٣).

وذكر تعريف الإسلام والفرق بينه وبين الإيمان فقال: "قال أبو مسلم الأصفهاني(٤): "الإسلام الاستسلام لأمر الله والانقياد لحكمه، فكل مؤمن مسلم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾(٥) وقد أوضح الحديث الشريف الفرق بينهما، فجاء في الصحيحين وغيرهما من طرق عدة: «**أن رسول الله ﷺ سئل عن الإسلام فقال: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسوله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتحج البيت، وتصوم رمضان، وسئل عن الإيمان؟ فقال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقدر خيره وشره**»(٦).

المراغي رحمه الله في تقريره مسائل الإيمان والإسلام من خلال تفسيره للآيات الواردة في ذلك لم يخرج عن مذهب السلف.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه(٥/٣٨).

(٢) سورة الحجرات الآية (١٥).

(٣) تفسير المراغي(٩/٢٥٧-٢٥٩).

(٤) هو: محمد بن بحر الأصفهاني الكاتب، يكنى أبا مسلم: كان كاتبا مترسلا بليغا متكلما جدلا، ولد سنة ٢٥٤هـ، توفي سنة (٣٢٢هـ) صنَّف تفسيراً اسمه جامع التأويل لمحكم التنزيل يقع في أربعة عشر مجلداً، وقيل: في عشرين مجلداً، على مذهب المعتزلة والناسخ والمنسوخ، انظر: معجم الأدباء ياقوت الحموي(٢/٣٦٠).

(٥) سورة الحجرات الآية (١٥).

(٦) سبق تخريجه ص(٤٦٢).

وهذا ما قرروه في كتبهم، ومن ذلك ما قاله الإمام أبو بكر محمد بن الحسين الآجري رحمه الله: "باب القول بأن الإيمان تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح، لا يكون مؤمنا إلا أن تجتمع فيه هذه الخصال الثلاث.

قال محمد بن الحسين: اعلموا -رحمنا الله تعالى وإياكم-: أن الذي عليه علماء المسلمين: أن الإيمان واجب على جميع الخلق، وهو تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح.

ثم اعلموا: أنه لا تجزي المعرفة بالقلب، والتصديق، إلا أن يكون معه الإيمان باللسان نطقا، ولا تجزي معرفة بالقلب، ونطق باللسان، حتى يكون عمل بالجوارح، فإذا كملت فيه هذه الخصال الثلاث: كان مؤمنا.

دل على ذلك الكتاب والسنة، وقول علماء المسلمين.

فأما ما لزم القلب من فرض الإيمان فقول الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾(١).

وقال تبارك وتعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾(٢).

وقال تبارك وتعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ ﴾(٣).

فهذا مما يدلك على أن علم القلب بالإيمان، وهو التصديق والمعرفة، ولا ينفع القول به إذا لم يكن القلب مصدقا بما ينطق به اللسان مع العمل، فاعلموا ذلك.

---

(١) سورة المائدة الآية (٤١).

(٢) سورة النحل الآية (١٠٦).

(٣) سورة الحجرات الآية (١٤).

وأما فرض الإيمان باللسان: فقول الله عز وجل: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖ ﴾[1]، وقال جل وعلا: ﴿ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾[2].

وقال النبي ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله وأني رسول الله**» وذكر الحديث[3].

فهذا الإيمان باللسان نطقا فرض واجب.

وأما الإيمان بما فرض على الجوارح تصديقا بما آمن به القلب، ونطق به اللسان: فقول الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[4].

وقال جل وعلا: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[5]: في غير موضع من القرآن، ومثله فرض الصيام على جميع البدن، ومثله فرض الجهاد بالبدن، وبجميع الجوارح.

فالأعمال -رحمكم الله تعالى- بالجوارح: تصديق للإيمان بالقلب واللسان، فمن لم يصدق الإيمانَ بعمل جوارحه: مثل الطهارة، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والجهاد، وأشباه لهذه، ورضي من نفسه بالمعرفة والقول، لم يكن مؤمنا، ولم تنفعه المعرفة والقول، وكان تركه العمل تكذيبا منه لإيمانه، وكان العمل بما ذكرنا تصديقا منه لإيمانه، وبالله تعالى التوفيق.

وقد قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[6].

---

(١) سورة البقرة الآية (١٣٦-١٣٧).

(٢) سورة آل عمران الآية (٨٤).

(٣) سبق تخريجه ص(٥٤).

(٤) سورة الحج الآية (٧٧).

(٥) سورة البقرة الآية (٤٣).

(٦) سورة النحل الآية (٤٤).

فقد بين ﷺ لأمته شرائع الإيمان: أنها على هذا النعت في أحاديث كثيرة، وقد قال عز وجل في كتابه، وبين في غير موضع: أن الإيمان لا يكون إلا بعمل، وبينه رسوله ﷺ خلاف ما قالت المرجئة الذين لعب بهم الشيطان، قال الله عز وجل: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[(١)]"[(٢)].

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في تقريره عن المؤمن والمسلم فقال: "ولكن المشهور عن الجماعة من السلف والخلف أن المؤمن المستحق لوعد الله هو المسلم المستحق لوعد الله، فكل مسلم مؤمن، وكل مؤمن مسلم، وهذا متفق على معناه بين السلف والخلف، بل وبين فرق الأمة كلهم؛ يقولون: إن المؤمن الذي وعد بالجنة لا بد أن يكون مسلما، والمسلم الذي وعد بالجنة لا بد أن يكون مؤمنا، وكل من يدخل الجنة بلا عذاب من الأولين والآخرين فهو مؤمن مسلم.

ثم إن أهل السنة لا يقولون: الذين يخرجون من النار ويدخلون الجنة معهم بعض ذلك، وإنما النزاع في إطلاق الاسم، فالنقول متواترة عن السلف بأن الإيمان قول وعمل، ولم ينقل عنهم شيء من ذلك في الإسلام، ولكن لما كان الجمهور الأعظم يقولون: إن الإسلام هو الدين كله، ليس هو الكلمة فقط، خلاف ظاهر ما نقل عن الزهري[(٣)] فكانوا يقولون: إن الصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك من الأفعال المأمور بها هي من الإسلام كما هي من الإيمان، ظن أنهم يجعلونها شيئا واحدا وليس كذلك؛ فإن الإيمان مستلزم للإسلام باتفاقهم، وليس إذا كان الإسلام داخلا فيه يلزم أن يكون هو إياه؛ وأما الإسلام فليس معه دليل على

(١) سورة البقرة الآية (١٧٧).

(٢) الشريعة للآجري (١١٥).

(٣) محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري القرشي أبو بكر، أحد الأعلام، من أئمة الإسلام، تابعي جليل رأى عشرة من أصحاب رسول الله ﷺ وكان من أحفظ أهل زمانه وأحسنهم سياقا لمتون الأخبار وكان فقيها فاضلا سمع غير واحد من التابعين وغيرهم، مات سنة أربع وعشرين ومائة. انظر: التاريخ الكبير للبخاري(١/٢٢٠)، والثقات لابن حبان(٥/٣٤٩)، والبداية والنهاية(٩/٣٤٠).

أنه يستلزم الإيمان عند الإطلاق ولكن هل يستلزم الإيمان الواجب أو كمال الإيمان؟ فيه نزاع وليس معه دليل على أنه مستلزم للإيمان، ولكن الأنبياء الذين وصفهم الله بالإسلام كلهم كانوا مؤمنين وقد وصفهم الله بالإيمان، ولو لم يذكر ذاك عنهم فنحن نعلم قطعا أن الأنبياء كلهم مؤمنون، وكذلك السابقون الأولون كانوا مسلمين مؤمنين، ولو قدر أن الإسلام يستلزم الإيمان الواجب فغاية ما يقال: إنهما متلازمان، فكل مسلم مؤمن وكل مؤمن مسلم، وهذا صحيح إذا أريد أن كل مسلم يدخل الجنة معه الإيمان الواجب، وهو متفق عليه إذا أريد أن كل مسلم يثاب على عبادته، فلا بد أن يكون معه أصل الإيمان، فما من مسلم إلا وهو مؤمن، وإن لم يكن هو الإيمان الذي نفاه النبي ﷺ عمن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وعمن يفعل الكبائر، وعن الأعراب وغيرهم، فإذا قيل: إن الإسلام والإيمان التام متلازمان لم يلزم أن يكون أحدهما هو الآخر، كالروح والبدن فلا يوجد عندنا روح إلا مع البدن، ولا يوجد بدن حي إلا مع الروح، وليس أحدهما الآخر، فالإيمان كالروح فإنه قائم بالروح ومتصل بالبدن، والإسلام كالبدن ولا يكون البدن حيا إلا مع الروح، بمعنى أنهما متلازمان لا أن مسمى أحدهما هو مسمى الآخر؛ وإسلام المنافقين كبدن الميت جسد بلا روح، فما من بدن حي إلا وفيه روح، ولكن الأرواح متنوعة كما قال النبي ﷺ: «**الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف**»[(١)]، وليس كل من صلى ببدنه يكون قلبه منورا بذكر الله والخشوع وفهم القرآن، وإن كانت صلاته يثاب عليها ويسقط عنه الفرض في أحكام الدنيا، فهكذا الإسلام الظاهر بمنزلة الصلاة الظاهرة، والإيمان بمنزلة ما يكون في القلب حين الصلاة من المعرفة بالله والخشوع وتدبر القرآن، فكل من خشع قلبه خشعت جوارحه، ولا ينعكس؛ ولهذا قيل: «إياكم وخشوع النفاق»[(٢)]، وهو أن يكون الجسد خاشعًا والقلب ليس بخاشع، فإذا صلح القلب صلح الجسد كله، وليس إذا كان الجسد في عبادة يكون القلب قائما بحقائقها"[(٣)].

ومن الذين بينوا الفرق بين اسم المسلم والمؤمن وأن بينهما عموم وخصوص ما حرره ابن عثيمين حيث قال رحمه الله: "الإسلام والإيمان كلمتان يتفقان في المعنى إذا افترقا في اللفظ، بمعنى أنه

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب الأرواح جنود مجندة (١٣٣/٤) الحديث رقم(٣٣٣٦) ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب الأرواح جنود مجندة (٢٠٣١/٤) الحديث رقم(٢٦٣٨).

(٢) أخرجه الديلمي عن أبي بكر الصديق(٤٩/٢).

(٣) الإيمان الكبير لابن تيمية ص(١٩٢).

إذا ذكر أحدهما في مكان دون الآخر فهو يشمل الآخر، وإذا ذكرا جميعا في سياق واحد صار لكل واحد منهما معنى، فالإسلام إذا ذكر وحده شمل كل الإسلام من شرائعه ومعتقداته وآدابه وأخلاقه؛ كما قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾(١)، وكذلك المسلم إذا ذكر هكذا مطلقا فإنه يشمل كل من قام بشرائع الإسلام من معتقدات وأعمال وآداب وغيرها، وكذلك الإيمان فالمؤمن مقابل الكافر، فإذا قيل إيمان ومؤمن بدون قول الإسلام معه فهو شامل للدين كله، أما إذا قيل إسلام وإيمان في سياق واحد فإن الإيمان يفسر بأعمال القلوب وعقيدتها، والإسلام يفسر بأعمال الجوارح، ولهذا قال النبي ﷺ في جوابه لجبريل: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله» إلى آخر أركان الإسلام، وقال في الإيمان:** «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه**»(٢) إلى آخر أركان الإيمان المعروفة، ويدل على هذا الفرق قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ ﴾(٣)، وهذا يدل على الفرق بين الإسلام والإيمان، فالإيمان يكون في القلب، ويلزم من وجوده في القلب صلاح الجوارح لقول النبي ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»(٤)، بخلاف الإسلام فإنه يكون في الجوارح وقد يصدر من المؤمن حقا، وقد يكون من ناقص الإيمان، هذا هو الفرق بينهما، وقد تبين أنه لا يفرق بينهما إلا إذا اجتمعا في سياق واحد، وإما إذا انفرد أحدهما في سياق فإنه يشمل الآخر"(٥).

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٩).

(٢) سبق تخريجه ص(٤٦٢).

(٣) سورة الحجرات الآية (١٤).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه (١/٢٠)، الحديث رقم(٥٢)، ومسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، (٣/١٢١٩)، الحديث رقم(١٥٩٩).

(٥) فتاوى نور على الدرب(٣/٢٨).

المبحث الثاني: آراء المراغي الاعتقادية في الكفر والتكفير

وتحته تمهيد وثلاثة مطالب:

التمهيد: وفيه بيان خطورة مسائل التكفير.

المطلب الأول: الكفر والتكفير.

المطلب الثاني: الكبائر.

المطلب الثالث: المنافقون.

التمهيد: وفيه بيان خطورة مسائل التكفير.

من المسائل المهمة والخطيرة في هذا الباب مسألة التكفير بغير حق، فقد تكاثرت النصوص في التحذير من ذلك، ومما ورد قول الحق ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴾(٢).

وعن أبي ذر رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**لا يرمي رجل رجلا بالفسوق ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك**»(٣)، وفي رواية: «**ومن دعا رجلا بالكفر، أو قال: عدو الله، وليس كذلك إلا حار عليه**»(٤).

وعن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**من حلف بملة غير الإسلام كاذبا فهو كما قال، ومن قتل نفسه بشيء عُذِّبَ به في نار جهنم، ولعن المؤمن كقتله، ومن رمى مؤمنا بكفر فهو كقتله**»(٥).

فهذه النصوص ومثلها كثير تبين خطر التسرع في الحكم على الآخرين، فمن هذا المنطلق يجب على كل مسلم الحذر من الخوض في هذه المسائل، إلا بعلم ثاقب وفقه راسخ، مع تذكر قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾(٦).

---

(١) سورة النساء الآية (٩٤).

(٢) سورة النحل الآية (١١٦).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن (١٥/٨) الحديث رقم(٦٠٤٥).

(٤) أخرجها مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من رغب عن أبيه وهو يعلم (٧٩/١) الحديث رقم(١١٢).

(٥) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما جاء في قاتل النفس (٩٦/٢) الحديث رقم(١٣٦٣).

(٦) سورة الإسراء الآية (٣٦).

وعلق المراغي رحمه الله على خطورة هذا الموضوع بعد قوله تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾[١] فقال: "إنهم أقرب إلى الكفر، ولم يقل إنهم كفار منعًا للنبز بالكفر بالعلامات والقرائن، دون أن يكون هناك كفر صريح"[٢].

وبعد هذه المقدمة ننقل كلام المراغي رحمه الله في هذا الموضوع من خلال تفسيره للآيات الواردة في ذلك، ومن باب التقريب والتيسير قسمناه الى مطالب ليتيسر للطالب.

(١) سورة آل عمران الآية (١٦٧).

(٢) تفسير المراغي(١٠٦/٢).

المطلب الأول: الكفر والتكفير

عرَّف المراغي الكفر لغة بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[(١)] فقال: "الكفر: ستر الشيء وتغطيته، وقد وصف به الليل كقوله:

في ليلة كفر النجوم غمامها[(٢)]

والزراع، كقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾[(٣)] من قبل أنهم يغطون الحبَّ بالتراب، ثم استعمل في كفر النعم بعدم شكرها، وفي الكفر بالله ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله.

ثم قال في إيضاح الآية: المراد بالذين كفروا هنا: من علم الله أن الكفر قد رسخ في قلوبهم حتى أصبحوا غير مستعدين للإيمان، بجحودهم بالنبي ﷺ وبما جاء به بعد أن بلغتهم رسالته بلاغًا صحيحًا، وعرضت عليهم الدلائل على صحتها للنظر والبحث، فأعرضوا عنها عنادًا واستهزاءً، وسبب كفرهم:

(١) إما عناد للحق بعد معرفته، وقد كان من هذا الصنف جماعة من المشركين واليهود في زمن النبي ﷺ، كأبي لهب وأبي جهل والوليد بن المغيرة وأحبار اليهود.

(٢) وإما إعراض عن معرفته، واستكبار عن النظر فيه، والمعرضون عن الحق يوجدون في كل زمان ومكان"[(٤)].

وذكر في توضيح قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[(٥)] فقال: "والردة تارة تحصل بالقول كإنكار شيء مما علم من الدين قطعا، وأخرى بالفعل الذي يوجب استهزاءً صريحًا بالدين كالسجود للشمس والصنم، والاستهانة بالمصحف ونحو ذلك"[(٦)].

---

(١) سورة البقرة الآية (٦).

(٢) من قول لبيد العامري انظر: ديوان لبيد بن ربيعة العامري ص(١٠٢).

(٣) سورة الحديد الآية (٢٠).

(٤) تفسير المراغي(١/٤٦-٤٧).

(٥) سورة البقرة الآية (٢١٧).

(٦) تفسير المراغي(١/٣٠٠).

وذكر رحمه الله أن الكفر بالرسل قسمان: فقال بعد قوله تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾[١] أي وبعد أن قامت عليهم الحجة، شهدوا على أنفسهم بأنهم كانوا في الدنيا كافرين بتلك الآيات والنذر التي جاء بها الرسل حين رأوا أنه لا يجديهم الكذب ولا تنفعهم المكابرة.

والكفر بالرسل ضربان: كفر بتكذيبهم بالقول، وكفر بعدم الإذعان النفسي الذي يتبعه العمل بحسب سنن الله في ترتب الأعمال على الطباع والأخلاق"[٢].

وذكر حكم الإكراه على كلمة الكفر بعد تفسير قوله تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[٣] فقال: "وقد استنبط العلماء من هذه الآية جواز التقية بأن يقول الإنسان أو يفعل ما يخالف الحق لأجل توقي ضرر من الأعداء يعود إلى النفس أو العرض أو المال، فمن نطق بكلمة الكفر مكرها وقاية لنفسه من الهلاك، وقلبه مطمئن بالإيمان لا يكون كافرا، بل يعذر كما فعل عمار بن ياسر حين أكرهته قريش على الكفر، فوافقها مكرها وقلبه مليء بالإيمان، وفيه نزلت الآية: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾[٤].

وكما عذر الصحابي الذي قال له مسيلمة: أتشهد أني رسول الله؟ قال: نعم، فتركه، وقتل رفيقه الذي سأله هذا السؤال فقال: إني أصم (ثلاثا) فقدمه وقتله، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**أما هذا المقتول فمضى على يقينه وصدقه فهنيئا له، وأما الآخر فقبل رخصة الله فلا تبعة عليه**»[٥].

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٣٠).

(٢) تفسير المراغي(٣/٢٠٥).

(٣) سورة آل عمران الآية (٢٨).

(٤) سورة النحل الآية (١٠٦).

(٥) أخرجه عبد الرزاق الصنعاني في تفسيره(٣/٤٩٩)، وابن أبي شيبة في المصنف(٧/٦٤٢)، وقال الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري(٢/٢٤٧) عن الرواية الأولى أنها معضلة والثانية مرسلة وقال

وهي من الرخص لأجل الضرورات العارضة، لا من أصول الدين المتبعة دائما، ومن ثم وجب على المسلم الهجرة من المكان الذي يخاف فيه من إظهار دينه ويضطر فيه إلى التقية، ومن كمال الإيمان ألا يخاف في الله لومة لائم؛ كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[(١)]، وقال: ﴿ فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾[(٢)]"[(٣)].

وذكر في سياق توضيح قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَٱخْتَلَفُوا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾[(٤)] فقال: "وقد جرى عرف القرآن أن يعد المتفرقين في الدين من الكفار والمشركين، كما جاء في قوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[(٥)]، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾[(٦)]، كذلك يعد الخروج عن مقاصد الدين الحقيقية من الكفر، لأن الإيمان اعتقاد وقول وعمل، وهو ذو شعب كثيرة من أجلها تحرى العدل، واجتناب الظلم، فمن استرسل في الظلم كان كافرا كما قال تعالى: ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[(٧)]، وكذلك من ترك الاتحاد والوفاق والاعتصام بحبل الدين كان من الكافرين بعد الإيمان"[(٨)].

الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (٧٢٥/١٢): (وهذه قصة جيدة، لولا أنها من مراسيل الحسن البصري؛ لكن الآية السابقة وسبب نزولها يشهدان لصحتها. والله أعلم. وقد روى الشطر الأول منها ابن إسحاق في " السيرة " (٢ / ٧٤ - ٧٥) بسند حسن عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة مرسلا أيضا، وسمى صاحبها حبيب بن زيد؛ أي: ابن عاصم الأنصاري المازني شهد العقبة، وقد ذكرها ابن كثير في تفسير الآية، وابن حجر في ترجمة حبيب من " الإصابة " جازمين بها. والله سبحانه وتعالى أعلم).

(١) سورة آل عمران الآية (١٧٥).

(٢) سورة المائدة الآية (٤٤).

(٣) تفسير المراغي(٤٨٦/١).

(٤) سورة آل عمران الآية (١٠٥-١٠٦).

(٥) سورة الروم الآية (٣١-٣٢).

(٦) سورة الأنعام الآية (١٥٩).

(٧) سورة البقرة الآية (٢٥٤).

(٨) تفسير المراغي(٢٢/٢).

كلام المراغي رحمه الله على هذه الآية كلامٌ مجملٌ، لأنَّ الظلم وتركَ الاعتصام بحبل الدين، وعدم التفرق فيه، يكون كفرا ويكون كبيرة، ويدل على ذلك الكتاب والسنة، فالظلم يكون كفـرًا؛ كمـا في قولـه تعـالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾(١).

ويوضح هذه الآية حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «**لما نزلت هذه الآية** ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾(٢) **شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم، فقال رسول الله ﷺ: إنه ليس بذاك، ألا تسمع إلى قول لقمان لابنه:** ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾(٣)»(٤).

ويكون الظلم معصية كما في حديث أبي ذر عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا**»(٥)، ولذلك قد يسمى الكافر ظالما ويسمى العاصي من المسلمين ظالما فظلم ينقل عن ملة الإسلام وظلـم لا ينقـل قـال الله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾(٦)، وقـال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾(٧)"(٨).

والتفرق والاختلاف يكون كفرًا باختلاف الدين، أو باعتقاد عقيدةٍ تخريج من الملة؛ مثل عقيدة الجهمية، ويكون اختلافًا محرَّمًا إذا كان في الدين ولم يصل إلى درجة الردة، وكلا النوعين مذموم، والأدلة على ذلك كثيرة.

ومنها ما ذكره الإمام أبو بكر الآجري في الشريعة فقال: "باب ذكر الأمر بلزوم الجماعة والنَّهي عن الفرقة بل الاتباعُ وتركُ الابتداع.

---

(١)سورة لقمان الآية (١٣).

(٢) سورة الأنعام الآية (٨٢).

(٣) سورة لقمان الآية (١٣).

(٤) سبق تخريجه ص(١٠٧).

(٥) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (١٩٩٤/٤) الحديث رقم(٢٥٧٧).

(٦) سورة الأنعام الآية (٨٢).

(٧) سورة لقمان الآية (١٣).

(٨) تعظيم قدر الصلاة للمروزي(٥٢٣/٢).

قال محمد بن الحسين: إن الله بمنه، وفضله أخبرنا في كتابه عمن تقدم من أهل الكتابين اليهود والنصارى: أنهم إنما هلكوا بما اقترفوا في دينهم، وأعلمنا مولانا الكريم: أن الذي حملهم على الفرقة عن الجماعة، والميل إلى الباطل، الذي نهوا عنه: إنما هو البغي والحسد، بعد أن علموا ما لم يعلمه غيرهم، فحملهم شدة البغي والحسد إلى أن صاروا فرقا فهلكوا، فحذرنا مولانا الكريم في كتابه عن ذلك، قال تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(١)، وقال عز وجل: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾(٢)، وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾(٣)، وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾(٤)، وقال عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾(٥) وقال عز وجل: ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ

---

(١) سورة البقرة الآية (٢١٣).

(٢) سورة البقرة الآية (٢٥٣).

(٣) سورة آل عمران الآية (١٩).

(٤) سورة آل عمران الآية (١٥٩).

(٥) سورة يونس الآية (٩٣).

مُرِيبٍ ﴾(١)، وقال عز وجل: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾(٢).

قال محمد بن الحسين: فأعلمنا مولانا الكريم أنهم أوتوا علما، فبغى بعضهم على بعض، وحسد بعضهم بعضا، حتى أخرجهم ذلك إلى أن تفرقوا فهلكوا.

فإن قال قائل: فأين المواضع من القرآن التي نهانا الله عز وجل فيها أن نكون مثلهم، حتى نحذر ما حذرنا مولانا من الفرقة، بل نلزم الجماعة؟

قيل له: قال الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٢ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠٣ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٤ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(٣)، وقال عز وجل: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(٤)، وقال عز وجل: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾(٥)، وقال عز وجل: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُواْ

(١) سورة الشورى الآية (١٤).

(٢) سورة البينة الآية (٤-٥).

(٣) سورة آل عمران الآية (١٠٢-١٠٥).

(٤) سورة الأنعام الآية (١٥٣).

(٥) سورة الروم الآية (٣٠-٣٢).

ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾[1].

قال محمد بن الحسين: فهل يكون من البيان أشفى من هذا عند من عقل عن الله عز وجل؟ وقد مر ما حذرناه مولانا الكريم من الفرقة"[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فصل: قال الله تعالى لنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾[3] إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾[4] إلى قوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[5] فأمرنا بملازمة الإسلام إلى الممات كما أمر الأنبياء جميعهم بالإسلام، وأن نعتصم بحبله جميعا ولا نتفرق، ونهانا أن نكون كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، وذكر أنه تبيض وجوه وتسود وجوه، قال ابن عباس[6]: «تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة» وذكر أنه «يقال لهم: ﴿ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾[7]»، وهذا عائد إلى قوله: ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[8]، فأمر بملازمة الإسلام، وبين أن المسودة وجوههم أهل التفرق والاختلاف، يقال لهم: أكفرتم بعد إيمانكم؟ وهذا دليل على كفرهم وارتدادهم، وقد تأولها الصحابة في الخوارج، وهذا نظير قوله للرسل: ﴿ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾[9]، وقد قال في البقرة: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ

---

(١) سورة الشورى الآية (١٣).

(٢) الشريعة للآجري(٣-٤).

(٣) سورة آل عمران الآية (١٠٢-١٠٣).

(٤) سورة آل عمران الآية (١٠٥).

(٥) سورة آل عمران الآية (١١٠).

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره(٣/١٢٤).

(٧) سورة آل عمران الآية (١٠٦).

(٨) سورة آل عمران الآية (١٠٢).

(٩) سورة الشورى الآية (١٣).

أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴾[(١)]، وقال أيضا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۢ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[(٤)]، وقال: ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۢ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾[(٥)]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾[(٦)]، ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴾[(٧)] الآية، ونظيرها في الجاثية[(٨)].

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾[(٩)]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾[(١٠)]"[(١١)].

---

(١) سورة البقرة الآية (٢١٣).

(٢) سورة الأنعام الآية (١٥٩).

(٣) سورة المؤمنون الآية (٥٣).

(٤) سورة يونس الآية (١٠٥).

(٥) سورة الروم الآية (٣٢).

(٦) سورة آل عمران الآية (١٩).

(٧) سورة البينة الآية (٤).

(٨) وهي قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الجاثية: ١٧].

(٩) سورة النساء الآية (٥٩).

(١٠) سورة الحشر الآية (١٠).

(١١) مجموع الفتاوى(١٩/١١٤).

وأوضح المراغي رحمه الله مسألة الحكم بغير ما أنزل الله بعد قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[١]: "أي وكل من رغب عن الحكم بما أنزل الله وأخفاه وحكم بغيره كحكم اليهود في الزانيين المحصنين بالتحميم، وكتماهم الرجم[٢]، وقضائهم في بعض قتلاهم بدية كاملة وفي بعضها بنصف الدية[٣]، والله قد سوى بين الجميع في الحكم فأولئك هم الكافرون، الذين ستروا الحق الذي كان عليهم كشفه وتبيينه، وغطوه وأظهروا لهم غيره وقضوا به.

قال الرازي نقلا عن عكرمة: "إن الحكم بالكفر على من حكم بغير ما أنزل الله إنما يكون فيمن أنكر بقلبه وجحد بلسانه، أما من عرف بقلبه كونه حكم الله وأقر بلسانه كونه حكم الله إلَّا أنه أتى بما يضادُّه فهو حاكم بما أنزل الله، ولكنه تارك له، فلا يدخل تحت هذه الآية"[٤].

وأخرج ابن جرير عن أبي صالح قال: «الثلاثة الآيات التي في المائدة: ومن لم يحكم بما أنزل الله إلخ، ليس في الإسلام منها شيء، هي في الكفار»[٥].

وعن الشعبي أنه قال: «الثلاث الآيات التي في المائدة أولها في هذه الأمة، والثانية في اليهود، والثالثة في النصارى»[٦].

وخلاصة المعنى: ومن لم يحكم بما أنزل الله مستهينا به منكرا له كان كافرا لجحوده به واستخفافه بأمره"[٧].

المراغي رحمه الله نقل بعض أقوال أهل التفسير على هذه الآية، ونزيد الأمر إيضاحا بزيادة النقل في هذه المسألة، فقد قال الإمام ابن جرير رحمه الله: "القول في تأويل قوله عز ذكره: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[٨] قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ومن كتم

---

(١) سورة المائدة الآية (٤٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب {قل: فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين} (٣٧/٦) الحديث رقم(٤٥٥٦)، ومسلم، كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى (١٣٢٦/٣) الحديث رقم(١٦٩٩).

(٣) انظر: تفسير ابن جرير(٣١٥/١٠).

(٤) مفاتيح الغيب للرازي(٣٦٨/١٢)، وانظر: تفسير الثعلبي(٧٠/٤).

(٥) تفسير ابن جرير(٣٤٦/١٠).

(٦) تفسير ابن جرير(٣٥٤/١٠).

(٧) تفسير المراغي(٤٤٣/٢).

(٨) سورة المائدة الآية (٤٤).

حكم الله الذي أنزله في كتابه وجعله حكما بين عباده، فأخفاه وحكم بغيره، كحكم اليهود في الزانيين المحصنين بالتجبيه والتحميم، وكتمانهم الرجم، وكقضائهم في بعض قتلاهم بدية كاملة وفي بعض بنصف الدية، وفي الأشراف بالقصاص، وفي الأدنياء بالدية، وقد سوى الله بين جميعهم في الحكم عليهم في التوراة: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ يقول: هؤلاء الذين لم يحكموا بما أنزل الله في كتابه، ولكن بدلوا وغيروا حكمه، وكتموا الحق الذي أنزله في كتابه: ﴿هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ يقول: هم الذين ستروا الحق الذي كان عليهم كشفه وتبيينه، وغطوه عن الناس، وأظهروا لهم غيره، وقضوا به، لسحت أخذوه منهم عليه"[١].

وقال ابن القيم رحمه الله بعد ذكره للآية: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[٢] فقال: "قال ابن عباس: «ليس بكفر ينقل عن الملة، بل إذا فعله فهو به كفر وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر» وكذلك قال طاووس، وقال عطاء: «هو كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق»[٣]، ومنهم من تأول الآية على ترك الحكم بما أنزل الله جاحدا له وهو قول عكرمة[٤]، وهو تأويل مرجوح، فإن نفس جحوده كفر سواء حكم أو لم يحكم، ومنهم: من تأولها على ترك الحكم بجميع ما أنزل الله، قال: ويدخل في ذلك الحكم بالتوحيد والإسلام، وهذا تأويل عبدالعزيز الكناني[٥]، وهو أيضا بعيد، إذ الوعيد على نفي الحكم بالمنزل، وهو يتناول تعطيل الحكم بجميعه وببعضه، ومنهم من تأولها على الحكم بمخالفة النص تعمدا من غير جهل به ولا خطأ في التأويل، حكاه البغوي عن العلماء عموما[٦]، ومنهم من تأولها على أهل الكتاب وهو قول قتادة والضحاك وغيرهما وهو بعيد وهو خلاف ظاهر اللفظ فلا يصار إليه[٧]، ومنهم: من جعله كفرا ينقل عن الملة، والصحيح أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين الأصغر والأكبر، بحسب حال الحاكم، فإنه إن اعتقد وجوب الحكم

---

(١) تفسير ابن جرير(١٠/٣٤٥).

(٢) سورة المائدة الآية (٤٤).

(٣) تفسير ابن جرير(١٠/٣٥٦).

(٤) سبق ص(٧٥٢).

(٥) تفسير البغوي(٣/٦١).

(٦) تفسير البغوي(٣/٦١).

(٧) انظر: تفسير ابن جرير(١٠/٣٤٦).

بما أنزل الله في هذه الواقعة وعدل عنه عصيانا، لأنه مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة فهذا كفر أصغر، وإن اعتقد أنه غير واجب وأنه مخير فيه مع تيقنه أنه حكم الله تعالى فهذا كفر أكبر، وإن جهله وأخطأه فهذا مخطئ له حكم المخطئين"(١).

لكن من بدل أحكام الشريعة بالأحكام الوضعية هل يخرجه ذلك من الملة؟ أجاب على هذا التساؤل الإمام ابن باز رحمه الله بقوله: "إذا استباحها، فحكم بقانون غير الشريعة، يكون كافرا كفرًا أكبر، أما إذا فعل ذلك لأسباب خاصة كان عاصيا لله من أجل الرشوة، أو من أجل إرضاء فلان، وهو يعلم أنه محرم يكون كفرا دون كفر، أما إذا فعله مستحلا له، يكون كفرا أكبر، كما قال ابن عباس في قول: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(٢)، وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(٣)، وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(٤) قال: «ليس مثل من كفر بالله، لكنه كفر دون كفر»(٥)، إلا إذا استحل الحكم بالقانون أو استحل الحكم بكذا أو كذا غير الشريعة يكون كافرا، أما إذا فعله لرشوة أو لعداوة بينه وبين المحكوم عليه، أو لأجل إرضاء بعض الشعب، أو ما أشبه ذلك، هذا يكون كفرا دون كفر"(٦).

وممن فصل في هذا الموضوع وبينه أكمل بيان ورد شبه المخالفين ما قاله ابن عثيمين رحمه الله في إجابته على قول السائل: "يقول أكثر أهل العلم: إن الحاكم بغير ما أنزل الله إذا كان لا يستحل الحكم بغير ما أنزل الله، ويعلم أن حكم الله خير من حكم غيره فهو لا يكفر إلا بشرط الاستحلال، فما هو الدليل على أنه لا يكفر إلا أن يكون مستحلا لذلك؟ وإذا كان الاستحلال لا يكون إلا في القلب باعتقاد الشيء حله من حرامه، فكيف لنا أن نعرف أن هذا مستحل أو غير ذلك؟ جزاكم الله خيرا!

---

(١) مدارج السالكين(١/٣٣٦).

(٢) سورة المائدة الآية (٤٤).

(٣) سورة المائدة الآية (٤٥).

(٤) سورة المائدة الآية (٤٧).

(٥) سبق تخريجه ص(٧٥٤).

(٦) مجموع فتاوى العلامة عبد العزيز بن باز رحمه الله(٢٨/١٤٧).

الجواب: أولا: بارك الله فيك، لا بد أن نعلم أن معنى تكفير الإنسان نقله من الإسلام إلى الكفر، ويترتب على هذا أحكام عظيمة، من أهمها: استباحة دمه وماله، وهذا أمر عظيم لا يجوز لنا أن نتهاون به، مثلا: لو قلنا هذا حلال وهذا حرام بغير علم أهون مما إذا قلنا: هذا كافر وهذا مسلم بغير علم، ومن المعلوم أن التكفير والإسلام إنما هو إلى الله عز وجل، فإذا نظرنا إلى الأدلة وجدنا أن الله وصف الحاكمين بغير ما أنزل الله بثلاثة أوصاف؛ فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(١)، وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(٢)، وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(٣)، ووصف الحكم بغير ما أنزل الله بالجهل، فقال: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾(٤)، فلابد أن نرى مخرجا من هذه الأوصاف التي ظاهرها التعارض، ولا مخرج لنا في ذلك إلا أن تطبق على القواعد الشرعية، فمثلا: إذا جاءنا رجل ورفع الحكم الشرعي وأحل بدله قوانين تخالف ما أنزل الله على رسوله، فهذا لا شك أنه مستحل؛ لأنه رفع الحكم نهائيا ووضع قانونا من وضعه أو من وضع من هو أسوأ حالا منه، فهذا كافر؛ لأن رفعه للأحكام الشرعية ووضع القوانين بدلها يعني أنه استحل ذلك، لكن يبقى عنه: هل نكفر هذا الرجل بعينه، أو ننظر حتى تقوم عليه الحجة؟ لأنه قد يشتبه عليه مسائل الأمور الدنيوية من مسائل الأمور العقدية أو التعبدية، ولهذا تجده يحترم العبادة ولم يغير فيها، فلا يقول مثلا: إن صلاة الظهر تأتي والناس في العمل نؤجلها إلى العصر، أو صلاة العشاء تأتي والناس محتاجون إلى النوم والعشاء نقدمها إلى المغرب مثلا، يحترم هذا، لكن في الأمور الدنيوية ربما يتجاسر ويضع قوانين مخالفة للشرع، فهذا من حيث هو كفر لا شك فيه؛ لأن هذا رفع الحكم الشرعي واستبدل به غيره، ولكن لا بد أن نقيم عليه الحجة، وننظر لماذا فعلت ذلك؟ قد يلبس عليه بعض العلماء الذين هم علماء دولة، ويحرفون الكلم عن مواضعه من أجل إرضاء الحاكم، فيقولون مثلا: إن مسائل الدنيا اقتصاديا وزراعيا وأخذا وإعطاء موكول إلى البشر؛ لأن المصالح تختلف، ثم يموهون عليه بقوله ﷺ: «**أنتم أعلم**

---

(١) سورة المائدة الآية (٤٤).

(٢) سورة المائدة الآية (٤٥).

(٣) سورة المائدة الآية (٤٧).

(٤) سورة المائدة الآية (٥٠).

بأمور دنياكم»[١]، وغالب الحكام الموجودين الآن جهلة، لا يعرفون شيئا، فإذا أتى إنسان كبير العمامة طويل الأذيال واسع الأكمام وقال له: هذا أمر يرجع إلى المصالح، والمصالح تختلف بحسب الزمان والمكان والأحوال، والنبي عليه الصلاة والسلام قال: «**أنتم أعلم بأمور دنياكم**»، ولا بأس أن تغيروا القوانين التي كانت مقننة في عهد الصحابة وفي وقت مناسب إلى قوانين توافق ما عليه الناس في هذا الوقت، فيحللون ما حرم الله، ويقولون مثلا: الربا نوعان: ربا الاستثمار، وربا الاستغلال، فالأول جائز والثاني حرام، ثم يقولون: اكتب هذه المادة، فيكون هذا جاهلا، لكن إذا أقمنا عليه الحجة وقلنا: هذا غلط، وهذا خطأ وتحريف من هذا العالم الذي غرك، ثم أصر على ما هو عليه؛ حينئذ نحكم بكفره ولا نبالي، فالحاصل: أن العلماء رحمهم الله قسموا هذا التقسيم من أجل موافقة هذه النصوص المطلقة للقواعد الشرعية المعلومة"[٢].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعا، دون ما ذكره صلى الله عليه وسلم من معايش الدنيا، على سبيل الرأي (١٨٣٦/٤) الحديث رقم(٢٣٦٣).

(٢) سلسلة لقاءات الباب المفتوح اللقاء رقم(٨٧).

المطلب الثاني: الكبائر

عرَّف المراغي الكبائر فقال: "وقيل الكبيرة: كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب أو حد في الدنيا، أو أقدم صاحبه عليه من غير استشعار خوف أو ندم، أو ترتب عليه مفاسد كبيرة، ولو كان في نظر الناس صغيرا، فمن أمسك إنسانا ليقتله ظالم، أو دل العدو على عورات البلاد فقد فعل أمرا عظيما، فيكون أكل مال اليتيم إذا قيس على هذين قليلا مع أنه من الكبائر"(١).

وذكر بعد قوله تعالى: ﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴾(٢) فقال: "والكبائر واحدتها كبيرة، وهي المعصية العظيمة، والسيئات واحدتها سيئة، وهي الفعلة التي تسوء صاحبها عاجلا أو آجلا، والمراد بها هنا الصغيرة، ونكفر: نغفر ونمح...

ثم قال في المعنى الإجمالي للآية: نهى عن جميع الكبائر التي يعظم ضررها، وتؤذن بضعف إيمان مرتكبها، ووعد من تركها بالمدخل الكريم.

ثم ساق في إيضاح الآية فقال: وقد اختلف في عدد الكبائر فقيل: هي سبع لما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والسحر، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات**»، وفي رواية لهما عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين -وكان متكئا فجلس، وقال-: ألا وقول الزور وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت**»(٣).

---

(١) تفسير المراغي(٣٣٨/٩).

(٢) سورة النساء الآية (٣١).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور (١٧٢/٣) الحديث رقم(٢٦٥٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها(٩١/١) الحديث رقم(١٤٣).

وفيهما أيضا من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه، قالوا: وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**»(١).

والأحاديث الصحيحة مختلفة في عددها، ومجموعها يزيد على سبع، ومن ثم قال ابن عباس «لما قال له رجل: الكبائر سبع؟ قال: هي إلى سبعين أقرب، إذ لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار»(٢)، ومراده أن كل ذنب يرتكب لعارض يعرض على النفس من استشاطة غضب أو ثورة شهوة، وصاحبه متمكن من دينه، يخاف الله ولا يستحل محارمه، فهو من السيئات التي يكفرها الله تعالى، إذ لولا ذلك العارض القاهر للنفس لم يكن ليجترحه تهاونا بالدين، إذ هو بعد اجتراحه يندم ويتألم ويتوب ويرجع إلى الله تعالى، ويعزم على عدم العودة إلى اقتراف مثله، فهو إذ ذاك أهل لأن يتوب الله عليه، ويكفر عنه.

و كل ذنب يرتكبه الإنسان مع التهاون بالأمر وعدم المبالاة بنظر الله إليه، ورؤيته إياه حيث نهاه، فهو مهما كان صغيرا في صورته، أو في ضرره، يعد كبيرا من حيث الإصرار والاستهتار، فتطفيف الكيل والميزان ولو حبة لمن اعتاده، والهمز واللمز (عيب الناس والطعن في أعراضهم) لمن تعوده كل ذلك كبيرة ولا شك، وكان النبي ﷺ يذكر في كل مقام ما تمس إليه الحاجة، ولم يرد الحصر والتحديد"(٣).

المراغي رحمه الله في موضوع الكبائر وافق تعريف أهل العلم للكبائر، ومن ذلك ما أجاب به شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله لما سئل عن الكبائر: "سئل رضي الله عنه عن شرب الخمر وفعل الفاحشة أيهما أعظم إثما عند الله؟ أم هما مستويان؟ وما هي الكبائر التي قال عز وجل فيها: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾(٤) فما هي هذه الكبائر وما هي السيئات؟

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه (٣/٨) الحديث رقم(٥٩٧٣) ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها (٩٢/١) الحديث رقم(١٤٦).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره(٢٤٥/٨).

(٣) تفسير المراغي(٢٠٠/٢- ٢٠٢).

(٤) سورة النساء الآية (٣١).

فأجاب رضي الله عنه: "الحمد لله، الكبائر هي ما فيها حدٌّ في الدنيا أو في الآخرة: كالزنا والسرقة والقذف التي فيها حدود في الدنيا، وكالذنوب التي فيها حدود في الآخرة، وهو الوعيد الخاص، مثل الذنب الذي فيه غضب الله ولعنته أو جهنم؛ ومنع الجنة كالسحر واليمين الغموس، والفرار من الزحف، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور، وشرب الخمر ونحو ذلك...

ثم قال: والزنا أعظم من شرب الخمر إذا استويا في القدر، مثل من يزني مرة ويشرب الخمر مرة، فأما إذا قدر أن رجلا زنى مرة، وآخر مدمن على شرب الخمر، فهذا قد يكون أعظم من ذاك، كما أنه لو زنى مرة وتاب كان خيرا من المصر على شرب الخمر، وكذلك شارب الخمر إذا دعا غيره فيكون عليه إثم شربه، وعليه قسطٌ من إثم الذين دعاهم إلى الشرب، وكذلك إذا اقترن بالشرب سماع المزامير والشرب على بعض الصور المحرمة ونحو ذلك فهذا مما يتغلظ فيه الشرب، والذنب يتغلظ بتكراره وبالإصرار عليه، وبما يقترن به من سيئات أخر، وكذلك لو قدرنا أن الزاني زنى وهو خائف من الله وجل من عذابه، والشارب يشرب لاهيا غافلا لا يراقب الله، كان ذنبه أعظم من هذا الوجه، فقد يقترن بالذنوب ما يخففها وقد يقترن بها ما يغلظها، كما أن الحسنات قد يقترن بها ما يعظمها وقد يقترن بها ما يصغرها، فكما أن الحسنات أجناس متفاضلة، وقد يكون المفضول في كثير من المواضع أفضل مما جنسه فاضل، فكذلك السيئات؛ فالصلاة أفضل من القراءة، والقراءة أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الدعاء؛ مع أن القراءة والذكر والدعاء بعد الفجر وبعد العصر أفضل من تحري صلاة التطوع في ذلك، وكذلك التسبيح في الركوع والسجود أفضل من قراءة القرآن فيه، وقد يكون بعض الناس انتفاعه بالذكر والدعاء أعظم من انتفاعه بالقراءة، فيكون أفضل في حقه، فهكذا السيئات، وإن كان القتل أعظم من الزنا، والزنا أعظم من الشرب، فقد يقترن بالشرب من المغلظات ما يصير به أغلظ من بعض ضرر الزنا، وإذا عرف أن الحسنات والسيئات تتفاضل بالأجناس تارة، وتتفاضل بأحوال أخرى تعرض لها: تبين أن هذا قد يكون أعظم من هذا وهذا أعظم من هذا، والعبد قد يأتي بالحسنة بنية وصدق وإخلاص تكون أعظم من أضعافها، كما في حديث صاحب البطاقة الذي رجحت بطاقته التي فيها: "لا إله إلا الله" بالسجلات التي فيها ذنوبه(١)،

---

(١) أخرجه أحمد في المسند(١١/٥٧٠) الحديث رقم(٦٩٩٤)، والترمذي في سننه، أبواب الإيمان، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله (٥/٢٤) الحديث رقم(٢٦٣٩) وقال: هذا حديث حسن غريب، وصححه

وكما في حديث البغي التي سقت كلبا بموقها فغفر الله لها[1]، وكذلك في السيئات، والله أعلم"[2].

والذنوب مقسمة إلى كبائر وصغائر "وكل منهما درجات؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر**»[3]؛ وحد الكبائر اختلف فيه أقوال الناس:

فمنهم من قال: إن الكبائر معدودة؛ وذهب يتتبع كل نص قال فيه الرسول ﷺ: هذا من الكبائر؛ وعدها سردا.

ومنهم من قال: إن الكبائر محدودة؛ يعني أن لها حدا -أي ضابطا يجمعها-؛ ليست معينة: هذه، وهذه، وهذه؛ ثم اختلفوا في الضابط:

فقال بعضهم: كل ذنب لعن فاعله فهو كبيرة.

وقال بعضهم: كل ذنب فيه حد في الدنيا فهو كبيرة.

وقال بعضهم: كل ذنب فيه وعيد في الآخرة فهو كبيرة.

لكن شيخ الإسلام رحمه الله قال في بعض كلام له[4]: إن الكبيرة كل ما رتب عليه عقوبة خاصة سواء كانت لعنة؛ أو غضبا؛ أو حدا في الدنيا؛ أو نفي إيمان؛ أو تبرؤا منه؛ أو غير ذلك؛ فالذنب إذا قيل: لا تفعل كذا؛ أو حرم عليك كذا؛ أو ما أشبه ذلك بدون أن يجعل عقوبة خاصة بهذا الذنب فهو صغيرة؛ أما إذا رتب عليه عقوبة -أي عقوبة كانت- فإنه يكون من الكبائر؛ فالغش مثلا كبيرة؛ لأنه رتب عليه عقوبة خاصة، وهي البراءة منه...

ثم قال: وهذا الضابط أقرب الضوابط في تعريف الكبيرة؛ ولكن مع هذا لا نقول: إن هذه الكبائر سواء؛ بل من الكبائر ما يقرب أن يكون من الصغائر على حسب ما رتب عليه من العقوبة؛ فقطاع الطريق مثلا أعظم جرما من اللصوص"[5].

الألباني في صحيح الجامع الصغير الحديث رقم(١٧٧٦).

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار (١٧٣/٤) الحديث رقم(٣٤٦٧)، ومسلم، كتاب السلام، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها (١٧٦١/٤) الحديث رقم(٢٢٤٥).

(٢) مجموع الفتاوى(٦٥٨/١١).

(٣) سبق تخريجه ص(٧٥٨).

(٤) الفتاوى الكبرى(١٣٠/٥).

(٥) تفسير القرآن لابن عثيمين(٤٣/٥).

المطلب الثالث: المنافقين

تكلم المراغي رحمه الله على النفاق والمنافقين من خلال تفسيره، فقال في تعريف المنافق: "والمنافق من يظهر الإسلام ويسر الكفر"، وقال أيضا: "المنافق: من يظهر الإيمان ويبطن الكفر"[(١)].

وذكر رحمه الله في توضيحه لسورة المنافقين فقال: "وصف الله تعالى المنافقين بأوصاف هي منتهى الشناعة والقبح:

(١) أنهم كذابون يقولون غير ما يعتقدون.

(٢) أنهم لا يبالون بالحلف بالله كذبا، سترا لنفاقهم، وحقنا لدمائهم.

(٣) أنهم جبناء، فهم على ضخامة أجسامهم، وفصاحة ألسنتهم، يظنون أن كل مناد ينادي إنما يقصدهم للإيقاع بهم.

ثم ذكر قوله تعالى: ﴿ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[(٢)] أي فمنعوا الناس عن الدخول في الإسلام، وعن الإنفاق كما حكى عنهم سبحانه بعد.

وقصارى ذلك: أنهم أجرموا جرمين:

(١) أعدوا الأيمان الكاذبة وهيئوها لوقت الحاجة، ليحلفوا بها ويتخلصوا من المؤاخذة.

(٢) أنهم يمنعون الناس عن الدخول في الإسلام وينفرونهم منه متى استطاعوا إلى ذلك سبيلا"[(٣)].

وأوضح رحمه الله موقف المنافقين بعد قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴾[(٤)] أي انظر إلى عجيب أمر هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بك وآمنوا بمن قبلك من الأنبياء ويأتون بما ينافي الإيمان، إذ الإيمان الصحيح بكتب الله ورسله يقتضي العمل بما شرعه الله على ألسنة أولئك الرسل، وترك العمل مع الاستطاعة دليل على أن الإيمان غير

(١) تفسير المراغي(٤/٩) و (٨٩/١٠).

(٢) سورة المنافقون الآية (٢).

(٣) تفسير المراغي(٨٩/١٠- ٩٠).

(٤) سورة النساء الآية (٩٠).

راسخ في نفس مدَّعيه فكيف إذا عمل بضد ما شرعه الله؟ فهؤلاء المنافقون إذ هربوا من التحاكم إليك وقبلوا التحاكم إلى مصدر الطغيان والضلال من أولئك الكهنة والمشعوذين، سواء أكان أبا برزة الأسلمي أم كعب بن الأشرف، دليل على أن الإيمان ليس له أثر في نفوسهم، بل هي كلمات يقولونها بأفواههم لا تعبر عما تلجلج في صدورهم، وكيف يزعمون الإيمان بك وكتابك المنزل عليك يأمرهم بالكفر بالجبت والطاغوت في نحو قوله: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[1]، وقوله: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾[2]، وهم يتحاكمون إليه؟ فألسنتهم تدَّعي الإيمان بالله وبما أنزله على رسله، وأفعالهم تدل على كفرهم بالله وإيمانهم بالطاغوت وإيثارهم لحكمه.

ويدخل في هؤلاء كل من يتحاكم إلى الدجالين كالعرافين وأصحاب المندل والرمل ومدَّعي الكشف والولاية[3].

وفي الآية إيماء إلى أن من رد شيئا من أوامر الله أو أوامر الرسول ﷺ فهو خارج من الإسلام، سواء رده من جهة الشك أو من جهة التمرد، ومن أجل هذا حكم الصحابة بردة الذين منعوا الزكاة وقتلهم وسبى ذراريهم"[4].

---

(١) سورة النحل الآية (٣٦).

(٢) سورة البقرة الآية (٢٥٦).

(٣) العراف هو: "الذي يزعم أنه يعرف الأمور، بمقدمات أسباب، يستدل بها على مواقعها، كالشيء يسرق فيعرف المظنون به السرقة" انظر: معالم السنن(٤/٢١٢).

والمندل: من أعمال السحرة، وأصل هذه الكلمة في الهندية: "مَنْتَرْ"، وله عندهم صور؛ منها: أن يستحضر العامل صبيًّا ويضع له إناء من ماء أو نقطة كبيرة من المداد، أو غير ذلك من الأشياء الصقيلة، ويأمر الصبي أن يحدق في ذلك الشيء، والعامل يكرر ألفاظا أعجمية وربما يكتبها أيضا، ويزعمون أن الصبيَّ يتراءى في ذلك الشيء الصقيل أشخاصا من الروحانيين، ويأمره العامل أن يخاطب أولئك الأشخاص، كأن يقول لهم: أحضروا كبشًا، ثم يقول لهم: اذبحوه، اسلخوه، قطِّعوه، اطبخوه، كلوه، فيراهم يفعلون ذلك. انظر: آثار الشيخ العلامة المعلمي اليماني(٣/٩٨٦).

والرمال هو: الذي يخط الخطوط بالرمل وهو العراف انظر: لسان العرب(١٠/٢١٥).

ومدعي الكشف، جاء تعريف المكاشفة في اصطلاحات الصوفية بأنها: "شهود الأعيان وما فيها من الأحوال في عين الحق، فهو التحقيق الصحيح بمطالعة تجليات الأسماء الإلهية" انظر: اصطلاحات الصوفية ص(٢٠١).

(٤) تفسير المراغي(٢/٢٤٦- ٢٤٧).

ثم ذكر رحمه الله الموقف من المنافقين فقال بعد قول الحق سبحانه: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴾(١): "طلب إليه سبحانه أن يعاملهم بثلاثة أشياء:

(١) الإعراض عنهم وعدم الإقبال عليهم بالبشاشة والتكريم، إذ هذا يحدث في نفوسهم الهواجس والخوف من سوء العاقبة، وهم لم يكونوا على يقين من أسباب كفرهم ونفاقهم، وكانوا يحذرون أن تنزل عليه سورة تنبئهم بما في قلوبهم، وإذا استمر هذا الإعراض عنهم ظنوا الظنون، وقالوا لعله عرف ما في نفوسنا، لعله يريد أن يؤاخذنا بما في بواطننا.

(٢) النصح والتذكير بالخير على وجه ترِقُّ له قلوبهم، ويبعثهم على التأمل فيما يلقى إليهم من العظات والزواجر.

(٣) القول البليغ المؤثر في النفس الذي يغتمون به ويستشعرون منه الخوف بأن يتوعدهم بالقتل والاستئصال إن نجم منهم النفاق، ويخبرهم بأن ما في نفوسهم من مكنونات الشر والنفاق غير خافٍ على العليم بالسرِّ والنجوى، وأنه لا فرق بينهم وبين الكفار، وإنما رفع الله عنهم السيف لأنهم أظهروا الإيمان وأسروا الكفر وأضمروه، فإن فعلوا ما ينكشف به غطاؤهم لم يبق إلا السيف"(٢).

وأوضح رحمه الله مصير المنافقين في الآخرة بعد قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴾(٣): "الدرك والدرك بالسكون والتحريك: الطبقة أسفل من الأخرى، فإذا كانت أعلى منها كانت درجة، والنار سبع دركات، سميت بذلك لأنها متداركة متتابعة، وفي الآية إشارة إلى أن دار العذاب في الآخرة ذات دركات بعضها أسفل من بعض، كما أن دار النعيم درجات بعضها أعلى من بعض.

وإنما كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار، لأنهم شر أهلها، إذ هم جمعوا بين الكفر والنفاق، ومخادعة الرسول والمؤمنين وغشهم، فأرواحهم أسفل الأرواح، ونفوسهم أحط النفوس، ومن ثم كانوا أجدر الناس بالدرك الأسفل منها.

---

(١) سورة النساء الآية (٦٣).

(٢) تفسير المراغي(٢٤٨/٢).

(٣) سورة النساء الآية (١٤٥).

ثم تكلم على توبة المنافق وشروطها بعد قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴾[1] أي هذا الجزاء الشديد الذي أعده الله للمنافقين لا يكون للذين تابوا من النفاق والكفر وندموا على ما فرط منهم، وأتبعوا ذلك بأمور ثلاثة:

(١) اجتهادهم في صالح الأعمال التي تغسل أدران النفاق، بأن يلتزموا الصدق في القول والعمل، مع الأمانة والوفاء بالوعد، ويخلصوا النصح لله ورسوله، ويقيموا الصلاة مع الخشوع والخضوع ومراقبة الله في السر والعلن.

(٢) اعتصامهم بالله بأن يكون غرضهم من التوبة وصلاح العمل مرضاة الله، مع التمسك بكتابه، والتخلق بآدابه، والاعتبار بمواعظه، والرجاء في وعده، والخوف من وعيده، والائتمار بأوامره، والانتهاء عن نواهيه، كما قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾[2].

(٣) إخلاصهم لله بأن يدعوه وحده ولا يدعوا من دونه أحدا لكشف ضر ولا لجلب نفع، بل يكون كل ما يتعلق بالدين والعبادة خالصا له وحده كما قال: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾[3]، وكما جاء في قوله: ﴿ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾[4]"[5].

وذكر رحمه الله معاملة المنافقين بعد قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[6] فقال: "وقد اتفق الأئمة على أن المنافقين يعاملون بأحكام الشريعة كالمسلمين الصادقين، فلا يقاتلون إلا إذا ارتدوا أو بغوا على جماعة المسلمين

---

(١) سورة النساء الآية (١٤٦).

(٢) سورة النساء الآية (١٧٥).

(٣) سورة الفاتحة الآية (٥).

(٤) سورة الزمر الآية (٢-٣).

(٥) تفسير المراغي(٢/٣٤٢)

(٦) سورة التوبة الآية (٧٣).

بالقوة، أو امتنعوا من إقامة شعائر الإسلام وأركانه، وعن ابن عباس رضى الله عنه قال: «جهاد الكفار بالسيف، وجهاد المنافقين باللسان»[١] أي بالحجة والبرهان"[٢].

وأوضح رحمه الله اقسام المنافقين في سياق قوله تعالى: (﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾[٣] فقال: "وجملة القول: إن المنافقين فريقان: فريق عُرِفُوا بأقوالٍ قالوها وأعمالٍ عملوها، وفريق مرَدُوا على النفاق وحذِقُوه حتى لا يشعر أحد بشيء يستنكره منهم، وهذان الفريقان يوجدان في كل عصر، فما من قطر من الأقطار إلا مُنِيَ أهلُه بأعوان وأنصار منهم يزعمون أنهم يخدمون أمتهم من طريق استمالة الغاصب واسترضائه، وأنه لولاهم لتمادى في ظلمه وهضم حقوق الأمة ولم يقف عند حد، ومنهم من يخدمون المستعمرين خدمة خفية لا تشعر بها الأمة لأنهم مرنوا على النفاق.

وأشد المنافقين مرودا على النفاق أعوان الملوك المستبدين الذين يلبسون الباطل لباس الحق، ويروجونه في أعين الجماهير خدمة لأولئك الملوك"[٤].

المراغي رحمه الله بين في هذا الموضوع أهم المسائل المتعلقة بالنفاق والمنافقين، ولكن نزيد الموضوع إيضاحا، فنقول: قال أهل العلم في تعريف النفاق:

النفاق لغة: مأخوذ من النفق، وهو السرب في الأرض الذي يستتر فيه؛ سمي النفاق بذلك؛ لأن المنافق يستر كفره ويغيبه.

وقيل إنه مأخوذ من نافِقَاءِ اليربوع، وهو باب جُحره؛ لأنه في ظاهره أرض مستوية وباطنه حُفْرَةٌ قد أعدها اليربوع للتخلُّص من الخطر وقت الحاجة؛ فاستطاع بهذا الفعل أن يخدع الصياد؛ فكذلك المنافق يظهر خلاف ما يبطن"[٥].

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره(١٤/٣٥٩).

(٢) تفسير المراغي(٤/١٣٣).

(٣) سورة التوبة الآية (١٠١).

(٤) تفسير المراغي(٤/١٥٩).

(٥) انظر: معجم مقاييس اللغة، مادة نفق(٥/٤٥٤)، والنهاية في غريب الحديث والأثر(٥/٢٠٨)، ولسان العرب، مادة نفق(١٠/٣٥٨).

والنفاق شرعا: سبق تعريف المراغي له بقوله: "والمنافق من يظهر الإسلام ويسر الكفر"، وقال أيضا: "المنافق: من يظهر الإيمان ويبطن الكفر"[(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله لما تكلم على مسألة الألفاظ فقال: "ولفظ النفاق من هذا الباب، فإنه في الشرع إظهار الدين وإبطان خلافه، وهذا المعنى الشرعي أخص من مسمى النفاق في اللغة، فإنه في اللغة أعم من إظهار الدين، ثم إبطان ما يخالف الدِّينَ إمَّا أن يكون كفرا أو فسقا، فإذا أظهر أنه مؤمن وأبطن التكذيب فهذا هو النفاق الأكبر الذي أوعد صاحبه بأنه في الدرك الأسفل من النار، وإن أظهر أنه صادق أو مُوَفٍّ أو أمين وأبطن الكذب والغدر والخيانة ونحو ذلك، فهذا هو النفاق الأصغر الذي يكون صاحبه فاسقا.

فإطلاق النفاق عليهما في الأصل بطريق التواطؤ، وعلى هذا؛ فالنفاق اسم جنس تحته نوعان: ثم إنه قد يراد به النفاق في أصل الدين، مثل قوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[(٢)]، و﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾[(٣)] والمنافق هنا: الكافر، وقد يراد به النفاق في فروعه، مثل قوله ﷺ: «**آية المنافق ثلاث**»[(٤)]، **وقوله**: «**أربع من كن فيه كان منافقا خالصا**»[(٥)]، وقول ابن عمر فيمن يتحدث عند الأمراء بحديث، ثم يخرج فيقول بخلافه: «**كنا نعد هذا على عهد النبي ﷺ نفاقا**»[(٦)]، فإذا أردت به أحد النوعين؛ فإما أن يكون تخصيصه لقرينة لفظية مثل لام العهد والإضافة؛ فهذا لا يخرجه عن أن يكون متواطئا ؛كما إذا قال الرجل: جاء القاضي، وعنى به

---

(١) تفسير المراغي(٩/٤) و (٨٩/١٠).

(٢) سورة النساء الآية (١٤٥).

(٣) سورة المنافقون الآية (١).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق (١٦/١) الحديث رقم(٣٣)، ومسلم كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق (٧٨/١) الحديث رقم(١٠٧).

(٥) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق (١٦/١) الحديث رقم(٣٤)، ومسلم كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق (٧٨/١) الحديث رقم(١٠٦).

(٦) أخرجه البخاري، كتاب الأحكام، باب ما يكره من ثناء السلطان، وإذا خرج قال غير ذلك (٧١/٩) الحديث رقم(٧١٧٨).

قاضي بلده لكون اللام للعهد، كما قال سبحانه: ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ ﴾[1] أن اللام هي أوجبت قصر الرسول على موسى لا نفس لفظ رسول، وإما أن يكون لغلبة الاستعمال عليه فيصير مشتركا بين اللفظ العام والمعنى الخاص، فكذلك قوله: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ﴾ فإن تخصيص هذا اللفظ بالكافر إما أن يكون لدخول اللام التي تفيد العهد، والمنافق المعهود: هو الكافر، أو تكون لغلبة هذا الاسم في الشرع على نفاق الكفر، وقوله ﷺ: «**ثلاث من كن فيه كان منافقا**»[2]، يعني به منافقا بالمعنى العام، وهو إظهاره من الدين خلاف ما يبطن.

فإطلاق لفظ النفاق على الكافر وعلى الفاسق إن أطلقته باعتبار ما يمتاز به عن الفاسق، كان إطلاقه عليه وعلى الفاسق باعتبار الاشتراك، وكذلك يجوز أن يراد به الكافر خاصة، ويكون متواطئا إذا كان الدال على الخصوصية غير لفظ "منافق" بل لام التعريف. وهذا البحث الشريف جار في كل لفظ عام استعمل في بعض أنواعه، إما لغلبة الاستعمال أو لدلالة لفظية خصته بذلك النوع، مثل تعريف الإضافة أو تعريف اللام، فإن كان لغلبة الاستعمال صح أن يقال: إن اللفظ مشترك، وإن كان لدلالة لفظية كان اللفظ باقيا على مواطأته، فلهذا صح أن يقال "النفاق" اسم جنس تحته نوعان، لكون اللفظ في الأصل عاما متواطئا، وصح أن يقال: هو مشترك بين النفاق في أصل الدين وبين مطلق النفاق في الدين؛ لكونه في عرف الاستعمال الشرعي غلب على نفاق الكفر"[3].

---

(١) سورة المزمل الآية (١٦).

(٢) سبق تخريجه ص(٧٦٧).

(٣) الفتاوى(١١/١٤٣).

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم المرسلين

أما بعد فهذه خاتمة المطاف بعد بضع سنين قضيتها بين الكتب من مختلف الفنون والعلوم، والآن وصلت إلى الختام لأجمل ثمرات التطواف التي جنيتها عبر هذه السنين فأقول مستعينا بالحي القيوم:

من أهم النتائج التي توصلت إليها:

(١) أن المراغي رحمه الله قضى جل حياته في تعلم اللغة العربية وتعليمها ثم ختم عمره بتفسير كتاب الله فهو ليس من أهل الاختصاص في التفسير.

(٢) المراغي رحمه الله كثيرا ما يصوغ كلام المفسرين بأسلوبه من أجل تبسيطه لعامة المسلمين فمن أجل ذلك وقع في بعض المخالفات.

(٣) عامة كلامه في باب توحيد الربوبية والألوهية موافق لمذهب السلف.

(٤) توحيد الأسماء والصفات لم يثبت على قدم وافق السلف في بعض وخالفهم في بعض.

(٥) بقية أركان الإيمان ومسائل الأسماء والأحكام ففي الأصل والجملة أنه موافق للسلف.

(٦) تأثره بالمدرسة العقلية من أجل ذلك رد بعض الأحاديث الثابتة بحجة أنها أخبار آحاد.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

١- فهرس الآيات القرآنية

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ﴾	٢٣٧	٣٩٤، ٤٠٢
﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾	٢٤٢	٤٠
﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ﴾	٢٤٣	٣٤
﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾	٢٤٩	٣٩٣
﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾	٢٥٢	٥٤٤
﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾	٢٥٣	١٨٣، ٤٤٢، ٤٤٤، ٥٤٣، ٥٤٤، ٥٤٥، ٥٤٦، ٥٤٨، ٧٦٢
﴿يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞ﴾	٢٥٤	**خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.**، ٧٦٠
﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾	٢٥٥	٨٨، ١٦٣، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٧٠، ٢٧٥، ٢٩٤، ٣٣٧، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣٥، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٤٨
﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾	٢٥٦	٧٧٦
﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾	٢٥٧	١٥٤
﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾	٢٥٨	٧٠

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ ﴾	١١٥	٢٣، ٦٦٦، ٧٣٧
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾	١١٦	٩٦، ٩٧
﴿ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا ﴾	١١٧	٨٩، ١٦٦، ١٦٦، ٢١٤
﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾	١١٨	١٦٦
﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ﴾	١١٩	١٦٧
﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾	١٢٤	١٣٤
﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ ﴾	١٢٥	٨١، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٧، ٧٤١
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾	١٣٦	٤١٣، ٤٦٨، ٧٠٧
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ﴾	١٣٧	٦٦٩
﴿ وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ﴾	١٤٠	٣٤
﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ ﴾	١٤٢	٤٥٦
﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴾	١٤٥	٧٧٧، ٧٨٠
﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ ﴾	١٤٦	٧٧٨
﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ ﴾	١٤٨	٣٧٠
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ ﴾	١٥٠	٥٢٢
﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ ﴾	١٥٢	٥٢٣
﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾	١٦٢	٥٤٤
﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ ﴾	١٦٣	٤٩٧، ٥٠١

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾	١٦٤	٤٤٢، ٤٤٤، ٥٤٦
﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ ﴾	١٦٥	٦٩٠
﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾	١٧٠	٤١٣
﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾	١٧١	١٧٠، ٣٥٩
﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ ﴾	١٧٢	٤٨٠، ٤٨٨، **خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.**
﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ ﴾	١٧٥	٧٧٨
﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾	١٧٦	٤١٣
سورة المائدة		
﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾	٣	٤٧، ٦٧٩، ٢٩٨
﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾	٦	٦٧٦
﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾	١١	٧٠٠
﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾	١٢	٣٩١
﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾	٢٦	٦٧٩
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾	٣٥	٢٥٧، ٢٥٨
﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾	٣٦	٢٦١
﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾	٣٨	٤٠٧
﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾	٤١	٧٥٠

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ ﴾	٤٤	٥٢١، ٧٦٠، ٧٦٦، ٧٦٦، ٧٦٧، ٧٦٨، ٧٦٩
﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾	٤٥	٧٦٨، ٧٦٩
﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾	٤٧	٧٦٨، ٧٦٩
﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾	٤٨	٢٦٨، ٥٠٠، ٥٠٠، ٦٧٩
﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾	٥٠	٦٨١، ٧٦٩
﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ ﴾	٥٢	٣٩٠
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ ﴾	٥٤	٦٧١، ٧٢٧، ٧٢٨
﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ ﴾	٦٤	٣٩٤، ٣٩٤، ٣٩٩، ٤٠١، ٤٠٣
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ ﴾	٦٧	٢٨٩، ٣١٤، ٤٣٧
﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ ﴾	٧٢	١٠٠
﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾	٨٥	٣٥
﴿ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ ﴾	٩٤	٤٢٨
﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ ﴾	١٠٣	١٦٨، ١٨٨، ٦٧٩
﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ ﴾	١٠٤	١٦٩

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾	٥٩	٦٥٣، ٦٥٤
﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾	٦١	٤٧١، ٤٧٦، ٥٥٧، ٦٠٤
﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾	٦٤	١١٩
﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾	٧٠	٢٦٤
﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾	٧١	١٧٢
﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ﴾	٧٣	٥٦٧، ٦٧٥
﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ﴾	٧٤	١٧٣
﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾	٧٥	١٧٤
﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾	٧٦	١٧٤، ١٧٤
﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾	٧٧	١٧٦
﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾	٧٨	١٧٦، ١٧٦
﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ﴾	٧٩	١٧٧، ١٩٩
﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ﴾	٨٠	١٧٩
﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ﴾	٨١	١٨١
﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم﴾	٨١	١٨١، ١٨١، ٢٤٢
﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾	٨٢	١٠٦، ١٨٢، ٧٦١، ٧٦١
﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ﴾	٨٣-٨٦	٥٤٢، ١٨٢
﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ﴾	٨٤-٨٧	٥٤٣
﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾	٨٨	١٠١
﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ﴾	٩١	١٣٤

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ ﴾	١٩	٦٣٠
﴿ وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ ﴾	٢٠	٤٨٠
﴿ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴾	٢٩	٥٥٢
﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ ﴾	٣٣	٣٥، ٣٧، ٧٣٦، ٣٤٢
﴿ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ ﴾	٣٩	٢٤٧
﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ ﴾	٤١	٦٣٤
﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا ﴾	٤٢	٦١٨، ٦١٩
﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾	٤٣	٦١٩، ٦٢٠
﴿ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴾	٤٦	٦١٠
﴿ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾	٤٧	٦٠٩
﴿ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ ﴾	٥٢	٧٨
﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ ﴾	٥٣	٣٦٥، ٤٣٦
﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾	٤٥	٤٦
﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ﴾	٥٤	٣٧٧، ٣٨٢، ٣٨٤، ٦٦١، ٦٧٥، ٦٨٥
﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾	٥٥	٢٦٨، ٣٠٦، ٣٠٧
﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ ﴾	٥٧	٥٧٠، ٥٧٠، ٦٧٨
﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا ﴾	٨٩	٣١٢
﴿ وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ ﴾	١٠٢	٦٠

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا ﴾	١١٣	٢٩١
﴿ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾	١١٤	٢٩١
﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ﴾	١١٥	٢٩١
﴿ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ ﴾	١١٦	٢٧٩، ٢٩١
﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴾	١١٧	٢٩٣
﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ ﴾	١٣٨	١٨٨
﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩﴾	١٣٩	١٩٠
﴿ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾	١٤٠	١٩٠
﴿ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۖ ﴾	١٤١	١٩١
﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾	١٤٣	٤٣٦، ٤٤٢، ٤٤٥، ٥٤٤
﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي ﴾	١٤٤	٤٤٢، ٥٤٤
﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾	١٤٦	٦٦٥
﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ ﴾	١٤٨	١٩١، ١٩٢، ١٩٣
﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ ﴾	١٥٧	٥٠٥
﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ﴾	١٥٧	٥٣٢
﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾	١٥٨	٥٣٧
﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ ﴾	١٦٢	٢٩
﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ ﴾	١٧٢	٥٧
﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا ﴾	١٧٩	٣٢٦
﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ ﴾	١٨٠	٣٣٧، ٣٤١، ٣٣٩ ، ٣٤٣
﴿ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴾	١٨٣	٤٥٥، ٤٥٦

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ ﴾	٧٢	٤١٠، ٦٢٢، ٦٢٢، ٦٢٧
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾	٧٣	٧٧٩
﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ ﴾	٧٩	٤٥٨، ٤٦٠
﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾	١٠٠	٣٧٠، ٧٢٤، ٧٢٨
﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ﴾	١٠١	٧٧٩
﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾	١٠٥	٤٢٣
﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾	١٠٨	٣٧٠
﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾	١١٣	١٠٧
﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ﴾	١٢٤	٧٤٥، ٧٤٦
﴿ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾	١٢٩	٣٧٩، ٤٣٠
سورة يونس		
﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾	٢	٢٣٨، ٢٧٨
﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ ﴾	٣	٢٧٠، ٢٧١، ، ٢٧٢، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٢
﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾	١٨	٩٨، ١٣٤، **خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.**، ٢٥٦، ٢٦٣، ٦٧٧
﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾	١٩	٦١

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ ﴾	١١٦	١٨، ٣٧، **خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.**، ٧٥٦
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾	١٢٨	٣٩٣
سورة الإسراء		
﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾	٥	٦٧٨
﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾	٩	٢١، ٤٩٩
﴿ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾	١٠	٥٥١
﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾	١٣	٣١٨، ٦١٠
﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾	١٤	٦١١
﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾	١٧-٢٠	٦٦٧
﴿ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾	٢١	٦٢٣
﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾	٢٢	٧٦
﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾	٢٣	٦٧٧
﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾	٢٩	٤٠٢
﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾	٣١	١٨٦
﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ ﴾	٣٦	٣٩، ٧٥٦، ٣٤٢
﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾	٣٨	٦٥٧
﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾	٤٢	٢٧٢
﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾	٤٦	١٤٩
﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾	٤٧	٢٨٩

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾	٥١	٥٧٠
﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾	٥٥	٥٤٥، ٥٤٧، ٥٤٨
﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ ﴾	٥٦	١١٧
﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾	٥٧	١٤٠، ٢٦٩، ٢٧٣
﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾	٥٨	٦٥٦
﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾	٦٧	١٤٤، ٢٣٦
﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ ﴾	٧١	٧٢٥
﴿ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾	٧٩	٢٧٣
﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾	٨٥	٥٧٦، ٥٧٦، ٥٧٧
﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ ﴾	٨٦	٥٠٩
﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾	٨٩	٥١٧
﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ ﴾	٩٩	٥٧٣
﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ ﴾	١٠٠	٣٩٦
﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾	١١١	٣٣٥، ٣٥٦
﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾	٨١	٢١٢، ٢١٣
سورة الكهف		
﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾	٤	١٠٢
﴿ مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ﴾	٥	١٠٢، ١٠٢
﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾	٧	٦٦٧
﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾	١٤	١٤٤، ١٤٤

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾	٣٩	٤٢٠، ٤٢٢، ٤٢٣، ، ٤٢٤، ٤٢٤
﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾	٤٦	٣٩٣، ٤٢١
﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾	٥٠	١٩٦، ٦٥٧
﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾	٦٦	٢٧٩، ٢٩٢، ٢٩١، ٢٩٢،
﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾	٦٩	٢٨٥
﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾	٧٠	٢٩٣
﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾	٧٥	٧٢٦
﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾	٨٢	٦٧٠
﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾	٨٥	١٠٣
﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾	٨٦	١٠٣
﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾	١٠٩	٢٧٠، ٢٧٥
﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾	١١٠	٢٧٦
﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾	١٢٢	٥٤٢
﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾	١٢٤	٥٦٢
﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾	١٢٧	٥٦٢
سورة الأنبياء		
﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾	١٩-٢٠	٤٨٥، ٤٩٠، ٤٩١، ٤٦٥، ٤٧٤

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ ﴾	١٩-٢٠	٦٣٣، ٦٣٤
﴿ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ﴾	٢١	٦٣٤
﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾	٢٢	٦٣٤
﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ ﴾	٥٢	٥٢٠، ٥٢١
﴿ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾	٧٠	٦٦٠
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓ ﴾	٧٣	١٠٧، ١٢٤، ١٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧
﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ ﴾	٧٤	٢٢٧، ٢٢٨
﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ ﴾	٧٥	٤٧٦، ٦٧٩
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ ﴾	٧٧	٧٥١
﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ ﴾	٧٨	٢١٣
﴿ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ ﴾	١٠	٤٠٤
سورة المؤمنون		
﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴾	١٠	٦٢٠
﴿ فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ﴾	٢٨	٣٨٣
﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾	٣٣-٣٤	٥٢٦
﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾	٥٣	٧٦٥
﴿ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾	٥٤-٥٦	٤٥٦
﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ ﴾	٨٨	٢١٦
﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ ﴾	٩١	٢٢٨، ٢٣١
﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ﴾	٩٨	٣٢٧
﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾	١٠١	٥٦٧

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾	١٠٢- ١٠٣	٦٠٩
﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾	١١٦	٤٣١
﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾	١١٧	٢٠
﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾	٩١	٢٢٨
سورة النور		
﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾	٤٥	٧٢
﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾	٦٣	٢٢
﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾	٦٤	٤٢١
سورة الفرقان		
﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾	١	٥٢٨
﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾	٢	٦٤٣، ٦٤٦، ٦٤٧، ٦٥٨
﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾	٥	٥٠٦
﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾	٧	٥٣٣، ٥٣٤
﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾	٨	٥٣٤
﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾	١٧	١٤٨
﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾	١٨	١٤٨
﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ﴾	١٩	١٤٨، ١٤٨
﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾	٣٣	٤١٣، ٥٧٤
﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾	٤٣	٦٦٧
﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾	٥٨-٥٩	٣١٤، ٤٤٧، ٣٨٢

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾	٥٩	٣١٥، ٣١٥
سورة الشعراء		
﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴾	٧٥-٧٧	٦٧٧
﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾	١٩٢-١٩٥	٤١٣، ٤٦٧، ٥٠٤، ٥٠٦
﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾	٢١٤	٥٢٩
سورة النمل		
﴿ طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾	١-٣	٥٥١
﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ﴾	١٨	٥٨
﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾	٢٣	٤٠٠
﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾	٢٤	٢٢٩
﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾	٢٥	٢٢٩
﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾	٢٦	٢٣٠
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾	٣٨	٤٧٧
﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾	٣٩-٤٠	٤٧٧
﴿ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾	٤٧	٣١٨
﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾	٥٠-٥١	٤٦٠
﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾	٥٩	٢٣٠
﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾	٦٠	٢٣١
﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا ﴾	٦١	٢٣٢
﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾	٦٢	١٢١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٣٤١

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾	٤٨	٥٠٥
﴿ بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾	٤٩	٥٠٦
﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾	٦٣	٢٣١
﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾	٦٥	٢٣٦، ٢٦٤
﴿ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ﴾	٦٦	٢٣٦، ٢٣٦
﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾	٦٩	٦٨٣
سورة الروم		
﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾	١١	٦٥٧
﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ﴾	٢٥	٦٥٠
﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾	٢٧	٣٥٦، ٥٧١، ٥٧٣
﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾	٣٠-٣٢	٥٦، ٥٧، ٥٩، ٦٢، ١٥٨، ٧٦٣
﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾	٣٢	٤١،٧٦٠، ٧٦٥، ٣٣٤
﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾	٣٩	٤١٩
﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾	٥٥	٥٨٠
سورة لقمان		
﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾	١٣	١٠٦، ١٨٢، ٧٦١
﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ ﴾	٢٢	١٧٧
﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾	٢٥	١٤١، ١٤٥

الآية	رقم الآية	الصفحة
سورة الصافات		
﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾	١	٤٨٧
﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾	٤	**خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.**
﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ﴾	٨٩	٢٢٠
﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾	٩١	٢٢١
﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ﴾	٩٢	٢٢١
﴿فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ﴾	٩٣	٢٢١
﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾	٩٦	٨٣، ٢٠٧
﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾	٩٦	٦٦١
﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾	١٥١-١٥٢	١٥٢
﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ١٥٣ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾	١٥٣-١٥٤	٢١٠
﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ١٦٤ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾	١٦٤-١٦٦	٤٨٧، ٤٨٨، ٤٩٠
سورة ص		
﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾	٥	٢٠٨، ٢٣٧، ٢٣٨
﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡ﴾	٦	٢٣٨، ٢٣٩
﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾	٧	٢٣٩
﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾	٨	٢٣٨
﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾	٢٦	٦٦٧

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾	٣٠	٢٠١
﴿ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ ﴾	٤٨	٦٦٨
﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ ﴾	٥١	٤٣٧، ٤٤٣، ٥٠٢
سورة الزخرف		
﴿ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ ﴾	١٣	٣٨٣
﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ﴾	١٥	٩١
﴿ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ ﴾	١٩	٤٠، ٢٠٩
﴿ وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ ﴾	٢٠	٢٦٦، ٦٨٩
﴿ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴾	٢٣	٢٠٨، ٢١٣
﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢٨ ﴾	٢٨	١٦٨
﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ٣٦ ﴾	٣٦	٢٤٢
﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ ﴾	٤٤	٥٣١
﴿ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴾	٤٥	٢١٧، ٢٤٢، ٦٨٤
﴿ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ﴾	٥٣	٥٣٤
﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾	٥٥	٤٥٠
﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴾	٥٧	٢٤٣
﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ ﴾	٥٨	٢٤٤
﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾	٥٩	٢٤٤
﴿ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ ﴾	٧١	٦٢٤
﴿ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ﴾	٨١	٢٤٤
﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾	٨٢	٢٤٥

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾	٨٣	٢٤٥
﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾	٨٤	٢٤٥
﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾	٨٥	٢٤٦
﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ ﴾	٨٦	٢٤٦
﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾	٨٧	٢٣١، ٢٤٦
سورة الدخان		
﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا ﴾	٢٣	٣١٠
﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾	٥٦	٦٢٥
سورة الجاثية		
﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾	١٢	٦٦
﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾	٢٤	٣٢٥، ٣٢٦
﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾	٢٩	٦١١
سورة الأحقاف		
﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥ ﴾	٥	٢٧٥
﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾	٩	١٥٠
﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾	٣٣	٥٧٣
سورة محمد		
﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾	١٥	٦٢٥، ٦٢٦
﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾	١٨	٥٨٦
﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾	٢٧	٤٧٣
﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ ﴾	٢٨	٤٥٣
﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾	٣١	٤٢٨، ٤٢٩

الآية	رقم الآية	الصفحة
سورة الفتح		
﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾	٤	٧٤٤
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾	١٠	٣٩٨، ٣٩٩، ٤٥٦
﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾	١٨	٣٧١، ٧٣٠
﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾	٢٩	٥٣٦، ٧٢٨، ٧٣٢
سورة الحجرات		
﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾	٧	٧٤٧
﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾	١٣	٥٤٧
﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾	١٤	٧٤٣، ٧٤٨، ٧٥٠، ٧٥٤
﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾	١٤	٧٤٩
﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾	١٥	٧٤٩
سورة ق		
﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾	١١	٥٧١
﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾	١٥	٥٧١
﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾	١٦	٢٥٤
﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ ﴾	٢٥	٤٠٤
﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾	٣٠	٦٣٣
﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾	٣٥	٤٤١
﴿ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾	٤٥	٦٦٨

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾	٣٠	٦٦٣
﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ ﴾	٣١	٦٦٣
سورة النبأ		
﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾	٣٧	٢٧٦
﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾	٣٨	٢٧٥، ٢٧٦
سورة النازعات		
﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا (٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴾	٤٢-٤٤	٥٨١
سورة عبس		
﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴾	١٣-١٦	٤٩٠
﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾	١٧	١٢٢
﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴾	٢٣	٦٨
سورة التكوير		
﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴾	١-٢	٥٣٨
﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾	١٠	٤٧١، ٦٠٥، ٦١٤
﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾	٢٨-٢٩	٤٧١، ٦٠٥، ٦١١، ٦٥٨، ٦٦١، ٦٦٤، ٦٧٣، ٦٨٧، ٦٩٩،
سورة الانفطار		
﴿ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾	١٩	٢٦٠
سورة المطففين		
﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾	١٥	٤٣٥، ٤٤٠

الآية	رقم الآية	الصفحة
سورة الشمس		
﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴾	١-٢	**خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.**، ٥٣١
﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾	١٠	٢٦١
سورة الليل		
﴿ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴾	٤-١٠	٧٠٢ ، ٦٨٢، ٦٩٠
سورة الضُّحى		
﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴾	٧	**خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.**
سورة التين		
﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾	٨	٦٨١
سورة العلق		
﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴾	١-٥	٤٧٠، ٥٠٨
﴿ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾	١٤	٤٢٣
سورة القدر		
﴿ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ﴾	٤	٤٦٧
سورة البينة		
﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴾	٤-٥	٧٦٣، ٧٦٥
سورة الزلزلة		
﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ﴾	٥	٥٠١

٢- فهرس الأحاديث النبوية.

٣- فهرس الآثار.

الأثر	قائل الأثر	الصفحة
سحر رسول الله ﷺ حتى أنه ليخيَّلُ إليه أنه فعل	عائشة	٢٨٧
عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته	مجاهد	٣٦٦
على أن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشر، وإذا	ابن مسعود	٦١٠
فمنهم راكع لا يقيم صلبه، وساجد لا يرفع رأسه		٤٨٧
كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمدا ﷺ لا يخط ولا	مجاهد	٥٠٥
كل ما وصف الله تعالى به نفسه في كتابه، فتفسيره	سفيان بن عيينة	٣٩٨
كل مال أعطيته عبدا من عبادي قلَّ أو كثر، لا يتقيني	ابن عباس	٥٦٢
لقد أَمِر أَمْرُ ابن أبي كبشة	أبو سفيان	٢٥٠
لم أخرجتنا ونفسك من الجنة؟	موسى	٦٣١
لم يلد كما ولدت مريم، ولم يولد كما ولد عيسى وعزير	ابن عباس	١٥٢
الله هو الخالق الرازق، لا هذه الأوثان التي تعبد من دون	قتادة	٢٠٦
لولا يدٌ لك عندي لم أَجزِك بها لأجبتك	عروة بن مسعود	٤٠٢
لِيَحْذَرْ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقُولَ: أَحَلَّ اللهُ كَذَا، وَحَرَّمَ اللهُ كَذَا،		٣٨
ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة	ابن عباس	٥٨٢
ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء	ابن عباس	٦٢٧
ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسامي	ابن عباس	٦١٦
من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله		٧٠١
النار سبع دركات وهى جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير	ابن جريج	٦٣٥
الناس على ثلاث منازل: المهاجرين، والذين تبوؤوا الدار	ابن أبي ليلى	٧٢٤
نفر من قدر الله إلى قدر الله	عمر	٧٠٣
هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولادا فهوَّدوا ونصَّروا	الحسن البصري	١٢١
هم سيارة ليس لهم أصل هم من يأجوج	علي	٥٩٦
وأوصي الخليفة بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم	عمر	٧٢٢
يأجوج ومأجوج ثلاث أمم: منسك وتاويل وتاريس	الزهري	٥٩٧

الصفحة	قائل الأثر	الأثر
٥٩٦	أبو قتادة	يأجوج ومأجوج ثنتان وعشرون قبيلة بنى ذو القرنين السد

٤- فهرس الفرق و الطوائف.

٥- فهرس الأعلام.

٦- فهرس المصادر والمراجع.

- الإبانة الكبرى لابن بطة العكبري، تحقيق: رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل، والوليد بن سيف النصر، وحمد التويجري، دار الراية للنشر والتوزيع، ط١-٢، ١٤١٥-١٤١٨-١٤٢٦.
- إثبات صفة العلو لموفق الدين ابن قدامة المقدسي، تحقيق: أحمد بن عطية بن علي الغامدي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط١، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.
- إثبات عذاب القبر وسؤال الملكين لأبي بكر البيهقي، تحقيق: د. شرف محمود القضاة، دار الفرقان-عمان الأردن، ط٢، ١٤٠٥هـ.
- الاحتجاج بالقدر لتقي الدين بن تيمية، تحقيق: ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي-بيروت، ط٤، ١٤٠٤هـ.
- أحكام الجنائز لناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط٤، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- أحكام العيدين لأبي بكر الفِرْيابِي، تحقيق: مساعد سليمان راشد، مكتبة العلوم والحكم-المدينة المنورة، ط١، ١٤٠٦هـ.
- الإحكام في أصول الأحكام لأبي محمد بن حزم الأندلسي، تحقيق: الشيخ أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- أخبار الزمان ومن أباده الحدثان، وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران لعلى بن الحسين المسعودي، دار الأندلس-بيروت، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
- أخبار مكة وما جاء فيها من الأثار لأبي الوليد الأزرقي، تحقيق: رشدي الصالح ملحس، دار الأندلس للنشر-بيروت.
- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار للأزرقي، تحقيق رشدي الصالح ملحس، دار الأندلس، بيروت.
- الآداب الشرعية، لعبد الله محمد بن مفلح المقدسي، طبعة بمرور ١٠٠ عام على تأسيس المملكة، تحقيق: شعيب الأرناؤوط.
- الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٣، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.
- الإرشاد في قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد لعبد الملك الجويني، تحقيق: أسعد تميم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط٢، ١٤١٣هـ.
- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي-بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- أساس البلاغة لجار الله الزمخشري، محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- أسباب نزول القرآن لأبي الحسن الواحدي، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح-الدمام، ط٢، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

- الاستقامة لتقي الدين أبي العباس بن تيمية، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود-المدينة المنورة، ، ١٤٠٣هـ.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر، تحقيق: عادل مرشد، ط١، دار الإعلام، الأردن، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
- الإسلام والطب الحديث، للدكتور عبد العزيز إسماعيل، مطبعة الاعتماد، ١٣٥٧هـ-١٩٣٨م.
- الأسماء والصفات للبيهقي، تحقيق: عبد الله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادي، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
- إشارات المرام، لكمال الدين أحمد البياضي، مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده، ط١، ١٣٦٨هـ-١٩٤٩م.
- اشتقاق أسماء الله لأبي القاسم الزجاجي، تحقيق: عبد الحسين المبارك، مؤسسة الرسالة -بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- الاشتقاق لأبي بكر بن دريد الأزدي، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت-لبنان، ط١، ١٤١١هـ-١٩٩١م.
- الإصابة في تمييز الصحابة، الكبير، لابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، تحقيق: عادل عبد الموجود، ط٢، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
- الأصنام لابن الكلبي، تحقيق: أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية القاهرة، ط٤، ٢٠٠٠م.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الجكني الشنقيطي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
- الاعتصام للشاطبي، تحقيق: سليم الهلالي، دار ابن عفان، السعودية، ط١، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.
- اعتقادات فرق المسلمين والمشركين لفخر الدين الرازي، تحقيق: علي سامي النشار، دار الكتب العلمية-بيروت.
- أعلام النبوة لأبي الحسن الماوردي، دار ومكتبة الهلال، ط١، ١٤٠٩هـ.
- الأعلام للزركلي، خير الدين بن محمود الزركلي، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م.
- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف.
- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض.
- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت، ط٧، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م
- الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية لآمال بنت عبد العزيز العمرو.
- الأمالي لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني.
- الأمالي، لعبد الملك بن محمد بن عبد الله بن بشران، تحقيق: عادل العزازي، دار الوطن، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.
- الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به لمحمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٤١٣هـ.
- الإيمان لابن منده، تحقيق: د. علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ.
- البحر المحيط لأبي حيان، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.

- البداية والنهاية لابن كثير، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٩٨م.
- البدر المنير في تخريج الأحاديث والأثار الواقعة في الشرح الكبير، لسراج الدين ابن الملقن، تحقيق: مصطفى أبو الغيط وعبد الله بن سليمان وياسر بن كمال، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض-السعودية، ط١، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس لأبي جعفر الضبي، دار الكاتب العربي-القاهرة، ١٩٦٧م.
- بيان الوهم والإيهام في كتاب الأحكام، لأبي الحسن بن القطان الفاسي علي بن محمد بن عبد الملك، دار طيبة، تحقيق د. الحسين آيت سعيد، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.
- بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية لأبي العباس ابن تيمية، تحقيق: مجموعة من المحققين، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط١، ١٤٢٦هـ.
- البيان والتبيين لعمرو بن بحر الجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.
- تاريخ ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر) لابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والإعلام، لأبي عبد الله شمس الدين الذهبي، تحقيق: د. عمر تدمري، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
- تاريخ الرسل والملوك، لمحمد بن جرير الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعارف، مصر.
- التاريخ الكبير لمحمد بن إسماعيل البخاري، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد-الدكن، طبع تحت مراقبة: محمد عبد المعيد خان.
- تاريخ بغداد، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، تحقيق: د.بشار عواد معروف، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
- تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها لأحمد مصطفى المراغي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط١، ١٣٦٩هـ.
- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة الدينوري، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.
- التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين لأي المظفر طاهر بن محمد الأسفراييني، تحقيق: كمال يوسف الحوت، عالم الكتب-لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- التبيان في أقسام القرآن لابن القيم، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
- تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد لناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي-بيروت، ط٤.
- تحفة الأحوذي، لأبي العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، تحقيق: علي محمد معوض، دار إحياء التراث العربي.
- التحفة السنية شرح منظومة ابن أبي داود المسماة بالحائية، عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، مطابع أضواء المنتدى.
- تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، لجمال الدين الزيلعي، تحقيق: عبد الله بن عبد الرحمن السعد، دار ابن خزيمة، ط١، ١٤١٤هـ.
- التذكرة في الأحاديث المشتهرة لبدر الدين الزركشي، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية-

بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

- ترتيب الأمالي الخميسية، يحيى بن الحسين الشجري، رتبها: القاضي محيي الدين محمد بن أحمد القرشي العبشمي، تحقيق: ٦١٠هـ، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
- التعريفات لعلي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي، تحقيق: عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، ط١، ١٤٠٦هـ.
- تعظيم قدر الصلاة، لأبي عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المروزي، تحقيق: د. عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، مكتبة الدار، ط١، ١٤٠٦هـ.
- تفسير ابن جرير (جامع البيان في تأويل القرآن) لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
- تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، دار إحياء التراث العربي-بيروت.
- تفسير البغوي، تحقيق: عبد الرزاق مهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.
- تفسير الحجرات-الحديد لابن عثيمين، دار الثريا- الرياض، ط١، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤.
- تفسير الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.
- تفسير السعدي، تحقيق: عبد الرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
- تفسير الفاتحة والبقرة لابن عثيمين، دار ابن الجوزي، السعودية، ط١، ١٤٢٣هـ.
- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، لمحمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.
- تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز-السعودية، ط٣، ١٤١٩هـ.
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير، تحقيق: سامي محمد سلامة، دار طيبة، ط٢، ١٤٢٠هـ-١٩٩٠م.
- تفسير القرآن لأبي بكر بن المنذر النيسابوري، تحقيق: سعد بن محمد السعد، دار المآثر-المدينة النبوية، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
- تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة) لأبي منصور الماتريدي، تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية-بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
- تفسير المراغي لأحمد مصطفى المراغي طبعة دار الكتب العلمية ط الثانية ٢٠٠٦ م، بيروت،.
- التفسير الوسيط لأبي الحسن الواحدي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وجماعة، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م .
- تفسير جزء عم لابن عثيمين، تحقيق فهد بن ناصر السليمان، دار الثريا، الرياض، ط٢، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
- تفسير عبد الرزاق لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: د. محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية-بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.
- التفسير من سنن سعيد بن منصور، لسعيد بن منصور، تحقيق: د سعد بن عبد الله بن عبد العزيز آل حميد، دار

الصميعي، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

- تقريب التدمرية، لمحمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي السعودسة، ط١، ١٤١٩هـ.
- تقريب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: ابو الأشبال صغير أحمد شاغف الباكستاني، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.
- التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، أحمد بن علي حجر العسقلاني، تحقيق: أبو عاصم حسن بن عباس بن قطب، مؤسسة قرطبة –مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
- التمهيد لابن عبد البر، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية – المغرب، ١٣٨٧هـ.
- تهذيب الأسماء واللغات، لمحيي الدين النووي، تحقيق: شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتب العلمية.
- تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، ط١، ١٣٢٦هـ.
- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، لأبي الحجاج جمال الدين يوسف المزي، تحقيق: د بشار عواد، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- تهذيب اللغة للأزهري، الدار المصرية، القاهرة، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م.
- التوحيد للماتريدي، تحقيق: د. فتح الله خليف، دار الجامعات المصرية-الإسكندرية.
- التوسل أنواعه وأحكامه لناصر الدين الألباني، تحقيق: محمد عيد العباسي، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.
- تيسير العزيز الحميد لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، تحقيق: زهير شاويش، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
- تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالسعودية، ط١، ١٤٢٢هـ.
- التيسير بشرح الجامع الصغير، للعلامة المناوي محمد عبد الرؤوف المناوي، المكتب الاسلامي، مصور عن مطبعة بولاق سنة ١٢٨٦هـ.
- الثقات، لأبي حاتم محمد بن حبان التميمي البستي، دائرة المعارف العثمانية، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.
- جامع الرسائل لابن تيمية، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، دار العطاء-الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، لابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط-إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط٧، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤هـ.
- الجرح والتعديل، لأبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، دار الكتب العلمية، مصورة عن دائرة المعارف، ١٣٧١هـ-١٩٥٢م.
- جمهرة أشعار العرب لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، تحقيق: علي محمد البجادي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لتقي الدين أبي العباس ابن تيمية، تحقيق: علي بن حسن – عبد العزيز

بن إبراهيم – حمدان بن محمد، دار العاصمة، ط٢، ١٤١٩هـ–١٩٩٩م.

- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء لابن قيم الجوزية، دار المعرفة–المغرب، ط١، ١٤١٨هـ–١٩٩٧م.
- الجواهر المضية في طبقات الحنفية لعبد القادر القرشي، مير محمد كتب خانه–كراتشي.
- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لأبي بكر ابن قيم الجوزية، مطبعة المدني–القاهرة.
- الحث على التجارة والصناعة والعمل والإنكار على من يدعي التوكل في ترك العمل والحجة عليهم في ذلك، لأبي بكر الخَلَّال، تحقيق: أبو عبد الله محمود بن محمد الحداد، دار العاصمة، الرياض، ط١، ١٤٠٧هـ.
- الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، لقوام السنة الأصبهاني، تحقيق: محمد بن ربيع بن هادي عمير المدخلي، دار الراية–الرياض، ط٢، ١٤١٩هـ–١٩٩٩م.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، السعادة–بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ–١٩٧٤م.
- الخطب والمواعظ لأبي عبيد، تحقيق: الدكتور رمضان عبد التواب، مكتبة الثقافة الدينية، ط١.
- خلق أفعال العباد لمحمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، دار المعارف–الرياض.
- الدر المنثور للسيوطي، دار الفكر–بيروت.
- در تعارض العقل والنقل، لأبي العباس ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود، ط٢، ١٤١١هـ–١٩٩١م.
- دراسات في التصوف لإحسان إلهي ظهير الباكستاني، دار الإمام المجدد للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٦هـ–٢٠٠٥م.
- الدرر السنية في الأجوبة النجدية، جمع عبد الرحمن بن القاسم، ط٦، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- الدعاء للطبراني، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية–بيروت، ط١، ١٤١٣هـ.
- الدعوات الكبير، لأبي بكر البيهقي، تحقيق: بدر بن عبد الله البدر، غراس للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٩ م.
- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، لأبي بكر البيهقي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٥هـ.
- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لإبراهيم بن علي بن فرحون اليعمري، تحقيق: محمد الأحمدي–أبو النور، دار التراث، القاهرة.
- الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصبهاني، تحقيق: أبو اليزيد أبو زيد العجمي، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٨هـ–٢٠٠٧م.
- ذم الكلام وأهله للهروي، تحقيق: عبد الرحمن عبد العزيز الشبل، مكتبة العلوم والحكم–المدينة المنورة، ط١، ١٤١٨هـ–١٩٩٨م.
- ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي، تحقيق: د عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، العبيكان–الرياض، ط١، ١٤٢٥هـ–٢٠٠٥م.
- الرد على الجهمية، لعثمان بن سعيد الدارمي، تحقيق: بدر بن عبد الله البدر، دار ابن الأثير–الكويت، ط٢، ١٤١٦هـ–١٩٩٥م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، تحقيق:

علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ.

- الروح لابن القيم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، ١٣٩٥—١٩٧٥.
- روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لشمس الدين بن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.
- زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق مهدي، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٢٢هـ.
- زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت-مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط٢٧، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.
- الزهد والرقائق لابن المبارك، أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك الحنظلي المرْوزي، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية-بيروت.
- الزهد، أبو السَّرِي هَنَّاد بن السَّرِي، تحقيق: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي- الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
- الزهد، لأبي داوود، لأبي داوود سليمان بن الأشعث السجستاني، دار المشكاة، تحقيق: ياسر بن إبراهيم بن محمد، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
- الزهد، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن حنبل الشيباني، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- الزواجر عن اقتراف الكبائر، لابن حجر الهيتمي، دار الفكر، ط١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- الزواجر عن اقتراف الكبائر، لابن حجر الهيتمي، دار الفكر، ط١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- سلاح المؤمن في الدعاء والذكر لبي الفتح ابن الإمام، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، دار ابن كثير-دمشق- بيروت، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.
- سلاح المؤمن في الدعاء والذكر، لمحمد بن علي بن همام أبو الفتح ابن الإمَام، تحقيق: محيي الدين ديب مستو، دار ابن كثير- دمشق-بيوت، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها لناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٤١٥-١٤٢٢/١٩٩٥-٢٠٠٢.
- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة لناصر الدين الألباني، دار المعارف، الرياض- السعودية، ط١، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.
- السنة، لأبي بكر الضحاك بن مخلد الشيباني، المكتب الاسلامي، تحقيق: ناصر الدين الألباني، ط٣، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.
- السنة، لأبي بكر بن أبي عاصم، تحقيق: ناصر الدين الألباني، المكتب الاسلامي، ط٣، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
- سنن ابن ماجه لابن ماجه القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية-فيصل عيسى البابي الحلبي.
- سنن أبي داود لأبي داود السجستاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد،: المكتبة العصرية، صيدا-بيروت.
- سنن الترمذي لأبي عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي-مصر، ط٢، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.

- سنن الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ-٢٠٠٠م.
- السنن الكبرى، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
- السنن الكبرى، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.
- سنن النسائي، لأبي عبد الرحمن النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية-حلب، ط٢، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- سنن سعيد بن منصور، أبو عثمان سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني الجوزجاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الدار السلفية، ط١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٢م.
- سير أعلام النبلاء، للذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- سيرة ابن إسحاق (كتاب السير والمغازي)، لمحمد بن إسحاق المدني، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر-بيروت، ط١، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي، تحقيق: محمود الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، ط١، ١٤٠٦ هـ-١٩٨٦م.
- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي، تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، دار طيبة-السعودية، ط٨، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م.
- شرح الأصول الخمسة، للقاضي عبد الجبّار بن أحمد الهمذاني، ط١، ١٣٨٤هـ، مكتبة وهبة بمصر.
- شرح السنة للبغوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط-محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي-دمشق، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- شرح الشفا للملا الهروي القاري، دار الكتب العلمية-بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.
- شرح العقيدة السفارينية، لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار الوطن للنشر-الرياض، ط١، ١٤٢٦هـ.
- شرح العقيدة الواسطية للعثيمين، تحقيق: سعد بن فواز الصميل، دار ابن الجوزي، السعودية، ط٦، ١٤٢١هـ.
- شرح القصيدة النونية لمحمد خليل هراس، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م.
- الشرح الممتع على زاد المستقنع، لمحمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٢٢هـ-١٤١٨هـ.
- شرح ديوان الحماسة للتبريزي، دار القلم — بيروت.
- شرح مشكل الآثار لأبي جعفر الطحاوي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.
- الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة لابن بطة العكبري، تحقيق: رضا بن نعسان معطي، دار التوفيق النموذجية، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤ .
- الشريعة للآجري، تحقيق: عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي، دار الوطن-الرياض، ط٢، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

- شعب الإيمان لأحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: د.عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.
- الشعر والشعراء لابن قتيبة، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ.
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، مع حاشية الشمني، للقاضي عياض، دار الفكر، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.
- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لأبي بكر بن قيم الجوزية، دار المعرفة، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.
- الصحاح للجوهري، دار للعلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م.
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان لابن حبان البستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.
- صحيح أبي داود الأم، محمد ناصر الدين الألباني، مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
- صحيح البخاري لمحمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١،، ١٤٢٢هـ.
- صحيح الترغيب والترهيب، محمد ناصر الدين الألباني، مكتَبة المَعارف، الرياض-السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.
- صحيح الجامع الصغير وزياداته، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي.
- صحيح السيرة النبوية لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية-عمان-الأردن، ط١.
- صحيح مسلم لمسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي-بيروت.
- صريح السنة لأبي جعفر الطبري، تحقيق: بدر يوسف المعتوق، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي-الكويت، ط١، ١٤٠٥هـ.
- صفة الجنة، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، تحقيق: علي رضا عبد الله، دار المأمون للتراث.
- الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، لابن قيم الجوزية، تحقيق، علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، ط١، ١٤٠٨هـ.
- الضعفاء الكبير، أبو جعفر محمد بن عمرو العقيلي، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، دار المكتبة العلمية-بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
- ضعيف الأدب المفرد للبخاري، تحقيق وتخريج: محمد ناصر الدين الألباني، دار الصديق للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
- ضعيف الجامع الصغير وزيادته، لناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي.
- طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي- د.عبد الفتاح الحلو، ط٢، دار إحياء الكتب العربية.
- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد الزهري(ابن سعد)، تحقيق: عبد العزيز عبد الله السَّلومي، مكتبة الصديق، الطائف، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.
- طبقات المفسرين العشرين لجلال الدين السيوطي، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة-القاهرة، ط١،

١٣٩٦هـ.

- طبقات المفسرين للداوودي، دار الكتب العلمية-بيروت.
- طريق الإسلام لمحمد بن إبراهيم الحمد، دار ابن خزيمة، ط٢.
- عالم السحر والشعوذة لعمر سليمان الأشقر، دار النفائس.
- العبر في خبر من غبر لشمس الدين الذهبي، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية.
- العبودية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة السادسة، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
- العجاب في بيان الأسباب لابن حجر العسقلاني، تحقيق: عبد الحكيم محمد الأنيس، دار ابن الجوزي.
- العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني، تحقيق: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري، دار العاصمة، ط١، ١٤٠٨هـ.
- عقيدة السلف أصحاب الحديث للصابوني، تحقيق: بدر البدر، الدار السلفية-الكويت، ط١، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
- العقيدة الواسطية، لأبي العباس ابن تيمية، تحقيق: أشرف بن عبد المقصود، أضواء السلف، الرياض، ط٢، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
- العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، لأبي الفرج بن الجوزي، تحقيق: إرشاد الحق الأثري، إدارة العلوم الأثرية، ط٢، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمها لشمس الدين الذهبي، تحقيق: أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، مكتبة أضواء السلف-الرياض، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العينى، دار إحياء التراث العربي-بيروت.
- عمل اليوم والليلة، أحمد بن محمد بن إسحاق ابن السُّنِّي، تحقيق: كوثر البرني، دار القبلة للثقافة الإسلامية ومؤسسة علوم القرآن.
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين النيسابوري، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية-بيروت، ط١، ١٤١٦هـ.
- غريب الحديث، لأبي عُبيد القاسم بن سلاّم، تحقيق: د. محمد عبد المعيد خان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ط١، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.
- غريب القرآن، لابن قتيبة الدينوري، تحقيق: أحمد صقر، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.
- غوامض الأسماء المبهمة الواقعة في متون الأحاديث المسندة لأبي القاسم بن بشكوال، تحقيق: د. عز الدين علي السيد ، محمد كمال الدين عز الدين، عالم الكتب-بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ.
- فتاوى مهمة لعموم الأمة للشيخ ابن باز وابن عثيمين، تحقيق: إبراهيم الفارس، دار العاصمة، ط١، ١٤١٣هـ.
- فتاوى نور على الدرب للعثيمين.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، دار المعرفة -بيروت، ١٣٧٩هـ.
- فتح البيان في مقاصد القرآن لأبي الطيب محمد صديق حسن خان القنوجي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

- الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي، لعبد الرؤوف المناوي، تحقيق: أحمد مجتبى، دار العاصمة– الرياض.
- فتح القدير للشوكاني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب– دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ.
- فتح المجيد لعبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب، تحقيق: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ط٧، ١٣٧٧هـ–١٩٥٧م.
- فتح رب البرية في تلخيص الحموية، للعثيمين، دار الوطن للنشر، الرياض.
- الفتوى الحموية الكبرى، لابن تيمية، تحقيق: د. حمد بن عبد المحسن التويجري، دار الصميعي–الرياض، ط٢، ١٤٢٥هـ–٢٠٠٤م.
- الفردوس بمأثور الخطاب، لأبي شجاع الديلميّ الهمذاني، تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٦هـ–١٩٨٦م.
- فرق معاصرة، غالب بن علي عواجي، المكتبة العصرية الذهبية، جدة، ط٤، ١٤٢٢هـ–٢٠٠١م.
- الفرقان بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: د.عبد الرحمن بن عبد الكريم اليحيى، دار الفضيلة.
- الفصل في الملل والأهواء والنحل لأبي محمد بن حزم الأندلسي، مكتبة الخانجي–القاهرة.
- فضائل الشام ودمشق لأبي الحسن علي بن محمد الربعي، تحقيق وتخريج: ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، ط١، ١٤٢٠هـ–٢٠٠٠م.
- فقه السيرة لمحمد الغزالي السقا، تخريج الأحاديث: محمد ناصر الدين الألباني دار القلم–دمشق، ط١، ١٤٢٧هـ.
- الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي، تحقيق: عادل بن يوسف الغرازي، دار ابن الجوزي–السعودية، ط٢، ١٤٢١هـ.
- الفوائد (الغيلانيات) لأب بكر بن عبدوَيْه البزَّاز، تحقيق: حلمي كامل أسعد عبد الهادي، دار ابن الجوزي– الرياض، ط١، ١٤١٧هـ–١٩٩٧م.
- الفوائد المستفادة من شرح ثلاثة الأصول.
- فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة لأبي حامد الغزالي، مكتبة الثقافة الدينية، ط١.
- قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة لابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: ربيع بن هادي عمير المدخلي، مكتبة الفرقان–عجمان، ط١٤٢٢هـ–٢٠٠١م.
- قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة لابن تيمية، تحقيق: ربيع بن هادي عمير المدخلي، مكتبة الفرقان–عجمان، ط١، ١٤٢٢هـ– ٢٠٠١م.
- القاموس المحيط للفيروزآبادي، دار إحياء التراث العربي–مؤسسة التاريخ العربي، ط١، ١٤١٧هـ–١٩٩٧م.
- القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه لعبد الرحمن المحمود، دار الوطن–الرياض.
- القول السديد في شرح كتاب التوحيد، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، طبعو وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ط٢، ١٤٢١هـ،.
- القول المفيد على كتاب التوحيد، لمحمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، ط٢، ١٤٢٤هـ،.

- الكامل في التاريخ لأبي الحسن ابن الأثير الجزري، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
- الكامل في ضعفاء الرجال، لعبدالله بن عدي، تحقيق: د. سهيل زكار، دار الفكر، ط٣، ١٤٠٣هـ-١٩٨٤م.
- كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل، أبو بكر بن خزيمة، تحقيق: عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان، مكتبة الرشد-الرياض، ط٥، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
- كتاب التوحيد وقرة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين لعبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب، تحقيق: محمد بشير عيون، مكتبة المؤيد-الطائف-مكتبة دار البيان-دمشق، ط١، ١٤١١هـ-١٩٩٠م.
- الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار لابن أبي شيبة، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد-الرياض، ط١، ١٤٠٩هـ.
- الكتاب، لسيبويه عمرو بن عثمان، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت.
- الكشاف لأبي القاسم الزمخشري، دار الكتاب العربي، ط٣، ١٤٠٧هـ.
- كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، لإسماعيل بن محمد العجلوني، مكتبة العلم الحديث، ط٣، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.
- الكنى والأسماء، لأبي بشر محمد بن أحمد بن حماد الدولابي، تحقيق: نظر الفاريابي، دار ابن حزم.
- لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.
- لسان الميزان، لأبي الفضل ابن حجر العسقلاني، مكتبة المطبوعات الاسلامية، تحقيق: سلمان عبد الفتاح أبو غدة، ط١، ١٤٢٣هـ-١٩٩٣م.
- لمعة الاعتقاد لموفق الدين بن قدامة المقدسي، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد-المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، للسفاريني، مؤسسة الخافقين ومكتبتها-دمشق، ط٢، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات للرازي، تحقيق: طه عبد الرؤوف، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤١٠هـ.
- الماتريدية وموقفهم من توحيد الأسماء والصفات، للشمس السلفي الأفغاني، مكتبة الصديق، الطائف، ط٢، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
- المجالسة وجواهر العلم، لأبي بكر الدينوري ، دار ابن حزم، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، ١٤١٩هـ.
- المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين، لأبي حاتم بن حبان التميمي البستي، دار المعرفة، تحقيق: محمود ابراهيم زايد، ١٤١٢هـ-١٩٩١م.
- مجلة المنار، مجموعة من المؤلفين، محمد رشيد بن علي رضا وغيره من كتاب المجلة.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي-القاهرة، ١٤١٤هـ-

١٩٩٤م.

- مجموع الفتاوى، لابن تيمية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.
- مجموع فتاوى العلامة عبد العزيز بن باز رحمه الله، شرف على جمعه وطبعه: محمد بن سعد الشويعر.
- مجموع فتاوى ومقالات العلامة ابن عثيمين، جمع وترتيب فهد السليمان، دار الوطن-دار الثريا، الطبعة الأخيرة، ١٤١٣هـ.
- المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ ابن سعدي، مركز صالح بن صالح الثقافي، عنيزة، ط٢، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.
- محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية-بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية-بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.
- محمد بن عبد الوهاب عقيدته السلفية ودعوته الإصلاحية وثناء العلماء عليه لأحمد بن حجر بن طامي آل بوطامي البنعلي، مطبعة الحكومة بمكة المكرمة، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.
- مختصر الصواعق المرسلة، لمحمد بن محمد الموصلي، تحقيق: سيد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
- مختصر العلو للعلي العظيم للذهبي، تحقيق واختصار: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤١٢هـ-١٩٩١م.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي-بيروت، ط٢، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.
- المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل المؤلف: عبد القادر بن بدران الدمشقي الناشر: مؤسسة الرسالة – ط، ١٤٠١ت عبد الله بن عبد المحسن التركي.
- المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله الحاكم، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية-بيروت، ط١، ١٤١١هـ-١٩٩٠م.
- مسند أبي داود الطيالسي، لأبي داود الطيالسي البصرى، تحقيق: الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي، دار هجر- مصر، ط١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.
- مسند أبي يعلى لأبي يعلى الموصلي، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث-دمشق، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
- مسند البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله(١-٩)، وعادل بن سعد(١٠-١٧)، وصبري عبد الخالق الشافعي(١٨)، مكتبة العلوم والحكم-المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م-٢٠٠٩م.
- مسند الروياني، لأبي بكر الروياني، مؤسسة قرطبة، تحقيق: أيمن أبو يماني، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.
- مسند الشهاب، لأبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م.

- المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم لأبي نعيم الأصبهاني، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.
- المسند لأحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط-عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.
- مشكاة المصابيح للتبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي-بيروت، ط٣، ١٩٨٥.
- المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، لأبي الفضل شهاب الدين بن حجر العسقلاني، تحقيق: قاسم القاسم، دار العاصمة، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
- معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول لحافظ بن أحمد بن علي الحكمي، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم-الدمام، ط١، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
- معالم السنن، لأبي سليمان الخطابي، المطبعة العلمية، ط١، ١٣٥١هـ-١٩٣٢م.
- معاني القرآن وإعرابه للزجاج، الناشر: عالم الكتب – بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- معجم اصطلاحات الصوفية لعبد الرزاق الكاشاني، تحقيق: د. عبد العال شاهين، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ.
- معجم الأدباء، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.
- المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله وعبدالمحسن الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
- معجم البلدان، لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي، دار صادر، ١٩٧٧.
- المعجم الصغير لسليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: محمد شكور الحاج أمرير، المكتب الإسلامي، بيروت-عمان، ط١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- المعجم الكبير لأبي القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية-القاهرة، ط٢.
- معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار عبد الحميد عمر، عالم الكتب، ط١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط٤، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
- معرفة أنواع علوم الحديث، ويُعرف بمقدمة ابن الصلاح، تحقيق: نور الدين عتر، دار الفكر-سوريا-بيروت، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- المُعْلم بفوائد مسلم للمازري، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، تونس، ط١، ١٩٩١م.
- المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار (مطبوع بهامش إحياء علوم الدين)، أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي، دار ابن حزم، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥ م.
- المغني لابن قدامة المقدسي، مكتبة القاهرة، ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م.
- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية-بيروت.
- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان بن عدنان الداوودي، دار القلم-الدار الشامية،

ط١، ١٤١٢هـ.

- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي، دار الساقي، ط٤، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة لشمس الدين السخاوي، تحقيق: محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي-بيروت، ط١، ، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- الملل والنحل، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق: أمير علي مهنا-علي حسن فاعور، دار المعرفة، لبنان، ط٣، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.
- المنار المنيف في الصحيح والضعيف لابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، ط١، ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م.
- مناقب الشافعي لأحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: أحمد صقر، دار التراث، ط١، ١٣٩١هـ.
- المنتخب من مسند عبد بن حميد، أبو محمد عبد الحميد الكَسّي، تحقيق: صبحي البدري السامرائي، محمود محمد خليل الصعيدي، مكتبة السنة-القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، لأبي العباس ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي-بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.
- الموافقات، لإبراهيم بن موسى الشاطبي، وتحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
- موسوعة العلامة الإمام مجدد العصر محمد ناصر الدين الألباني، لناصر الدين الألباني، جمع: شادي بن محمد بن سالم آل نعمان، مركز النعمان للبحوث والدراسات الإسلامية وتحقيق التراث والترجمة، صنعاء -اليمن، ط١، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.
- موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام، مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ عَلوي بن عبد القادر السقاف، موقع الدرر السنية على الإنترنت dorar.net.
- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني، دار الندوة العالمية، ط٤، ١٤٢٠هـ.
- ميزان الاعتدال، لشمس الدين الذهبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت.
- النبوات لابن تيمية، الناشر: أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
- نزهة الألباء في طبقات الأدباء لأبي البركات الأنباري، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء-الأردن، ط٣، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر لابن حجر العسقلاني، تحقيق: نور الدين عتر، مطبعة الصباح، دمشق، ط٣، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.
- نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عز وجل من التوحيد لعثمان بن سعيد الدارمي، تحقيق: رشيد بن حسن الألمعي، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

- النكت والعيون لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الدائم، دار الكتب العلمية.
- النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى-محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية-بيروت، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
- النور السافر عن أخبار القرن العاشر، لمحي الدين عبد القادر العَيْدَرُوس، دار الكتب العلمية-بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.
- الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي، مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي-جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، ط١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
- الوافي بالوفيات، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، دار إحياء التراث، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
- والفتح المبين في طبقات الأصوليين، عبد الله المراغي، محمد أمين، لبنان، ط٢، ١٣٩٤هـ.
- الورع لأحمد بن حنبل رواية: أبو بكر المروزي، تحقيق: سمير بن أمين الزهيري، دار الصميعي-الرياض، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٤م.
- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، تحقيق: محمد مفيد قمحية، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٧- فهرس الموضوعات.